

وحي القلب

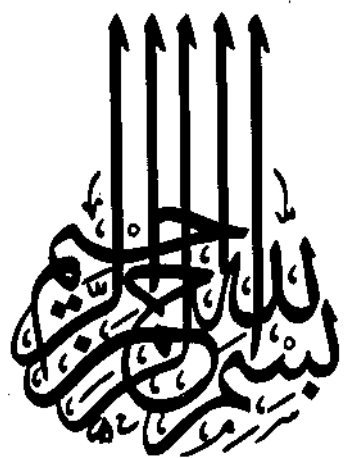
تأليف
مُصطفى صادق الرافعي

راجعته واعتنى به
د. درويش الجويدي

الجزء الثاني

المكتبة العصرية
بيروت - لبنان

وَحْيِ الْقَلَمِ



الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام

كما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع الضوء المسمى النهار، يولد النبي فيوجد في الإنسانية ينبوع النور المسمى بالدين. وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها.

والشمس خلقها الله حاملة طابعة الإلهي، في عمله للمادة تحول به وتغير، والنبي يرسله الله حاملاً مثل ذلك الطابع في عمله ترقى فيه وتسمو.

وزعشات الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في نور من الكلام.

والعامل الإلهي العظيم يعمل في نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين: أجرام النور من الشمس والكواكب، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء.

فليس النبي إنساناً من العظماء يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق، ومع المنطق الشك، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة، ولكنه إنسان نجمي يقرأ بمثل «التلسكوب» في الدقة، معه العلم، ومع العلم الإيمان، ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها.

والحياة تنشئ علم التاريخ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء - صلوات الله عليهم - تجعل التاريخ هو ينشئ علم الحياة، فإنما النبي إشراق إلهي على الإنسانية، يقومها في فلکها الأخلاقي، ويجذبها إلى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب.

ويجيء النبي فتجيء الحقيقة الإلهية معه في مثل بلاغة الفن البياني، لتكون أقوى أثراً، وأيسر فهماً، وأبدع تمثيلاً، وليس عليها خلاف من الجس. وهذا هو الأسلوب الذي يجعل إنساناً واحداً فن الناس جميعاً، كما تكون البلاغة فن لغة بأكملها، هو الشخص المفسر إذا تعسف^(١) الناس الحياة لا يدرون أين يؤمنون

(١) تعسف: اشتط، جاوز الحد المعقول.

منها، ولا كيف يتهدّون فيها، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا، ثم يُخلَقُ رجلٌ واحدٌ ليكونَ هو التفسيرُ لِمَا مضى وما يأتي، فتظهرُ به حقائقُ الآدابِ العاليةِ في قالبٍ مِنَ الإنسانِ العاملِ المرثي، أبلغُ ممّا تظهرُ في قصةٍ متكلمةٍ مروية.

وما الشهادةُ لِلنبوةِ إِلَّا أن تكونَ نفسُ النبي أبلغَ نفوسِ قومه، حتى لَهوَ في طابعهِ وشمائلهِ طبيعةٌ قائمةٌ وحدّها، كأنّها الوضعُ النفسانيّ الدقيقُ الذي يُنصبُ لِتصحيحِ الوضعِ المغلوَطِ للبشريةِ في عالمِ المادّةِ وتنازعِ البقاء^(١). وكأنّ الحقيقةَ الساميةَ في هذا النبي تُنادي الناس: أن قابِلُوا على هذا الأصلِ وصَحُّحُوا ما اعتري أنفسكم من غلَطِ الحياةِ وتحريفِ الإنسانية.

ومن ثمّ فنبيُّ البشرية كلّها مَنْ بُعثَ بالدينِ أعمالاً مفصّلةً على النفسِ أدقّ تفصيلٍ وأوفاهُ بمصلحتِها، فهو يُعطي الحياةَ في كلّ عصرٍ عقلها العمليّ الثابت المستقرّ تُنظّمُ به أحوالَ النفسِ على مِيزةٍ وبصيرةٍ، ويدعُ لِلحياةِ عقلها العلميّ المتجددَ المتغيّرَ تُنظّمُ به أحوالَ الطبيعةِ على قضيٍّ وهُدًى، وهذه هي حقيقةُ الإسلامِ في أخصّ معانيه، لا يُغني عنه في ذلك دينٌ آخر، ولا يؤدّي تأديتهُ في هذه الحاجةِ أدبٌ ولا علمٌ ولا فلسفة، كأنّما هو بُعِثَ في الأرضِ لِمعاني النور، بإزاءِ الشمسِ نبعِ النورِ في السماء.

وكلُّ ذلك تراه في نفسِ محمدٍ ﷺ، فهي في مجموعها أبلغُ الأنفسِ قاطبةً، لا يُمكنُ أن تعرفَ الأرضُ أكملَ منها، ولو اجتمعتْ فضائلُ الحكماءِ والفلاسفةِ والمتألّهينَ وجُعِلَتْ في نِصابِ واحدٍ - ما بلغتْ أن يجيءَ منها مثلُ نفسه ﷺ. ولَكأنّما خرّجتْ هذه النفسُ من صيغةٍ كصيغةِ الدُرّةِ في عِرْقِهِ. وهي النفسُ الاجتماعيةُ الكبرى، من أين تدبّرَتْها رأيَتْها على الإنسانيةِ كالشمسِ في الأفقِ الأعلى تنبسطُ وتضحي.

وتلك هي الشهادةُ لَهُ ﷺ بأنّه خاتمُ الأنبياء، وأنّ دينَهُ هو دينُ الإنسانيةِ الأخير، فهذا الدينُ في مجموعِهِ إن هو إِلَّا صورةُ تلك النفسِ العظيمةِ في مجموعها: صلابتهُ بمقدارِ الحقِّ الإنسانيّ الثابت، لا بمقدارِ الإنسانِ المتغيّرِ الذي

(١) تنازع البقاء: صراع البقاء.

يَكُونُ عِنْدَ سَبَبِ جَبَلًا صُلْدًا^(١) يَشْمَخُ^(٢)، وَعِنْدَ سَبَبِ آخَرَ مَاءً عَذْبًا يَجْرِي.

وهو دينٌ يعلو بالقوة ويدعو إليها، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم، ويستفرغ همه في ذلك، لا لإعزاز الأتقى وإذلال الأضعف، ولكن لارتفاع بالأضعف إلى الأقوى، وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة، أن هذه إنما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها، وتلك تعمل للتفريق، وهو يعمل للمساواة، وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية.

ومن هنا كان طبيعيًا في الإسلام ما جاء به من أنه لا فضيلة إلا وهو يطع عليها صورة الجنة بنعيمها الخالد، ولا رذيلة إلا وهو يضغ عليها صورة النار الأبدية وقودها الناس والحجارة، فلا تنظر العين المسلمة إلى أسباب الحياة نظرة الفكر المتنازع: يحرص على ما يكون له ويشره^(٣) إلى ما ليس له، ويمكر الحيلة، ويبدع وسائل الخداع، ويزيد بكل ذلك في تعقيد الدنيا - بل نظرة القلب المسلم: يخلع الدنيا ويسخو بكل مضمون فيها، فيعف عن كثير، ويعرف الإنسانية ويطمع في غاياتها العليا، فيعفو عن كثير، ويدرك أن الحلال وإن حل فوراءه حسابه، وأن الحرام وإن غر ليس إلا تعلل^(٤) ساعة ذاهبة ثم من ورائه عقاب الأبد.

ويخرج من ذلك أن يكون أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله - تعالى - قانون وجود الإنسان على الأرض، فمن أي عطفه^(٥) التفقت هذا الإنسان وجد على يمينه ويساره ملكين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها، فهو كالمتهم المستراب^(٦) به في سياسة النفس: لا يمشي خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان^(٧) عليه حتى أسباب الآثية، ويجمعان منه حتى نزوات الكبد، ويترجمان عنه حتى معاني النظر.

وإذا قامت هذه المحكمة الملائكية وتقررت في اعتبار النفس، قام منها على النفس شرع نافذ هو قانون الإرادة المميزة، وتريد الحسنات وتعمل لها، وتخشى

(١) صلدًا: قاسيًا.

(٢) يشمخ: يتسامى.

(٥) عطفه: جنبيه.

(٦) المستراب: الشاك.

(٧) يحصيان: يعدان.

(٣) يشره: يسعى للحصول على ما ليس له بطمع.

(٤) تعلل: تمنى النفس.

السيئات وتنفّر منها، فإذا معاني الجسد يحكم بعضها بعضاً، لا لتحقيق الحكومة والسلطة، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة، وإذا نوايس الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان، قد نهضت إلى جانبها نوايس الإرادة الحكيمة في الإنسان، وإذا كل صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادة تهمّة عند قاضها في محكمتها، وإذا كل ما في الإنسان وما حول الإنسان، لا يراود منه إلا سلام النفس في عاقبتها؛ وإذا معنى السلام هو المعنى الغالب المتصرف بالإنسانية في دنياها.

وكل أعمال الإسلام وأخلاقه وآدابه، فتلك هي غايتها، وهذه هي فلسفتها؛ لا يقرّها للإنسانية حسب، بل يقرّها في الوراثة غزماً بالأعتاد والكرام الدائم، لتكون علماً وعملاً، فتمكن لسلام النفس بين الأسلحة المسددة إليها من ضرورات الحياة، في أيدي الأعداء المتألبية^(١) عليها من شهوات الغريزة.

فليس يعلم السلام إلا إذا عمّ هذا الدين بأخلاقه فشمل الأرض أو أكثرها؛ فإن قانون العالم حينئذ يصبح متزجاً من طبيعة التراحم، فإما أنسخ به قانون التنازع الطبيعي، وإما كسر من شيرته؛ ويولد المولود يومئذ وتولد معه الأخلاق الإنسانية.

* * *

تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذرة من الخير والشر، وضبط ذلك برياضة عملية دائمة مفروضة على الناس جميعاً هذا هو أساس العقيدة الإسلامية؛ ولا صلاح للإنسانية بغيره يردها إلى سبيل قصدها^(٢)، فإن من ذلك تكون الصفة العقلية التي تغلب على المجتمع، وتجانس بين أفرادها، فتوجه الإنسانية كلها نحو الممكن من كمالها، ولا تزال توجهها نحو ما هو أعلى، وتحكم فاسدها بصالحها، وتأخذ عاصيتها بمطيعيها، وتجعل الشرف الإنساني غرضها الأول، لأن الله الحق غرضها الأخير؛ فيصبح المرء - وهذا دينه - كلما تقدّم به العمر كمل فيه أثنان: الإنسان، والشرعية. ولا يعود طالب السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجري وراء ظلّ ليمسكه؛ فلا يدرك في الآخر شيئاً غير معرفته أنّه كان في عمل باطل وسعي ضائع.

والإسلام يحرص أشد الحرص وأبلغه على تقرير ذلك المعنى الإلهي

(١) الأعداء المتألبية: المجتمعين المتقضين على من يتخلونه عدواً.

(٢) قصدها: غايتها.

العظيم، لا بالمنطق، ولكن بالعمل؛ ثم في النفس وعواطفها، لا في العقل وآرائه؛ ثم على وجه التعميم، دون الاستثناء والخصوص؛ وذلك هو ميرُ مشقته على النفس بما يفرضه عليها؛ فإن فلسفته أن هذه النفس هي أساس العالم، وأن النظام الخُلقي هو أساس النفس، وأن العمل الدائم هو أساس النظام، وأن روح العمل الدائم تكون فيما يشق بعض المشقة ولا يبلغ العسر والحرَج^(١)، كما تكون فيما يسهل بعض السهولة ولا يبلغ الكسل والإهمال.

وللنفس وجهان: ما تُعلن، وما تُمِر؛ ولا صدق لإعلانها حتى يصدق ضميرها، ولا صلاح لجهرها^(٢) حتى يصلح السر فيها، ولا يكون الإنسان الاجتماعي فاضلاً بمشهد^(٣) حتى يكون كذلك بغيه.

وللعالم كذلك وجهان: حاضره الذي يمر فيه، وآتیه الذي يمتد له؛ ولا يفلح حاضر منقطع لا يورث ما بعده كما ورث قبله، وما حاضر الإنسانية إلا جزء من عمل الناس في استمرار فضائلهم باقية نامية.

وللنظام أيضاً وجهان: نظام الرغبة على الطاعة والأطمئنان لها، ونظام الرغبة على الخشية^(٤) والنفرة منها. ولا يستقيم شأن ليس أساسه أُلطاعة في النفس، ولا يستمر نظام عليه خلاف من فكر العامل به.

وللعمل الدائم طريقتان: إحداهما طريقة الجاد يعمل للعاقبة يستيقظها، فلا يجد مما يشق عليه إلا لذة المغالبة للنصر: كل مرارة من قبله هي حلاوة فيه من بعد، ولا يعرف للمحنة^(٥) يتلى بها إلا معناها الحقيقي وهو إيقاظ نفسه، فيصبح الصبر عنده كصبر المحب على أشياء ممن تحبه؛ صبر فيه من السحر ما يكسو الجُزمان في بعض الأحيان خيال الاستمتاع، ويذيق النفس في العجز عن بعض أغراضها - لذة كلذة إدراكه.

* * *

تلك هي فلسفة الإسلام؛ لا قوام للأمر فيها ولا مساك له إلا بتقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس، ووضع طابع الجنة على أعمال الجنة، وطابع النار على

(١) الحرج: الشعور بالضيق والشدة.

(٢) لجهرها: لإعلانها.

(٣) بمشهد: بحضوره.

(٤) الخشية: الخوف.

(٥) المحنة: المصيبة.

أعمال النار - وحيطة كل فرد من الناس حيطة رياضية عملية بين الساعة والساعة، بل بين الدقيقة والدقيقة، بما يكلف من أعمال جسمه وحواسه، ثم أعمال قلبه ونيته - وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية، فلا يحاول كل إنسان أن يجعل بطئه في حجم مملكة أو مدينة أو قرية، بما يتقص^(١) من حقوق غيره؛ بل تتسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الإنسانية؛ وبهذا لا يغيره تتعین مقاييس الأخلاق في الأرض: بالمصلحة لا باللذة؛ فلا يقع الخطأ ولا التزوير، وتنحل المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عقداً فيها.

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحده الطريقة لإنشاء طبيعة الخير في الناس على نسقها الطبيعي، كما أنه هو وحده الطريقة لتطهير التاريخ الإنساني من أوبائه الاقتصادية^(٢)، التي جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس، وترك الناس يهدم بعضهم بعضاً، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسع بيته.

وأساس العمل في الإسلام إخضاع الحياة للعقيدة، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة، فيكون الفقير مغدماً^(٣) ويتعفف، ويكون الغني موسراً ويتصدق، ويكون الشرط طامعاً ويُمسك، ويكون القوي قادراً ويحجم^(٤)، وكما قال العرب في تحقيق ناموس الأنفة والحمية وغلبته على الناموس الاقتصادي: «تجوع الحر ولا تأكل بشذنيها».

تريد الإنسانية امتداداً غير امتدادها التجاري في الأرض، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانها غير الحيوان الذي فيه؛ وإذا قاد الغراب قوماً فإنما هو - كما قال شاعرنا - يمر بهم على جيف الكلاب... والإنسانية اليوم في مثل ليل حوشي^(٥) مظلم أختلط بعضه في بعض، وليست معاني الإسلام إلا الإشراف الإلهي على هذه الكثافة المادية المترامية، وإذا رُفِع المصباح لم تجد الظلام إلا وراء الحدود التي تنتهي إليها أشعته.

(١) يتقص: يأخذ.

(٢) أوبائه الاقتصادية: أمراضه، كالفقر والعوز والجوع... (٤) يحجم: يمسك.

(٣) معدماً: فقيراً لا يملك مالا. (٥) حوشي: متوحش.

وقد علمنا من طبيعة النفس أنَّ إنسانية الفرد لا تعظم وتسمو وتنخيل وتفرح فرحها الصادق وتحزن حزنها السامي - إلا أن تعيش في محبوب؛ فإنسانية العالم لا تكون مثل ذلك إلا إذا عاشت في نبيها الطبيعي، نبي أخلاقها الصحيحة وآدابها العالية ونظامها الدقيق؛ وأين تجد هذا المحبوب الأعظم إلا في محمد ودين محمد؟

وعجيب أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبي العظيم خمس مرات في الأذان كل يوم، يُنادى بأسمه الشريف ملء الجوّ؛ ثم حكمة ذكره في كل صلاة من الفريضة والنافلة^(١)، يُهمس بأسمه الكريم ملء النفس! وهل الحكمة من ذلك إلا الفرض عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم ولا يوماً واحداً من التاريخ، ولا جزءاً واحداً من اليوم؛ فيمتد الزمان مهما امتد والإسلام كائن على أوله، وكائنه في يومه لا في دهر بعيد؛ والمسلم كائن مع نبيه بين يديه تبعته روح الرسالة، ويسطع في نفسه إشراق النبوة، فيكون دائماً في أمره كالمسلم الأول الذي غير وجه الأرض؛ ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه وفضائله وحميته في كل بقعة من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة، لا كما نرى اليوم؛ فإن كل أرض إسلامية يكاد لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخي بجهله وخرافاته وما ورث من القدم؛ فهنا المسلم الفرعوني، وفي ناحية المسلم الوثني، وفي بلد المسلم المجوسي^(٢)، وفي جهة المسلم المعطل... وما يريد الإسلام إلا نفس المسلم الإنساني.

أيها المسلم!

لا تنقطع من نبيك العظيم، وعش فيه أبداً، وأجعل مثلك الأعلى؛ وحين تذكره في كل وقت فكن كأتك بين يديه؛ كن دائماً كالمسلم الأول؛ كن دائماً أبناً المعجزة.

(١) النافل من كل شيء: الزائد.

(٢) المجوسي: عابد النار.

حقيقة المسلم

لا يعرف التاريخ غير محمد ﷺ رجلاً أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني كله؛ كما تنصب المادة في المادة، ليمتزج بها فتحوّلها، فتحدث منها الجديد، فإذا الإنسانية تتحوّل به وتنمو، وإذا هو ﷺ وجود سار فيها فما تبرخ هذه الإنسانية تنمو به وتحوّل.

كان المعنى الآدمي في هذه الإنسانية كأنما وهن^(١) من طول الدهر عليه، يتحيّنه^(٢) ويمحوه ويتجاوز^(٣) بالشر والمنكر؛ فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد بدأت به الدنيا في تطورها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان في ذاته؛ فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين: أحدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة، والثاني فتح لها طريق العودة إليها: كان في آدم سر وجود الإنسانية، وكان في محمد سر كمالها.

ولهذا سُمي الدين (بالإسلام)؛ لأنه إسلام النفس إلى واجبه، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية؛ كأن المسلم يُكرّ ذاته فيسلمها إلى الإنسانية تُصرّفها وتعملها في كمالها ومعاليها؛ فلا حظ له هو من نفسه يمسكها على شهواته ومنافعه، ولكن للإنسانية بها الحظ.

وما الإسلام في جملته إلا هذا المبدأ: مبدأ إنكار الذات و(إسلامها) طائعة على المنشط^(٤) والمكروه لفروضها وواجباتها؛ وكلما نكصت^(٥) إلى منزعها الحيواني، أسلمها صاحبها إلى وازعها^(٦) الإلهي؛ وهو أبداً يروضها^(٧) على هذه

(١) وهن: ضعف.

(٢) يتحيّنه: يظلمه.

(٣) يتجاوز: يتجاوز، يتأوشه.

(٥) نكصت: تراجعت.

(٦) وازعها: رادعها.

(٧) يروضها: يلربها.

(٤) المنشط: الجد والحياة والحماس.

الحركة ما دام حياً؛ فيترعها كل يوم من أوهام دنياها، ليضعها ما بين يدي حقيقتها الإلهية: يروضها على ذلك كل يوم وليلة خمس مرات مُسماة في اللغة خمس صلوات، لا يكون الإسلام إسلاماً بغيرها؛ فلا غرو^(١) وكانت الصلاة بهذا المعنى كما وصفها النبي ﷺ هي عماد الدين.

بين ساعات وساعات في كل مطلع شمس من حياة المسلم صلاة، أي إسلام النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشاملة^(٢) القائمة على الطاعة للفرض الإلهي، وإنكار لمعانيتها الذاتية ألفانية التي هي مادة الشر في الأرض، وإقرارها لحظات في خير الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكراتها. ومعنى ذلك كله تحقيق المسلم لوجود روجه؛ إذ كانت أعمال الدنيا في جملتها طُرُقاً تششت فيها الأرواح وتبعثر، حتى تفضل روح الأخ عن روح أخيه فشكرها ولا تعرفها!

وهذا الوجود الروحي هو مبعث الحالة العقلية التي جاء الإسلام لينهدي الإنسانية إليها: حالة السلام الروحاني الذي يجعل حرب الدنيا المهلكة حرباً في خارج النفس لا في داخلها، ويجعل ثروة الإنسان مُقدَّرة بما يعامل الله والإنسانية عليه؛ فلا يكون ذهبه وفضته ما كتبت عليه الدول: «ضرب في مملكة كذا»، ولكن ما يراه هو قد كتبت عليه: «صنع في مملكة نفسي»؛ ومن ثم لا يكون وجوده الاجتماعي للأخذ حسب، بل للعطاء أيضاً، فإن قانون المال هو الجمع، أما قانون العمل فهو البذل.

بالانصراف إلى الصلاة وجمع النية عليها، يستشعر المسلم أنه قد حطم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان، وخرج منها إلى روحانية لا يُحد فيها إلا بالله وحده.

وبالقيام في الصلاة، يُحقّق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كله، ليمتزج بجلال الكون ووقاره، كأنه كائن متّصّب مع الكائنات يسبح بحمده. وبالتولي شطر القبلة^(٣) في سمتها^(٤) الذي لا يتغيّر على اختلاف أوضاع

(١) لا غرو: لا شك، لا ريب.

(٢) الشاملة: الجامعة، ويقصد بذلك صلاة الجماعة لأهميتها ولثوابها.

(٣) شطر القبلة: ناحيتها.

(٤) سمتها: وقارها ومظهرها.

الأرض، يعرف المسلم حقيقة الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة؛ فيحمل قلبه معنى الأطمئنان والاستقرار على جاذبية الدنيا وقلقها.

وبالركوع والسجود بين يدي الله، يشعر المسلم نفسه معنى السمو والرفعة على كل ما عدا الخالق من وجود الكون.

وبالجلوس في الصلاة وقراءة التحيات الطيبات، يكون المسلم جالساً فوق الدنيا يحمد الله ويسلم على نبيه وملائكته ويشهد ويدعو.

وبالتسليم الذي يخرج به من الصلاة، يقبل المسلم على الدنيا وأهلها إقبالاً جديداً: من جهتي السلام والرحمة.

هي لحظات من الحياة كل يوم في غير أشياء هذه الدنيا؛ لجمع الشهوات وتقييدها بين وقت وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة، ولتمزيق الفناء خمس مرات كل يوم عن النفس؛ فيرى المسلم من ورائه حقيقة الخلود، فتشعر الروح أنها تنمو وتتسع.

هي خمس صلوات، وهي كذلك خمس مرات يفرغ فيها القلب مما امتلأ به من الدنيا، فما أدق وأبدع وأصدق قوله ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

لم يكن الإسلام في حقيقته إلا إبداعاً للصيغة العملية التي تنتظم الإنسانية فيها؛ ولهذا كانت آدابه كلها حراساً على القلب المؤمن، كأنها ملائكة من المعاني؛ وكان الإسلام بها عملاً إصلاحياً وقَعَ به التطور في عالم الغريزة، فثقله إلى عالم الخلق، ثم ارتقى بالخلق إلى الحق، ثم سما بالحق إلى الخير العام؛ فهو سمو فوق الحياة بثلاثة طبقات، وتدرج إلى الكمال في ثلاث منازل، وأبتعاد عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق.

وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المسلمة التي أسسها النبي ﷺ دنيا أسلمت طبيعتها، فأصبحت على ما أراد المسلمون لا ما أرادت هي؛ وكأنها قائمة بنواميس من أهلها، لا على أهلها؛ وكان الظاهر أن الإسلام يغزو الأمم بالعرب ويفتحها، ولكن الحقيقة أن إقليماً من الدنيا كان يحارب سائر أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقية الجديدة لهذا الدين.

وكان الله - تعالى - ألقى في رمال الجزيرة روح البحر، وبعثها ببعثه الإلهي

لأمره، فكان النبي ﷺ هو نقطة المد التي يفور البحر منها، وكان المسلمون أمواجه التي غسّلت بها الدنيا...

لهذا سمع المسلمون الأولون كلام الله - تعالى - في كتابه، وكلام رسوله ﷺ، لا كما يسمعون القول، ولكن كما يتلقون الحكم النافذ المقضي^(١)؛ ولم يجدوا فيه البلاغة وحدها، بل روعة أمر السماء في بلاغة؛ واتصلوا بنبيهم، ثم بعضهم ببعض، لا كما يتصل إنسان بإنسان، بل كما تتصل الأمواج بقوة المد، ثم كما يمد بعضها بعضاً في قوة واحدة.

وحققوا في كماله ﷺ وجودهم النفسي؛ فكانوا من زخارف الحياة وباطلها في موضع الحقيقة الذي يرى فيه الشيء لا شيء.

ورأوا في إرادته ﷺ النقطة الثابتة فيما يتضارب من خيالات النفس؛ فكانوا أكبر علماء الأخلاق على الأرض، لا من كتب ولا علم ولا فلسفة، بل من قلب نبيهم وحده.

وعرفوا به ﷺ تمام الرجولة؛ ومتى تمت هذه الرجولة تمامها في إنسان، رجعت له الطفولة في روجه، وأمتلك تلك الطبيعة التي لا يملكها إلا أعظم الفلاسفة والحكماء فأصبح كأثما يمشي في الحياة إلى الجنة بخطوات مسددة لا تزيع^(٢) ولا تنحرف، فلا شر ولا رذيلة؛ ودنياه هي الدنيا كلها بشمسها وقمرها، يملكها وإن لم يملك منها شيئاً، ما دامت في قلبه طبيعة السرور، فلا فقر ولا غنى مما يشعر الناس بمعانيه، بل كل ما أمكن فهو غنى كامل، إذ لم تعد القوة في المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها، بل القوة في الروح التي تنصرف بطبيعة الوجود، وتدفع قوى الجسم بمثل دوافع الطفولة النامية المتغلبة، حتى لتجعل من النور والهواء ما يؤتد^(٣) به مع الخبز الفقار، كما يؤتد باللحم وأطياب الأطعمة.

وبذلك لا تتسلط ضرورة على الجسم - كالجوع والفقر والألم ونحوها - إلا كان تسلطها كأنه أمر من قوة في الوجود إلى قوة في هذا الجسم: أن تظهر لتعمل عملها المعجز في إبطال هذه الضرورة. وهذا الجنس من الناس كالآزهار على

(١) المقضي: المقدّر.

(٢) لا تزيع: لا تتحول ولا تنحرف.

(٣) يؤتد: يؤكل من الطعام.

أغصانها الخضراء؛ لو قالت شيئاً لقالت: إن ثروتي في الحياة هي الحياة نفسها، فليس لي فقر ولا غنى، بل طبيعة أولاً طبيعة.

ولقد كان المسلم يضرب بالسيف في سبيل الله، فتقع ضربات السيوف على جسمه فتمزقه؛ فما يحسها إلا كأنها قبل أصدقاء من الملائكة يلقونه ويمانقونه! وكان يتلى في نفسه وماله، فلا يشعر في ذلك أنه المرء^(١) المتبلى يُعرف فيه الحزن والآنكسار، بل تظهر فيه الإنسانية المنتصرة كما يظهر الظافر في بطنه العظيم أصيب في كل موضع من جسمه بجراح، فهي جراح وتشوية وألم، وهي شهادة النصر!

ولم تكن أثقال المسلم من دنياه أثقلاً على نفسه، بل كانت له أسباب قوة وسمو؛ كالنسر المخلوق لطبقات الجو العليا، ويحمل دائماً من أجل هذه الطبقات ثقل جناحيه العظيمين.

وكانت الحقيقة التي جعلها النبي ﷺ مثلهم الأعلى، وأقرها في أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله - أن الفضائل كلها واجبة على كل مسلم لنفسه، إذ إنها واجبة بكل مسلم على غيره، فلا تكون في الأمة إلا إرادة واحدة متعاونة، تجعل المسلم وما هو روح أمته تعمل به أعمالها هي لا أعماله وحدها.

المسلم إنسان ممتد بمنافعه في معناه الاجتماعي حول أمته كلها، لا إنسان ضيق مجتمع حول نفسه بهذه المنافع؛ وهو من غيره في صدق المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر؛ تقول الأمانة لكلليهما: لا قيمة لميزانك إلا أن يصدق ميزان أخيك.

ولن يكون الإسلام صحيحاً تاماً حتى يجعل حامله مثلاً من نبيه في أخلاق الله؛ فما هو شخص يضبط طبيعته: يقهرها مرة وتقهره مراراً؛ ولكن طبيعة تضبط شخصها فهي قانون وجوده.

لا يضطرب من شيء، وكيف يضطرب ومعاً الاستقرار؟

لا يخاف من شيء، وكيف يخاف ومعاً الطمأنينة؟

لا يخشى مخلوقاً، وكيف يخشى ومعاً الله؟

أيها الأسد، هل أنت بجملك إلا في طبيعة محالك وأنيابك...؟

(١) المرء: المصاب بالابتلايات المختلفة.

وحي الهجرة

إنَّ التاريخَ لَيَتَكَلَّمُ بِلُغَةٍ أَوْسَعِ مِنَ الْفَاطِظِ إِذَا قَرَأَهُ مَنْ يَقْرُؤُهُ عَلَى أَنَّهُ بَعْضُ نَوَامِيسِ الوجودِ، صُوِّرَتْ فِيهَا النَفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ كَيْفَ ائْتَوَرَتْ أَغْرَاضَهَا، وَكَيْفَ مَدَّتْ فِي نَسَقِهَا^(١)، وَكَيْفَ تَغْلَغَلَتْ فِي مَسَالِكِهَا، وَمَا تَأَتَّى لَهَا فَجَزَتْ بِهِ مَجْرَاهَا، وَمَا دَفَعَهَا فَأَنحَدَرَتْ مِنْهُ إِلَى مَقَارِهَا^(٢)؛ فَهُوَ لَيْسَ بِكَلَامٍ تَسْتَقْبِلُهُ تَقْرَأُ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ أَحْوَالٌ مِنَ الوجودِ تَعْتَرِضُهَا فَتُغَيِّرُ عَلَيْكَ حِسَّكَ بِإِلْهَامِهَا وَأَحْلَامِهَا، وَتَتَنَاوَلُهَا مِنْ نَاحِيَةٍ فَتَتَنَاوَلُكَ مِنَ الْآخَرَى؛ فَإِذَا أَلْكَمَلْتُمْ مِنْ وَرَائِهَا مَعْنَى، مِنْ وَرَائِهِ طَبِيعَةً، مِنْ وَرَائِهَا سَبَبٌ وَحِكْمَةٌ؛ وَإِذَا كُلُّ حَادِثَةٍ فِيهَا إِنْسَانِيَّتُهَا وَإِلَهِيَّتُهَا مَعًا، وَإِذَا الوجودُ فِي ذَهْنِكَ كَالسَّاعَةِ تَرَسُّمٌ لَكَ حَدٌّ الثَّانِيَّةُ بِخَطَرَتَيْنِ، وَحَدٌّ الدَّقِيقَةُ مِنْ عَدَدٍ مُحْدُودٍ مِنَ الثَّوَانِي، وَحَدٌّ السَّاعَةِ إِلَى حَدِّ الْيَوْمِ؛ وَإِذَا أَلْبَيَانُ فِي نَفْسِكَ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْحَوَاشِي، وَإِذَا التَّارِيخُ فِيمَا تَقْرُؤُهُ مُفْتَنٌّ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ يَفِيءُ عَلَيْكَ مِنَ الْفَاطِظِ وَمَعَانِيهِ بِظِلَالٍ هِيَ صِلَتُكَ أَنْتَ أَيُّهَا الْحَيُّ الْمَوْجُودُ بِأَسْرَارٍ مَا كَانَ مَوْجُودًا مِنْ قَبْلِ.

كَذَلِكَ قَرَأْتُ بِالْأَمْسِ تَارِيخَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي كِتَابِ أَبِي جَعْفَرٍ الطَّبْرِيِّ لِأَكْتُبَ عَنْهُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، فَلَمْ أَكُنْ - عَلِمَ اللَّهُ - فِي كِتَابٍ وَلَا فِي حِكَايَةٍ، بَلْ فِي عَالَمٍ أُنْبِتُ فِي نَفْسِي مَخْلُوقًا تَامًا بِأَهْلِهِ، وَحَوَادِثَ أَهْلِهِ، وَأَسْرَارَ أَهْلِهِ جَمِيعًا؛ كَمَا يَرَى الْمُحِبُّ حَبِيبَهُ: لَا يَكُونُ الْجَمِيلُ فِي مَحَلٍّ إِلَّا أَمْتَلَأَ مَكَانَهُ بِعَاشِقِهِ، فَهُوَ مَكَانٌ مِنَ النَّفْسِ، لَا مِنَ الدُّنْيَا وَحْدَهَا، وَفِيهِ الْحَيَاةُ كَمَا هِيَ فِي الوجودِ بِمَظْهَرِ الْمَادَّةِ، وَكَمَا هِيَ فِي الْحُبِّ بِمَظْهَرِ الرُّوحِ.

وَتِلْكَ حَالَةٌ مِنَ الْقِرَاءَةِ بِالرُّوحِ وَالْكِتَابَةِ بِالرُّوحِ، مَتَى أَنْتَ سَمَوْتَ إِلَيْهَا رَأَيْتَ فِيهَا غَيْرَ الْمَعْنَى يُخْرِجُ مَعْنَى، وَمِنْ لَا شَيْءٍ تُخَلِّقُ أَشْيَاءَ، لِأَنَّكَ مِنْهَا أَتَّصَلْتَ بِأَسْرَارِ نَفْسِكَ، وَمِنْ نَفْسِكَ أَتَّصَلْتَ بِأَسْرَارِ فَوْقِهَا؛ فَيُصْبِحُ التَّارِيخُ مَعَكَ فَنَّ الوجودِ الْإِنْسَانِيَّ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَفْضَتْ بِهِ الْحِكْمَةُ إِلَى الْحَيَاةِ لِتَسْتَمِرَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ،

(١) نسقها: طرازها وعلى شكلها.

(٢) مقارها: أماكنها.

لا فَنَ عِلْمِ النَّاسِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَفْضَتْ^(١) بِهِ الْحَوَادِثُ مِمَّا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ .

نشأ النبي ﷺ في مكة، وأسْتَنْبَى عَلَى رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ سِنِّهِ، وَغَبَرَ^(٢) ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يَدْعُو إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْإِسْلَامِ أَوَّلَ بَدَايِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَأَمْرَأَةٌ وَغُلَامٌ: أَمَّا الرَّجُلُ فَهُوَ هُوَ ﷺ، وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَزَوْجُهُ خَدِيجَةُ، وَأَمَّا الْغُلَامُ فَعَلِيُّ ابْنُ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ .

ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ النَّمُوِّ فِي الْإِسْلَامِ بَحْرٌ وَعَبْدٌ: أَمَّا الْحُرُّ فَأَبُو بَكْرٍ، وَأَمَّا الْعَبْدُ فَبِلَالٌ، ثُمَّ اتَّسَقَ النَّمُوُّ قَلِيلاً قَلِيلاً يَبْطِئُ أَلْهَمُومٌ فِي سِيرِهَا، وَصَبِرَ الْحُرُّ فِي تَجَلِّدِهِ؛ وَكَأَنَّ التَّارِيخَ وَقَفَ لَا يَتَزَحَّزَحُ، ضَيِّقٌ لَا يَتَسَّعُ، جَامِدٌ لَا يَنْمُو؛ وَكَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخُو الشَّمْسِ: يَطْلُعُ كِلَاهُمَا وَحْدَهُ كُلَّ يَوْمٍ. حَتَّى إِذَا كَانَتِ الْهَجْرَةُ مِنْ بَعْدُ، فَانْتَقَلَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَدِينَةِ، بَدَأَتِ الدُّنْيَا تَتَقَلَّقُلُ^(٣)، كَأَنَّمَا مَرَّ بِقَدَمِهِ عَلَى مَرْكَزِهَا فَحَرَّكَهَا؛ وَكَانَتْ خَطَوَاتُهُ فِي هَجْرَتِهِ تَخْطُ فِي الْأَرْضِ، وَمَعَانِيهَا تَخْطُ فِي التَّارِيخِ؛ وَكَانَتِ الْمَسَافَةُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَمَعْنَاهَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .

لَقَدْ كَانَ فِي مَكَّةَ يَغْرَضُ الْإِسْلَامَ عَلَى الْعَرَبِ كَمَا يُغْرَضُ الذَّهَبُ عَلَى الْمُتَوَحِّشِينَ: يَرَوْنَهُ بَرِيقاً وَشُعَاعاً ثُمَّ لَا قِيَمَةَ لَهُ، وَمَا بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ حَاجَةٌ بَنِي آدَمَ إِلَّا الْمُتَوَحِّشِينَ، وَكَانُوا فِي الْمَحَادَّةِ^(٤) وَالْمُخَالَفَةِ الْحَقِيقَةِ، وَأَلْبَلَوْغَ بَدْعُوتهِ مَبْلَغَ الْأَوْهَامِ وَالْأَسَاطِيرِ - كَمَا يَكُونُ الْمَرِيضُ بِذَاتِ صَدْرِهِ مَعَ الَّذِي يَدْعُوهُ فِي لَيْلَةٍ قَارَّةٍ إِلَى مَدَاوَةِ جَسَمِهِ بِأَشْعَةِ الْكَوَاكِبِ؛ وَكَانَتْ مَكَّةُ هَذِهِ صَخْرًا جُغْرَافِيًّا يَتَحَطَّمُ وَلَا يَلِينُ، وَكَأَنَّ الشَّيْطَانَ نَفْسَهُ وَضَعَ هَذَا الصَّخَرَ فِي مَجْرَى الزَّمَنِ لِيَصْدَّ بِهِ التَّارِيخَ الْإِسْلَامِيَّ عَنِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا .

وَأَوْذَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكُذِّبَ وَأُهِنَ، وَرَجَفَ بِهِ الْوَادِي بِخَطْوِهِ عَلَيْهِ عَلَى زَلَّازِلَ تَتَقَلَّبُ، وَنَابِذَةً^(٥) قَوْمُهُ وَتَذَامَرُوا^(٦) فِيهِ، وَحَضُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ، وَأَنْصَفَقَ^(٧) عَنْهُ عَامَةُ النَّاسِ وَتَرَكُوهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ اللَّهَ مِنْهُمْ؛ فَأَصِيبَ كَبِيرًا بِالْيَتِيمِ مِنْ قَوْمِهِ، كَمَا أَصِيبَ صَغِيرًا بِالْيَتِيمِ مِنْ أَبَوِيهِ .

(١) أردت: أوصلت .

(٥) نابذ: رفض وأخرج وأفرد .

(٢) غبر: مضى .

(٦) تذاَمَرُوا: اتحدوا واحتشدوا جماعات

(٣) تتقلقل: تتملل .

جماعات .

(٧) انصفق: تخلى واجتنب .

(٤) المحادَّة: المعاندة والمخالفة والعداء .

وكان لا يسمع بقادم يقدم من العرب له اسم وشرف، إلا تصدى^(١) له فدعاه إلى الله وعرض نفسه عليه؛ ومع ذلك بقيت الدعوة تلوح وتختفي كما يشق البرق من سحابة على السماء: ليس إلا أن يرى ثم لا شيء بعد أن يرى!

فهذا تاريخ ما قبل الهجرة في جملة معناه، غير أنني لم أقرأه تاريخاً، بل قرأت فيه فصلاً رائعاً من حكمة إلهية، وضعة الله كالمقدمة لتاريخ الإسلام في الأرض؛ مقدمة من الحوادث والأيام تحيا وتمر في نسق^(٢) الرواية الإلهية المنطوية على رموزها وأسرارها، وتظهر فيها رحمة الله تعمل بقسوة، وحكمة الله تتجلى في غموض؛ فلو أنت حققت النظر لرأيت تاريخ الإسلام يتأله^(٣) في هذه الحقب، بحيث لا تروى النفس المؤمنة إلا خاشعة كأنها تُصلي، ولا تندبره إلا خاضعة كأنها تتعبد.

بدأ الإسلام في رجل وامرأة و غلام، ثم زاد حراً وعبداً؛ أليست هذه الخمس هي كل أطوار البشرية في وجودها، مخلوقة في الإنسانية والطبيعة، ومصنوعة في السياسة والاجتماع؛ فهنا مطلع القصيدة، وأول الرمز في شعر التاريخ.

ولبت النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة لا يبغيه^(٤) قومه إلا شراً، على أنه دائب^(٥) يطلب ثم لا يجد، ويغرض ثم لا يقبل منه، ويخفق ثم لا يعتريه اليأس، ويجهد ثم لا يتخونه الملل^(٦)، ويستمر ماضياً لا يتحرف^(٧)، ومعزماً لا يتحول؛ أليست هذه هي أسامي معاني التربية الإنسانية أظهرها الله كلها في نبيه، فعمل بها وثبت عليها، وكاثت ثلاث عشرة سنة في هذا المعنى كعمر طفل ولد ونشأ وأحكم تهذيبه بالحوادث، حتى تسلمته الرجولة الكاملة بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائلها؟

أفليس هذا فصلاً فلسفياً دقيقاً يعلم المسلمين كيف يجب أن ينشأ المسلم: غناه في قلبه، وقوته في إيمانه، وموضعه في الحياة موضع النافع قبل المنتفع، والمصلح قبل المقلد؛ وفي نفسه من قوة الحياة ما يموت به في هذه النفس أكثر ما في الأرض والناس من شهوات ومطامع؟

(١) تصدى: خرج لمواجهة.

(٢) نسق: نمط منسجم.

(٣) يتأله: يسمو ويعلو كالإله.

(٤) لا يبغيه: لا يريد له.

(٥) دائب: مستمر.

(٦) لا يتخونه الملل: لا يداخله.

(٧) لا يتحرف: لا يعيل ولا يتحول.

ثم أليست تلك العوامل الأخلاقية هي التي ألقيت في منبع التاريخ الإسلامي ليغيب منها تياره؛ فتدفعه في مجراه بين الأمم، وتجعل من أخصر الخصائص الإسلامية في هذه الدنيا - أثبات على الخطوة المتقدمة وإن لم تتقدم، وعلى الحق وإن لم يتحقق؛ والتبرؤ من الأثرة وإن شحت^(١) عليها النفس، واحتقار الضعيف وإن حكّم وتسلط، ومقاومة الباطل وإن ساد وغلب، وحمل الناس على مخاض الخير وإن ردّوا بالشّر، والعمل للعمل وإن لم يأت بشيء، والواجب للواجب وإن لم يكن فيه كبير فائدة، وبقاء الرجل رجلاً وإن حطّمه كل ما حوله؟

ثم هي هي البرهانات القائمة للدهر قيام المنارة في الساحل - على نبوة محمد ﷺ تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنه روح وغاياتها المحتومة بالقدر، لا جسم ووسائله المتغلبة بالطبيعة؛ ولو كان رجلاً أبنته^(٢) نفسه، لتمحل^(٣) الجيل لسياسته، ولأخذت طمعاً من كل مطمع، ولركّدت مع الحوادث وهب، ولما استمر طوال هذه المدة لا يتجه وهو فرد إلا اتجاه الإنسانية كلها كأنما هو هي.

ولو هو كان رجل المملك أو رجل السياسة، لاستقام والتوى، ولأدرك ما يتغي في سنوات قليلة، ولأوجد الحوادث يتعلّق عليها، ولما أفلت ما كان موجوداً منه يتعلّق به، ولما أترع نفسه من محلّه في قومه وكان واسطة فيهم، ولا ترك عوامل الزمن تبعده وهي كانت تُدنيه.

قالوا: إن عمّه أبا طالب بعث إليه حين كلمته فريش فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي: كذا وكذا، فأبقي علي وعلى نفسك. ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمّه فيه بداء^(٤)، وأنه خاذله^(٥) ومُسْلِمُهُ، وأنه قد ضَعَفَ عن نصريه والقيام معه، فقال: يا عمّاه، - والله - لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته. ثم استعبر ﷺ فبكى!

يا دموع النبوة! لقد أثبت أن النفس العظيمة لن تتعزى عن شيء منها بشيء

(١) شحت: بخلت وقلت.

(٢) ابتنته: اختارته.

(٣) تمحل: أوجد الأعداء الوامية.

(٤) بداء: رأي جديد.

(٥) خاذله: متخلى عنه.

من غيرها كائناً ما كان، لا من ذهب الأرض وفضتها، ولا من ذهب السماء وفضتها إذا وضعت الشمس في يد والقمر في الأخرى.

وكل حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليل ذلك الزمن على أنه زمن نبي، لا زمن ملك أو سياسي أو زعيم؛ ودليل الحقيقة على أن هذا اليقين الثابت ليس يقين الإنسان الاجتماعي من جهة قوته، بل يقين الإنسان الإلهي من جهة قلبه؛ ودليل الحكمة على أن هذا الدين ليس من العقائد الموضوعة التي تنشرها عدوى النفس للنفس؛ فها هو ذا لا يبلغ أهله في ثلاث عشرة سنة أكثر مما تبلغ أسرة تتوالد في هذه الحقبة؛ ودليل الإنسانية على أنه وحي الله بإيجاد الإخاء العالمي والوحدة الإنسانية. أفلم يكن خروجه عن موطنه هو تحققه في العالم؟

ثلاث عشرة سنة، كانت ثلاثة عشر دليلاً ثبت أن النبي ﷺ ليس رجل ملك، ولا سياسة، ولا زعامة؛ ولو كان واحداً من هؤلاء لأدرك في قليل؛ وليس مبتدع شريعة من نفسه، وإلا لما غبر في قومه وكأنه لم يجدهم وهم حوله؛ وليس صاحب فكرة تعمل أساليب النفس في انتشارها؛ ولو كانه لحملهم على مخضها ومزوجها؛ وليس رجلاً متعلقاً بالمصادفات الاجتماعية، ولو هو كان لجعل إيمان يوم كُفر يوم؛ وليس مصلح عشيرة يهذب منها على قدر ما تقبل منه سياسة ومخادعة، ولا رجل وطنه تكون غايته أن يشمخ في أرضه شموخ جبل فيها، دون أن يحاول ما بلغ إليه من إطلاله على الدنيا إطلال السماء على الأرض، ولا رجل حاضره إذ كان واقعاً دائماً أن معه الغد وآتيه، وإن أدبر^(١) عنه اليوم وذاهبه؛ ولا رجل طبيعته البشرية يلتزم لها ما يلتزم الجائع لبطنه، ولا رجل شخصيته يستهوي بها ويسحر، ولا رجل بطشه يغلب به ويتسلط، ولا رجل الأرض في الأرض، ولكن رجل السماء في الأرض.

هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة: قبض عنه أطراف الزمن، وحصره من ثلاث عشرة سنة في مثل سنة واحدة، لا تصدُر به الأمور مصادرها كي تثبت أنها لا تصدُر به؛ ولا تستحق به الحقيقة لتدل على أنها ليست من قوته وعمله.

(١) أدبر: رجعاً.

وكان ﷺ على ذلك - وهو في حدود نفسه وضيق مكانه - يتسّع في الزمن من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه، وكأنما كانت شمس اليوم الذي سينتصر فيه - قبل أن تشرق على الدنيا بثلاث عشرة سنة - مشرقة في قلبه ﷺ

والفصل من السنة لا يقدمه الناس ولا يؤخرونه، لأنه من سير الكون كله؛ والسحابة لا يشعلون برقها بالمصابيح، ومع النبي من مثل ذلك برهان الله على رسالته، إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فصل الفصل، وأنطلقت الصاعقة، وكانت الهجرة.

تلك هي المقدمة الإلهية للتاريخ، وكان طبيعياً أن يطرد التاريخ بعدها، حتى قال الرشيد للسحابة وقد مرّت به: أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك!

فلسفة قصة

ماتت خديجة زوج النبي ﷺ ومات عمه أبو طالب في عام واحد، في السنة العاشرة من النبوة، فعظمت المصيبة فيهما عليه، إذ كان عمه هذا يمنعه من أذى قريش، ويقوم دونه فلا يخلصون إليه بمكروه؛ وكان أبو طالب من قريش كالعقيدة السياسية: هي بطبيعتها قوة نافذة على قوة القبيلة؛ فمن ثم كان هو وحده المشكلة النفسية المعقدة التي تعمل قريش جاهدة في حلها، وقامت المعركة الإسلامية الأولى بين إرادتهم وإرادته، وهم أمة تحكمهم الكلمة الاجتماعية التي تسيّر عنهم في القبائل؛ وتاريخهم ما يقال في الألسنة من معاني المدح والذم، فيخشون المقالة أكثر مما يخشون الغارة، وقد لا يبالون بالقتلى والجرحى منهم، ولكنهم يبالون بالكلمات المجرحة.

فكان من لطيف صنع الله للإسلام، وعجيب تدبيره في حماية نبيه ﷺ - وضع هذه القوة النفسية في أول تاريخ النبوة، تشتغل بها سخافات قريش، وتكون عملاً لإفراغهم الروحي، وتثير فيهم الإشكالات السياسي الذي يعطل قانونهم الوحيي إلى أن يتم عمل الأسباب الخفية التي تكسر هذا القانون، فإن المصنع الإلهي لا يخرج أعماله التامة العظيمة إلا من أجزاء دقيقة.

أما خديجة زوج النبي ﷺ فكانت في هذه المحنة قلباً مع قلبه العظيم، وكانت لنفسه كقول (نعم) للكلمة الصادقة التي يقول لها كل الناس (لا)؛ وما زالت المرأة الكاملة المحبوبة هي التي تُعطي الرجل ما نقص من معاني الحياة، وتلد له المسرّات من عواطفها كما تلد من أحشائها، فالوجود يعمل بها عمليْن عظيمين: أحدهما زيادة الحياة في الأجسام، والآخر إتمام نقصها في المعاني.

ويموت أبي طالب وخديجة، أفرّد النبي ﷺ بجسمه وقلبه، ليتجرّد^(١) من الحالة التي تغلب فيها الحس، إلى الحالة التي تغلب فيها الإرادة، ثم ليخرج من

(١) ليتجرّد: ليتخلّص.

أيام الاستقرار في أرضه، إلى الأيام المتحركة به في هجرته، ثُمَّ لِيَسْتَهَيِّ بِذَلِكَ إِلَى غَايَةِ قَوْمِيَّةِ الصَّغِيرَةِ المحدودة، فيتصل من ذلك بأول عالميَّة الكُبرى.

وَأَرَادَ اللَّهُ - تعالى - أَنْ يَبْدَأَ هَذَا الْجَلِيلَ الْعَظِيمَ مِنْ أَسْمَى خِلَالِ الْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ، لِيَكُونَ أَوَّلُ أَمْرِهِ شَهَادَةً بِكَمَالِهِ، فَكَانَتْ الْحَسَنَةُ فِيهِ بِشَهَادَةِ السَّيِّئَةِ مِنْ قَوْمِهِ، فَجَلَّمَهُ بِشَهَادَةِ رُغُونَتِهِمْ^(١)، وَأَنَاتُهُ^(٢) بِدَلِيلِ طَيْشِهِمْ، وَحِكْمَتُهُ بِبِرْهَانِ سَفَاهَتِهِمْ^(٣)؛ وَبِذَلِكَ ظَهَرَ الرُّوحَانِيُّ رُوحَانِيًّا فِي لَمَادَةٍ.

قَالُوا: فَنَالَتْ مِنْهُ قَرِيشٌ، وَوَصَلُوا مِنْ أَذَاهُ إِلَى مَا لَمْ يَكُونُوا يَصِلُونَ إِلَيْهِ فِي حَيَاةِ عَمِّهِ، حَتَّى نَثَرَ بَعْضُهُمُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ، كَأَنَّمَا يُعْلِمُونَهُ أَنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يَكُونَ خُرًّا، فَضَلَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا، فَضَلَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا؛ قَالُوا: فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَهُ وَالتُّرَابُ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَغْسِلُ عَنْهُ التُّرَابَ وَهِيَ تَبْكِي!

كَانَتْ تَبْكِي إِذْ لَا تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا التُّرَابَ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ هُوَ شَذُوذُ الْحَيَاةِ الْأَرْضِيَّةِ الدُّنْيَا، فِي مَقَابَلَةِ إِنْسَانِيهَا الْكَشَادِ الْمُنْفَرِدِ. هَذِهِ الْقَبِضَةُ مِنَ التُّرَابِ الْأَرْضِيِّ قَبْضَةٌ سَفِيهَةٌ، تُحَاوِلُ رَدَّ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَظِيمَةِ أَنْ تَنْشَأَ نَشْأَتَهَا وَتَعْمَلَ عَمَلَهَا فِي التَّارِيخِ، فَهِيَ فِي مَقْدَارِهَا وَسَخَافَتِهَا وَمَحَاوِلَتِهَا، كَعَقْلِ قُرَيْشٍ حِينَئِذٍ فِي مَقْدَارِهِ وَسَخَافَتِهِ وَمَحَاوِلَتِهِ.

أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِبَنَتِهِ: «يَا بِنْتُ لَا تَبْكِي، فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ أَبَاكَ». حَسِبْتَ ذَلِكَ هَوَانًا وَضِيعَةً، فَأَعْلَمَهَا أَنَّ قَبْضَةَ مِنَ التُّرَابِ لَا تَطْمُرُ النُّجْمَ، وَأَنَّ هَذِهِ الْحَنُوءَةَ التَّرَابِيَّةَ لَا تُسَمَّى مَعْرَكَةً أَثَارَتِهَا الْخَيْلُ فَجَاءَتْ بِنَتِيجَةٍ، وَأَنَّ سَاعَةً مِنَ الْحَزَنِ فِي يَوْمٍ، لَا يُحْكَمُ بِهَا عَلَى الزَّمَنِ كُلِّهِ، وَأَنَّ هَذِهِ الثَّرْوَةَ الَّتِي تَحْرَكَتِ الْآنَ هِيَ حِمَقُ الْغِبَاوَةِ: قُوَّتُهَا نَهَايَتُهَا.

«يَا بِنْتُ لَا تَبْكِي فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ أَبَاكَ». أَي لَيْسَ لِلنَّبِيِّ كِبَرِيَاءُ يَنَالُهَا النَّاسُ أَوْ يَعْضُونَ^(٤) عَنْهَا فَيَأْتِي الدَّمْعُ مُتَرَجِّمًا عَنِ الْمَعْنَى الْإِنْسَانِيَّةِ النَّاقِصِ مُثْبِتًا أَنَّهُ نَاقِصٌ، إِنَّمَا هِيَ النَّبُوءَةُ: قَانُونُهَا غَيْرُ مَا أَعْتَادَتْ النَّفْسُ مِنْ أَفْرَاحٍ وَأَحْزَانٍ، وَهِيَ النَّبُوءَةُ: تَجْعَلُ الْمَخْتَارَ لَهَا غَيْرَ مَحْدُودٍ بِجَسَدِهِ الْضَعِيفِ، بَلْ حُدُودُهُ الْحَقَائِقُ الَّتِي فِيهَا

(١) رعونتهم: حماقتهم.

(٢) أناته: ترويه.

(٣) سفاهتهم: طيشهم ودناءتهم.

(٤) غص الطرف: اغمض عينه.

قوتها، فهو في مَنَعَةِ الواقع الذي لا بدَّ أن يقع، فلو أمكن أن يُحذف يومٌ من الزمن أو يؤخَّر عن وقته، أمكن أن يؤخَّر النبي أو يُحذف.

«يا بني لا تبكي إنَّ اللهَ مانعٌ أباك». لا - والله - ما يقول هذه الكلمة إلا نبيٌّ وسع التاريخ في نفسه الكبيرة قبل أن يوجد هذا التاريخ في الدنيا، فكلمته هي الإيمان والثقة إذ يتكلم عن موجود.

ترابٌ ينثره سفيهٌ على رأس النبي! ويحك يا حقارة المادة؛ إنَّ ارتفاعك لعنة، إنَّ ارتفاعك لعنة.

قالوا: وخرج رسول الله ﷺ وحدَهُ إلى الطائف، يلتمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه، فلمَّا انتهى إلى الطائف عمداً^(١) إلى نفرٍ من ثقيف هم يومئذٍ ساداتهم وأشرفهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصريته والقيام معه في الإسلام على مَنْ خالفه من قومه، فلم يفعلوا وأغروا^(٢) به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصبحون به، حتى اجتمع عليه الناس والجأؤهُ إلى حائط^(٣) لعُتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه. ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد ﷺ إلى ظل حُبلة^(٤) من عنب فجلس فيه، وأبنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من السفهاء.

فلما أطمأن ﷺ في مجلسه قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس؛ يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى مَنْ نكلتني، إلى بعيد يتجهمني^(٥)»، أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك!«.

ألا ما أكمل هذه الإنسانية التي تُثبت أن قوة الخلق هي درجة أرفع من الخلق

(١) عمد: لجأ.

(٢) أغروا: حذوا وشجعوا.

(٤) الحُبلة بالضم: الكرم.

(٥) يتجهمني: يستقبلني بوجه كره.

(٣) الحائط: البستان، ويجمع على حوائط.

نفسه، فهذا فنُّ الصبرِ لا الصبرُ فقط، وفنُّ الجَلْمِ لا الجَلْمُ وحده.

قوةُ الخُلُقِ هي التي تجعلُ الرجلَ العظيمَ ثابتاً في مركزِ تاريخهِ لا متقلِّباً في تواريخِ الناسِ، محدوداً بعظائمِ شخصيتهِ الخالدةِ لا بمصالحِ شخصهِ الفاني، ناظراً في الحياةَ إلى الوضعِ الثابتِ للحقيقةِ لا إلى الوضعِ المتغيرِ للمنفعةِ.

وما كانَ أولئك الأشرافُ وسفهاؤهم وعبيدُهم إلا معانيَ الظلمِ، والشرِّ، والضعفِ، تقولُ للنبيِّ العظيمِ الذي جاءَ يمحوها ويُدبِّلُ منها: إننا أشياء ثابتةٌ في البشريةِ.

لم يكنْ منهمُ الأشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ، بل كانَ منهمُ العُنفُ^(١)، والرقُّ، والطُّيشُ، تَسَخَّرُ ثلاثُها من نبيِّ العدلِ، والحريةِ، والعقلِ، فما تَسَخَّرُ إلا من نفسها.

صغائرُ الحياةِ قد أحاطتْ بمجدِ الحياةِ، لُتِبَتِ الصغائرُ أنَّها الصغائرُ، ولُتِبَتِ المجدُ أنَّه المجدُ.

كانَ الفريقانِ هما الفكرتَينِ المتعاديتَينِ أبداً على الأرضِ: إحداهما عِشْ لِتَأْكُلْ وتستمعَ وإنْ أهلكَتْ، والأخرى عِشْ لِتَعْمَلَ وتنفَعِ الناسَ وإنْ هلكَتْ.

كانتِ الأقدارُ تُبادي هذا الروحَ الواسعَ بذلك الروحَ الضيقَ، لينطلقَ الواسعُ من مكانِهِ ويستقبلَ الدنيا التي عليه أنْ يُنشِئها. فأولئك الأشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ إنْ هم إلا الضيقُ، والركودُ، وذُلُّ العيشِ، حولَ السَّعةِ الروحيةِ، والسموِّ، وطهارةِ الحياةِ.

وقفَ المعنى السماويُّ بينَ معاني الأرضِ، ولكنْ نورَ الشمسِ ينبسطُ على الترابِ فلا يُعْفَرُهُ الترابُ^(٢)، وما هو بنورٍ يُضيءُ أكثرَ ممَّا هو قوةٌ تعملُ بالعناصرِ التي من طبيعتها أنْ تحوِّلَ، في العناصرِ التي من شأنها أنْ تحوِّلَ.

وكانَ بينَ النبيِّ ﷺ وبينَ أولئك المستهزئينَ قوةٌ أخرى، هي القدرةُ التي تعملُ بهذا النبيِّ للعالمِ كلِّه، وبهذه القدرةِ لم ينظرِ النبيُّ إلى قريشٍ وصولتِهِمْ^(٣) عليه إلا كما ينظرُ إلى شيءٍ أنقضى، فكانَ الوجودُ الذي يُحيطُ به غيرَ موجودٍ، وكانتْ حقيقةُ الزمنِ الآتي تجعلُ الزمنَ الحاضرَ بلا حقيقةِ.

(١) العسف: الجور والظلم.

(٢) يعفّره التراب: يلوّنه ويغطيّه.

(٣) صولتهم: جولتهم، تغلبهم.

وإلى هذه القدرة توجه النبي ﷺ بذلك الدعاء البليغ الخالد، يشكو أنه إنسان فيه الضعف وقلة الجيلة، فينطق الإنساني فيه بالشطر^(١) الأول من الدعاء يذكر أنفراة وآثار أنفراة، ويتوجع لما بينه وبين إنسانية قومه، ثم ينطق الروحاني فيه بعد ذلك إلى آخر الدعاء متوجهاً إلى مصدره الإلهي قائلاً أول ما يقول: إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي.

ولعمري لو نطقَت الشمسُ تدعو اللهَ لما خرجت عن هذا المعنى ولا زادت على قوله: «أعوذ بنور وجهك»، تلتمس^(٢) من مصدر النور الأزلي حياة وجودها الكامل.

* * *

ولقد هزئوا من قبل بالمسيح (عليه السلام) فقال للساخرين منه: ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته. وبهذا رد عليهم رد من أنسلخ منهم، وقال لهم قول من ليس له حكم فيهم، وأخذهم بالشرعية الأدبية لا العملية؛ إذ كان (عليه السلام) كالْحكمة الطائفة ليست لكل قلب ولا لكل عقل، ولكنها لمن أعد لها؛ وشريعته أكثرها في التعبير وأقلها في العمل، ولم تجيء بالقوة العاملة فلم يكن بد من أن تضع الموعظة في مكان السيف، وأن تكون قائمة على النهي أكثر مما هي قائمة على الأمر، وأن تكون كشمس الشتاء الجميلة: لا تغلي بها الأرض، وإنما عملها أن تمهد^(٣) هذه الأرض لفصل آخر.

أما نبينا ﷺ فلم يحب المستهزئين، إذ كانت القوة الكامنة في بلاد العرب كلها كامنة فيه، وكان صدره العظيم يحمل للعالم كلمة جديدة لا تقبل الدنيا أن تعاملها عليها إلا بطريقتها الحربية؛ فلم يرد رد الشاعر الذي يريد من الكلمة معناها البليغ، ولكنه سكت سكوت المشرع الذي لا يريد من الكلمة إلا عملها حين يتكلم؛ وكان في سكوتيه كلام كثير في فلسفة الإرادة والحريّة والتطور، وأن لا بد أن يتحول القوم، وأن لا بد أن يتفطر^(٤) هذا الشجر الأجرد عن ورق جديد أخضر ينمو بالحياة.

لم يتسخط^(٥) ولم يقل شيئاً، وكان كالصانع الذي لا يرد على خطأ الآلة بسخط ولا يأس، بل يارسال يده في إصلاحها.

(١) الشطر: الجانب والقسم.

(٢) تلتمس: تستمد، تأخذ.

(٣) تمهد: تفسح المجال وتهيئ.

(٤) يتفطر: يفتح ويستنبط.

(٥) يتسخط: يغضب.

قالوا: ورأى أبنا ربيعة، غُثْبَةً وشَيْبَةً ما لقي النبي ﷺ من السفهاء، فتحرَّكَتْ لَهُ رَجْمُهُمَا^(١)، فَذَعَرُوا غَلاماً لهما نَصْرانِيًّا يُقَالُ لَهُ عَدَّاسٌ، فَقَالَا لَهُ: خِذْ قِطْطاً مِنْ هَذَا الْعَنْبِ وَضَعُهُ فِي ذَلِكَ الطَّبَقِ، ثُمَّ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ فَقُلْ لَهُ يَأْكُلُ مِنْهُ. ففعلَ عَدَّاسٌ ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ حَتَّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا وَضَعَ يَدَهُ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ» ثُمَّ أَكَلَ؛ فَنَظَرَ عَدَّاسٌ إِلَى وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: - وَاللَّهِ - إِنَّ هَذَا لَكَلَامٌ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبَلَدَةِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمِنْ أَهْلِ أَيْنِ الْبَلَدِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ وَمَا دِينُكَ؟ قَالَ: أَنَا نَصْرَانِيٌّ وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَيْنَوَى. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى؟ قَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ^(٢) مَا يُونُسُ بْنُ مَتَّى؟ قَالَ ﷺ ذَلِكَ أَخِي: كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ.

فَاكْبَتْ عَدَّاسٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقْبَلُ رَأْسَهُ وَيَدِيهِ وَرَجْلِيهِ.

يا عجباً لرموزِ القَدَرِ في هذه القصة!

لَقَدْ أَسْرَعَ الْخَيْرُ وَالْكَرَامَةُ وَالْإِجْلَالُ فَأَقْبَلَتْ نَعْتَدُ عَنْ الشَّرِّ وَالسَّفَاهَةِ وَالطُّيْشِ، وَجَاءَتِ الْقَبْلَاتُ بَعْدَ كَلِمَاتِ الْعَدَاوَةِ.

وَكَانَ أَبْنَا رَبِيعَةَ مِنْ أَلَدِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَمِمَّنْ مَشَوْا إِلَى أَبِي طَالِبٍ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَكْفَهُ عَنْهُمْ أَوْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، أَوْ يُنَازِلُوهُ وَإِيَّاهُ حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ، فَانْقَلَبَتِ الْغَرِيزَةُ الْوَحْشِيَّةُ إِلَى مَعَانِهَا الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهِ الدِّينُ، لِأَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ الدِّينِيَّ لِلْفِكْرِ لَا لِلْغَرِيزَةِ.

وَجَاءَتِ النَّصْرَانِيَّةُ تُعَانِقُ الْإِسْلَامَ وَتُعَزُّهُ، إِذِ الدِّينُ الصَّحِيحُ مِنَ الدِّينِ الصَّحِيحِ كَالْأَخِ مِنْ أَخِيهِ، غَيْرَ أَنَّ نَسَبَ الْإِخْوَةِ الدِّمَ وَنَسَبَ الْأَدْيَانِ الْعَقْلَ.

ثُمَّ أَنْتَمُ الْقَدَرُ رَمَزَهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، بِقِطْطِ الْعَنْبِ سَائِغاً عَذْباً مَمْلُوءاً خَلَاوَةً؛ فَبِاسْمِ اللَّهِ كَانَ قِطْطُ الْعَنْبِ رَمَازاً لِهَذَا الْعَتَقُودِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي أَمْتَلَأَ حَبًّا كُلَّ حَيَةٍ فِيهِ مَمْلُوكَةٌ.

(٢) يدريك: يعلمك.

(١) رجمهما: إحسانهما بالقراءة.

فوق الآدمية الإسراء والمعراج

من أعجب ما اتَّفَقَ لي أنني فرغت^(١) من تسويد هذا المقال ثم أردت نقله، فتعسَّرَ عليَّ وصُرِفَتْ عنه بألم شديد أعترائني^(٢)، ونالني منه ثقله في الدماغ؛ ثم كشفه الله بعد يوم فراجعت الكتابه، فإذا قلبي ينبعث بهذه الكلمات:

كيف يستوْطِئ المسلمون العَجَزَ، وفي أول دينهم تسخير الطبيعة؟
كيف يستمهدون الراحة^(٣)، وفي صدر تاريخهم عمل المعجزة الكبرى؟
كيف يزكّون إلى الجهل، وأول أمرهم آخر غايات العلم؟
كيف لا يحملون النور للعالم ونبيهم هو الكائن النوراني الأعظم؟

قصة الإسراء والمعراج هي من خصائص نبينا محمد ﷺ هذا النجم الإنساني العظيم؛ وهو النور المتجسّد لهداية العالم في خيرة ظلماته النفسية؛ فإن سماء الإنسان تظلم وتضيء من داخله بأغراضه ومعانيه. والله - تعالى - قد خلق للعالم الأرضي سماء واحدة تنيرة وتحييه وتقلب عليه ليلته ونهاره، بيد أنه ترك لكل إنسان أن يصنع لنفسه شمس قلبه وعمامها وسحائبها وما تسفر به وما تظلم فيه. ولهذا سُمّي القرآن نوراً لعمل آدابه في النفس، ووصف المؤمنون بأنهم ﴿يَتَّقُونَ نُورَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾، وكان أثر الإيمان والتقوى في تعبير القرآن الكريم أن يجعل الله للمؤمنين نوراً يمشون به.

وقد حاز المفسرون في حكمة ذكر «الليل» في آية «الإسراء» من قوله - تعالى - :
﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ. لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾. فإن السرى في لغة العرب لا يكون إلا ليلاً.

(١) فرغت: انتهيت.

(٢) أعترائني: داخنتي وسيطر علي.

(٣) يستمهدون الراحة: يجعلونها مهداً لهم.

والحكمة هي الإشارة إلى أن القصة قصة (النجم) الإنساني العظيم الذي تحول من إنسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة، ويتم هذه العجيبة أن آيات «المعراج» لم تجيء إلا في سورة: «النجم».

وعلى تأويل أن ذكر (الليل) إشارة إلى قصة النجم، تكون الآية برهان نفسها، وتكون في نسقها^(١) قد جاءت معجزة من المعجزات البيانية؛ فإذا قيل إن نجماً دار في السماء، أو قطع ما تقطعه النجوم من المسافات التي تُعجز الحساب، فهل في ذلك من عجيب؟ وهل فيه شك أو نظر أو تردد؟ وهل هو إلا من بعض ما يُسبح الله بذكره؟ وهل يكون إلا آية اتصلت بالآيات التي تزاها اتصال الوجود ببعضه ببعض؟

وأنا ما يكاد ينقضي عجبي من قوله تعالى: ﴿لَتُرِيَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾. مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة، يُخيل إليك أن ليس وراءها شيء، ووراءها السر الأكبر؛ فإنها بهذه العبارة نص على إشراف النبي ﷺ فوق الزمان والمكان يرى غير حجاب الحواس مما مرجعه إلى قدرة الله لا قدرة نفسه؛ بخلاف ما لو كانت العبارة: «ليري من آياتنا» فإن هذا يجعله لنفسه في حدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها، فيضطرب الكلام، ويتطرق إليه الاعتراض ولا تكون ثم معجزة.

وتحويل فعل (الرؤية) من صيغة إلى صيغة كما رأيت، هو بعينه إشارة إلى تحويل الرائي من شكل إلى شكل كما ستعرفه، وهذه معجزة أخرى يسجد لها العقل؛ فتبارك الله منزل هذا الكلام!

وإذا كان ﷺ نجماً إنسانياً في نوره، فلن يأتي هذا إلا من غلبة روحانيته على مادته؛ وإذا غلبت روحانيته كانت قواه النفسية مهية في الدنيا لمثل حالتها في الأخرى؛ فهو في هذه المعجزة أشبه بالهواء المتحرك. فقل الآن: أيعترض على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفع في طيارة...؟

ومن ثم كان الإنسان إذا سما درجة واحدة في ثبات قواه الروحية، سما بها درجات فوق الدنيا وما فيها، وسخرت له المعاني التي تسخر غيره من الناس، ونشأت له نواميس أخلاقية غير النواميس التي تتسلط بها الأهواء. ومتى وجد الشيء من الأشياء كانت طبائع وجوده هي نواميسه؛ فالنار مثلاً إذا هي تضرمت أوجدت الإحراق فيما

(١) نسقها: نمطها، نموذجها.

يحترق، فإن وُضع فيها ما لا يحترق أبطل نوايسها وغلب عليها.
وكل معجزة تحدث فهذا هو سبيلها في إيجاد النوايس الخاصة بها وإبطال
النوايس المألوفة، وبهذا يقال: إنها خَرَقَتِ العادة. ومن النور نور لا يَشْفُ^(١) له غير
الهواء، ومنه أشعة (رونجن) التي تشف لها الجدران والحُجُب؛ فهذه معجزة في ذلك.

والنبي لا يكون نبياً حتى يكون في إنسانه إنسان آخر بنوايس تجعله أقرب
إلى الملائكة في روحانيته، وما ينزل إنسانه الظاهر من الإنسان الباطن فيه إلا منزلة
من يتلقى ممن يُعطي؛ فذلك الباطن هو للحقائق التي لا تحملها الدنيا، وهذا
الظاهر لما يمكن أن يبلغ إليه الكمال في المثل الإنساني الأعلى، ولولا ذلك الباطن
ما استطاع نبي من الأنبياء أن يحمل هموم أمة كاملة لا تُضنيه ولا تُغيزه ولا تُعجزه.
فحقيقة النبوة أنها قوة من الوجود في إنسان مختار جاءت تُصلح الوجود
الإنساني به لتقر في هذه الحيوانية المهذبة مثلها الأعلى، بدالاتها على طريقها
النفسي مع طريقها النفسي مع طريقها الطبيعي؛ فيكون مع الانحطاط الرقي، ومع
النقص الكمال، ومع حكم الغريزة التحكم في الغريزة، ومع الظلمة المادية
الإشراق الروحاني.

وما المعجزات إلا شأن تلك القوة الباطنة لا شأن إنسانها الظاهر، ومن الذي
يُنكر أن قوى الوجود هي في نفسها إعجاز للعقل البشري؟ وهل يُنكر اليوم أحد
شأن هذه القوة في (الراديو) حين مسَّته فجعلت الكلمة التي تُرسل بين الشرق
والغرب، كالقوة بين اثنين يتحدثان في مجلس واحد؟

ونحن نرى معجزات التنويم المغناطيسي وما يُبصره النائم وما يسمعه، وما
ينكشف له مما وراء الزمان والمكان؛ وليس التنويم شيئاً إلا تسليط الذات الباطنة
بقواها الروحية العجيبة، على الذات الظاهرة المقيدة بحواسها المحدودة، فتطغى
عليها، فتُضيق الحواس مطلقة شائعة في الوجود بمقدار ما فيها من قواه لا بمقدار
ما فيها من قوة شخصها.

وعلى نحو من ذلك يتصل الرجل الروحاني بذاته الباطنة، فيوقع شخصه
الظاهر في الاستهواء^(٢)، فينكشف له الوجود، ويُبصر ما يقع على البعد، ويرى ما

(٢) الاستهواء: الاستحالة القلبية.

(١) يشف: يرق.

هو آتٍ قبل أن يأتي؛ وما أكون في هذه الحالة إلا كالمعشوق يقول لعاشقه الذي وقع في قلبه الحب: قد آتيتك نوراً تنظر به جمالي.

وفي علماء عصرنا من يفكر في الصعود إلى القمر، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك، وفيهم من تقع له العجائب في استحضار الأرواح وتسخيرها؛ وكل ذلك أول ألبرهان الكوني الذي سيُلزم العلم فيضطره في يوم ما إلى الإقرار بصحة الإسراء والمعراج.

ونحن قبل أن نُبدى رأينا في القصة نلّم بها الإمامة موجزة؛ فقد اختلفت فيها الأحاديث ووقع فيها تخليط كثير، فجاءت فنونا وأنواعاً من طُرُق شتى، حتى جمعها بعضهم في جزئين، وما تحتل كل ذلك ولا بعضه، ولكن روح الرواية في ذلك الزمن كانت كروح الصحافة في هذا العصر: متى فارت قوّرها استحدثت من كل عبارة عبارة أخرى، وعلى هذه الطريقة تخرج من العبارتين عبارة ثالثة، فيكون الأصل معنى واحداً وإذا هو يمد من يمينه ويساره.

ولا يزور بذلك بأساً؛ فإنهم يشدون به الرأي، ويضاعفون منه اليقين، ويزيدون ضوءاً في نور المعنى، وما داموا قد أثبتوا الأصل واستيقنوه، فلا حرج أن يؤيد القول بعضه بعضاً، بأجتهاد في عبارة، وأستنباط من أخرى، وزيادة في الثالثة ممّا هو بسيل منها، على نحو ما نرى من فن الرواية القصصية؛ إذ تعدد الأساليب والعبارات مختلفة متنوعة، وليس تحتها إلا حقيقة واحدة لا تختلف. والقصاص الديني في هذه اللغة العربية فن كامل قائم بنفسه، لا يدع العقل والخيال والعاطفة أقوى منه ولا أعجب ولا أغرب.

هذا في متن القصة، أمّا في واقعيتها فقد اختلفوا اختلافاً آخر: هل كان الإسراء والمعراج يقظة أو مناماً؟ وبالروح وحدها، أو بالروح والجسم معاً: وإنما ذكرنا هذا الخلاف لأنه الدليل القاطع على أن النبي ﷺ لم يُخَيّر بشيء من ذلك، فلم يعين لهم وجهاً من هذه الأوجه. والحكمة في ذلك أن عقولهم لم تكن تحتل الإدراك العلمي الذي أساسه ما عرّف اليوم من أمر الكهرباء والآثير...
والخلاصة التي تتأدى^(١) من القصة: أنه ﷺ كان مضطجعا، فأتاه جبريل،

(١) تتأدى: تستج.

فأخرجَه مِنَ المسجد، فأركبَهُ الْبُرَاقَ، فَأَتَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى فِيهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ، فَاسْتَفْتَحَهَا جِبْرِيلُ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، فَرَأَى فِيهَا مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ، وَاجْتَمَعَ بِالْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - وَصَعِدَ فِي سَمَاءٍ بَعْدَ سَمَاءٍ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَعَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا، فَرَأَى ﷺ مَظْهَرِ الْجَمَالِ الْأَزَلِيِّ، ثُمَّ رُجَّ^(١) بِهِ فِي النُّورِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ مَا أَوْحَى.

أَمَّا وَشْيُ الْقِصَّةِ وَطَرَازُهَا فَبَابٌ عَجِيبٌ مِنَ الرَّمُوزِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يُرْمَزُ بِهَا إِلَى تَجْسِيدِ الْأَعْمَالِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ: تَكُونُ تَعَبًا وَتَقَعُ فَائِدَةٌ، أَوْ تُلْتَمَسُ مَنَفْعَةٌ وَشَهْوَةٌ وَتَقَعُ مُضَرَّةٌ وَحِمَاقَةٌ، ثُمَّ تَفْتَنُ مِنْ هَذِهِ وَتَلِكِ الصُّورُ الزَّمْنِيَّةُ الَّتِي تَوَهَّمُهَا أَصْحَابُهَا، وَتَخْلُدُ الصُّورُ الْأَبَدِيَّةُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا حَقَائِقُهَا.

وَمِنْ هَذِهِ الرَّمُوزِ الْبَدِيعَةِ قَوْلُهُ: فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: أَخَذْتُ الْفِطْرَةَ. وَأَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ يَزْرَعُونَ وَيَحْصُدُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ، كُلَّمَا حَصَدُوا عَادَ كَمَا كَانَ؛ فَسَأَلَ مَا هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ هَؤُلَاءِ الْمَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ سَبْعُمِائَةٍ ضِعْفٍ. ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ تُرَضِّخُ^(٢) رُؤُوسَهُمْ بِالصَّخَرِ، كُلَّمَا رُضِّخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ وَلَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ؛ فَقَالَ مَا هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَتَنَاقَلُ رُؤُوسُهُمْ عَنِ الصَّلَاةِ. ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَحْمٌ نَضِيجٌ فِي قِدْرٍ، وَلَحْمٌ آخَرُ نِيءٌ فِي قِدْرٍ خَبِيثٍ، فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنَ الْنِجَاسِ وَيَدْعُونَ النَّضِيجَ؛ فَقَالَ مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ الْحَلَالُ الطَّيِّبُ فَيَأْتِي أَمْرًا خَبِيثَةً، وَالْمَرْأَةُ تَقُومُ مِنْ عِنْدِ زَوْجِهَا حَلَالًا طَيِّبًا فَتَأْتِي رَجُلًا خَبِيثًا. ثُمَّ أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ جَمَعَ حَزْمَةً عَظِيمَةً لَا يَسْتَطِيعُ حَمْلُهَا وَهُوَ يَزِيدُ عَلَيْهَا، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الرَّجُلُ تَكُونُ عَلَيْهِ أَمَانَاتُ النَّاسِ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَدَائِهَا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا. ثُمَّ رَأَى نِسَاءً مَعْلَقَاتٍ بِثَدْيَيْهِنَّ؛ فَسَأَلَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَؤُلَاءِ اللَّاتِي أَدْخَلْنَ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ لَيْسَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ.

وَنَحْنُ عَلَى الرَّأْيِ الَّذِي عَلَيْهِ جَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: مِنْ أَنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمِعْرَاجَ كَانَا بِالْجِسْمِ وَالرُّوحِ مَعًا عَلَى التَّأْوِيلِ الَّذِي سَبَّيْنَاهُ؛ وَيُثَبِّتُ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي

(٢) تَرْضَخُ: تَضْرِبُ وَتَشْدُخُ.

(١) رَجَّ بِهِ: أَدْجَلَ.

سورة (والنجم): ﴿إِذْ يَنْشَى اللَّيْلُ مَا يَخْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾. فلا يكون البصر يزيع^(١) ويغطي إلا في الجسم، ولا ينتفي عنه ذلك إلا وهو في الجسم. ولم يتنبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب في قوله: ﴿وَمَا طَغَى﴾: فذلك نص على أنه كان يرى بجسم قد تحوّل عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شيء؛ إذ لا يكون طغيان البصر إلا من تسلّط الخيال عليه بأهواء الجسم التي لا يستقيم بها حكم على حقيقته، فما زاع البصر بكونه مقيّد الحاسة، ولا طغى بكونه مطلق الخيال، بل كان كما يُريه الله من آياته، أي كان حقيقة كونية في غير حالتها الأرضية الناقصة.

والذين قالوا إن الإسراء والمعراج كانا رؤيا رآها النبي ﷺ احتجوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾. وقد خلط المفسرون في هذا أيضاً، وإنما كان التعبير بلفظ «الرؤيا» - وهي التي تكون مناماً - لنفي تأثير الحواس على الرائي، وإثبات أن الطبيعة الآدمية بجملتها كانت فيه كالنائمة عن حياتها الأرضية بحقائقها وأخيلتها معاً، فليس نائماً كالنائم، ولا مستيقظاً كالمستيقظ.

وفي أساس القصة جبريل والبراق، وهما القوة الملائكية والقوة الطبيعية، أو الروح الملائكي والروح الطبيعي؛ ولم يوصف البراق بأنه دابة إلا رمزاً، إذ لا يأتي للعرب أن يفهموا ما يراؤ منه؛ وعندنا أنه سُمي البراق من البرق، وما البرق إلا الكهربائية، وهذا هو المراد منه؛ فتلك قوة كهربائية متى نبّضت جمعت أول العالم بآخره؛ وهذه هي الحكمة في أن آية الإسراء لم تذكر أنه كان محمولاً على شيء، إذا لم يكن محمولاً إلا على روح الأثير.

وما دامت القوة الملائكية والقوة الطبيعية قد سُخرتا له ﷺ فلا معنى لأن يكون ذلك للروح دون الجسم، بل اجتماعهما معاً في القصة دليل على أن سر المعجزة إنما كان في تسيير ملاءمة جسمه الشريف لهاتين الحالتين؛ فيتحول في صورة كونية ملائكية بين سر الملك وسر الطبيعة، وحينئذ لا تجري عليه أحكام الحواس ولا أحكام المادة.

ومن الممكن أن تتحوّل الأجسام إلى حالتها الأثيرية^(٢) في بعض الأحوال الخارقة، وبهذا يُعلّل طي الأرض لبعض الكروحيين، وتعلّل خوارق كثيرة ممّا

(١) يزيع: يحيد ويتحول.

(٢) الأثيرية: الهوائية.

يَحْدُثُ فِي اسْتِحْضَارِ الْأَرْوَاحِ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَمِمَّا يَأْتِيهِ فَقَرَاءُ الْهِنْدِ، وَمِمَّا كَانَ يَصْنَعُهُ «هُودِينِي» الْأَمْرِيكِيُّ: إِذْ كَانُوا يَغْلُلُونَهُ بِالسَّلَاسِلِ وَالْقِيُودِ ثُمَّ يَرُونَهُ طَلِيقًا؛ وَيَحْبِسُونَهُ فِي السَّجُونِ الْمُحَصَّنَةِ يَقُومُ عَلَيْهَا الْحَرَّاسُ وَتُمْسِكُهُ فِيهَا الْأَبْوَابُ وَالْجُدْرَانُ ثُمَّ يَجِدُونَهُ فِي بَعْضِ الْفَنَاقِقِ.

وَلَيْسَ لِلْعَقْلِ أَنْ يُنْكِرَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ تَرْكِيبَ الطَّبِيعَةِ رَدُّ عَلَيْهِ، وَنَقْضُهُ هُوَ رَدُّ عَلَى نَفْسِهِ، وَالْمُسْتَحِيلُ عَلَى الْأَعْمَى هُوَ أَيْسَرُ الْمُمْكِنَاتِ عَلَى الْمُبْصِرِ.

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ ذَكَرَ الْبُرَاقِ وَالْمَلِكِ فِي أُسَاسِ قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ هُوَ صَلَوةُ الْقِصَّةِ بِالْمُعْجِزَةِ، وَهُوَ عَيْنُهُ صَلَاتُهَا بِالْبَرَهَانِ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا لَمَّا كَانَ لَهَا تَفْسِيرٌ.

* * *

وَالْقِصَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ تُثَبِّتُ أَنَّ هَذَا الْوُجُودَ يَرُقُّ وَيُنْكَشِفُ وَيَسْتَضِيءُ كُلَّمَا سَمَا الْإِنْسَانُ بِرُوحِهِ، وَيَغْلُظُ وَيَتَكَثَّفُ وَيَتَحَجَّبُ كُلَّمَا نَزَلَ بِهَا، وَهِيَ مِنْ نَاحِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ قِصَّةُ تَصِفُهُ بِمَظْهَرِهِ الْكُونِيِّ فِي عَظَمَتِهِ الْخَالِدَةِ كَمَا رَأَى ذَاتَهُ الْكَامِلَةَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ، وَمِنْ نَاحِيَةِ كُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ هِيَ كَالدَّرْسِ فِي أَنْ يَكُونَ لِقَلْبِ الْمُؤْمِنِ مِعْرَاجٌ سَمَاوِيٌّ فَوْقَ هَذِهِ الدُّنْيَا، لِيَشْهَدَ بِبَصِيرَتِهِ أَنْوَارَ الْحَقِّ، وَجَمَالَ الْخَيْرِ، وَتَجَسَّدَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَةِ فِي صُورِهَا الْخَالِدَةِ؛ فَيَكُونُ بِتَدْبِيرِهِ الْقِصَّةَ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْزِلُ؛ فَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْحَقَائِقِ الْأَسَاسِيَّةِ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ، فَيَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ تَعَقُّدَ الْأَخِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَسَاسُ الْبَلَاءِ عَلَى الرُّوحِ.

وَمَتَى اسْتَنَارَ الْقَلْبُ كَانَ حَيًّا فِي صَاحِبِهِ، وَكَانَ حَيًّا فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ. وَمَتَى سَلِمَتِ الْحَيَاةُ مِنْ تَعَقُّدِ الْخَيَالِ الْفَاسِدِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ اللَّهِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ الْحَقُّ وَالْخَيْرُ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ الرَّحْمَةُ وَالْحُبُّ.

الإنسانية العليا

من أوصاف النبي ﷺ أَنَّهُ كَانَ متواصِلَ الْأَحْزَانِ، دائمَ الْفِكْرَةِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ، طَوِيلَ السَّكْتِ، لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، لَيْسَ بِالْجَافِي^(١) وَلَا الْمَهِينِ، يُعْظَمُ النِّعْمَةُ وَإِنْ دَقَّتْ لَا يَذُمُّ مِنْهَا شَيْئاً، وَلَا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا وَلَا مَا كَانَ لَهَا، فَإِذَا تُعْذِي الْحَقُّ لَمْ يَقُمْ لِيُغْضِبِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ، وَلَا يَغْضِبُ لِنَفْسِهِ وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا؛ وَكَانَ خَافِضَ الطَّرْفِ^(٢)، نَظَرُهُ إِلَى الْأَرْضِ أَطْوَلَ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، مَنْ رَأَاهُ بِدِيهَةٍ هَابَةٍ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَغْرَفَةً أَحَبَّهُ، لَا يَحْسِبُ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ، وَلَا يَطْوِي عَنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بَشَرَةً^(٣)، قَدْ وَسِعَ النَّاسَ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ، فَصَارَ لَهُمْ أَبًا، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً؛ يُحَسِّنُ الْحَسَنَ وَيَقْوِيهِ، وَيُقْبَحُ الْقَبِيحَ وَيُوهِيهِ^(٤)، مُعْتَدِلُ الْأَمْرِ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ؛ وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً، لَا يَثْبُتُ بَصَرُهُ فِي وَجْهِ أَحَدٍ، لَهُ نَوْرٌ يَعْلُوهُ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، لَا يُؤَيِّسُ^(٥) رَاجِيَهُ، وَلَا يُخَيِّبُ عَافِيَهُ^(٦)، وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمَيْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ؛ أَجْوَدُ النَّاسِ بِالْخَيْرِ.

صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى صَاحِبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا يَجْدُ الْكَمَالَ الْإِنْسَانِي مَذْهَباً عَنْهَا وَلَا عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا، وَلَا يَجْدُ النِّقْصَ الْبَشَرِيَّ مَسَاعاً^(٧) إِلَيْهَا وَلَا إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا؛ فَفِيهَا الْمَعْنَى الْتَامُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ، كَمَا أَنَّ فِيهَا الْمَعْنَى الْتَامُ لِلْحَقِّ، وَمِنْ أَجْتِمَاعِ هَذَيْنِ يَكُونُ فِيهَا الْمَعْنَى الْتَامُ لِلْإِيمَانِ.

هِيَ صِفَاتُ إِنْسَانِيهَا الْعَظِيمِ، وَقَدْ أَجْتَمَعَتْ لَهُ لِتَأْخُذَ عَنْهُ الْحَيَاةُ إِنْسَانِيَّتَهَا الْعَالِيَةَ؛ فَهِيَ بِذَلِكَ مِنْ بُرْهَانَاتِ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ.

(١) الجافي: القاسي الغليظ.

(٢) الطَّرْفُ بسكون الراء: النظر.

(٣) بشره: سروره وابتسامه وبسطه.

(٤) يوهيه: يضعفه.

(٥) يؤيس: يقنط ويفقد الأمل من رجائه.

(٦) العافي: المحتاج.

(٧) مساعاً: سبلاً.

ولو جمعت كل أوصافه ﷺ ونظمناها بعضها إلى بعض، واعتبرناها بأسرارها العليمية - لرأيت منها كونا معنويا دقيقا قائما بهذا الإنسان الأعظم، كما يقوم هذا الكون الكبير بسننه وأصول الحكمة فيه، ولا يفتن أن هذا النبي الكريم إن هو إلا مُعْجَمٌ نفسي حي ألفته الحكمة الإلهية بعلم من علمها، وقوة من قوتها، لتخرج به الأمة التي تبتدع العالم إبداعاً جديداً، وتُنشِئُ النشأة المحفوظة له في أطوار كماله.

ولن ترى في الإنسانية أسمى من اجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض وإنني لأكاد كلما تأملتُها أحسب هذا السمر قضاء وقدرأ بإنسان على الإنسانية كلها. وهي دليل على أنه الإنسان الذي خلق للدنيا لا لنفسه؛ فهو لا ينمو بما يكون على الناس من الحق، ولكن بما يكون للناس عليه من الواجبات، كأنما هو حقيقة كونية تعيش عيشها، فما تكون في الوجود إلا لتقرّر وجودها هي، ولا تنتهي حين تنتهي بذاتها إلا لبدا معانيها في غيرها، فهو ﷺ إنسان غرس في التاريخ غرساً ليكون حداً لزمان وأولاً لزمان بعده، وما كانت حياته تلك إلا طريقة غرسه، وهو أبداً أصبح في الدنيا كأنه جهة من الجهات لا إنسان من الناس، فلن يتغير أو يُمحى إلا إذا تغير أو محى المشرق والمغرب.

ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضت به كتب السمائل من أمثالها، لا نقرأها أوصافاً ولا حلية، بل نراها صفحة إلهية مصنفة أبداع تصنيف وأدقه، ومن وراء تأليفها تفسير طويل لا يتهدي^(١) الفكر البشري لأحسن منه ولا أصح ولا أكمل؛ فقد اجتمعت تلك الصفات في إنسانها اجتماع الأجزاء في المسألة الرياضية: لا ينبغي أن تزيد أو تنقص، إذ كان في مجموعها ما وجد له مجموعها.

ويكاد الارتباط بين أجزاء المسألة يكون هو بعينه صورة للارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة؛ فإن كل جزء منها موضوع وضعا لا يتم الكل إلا به، حتى لا موضع فيها لقلّة أو كثرة؛ وهذا معنى قوله ﷺ «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، وأنت إذا دقت في هذا الحديث أدركت من مغنايته أن هناك طبيعة أخلاقية مفردة^(٢) تجري على قانونها الذي وضعه الله لها وأحكمها به.

وأعجب ما يدهشنا من مجموع صفاته ﷺ أن فيها دليلاً بيناً على أنه مخلوق خلقة متميزة بنفسها، كخلقة القلب الإنساني: نظامه حياته وحياته نظامه، وكأنما

(٢) مفردة: مميزة.

(١) لا يتهدي: لا يعثر.

أعترته حالة نفسية كآلتى تعترى القلب في استشعار الخطر فتخرجه من طبيعته إلى أقوى منها، فلا يزال يمد أعضاء الجسم بمدد لا ينفد من القوة والصبر، يجعل الحياة فيها على أضعافها كأنها حياة كانت مخبوءة وظهرت بغتة؛ وفي هذه الحالة تتجه غرائز النفس كلها إلى جهة واحدة كأنها مقدرة بميزان، مضبوطة بقياس؛ فترجع على تناقضها واختلافها متعاونة يوازرها^(١) بعضها بعضاً، وكان قانونها الطبيعي أن تتجاذب وتتساقط وتفسر الواحدة منها عمل الأخرى، فيجيء بها الشيء وضده معاً: كالصدق والكذب، والطمع والقناعة، والشهوات الثائرة والخمود الساكن، إلى آخر ما تعد من هذه الغرائز؛ ولكنها في استشعار الخطر تكون كالأشياء لا كالأضداد، فيشد بعضها بعضاً، ويتمم النقيض منها نقيضه، وتجري كلها في قانون واحد: هو الدفاع بأجزائها عن مجموعها؛ فترى النزاع منها وإنه لمستقر في أشد من القيد، وكان فيه غير طبيعته.

وهل ينبئك مجموع صفاته ﷺ إلا أنه يعيش معيشة القلب إذا اختلف ما حوله وفجأته بغتات^(٢) الوجود فتجاوز أن يكون منبعاً للحياة إلى أن يكون حافظاً للحياة في منبعها؟

وتلك الحالة - كما مر بك - تجعل وجود الإنسان هو وجود إرادته وعقله، لا وجود شهواته وغرائزه؛ وكذلك عاش نبينا ﷺ فهو مدة حياته في وجود إرادته لا غيرها، حتى ليس عليه سبيل لغميزة أو لائمة، كأنه خلق تشده نية مستيقظة قد نبهها ما ينبئ النفس من العرر والخطر. ولعل هذا الشعور في نفسه ﷺ هو التفسير لقوله: «نية المؤمن خير من عمله». إلى أحاديث كثيرة مما يجري في معنى هذه الكلمة الجامعة؛ يريد بها: أن نية المؤمن لا تنطوي إلا على الخير الكامل، فهو - ما دامت نيته على صلاحها وسره على إخلاصه - لا يعدد اليسير من الشر يسيراً، ولا يرى الكثير من الخير كثيراً؛ فالأصل القائم في تلك النية المؤمنة ألا يبدأ الشر كي لا يوجد، وألا ينتهي الخير كي لا يفنى؛ فالمؤمن من ذلك على الخير والكمال أبداً، في حين أن عمله بطبيعته الإنسانية يتناول الخير والشر جميعاً، ثم لا يكون إلا عملاً إنسانياً على نقص واضطراب والتواء.

وقد لا يستطيع المؤمن أن يأتي الخير في بعض أحواله، ولكنه يستطيع دائماً

(٢) بغتات: مفاجآت.

(١) يوازرها: يعضد ويقوي.

أَنْ يَتَوَيْهَ وَيَرْغَبَ فِيهِ وَيَعَزَّمَ عَلَيْهِ، لِيُحَقِّقَ ضَمِيرَهُ فِي كُلِّ مَا يَهْمُ بِهِ؛ وَيَحْصِرَ أَفْكَارَهُ فِي قَانُونٍ نَبِيئِهِ أَلْمُؤْمَنَةُ. وَهَذَا هُوَ الْأَسَاسُ فِي عِلْمِ الْأَخْلَاقِ، لَا أَسَاسٌ مِنْ دُونِهِ. وَالنِّيَّةُ مِنْ بَعْدِ هِيَ حَارِسُ الْعَمَلِ؛ فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُذْعِنَ^(١) وَأَنْ يَأْتِيَ، وَمَنْ تَمَّ تَكُونُ هَذِهِ النِّيَّةُ رَدًّا وَمَدَافَعَةً مِنْ نَاحِيَةٍ، وَأَسْتِجَابَةً وَمُطَاوَعَةً مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى؛ فَهِيَ عَلَى الْحَقِيقَةِ مَتَى صَلَحَتْ كَانَتْ أَسْتِقْلَالًا تَامًا لِلْإِرَادَةِ، وَكَانَتْ مَعَ ذَلِكَ ضَبْطًا لِهَذِهِ الْإِرَادَةِ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الَّتِي يَنْتَظِمُ بِهَا قَانُونُ الْمَبْدَأِ السَّامِيِّ. ثُمَّ إِنَّهُ لَا ضَابِطَ لِصِحَّةِ الْعَمَلِ وَأَسْتِقَامَتِهِ إِلَّا النِّيَّةُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ؛ فَالْتَزْوِيرُ وَالتَّلْيِيسُ كِلَاهُمَا سَهْلٌ ميسورٌ فِي الْأَعْمَالِ، وَلَكِنَّهُمَا مُسْتَحِيلَانِ فِي النِّيَّةِ إِذَا خُلُصَتْ.

وهي كذلك ضابطة للفضائل تُوجِّهُ الْقُلُوبَ عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَفَاوُتِهَا أَتَجَاهًا وَاحِدًا لَا يَخْتَلِفُ؛ فَيَكُونُ طَرِيقُ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ، مِنْ نَاحِيَةِ الطَّرِيقِ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ اللَّهِ.

وَأَشْوَاقُ الرُّوحِ بِطَبِيعَتِهَا لَا تَنْتَهِي، فَيُعَارِضُهَا الْجِسْمُ بِجَعْلِ حَاجَاتِهِ غَيْرَ مُنْتَهِيَةٍ؛ يُحَاوِلُ أَنْ يَطْمَسَ^(٢) بِهِذِهِ عَلَى تِلْكَ، وَأَنْ يُغْلِبَ الْحَيَوَانِيَّةَ عَلَى الرُّوحَانِيَّةِ، فَإِذَا كَانَتْ النِّيَّةُ مُسْتَقِظَةً كَفَّتْهُ وَأَمَاتَتْ أَكْثَرَ نَزْعَاتِهِ، وَوَضَعَتْ لِكُلِّ حَاجَةٍ حَدًّا وَنِهَاجَةً؛ وَبِذَلِكَ تَرْجِعُ النِّيَّةُ إِلَى أَنْ تَكُونَ قُوَّةً فِي الْنَفْسِ يَخْرُجُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَخُذُّهُ مِنْ جِسْمِهِ، لِيَخْرُجَ بِذَلِكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَخُذُّهُ مِنْ مَعَانِي الْأَرْضِ...

وهي بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَاجِبِهِ كَأَنَّهُ رَقِيبٌ حَيٌّ فِي قَلْبِهِ، لَا يُرَائِيهِ وَلَا يُجَامِلُهُ، وَلَا يُخَدِّعُ مِنْ تَأْوِيلٍ، وَلَا يُغَرُّ بِفَلَسَفَةٍ وَلَا تَزْيِينٍ، وَلَا يُسَكِّنُهُ مَا تُسَوِّلُ الْنَفْسُ^(٣)، وَلَا يَزَالُ دَائِمًا يَقُولُ لِلْإِنْسَانِ فِي قَلْبِهِ: إِنَّ الْخَطَأَ أَكْبَرَ الْخَطَأِ أَنْ تَنْظِمَ الْحَيَاةَ مِنْ حَوْلِكَ وَتَتْرَكَ الْفَوَاضِي فِي قَلْبِكَ.

وَجَمَلَةُ الْقَوْلِ فِي مَعَانِي النِّيَّةِ أَنَّهَا قُوَّةٌ تَجْعَلُ بَاطِنَ الْجِسْمِ مُتَسَاوِقًا مَعَ ظَاهِرِهِ، فَتَتَعَاوَنُ الْغَرَائِزُ الْمَخْتَلِفَةُ فِي الْنَفْسِ تَعَاوُنًا سَهْلًا طَبِيعِيًّا مُطْرِدًا، كَمَا تَتَعَاوَنُ أَعْضَاءُ الْجِسْمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي أَطْرَادٍ وَسَهْوَةٍ وَطَبِيعَةٍ.

(١) يُذْعِنُ: يَخْضَعُ.

(٢) يَطْمَسُ: يَغْطِي.

(٣) تُسَوِّلُ الْنَفْسُ: تَوَسَّسُ.

وكل صفات النبي ﷺ - ممّا ذكرناه وما لم نذكره - متى أُعْتُبِرَتْ بذلك الأصل الذي بيّناه أنظمتها جميعاً، فجاء بعضها تماماً على بعضٍ في نسقٍ رياضيٍّ عجيب، وظهرت حكمة كل منها واضحة مكشوفة، ورأيتها في مجموعها تصف لك عمراً هندسياً دقيقاً قد بلغ الغاية من الكمال والروعة والدقة، لا يُعَدُّ جزء منه جزءاً، بل كلّ أجزاؤه، وأجزاؤه كلّ؛ كالوضع الهندسي: إمّا أن يكون بكّله، وإمّا ألا تكون فيه الهندسة كلّها.

وليس مجموع تلك الصفات في معناه إلا صنعة الإنسان صنعة جديدة تُخرجه موجوداً من ذات نفسه، وتكسر القالب الأرضي الذي صُب فيه وتفرغه في مثل قالب الكون، فإذا هو غير هذا الإنسان الضيق المنحصر في جسمه ودواعي جسمه، فلا تخضعه المادة، ولا يؤتى من سوء نظره لنفسه، ولا تغره^(١) الدنيا، ولا يمسكه الزمان؛ إذ كانت هذه هي صفات المستعبد بأهوائه لا الحرّ فيها، والخاضع بنفسه لا المستقل بها، والمقبور في إنسانيته لا الحيّ فوق إنسانيته؛ ومثل هذا المستعبد الخاضع المقبور لا وجود له إلا في حكم حواسه، فعمله ما يعيش به لا ما يعيش من أجله؛ ويتصل بكل شيء اتصالاً مبتوراً^(٢) ينتهي في هوى من أهواء الحيوان الذي فيه.

ومن المقابلة العجيبة أن يكون في الإنسان الاجتماعي حيواناً، تُقابلُهُ الحكمة في الحيوان الأليف بإنسان، وحكمها واحد ومنطقهما لا يختلف. فلو أنك سألت حيوان الأعصاب عن صاحبه الإنسان لقال لك: هو غلّتي ومزّعتي. ولو سألت كلباً عن حبه صاحبه ومبلغ هذا الحب في نفسه لما زاد في جوابه على أنه يحبه حبّ اللقمة والعظمة..

ومتى كان الإنسان في حكم حواسه لم تعد الأشياء عنده كما هي في نفسها بمعانيها الطبيعية المحدودة، وأنقلبَت كما هي في وهمه بمعانٍ متفاوتة مضطربة، فلا يشعر المرء بأتلاف الوجود وتعاونهِ، ولكن باختلافه وتناقضه، فيمن ثم لا تكون أسباب اللذة إلا من أسباب الألم، ويدخل في كلّ حب بغض، وفي كلّ رغبة طمع، وفي كلّ خير شر، وفي كلّ صريح خبيء، وهلمّ جزاء؛ إذ لا بدّ من هذا كلّ متى غلبَ ألفاني على الباقي، ولا بدّ من كلّ هذا في تمثيل رواية الحواس الخادعة

(٢) مبتوراً: مقطوعاً.

(١) تغره: تخدعه.

التي أساسها التغير والتقلب، حتى لَكَأَنَّ النَّفْسَ إِنَّمَا تعيشُ بها في ظاهرٍ مِنَ الْحَيَاةِ لا في الْحَيَاةِ نَفْسِهَا.

وهذا الخداعُ جاعِلٌ كُلَّ شَيْءٍ من أَشْيَاءِ النَّفْسِ لا يَبْدَأُ إِلَّا لِيَنْتَهِيَ، ثُمَّ لا يَنْتَهِي إِلَّا لِيَبْدَأَ؛ فما تَزَالُ هذه النَّفْسُ طامعةً فيما لا تَنَالُهُ، ولا يَزَالُ من ذَلِكَ مُصَدِّرٌ لِأَلَامِهَا الْحَسِّيَّةِ؛ ثم إذا هي نَالَتْ مَنَالَهَا سَمِمَتْ، فلا يَزَالُ من ذَلِكَ مُصَدِّرٌ آخَرٌ لِأَلَامِهَا الْمَعْنَوِيَّةِ. ولن يَجِيءَ الصَّحِيحُ من غيرِ الصَّحِيحِ؛ فالكَوْنُ كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا كَذِباً في النَّفْسِ الْكَاذِبَةِ بِحَوَاسِّهَا.

ولذا كَانَ أَخْصَصُ أَوْصَافِهِ ﷺ راجعاً إلى خروجه من سلطانِ نَفْسِهِ، فلا يَغْضَبُ لَهَا، ولا يُطْلِقُهَا مِنَ الدُّنْيَا فيما تَذُمُّهُ أو تَمْدَحُهُ، ولا يُحِبُّ فِيهَا، ولا يُبْغِضُ من أَجْلِهَا، ولا يُهَاجِرُهَا، ولا يَسْتَلِينُ لَهَا في مَأْكَلٍ ولا مَلْبَسٍ، ولا يَأْخُذُهَا إِلَّا من نَاحِيَةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِالْإِنْسَانِيَّةِ؛ فَأَفْرَاحُهَا أَحْزَانُهَا، وَأَمَالُهَا أَشْوَاقُهَا، وَأَمَلَاكُهَا أَعْمَالُهَا، وَجَسَابُهَا في طَبِيعَتِهَا، وَحَوَادِثُهَا مِنَ الْعَقْلِ لا مِنَ الْحَوَاسِّ، وَعَظَمَتُهَا إِبْثَاتُ ذَاتِهَا في غَيْرِهَا، لا إِبْثَاتُ غَيْرِهَا في ذَاتِهَا؛ وَغَايَتُهَا في الْبَاقِي لا الْزَائِلُ، وفي الْخَالِدِ لا الْفَانِي، وما دَامَ الْحَاضِرُ متحرِّكاً فهو طَارِئٌ عَابِرٌ أَوْشَكُ أُمُورِ الدُّنْيَا زَوَالاً، وَالْعَمَلُ لَهُ على مَقْدَارِهِ في قَلَّةِ لُبِّهِ^(١) وَهَوَانِ أَمْرِهِ، وَالْأَهْتِمَامُ أَبَدًا بِمَا وَرَاءَهُ لا بِهِ.

فأولُ النَّفْسِ النِّيَّةُ الْعَامِلَةُ لِآخِرَتِهَا، وَآخِرُ النَّفْسِ ما تُؤْذِي إِلَيْهِ أَعْمَالُ هذه النِّيَّةِ؛ فَلَيْسَ في إِنْسَانِ الدُّنْيَا إِلَّا إِنْسَانُ الْعَالَمِ الْآخِرِ؛ وبهذا يُقَدَّرُ صَمْتُهُ وَكَلَامُهُ، وَحَرَكَتُهُ وَسُكُونُهُ، وما يَأْتِي وما يَدَعُ، وما يُحِبُّ وما يَكْرَهُ، إذْ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ على ذَلِكَ أَلَا عِتَابٍ إِنَّمَا هو صُورَةُ الْحَقِيقَةِ الْعَامِلَةِ فِيهِ.

وجَمَاعُ الْأَمْرِ^(٢) أَلَّا يَكُونَ مُسْتَقْبَلُ الْإِنْسَانِ عِلَامَةً أَسْتَهْزَأَ بِجَانِبِ مَاضِيهِ، ولا عِلَامَةً أَسْتَفْهَمَ، ولا عِلَامَةً إِنْكَارَ.

* * *

وتدلُّ صِفَاتُ النَّبِيِّ ﷺ بِاجْتِمَاعِهَا وَتَسَاوُفِهَا^(٣) على حَقِيقَةِ عَظَمَى لِمَ يَتَنَبَّأُ إِلَيْهَا أَحَدٌ؛ وَهِيَ أَنَّ جَمِيعَ خِصَائِصِ النَّفْسِ مَرْهُقَةٌ^(٤) مَتِيقُظَةٌ، وَهَذَا مِمَّا يَنْذُرُ

(١) لُبُّهُ: مَكْتَبُهُ، بَقَائِهِ.

(٢) جَمَاعُ الْأَمْرِ: الْخِلَاصَةُ.

(٣) تَسَاوُفُهَا: تَجَانُّسُهَا.

(٤) مَرْهُقَةٌ: مَتَعَبَةٌ.

وقوعه وإمكانه؛ فإنَّ الرجلَ منَ الناسِ ليكونَ حيًّا بالحياة، ولكنَّ جوانبَ كثيرةٍ من نفسه قد طاحَ بها الموت، أو هي مريضةٌ وذلك أولُ الموت؛ أو غافلةٌ وذلك شبهُ الموت؛ أمَّا الحيُّ العَظيمُ فهو الذي يحيا بأكثرِ خصائصِ نفسه، وأمَّا الحيُّ الأعظمُ فهو الذي يحيا بجميعِ خصائصِها، تملؤه الحياةُ فيملاً الحياة، ويتمدُّ السرُّ فيه ليريه حقائقُ الأشياءِ ويَهْدِيه ويدلُّه، فيكونُ بنفسِه رؤيةً للناسِ وهدايةً ودلالةً؛ ومثلُ هذا يعظمُ ثمَّ يعظمُ حتى ليرى الفرقَ بينه وبينَ غيره كالفرقِ بين نورِ لَبَسِ اللحمِ والدمِ، وبين ثرابِ لَبَسِ الدَّمِ واللحمِ.

وذلك لا يَكادُ يَتَفَقُّ إلا في مراتبِ أعلاها ألامتيازُ في النبوة، ثمَّ تدنو إلى النبوة؛ ثمَّ تنزلُ إلى ألامتيازِ في الحكمة؛ ثمَّ تهبطُ إلى عبقرية الشعر. فأكبرُ الشعراءِ قاطبةً كالنبي في معناه إلا أنَّه نبيٌّ صغير، وإلاَّ أنَّه في حُدودِ قلبه.

وهذه القوى الثلاثُ هي التي أبدعتها الحكمةُ الإلهيةُ لتحويلِ الحياةِ والسَّموِّ بها؛ فالشاعرُ يستوحي الجمالَ إذا تألَّهَ الجمالُ في قلبه، والحكيمُ يستوحي الحقيقةَ إذا تألَّهتْ في نفسه، والنبيُّ يستوحي الألوهيةَ نفسها.

«كان ﷺ متواصلَ الأحزان» ولكنها أحزانُ النبوةِ تكسو الحياةَ فرحَ النفسِ الكبيرة؛ وهو فرحٌ كلُّه حزنٌ وتأملٌ، وفكرةٌ وخشوعٌ، وطهرٌ وفضيلةٌ؛ وما فرحُ أعظمِ الشعراءِ يطربُ الوجودَ وجمالِ الموجوداتِ إلا شيءٌ قليلٌ من حزنِ النبيِّ.

«وكان دائمَ الفكرةِ ليست له راحة» إذ هو مكلفٌ أن يصنعَ الإنسانَ الجديدَ ويُنفِّخَ^(١) الأدميةَ فيه. وفكرةُ النبيِّ هي معيشتُه بنفسِه معَ الحقائقِ العليا، إذ لا يرى أكثرَها تعيشُ في الناسِ، وهي الفرديةُ واستقلالُها وسموها؛ لأنها إ طاقةُ النفسِ الكبيرةِ ليوحدتها، بخلافِ الأنفسِ الضعيفةِ التي لا تُطيقُها، فدأبها أبدأ أن تبحثَ عما تستعيدُ له، أو تنسى ذاتها فيه، أو تستريحُ إليه من ذاتها. ومتى كانتِ النفسُ فارغةً كان تفكيرُها مضاعفةً لفراغها، فهي تفرُّ منه إلى ما يُلهمها عنه؛ ولكنَّ العَظيمَ يعيشُ في امتلاءِ نفسه؛ وعالمُه الداخليُّ تُسميه اللغةُ أحياناً: الفكرة؛ وتُسميه أحياناً: الصمت.

«وكان ﷺ طويلَ السُّكوتِ لا يتكلَّمُ في غيرِ حاجة»، ومن الصمتِ أنواع:

(١) ينفخ: يميز بين الجيد والردىء.

فَنَوْعٌ يَكُونُ طَرِيقَةً مِنْ طَرِيقِ الْفَهْمِ بَيْنَ الْمَرءِ وَبَيْنَ أَسْرَارِ مَا يُحِيطُ بِهِ؛ وَنَوْعٌ يَغْشَى
الْإِنْسَانَ الْعَظِيمَ لِيَكُونَ عَلَامَةً عَلَى رَهْبَةِ السِّرِّ الَّذِي فِي نَفْسِهِ الْعَظِيمَةِ؛ وَنَوْعٌ ثَالِثٌ
يَكُونُ فِي صَاحِبِهِ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ الْحُكْمِ عَلَى صَمْتِ النَّاسِ وَكَلَامِهِمْ؛ وَنَوْعٌ رَابِعٌ
هُوَ كَالْفَصْلِ بَيْنَ أَعْمَالِ الْجَسَدِ وَبَيْنَ أَلْسِنَةِ الرُّوحِ فِي سَاعَةِ أَعْمَالِهَا؛ وَنَوْعٌ خَامِسٌ يَكُونُ
صَمْتًا عَلَى دَوِيِّ تَحْتَهُ يُشَبِّهُ نَوْمًا سَاكِنًا عَلَى أَحْلَامٍ جَمِيلَةٍ تَتَحَرَّكُ.

عَلَى هَذَا الِتَّمَطِ يَجِبُ أَنْ تُفَسَّرَ كُلُّ أَوْصَافِهِ ﷺ؛ فَهِيَ بِمَجْمُوعِهَا طَائِعٌ إِلَهِيٌّ
عَلَى حَيَاتِهِ الشَّرِيفَةِ، يُثَبِّتُ لِلدُّنْيَا بِكُلِّ بَرَهَانَاتِ الْعِلْمِ وَالْفَلَسَفَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْأَفْضَلَ،
وَأَنَّهُ الْأَقْدَرُ، وَأَنَّهُ الْأَقْوَى.

سُمُّ الْفَقْرِ في المصلح الاجتماعي الأعظم

١

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مَا يَصِفُ التَّارِيخُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ بِطَبِيعَتِهِ فَوْقَ
الْإِسْتِغْنَاءِ، فَهُوَ فَقِيرٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالْفَقْرِ، وَلَا تَنَالُهُ الْمَعَانِي النَّفْسِيَّةُ الَّتِي تَعْلُو
بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا وَتَنْزُلُ بِعَرَضٍ، فَمَا كَانَتْ بِهِ خَلَّةٌ تُخَدِّثُ هَذَا فِي الْحَيَاةِ فَيَرْمُمُهَا
أَلْمَالُ^(١)، وَلَا كَانَ يَتَحَرَّكُ فِي سَعْيٍ يُتَّفَقُ فِيهِ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ لِيَجْمَعَ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا
كَانَ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ مِنْ طَمَعٍ أَدْرَكَ أَوْ طَمَعٍ أَخْفَقَ، وَلَا نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِي
الْحَسْبَةِ وَالتَّدْبِيرِ لِيَتَدَبَّرَ مَعِيشَتُهُ فَيَحْتَلِبَهَا^(٢) ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً، وَلَا أَسْتَقَرَّ فِي قَلْبِهِ الْعَظِيمِ
مَا يَجْعَلُ لِلدِّينَارِ مَعْنَى الدِّينَارِ وَلَا لِلدَّرْهَمِ مَعْنَى الدَّرْهَمِ؛ فَإِنَّ الْمَعْنَى الْحَيَّ لِهَذَا
الْمَالِ هُوَ إِظْهَارُ النَّفْسِ رَابِيَةً مُتَجَسِّمَةً فِي صُورَةٍ تَكْبُرُ فِي قَدْرِ مِنَ السَّعَةِ وَالْغِنَى؛
وَالْمَعْنَى الْحَيَّ لِلْفَقْرِ مِنَ أَلْمَالِ هُوَ إِبْرَارُ النَّفْسِ ضَائِلَةً مَنْزُوتَةً فِي صُورَةٍ تَصْغُرُ عَلَى
قَدْرِ مِنَ الضَّيْقِ وَالْعُسْرَةِ.

إِنْ فَقَرَهُ ﷺ كَانَ مِنْ أَنَّهُ يَتَّسِعُ فِي الْكُؤُنِ لَا فِي أَلْمَالِ، فَهُوَ فَقْرٌ يُعَدُّ مِنْ
مُعْجَزَاتِهِ الْكُبْرَى الَّتِي لَمْ يَتَنَبَّأْ إِلَيْهَا أَحَدٌ إِلَى الْآنَ، وَهُوَ خَاصٌّ بِهِ وَمِنْ أَيْنَ تَدَبَّرْتَهُ
رَأَيْتَهُ فِي حَقِيقَتِهِ مُعْجَزَةٌ تَوَاضَعَتْ وَغَيَّرَتْ أَسْمَاءَهَا؛ مُعْجَزَةٌ فِيهَا الْحَقَائِقُ النَّفْسِيَّةُ
وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ الْكُبْرَى، وَقَدْ سَبَقَتْ زَمَنُهَا بِأَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا، وَهِيَ الْيَوْمَ تُثَبِّتُ بِالْبُرْهَانِ
مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ».

نَحْنُ فِي عَصْرِ تَكَادُ الْفَضِيلَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِيهِ تَلَحُّقُ بِالْأَلْفَاظِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ
عَلَى مَا كَانَ قَدِيمًا... بَلْ عَادَتْ كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ الشَّعْرِ تُرَادُّ لِتَحْرِيكِ النَّاسِ

(١) يَرْمُمُهَا الْمَالُ: يَصْلَحُهَا.

(٢) يَحْتَلِبُهَا: يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا.

الَلْغَوِيُّ الْرَاكِدِ فِي الْخِيَالِ، كَمَا تَقُولُ: السَّحَابُ الْأَزْرَقُ، وَالْفَجَرُ الْأَبْيَضُ، وَالشَّمَقُ الْأَحْمَرُ، وَالَّتَطَارِيفُ^(١) الْوَرْدِيَّةُ عَلَى ذَيْلِ الشَّمْسِ. وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَنْظُرُ أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَكْثَرِهِمْ بِأَعْيُنٍ فِيهَا مَعْنَى وَحْشِيٌّ لَوْ لَمَسَ لَضَرْبَ أَوْ طَعَنَ أَوْ ذَبَحَ.

وَعَمِلَتْ الْمَدْنِيَّةُ أَعْمَالَهَا فَلَمْ تَرُذْ عَلَى أَنْ أَخْرَجَتْ الشَّكْلَ الشَّعْرِيَّ لِإِنْسَانِيهَا الْفَنِّيِّ مُتَهَافِتًا^(٢) تَرْفًا، وَنِعْمَةً، وَأَفْتَتَانًا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ أَيْسَرِ الْحَلَالِ إِلَى الْفُطَيْعِ الْمُتَفَاحِشِ فِي الْإِبَاحَةِ؛ فَكَأَنَّمَا وَضَعَتْ الْمَدْنِيَّةُ عَقْلًا فِي وَحْشٍ، فَجَاءَ وَقَدْ زَاغَتْ^(٣) فِيهِ الطَّبِيعَةُ مِنْ نَاحِيَّتَيْنِ؛ ثُمَّ قَابَلَتْهُ بِالشَّكْلِ الْوَحْشِيِّ لِإِنْسَانِيهَا الْفَقِيرِ، فَكَأَنَّمَا نَزَعَتْ عَقْلًا مِنْ إِنْسَانٍ، فَجَاءَ وَقَدْ ضَلَّتْ فِيهِ الطَّبِيعَةُ مِنْ نَاحِيَّتَيْنِ؛ وَكَانَ مَعَ الْأَوَّلِ سَرَفُ الْهَوَى بِالطَّبِيعَةِ، وَكَانَ مَعَ الثَّانِي بِالطَّبِيعَةِ سَرَفُ الْحِمَاةِ.

وَقَدْ أَصْبَحَ مِنْ تَهْكُمِ الْحَيَاةِ بِأَهْلِهَا أَنْ يَكُونَ الْفَقِيرُ فَقِيرًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ صِنَاعَتَهُ فِي الْمَدْنِيَّةِ عَمَلٌ الْغَنِيِّ لِلْأَغْنِيَاءِ... وَأَنْ يَكُونَ الْغَنِيُّ غَنِيًّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ عَمَلَهُ فِي الْمَدْنِيَّةِ هُوَ صِنْعَةُ الْفَقْرِ لِضَمِيرِهِ!

وَخَرَجَتْ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ مَسَائِلُ جَدِيدَةٌ فِي فِلَسَفَةِ الْمُعَايِشَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يَسْمُونَهَا «الاجْتِمَاعَ»؛ إِلَى أَسْئَلَةٍ كَثِيرَةٍ لَوْ ذَهَبْنَا نَعْدُهَا وَنَصَفُهَا لَطَالَ بِنَا الْقَوْلَ، وَكُلُّهَا عَامِلَةٌ عَلَى نَزْعِ الشُّعُورِ الْعَقْلِيِّ مِنَ الْحَيَاةِ لِتُظْهَرَ أَسْخَفَ مِمَّا هِيَ، وَأَقْبَحَ مِمَّنْ كَانَتْ؛ حَتَّى أَصْبَحَتْ الشَّمْسُ تَطْلُعُ تَمَحُّو لَيْلًا عَنِ الْمَادَةِ وَتُلْقِي لَيْلًا عَلَى النَّفْسِ، فِي حِينِ أَنْ الدِّينَ وَالْإِنْسَانِيَّةَ لَا يَعْمَلَانِ غَيْرَ بَثِّ هَذَا الْنُورِ الْعَقْلِيِّ فِي الْأَشْيَاءِ وَالْمَعَانِي لِتُظْهَرَ الْحَيَاةُ مُضِيئَةً مُلْتَمِعَةً، فَتُصْبِحُ أَوْضَحَ مِمَّا هِيَ فِي نَفْسِهَا، وَأَجْمَلَ مِمَّا هِيَ فِي الطَّبِيعَةِ.

فِي مِثْلِ هَذِهِ النِّزَعَاتِ الْمُتَقَاتِلَةِ الَّتِي صَعِدَتْ بِالْفِلَسَفَةِ وَنَزَلَتْ، وَجَعَلَتْ مِنَ الْعِلْمِ فِي صَدْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِلءَ سَمَاءٍ مِنَ الْغُيُومِ بِسَوَادِهَا وَرَغْدِهَا وَصَوَاعِقِهَا، وَتَرَكَّتِ الْعَالَمَ يَضْجُ ضَجِيجُهُ الْمَزْعَجَ فِي قَلْبِ كُلِّ حَيٍّ حَتَّى لَتَذَاعَ الْهَمُومُ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ إِذَاعَةُ الْأَصْوَاتِ إِلَى أَسْمَاعِهِمْ فِي «الرَّادِيُو»... فِي مِثْلِ هَذَا الْبَلَاءِ الْآمَاحِ تَتَلَقَّتْ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَى التَّارِيخِ تَسْأَلُهُ دَرْسًا مِنَ الْكِمَالِ الْإِنْسَانِيِّ الْقَدِيمِ تَطْبُ مِنْهُ لِهَذِهِ الْحِمَاقَاتِ الْجَدِيدَةِ، وَلَوْ عَلِمَتْ لَعَلِمَتْ أَنَّ دَرْسَ هَذَا الْعَصْرِ فِي عِلَاجِ مَشَاكِلِهِ

(١) التَّطَارِيفُ: الْإِشْعَاعَاتُ.

(٢) مُتَهَافِتًا: مُتَسَارِعًا مُتَهَالِكًا.

(٣) زَاغَتْ: مَالَتْ انْحَرَفَتْ.

الإنسانية هو «محمد» ﷺ، الذي لن يبلغ أحد في وصفه الاجتماعي ما بلغ هو في قوله: «إنما أنا رحمة مهداة».

هذا المصلح الاجتماعي الأعظم يلقي فقره اليوم درساً على الدنيا العلمية الفلسفية، لا من كتاب ولا فكر، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته؛ إذ ليس المصلح من فكر وكتب، ووعظ وخطب، ولكنه الحي العظيم الذي تلمسه الفكرة العظيمة لتحيا فيه، وتجعل له عمراً ذهنيًا مُصرفاً على حكمها، فيكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها.

وما كان محمد ﷺ إلا عمراً ذهنيًا مخضاً، تمر فيه المعاني الإلهية لتظهر للناس إلهية مفسرة. وكل حياته ﷺ دروس مفننة مختلفة المعاني، ولكنها في جملتها تخاطب الإنسان على الدهر بهذه الجملة: أيها الحي، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك: أي إذا كانت الحياة في الحقيقة فلا تكن أنت في الكذب، وإذا كانت الحياة في الرجولة البصيرة فلا تكن في الطفولة التزقة^(١)، فإن الرجل يعرف ويدرك، فهو بذلك وراء الحقيقي؛ ولكن الطفل يجهل ولا يعرف الدنيا إلا بعينه، فهو وراء الوهم، ومن ثم طيشه وتزقه، وإشارته كل عاجل وإن قل، وعمله أن تكون حياته النفسية الضئيلة في مثل توثب أعضاء جسمه، حتى كأنه أبداً يلعب بظاهره وباطنه معاً...

أيها الحي، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك: أي الحياة في ذاتك الداخلية وقانون كمالها، فإذا استطعت أن تخرج للأرض معنى سماوياً من ذاتك فهذا هو الجديد دائماً في الإنسانية، وأنت بذلك عائش في القريب القريب من الروح، وأنت به شيء إلهي؛ وإذا لم تستطع وعشت في دمك وأعصابك فهذا هو القديم دائماً في الحيوانية، وأنت بذلك عائش في البعيد البعيد من النفس، وأنت به شيء أرضي كالحجر والتراب.

هنا: أي في الإرادة التي فيك وحدك. ولا هناك: أي في الخيال الذي هو في كل شيء. وهنا، في أخلاقك وفضائلك التي لا تدفعك إلى طريق من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهداية والحكمة؛ وليس هناك، في أموالك ومعاشيك

(١) التزقة: الطائشة المنحرفة.

التي تجعلك كاللصّ مندفعاً إلى كل طريق متى كان هو بعينه طريقاً إلى نَهْبة أو سرقة . هنا، في الروح، إذ تشعرُ أَلُروحُ أنها موجودة، ثم تعملُ لِثَبَاتِهَا شاعرةً بوجودها، ماضيةً إلى مصيرها، منتهيةً بجسدها إلى الموتِ الإنسانيّ على سُنَّةِ النفسِ الخالدة؛ وليسَ هناك في أَلَحْسِ، إذ يتعلّقُ أَلَحْسُ بما يتقلّبُ على الجسم، فهو مهتاجٌ لِشعوره بَوَشِكِ فتائه فلا يُخَدِّثُ إلّا الأَلَمَ إنْ نالَ أو لم ينلْ، وهو منتهٍ بجسمه إلى الموتِ الحيوانيّ بينَ أَكَلٍ ومَأْكُولٍ على سُنَّةِ الطبيعةِ الفانية .

أيُّها أَلَحْيُ، إذا كانتِ أَلَحْيَةُ هنا فلا تكن أنتَ هناك .

إنَّ أَلَحْكِيمَ الَّذِي ينظرُ إلى ما وراءَ الأشياءِ فيتعرفُ أسرارها، لا تكونُ لَهُ حياةٌ الَّذِي يتعلّقُ بظاهرها ولا أخلاقه ولا نظريته؛ هذا أَلْأَخِيرُ هو في نفسه شيءٌ منَ الأشياءِ له مظهرُ أَلَمَادَةٍ وِخْداعها عنِ أَلْحَقِيقَةٍ؛ وذلكَ الأولُ هو نفسه سرٌّ منَ الأسرارِ له رَوْعَةٌ السِّرِّ وكشفُهُ عنِ أَلْحَقِيقَةٍ . ولهذا كانَ في حياةِ أَلْأَنْبِيَاءِ وأَلْحُكَمَاءِ ما لا يُطَبِّقُهُ النَّاسُ ولا يَضْبِطُونَهُ إذا تكلّفوه، بل يَنُحَرِّقُ عليهم فيكونُ منه أَلْعَجْزُ والغَلَطُ، ويحدثُ منَ الغَلَطِ الزَّلَلُ .

ونظرةُ نَبِيِّنا ﷺ إلى هذا الوجودِ نظرةٌ شاملةٌ مدركةٌ لِحَقِيقَةِ أَلْأَنْهَاءِ، فيرى بِدَايَةَ كُلِّ شيءٍ ماديٍّ هي نِهَايَتُهُ في أَلْتَوِّ وأَلْلَحْظَةِ، فلا وجودَ لَهُ إلا عَارِضاً مَرّاً، فهو في أَعْتِبَارِهِ موجودٌ غيرُ موجودٍ، مبتدئٌ مُنْتَهٍ معاً؛ وبذلكَ تَبْطُلُ عِنْدَهُ أَلْأَشْيَاءُ أَلَمَادِيَّةٌ وتأثيرها، فلا تتصلُ بنفسه أَلْعَالِيَةِ إلّا من أضعفَ جهاتها، ويجدُ لها الناسُ في حياتهم أَلَشَّجَرَةَ والفَرْعَ وأَلْثَمْرَةَ، وما لها عنده هو جِذْرٌ ولا فرعٌ؛ وبهذا لم يَفْتِنَهُ شيءٌ ولم يتعلّقَ بِهِ شيءٌ .

وكانتِ أَلدُّنْيَا تطولُ أَلنَّاسَ وتتقاصرُ عنه، وكانتِ منقطعةُ أَلنَّماءِ وهو ذاهبٌ في نموِّه أَلرُّوحِيّ، وكأنَّما هو صورةٌ أخرى من آدمَ (عليه السلام)؛ فكلاهما لَمَسَ بنفسه أَلْحَيَاةَ جَدِيدَةً خَالِيَةً ممَّا جمَعَ فيها الزَّمَنُ وأَهْلُهُ من طمعٍ وشَرٍّ، وجاءَ آدمُ لِيُعْطِيَ أَلْأَرْضَ نَاسَهَا من صُلْبِهِ، وجاءَ مُحَمَّدٌ لِيُعْطِيَ أَلنَّاسَ قَوَانِيْنَهُمْ من فضائله؛ فأدَمُ بِشَخْصِهِ هو دُنْيَا بُعِثَتْ لِتَسْعَ، ومُحَمَّدٌ بِشَخْصِهِ هو دُنْيَا بُعِثَتْ لِتَنْتَظِمَ .

وماذا يُفْهَمُ منَ أَلْفَلَسَفَةِ أَلْأَخْلَاقِيَّةِ أَلنَّبَوِيَّةِ أَلْعَظِيمَةِ؟ يُفْهَمُ منها أنَّ أَلشَّهَوَاتِ خُلِقَتْ مع أَلْإِنْسَانِ لِتَحْكُمَ فيه، لِينقلَبَ بها إِنْسَاناً يَتَحَكَّمُ فيها؛ وأنَّ أَلْإِنْسَانَ

الصحيح الذي لم تُزوَّه الدنيا يجب أن يكون ذا روح يمتد فيفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يصبح في حكم النور وأنطلاقه وحرية، ولا ينكمش فيحصره جسمه في غاياته وضروراته فيرتد إلى ما هو أسفل أسفل حتى يعود في حكم التراب وأسرِهِ وعبوديته. فالفقر وما إليه، والزهد وما هو بسبيل منه، والأنصراف عن الشهوات والرذائل - كل ذلك إن هو إلا تراجع النفس العلية إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال، وشيئاً بعد شيء، لِتُضيء على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تُباليها ولا تُقيم لها وزناً. فبينما الناس يرون الأموال والشهوات مادة حياة وعمل وشعور، تراها هي مادة بخر ومعرفة واعتبار ليس غير؛ وبهذا تكون النفس العظيمة في الدنيا كأستاذ المعلم: تدخل المادة إلى معمله وهي مادة وفكرة، وتخرج منه وهي حقيقة ومعرفة، وعلى أي أحوالها فهي إنما تُحس في ذلك المعلم بأصابع علمية دقيقة ليس فيها الجمع ولا الجزص، ولكن فيها الذهن والفكر؛ وليس لها طبيعة الرغبة والغفلة، ولكن طبيعة الانتباه والتحرز، وليست في أسر المادة، ولكن المادة في أسرها ما شاءت.

ولا يسمى فقره ﷺ زهداً كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ ولا يحققون أصوله النفسية؛ وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوي بأرواح مظلمة تربهم ما ترى العين إذا ما اختلط الظلام وليس الأشياء فتراءت مُجَمَّلة لا تفصيل لها، مُفرَّغة لا تبيِّن فيها؛ وما بها من ذلك شيء، غير أنها تتراءى في بقية من البصر لا تغمرها.

وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك، وتنصرف عنه وهو بك متعلق؟ فتلك سُخْريَّة ومثَلَّة، وفي رأي تشوية للجسم بروحه، وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها؛ فليس يعلم إلا الله وحده: أذاك تفسير لإنسانية الزاهد بالنور، أم هو تفسير بالتراب...

ولقد كان ﷺ يملك المال ويحده، وكان أجود به من الريح المرسلة، ولكنه لا يدعه يتناسل^(١) عنده، ولا يتركه يثبت في عمله، وإنما كان عمله ترجمة لإحساسه الروحي؛ فهو رسول تعليمي، قلبه العظيم في القوانين الكثيرة من واجباته، وهو يريد إثبات وحدة الإنسانية، وأن هذا الإنسان مع المادة الصامتة

(١) يتناسل: يتكاثر.

العمياء مادة مفكرة مميزة، وأن الدين قوة روحية يلقي بها المؤمن أحوال الحياة فلا يثبت بإزائها شيء على شئتيته، إذ الروح خلود وبقاء، والمادة فناء وتحول، ومن ثم تخضع الحوادث للروح المؤمنة وتتغير معها، فإن لم تخضع لم تُخضعها، وإن لم تتغير الروح بها؛ وأساس الإيمان أن ما ينتهي لا ينبغي أن يتصرف بما لا ينتهي. ما قيمة العقيدة إلا بصدقها في الحياة، وأكثر ما يصنع هذا المال: إما الكذب الصراح في الحياة، وإما شبهة الكذب؛ ولهذا تنزه النبي ﷺ عن التعلق به، وزاده بعداً منه أنه نبي الإنسانية ومثلها الأعلى، فحياته الشريفة ليست كما نرى في الناس: إيجاداً لحل مسائل الفرد وتعقيداً لمسائل غيره، ولا توسعاً من ناحية وتضييقاً من الناحية الأخرى، ولا جمعاً من هنا ومنعاً من هناك؛ بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفة إلى إقرار التوازن في الإنسانية، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلاف مراتبهم كيف يكون لهم عقل واحد من الكون؛ وبهذا العقل الكوني السليم ترى المؤمن إذا عرض له الشيء من الدنيا يفتنه أو يصرفه عن واجبه الإنساني - أثبت نفسه العظيمة إلا أن ترتفع بطبيعتها، فإذا هو في قانون السموات، وإذا المادة في قانون الثقل؛ فيرتفع وتتهوى^(١) ويصيح الذهب - وإنه ذهب - وليس فيه عند المؤمن إلا روح التراب.

(١) تتهوى: تسقط وترسب.

سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم

٢

قالت عائشة (رضي الله عنها): لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعاً قط، وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يشتهي؛ إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب.

وقالت: ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ.

وعنها: كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوفد بنار، إن هو إلا التمر وألماء. وقالت: ما رفع رسول الله ﷺ قط غداء لعشاء، ولا عشاء لغداء ولا اتخذ من شيء زوجين؛ لا قميصين، ولا رداءين، ولا إزارين، ولا زوجين من النعال. ويروى عنها، قالت: توفي رسول الله ﷺ وليس عندي شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رف لي.

وقالت: توفي رسول الله ﷺ ودرعته مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير.

وعن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة وأهله طاوياً^(١) لا يجدون عشاء، وإنما كان خبزهم الشعير.

وعن الحسن، قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام، وإنها لتسعة أبيات! والله ما قالها استقلالاً، ولكن أراد أن تتأسى به أمته.

(١) طاوياً: جائعاً لم يأكل شيئاً.

وعن ابنِ ماجه قال: أصابَ النَّبيَّ ﷺ جُوعٌ يَوْمًا، فعمد^(١) إلى حجرٍ فوضَعَهُ على بطنِهِ، ثم قال: «أَلَا رُبَّ نَفْسٍ طاعِمَةٌ ناعِمَةٌ في الدُّنْيَا، جائِعَةٌ عارِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ أَلَا رُبَّ مُكْرِمٍ نَفْسُهُ وَهُوَ مُهِينٌ لَهَا؛ أَلَا رُبَّ مُهِينٍ نَفْسُهُ وَهُوَ مُكْرِمٌ لَهَا». وَخَيْرٌ ﷺ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ «أُحِدٍ» ذَهَبًا فَقَالَ: «لَا يَا رَبُّ؛ أَجُوعُ يَوْمًا فَأَدْعُوكَ، وَأَشْبِعُ يَوْمًا فَأَحْمَدُكَ»!

وكانَ يَقُولُ في دُعائِهِ وَيُكثِرُ مِنْهُ: «اللَّهُمَّ أَخِينِي مِسْكِينًا، وَأَمِثْنِي مِسْكِينًا، وَأَحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ^(٢) الْمَساكِينِ».

* * *

هذا هو سَيِّدُ الْأَمَةِ، يُمَسِّكُهُ في الْحَيَاةِ نَبِيًّا عَظِيمًا ما يُخْرِجُ غَيْرَهُ مِنْهَا ذَلِيلًا مُحْتَقَرًا، وَكَأَنَّمَا أَشْرَقَ صَفَاءُ نَفْسِهِ على تَرابِ الْأَرْضِ فَرَدَّةُ أَشْعَةِ نَورٍ، على حينَ يُلْقِي النَّاسُ على هذا التُّرابِ مِنْ ظِلَامِ أَنْفُسِهِمْ فلا يَبْقَى تَرابًا بل يَرْجِعُ ظِلَامًا، فَكَأَنَّهُمْ إِذْ يَمْشُونَ عَلَيْهِ يَطْوُونَ المَجْهُولَ بِخَوْفِهِ وَرَوْعَتِهِ؛ ثم لا يَسْتَقِرُّ ظِلَامًا بل يَرْجِعُ آلامًا، فَكَأَنَّهُمْ يَنْبُتُونَ على المَرَضِ لا على الْحَيَاةِ؛ ثم لا يَثْبُتُ آلامًا بل يَتَحَوَّلُ قُوَّةً وَتَوْبًا تَكُونُ مِنْهُ نَزَوَاتُ^(٣) الْحَمَقِ وَالْجَنُونِ في النَّفْسِ.

هؤلاء الذين تَعِيشُ أَنْفُسُهُمْ في التُّرابِ، وَيَتَمَرَّغُونَ بِأَخْلَاقِهِمْ فِيهِ، يَنْقَلِبُونَ على الْحَيَاةِ مِنْ صَنَعِ التُّرابِ ناسًا دُودًا كَطَبِيعِ الدُّودِ لا يَقَعُ في شَيْءٍ إِلَّا أَفْسَدَهُ أَوْ قَذَرَهُ؛ أَوْ قَوْمًا سُوسًا كَطَبِيعِ السُّوسِ لا يَنَالُ شَيْئًا إِلَّا نَحَرَ أَوْ عَابَهُ، فَهُمْ يُوقِعُونَ الْخَلَلَ في نِظامِ أَنْفُسِهِمْ، فَإِذَا هِيَ طَائِشَةٌ تُخِيلُ لَهُمْ كَأَنَّمَا أَخْتَلَّتْ نَوَامِيسُ الدُّنْيَا، وَكَأَنَّ اللَّهَ قَبَضَهُمْ وَبَسَطَ غَيْرَهُمْ، وَشَغَلَهُمْ وَقَرَّعَ مَنْ عَدَاهُمْ، وَأَبْتَلَاهُمْ على مُسْكَةِ الرِّزْقِ^(٤) بِالشَّهْوَةِ الْمَسْعُورَةِ^(٥) الَّتِي لا تَتَحَقَّقُ، فَضَرَبَهُمْ بِالمُجَاهَدَةِ الَّتِي لا تَنْقَطِعُ؛ وَأَنْعَمَ على غَيْرِهِمْ في بَسْطَةِ الرِّزْقِ بِالشَّجَرَةِ الْمَسْحُورَةِ الَّتِي لا تُقَطَّعُ مِنْهَا ثَمَرَةٌ إِلَّا نَبَتَ غَيْرُهَا في مَكَانِهَا.

إِنَّ ما وَصَفْنَاهُ مِنْ فَقْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَتِيدٌ حَاضِرٌ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ نَفْسَهُ في هَمِّ الْأَمَالِ، وَلا جَعَلَتْهُ نَفْسُهُ في هَمِّ الْفَقْرِ، وَأَنَّهُ لَقِيَ الْحَيَاةَ حَامِلًا لا

(١) عمد إلى حجر: أتى بحجر.

(٢) زمرة: جماعة.

(٣) نزوات: رغبات.

(٤) مسكة الرزق: ضيق العيش.

(٥) الشهوة المسعورة: الجامحة.

محمولاً، وأستقرَّ فيها هادئاً لا مضطرباً - كلُّ ذلك إنما يثبتُ للدنيا أنَّه خُلِقَ وبُعِثَ وعاشَ ليكونَ درساً عملياً في حلِّ المشكلات الاجتماعية، يُعلِّمُ الناسَ أنَّها لا تتعقَّد بطبيعتها، ولكنَّ بطبائعهم فيها، ولا تستمرُّ بقوةِها، ولكنَّ بإمدادِ قواهم لها؛ ولا تغلبُ بصُولِها^(١)، ولكنَّ بجزعهم^(٢) منها؛ ولا تُغضِلُ^(٣) من ذاتِ نفسها، ولكنَّ من سوءِ أثرهم عليها وسوءِ نظرهم لأنفسهم ولها.

فإذا قرأتَ الأحاديثَ التي أسلفناها فلا تقرأها زهداً وتقللاً، ولا فقراً وجوعاً، ولا اختلالاً وحاجة، كما تُترجمُها نفسك أو تُحسِّسها ضرورتك؛ بل أنظر فيها وأعبرها بنفسه هو ﷺ، ثم أقرأها شريعةَ اجتماعيةَ مُفضَّلةَ على طبيعةِ النفس، قائمةً على أن تأخذَ نفسُ الإنسانِ من قُوَى الدنيا عناصرَها الحيَّة، لِتُعطيَ الحياةَ من ذلك قوَّةَ عناصرها.

والحياةُ العاملةُ غيرُ الحياةِ الكوادة، هما ذكرٌ وأنثى؛ فأما الأولى فهي ما وصَّفنا وحكيَّنا، وأما الثانيةُ فهي تغلُّلُ النعمة، وإطلاقُ قانونِ التنازلِ في المالِ يُنمي بعضه بعضاً، ويثبتُ بعضه على بعض، ثم إقامةُ الحياةِ على الزينةِ ومقوماتِها، وقيامُ الزينةِ على الخداعِ وطباعه، فيقبلُ المرءُ من دنياه على ما هو جديرٌ أن يصرفه عنها، ويحبُّ منها ما كان ينبغي أن يباغضه فيها. وكلُّ ما رأيتُ وعلمتُ في رجلٍ، قوَّته القوَّةُ فهو هناك؛ وكلُّ ما علمتُ ورأيتُ في أنثى، قوتها الضعفُ فهو هنا.

فالسوادُ الذي تراه في فقره ﷺ هو السوادُ الحيُّ؛ سوادُ الليلِ حولَ الروحِ النُّجُمِيَّةِ الساطعة؛ وذلك الترابُ هو الترابُ الحيُّ؛ ترابُ الزرعِ تحتَ النُّصرةِ والخُصرة؛ وتلك الحاجةُ الجسميَّةُ هي الحاجةُ الحيَّةُ الدافعةُ إلى حريةِ النفس؛ وذلك الإقلالُ من فهمِ اللذةِ هو الإقلالُ الحيُّ الذي يزيدُ قوَّةَ فهمِ الجمالِ في السماءِ والأرضِ وما بينهما، وذلك الضيقُ في خيرٍ^(٤) المتنازعِ للحاسةِ هو الضيقُ الحيُّ الذي يوسِّعُ خيرَ المتنازعِ للروحِ. وبالجملةِ فذلك النقصُ مِنَ المادَّةِ لم يكنْ إلَّا لنفيِ النقصِ عنِ التفضيلةِ، وذلك الاحتقارُ لِلعَرَضِ الفاني الزائلِ هو المعنى الآخرُ لِتقدِّيسِ الخالدِ الباقي.

(١) الصولة: الغلبة.

(٢) تجزعهم: تشتدُّ وتقوى.

(٣) تغضِلُ: تلهي.

(٤) خير: ملك.

فليس هناك حُبُّ الشعير، ولا الجوع، ولا رهْنُ الدرع عند اليهودي. كلا، كلا، بل هناك حقيقة نفسية عقلية، ثابتة متزنة، قائمة بعناصرها السامية: مِنَ اليقين والعقل والحكمة، إلى الرفق والجلم والتواضع، تُخبرُ هذه الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أنَّ ذلك النبي العظيم هو الرجلُ الاجتماعيُّ التامُّ بأخلاقه وفضائله، وهو الذي بُعثَ لتنقيح غريزة تنازع البقاء، وكسر هذه الحيوانية، وقمع^(١) نزواتها، وإماتة دواعيها، والسمو بخواطرها؛ فهو بنفسه صورة الكمال الذي بُعثَ لتحقيقه وإثبات أنه الممكن لا الممتنع، والحقيقي لا الخيالي.

ليس هناك دِرْعٌ مرهونة في ثلاثين صاعاً، ولا فقرٌ ولا خبرُ الشعير. كلا، كلا، بل هناك تقريرٌ أنَّ النصرَ في معركة الحياة لا يأتي مِنَ المالِ والثراءِ والامتاع، ولكن مِنَ المعاناةِ والشدةِ والصبر؛ وأنَّ التقدمَ الإنساني لا يُباعُ بيعاً، ولا يُؤخذُ هوناً^(٢)؛ بل هو انتزاعٌ مِنَ الحوادثِ بالأخلاقِ التي تتغلبُ على الأزماتِ ولا تتغلبُ الأزماتُ عليها، وأنَّ هذا المالَ وهذه الشهوات - في حقائق الحياة ومصائبها - ككنوز الأحلام: لا تكونُ كنوزاً إلا في مواضعها من أرض الغفلة والنوم، فلا لذة منها إلا بمقدارٍ خفيفٍ من هذه الغفلة. وليس إلا الأحمقُ أو المخدولُ أو الضائعُ هو الذي يقطعُ العمرَ نائماً أبداً ليظلَّ مالِكاً أبداً لهذه الكنوز. وهو يعلمُ أنه لا بدَّ مستيقظ، وأنه متى أنتبه في آخرته لم يجدَ منها شيئاً «ووجد الله عنده فوقاه حساباً».

كلا، كلا، ليس هناك فقرٌ ولا جوعٌ وما إليهما، بل هناك وَضْعُ هذه الحقيقة: ينبغي أن تجدَ نفسك، وموضعَ نفسك، وإيمانَ نفسك، وعِزَّةَ نفسك. فإذا أدركتَ ذلك ورفعتَ نفسك إلى موضعها الحق، وأقررتَها فيه، وحسنتَها عليه، وحذذتها بالإنسانية من ناحية وباللَّهُ من الناحية المُقابِلة - رأيتَ إذن أنَّ قيمتك الصحيحة في أن تكونَ وسيلةً تُعطي وتعملُ لتُعطي، لا غايةً تأخذ وتعملُ لتأخذ، ومهما ضيقَ عليك فإنَّما أنت كالشجرة الطيبة تأخذُ تراباً وتصنعُ خلاوة.

وما قطُ نبتت شجرة في مكانها لتأكل وتشرَب وتختزنَ السَّمادَ والترابَ وتحصنَهما وتمنعَهما عن غيرها، ولو قد فعلت ذلك شجرة لكانَ هلاكُها فيما تفعل، إذ تُحاولُ أن تُضاعِفَ فائدتها من قانونِ العالم، فيكونُ طعمُها سريعاً في

(٢) هوناً: سهلاً.

(١) قمع: ضرب وفهر وأذل.

إفساد الصلة بينهما، فلا يجد القانون فيها نظامه، ومن ثم لا تجد في القانون نظامها، فيهلكها الذي كان يحييها، وتستعبد لحظ نفسها، فيفقدتها ذلك حرية الحياة التي كانت لها في نفسها.

يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِنَّ نَفْسَهُ تُنْزِعُ مِنْ بَيْنِ جَنِبِهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ». فهذا هو أسمى قانون اجتماعي يمكن أن تظفر به الإنسانية، وما يأتي لها ذلك إلا إذا أصبحت تلك المعاني التي أومأنا^(١) إليها شعوراً اجتماعياً عاماً مقررّاً في النفس، قائماً فيها على إيمانٍ راسخ بأن الفرد هو صورة المجتمع لا صورة نفسه وحدها، وأن الناس كحب القمح في السنبلة، ليس لجميعه إلا قانون واحد، فموضع كل حبة من السنبلة هو ثروتها، علّت أو سفلت، وكثرت ما تأخذ أو قلّت؛ وإذا كان أساس الحياة في الحبة منها أن تجد قوامها وكفائها من مادة الأرض، فتمام الحياة فيها أن يغمرها النور من حولها، وأن يستمرّ النور من حولها يغمرها.

فالحبة من السنبلة بكل خير على كل حال، وإنها لتنزع وما بها أنّها تُزعت، ولكيها أدت ما تؤدي، وأنقطعت من قانون لتتصل بقانون غيره، وما أغنت ولا أفقرت، ولا أكثرت ولا أخفّت بل حققت موضعها، فإنها ما نبث لتبقى، وما نمت إلا لينقطع نماؤها. وكذلك المؤمن الصحيح الإيمان، الصادق النظر في الحياة: هو أبدأ في قانون آخرته، فهو أبدأ في عمل ضميره.

والناس في هذه الحياة كحشد عظيم يتدفق من مضيق بين جبلين ينفذ إلى الفضاء؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنهم مفضون^(٢) إلى هذه النهاية مروا آمين وكان في يقينهم السلامة، وفي صبرهم الوقاية، وفي نظامهم التوفيق، وفي تعاونهم الحياة؛ فهم بكل خير على كل حال، ما دام هذا قانون جميعهم؛ فأيا رجل شدّ منهم فأضطرب فطاش^(٣)، هلك وأهلك من حوله، ومن عكس منهم موضعه ونكص على عقبيه، هلك من حوله وهلك، وألموت أشقى ألموت هنا في هذا المضيق بين الجبلين - اعتبار الحاضر حاضراً فقط، والضرر منه، وجعل كل إنسان نفسه

(١) أومأنا: أشرنا.

(٢) مفضون: واصلون، متجهون إلى.

(٣) طاش: انحرف.

غاية. والحياة أهنأ الحياة - اعتبارُ الحاضر بما وراءه، والصبرُ على شدَّته، وجعلُ الإنسانِ نفسه وسيلة.

فذلك معنى خبز الشعير، والقِلَّة والضيق، ورهنِ الدرع عند يهوديٍّ من سيِّدِ الخلقِ وأكملهم، ومَنْ لو شاءَ لَمْشَى على أرضٍ مِنَ الذهب. فهو ﷺ يُعَلِّمُ الْإِنْسَانِيَّةَ أَنَّ الرَّجُلَ الْعَظِيمَ النَّفْسِ لَا يَكُونُ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا ضَيْفًا نَازِلًا عَلَى نَفْسِهِ.

ومن معاني ذلك الفقرِ العظيمِ أَنَّ خَبْزَ الشَّعِيرِ هُوَ رَمَزٌ مِنْ رَمُوزِ الْحَيَاةِ عَلَى التَّحَلُّلِ مِنْ خُلُقِ الْأَثَرَةِ، والبراءَةِ مِنْ هَوَى التَّرَفِّ؛ ورهنُ الدَّرْعِ رَمَزٌ آخَرُ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الْكِبْرِيَاءِ وَالطَّمَعِ؛ والعُسْرَةُ رَمَزٌ ثَالِثٌ عَلَى مُجَاهَدَةِ الْمَلَلِ الْحَيِّ الَّذِي يُفْسِدُ الْحَيَاةَ كَمَا يُفْسِدُ بَعْضُ الْكُنَاتِ الْكُنَاتِ. ومجموعُ هذه الرموزِ رَمَزٌ بِحَالِهِ عَلَى وَجوبِ الْإِيقَاطِ النَّفْسِيِّ لِلأُمَّةِ الْعَزِيزَةِ الَّتِي تَقُودُ أَنْفُسَهَا بِمُقَاسَاةِ الشَّدَائِدِ وَمُجَاهَدَةِ الطَّبَاعِ، لِتَكُونَ فِي كُلِّ فَرْدٍ مَادَّةُ الْجَيْشِ، وَلِيُصْلِحَ هَذَا الْجَيْشُ قَائِدًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ.

على أَنَّهُ ﷺ حَثَّ عَلَى طَلَبِ الْيَسَارِ^(١)، وَالتَّغْلُّلِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْشَّرِيفَةِ بِالْعَلَّةِ وَالْأَمَالِ، فَقَالَ: «إِنَّكَ إِنْ تَدَّعَى عِيَالَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَّعِيَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ^(٢) النَّاسَ». وَرَأَى عَابِدًا قَدْ أَنْقَطَعَ لِلْعِبَادَةِ حَتَّى أَكَلَتْ نَفْسُهُ جَسَمَهُ، وَوَصَفُوا لَهُ مِنْ زُهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَقَالَ ﷺ: «مَنْ يَعُولُهُ؟» قَالُوا: كُلَّنَا نَعُولُهُ. فَقَالَ: «كُلَّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ!...» إِلَى أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مَرْوِيَّةٍ، هِيَ تَمَامُ أَقْنَانِ الْأَدَبِيِّ الْأَجْتِمَاعِيِّ فِي الدُّنْيَا، تُثَبِّتُ أَنَّ الْحَيَّ إِنْ هُوَ إِلَّا عَمَلُ الْحَيِّ.

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ سَيِّدُ الْأُمَّةِ وَصَاحِبُ شَرِيعَتِهَا رَجُلًا فَقِيرًا، عَامِلًا مُجَاهِدًا، يَكْدَحُ^(٣) لِعَيْشِهِ، وَيَجُوعُ يَوْمًا وَيَشْبَعُ يَوْمًا، فَلَمْ يَقْلُبْ يَدَهُ فِي تِلَادٍ^(٤) مِنَ الْأَمَالِ يَرْتُهُ، وَلَمْ يَجْمَعْهُمَا عَلَى طَرِيفٍ^(٥) مِنْهُ يُورِّثُهُ - فَذَلِكَ هُوَ مَا بَيَّنَّاهُ وَشَرَحْنَاهُ، وَذَلِكَ كَالْأَمْرِ نَافِذًا لَا رُخْصَةَ فِيهِ، عَلَى الْأَلَّا يَتَّخِذُ الْغَنَى مِنَ الْفَقِيرِ عِبْدًا أَجْتِمَاعِيًّا لِفَقْرِ هَذَا وَلِمَالِ ذَاكَ؛ بَلْ هِيَ الْمَسَاوَاةُ الْنَفْسِيَّةُ لَا غَيْرُهَا وَإِنْ

(١) اليسار: الغنى.

(٢) يتكففون: يعيشون على الكفاف وشطف العيش.

(٣) يكدح: يتعب ويجد في عمله.

(٤) تِلَاد: المال؛ حليته وجديده.

اختلفت طبقات الاجتماع . والأكرم هو الأتقى لله بمعنى التقوى ، والأقوم بالواجب على معنى الواجب ، والأكفا للإنسانية في معاني الإنسانية .

فقر ذلك السيد الأعظم ليس فقراً ، بل هو كما رأيت : ضبط السلطة الكائنة في طبيعة التملك ، لقيام التعاون الإنساني . بلى أساميه العملي ؛ هو المحاجة العادلة بين المصالح الاقتصادية الطاغية : يمنع أن تأكل مصلحة مصلحة فتهلك بها ، ويوجب أن تلد المصلحة مصلحة لتحيا بها .

والنبي الفقير العظيم هو في التاريخ من وراء كل هذه المعاني ، كالقاضي الجالس وراء مواد القانون . ﷺ .

درس من النبوة

قالوا : إنه لما نصر الله تعالى رسوله ورد عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والتبصير^(١)، ظن أزواجه ﷺ أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم ؛ وكان يسع نسوة عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وصفية ، وميمونة ، وزينب ، وجوهرية ؛ فمعدن حوله وقطن : يا رسول الله ، بناث كسرى وقيصر في الحلي والحلل ، والإماء والخول^(٢) ، ونحن ما نراه من ألفاقة والضيق . . . والامن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم ؛ فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن من تخييرهن في فراقه ، وذلك قوله - تعالى - : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْكُمْ وَأَسْرَحِكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ^(٣) وَإِن كُنْتُنَّ تُرِذْنَنَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا .

قالوا: وبدأ ﷺ بعائشة - وهي أحبهن إليه - فقال لها: «إني ذاكركَ لِكِ أَمراً ما أحبُّ أنْ تعجَلِي فيه حتى تَسْتَأْمِرِي أبويك». قالت: ما هو؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيكَ أَسْتَأْمِرُ أبوي؟ بل أختارُ اللهَ - تعالى - ورسولَه.

ثم تَتَابَعْنَ كلهن على ذلك، فسمَاهُنَّ أَلَّهُ «أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ»، تعظيماً لِحَقِّهِنَّ، وتأكيداً لِحَرَمَتِهِنَّ، وتفضيلاً لَهُنَّ على سائرِ النِّسَاءِ.

❖ ❖ ❖

هذه هي القصة كما تُقرأ في التاريخ وكما ظهرت في الزمان والمكان،
فلنقرأها نحن كما هي في معاني الحكمة، وكما ظهرت في الإنسانية العالية؛
فسنجد لها غوراً^(٤٢) بعيداً، ونعرف فيها دلالة سامية، ونتبين تحقيقاً فلسفياً دقيقاً
للأوهام والحقائق.

(١) قريظة والنضير: هما قريستان وحيان من أحياء اليهود في المدينة.

(٢) الخول : الخدم والحشم .

(٣) السراح: الطلاق، أما متعة الطلاق فهي الصداق المتأخر.

(٤) غوراً: عمقاً.

وهي قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوي على حكمة رائعة لم ينتبه لها أحد، ومن أجلها ذكرت في القرآن الكريم، لتكون نصّاً تاريخياً قاطعاً يدافع به التاريخ عن هذا النبي العظيم في أمر من أمور العقل والعريضة، فإن جهلة المبشرين في زمننا هذا، وكثيراً من أهل الزيغ^(١) والألحاد، وطائفة من قصار النظر في التحقيق - يزعمون أن محمداً ﷺ إنما استكثر من النساء لأهواء نفسية محضة وشهوات كالشهوات؛ ويتطرقون من هذا الزعم إلى الشبهة، ومن الشبهة إلى سوء الظن، ومن سوء الظن إلى قبح الرأي؛ وكلهم غبيّ جاهل؛ فلو كان الأمر على ذلك أو على قريب منه أو نحو من قريبه، لما كانت هذه القصة التي أساسها نفي الزينة وتجريد نساؤه جميعاً منها، وتصحيح النية بينه وبينهنّ على حياة لا تحيا فيها معاني المرأة، وتحت جو لا يكون أبداً جو الزهر... وأمره من قبل ربّه أن يخيرهنّ جميعاً بين سراحهنّ فيكنّ كالنساء ويجذنّ ما شئن من دنيا المرأة، وبين إمساكينّ فلا يكنّ معه إلا في طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهي الدنيا وزينتها.

فالقصة نفسها ردّ على زعم الشهوات، إذ ليست هذه لغة الشهوة، ولا سياسة معانيها، ولا أسلوب غضبها أو رضاها. وما ههنا تمليق، ولا إطراء، ولا نعومة، ولا جرح على لذة، ولا تعبير بلغة الحاسة؛ والقصة بعد مكشوفة صريحة ليس فيها معنى ولا شبهة معنى من حرارة القلب، ولا أثر ولا بقية أثر من ميل النفس، ولا حرف أو صوت حرف من لغة الدم. وهي على منطقي آخر غير المنطقي الذي تُستمال به المرأة، فلم تقتصر على نفي الدنيا وزينة الدنيا عنهنّ، بل نفيت الأمل في ذلك أيضاً إلى آخر الدهر، وأمائت معناه في نفوسهنّ، بقصر الإرادة منهنّ على هذه الثلاثة: الله في أمره ونهيه، والرسول في شوائده ومكابدته^(٢)، والدار الآخرة في تكاليفها ومكاريها. فليس هنا ظرف، ولا رقة، ولا عاطفة، ولا سياسة لطبيعة المرأة، ولا اعتبار لمزاجها، ولا زلّفى^(٣) لأنوثتها، ثم هو تخيير صريح بين ضدين لا تتلون بينهما حالة تكون منهما معاً، ثم هو عام لجميع زوجاته لا يستثني منهنّ واحدة ولا أكثر.

والحريض على المرأة والاستمتاع بها لا يأتي بشيء من هذا، بل يُخاطب في

(١) الزيغ: الانحراف عن الدين والكفر.

(٢) مكابدته: عاش فيه بجهد ومشقة.

(٣) زُلْفَى: تقرب.

المرأة خيالها أول ما يُخاطب، ويُشيعُه مُبالغةً وتأكيذاً، ويُسعُه رجاءٌ وأملًا،
ويقربُ له الزمنَ البعيدَ، حتى لو كانَ في أولِ الليلِ وكانَ الخلافُ على الوقتِ،
لحقَّقَ له أنَّ الظَّهرَ بعدَ ساعةٍ...

وبرهان آخر؛ وهو أنَّ النبيَّ ﷺ لم يتزوَّج نساءه لِمَتاعٍ ممَّا يُمتَّعُ الخيالُ به،
فلو كانَ وَضِعَ الأمرِ على ذلكَ لَمَّا استقامَ ذلكَ إلَّا بالزينةِ وبالفنِّ الأناعمِ في الثوبِ
والجِلْبَةِ والتشكُّلِ كما نرى في الطَّبِيعَةِ الْفَنِّيَّةِ، فَإِنَّ الْمُمَثِّلَةَ لَا تَمَثِّلُ الرِّوَايَةَ إِلَّا فِي
الْمَسْرَحِ الْمُهَيَّأِ بِمَنَاطِرِهِ وَجَوْهٍ... وقد كانتَ نساؤه ﷺ أعرفَ به؛ وها هو ذا ينفي
الزينةَ عَنْهُنَّ وَيُخَيِّرُهُنَّ الطَّلَاقَ إِذَا أَصْرَزْنَ عَلَيْهَا. فهل ترى في هذا صورةَ فِكْرٍ من
أفكارِ الشهوةِ؟ وهل ترى إلَّا الكمالَ المحضَ؟ وهل كانتَ متابعَةً لزوجاتِ التَّسَعِ
إِلَّا تَسَعَةً بِرُهَانَاتٍ على هذا الكمالِ؟

وكانَ النبيُّ ﷺ يُلْقِي بهذه القصةِ درساً مستفيضاً في فلسفةِ الخيالِ وسوءِ
آثِرِهِ، على المرأةِ في أنوثِيتها، وعلى الرجلِ في رجولِته؛ وأنَّ ذلكَ تعقيدٌ في
الشهواتِ يُقَابِلُهُ تعقيدٌ في الطَّبعِ، وكَذِبٌ في الْحَقِيقَةِ يَنشَأُ عَنْهُ كَذِبٌ فِي الْخُلُقِ،
وأنَّه صَزَفَ لِلْمَرْأَةِ إِلَى حَيَاةِ الْأَحْلَامِ وَالْأَمَانِيِّ وَالطِّيشِ وَالْبَطَرِ وَالْفِرَاقِ، وتعويدُها
عاداتٍ تُفْسِدُ عَاطِفَتَهَا، وتُضَيِّفُ إِلَيْهَا التَّصَنُّعَ فَتُضَعِّفُ قُوَّتَهَا النَّفْسِيَّةَ الْقَائِمَةَ عَلَى
إِبْدَاعِ الْجَمَالِ مِنْ حَقِيقَتِهَا لَا مِنْ مَظْهَرِهَا، وتحقيقُ الْفَائِدَةِ مِنْ عَمَلِهَا لَا مِنْ شَكْلِهَا.
وكلُّ محاسنِ المرأةِ هي خيالٌ متخيَّلٌ ولا حَقِيقَةٌ لِشَيْءٍ مِنْهَا فِي الطَّبِيعَةِ،
وإنَّما حَقِيقَتُهَا فِي الْعَيْنِ الْناظِرَةِ إِلَيْهَا فلا تكونُ أَمْرًا فَاتِنَةً إِلَّا لِلْمَفْتُونِ بِهَا لَيْسَ غَيْرُ.
ولو رَدَّتِ الطَّبِيعَةُ عَلَى مَنْ يُشَبِّبُ^(١) بِأَمْرَةٍ جَمِيلَةٍ فيقولُ لها: هذه محاسنُك وهذه
فتنتُك وهذا سحرُك وهذا وهذا؛ لَقَالَتْ لَهُ الطَّبِيعَةُ: بل هذه كُلُّها شهواتُك أنتَ...
وبهذا يَخْتَلِفُ الْجَمَالُ عِنْدَ الْنَظَرِ؛ فلا يَفْتَنُ الْأَعْمَى جَمَالُ الصُّورَةِ وَلَا
سِحْرُ الشَّكْلِ وَلَا فَرَاهَةُ الْمَنْظَرِ، وإنَّما يَفْتَنُهُ صَوْتُ الْمَرْأَةِ وَمَجَسُّهَا^(٢) وَرَاحَتُهَا.
فلا حَقِيقَةَ فِي الْمَرْأَةِ إِلَّا الْمَرْأَةُ نَفْسُهَا؛ ولو أُخِذَتْ كُلُّ أَشْيَى على حَقِيقَتِهَا هذه
لَمَّا فَسَدَ رَجُلٌ وَلَا شَقِيتَ أَمْرًا، وَلَا أَنْتَظَمَتْ حَيَاةُ كُلِّ زَوْجَيْنِ بِأَسْبَابِهَا الَّتِي فِيهَا.
وذلكَ هو المَثَلُ الْمَضْرُوبُ فِي الْقِصَّةِ.

(٢) مجسَّتها: لمسها.

(١) يشبِّب: يَغْزِلُ.

يُرِيدُ النَّبِيُّ ﷺ لِيُعْلَمَ أَمْتَهُ أَنْ حَيْفَ (١) الْغَرِيزَةُ عَلَى الْعَقْلِ إِفْسَادٌ لِهَذَا الْعَقْلِ، وَأَنَّهُ مَتَى أَخْضَعَتِ الْمَرْأَةُ لِحِظِّ الْغَرِيزَةِ وَأَخْتِيَارِهَا، كَانَتْ حَيَاتُهَا أَسْتِجَابَةً لِحُجُورِ الرَّجُلِ، وَمَلَأَتْهَا مَعَانِي التَّزْيِيدِ وَالتَّصْنُوعِ؛ فَيُوشِكُ أَنْ يَنْقَلِبَ هَذَا عَنْ طَبِيعَتِهَا السَّامِيَةِ الَّتِي أَكْثَرُهَا فِي الْجُرْمَانِ وَالْإِيثَارِ وَالصَّبْرِ وَالْإِحْتِمَالِ، وَيَرُدُّهَا إِلَى أَضْدَادِ هَذِهِ الصِّفَاتِ، فَيَقُومُ أَمْرُهَا بَعْدُ عَلَى الْأَثَرِ وَالْمُصْلَحَةِ وَالتَّفَادِي وَالضَّجَرِ وَالتَّبَرُّمِ (٢) وَالْإِلْحَاحِ وَالْإِزْعَاجِ، وَيُضْعَفُ مَعْنَى السَّلْبِ الرَّاسِخِ فِي نَفْسِهَا مِنْ أَصْلِ الْفِطْرَةِ؛ فَيَتَبَدَّلُ حَيَاؤُهَا، وَفِي الْحَيَاءِ رَدُّهَا عَنْ أَشْيَاءٍ؛ وَيَقِلُّ إِخْلَاصُهَا، وَفِي الْإِخْلَاصِ رَدُّهَا عَنْ أَشْيَاءٍ أُخْرَى؛ وَيَكْثُرُ طَمَعُهَا، وَفِي قَنَاعَتِهَا مُحَاجَزَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّرِّ.

وبهذا ونحوه يفسد ما بين الرجل والمرأة المتصنعة؛ فإذا أكثر المتصنعات لا يكون من النساء مشاكل فقط، بل تكون من حلول المشاكل معهن مشاكل أخرى...

وَلِبَابِ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَجْعَلُ نَفْسَهُ فِي الزَّوْجِ الْمَثَلِ الشَّعْبِيِّ الْأَكْمَلَ كَمَا هُوَ دَائِبُهُ (٣) فِي كُلِّ صِفَاتِهِ الشَّرِيفَةِ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ زَوْجَاتُهُ جَمِيعاً كَنِسَاءِ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، لِيَكُونَ مِنْهُنَّ الْمَثَلُ الْأَعْلَى لِلْمَرْأَةِ الْمُؤْمِنَةِ الْعَامِلَةِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي تَبْرُعُ الْبِرَاعَةَ كُلَّهَا فِي الصَّبْرِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْعِفَّةِ وَالصَّرَاحَةِ وَالْقَنَاعَةِ، فَلَا تَكُونَ الْمَرْأَةُ زِينَةً تَطْلُبُ زِينَةً لِيَتَمَّ بِهَا فِي الْخِيَالِ، وَلَكِنْ إِنْسَانِيَةً تَطْلُبُ كَمَالَهَا الْإِنْسَانِيَّ لِيَتَمَّ بِهِ فِي الْوَرَاقِعِ.

وهذه الزينة التي تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورة المكر والخداع والتعقُّد، وكلما أسرفت في هذه أسرفت في تلك، بله الزينة لوجه المرأة وجسمها سلاح من أسلحة المعاني: كالأظافر والمخالب والأنياب، غير أن هذه لوحشية الطبيعة الحيّة المفترسة، وتلك لوحشية الغريزة الحيّة التي تريد أن تفترس. ولا تُنَكِرُ المرأة نفسها أن الزينة على جسمها ثروة طويلة تقول وتقول وتقول...

وإنما يكون أساس الكمال الإنساني، في الإنسان العامل المُجاهد: لا يحضر نفسه في شيء يُسمَّى متاعاً أو زينة، ولا يقدر نفسه بما يجمع لها أو بما يجمع حولها، ولا يعتد ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات.

(١) حيف: ظلم، جور.

(٢) التبرم: إظهار اللل والضجر.

ونبيُّنا ﷺ هو الغاية في هذا. دخلَ عليه مرةً عمرُ بنُ الخطاب، فإذا هو على حصير وعليه إزارُهُ وليسَ عليه غيره، وإذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبه. قال عمر: وإذا أنا بقبْضةٍ من شعيرِ نحوِ الأصاع، وإذا إهابٌ معلقٌ^(١)، فأبتدَرْتُ عيناى^(٢)، فقال: ما يُكيِّك يا ابنَ الخطاب؟ قال: عمر: يا نبيَّ الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبك، وهذه خزائنُك لا أرى فيها إلَّا ما أرى، وذلك كسرى وقيصرُ في الثمارِ والأنهارِ وأنت نبيُّ اللَّهِ وصفوتُهُ وهذه خزائنُك؟

وجاء مرةً من سفرٍ فدخل على أبنتهِ فاطمةَ (رضيَ اللَّهُ عنها) فرأى على بابها سترًا وفي يديها قُلْبَيْنِ^(٣) من فضةٍ، فرجع؛ فدخلَ عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرتهُ برجوعِ أبيها، فسألهُ في ذلك فقال ﷺ: من أجلِ الستِ والسَّوارين.

فلما أخبرها أبو رافع هتكت^(٤) الستَ ونزعتِ السَّوارين فأرسلتَ بهما بلالاً إلى النبيِّ ﷺ وقالت: قد تصدَّقْتُ به، فضغهُ حيثُ ترى. فقال لبلال: اذهب فيغهُ وأدفعهُ إلى أهلِ الصُّفَّةِ^(٥). فباعَ القُلْبَيْنِ بدرهمينِ ونصفٍ (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدَّقَ بهِ عليهم.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! وأنت أيضاً لا يرضى لك أبوكِ حليةٌ بدرهمينِ ونصفٍ وإنَّ في المسلمِ فقرًا لا يملكونَ مثلها.

أيُّ رجلٍ شَغِبِي على الأرضِ كمحمدٍ ﷺ، فيه لئامةٌ كلُّها غريزةُ الأب، وفيه على كلِّ أحواله اليقينُ الَّذي لا يتحوَّل، وفيه الطَّبيعةُ التَّامةُ التي يكونُ بها الحَقِيقِي هو الحَقِيقِي.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! إنَّ زينةَ بدرهمينِ ونصفٍ، لا تكونُ زينةً في رأيِ الحقِّ إذا أمكنَ أن تكونَ صدقةٌ بدرهمينِ ونصفٍ؛ إنَّ فيها حينئذٍ معنىً غيرَ معناها؛ فيها حقُّ النفسِ غالباً على حقِّ الجماعة؛ وفيها الإيمانُ بالمنفعةِ حاكماً على الإيمانِ بالخير؛ وفيها ما ليسَ بضروريٍّ قد جارَ على ما هو الضروري؛ وفيها خطأٌ من الكمالِ إنَّ صحَّ في حسابِ الحلالِ والحرامِ لم يصحَّ في حسابِ الثَّوابِ والرحمةِ.

تعالوا أيُّها الاشتراكيُّون فأعرِّفوا نبيَّكمُ الأعظم؛ إنَّ مذهبكم ما لم تُخيه

(١) الإهاب: هو كيس من جلد كان يتخذُه العربُ وعاء.

(٢) ابتدَرْتُ عيناى: دمعت.

(٤) هتكت الست: مزقته.

(٣) القُلْب، بالضم هو سوار من فضة.

(٥) الصُّفَّة: بالضم، هي الغرفة.

فضائل الإسلام وشرائعه - إن مذهبكم لكالشجرة الذابلة تعلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيط . . . كل يوم تجلّون، وكل يوم تربطون، ولا ثمرة في الطبيعة .

ليست قصة التخيير هذه مسألة من مسائل الغني والفقير في معاني المادة، ولكنها مسألة من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح؛ فهي صريحة في أن النبي ﷺ أستاذ الإنسانية كلها؛ واجبه أن يكون فضيلة حيّة في كل حياة، وأن يكون عزاء في كل فقر، وأن يكون تهذيباً في كل غنى، ومن ثم فهو في شخصه وسيرته القانون الأدبي للجميع .

وكأنه ﷺ يريد ليُعلم الأمة بهذه القصة أن الجماعات لا تصلح بالقوانين والشرائع والأمر والنهي، ولكن بعمل عظمائها في الأمر والنهي؛ وأن الحاكم على الناس لا ينبغي أن يحكم إلا إذا كان في نفسه وطبيعته يحس فتنة الدنيا إحساس المتسلط^(١) لا الخاضع، ليكون أول استقلال داخله .

فليس ذلك فقراً ولا زهداً كما ترى في ظاهر القصة، ولكنها جزأة النفس العظمى في تقرير حقائقها العملية .

وتنتهي القصة في عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاته ﷺ: «أمهات المؤمنين» بعد أن اختزن الله ورسوله والدار الآخرة؛ وعلماء التفسير يقولون: إن الله (تعالى) كافأهن بهذه التسمية؛ وليس ذلك بشيء ولا فيه كبير معنى، وإنما تُشعر هذه التسمية بمعنى دقيق هو آية من آيات الإعجاز؛ فإن الزوجة الكاملة لا تكمل في الحياة ولا تكمل الحياة بها إلا إذا كان وصفها مع رجلها كوصف الأم: ترى ابنها بالقلب ومعانيه، لا بالغريزة وحظوظها؛ فكل حياة حينئذ ممكنة السعادة لهذه الزوجة، وكل شقاء محتمل بصبر، وكل جهاد فيه لذته الطبيعية، إذ يقوم البيت على الحب الذي هو الحب الخالص لا المنفعة، وتكون زينة الحياة وجود الحي نفسه لا وجود المادة، وتبنى النفس على الوفاء الطبيعي كوفاء الأم، وذلك خلق لا يغسر عليه في سبيل حقيقته أن يتغلب على الدنيا وزينتها .

وآخر ما نستخرج من القصة في درس النبوة هذه الحكمة:

يحسب المؤمن إذا دخل داره أن يجد حقيقة نفسه الطيبة، وإن لم يجد حقيقة كسرى ولا قيصر .

(١) المتسلط: المسيطر .

شهرُ للثورة فلسفة الصيام

لم أقرأ لأحدٍ قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحكمته؛ أمّا منفعته للجسم، وأنه نوعٌ من الطبِّ له، وبابٌ من السياسة في تدبيره؛ فقد فرغ الأطباء من تحقيق القول في ذلك؛ وكأنَّ أيامَ هذا الشهرِ المباركِ إنَّ هي إلا ثلاثون حبةً تؤخذُ في كلِّ سنةٍ مرةً لتقوية المعدة وتصفية الدم وحيطة أنسجة الجسم؛ ولكننا الآن لسنا بصددٍ من هذا، وإنما نستوحي تلك الحقيقة الإسلامية الكبرى التي شرعت هذا الشرع لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة، عاملة على استمرار الفكرة الإنسانية فيها، كي لا تبدل النفس على تغيرِ الحوادث وتبدلها، ولكيلا تجهل الدنيا معاني الترفيع إذا أتت على هذه الدنيا معاني التمزيق.

من معجزات القرآن الكريم أنه يدخر^(١) في الألفاظ المعروفة في كلِّ زمنٍ، حقائق غير معروفة لكلِّ زمنٍ، فيجلبها^(٢) لوقتها حين يضيء الزمان العلمي في متاهته وخبرته، فيشغب^(٣) على التاريخ وأهله مستخفاً بالأديان، ويذهب يتتبع الحقائق، ويستقصي في فنون المعرفة، ليستخلص من بين كفر وإيمان ديناً طبيعياً سائغاً، يتناول الحياة أول ما يتناول فيضبطها بأسرار العلم، ويوجهها بالعلم إلى غايتها الصحيحة، ويضاعف قواها بأساليبه الطبيعية، ليحقق في إنسانية العالم هذه الشئنة المجهولة التي تتوهمها المذاهب الاجتماعية العلمية بين يدي علمائها: لم يحققوها ولم يئأسوا منها، وبقيت تلك المذاهب كعقارب الساعة في دورتها: تبدأ من حيث تبدأ ثم لا تنتهي إلا إلى حيث تبدأ...

يضطرب الاشتراكيون في أوروبا وقد عجزوا عجزاً من يحاول تغيير الإنسان

(١) يدخر: يوفر ويخزن.

(٢) يجلبها: يكشفها.

(٣) يشغب: يشوش.

بزيادة ونقص في أعصابه؛ ولا يزال مذهبهم في الدنيا مذهب كُتُب ورسائل؛ ولو أنهم تدبّروا حكمة الصوم في الإسلام، لرأوا هذا الشهر نظاماً عملياً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة: فهذا الصوم فقر إجباري تفرضه الشريعة على الناس قرصاً ليتساوى الجميع في بواطنهم، سواء منهم من ملك الملايون من الدنانير، ومن ملك القرش الواحد، ومن لم يملك شيئاً؛ كما يتساوى الناس جميعاً في ذهاب كبرياتهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم؛ وفي ذهاب تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من أستطاع.

فقر إجباري يُراد به إشعار النفس الإنسانية بطريقة عملية واضحة كل الوضوح، أن الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها، وأنها إنما تكون على أنما حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون، وحين يتعاطفون بإحساس الألم الواحد لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة.

ولو حققت لرأيت الناس لا يختلفون في الإنسانية بعقولهم، ولا بأنسابهم، ولا بمراتبهم، ولا بما ملكوا؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكام هذه البطون على العقل والعاطفة؛ فمن البطن نكبة الإنسانية، وهو العقل العملي على الأرض؛ وإذا اختلف البطن والدماغ في ضرورة، مد البطن مدّه من قوى الهضم فلم يبق ولم يذّر.

ومن ههنا يتناول الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب، ويجعل الناس فيه سواء: ليس لجميعهم إلا شعور واحد وجس واحد وطبيعة واحدة؛ ويحكم الأمر فيحول بين هذا البطن وبين المادة، ويبلغ في إحكامه فيمسك حواشي العصبية في الجسم كله يمنعها تغذيتها ولذتها حتى تفتة من دخينة^(١).

وبهذا يضع الإنسانية كلها في حالة نفسية واحدة تتلبس بها النفس في مشارق الأرض ومغاربها، ويطلق في هذه الإنسانية كلها صوت الروح يعلم الرحمة ويدعو إليها، فيشبع فيها بهذا الجوع فكرة معينة هي كل ما في مذهب الاشتراكية من الحق، وهي تلك الفكرة التي يكون عنها مساواة الغني للفقير من طبيعته، وأطمئنان الفقير إلى الغني بطبيعته؛ ومن هذين: (الاطمئنان والمساواة)، يكون هدوء الحياة بهدوء النفسين اللتين هما السلب والإيجاب في هذا الاجتماع الإنساني؛ وإذا أنت

(١) الدخينة كلمة استعملها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي للسيجارة.

نزعت هذه الفكرة من الاشتراكية بقي هذا المذهب كله عبثاً من العبث في محاولة جعل التاريخ الإنساني تاريخاً لا طبيعة له .

من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم، وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم، إذ يُبالغ أشد المبالغة، ويدقق كل التدقيق، في منع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدة آخرها آخر الطاعة؛ فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث؛ فهما طريقتان كما ترى: مُبصرة وعمياء، وخاصة وعامة، وعلى نظام وعلى فجأة.

ومتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير، أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ، وحكم الوازع^(١) النفسي على المادة؛ فيسمع الغني في ضميره صوت الفقير يقول: «أعطني». ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء، بل طلباً من الأمر لا مفر من تلبية والاستجابة لمعانيه، كما يؤاسي المبتلى من كان في مثل بلاته.

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن يُحذف من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة، ليحل في محله تاريخ النفس؟ وأنا مُستيقن أن هناك نسبة رياضية هي الحكمة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً، وأن هذه النسبة متحققة في أعمال النفس للجسم، وأعمال الجسم للنفس؛ كأنه الشهر الضحي الذي يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام^(٢) وتغيير المعيشة، لأحداث الترميم العصبي في الجسم، ولعل ذلك آت من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الإنساني وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل في المحاق؛ إذ تنتفخ العروق وتربو في النصف الأول من الشهر، كأنها في (مد) من نور القمر ما دام هذا النور إلى زيادة، ثم يُراجعها (الجزر) في النصف الثاني حتى كأن للدم إضاءة وظلاماً. وإذا ثبت أن للقمر أثراً في الأمراض العصبية، وفي مد الدم وجزره^(٣)، فهذا من أعجب الحكمة في أن يكون الصيام شهراً قمرياً دون غيره.

(١) الوازع: الزادع.

(٢) الاستجمام: الراحة.

(٣) الجزر: انحسار ماء البحر وانخفاضه عكس المد.

وفي ترائي الهلالِ ووجوبِ الصومِ لرؤيته معنى دقيق آخر، وهو - مع إثبات رؤية الهلال وإعلانها - إثبات الإرادة وإعلانها، كأنما أتبعَتْ أولُ الشعاعِ السماوي في التنبيه الإنساني العام لفروض الرحمة والإنسانية والكبر.

وهنا حكمة كبيرة من حكم الصوم، وهي عمله في تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملي، الذي يُدَرَّبُ الصائم على أن يمنع باختياره من شهواته ولذته حيوانيته، مُصِرّاً على الامتناع، مُتَهَيِّئاً له بعزمته، صابراً عليه بأخلاق الصبر، مُزاولاً في كل ذلك أفضل طريقة نفسية لاكتساب الفكرة الثابتة ترسخ لا تتغير ولا تتحول، ولا تعدو عليها عوادي الغريزة.

وإدراك هذه القوة من الإرادة العملية منزلة اجتماعية سامية، هي في الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم، ففي هذين تعرض الفكرة مارةً مرورها، ولكنها في الإرادة تعرض لتستقر وتتحقق. فانظر في أي قانون من القوانين، وفي أية أمة من الأمم، تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فرضت فرضاً لتربية إرادة الشعب ومزاويله فكرة نفسية واحدة بخصائصها وملابساتها حتى تستقر وترسخ وتعود جزءاً من عمل الإنسان، لا خيالاً يمر برأيه مرّاً.

ليست هذه هي إتاحة^(١) الفرصة العملية التي جعلوها أساساً في تكوين الإرادة؟ وهل تبلغ الإرادة فيما تبلغ، أعلى من منزلتها حين تجعل شهوات المرء مُدْعِنَةً لفكره، مُنْقَادَةً لِلْوَاغِ النفسي فيه، مُصَرَّفَةً بِالْحَسَنِ الديني المسيطر على النفس ومشاعرها.

أما - والله - لو عم هذا الصوم الإسلامي أهل الأرض جميعاً، لآل معناه أن يكون إجماعاً من الإنسانية كلها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة، لتطهير العالم من رذائله وفساده، ومُخَقِّق^(٢) الأثرة والبخل فيه، وطرح المسألة النفسية ليتدرّسها أهل الأرض دراسة عملية مدة هذا الشهر بطوله، فيهبط كل رجل وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكامنها، ليختبر في مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر، وليفهم في طبيعة جسمه - لا في الكتب - معاني الصبر والثبات والإرادة، وليبلغ من ذلك وذلك درجات الإنسانية والمواساة والإحسان؛ فيحقق بهذه وتلك معاني الأخاء والحرية والمساواة.

(١) إتاحة: إفساح المجال.

(٢) محق: محو.

شهرٌ هو أيامٌ قلبيةٌ في الزمن؛ متى أشرقت على الدنيا قال الزمنُ لأهله: هذه أيامٌ من أنفسكم لا من أيامي، ومن طبيعتكم لا من طبيعتي؛ فيقبلُ العالمُ كله على حالةٍ نفسيةٍ بالغةِ السمو، يتعهدُ فيها النفسُ برياضتها على معالي الأمورِ ومكارم الأخلاق، ويفهمُ الحياةَ على وجهٍ آخرٍ غير وجهها الكالِح، ويراها كأنما أُجيعت من طعامها اليومي كما جاع هو، وكأنما أُفرغت من خَسائسها وشهواتها كما فرغ هو، وكأنما أُلزمت معانيَ التقوى كما أُلزِمها هو. وما أجمل وأبدع أن تظهرَ الحياةُ في العالم كله - ولو يوماً واحداً - حاملةً في يدها السُّبحة... فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة؟

إنها - والله - طريقةٌ عمليةٌ لرسوخِ فكرةِ الخيرِ والحق في النفس؛ وتطهيرِ الاجتماع من خسائسِ العقلِ المادي؛ وردُّ هذه الطبيعةِ الحيوانيةِ المحكومةِ في ظاهرها بالقوانين، والمحرورةِ من القوانين في باطنها - إلى قانونٍ من باطنها نفسه يُطهرُ مشاعرها، ويسمو بإحساسها، ويضربُها إلى معاني إنسانيتها، ويهذب من زياداتها، ويحذف كثيراً من فضولها، حتى يرجع بها إلى نحوٍ من براءةِ الطفولة، فيجعلها صافيةً مُشرقةً بما يجتذب إليها من معاني الخير والصفاء والإشراق؛ إذ كان من عملِ الفكرةِ الثابتةِ في النفس أن تدعو إليها ما يلائمها وتتصل بطبيعتها من الفكرِ الأخرى. والنفس في هذا الشهرِ مُختبئةٌ في فكرةِ الخير وحدها، فهي تبني بناءها من ذلك ما استطاعت.

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر، بل هو فصلٌ نفسيٌّ كفصول الطبيعة في دوراتها؛ ولهُوَ - والله - أشبه بفصل الشتاء في حلوله على الدنيا بالجو الذي من طبيعته السُّحب والغيث، ومن عمله إمدادُ الحياةِ بوسائل لها ما بعدها إلى آخر السنة، ومن رياضته أن يُكسبها الصلابةَ والانكماشَ والخِفَّةَ، ومن غايته إعدادُ الطبيعةِ لالتفتُّحِ عن جمالِ باطنها في الربيع الذي يتلوه.

وعجيبٌ جداً أن هذا الشهرَ الذي يَدخُرُ فيه الجسمُ من قِوَاهِ المعنويةِ فيودعها مَصْرِفَ روحانيته، ليجدَ منها عندَ الشدائدِ مَدَدَ الصبرِ والثباتِ والعزمِ والجلدِ والخشونة - عجيبٌ جداً أن هذا الشهرَ الاقتصادي هو من أيام السنة كفاية $\frac{1}{3}$ ٨ في المائة... فكأنه يُسجلُ في أعصابِ المؤمنِ حسابَ قوتهِ وربحيه فله في كل سنة زيادة $\frac{1}{3}$ ٨ من قوتهِ المعنويةِ الروحانية.

وسخرُ العظام في هذه الدنيا إنَّما يكونُ في الأمة التي تعرف كيف تدخُرُ هذه

القوة وتوفرها لتستمدّها عند الحاجة، وذلك هو سرُّ أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر في دمائهم وأعصابهم ما تجدُ الجيوش العظمى اليوم في مخازن العتاد والأسلحة والذخيرة.



كلُّ ما ذكرته في هذا المقال من فلسفة الصوم؛ فإنما أستخرجته من هذه الآية الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها معنى «التقوى»، أمّا أنا فأولّتها من «الاتقاء»؛ فبالصوم يتّقي المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعته معدّته، وآلا يعامل الدنيا إلّا بموادّ هذه الشريعة؛ ويتّقي المجتمع على إنسانيته وطبيعته مثل ذلك، فلا يكون إنسان مع إنسان كحمار مع إنسان؛ يبيعه القوة كلّها بالقليل من العلف.

وبالصوم يتّقي هذا وهذا ما بين يديه وما خلقه، فإنّ ما بين يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه، وما خلقه هو الجيل الذي سيرث من هذه الطبائع والأخلاق، فيعمل بنفسه في الحاضر، ويعمل بالحاضر في الآتي.

وكلُّ ما شرخناه فهو اتقاء ضررٍ لجلب منفعة، واتقاء رذيلةٍ لجلب فضيلة؛ وبهذا التأويل تتوجّه الآية الكريمة جهةً فلسفيةً عاليةً، لا يأتي البيان ولا العلم ولا الفلسفة بأوجز^(١) ولا أكمل من لفظها؛ ويتوجّه الصيام على أنّه شريعة اجتماعية إنسانية عامّة؛ يتّقي بها الاجتماع ضرور نفسه؛ ولن يتهذب العالم إلّا إذا كان له مع القوانين النافذة هذا القانون العام الذي أسّمه الصوم، ومعناه «قانون البطن»....

ألا ما أعظمك يا شهر رمضان! لو عرّفك العالم حقّ معرفتك لسمّاك: «مدرسة الثلاثين يوماً».

(١) أوجز: أخصر، أبلغ.

ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ

لو أَنَّنِي سَأَلْتُ أَنْ أَجْمَلَ فلسفة الدين الإسلاميَّ كُلَّهَا في لَفْظَيْنِ، لَقُلْتُ: إِنَّهَا ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ «ولو سَأَلْتُ أَكْبَرَ فلاسفةِ الدُّنْيَا أَنْ يُوجِزَ علاجَ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلُّهُ في حَرْفَيْنِ، لَمَّا زَادَ عَلَى الْقَوْلِ: إِنَّهُ ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ. وَلَوْ اجْتَمَعَ كُلُّ عُلَمَاءِ أَوْرَبَا لِيَدْرُسُوا الْمَدِينَةَ الْأَوْرَبِيَّةَ وَيَحْضُرُوا مَا يُغَوِّزُهَا فِي كَلِمَتَيْنِ لَقَالُوا: ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ.

فَلَيْسَ يَنْتَظِرُ الْعَالَمُ أَنْبِيَاءَ وَلَا فَلَاسِفَةً وَلَا مُصْلِحِينَ وَلَا عُلَمَاءَ يُدْعَوْنَ لَهُ بِذَعَا جَدِيداً؛ وَإِنَّمَا هُوَ يَتَرَقَّبُ^(١) مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْسَرَ لَهُ الْإِسْلَامَ هَذَا التَّفْسِيرَ، وَيُثَبِّتَ لِلدُّنْيَا أَنَّ كُلَّ الْعِبَادَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ هِيَ وَسَائِلُ عَمَلِيَّةٍ تَمْنَعُ الْأَخْلَاقَ الْإِنْسَانِيَّةَ أَنْ تَتَبَدَّلَ فِي الْحَيِّ فَيَخْلَعُ مِنْهَا وَيَلْبَسَ، إِذَا تَبَدَّلَتْ أَحْوَالُ الْحَيَاةِ فَصَعِدَتْ بِإِنْسَانِهَا أَوْ نَزَلَتْ؛ وَأَنَّ الْإِسْلَامَ يَأْتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانٌ حَالِيهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا مِنَ الثَّرْوَةِ أَوْ الْعُلُومِ، وَمِنَ الِارْتِفَاعِ أَوْ الضُّعْفِ^(٢)، وَمِنَ خُمُولِ الْمَنْزِلَةِ أَوْ نَبَاهَتِهَا^(٣)؛ وَيُوجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانٌ الدَّرَجَةِ الَّتِي أُنْتَهَى إِلَيْهَا الْكَوْنُ فِي سَمُوِّهِ وَكَمَالِهِ، وَفِي تَقْلِبِهِ عَلَى مَنَازِلِهِ بَعْدَ أَنْ صُفِّيَ فِي شَرِيعَةٍ بَعْدَ شَرِيعَةٍ، وَتَجَرِبَةٍ بَعْدَ تَجَرِبَةٍ، وَعِلْمٍ بَعْدَ عِلْمٍ.

انْتَهَتْ الْمَدِينَةُ إِلَى تَبَدُّلِ الْأَخْلَاقِ بِتَبَدُّلِ أَحْوَالِ الْحَيَاةِ، فَمَنْ كَانَ تَقِيًّا عَلَى الْفَقْرِ وَالْإِمْلَاقِ^(٤) وَحَرَمَهُ الْإِعْسَارُ^(٥) فَنَوَى اللَّذَّةَ، ثُمَّ أَيْسَرَ مِنْ بَعْدُ؛ جَارَ لَهُ أَنْ يَكُونَ فَاجِراً عَلَى الْغِنَى وَأَنْ يَتَسَمَّحَ لِفُجُورِهِ عَلَى مَدِّ مَا يَتَطَوَّخُ بِهِ الْأَمَالُ، وَإِنْ أَصْبَحَ فِي كُلِّ دِينَارٍ مِنْ مَالِهِ شَقَاءُ نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةٍ أَوْ فَسَادُهَا.

وَمَنْ وُلِدَ فِي بَطْنِ كُوخٍ، أَوْ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ، وَجَبَ أَنْ يَبْقَى أَرْضاً إِنْسَانِيَّةً؛ كَأَنَّ أَلَّهُ (سُبْحَانَهُ) لَمْ يَبْنِ مِنْ عِظَامِهِ وَلَحْمِهِ وَأَعْصَابِهِ إِلَّا خَرِبَةً أَدْمِيَّةً مِنْ غَيْرِ هَنْدَسَةٍ

(١) يَتَرَقَّبُ: يَنْتَظِرُ.

(٢) الضُّعْفُ: الْمَذَلَّةُ.

(٣) نَبَاهَتِهَا: عَلُوُّ مَنَزِلَتِهَا.

(٤) الْإِمْلَاقُ: الْفَقْرُ الشَّدِيدُ الْمَدْفَعُ.

(٥) الْإِعْسَارُ: الْفَقْرُ.

ولا نظام ولا فن... ثُمَّ يُقَابِلُهُ مَنْ وُلِدَ فِي الْقَصْرِ أَوْ شِبْهِ الْقَصْرِ فَلَهُ حَكْمٌ آخَرُ،
كَأَنَّ اللَّهَ (سُبْحَانَهُ) قَدْ رَكَّبَ مِنْ عَظَمِهِ وَدَمِهِ وَتَكْوِينِهِ آيَةً هَنْدَسِيَّةً وَأَعْجُوبَةً فَنٌ،
وَطُرْفَةً تَدْبِيرٍ، وَشَيْئاً مَعَ شَيْءٍ، وَطَبَقَةً عَلَى طَبَقَةٍ.

ولكنَّ الإسلامَ يُقَرِّرُ ثَبَاتَ الْخُلُقِ وَيُوجِبُهُ وَيُنْشِئُ النَّفْسَ عَلَيْهِ، وَيَجْعَلُهُ فِي
حَيَاطَةِ الْمَجْتَمَعِ وَحِرَاسَتِهِ، لِأَنَّ هُنَاكَ حُدُوداً فِي الْإِنْسَانِيَّةِ تَمَيِّزُ بِحُدُودٍ فِي الْحَيَاةِ،
وَلَا بَدْءَ مِنَ الضَّبْطِ فِي هَذِهِ وَهَذِهِ، حَتَّى لَا يَكُونَ وَضْعٌ إِلَّا وَرَاءَهُ تَقْدِيرٌ، وَلَا تَقْدِيرٌ
إِلَّا مَعَهُ حِكْمَةٌ، وَلَا حِكْمَةٌ إِلَّا فِيهَا مَصْلَحَةٌ؛ وَحَتَّى لَا تَعْلُو الْحَيَاةُ وَلَا تَنْزِلَ إِلَّا
بِمِثْلِ مَا تَرَى مِنْ كِفَافَتِي مِيزَانٍ شَدَّتَا فِي عِلَاقَةٍ تَجْمَعُهُمَا وَتَحَرِّكُهُمَا مَعاً، فَهِيَ بِذَاتِهَا
هِيَ الَّتِي تَنْزِلُ بِالنَّازِلِ لَتَذُلَّ عَلَيْهِ، وَتُسِيلُ بِالْعَالِي لِتَبِينَ عَنْهُ؛ فَالْإِسْلَامُ مِنَ الْمَدْنِيَّةِ
هُوَ مَدْنِيَّةُ هَذِهِ الْمَدْنِيَّةِ.

إِنَّهَا لَنْ تَتَغَيَّرَ مَادَّةُ الْعَظْمِ وَاللَّحْمِ وَالْدَّمِ فِي الْإِنْسَانِ فَهِيَ ثَابِتَةٌ مَقْدَرَةٌ عَلَيْهِ،
وَلَنْ تَتَبَدَّلَ أَلْسُنُ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تُوجِدُهَا وَتُفْنِيهَا فَهِيَ مُصَرَّفَةٌ لَهَا قَاضِيَةٌ عَلَيْهَا، وَبَيْنَ
عَمَلِ هَذِهِ الْمَادَّةِ وَعَمَلِ قَانُونِهَا، فِيهَا تَكُونُ أَسْرَارُ التَّكْوِينِ: وَفِي هَذِهِ الْأَسْرَارِ تَجَدُّ
تَارِيخُ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهِ سَابِحاً فِي الدَّمِ.

هِيَ الْغَرَائِزُ تَعْمَلُ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ عَمَلَهَا الْإِلَهِيَّ، وَهِيَ مُحَدَّدَةٌ مُحْكَمَةٌ عَلَى مَا
يَكُونُ مِنْ تَعَادِيهَا وَأَخْتِلَافِ بَيْنِهَا، وَكَأَنَّهَا خُلِقَتْ بِمَجْمُوعِهَا لِمَجْمُوعِهَا؛ وَمَنْ ثُمَّ
يَكُونُ الْخُلُقُ الصَّحِيحُ فِي مَعْنَاهُ قَانُوناً إِلَهِيّاً عَلَى قُوَّةِ كَقُوَّةِ الْكُونِ وَضَبْطِ كَضَبْطِهِ.

وَبِهَذِهِ الْقُوَّةِ وَهَذَا الضَّبْطِ يَسْتَطِيعُ الْخُلُقُ أَنْ يَحْوَلَ الْمَادَّةُ الَّتِي تُعَارِضُهُ إِذَا هُوَ
أَشْتَدَّ وَضَلْبٌ، وَلَكِنَّهُ يَتَحَوَّلُ مَعَهَا إِذَا هُوَ لَانَ أَوْ ضَعُفَ. فَهُوَ قَدَرٌ إِلَّا أَنَّهُ فِي
طَاعَتِكَ، إِذْ هُوَ قُوَّةُ الْفَضْلِ بَيْنَ إِنْسَانِيَّتِكَ وَحَيَوَانِيَّتِكَ، كَمَا أَنَّهُ قُوَّةُ الْمَرْجِ بَيْنَهُمَا،
كَمَا أَنَّهُ قُوَّةُ التَّعْدِيلِ فِيهِمَا، وَقَدْ سَوَّغَ^(١) الْقُدْرَةَ عَلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ جَمِيعاً، وَلَوْلَا أَنَّهُ
بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ لَعَاشَ الْإِنْسَانُ طَوْلَ التَّارِيخِ قَبْلَ التَّارِيخِ، إِذْ لَنْ يَكُونَ لَهُ حِينٌ كَوْنٌ
تَوَرَّخُ فَضَائِلُهُ أَوْ رِذَائِلُهُ بِمَدْحٍ أَوْ دَمٍّ.

فَلَا عِبْرَةَ^(٢) بِمَظْهَرِ الْحَيَاةِ فِي الْفَرْدِ، إِذِ الْفَرْدُ مَقِيدٌ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ بِمَجْمُوعٍ هُوَ

(١) سَوَّغَ: عَلَّلَ وَسَمَحَ.

(٢) عِبْرَةٌ، بِكسر العين: الدرس والأمثلة.

للمجموع وليس له وحده: فإنك ترى الغرائز دائبة^(١) في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنن من أعمالها، ودائبة كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسُنن أخرى؛ فليس قانون الفرد إلا أمراً عارضاً كما ترى؛ وبهذا يمكن أن يتحوّل الفرد على أسباب مختلفة، ثم تبقى الأخلاق التي بيّنتها وبين المجموع ثابتة على صورتها. فالأخلاق على أنها لأفراد، هي في حقيقتها حكم المجتمع على أفرادِهِ؛ فقوامها بالاعتبار الاجتماعي لا غير.

وحين يقع الفساد في المجتمع عليه من آداب الناس، ويلتوي ما كان مستقيماً، وتشتبه العالية والسافلة^(٢)، وتطرح^(٣) المبالاة بالضمير الاجتماعي، ويقوم وزن الحكم في اجتماعهم على القبيح والمنكر، وتجري العيرة فيما يعتبرونه بالذائل والمحرمات، ولا يعجب الناس إلا ما يفسدُهم، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ويجل في محل العادة؛ فهناك لا مساك للخلق السليم على فرد، ولا بد من تحول الفرد في حقيقته؛ إذ كان لا يجيء أبداً إلا متصدعاً^(٤) في كل مظهره الاجتماعي، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثلوماً، وكأنه منتقل من عالم إلى عالم ثانٍ بغير نوايس الأول.

وما شد من هذه القاعدة إلا الأنبياء وأفراد من الحكماء؛ فأما أولئك فهم قوة التحويل في تاريخ الإنسانية: لا يبعث أحدهم إلا ليهيئ به الهنيئ في التاريخ، ويتطرق به الناس إلى سبل جديدة كأنما تطردهم إليها العواصف والزلازل والبراكين، لا شريعته ومبادئه وآدابه؛ وأما الحكماء الناضجون فيهم دائماً في هذه الإنسانية أمكنة بشرية مخصنة لحفظ كنوزها وإحرازها في أنفسهم، فلهم في ذات أنفسهم عظمة ومنعة كالجبال في ذات الأرض.

الأخلاق في رأيي هي الطريقة لتنظيم الشخصية الفردية على مقتضى الواجبات العامة، فالإصلاح فيها إنما يكون من عمل هذه الواجبات، أي من ناحية المجتمع والقائمين على حكمه. وعندني أن للشعب ظاهراً وباطناً؛ فباطنه هو الدين

(١) دائبة: مستمرة بطلبها.

(٢) السافلة: الرعاع.

(٣) تطرح: ترمى وتجاهل.

(٤) متصدعاً: مهتماً.

الذي يحكم الفرد، وظاهره هو القانون الذي يحكم الجميع، ولن يصلح للباطن المتصل بالغيب إلا ذلك الحكم الديني المتصل بالغيب مثله؛ ومن هنا تتبين مواضع الاختلال في المدنية الأوربية الجديدة؛ فهي في ظاهر الشعب دون باطنه، والفرد فاسد بها في ذات نفسه إذا هو تحلل من الدين، ولكنه مع ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهره الاجتماعي بالقوانين وبالآداب العامة التي تفرضها القوانين، فلا يبرح هازناً من الأخلاق ساخراً بها؛ لأنها غير ثابتة فيه، ثم لا تكون عنده أخلاقاً يعتد بها إلا إذا درت بها منافعه، وإلا فهي ضارة إذا كانت منها مضرّة، وهي مؤلمة إذا حالت دون اللذات. ولا ينفك هذا الفرد يتحول لأنه مطلق في باطنه غير مقيد إلا بأهوائه ونزعاته، وكلمتنا الفضيلة والرذيلة معدومتان في لغة الأهواء والنزعات؛ إذ الغاية المتاع واللذة والنجاح، وليكن السبب ما هو كائن...

وبهذا فلن تقوم القوانين في أوربا إذا فني المؤمنون بالأديان فيها أو كثرتهم^(١) الملحدون، وهم اليوم ينصرون بأعينهم ما فعلت عقيلة الحرب العظمى في طوائف منهم قد خربت أنفسهم من إيمانهم فتحولوا ذلك التحول الذي أومأنا إليه، فإذا أعصابهم بعد الحرب ما تزال محاربة مقاتلة ترمي في كل شيء بروح الدم والأشلاء والقبور والتعفن والبلى... وانتهت الحرب بين أمم وأمم، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق.

وقديماً حارب المسلمون، وفتحوا العالم، ودوخوا الأمم؛ فأثبتوا في كل أرض هذي دينهم وقوة أخلاقهم الثابتة، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو من ورائها في السلم، وذلك بثبات باطنهم الذي لا يتحول، ولا تستخفه الحياة بنزقها، ولا تسفه^(٢) المديئات فتحمله على الطيش.

ولو كانوا هم أهل هذه الحرب الأخيرة بكل ما قدفت به الدنيا. لبقيت لهم العقلية المؤمنة القوية، لأن كل مسلم فإنما هوو عقيلته في سلطان باطنه الثابت القار على حدود بينة محصلة مقسومة، تحوطها وتمسكها أعمال الإيمان التي أحكمها الإسلام أشد إحكام بقرضها على النفوس منوعة مكررة: كالصلاة والصوم والزكاة، ليمنع بها تغيراً ويحدث بها تغيراً آخر، ويجعلها كالحارس للإرادة ما تزال تمر بها وتتعهدها بين الساعة والساعة.

إنما الظاهر والباطن كال موج والساحل؛ فإذا جنّ الموج فلن يضره ما بقي

(١) كثرتهم: فاخرهم بكثرة.

(٢) تسفه: تنزل به إلى الحضيض.

الساحل ركيناً هادئاً مشدوداً بأغضاده في طبقات الأرض . أمّا إذا مآج الساحل . . .
فذلك أسلوب آخر غير أسلوب البحار والأعاصير؛ ولا جرم^(١) ألا يكون إلا خسفاً
بالأرض والماء وما يتصل بهما .

في ألكون أصل لا يتغير ولا يتبدل، هو قانون ضبط القوة وتصريفها وتوجيهها
على مقتضى الحكمة . ويقابلها في الإنسان قانون مثله لا بد منه لضبط معاني الإنسان
وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال . وكل فروض الدين الإسلامي وواجباته
وآدابه، إن هي إلا حركة هذا القانون في عمله؛ فما تلك إلا طرق ثابتة لخلق الجس
الأدبي، وتثبيته بالتكرار، وإدخاله في ناموس طبيعي بإجرائه في الأنفس مجرى العادة،
وجعله بكل ذلك قوة في باطنها، فتسمى الواجبات والآداب فروضاً دينية؛ وما هي في
الواقع إلا عناصر تكوين النفس العالية، وتكون أوامر وهي حقائق .

ومن ذلك أرانا - نحن الشرقيين - نمتاز على الأوروبيين بأننا أقرب منهم إلى
قوانين الكون؛ ففي أنفسنا ضوابط قوية متينة إذا نحن أقرزنا مدينتهم فيها - وهي
بطبيعتها لا تقبل إلا محاسن هذه المدنية - سبقناهم وتركنا غبار أقدامنا في
وجوههم، وكنا الطبقة المصفاة التي ينشدونها^(٢) في إنسانيتهم^(٣) الراهة^(٤) ولا
يجدونها، ونمتاز عنهم من جهة أخرى بأننا لم ننشئ هذه المدنية ولم ننشئنا،
فليس حقاً علينا أن نأخذ سيئاتها من حسناتها، وحمائتها في حكمتها، وتزويرها في
حقيقتها؛ وأن نسيغ^(٥) منها الخلوة والمرة، والناضجة والفجة؛ وإنما نحن نحصلها
ونقتبسها ونرتجع منها الرجعة الحسنة؛ فلا نأخذ إلا الشيء الصالح مكان الشيء قد
كان دونه عندنا ونُدع ما سوى ذلك؛ ثم لا نأخذ ولا ندع إلا على الأصول الضابطة
المحكمة في أدياننا وآدابنا؛ ولسنا مثلهم متصلين من حاضر مدنييتهم بمثل
ماضيهم، بيد أن العجب الذي ما يفرغ عجب منه، أن الموسومين^(٥) ميتاً بالتجديد
لا يحاولون أول وهلة وأخرها إلا هدم تلك الضوابط التي هي كل ما نمتاز به،
والتي هي كذلك كل ما تحتاج إليه أوربا لضبط مدنياتها؛ ويسمون ذلك تجديداً،
ولهُوَ بأن يسمى حماقة وجهلاً أولى وأحق .

(١) لا جرم: لا شك .

(٢) ينشدونها: يطلبونها .

(٣) الراهة: الحالية .

(٤) نسيغ: نجد طعم .

(٥) الموسومين: المعروفين بطابع التجديد .

أقول ولا أبالي: إننا أبلينا في نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد أحترفوا^(١) النقل من لغات أوربا، ولا عقل إلا عقل ما ينقلونه: فصنعتهم الترجمة من حيث يدرون أو لا يدرون صنعة تقليد مخض ومُتَابِعَة مُسْتَعْبِدَة، وأصبح عقلهم - بحكم العادة والطبيعة - إذا فكر أنجذب إلى ذلك الأصل لا يخرج عليه ولا يتحول عنه. وإذا صح أن أعمالنا هي التي تعملنا - كما يقول بعض الحكماء - فهم بذلك خطر أي خطر على الشعب وقوميتيه وذاتيته وخصائصه، ويوشك إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعون إليه أن... أن يترجموه إلى شعب آخر...

* * *

إن أوربا ومدنيّتها لا تُساوي عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تُحقّق فينا من اتّساع الذاتية بعلمومها وفنونها، فإنما الذاتية وحدها هي أساس قوتنا في النزاع العالمي بكلّ مظاهره أيها كان؛ ولها وحدها، وباعتبار منها دون سواها، نأخذ ما نأخذ من مدنيّة أوربا ونهمل ما نهمل؛ ولا يجوز أن نترك أثبت في هذا ولا أن نتسامح في دقة المحاسبة عليه.

فالمحافظة على الضوابط الإنسانية القويّة التي هي مظاهر الأديان فينا، ثم إدخال الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط ليربطها بالعصر وحضارته، ثم تنسيق مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط، ثم العمل على اتّحاد المشاعر وتمازجها لتقويم هذا المظهر الشعبي في جملته بتقويم أجزائه - هذه هي الأركان الأربعة التي لا يقوم على غيرها بناء الشرق.

والإلحاد والنزعات السافلة وتخانيث المدنيّة الأوربيّة التي لا عمل لها إلا أن تُظهر الخطر في أجمل أشكاله... ثم الجهل بعلم القوة الحديثة وبأصول التدبير وحيطة الاجتماع وما جرى هذا المجرى، ثم التذليل^(٢) على الأمة بآراء المقلّدين والزائفين والمستعمرين لمحق الأخلاق الشعبيّة القويّة وما اتّصل بذلك، ثم التخاذل والشقاق وتدابّر الطوائف وما كان بسبيلها - تلك هي المعاول الأربعة التي لا يهدم غيرها بناء الشرق.

فليكن دائماً شعارنا - نحن الشرقيين - هذه الكلمة: أخلاقنا قبل مدنيّتهم.

(١) احترفوا: اتّخذوا حرفة.

(٢) التذليل: الكذب.

قُلْتُ لِنَفْسِي وَقَالَتْ لِي ...

قُلْتُ لِنَفْسِي: ويحك يا نفس! مالي أتحامل عليك؛ فإذا وقَّيت بما في وسعك أردت منك ما فوقه وكلفتك أن تسعى؛ فلا أزال أغثتك^(١) من بعد كمال فيما هو أكمل منه، وبعد الحسن فيما هو الأحسن؛ وما أنفك أجهدك كلما راجعك النشاط، وأضنيك كلما ثابت القوة؛ فإن تكن لك هموم فأنا أكبرها، وإذا ساورتك الأحزان فأكثرها مما أجلب عليك.

أنت يا نفس سائرة على النهج، وأنا اعتسف^(٢) بك أريد الطيران لا السير، وأبتغي عمل الأعمار في عمر، وأسحجك من كل هجة^(٣) راحة بفجر تعب جديد، وكأني لك زمن يمد بعضه بعضاً، فما يبرح يثبُّ عليك من ظلام بنور ومن نور بظلام؛ ليهيء لك القوة التي تمتد بك في التاريخ من بعد، فتذهبين حين تذهبين ويعيش قلبك في العالم سارياً بكلمات أفرجه وأحزانه.

وقالت لي النفس: أما أنا فإنني معك ذاباً كالحبيبية الوفيّة لمن تحبه: ترى خضوعها أحياناً هو أحسن المقاومة؛ وأما أنت فإذا لم تكن تتعب ولا تزال تتعب فكيف تُريني أنك تتقدم ولا تزال تتقدم؟

ليست دنيائك يا صاحبي ما تجده من غيرك، بل ما توجده بنفسك؛ فإن لم تزد شيئاً على الدنيا كنت أنت زائداً على الدنيا؛ وإن لم تدعها أحسن مما وجدتتها فقد وجدتتها وما وجدتتك؛ وفي نفسك أول حدود دنيائك وآخر حدودها. وقد تكون دنيا بعض الناس حانوتاً صغيراً، ودنيا الآخر كالقرية المملّمة^(٤)، ودنيا بعضهم كالمدينة الكبيرة؛ أما دنيا العظيم فقارة بأكملها، وإذا انفرد امتد في الدنيا فكان هو الدنيا.

(١) أعت: أتعب.

(٣) هجمة: رقدة.

(٢) اعتسف: عنف.

(٤) المملّمة: يقصد بذلك القرية الصغيرة.

وَالْقُوَّةُ يَا صَاحِبِي تُغْتَذَى بِالتَّعَبِ وَالْمُعَانَاةِ؛ فَمَا عَانَيْتَهُ الْيَوْمَ حَرَكَةً مِنْ جَسْمِكَ، الْفَيْتَةُ^(١) غَدًا فِي جَسْمِكَ قُوَّةً مِنْ قُوَى اللَّحْمِ وَالْدَّمِ. وَسَاعَةُ الْأَرَاخَةِ بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ التَّعَبِ، هِيَ فِي لَذَّتِهَا كَأَيَّامٍ مِنَ الْأَرَاخَةِ بَعْدَ تَعَبِ سَاعَةٍ. وَمَا أَشْبَهَ الْحَيَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَوَشْكِ انْقِطَاعِهِ مِنْهَا، بِمَنْ خُلِقَ لِيَعِيشَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ عَلَيْهِ سَاعَاتُهَا وَدَقَائِقُهَا وَثَوَانِيهَا؛ أَفْتَرَاهُ يَغْفُلُ فَيَقْدُرُهَا ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ، وَيَذْهَبُ يُسْرِفُ فِيهَا ضُرُوبًا مِنْ لَهْوِهِ وَلَعِبِهِ وَمُجُونِهِ، إِلَّا إِذَا كَانَ أَحْمَقُّ أَحْمَقَ إِلَى نَهَايَةِ الْحُمْقِ؟

إِتْعَبْ تَعَبَكَ يَا صَاحِبِي، فِي النَّاسِ تَعَبَ مَخْلُوقٍ مِنْ عَمَلِهِ، فَهُوَ لَيْنٌ هَيِّنٌ مُسَوًى تَسْوِيَةً؛ وَفِيهِمْ تَعَبَ خَالِقٍ عَمَلَهُ، فَهُوَ جَبَّارٌ مَتَمَرِّدٌ لَهُ الْقَهْرُ وَالْعَلْبَةُ. وَأَنْتَ إِنَّمَا تَكْذُ لِتَسْمُوَ بِرُوحِكَ إِلَى هَمُومِ الْحَقِيقَةِ الْعَالِيَةِ، وَتَسْمُوَ بِجَسْمِكَ إِلَى مَشَقَّاتِ الرُّوحِ الْعَظِيمَةِ؛ فَذَلِكَ يَا صَاحِبِي لَيْسَ تَعَبًا فِي حَفْرِ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُ تَعَبٌ فِي حَفْرِ الْكَتْرِ.

إِتْعَبْ يَا صَاحِبِي تَعَبَكَ؛ فَإِنَّ عَنَاءَ الرُّوحِ هُوَ عُمْرُهَا؛ فَأَعْمَالُكَ عُمْرُكَ الرُّوحَانِي، كَعُمْرِ الْجَسْمِ لِلْجَسْمِ؛ وَأَحَدُ هَذَيْنِ عُمْرٌ مَا يَعِيشُ، وَالْآخَرُ عُمْرٌ مَا سَيَعِيشُ.

قُلْتُ لِنَفْسِي: فَقَدْ مَلَلْتُ أَشْيَاءَ وَتَبَرَّمْتُ بِأَشْيَاءَ. وَإِنَّ عَمَلَ التَّغْيِيرِ فِي الدُّنْيَا لَهُوَ هَذَا لَهَا كُلَّمَا بُنِيَتْ، ثُمَّ بِنَاؤُهَا كُلَّمَا هُدِمَتْ؛ فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ فِي السَّاعَةِ أَلَوَّاحِدَةٍ بِصُورَتَيْنِ مَعًا؛ وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ خَلَطْتُهُ بِالنَّفْسِ يَذْهَبُ فِيهَا ذَهَابَ الْمَاءِ فِي الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ يَوْمٌ، أَوْ عَهْدٌ كَالْيَوْمِ، رَأَيْتُ فِي مَكَانِهِ إِنْسَانًا خِيَالِيًا كَمَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الثُّحَاةِ فِيهَا قَوْلَانِ...! فَهُوَ يَحْتَمِلُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ تَأْوِيلَ مَا أَظُنُّ بِهِ مِنْ خَيْرٍ، وَمَا أَتَوَقَّعُ بِهِ مِنْ شَرٍّ! وَكَمْ مِنْ أَسْمٍ جَمِيلٍ إِذَا هَجَسَ^(٢) فِي خَاطِرِي قُلْتُ: أَيْ، هَذَا الَّذِي كَانَ...!

أَمَّا - وَاللَّهِ - إِنَّ ثِيَابَ النَّاسِ لَتَجْعَلُهُمْ أَكْثَرَ تَشَابُهًا فِي رَأْيِ النَّفْسِ، مِمَّا تَجْعَلُهُمْ وَجُوهُهُمْ أَلْتِي لَا تَخْتَلِفُ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ: وَإِنِّي لَأَرَى الْعَالَمَ أحيانًا كَالْقِطَارِ السَّرِيعِ مُنْطَلِقًا بِرَكْبِهِ وَلَيْسَ فِيهِ مَنْ يَقُودُهُ، وَأَرَى الْكُفْلَةَ الْمُفْرِطَةَ^(٣) قَدْ بَلَغَتْ مِنْ هَذَا النَّاسِ مَبْلَغَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ حَيٌّ فِي الْحَيَاةِ كَالْمَوْظَفِ تَحْتَ التَّجَرِبَةِ، فَإِذَا قَضَى الْمَدَّةَ قِيلَ لَهُ: إِبْدَأْ مِنَ الْآنَ. كَأَنَّهُ إِذَا عَاشَ يَتَعَلَّمُ الْخَيْرَ وَالْشَّرَّ، وَيُدْرِكُ مَا يَضْلُحُ وَمَا لَا

(١) الْفَيْتَةُ: وَجَدْتُهُ.

(٢) هَجَسَ: طَرَأَ عَلَى الْبَالِي.

(٣) الْمَفْرِطَةُ: الزَّائِدَةُ.

يصلح، وأنتهى من عمره إلى النهاية المحدودة - رَجَعَ من بعدها يعيش منتظماً على استواء واستقامة، وفي إدراك وتمييز. مع أنَّ الخرافة نفسها لم تقبل قط أن يُعدَّ منها في أوهام الحياة أنَّ رجلاً بلغ الثمانين أو التسعين وحان أجله فأصبحوا لم يجدوه ميتاً في فراشه؛ بل وجدوه مولوداً في فراشه...!

وقالت لي النفس: وأنت ما شأئك بالناس والعالم؟ يا هذا ليس لمصباح الطريق أن يقول: «إنَّ الطريق مظلم». إنّما قوله إذا أراد كلاماً أن يقول: «هأنذا مُضيء».

والحكيم لا يضجر ولا يضيق ولا يتملّل، كما أنّه لا ينحف ولا يطيش ولا يستزسل^(١) في كذب ألوهه؛ فإنَّ هذا كله أثر الحياة البهيمية في هذه البهيمية الإنسانية، لا أثر الروح القويّة في إنسانها. والحيوان هو الذي يجوع ويشبع لا النفس. وبين كلَّ شيتين ممّا يَغْتَوِرُ الحيوانيّة - كالخلو والامتلاء، واللذة والألم - تعمل قوَى الحيوان أشياء كثيرة التي تتسلطُّ بها على النفس، لتخطفها من مرتبة إلى أن تجعلها كنفوس الحيوان؛ ولهذا كان أول الحكمة ضبط الأدوات الحيوانيّة في الجسم، كما توضع اليد العالمة على مفاتيح القطار المنطلق يتسعر مِرْجله ويغلي.

إعمل يا صاحبي عملك؛ فإذا رأيت في العاملين من يضجر فلا تضجر مثله، بل خذ أطمئناؤه إلى اطمئنانك، ودعه يخلو وتضاعف أنت.

إنه ليوشك أن يكون في الناس ناس (كالبُنوك)؛ هذه مستودعات للمال تحفظه وتخرج منه وتثمره، وتلك مستودعات للفضائل تحفظها وتخرج منها وتزيدها. وإفلاس رجل من أهل المال، هو إطلاق النكبة مُسدّها على رجل تقتله؛ ولكن إفلاس (بنك) هو إطلاق النكبة مدفعها الكبير على مدينة تدمرها.

قلت لنفسي: فما أشدَّ الألم في تحويل هذا الجسد إلى شبه روح مع الروح! تلك هي المعجزة التي لا توجد في غير الأنبياء، ولكن العمل لها يجعلها كأنها موجودة. والأسد المحبوس محبوس فيه قوّته وطباعه؛ فإن زال الوجود الحديدي من حوله أو هتّت^(٢) ناحية منه، انطلق ألوحش. والرجل أفاضل فاضل ما دام في

(٢) وهنت: ضعفت.

(١) استزسل: تمادى واستمر.

قَفَصِهِ الْفِكْرِي، وهو ما دامَ في هذا القفصِ فعليه أن يكونَ دائماً نموذجاً معروضاً للتفتيح^(١) المُمكن في النفسِ الإنسانية: تُصَيِّهُ السَّيِّئُ مِنَ النَّاسِ لِتُخْتَبَرَ فِيهِ الْحَسَنَةُ، وَتَبْلُوَةُ الْخِيَانَةِ لِتَجِدَ الْوَفَاءَ، وَيَكْرَهُ الْبُغْضَ لِيُقَابِلَهُ بِالْحُبِّ، وَتَأْتِيهِ اللَّعْنَةُ لِتَجِدَ الْمَغْفِرَةَ؛ وَلَهُ قَلْبٌ لَا يَتَعَبُ فَيَبْلُغُ مَنْزِلَةً إِلَّا أَبْتَدَأَ التَّعَبَ لِيَبْلُغَ مَنْزِلَةً أَعْلَى مِنْهَا، وَلَهُ فِكْرٌ كُلَّمَا جَهَدَ فَأَدْرَكَ حَقِيقَةً كَانَتْ الْحَقِيقَةُ أَنْ يَجْهَدَ فَيُدْرِكَ غَيْرَهَا.

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ: إِنَّ مَنْ فَاقَ النَّاسَ بِنَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ كَانَتْ عَظَمَتُهُ فِي أَنْ يَفُوقَ نَفْسَهُ الْكَبِيرَةَ؛ إِنَّ الشَّيْءَ الْنَهَائِيَّ لَا يُوْجَدُ إِلَّا فِي الصَّغَائِرِ وَالشَّرِّ، أَمَّا الْخَيْرُ وَالْكَمَالُ وَعِظَائِمُ النَّفْسِ وَالْجَمَالُ الْأُسْتَى، فَهَذِهِ حَقَائِقُ أَرْزَلِيَّةٌ وَجَدَتْ لِنَفْسِهَا: كَالِهَوَاءِ يَتَنَفَّسُهُ كُلُّ الْأَحْيَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ وَلَا يَنْتَهِي، وَلَا يُغْرَفُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْأَصْفَاتُ مُنْبَعَثَةً إِلَى النَّفُوسِ مِنْ أَنْوَارِ الْمَلَائِكَةِ، وَبِهَذَا كَانَ أَكْبَرُ النَّاسِ حِظًّا مِنْهَا هُمُ الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَّصِلِينَ بِتِلْكَ الْأَنْوَارِ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَنْ جَعَلَ فِي كُلِّ النَّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَصْلًا صَغِيرًا يَجْمَعُ فِكْرَةَ الْخَيْرِ وَالْكَمَالِ وَعِظَائِمِ النَّفْسِ وَالْجَمَالِ الْأُسْتَى، وَقَدْ تَعَظَّمَ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا أَوْ بَعْضُهَا، وَقَدْ تَصَغَّرَ فِيهِ بَعْضُهَا أَوْ كُلُّهَا: أَلَا وَهُوَ الْحُبُّ.

لَا بَدَّ أَنْ تَمُرَّ كُلُّ حَيَاةٍ إِنْسَانِيَّةٍ فِي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحُبِّ؛ مِنْ رِقَّةِ النَّفْسِ وَرَحْمَتِهَا، إِلَى هَوَى النَّفْسِ وَعِشْقِهَا.

وَإِذَا بَلَغَ الْحُبُّ أَنْ يَكُونَ عِشْقًا، وَضَعَ يَدَهُ عَلَى الْمِفْتَاحِ الْعَصَبِيَّةِ لِلنَّفْسِ، وَفَتَحَ لِلْعِظَائِمِ وَالْمُعْجَزَاتِ أَبْوَابَهَا؛ حَتَّى إِنَّهُ لَيَجْعَلُ الْخُرَافَةَ الْفَارِغَةَ مُعْجَزَةً دَقِيقَةً، وَيَمَلَأُ الْحَيَاةَ بِمَعَانٍ لَمْ تَكُنْ فِيهَا مِنْ قَبْلُ، وَيَصْبِحُ سِرُّ هَذَا الْحُبِّ لَا يَنْتَهِي؛ إِذْ هُوَ سِرٌّ لَا يُدْرَكَ وَلَا يُعْرَفُ.

إِجْهَدْ جُهْدَكَ يَا صَاحِبِي، فَمَا هُوَ قَفْصُكَ الْفِكْرِيُّ ذَلِكَ الشِّعَاعُ الَّذِي يَحْبِسُكَ، وَلَكِنَّهُ صَقْلٌ^(٢) النَّفْسِ لِتَتَلَقَّى الْأَنْوَارَ، وَلَا بَدَّ لِلْمَرَاةِ مِنْ ظَاهِرٍ غَيْرِ ظَاهِرِ الْحَجَرِ لِتَكُونَ بِهِ مَرَاةً.

قُلْتُ لِنَفْسِي: فَمَا أَشَدُّهُ مَضْضًا^(٣) أَعَانِيهِ! إِنَّ أَمْرِي لَيَذْهَبُ فُرْطًا^(٤) أَكُلَّمَا

(٣) مَضْضًا: أَلَمًا وَعَذَابًا.

(١) التفتيح: التمييز بين الصالح والطالح.

(٤) فُرْطًا: مجاوزاً الحد.

(٢) صَقْلٌ: تهذيب.

أَبْتَغَيْتُ مِنَ الْحَيَاةِ مَرَحاً أَطْرَبُ لَهُ وَأَهْتَرُ، جَاءَتْنِي الْحَيَاةُ بِفِكْرَةٍ أُسْتَكِدُّ^(١) فِيهَا وَأَدَابُ؟ أَهَذَا السُّرُورُ الَّذِي لَا يَزَالُ يَقَعُ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ الَّذِي لَا يَكَاذُ يَقَعُ لِي؟ وَهَلْ أَنَا شَجَرَةٌ فِي مَغْرَسِهَا: تَنْمُو صَاعِدَةً بِفُرُوعِهَا، وَنَازِلَةً بِجُذُورِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَبْرُخُ مَكَانَهَا؟ أَوْ أَنَا تِمَثَالٌ عَلَى قَاعِدَتِهِ: لَا يَتَزَحْزَحُ عَنْهَا إِلَّا سَاعَةً لَا يَكُونُ تِمَثَالاً، وَلَا يَدْعُهَا حَتَّى تَدْعَهُ مَعَانِي الْعِظَمَةِ الَّتِي تُصِيبُ لَهَا؟

قَالَتْ لِي النَّفْسُ: وَيْحَكَ! لَا تَطْلُبْ فِي كَوْنِكَ الصَّغِيرِ مَا لَيْسَ فِيهِ؛ إِنَّ النَّاسَ لَوْ أَرْتَفَعُوا إِلَى السَّمَاءِ وَتَقَلَّبُوا فِيهَا كَمَا يَسِيحُ^(٢) أَهْلُ قَارَةِ مِنَ الْأَرْضِ فِي قَارَةِ غَيْرِهَا، وَابْتَغَوْا أَنْ يَحْمِلُوا مَعَهُمْ مِمَّا هُنَاكَ تَذْكَاراً صَغِيراً إِلَى الْأَرْضِ - لَوَجَدُوا أَصْغَرَ مَا هُنَاكَ أَكْبَرَ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهَا؛ فَأَنْتَ سَائِحٌ فِي سَمَاوَاتِ.

أَنْتَ كَالنَّائِمِ: لَهُ أَنْ يَرَى وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئاً مِمَّا يَرَى إِلَّا وَضْفَهُ، وَحِكْمَتَهُ، وَالسُّرُورَ بِمَا أَلْتَدُّ مِنْهُ، وَالْأَلَمَ بِمَا تَوَجَّعَ لَهُ.

لَنْ تَكُونَ فِي الْأَرْضِ شَجَرَةً بِرَجْلَيْنِ تَذْهَبُ هُنَا وَهَهُنَا، وَلَكِنَّ الشَّجَرَةَ تُرْسِلُ أَثْمَارَهَا يَتَنَاقَلُهَا النَّاسُ، وَهِيَ تُبْدِعُ الثَّمَارَ إِبْدَاعَ الْمُؤَلِّفِ الْعَبْقَرِيِّ مَا يُؤْلَفُهُ بِأَشَدِّ الْكَدِّ وَأَعْظَمِ الْجَهْدِ، مُطْلِقَةً ضَمِيرَهَا فِي الْفِكْرَةِ الصَّغِيرَةِ، تَعْقِدُهَا شَيْئاً شَيْئاً، ثُمَّ تَعُودُ عَلَيْهَا بِالزِّيَادَةِ، وَلَا تَزَالُ كُلَّ وَقْتٍ تَعُودُ عَلَيْهَا حَتَّى تَسْتَفْرِغَ^(٣) أَقْصَى الْقُوَّةِ؛ ثُمَّ يَكُونُ سُرُورُهَا فِي أَنْ تَهَبَ فَائِدَتَهَا، لِأَنَّهَا لَذَلِكَ وَجِدَتْ.

إِنَّ فِي الشَّجَرَةِ طَبِيعَةً صَادِقَةً لَا شَهْوَةَ مَكْذُوبَةٍ؛ فَالْحَيَاةُ فِيهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ الْحَيَاةُ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى مَجَازِهَا؛ وَشَرْطُ الْمَجَازِ الْخَيَالُ وَالْمِبَالِغَةُ وَالْتَّلْوِينُ؛ وَلَكِنْ مَتَى اخْتَارَ اللَّهُ رَجُلًا فَأَقَرَّ فِيهِ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ الصَّادِقَةِ، وَوَهَبَ لَهُ الْعَاطِفَةَ الْقَادِرَةَ الَّتِي تَصْنَعُ ثِمَارَهَا - فَقَدْ غَرَسَهُ شَجَرَةً فِي مَسْتَبَاحِهَا لَا مَفْزَ وَلَا مَنْدُوحَةَ^(٤)، وَقَدْ يُخَيَّلُ لَهُ ضَعْفُ طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ أحياناً أَنْ نُضْرَةَ الْمَجْدِ الَّتِي تَعْلُوهُ وَتَتَأَلَّقُ كَشَعَاعِ الْكَوْكَبِ، هِيَ تَعْبُهُ وَضَجَرُهُ، أَوْ أَثَرُ انْخِذَالِهِ^(٥) وَالْمِهْ وَمُسْكِنَتِهِ؛ وَهَذَا مِنْ شَقَاءِ الْعَقْلِ؛ فَإِنَّهُ دَائِماً يُضَيَّفُ شَيْئاً إِلَى شَيْءٍ، وَيَخْلِطُ مَعْنَى بِمَعْنَى، وَلَا يَتْرُكُ حَقِيقَةً عَلَى مَا هِيَ؛ كَأَنَّ فِيهِ مَا فِي الطِّفْلِ مِنْ غَرِيزَةِ التَّقْلِيدِ؛

(١) أُسْتَكِدُّ: أُنْعَبُ.

(٢) يَسِيحُ: يَتَقَلَّبُ وَيَتَنَحَّلُ.

(٣) تَسْتَفْرِغُ: تَتَخَلَّصُ.

(٤) لَا مَنْدُوحَةَ: لَا مَلْجَأَ.

(٥) انْخِذَالُهُ: انْهِزَامُهُ.

والعقل لا يرى أمانة إلا الإلهية، فهو يقلدها في مداخل الأشياء بعضها في بعض، لإيجاد الأسرار بعضها من بعض.

ومن ثم كانت الحقيقة الصريحة الثابتة مدعاة للملل العقلي في الإنسان، لا يكاد يُقيم عليها أو يتقيّد بها، فما نال شيئاً إلا ليطمع في غيره، وما فاز بلذة إلا ليزهد فيها، وأجل ما أحبه الإنسان أن يناله، فإذا ناله وقع فيه معنى موته، وبدأ في النفس عمراً آخر من حالة أخرى، أو مات ولم يبدأ، فلا بد لهذا الإنسان مع كل صواب من جزء من الخطأ، فإن هو لم يجد خطأ في شيء انتفك لنفسه^(١) الخطأ المضحك في شبه رواية خيالية.

إنه لشعر سخيّف بالغ السخافة أن يتخيّل الغريق مفكراً في صيد سمكة رآها... ولكن هذا من أبلغ ألبلاغة عند العقل الذي يبحث عن وهم يُضيفه إلى هذه الحقيقة ليضحك منها، كما يبحث لنفسه أحياناً في أجمل حقائق اللذة عن ألم يتألم به ليغيب فيه!

* * *

قلت لنفسي: فهل ينبغي لي أن أحرق دمي لأنني أفكر، وهل أظل دائماً بهذا التفكير كالذي ينظر في وجه حسناء بمنظار مكبر: لا يُريه ذلك الوجه المعشوق إلا ثقباً وتخريماً كأنه خشبة نزعَتْ منها مسامير غليظة...! فلا يجد المسكين هذه الحقيقة إلا ليفقد ذلك الجمال؟ وهل بدّ من الشبه بين بعض الناس وبين ما أرتصد له من عمل يحيا به؛ فلا يكون الحوذي^(٢) خوذاً إلا لشبهه بين نفسه وبين الخيل والبغال والحمير...؟

وقالت لي النفس: إن فأس الحطاب لا تكون من أداة الطبيب؛ فخذ لكل شيء أداته، وكُن جاهلاً أحياناً، ولكن مثل الجاهل الذي يصنع لوجه الطفل بشاشته الدائمة؛ فهذا الجاهل هو أكبر علم الشعور الدقيق المرفه، ولولاه لهلك الأنبياء والحكماء والشعراء غماً وكمداً، ولكانوا في هذا الوجود، على هذه الأرض، بين هذه الحقائق - كالذي قيّد وحبس في رَهج^(٣) تُشيرهُ القَدَم والخُف والحافر: لا يتنفس إلا ألبغار يُثار من حوله إلى أن يُقضى عليه.

(١) انتفك لنفسه: كذب واخترع ليسوغ ما هو عليه.

(٢) الحوذي: سائق العربى يجرها حصان.

(٣) رهج: شغب.

إجهل جهلك يا صاحبي في هذه الشهوات الخسيسة؛ فإنها ألعلم الخبيث
الذي يفسد الروح، وأعرف كيف تقول لزوجك الطفلة في ملائكتيها حين تُساورك
الشهوات: هذا ليس لي؛ هذا لا ينبغي لي.

إن الروح الكبيرة هي في حقيقتها الطفل الملائكي.

وعلم خسائس الحياة يجعل للإنسان في كل خسيسة نفساً تتعلق بها، فيكون
المسكين بين نفسين وثلاث وأربع، إلى ثلاثين وأربعين كلهن يتنازعن، فيضيق بهذه
الكثرة، ويصبح بعضه بلاء على بعض، وتشغله الفضول، فيعود لها كالمزبلة لما
ألقي فيها، ويُمنح^(١) في نفسه الطبيعية جس الفرح بجمال الطبيعة، كما يُمنح في
المزبلة معنى النظافة ومعنى الجس بها.

هذه الأنفس الخيالية في هذا الإنسان المنكود، هي الأرواح التي تنفخها في
مصائبه، فتجعلها مصائب حياة تعيش في وجوده وتعمل فيه أعمالها، ولولاها
لماتت في نفسه مطامع كثيرة، فماتت له مصائب كثيرة.

أنظر بالروح الشاعرة، تر الكون كله في سمائه وأرضه أنسجماً واحداً ليس
فيه إلا الجمال والسحر وفتنة الطرب، وأنظر بالعقل العالم، فلن ترى في الكون
كله إلا مواد علم الطبيعة والكيمياء.

ومدى الروح جمال الكون كله؛ ومدى العقل قطعة من حجر، أو عظمة من
حيوان، أو نسيجة من نبات، أو فلذة من معدن، وما أشبهها.

إجهل جهلك يا صاحبي؛ ففي كل حُسْنٍ غَزَلٌ بشرط ألا تكون العاشق
الطامع، وإلا أصبت في كل حُسْنٍ همًا ومشغلة....!

قلت لنفسي: إلى الآن لم أقل لك ذلك المعنى الذي كنتمته عنك.

وقالت لي النفس: وإلى الآن لم أقل لك إلا جواب ذلك الذي كنتمته عني..

(١) يمنح: يمنح.

الانتحار

١

حَدَّثَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ الْكُوفِيُّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ، وَمَعِيَ سَعِيدُ بْنُ عَثْمَانَ، وَمُجَاهِدٌ، وَدَاوُدُ الْأَزْدِيُّ وَجَمَاعَةٌ - أَقْبَلَ فَتَى فَجَلَسَ قَرِيبًا مِنَّا، وَكَانَ تَلْقَاءَ وَجْهِي؛ لَا أُمْدُ نَظْرِي إِلَّا أَنْطَلَقَ فِي سَمْتِهِ^(١) وَوَقَفَ عَلَيْهِ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ فَرَأَيْنَهُ يَتَسَمَّعُ إِلَى حَدِيثِنَا؛ فَلَمَّا تَكَلَّمَ سَعِيدٌ - وَكَانَ خَافَتِ الصَّوْتِ مِنْ عِلَّةٍ بِهِ، وَكُنَّا نُسَمِّيهِ الْأَنْمَلَةَ الصَّخَابَةَ - رَأَيْتُ الْفَتَى يَتَزَحَّفُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ يَقَعُ فِي سَمَاعِهِ حَسِيْسُ نَمَلَيْنَا.

وَكَانَ سَعِيدٌ يَقُولُ: اجْتَزْتُ^(٢) أَنَا وَالشَّعْبِيُّ أَمْسَ بِعِزْرَانَ الْخِيَّاطِ، فَمَارَحَهُ الشَّيْخُ فَقَالَ لَهُ: عِنْدَنَا جِبٌّ^(٣) مَكْسُورٌ، تَخِيْطُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خِيْطٌ مِنْ رِيحٍ! فَقُلْتُ أَنَا: فَاذْهَبْ فَجِئْنَا بِالْمِغْزَلِ الَّذِي يَغْزِلُ الْهَوَاءَ لِنَضَعَ لَكَ الْخِيْطَ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي تَنَادُرِ شَيْخِنَا وَمَا يَتَّفِقُ لَهُ؛ أَخْبَرَنِي أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فِي مَسْأَلَةٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْبَيْتَ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ أَمْرَأَتِهِ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ أَيُّكُمَا الشَّعْبِيُّ...؟ فَأَوْمَأَ الشَّيْخُ إِلَى أَمْرَأَتِهِ وَقَالَ: هَذِهِ...!

قَالَ الْمُسَيَّبُ: وَضَحَكْنَا جَمِيعًا، وَأَخَذَ نَظْرِي الْغِلَامَ فَإِذَا هُوَ نَاكِسٌ حَزَنًا وَهَمًّا، وَكَأَنَّهُ لَا يَتَسَمَّعُ إِلَيْنَا لَيْسَمَعٍ، بَلْ لِيَشْغَلَ نَفْسَهُ عَنْ شَيْءٍ فِيهَا، فَتَتَوَرَّعُ خَوَاطِرُهُ، فَيَتَبَدَّدُ اجْتِمَاعُهَا عَلَى هَمِّهِ بِصَوْتٍ مِنْ هُنَا وَصَوْتٍ مِنْ هُنَا، كَمَا يَفْعَلُ الْمَحْزُونُ فِي مَغَالِبَةِ الْحَزَنِ وَمُدَافَعَتِهِ: يَشْغَلُ عَنْهُ بَصَرُهُ وَقَلْبُهُ وَسَمْعُهُ جَمِيعًا، فَيَكُونُ الْحَزَنُ فِيهِ وَكَأَنَّهُ بَعِيدٌ مِنْهُ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَمْرٌ أَمَاتَ الضَّحِكَ فِي هَذَا الْفَتَى وَكَسَرَ حِدَّتَهُ^(٤) وَشَبَابَهُ.

(١) السمت: حسن هيئته ومنظره في الدين.

(٢) اجتزأت: التقيت.

(٣) الجب: بكسر الحاء هو الزير.

(٤) حدته: قوته.

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ: رَأَيْتُكَ يَا بَنِي مَقْبَلًا عَلَيْنَا كَالْمَنْصَرِفِ عَنَّا؛ فَمَا بِأَلْكَ لِمَ تَضْحَكُ وَقَدْ ضَحَكْنَا جَمِيعًا؟

قال: إليك عني يا هذا؛ فأين مني الضحك وأنا على شفير^(١) القبر، وروحُ الكترابِ ماليءٌ عيني في كُلِّ ما أرى، وكأنَّ حُفرتي أبتَلَعَتِ الدُّنيا أَلْتِي أنا فيها لِتَأْخُذَنِي فيها، وأنا السَّاعَةُ مَيِّتٌ حَيٌّ؛ رَجُلٌ فِي الدُّنْيَا وَرَجُلٌ فِي الْآخِرَةِ!

قُلْتُ: فَأَعْلَمْنِي مَا بِكَ يَا بَنِي، فَلَقَدْ أَحْتَسَبْتُ وَلَدًا لِي كَانَ فِي مِثْلِ سِنِّكَ وَشَبَابِكَ وَلَمْ أُرْزَقْ غَيْرَهُ، قَلْبِي بَعْدَهُ مَرِيضٌ بِهِ، يَتَوَسَّمُهُ مُفَرَّقًا فِي لِدَاتِهِ، مُتَوَهِّمًا أَنَّ وَجُوهُهُمْ تَجْمَعُهُ بِمَلَامِحِهِ؛ فَأَنَا مِنْ ذَلِكَ أَحَبَّهُمْ جَمِيعًا وَأُطِيلُ النَّظَرَ إِلَيْهِمْ وَالتَّأَمُّلَ فِي وَجُوهِهِمْ، وَلَسْتُ أَرَى أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا كَانَ لَهُ وَلِقَلْبِي حَدِيثٌ! فَإِنْ رَأَيْتُهُ حَزِينًا مِثْلَكَ تَقَطَّعْتُ لَهُ مِنْ إِشْفَاقِي وَرَحْمَةٍ، وَطَالَعَنِي فَتَايَ فِي مِثْلِ هَمِّهِ وَحَزْنِهِ وَأَنْكَسَارِهِ؛ فَيَعُودُ قَلْبِي كَالْعَيْنِ أَلْتِي غَشَّاهَا أَلْدَمَعُ، تَحْمِلُ أَثَرَ الْحَزَنِ وَمَعْنَاهُ وَسْرَهُ؛ فَبُنِي مَا تَجِدُ يَا بَنِي، فَلَعَلَّ لِي سَبَبًا إِلَى كَشْفِ ضُرِّكَ أَوْ إِسْعَافِكَ بِحَاجَتِكَ؛ وَلَعَلَّكَ تَكُونُ قَدْ خَزَنْتَ مِنْ أَمْرِ قَرِيبٍ أَلْمَتَنَاوَلِ هُنَّ الْمَحَاوَلَةُ، لِمَ يَجْعَلُهُ عِنْدَكَ كَبِيرًا أَنَّهُ كَبِيرٌ، وَلَكِنْ أَنْتَ صَغِيرٌ.

قال الفتى: مهلاً يا عمّ، فَإِنَّ مَا نَزَلَ بِنَا مِمَّا تَنْقَطِعُ عِنْدَهُ الْجِيلَةُ وَلَا تَنْقَادُ فِيهِ أَلْوَسَائِلُ، وَلَا عِلَاجٌ مِنْهُ إِلَّا بِأَلْمُوتِ بِأَخْذِهَا وَيَأْخُذُهَا!

قُلْتُ: يَا بَنِي، هَذِهِ كَلِمَةٌ مَا أَحْسَبُ أَحَدًا يَقُولُهَا إِلَّا مَنْ أَخَذَ لِلْقَتْلِ بِجَنَائِيهِ وَلَمْ يَعْفُ أَهْلُ أَلْدَمِ، فَهَلْ جَنَيْتَ أَوْ جَنَى أَبُوكَ عَلَى أَحَدٍ؟

قال: إِنْ أَلَمَرَّ قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ، فَإِنِّي تَرَكْتُ أَبِي السَّاعَةَ مُجْمِعًا عَلَى إِزْهَاقِ نَفْسِهِ، وَقَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ أَلْدَارَ وَأَسْتَوْتَقُ^(٢) مِنْ أَلْبَابِ!

قال المَسِيَّبُ: فَكَأَنَّمَا لَدَغْتَنِي حَيَّةٌ بِهَذِهِ أَلْكَلِمَةِ، وَأَكْبَرْتُ أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ مُسَلِّمٌ يَقْتُلُ نَفْسَهُ: فَتَنَاهَضْتُ، وَلَكِنْ أَلْغَلَامَ أَمْسَكَ بِي وَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَزَالُ حَيًّا، وَسَيَقْتُلُ نَفْسَهُ مَتَى أَظْلَمَ أَلَلَيْلُ وَهَدَّأَتِ الرَّجُلَ.

قُلْتُ: أَلْحَمْدُ لِلَّهِ، إِنَّ فِي أَلنُّورِ عَقْلًا، وَلَكِنْ مَا أَلَّذِي صَارَ بِهِ إِلَى مَا قُلْتُ، وَكَيْفَ تَرَكْتَهُ لِقَدَرِهِ وَجِئْتُ؟

(٢) استوتق، تأكد.

(١) شفير: حافة.

قال الفتى: إِنَّهُ قَالَ لِي: يا ولدي، لَيْسَ لَكَ أَبٌ بَعْدِي؛ فَإِنْ أَرَدْتَ الْلِحَاقَ بِي فَارْجِعْ مَعَ اللَّيْلِ لِتُسَلِّمَ أَنْفُسَنَا، وَإِنْ أَثَرْتَ الْحَيَاةَ فَارْجِعْ مَعَ الصُّبْحِ لِتُسَلِّمَنِي إِلَى غَاسِلِي!

قُلْتُ: أَفَأَمِنْ أَنْتَ أَلَّا يَكُونَ أَبُوكَ قَدْ أَخْرَجَكَ عَنْهُ لِأَنَّ عَيْنَكَ تُمَسِّكُ يَدَهُ وَتَرُدُّهُ عَمَّا يَهْمُ بِهِ، حَتَّى إِذَا خَلَا وَجْهُهُ مِنْكَ أَزْهَقَ نَفْسَهُ؟

قال: لَمْ أَدْعُهُ حَتَّى أَقْسَمَ أَنْ يَحْيَا إِلَى اللَّيْلِ، وَحَتَّى أَقْسَمْتُ أَنْ أَرْجِعَ لِأَمُوتَ مَعَهُ؛ فَإِنْ لَمْ تُمَسِّكْهُ يَمِينُهُ أَمْسَكْهُ أَنْتَظَارِي، وَقَدْ فَرَعْتَ الْحَيَاةَ مَثًّا فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ نَفْرُغَ مِنْهَا؛ وَمَنْ كَانَ فِيمَا كُنَّا فِيهِ ثُمَّ انْحَدَرَ إِلَى مَا انْحَدَرْنَا إِلَيْهِ، لَمْ يَرِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ ضَعْفٌ وَلَا اسْتِكَائَةٌ: وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِأَسْأَلَ هَذَا الْإِمَامَ (الشَّعْبِيَّ) وَجْهًا مِنَ الرَّأْيِ فِيمَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا، وَنَزَلَتْ بِهِ الْبَازِلَاتُ، وَتَعَذَّرَ الْفُتُورُ، وَأَشْتَدَّ الضُّرُّ، وَتَدَلَّتْ بِهِ الْمَسْكَنَةُ إِلَى خَضِيضِهَا، وَأُلْجِئْتُ إِلَى أَحْوَالِ دَقَّةِ الرَّحَى^(١) لِمَا تَدَوَّرَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَغْدُ لَهُ إِلَّا رَأْيٌ وَاحِدٌ فِي مَعْنَى الدُّنْيَا: هُوَ أَنَّهُ مَكْذُوبٌ مَزُورٌ عَلَى الدُّنْيَا.

قُلْتُ: يَا بَنِي، فَإِنِّي أَرَاكَ أَدْبِيًّا؛ فَمَنْ أَبُوكَ؟

قال: هُوَ فَلَانُ التَّاجِرِ، ظَهَرَ ظُهُورُ الْقَمَرِ وَمُحِقٌّ^(٢) مُحَاقَهُ، وَهُوَ الْيَوْمَ فِي أَخْلَاقِ اللَّيَالِي وَأَشَدِّهَا انْطِمَاسًا؛ جَهْدُهُ^(٣) الْفَقْرُ، وَيَا لَيْتَهُ كَانَ الْفَقْرَ وَحْدَهُ، بَلْ أَنْتَهَكْتُهُ الْعِلَلَ، وَلَيْتَهَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا الْعِلَلَ مَعَ الْفَقْرِ، بَلْ أَخَذَ الْمَوْتَ أَمْرَاتُهُ فَمَاتَتْ هَمًّا بِهِ وَبِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ غَيْرِي وَغَيْرُهَا، وَكَانَ كُلُّ مَنْ ثَلَاثَتِنَا يَحْيَا لِثَلَاثِينَ الْآخَرِينَ، فَهَذَا مَا كَانَ يَجْعَلُ كَلَامًا لَا يَفْرُغُ إِلَّا أَمْتَلًا، وَلَمَّا ذَهَبَتْ الْأُمُّ ذَهَبَتْ الْحَقِيقَةُ الَّتِي كُنَّا نَقَاتِلُ الْأَيَّامَ عَنْهَا، وَكَانَتْ هِيَ وَحْدَهَا تُرِينَا الْحَيَاةَ بِمَعْنَاهَا إِنْ جَاءَتْنَا الْحَيَاةُ فَارْغَةً مِنَ الْمَعْنَى، وَكُنَّا مِنْ أَجْلِهَا نَفْهَمُ الْأَيَّامَ عَلَى أَنَّهَا مُجَاهِدَةٌ أَبْقَاءُ؛ أَمَّا الْآنَ فَالْحَيَاةُ عِنْدَنَا قَتْلُ الْحَيَاةِ...!

قُلْتُ: يَا بَنِي، فَإِنَّكَ - وَاللَّهِ - مَعَ أَدَبِكَ لَحَكِيمٌ، وَإِنِّي لَأَنْفَسُ^(٤) بِكَ عَلَى الْمَوْتِ، فَكَيْفَ رَدُّكَ حَيَاةَ أُمِّكَ عَنْ قَتْلِ نَفْسِكَ وَلَا تَرُدُّكَ حَيَاةَ أَبِيكَ؟

قال: لَوْ بَقِيَ أَبِي حَيًّا لَبَقِيتُ، وَلَكِنْ أَلْذَهَرَ قَدْ أَتَنَزَّعَ مِنْهُ آخَرُ مَا كَانَ يَمْلِكُ مِنْ

(٢) جهده: أنعبه.

(٤) أنفس: أضن.

(١) الرحى: الطاحون.

(٢) محق: خفي.

أسباب القوة، حين أخذ القلب الشفيق الذي كان يجعله يرتعد إذا فكّر في الموت؛ فهو الآن كالذي يُحارب عن نفسه تلقاء عدو لا يرحمه؛ إن عجز عن عدوه فالرأي قتل نفسه ليستريح من تنكيل العدو به.

قال المسيّب بن رافع: وأدركت أنّ الفتى يريد من سؤال الشيخ تحلّة يطمئنّ إليها أن يموت مسلماً إذا قتل نفسه كالمضطرّ أو المُكره، فأشفقتُ^(١) أن أكسّر نفسه إذا أنا حدثته أو أفتيته؛ وقلّت: هذا مريض يحتاج العلاج لا الفتيا؛ وكان إمامنا (الشعبي) حكيماً لحناً فطناً، سَفَرَ بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهل الروم^(٢)، فحسدنا العاهل أن يكون فينا مثله. وقلّت: لعلّ الله يحدث به أمراً. فأخذت بيد الفتى إليه، ومشيت أكلّمه وأرفقه عن نفسه. وقلّت له: أما تدري أنك حين فرغت من سرور الحياة فرغت من غرورها أيضاً، وأنّ الزاهد المنقطع في غُرْعَة^(٣) الجبل ينظر من صومعته إلى الدنيا، ليس بأحكم ولا أبصر ممّن ينظر من آلامه إلى الدنيا؟

يا بني: إنّ الزاهد يحسب أنّه قد فرّ من الرذائل إلى فضائله، ولكنّ فراره من مجاهدة الرذيلة هو في نفسه رذيلة لكل فضائله. وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء والبر والإحسان وغيرها، إذا كانت فيمّن أنقطع في صحراء أو على رأس جبل؟ أيزعم أحد أن الصدق فضيلة في إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار؟ وإيم الله إنّ الخالي من مجاهدة الرذائل جميعاً، لهو الخالي من الفضائل جميعاً!

يا بني: إنّ من الناس من يختارهم الله فيكونون قَمَحَ هذه الإنسانية: يثبّتون ويحصّدون ويطحّنون ويعجنون ويخبزون، ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائلها. وما أراك أنت وأباك إلا من المختارين، كأنّ في أعراقكما دم نبي يُقتل أو يُضلب!

قال المسيّب: وأنتهينا إلى دار الشعبي، فطرقتُ الباب، وجاء الشيخ ففتح لنا، وسلّمنا وسلّم، ثم بدّرت فقلّت: يا أبا عمرو، إنّ أبا هذا كان من حاله كيت وكيت، فترادفت^(٤) عليه المصائب، وتوالى النكبات، وتواترت الأسقام^(٥)... ثم

(١) أشفقت: خفت.

(٢) عاهل الروم: قيصر الروم، ملكهم.

(٣) غُرْعَة الجبل، بالضم: رأسه ومعظمه.

(٤) ترادفت: توالى.

(٥) الأسقام: الأمراض.

أَقْتَصَصْتُ مَا قَالَ أَبْنُو حَرْفًا حَرْفًا، ثُمَّ قُلْتُ: وَإِنَّ الْآنَ مُوشِكُ أَنْ يُزْهِقَ نَفْسَهُ
وَسَيَبْعُهُ أَبْنُو هَذَا؛ وَقَدْ (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ) فَجَاءَ يَسْأَلُكَ: أَيْمُوثُ مُسْلِمًا مِّنَ الْجِيءِ
وَأَكْرَهٍ وَأَضْطَرَّ وَأَسْتَضَاقَ وَأَخْتَلَّ، فَتَحَسَّى^(١) سُمًّا فَهَلْكَ أَوْ تَوَجَّأَ^(٢) بِحَدِيدَةٍ فَقَضَى،
أَوْ ذَبَحَ نَفْسَهُ بِنَضْلٍ فَخَفَّتْ، أَوْ حَزَّ فِي يَدِهِ بِسَكِينٍ فَمَا رَقَا دَمُهُ^(٣) حَتَّى مَاتَ، أَوْ
أَخْتَنَقَ فِي حَبْلِ فَفَاضَتْ نَفْسُهُ^(٤)، أَوْ تَرَدَّى^(٥) مِنْ شَاهِقٍ فَطَاحَ...!

وَأَدْرَكَ الشَّيْخُ مَعْنَى قَوْلِي: (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ)، وَمَعْنَى مَا أَكْثَرْتُ مِنَ الْأَلْفَافِ
الْمُتَرَادِفَةِ عَلَى الْقَتْلِ وَمَا اسْتَقْصَيْتُ مِنْ وَجُوهِهِ؛ فَعَلِمَ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ الْفُتْيَا وَالنُّصْ،
وَلَكِنِّي سَأَلْتُهُ الْحِكْمَةَ وَالسِّيَاسَةَ؛ فَقَالَ: هَذَا - وَاللَّهِ - رَجُلٌ كَرِيمٌ، أَخَذَتْهُ الْأَنْفَةُ
وَعِزَّةُ النَّفْسِ، وَمَا أَنَا السَّاعَةَ بِمَعْزَلٍ عَنْ هَمِّهِ، فَتَذَهَبُ نَكَلْمُهُ وَاللَّهُ أَلَمْسْتَعَانُ.

وَمَشِينَا ثَلَاثَتِنَا، فَلَمَّا شَارَفْنَا أَلْدَارَ قَالَ الْفَتَى: إِنَّهُ لَا يَفْتَحُ لِي إِذَا رَأَى كَمَا، وَرُبَّمَا
اسْتَفْزَرَ^(٦) بِنَفْسِهِ فَارْهَقَهَا، وَسَأَتَسَوَّرُ الْحَائِطَ^(٧) وَأَتَدْلِي ثُمَّ أَفْتَحُ لَكُمْ فَتَدْخُلَانِ وَأَنَا عَنْدَهُ.

وَدَخَلْنَا، فَإِذَا رَجُلٌ كَالْمَرِيضِ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ، خَوَّارٌ^(٨) مَسْلُوبُ الْقُوَّةِ، أَنْزَعَ
قَلْبُهُ إِلَى الْمَوْتِ وَمَا بِهِ جُرْأَةٍ، وَإِلَى الْحَيَاةِ وَمَا بِهِ قُوَّةٍ؛ وَصَغَّرَ إِلَيْهِ نَفْسَهُ أَنَّهَا
أَصْبَحَتْ فِي مَعَامِلَةِ النَّاسِ كَالدَّرْهِمِ الزَّائِفِ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ، وَثَابَرَ عَلَيْهِ دَاءُ الْحُزَنِ
فَاضْنَاهُ وَتَرَكَهُ رُوحًا تَتَقَعَّقُ فِي جِلْدِهَا، فَهِيَ تَهْمُ فِي لَحْظَةٍ أَنْ تَتَبَّ وَتَتَدَلَّقَ.

وَسَلَّمَ الشَّيْخُ وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى الرَّجُلِ، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،
﴿وَالْقَاصِرِينَ فِي الْبَاسَاءِ وَالْفُرْكَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾».

فَقَطَعَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ كَالْمَحْنَقِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، قَدْ صَبَرْنَا حَتَّى جَاءَ مَا لَا
صَبَرَ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ خَلَوْنَا مِنْ مَعَانِي الْكَلَامِ كُلِّهِ، فَمَا تَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا لَفْظَةً وَاحِدَةً نَمْلِكُ
مَعْنَاهَا، هِيَ أَنْ نَنْتَهِيَ!

وَمَدَّ الشَّيْخُ عَيْنَهُ فَرَأَى كُوَّةً^(٩) مَسْدُودَةً فِي الْجِدَارِ، فَقَالَ لِي: افْتَحْ هَذِهِ وَدَعْ

(١) تحسَّى: شرب.

(٢) توجَّأ: ضرب نفسه بالسكين.

(٦) استفزَرَ: أثار.

(٧) تسوَّر الحائط: صعد فوقه.

(٣) رقا دمه: توقف نزفه.

(٨) خوار: ضعيف.

(٤) فاضت نفسه: مات.

(٩) كوة: فتحة صغيرة في جدار.

(٥) تردى: رمى نفسه من علي.

ألهواء يتكلم معنا كلامه. فقمْتُ إليها فعالجتها حتى فتحتها، ونفذ منها رَوْحَ الدنيا، وقال الشيخ للرجل: أصغِ إليّ، فإذا أنا فرغتُ مِنَ الكلام فشأنك بنفسك: أعلمتُ أنَّ رجلاً مِنَ المسلمين قد مَرَضَ، فأغضَلُ مَرَضُهُ^(١) فأثبته على سريرهِ ثلاثين سنة لا يتحرك، وطوى فيه الرجل الذي كانَ حيًّا ونشرَ منه الرجل الذي سيكون ميتاً، فبقي لا حيًّا ولا ميتاً ثلاثين سنة...؟

قال الرجل: وفي الدنيا مَنْ يعيش على هذه الحال ثلاثين سنة؟

قال الشيخ: صَحَّحَ الكلامَ وأسأل. أيصبرُ على هذه الحال ثلاثين سنة ولا يقول: (جاء ما لا صبرَ عليه) وأي شيء لا صبرَ عليه عند الرجلِ المؤمن الذي يعلمُ أنَّ البلاءَ مالٌ غيرُ أنَّه لا يوضعُ في الكيس بل في الجسم؟

أفتدري مَنْ كانَ الصابرَ ثلاثين سنةً على بلاءِ الحياة والموتِ مجتمعين في عظامٍ مُمدَّدةٍ على سريرها؟ إنَّه إمامنا (عمرانُ بنُ حصينِ الخزاعي) الذي أرسله عمرُ بنُ الخطابِ يُفقه أهلَ البصرة، وتولَّى قضاءها، وكانَ الحسنُ البصريُّ يحلفُ بالله ما قدِمَها خيرٌ لهم من عمرانَ بنِ حصين. ولقد دخلتُ عليه أنا وأخوه (العلاء)، فرأيناه مُثبَّتاً على سريرِ الجريدِ كأنَّما شُدَّ بالجبالِ وما شُدَّ إلا بانتهاكٍ عَصِيهِ وذَوْبَانٍ لحِمِهِ وَوَهْنٍ^(٢) عِظَامِهِ؛ فبكى أخوه، فقال: لِمَ تبكي؟ قال: لأنِّي أراك على هذه الحالِ العظيمة؟ قال: لا تَبْك؛ فَإِنَّ أَحَبَّهُ إِلَى اللَّهِ تعالى أَحَبُّهُ إِلَيَّ. ثم قال: إِنَّ هذه الأرضَ تحملُ الجبالَ فلا يشعرُ موضعُ منها بالجبلِ القائمِ عليه، إذْ كانَ تماسُكُ الأرضِ كُلِّها قد جَعَلَ لِكُلِّ موضعٍ منها قوَّةَ الجميع، ولولا هذا لَدَكَّ^(٣) الجبلُ موضِعَهُ وغَارَ به؛ وكذلك يحملُ المؤمنُ مثلَ الجبالِ مِنَ ألبلاءِ على أعضائه لا ينكسرُ لها ولا يتهدَّم؛ إذْ كانتْ قوَّةُ رَوْحِهِ قوَّةً في كُلِّ موضعٍ، فألبلاءُ محمولٌ على هِمَّةِ الرُّوحِ لا على الجسمِ، وهذا معنى الخير: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِنَّ رُوحَهُ لَتُنزَعُ مِنْ بَيْنِ جَنِيهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ!».

ثم قال: ولكنْ ذاك هو المؤمن، فمن آمنَ باللهِ فكأنَّما قالَ لَهُ: «أَمْتَحِنِّي!» وكيف تراك إذا كنتَ بطلاً مِنَ الأبطالِ مع قائدِ الجيشِ، أما تفرضُ عليك شجاعَتُكَ أن تقولَ لِلقائدِ: «أَمْتَحِنِّي وَأَزِمْ بِي حَيْثُ شِئْتَ!» وإذا رَمَى بِكَ فَرَجَعْتَ مُشْحَناً

(١) أغضَل مريضه: اشتدَّ حتى صعب الشفاء منه.

(٢) وهن: ضعيف.

(٣) دكَّ: حطَّم.

بالجراح^(١) ونالكَ البُتْرُ والتشويه، أتراها أوصافاً لمصائبك، أم ثناء على شجاعتك؟
 ثم قال: إذا لم يكن الإيمان بالله أطمئناناً في النفس على زلازلها وكوارثها،
 لم يكن إيماناً، بل هو دعوى بالفكر أو باللسان لا يغدوهما، كدعوى الجبان أنه
 بطل، حتى إذا فجأه الرُّوع^(٢) أحدث في نيابه من الخوف... ومن ثم كان قتلُ
 المؤمن نفسه ليلاً أو مرض أو غيرهما كفراً بالله وتكذيباً لإيمانه، وكان عمله هذا
 صورة أخرى من طيش الجبان الذي أحدث في نيابه!

والإيمان الصحيح هو بشاشة الروح، وإعطاء الله الرضى من القلب، ثقة
 بوعدِهِ ورجاءَ لِمَا عنده، ومن هذين يكونُ الأطمئنان. وبالبشاشة والرضى والثقة
 والرجاء، يصبحُ الإيمانُ عقلاً ثانياً معَ العقل؛ فإذا ابتلي المؤمن بما يذهب معه
 الصبرُ ويطيش له العقل، وصارَ من أمرِهِ في مثل الجنون - برزَ في هذه الحالة عقلُهُ
 الروحاني وتولى سياسةَ جسمِهِ حتى يفيقَ العقلُ الأول. ويجيء الخوفُ من عذابِ
 الله ونقمته في الآخرة، فيغمُر به خوف النفس من الفقر أو المرض أو غيرهما
 فيقتل أرواحهما الأضعف، ويُخرجُ الأعزُّ منهما الأذل.

فالأطمئنانُ بالإيمانِ هو قتلُ الخوفِ الدنيوي بالتسليم والرضى، أو تحويلُهُ
 عن معناه بجعلِ البلاءِ ثواباً وحسنات، أو تجريده من أوهامِهِ باعتبارِ الحياةِ سائرة
 بكلِّ ما فيها إلى الموت؛ وهو بهذا عقلٌ روحانيٌ له شأنٌ عظيمٌ في تصريفِ الدنيا،
 يترك النفسَ راضيةً مرضيةً، تقولُ لمصائبها وهي مطمئنة: نعم. وتقولُ لشهواتها
 وهي مطمئنة: لا.

وما الإنسانُ في هذا الكون؟ وما خيرُهُ وشرُّهُ؟ وما سخطُهُ ورضاه؟ إن كلَّ
 ذلك إلا كما ترى قبضةً من الترابِ تتكبرُ وقد نسيَتْ أنه سيأتي مَنْ يكنسُها...!

قال الشيخ: وأنظر، أما تُبتلى الشجرةُ الخضراءُ في بعضِ أوقاتها بمثلِ ما
 يُبتلى به الإنسان؟ غيرَ أنَّ لها عقلاً روحانياً مستقراً في داخلها يمسكُ الحياةَ عليها
 ويترىص^(٣) حالاً غيرَ الحال؛ ومهما يكن من أمرِ ظاهرها وبلايهِ فالسعادةُ كُلُّها في
 داخلها، ولها دائماً ربيعٌ على قدرها حتى في قُر^(٤) الشتاء.

(١) متخناً بالجراح: ممتلئاً جراحاً في سائر جسده.

(٢) الرُّوع: الخوف الشديد.

(٣) يترىص: ينتظر.

(٤) القُر: البرد الشديد.

فالعقل الروحاني الآتي من الإيمان، لا عمل له إلا أن يُنشئ للنفس غريزة متصرفة في كل غرائزها، تُكَمِّل شيئاً وتُقْصِر من شيء. وتُوجِّه إلى ناحية وتصرف عن ناحية؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبر من مصائبها وأكبر من لذاتها جميعاً.

وتلك الغريزة هي نفسها معنى الرضى بالقدر خيرِه وشرِّه، وهي تأتي بالتأويل لكل هموم الدنيا، فتضع في النكبات معاني شريفة تنزع منها شرَّها وأذاها للنفس؛ وليست المصيبة شيئاً لولا تأذي النفس بها. وإذا وقع التأويل في معاني النكبات أصبحت تعمل عمل الفضائل، وتغيَّرت طبيعتها فيعود الفقر باباً من الزهد، والمرض نوعاً من الجهاد، والخيبة طريقاً من الصبر، والحزن وجهاً من الرجاء، وهلمَّ جراً.

والنفس وحدها كنز عظيم، وفيها وحدها الفرح والابتهاج لا في غيرها، وما لذات الدنيا إلا وسائل لإثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج، فإن وُجد مع الفقر بطلت عزة المال وأصبح حجراً من الأحجار؛ والبلبل يتغرد بحنجريته الصغيرة ما لا تُغني فيه آلات التطريب كلها. وفي النفس حياة ما حولها، فإذا قويت هذه النفس أذلت الدنيا، وإذا ضعفت أذلَّتْها الدنيا!

قال المسيب: ثم سكَّت الشيخ قليلاً، وكثت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه، وقد أشرق وجهه وتنصَّر وأنقلب إلى روجه التي كان منصرفاً عنها، فعادت مصائبه تضغط روحاً لينّة كما تضغط اليد على الماء، وأيقن أنَّ النكبة كلها هي أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته، فينكبَّ أول ما ينكب في صبره ويقينه.

ثم قال الشيخ، ولقد رأيت بعيني رأسي معجزة (العقل الروحاني) وكيف يصنع: رأيت عروة بن الزبير وهو شيخ كبير، عند الوليد بن عبد الملك، وقد وقَّعت في رجله الأكلة^(١): فأشاروا عليه بقطعها لا تُفسد جسده كله، فدعَى له من يقطعها فلما جاء قال له: نسقيك الخمر حتى لا تجد لها ألماً. فقال عروة: لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية! قال: فنسقيك المُرْقِد^(٢). فقال عروة: ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه!

(١) الأكلة، بضم الهمزة هي الحكة بكسر الحاء. (٢) المُرْقِد: ما يسمّى بالأجنبية البنج.

ثُمَّ دَخَلَ رِجَالٌ أَنْكَرَهُمْ عُرْوَةً، فَقَالَ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: يُمَسْكُونُكَ، فَإِنَّ الْأَلَمَ رُبَّمَا عَزَبَ^(١) مَعَهُ الْأَصْبِرُ. قَالَ أَرْجُو أَنْ أَكْفِيَكُمْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي!

قال الشيخ: فانظر أيها الضعيف الذي يُريدُ قتلَ نفسه كيف صنع عُروة، وكيف استقبلَ البلاء، وكيف صبرَ وكيف احتمل. إِنَّهُ أَنْصَرَفَ بِحُسْنِهِ إِلَى النَّفْسِ فَأَنْبَسَطَتْ رَوْحُهُ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ يَكْبُرُ وَيَهْلُلُ لِيَبْقَى مَعَ رَوْحِهِ وَحْدَهَا، وَخَرَجَ مِنْ دُنْيَا ظَاهِرِهِ إِلَى دُنْيَا بَاطِنِهِ، وَغَمِرَتْ حَوَاسُّهُ وَأَعْصَابُهُ بِالنُّورِ الْإِلَهِيِّ مِنْ مَعْنَى التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ، فَقَطَعَ الْقَاطِعَ كَعَبَةٍ بِالسَّكِينِ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْعِظَمَ وَضَعَ عَلَيْهَا الْمُنْشَارَ وَنَشَرَهَا وَعُرْوَةً فِي التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ؛ ثُمَّ جِيءَ بِالزَّيْتِ مَغْلِيًا فِي مِغَارِفِ^(٢) الْحَدِيدِ فَحَسِمَ^(٣) بِهِ مَكَانَ الْقَطْعِ، فَغَشِيَ عَلَى عُرْوَةٍ سَاعَةً ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَمْسُحُ الْعَرَقَ عَنْ وَجْهِهِ، وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَلَامِ الْمَاحِقَةِ أَنَّهُ وَلَا آهَةٌ، وَلَمْ يَقُلْ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا وَلَا بَيْنَ ذَلِكَ: «جَاءَ مَا لَا صَبَرَ عَلَيْهِ...!».

قال المسيب: وَأَزْهَفَ^(٤) بِأَسْرِ الرَّجُلِ الضَّعِيفِ وَقَوِيَّ جَاشُهُ^(٥)، وَأَنْبَعَثَ فِيهِ الرُّوحُ إِلَى عُمرٍ جَدِيدٍ، وَنَشَأَ لَهُ الْيَقِينُ مِنْ عَقْلِهِ الرُّوحَانِيِّ، وَعَرَفَ أَنَّ مَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُدْرَكَ، يُمَكِّنُ أَنْ يُتْرَكَ.

وجاء هذا العقلُ الروحانيُّ فَمَرَّ بِالْمُنْشَارِ عَلَى الْيَاسِ الَّذِي كَانَ فِي نَفْسِهِ فَقَطَعَهُ، فَمَا رَاعَنَا إِلَّا أَنْ وَثَبَ الرَّجُلُ قَائِمًا يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا، اللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا!.

ثُمَّ أَكَبَ^(٦) عَلَى يَدِ الشَّيْخِ وَهُوَ يَقُولُ: صَدَقْتَ؛ «إِنْ كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا كَمَا تَرَى قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ تَتَكَبَّرُ، وَقَدْ نَسِيتَ أَنَّ سَيَاتِي مَنْ يَكْنُسُهَا!».

ماذا يصنع الإنسانُ إذا غلَطَ في مسألةٍ من مسائل الدنيا إِلَّا أَنْ يَتَحَرَّى^(٧) الْأَصَوَابَ، وَيَجْتَهِدَ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ، وَيَصْبِرَ عَلَى مَا يَنَالُهُ فِي ذَلِكَ؟ وَمَاذَا يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ إِذَا غَلَطَ فِيهِ مَسْأَلَةٌ...؟

(١) عزب: نفذ.

(٢) مغارف: ملاعق.

(٣) حسم: سكر.

(٤) أزهف: رقى.

(٥) الجاش: السيطرة على النفس.

(٦) أكب: انحنى.

(٧) يتحرى: يتقصى.

الانحمار

٢

قال المسيّب بن رافع: وقامَ الشعبيُّ إلى الرجلِ فأَعْتَنَقَهُ قَرْحاً بما آلَ أمرُهُ إليه، بعدَ إذ رأى النورَ يجري على لونه ویتَرَقُّ في دِیَاجَتِهِ^(١)؛ كأثماً وَقَعَ الصلحُ بینَ وجهِهِ وِیْنَ الحِیاءِ. ثُمَّ قالَ لَهُ: نِعَمَ أَخُو الإسلامِ أَنْتَ، فَأَسْتَعِذُّ بِاللّهِ مِنْ خِذْلَانِهِ، فَإِنَّهُ ما خَذَلَكَ إِلَّا وَضَعَكَ نَفْسَكَ بِإِزاءِ اللّهِ تُعَارِضُهُ أَوْ تُجَارِيهِ فِي قَدَرَتِهِ، فَيَكِلُكَ إلى هَذِهِ النَفْسِ، فَتَنْتَهِي بِكَ إلى العِجْزِ، وَيَنْتَهِي العِجْزُ بِكَ إلى السُّخْطِ؛ وَمَتَى كُنْتَ عَاجِزاً سَاطِطاً، مَحْصُوراً فِي نَفْسِكَ؛ مَوْكُولاً إلى قَدَرَتِكَ، كُنْتَ كالأَسَدِ الجائعِ فِي القَفْرِ^(٢)، إِذا ظَنَّ أَنَّ قُوَّتَهُ تَتَنَاولُ خَلْقَ الفَرِیسَةِ؛ فیدْعُو ذلكَ إلى نَفْسِكَ الیأسَ وَالانزعاجَ وَالكَأَبَ؛ وَأَمثالُها مِنْ هَذِهِ المُهْلِکاتِ تَفْدُحُ^(٣) فِي قَلْبِكَ أَلْشَكُّ فِي اللَّهِ، وَتُثْبِتُ فِي رُوعِكَ شَرَّ الحِیاءِ، وَتُهْدِي إلى خَاطِرِكَ حِمَاقاتِ العَقلِ، وَتَقَرَّرُ عِنْدَكَ عِجْزُ الإرادة؛ فَتَنْتَهِي مِنْ كُلِّ ذلكَ مِيتاً قَدْ أَزْهَقْتَكَ نَفْسُكَ قَبْلَ أَنْ تُزْهِقَهَا!

ولو كُنْتَ بَدَلَ إيمانِكَ بِنَفْسِكَ قَدْ آمَنْتَ بِاللّهِ حَقَّ الإیمانِ، لَسَلَّطَكَ اللّهُ على نَفْسِكَ وَلَمْ يَسَلِّطْها عَلَيْكَ؛ إِذا رَمَتَكَ أَلْمَاطُ مَعُ بِالحاجةِ التي لا تَقْدُرُ عَلَيْها، رَمِيتُها مِنْ نَفْسِكَ بِالاستِغناءِ الذي تَقْدُرُ عَلَيْهِ؛ وَإِذا جاءَتْكَ أَلْشَهِواتُ مِنْ نَاحِيَةِ الرَغْبَةِ المَقْبِلَةِ، جَثَّتْها مِنْ نَاحِيَةِ الزُّهْدِ أَلْمَنْصَرَفِ، وَإِذا سَاوَرَتْكَ كِبِرياءُ الدُّنْيا أَذْلَلَتْها بِكِبِرياءِ الآخِرَةِ.

وبهذا تَنْقَلِبُ الْأَحْزانُ وَالْآلامُ ضُروباً مِنْ فَرَحِ الْفَوْزِ وَالْإِنْتِصارِ على النَفْسِ وشَهِواتِها، وَكانَتْ فَنَواً مِنَ الخِذْلانِ وَالْهَمِّ، وَتَعَوَّدُ مَوْضِعَ فَخْرٍ وَمِباهاةٍ، وَكانَتْ أَسبابَ خِزْيٍ وَأَنْكَسارٍ. «وعزيمةُ الإیمانِ إِذا هي قَوِيَّةٌ حَصَرَتْ أَلْبَلاءَ فِي مَقْدارِهِ، فَإِذا حَصَرَتْهُ لَمْ تَزَلْ تَنْقُصُ مِنْ مَعانِيهِ شَيْئاً شَيْئاً، فَإِذا ضَعُفَتْ هَذِهِ العزيمةُ جاءَ

(١) دِیَاجَتِهِ: تشعل.

(٢) القفر: الصحراء.

(٣) تَفْدُحُ: تهب.

الْبَلَاءُ غَامِراً مُتَفَشِّياً يُجَاوِزُ مَقْدَارَهُ بِمَا يَضْحَكُهُ مِنَ الْخَوْفِ وَالرَّوْعِ، فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تَزِيدُ شَيْئاً شَيْئاً بِمَا فِيهِ وَبِمَا لَيْسَ فِيهِ .

وَلِلْإِيمَانِ ضَوْءٌ فِي النَّفْسِ يُنِيرُ مَا حَوْلَهَا فَتَرَاهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ الْفَانِيَةِ وَشَيْكاً أَنْ يَزُولَ؛ فَإِذَا انْطَفَأَ هَذَا الضَّوُّ انْطَمَسَتْ الْأَشْيَاءُ، فَتَتَوَهَّمُهَا النَّفْسُ أَوْهَاماً مُتَبَايِنَةً^(١) عَلَى أَحْوَالِهَا الْمَخْتَلِفَةِ؛ كَمَا يَرَى الْأَعْمَى بِوَهْمِهِ: لَا عَيْنُهُ مَعَ الْأَشْيَاءِ تَكُونُ فِي طَبِيعَتِهَا، وَلَا أَشْيَاؤُهُ عِنْدَ عَيْنِهِ تَكُونُ فِي حَقِيقَتِهَا .

* * *

قَالَ الْمَسِيَّبُ: وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ طَفَلَتْ^(٢) لِلْمَغِيبِ؛ فَقَالَ الْإِمَامُ لِلرَّجُلِ: قُمْ فَتَوَضَّأْ وَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ، وَسَلِّمْ أَمْرًا تَنْتَفِعُ بِهِ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ: فَإِذَا قُمْتَ إِلَى وَضُوءِكَ فَأَيِّقَنَّ فِي نَفْسِكَ وَأَعِزِّمْ فِي خَاطِرِكَ عَلَى أَنَّ فِي هَذَا الْمَاءِ سِرًّا رُوحَانِيًّا مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ وَالْحَيَاةِ، وَأَنَّهُ رَمْزٌ لِلسَّمَاءِ عِنْدَكَ، وَأَنَّكَ إِنَّمَا تَتَطَهَّرُ بِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ نَفْسِكَ الَّتِي أَمْتَدَّتْ عَلَى أَطْرَافِكَ؛ ثُمَّ سَمَّيَ اللَّهُ (تَعَالَى) مُفِيضاً أَسْمَهُ الْقَادِرِ الْكَرِيمِ عَلَى الْمَاءِ وَعَلَى نَفْسِكَ مَعاً، ثُمَّ تَمَثَّلَ أَنَّكَ غَسَلْتَ يَدَيْكَ مِمَّا فِيهِمَا وَمِمَّا تَتَعَاطَاهُ بِهِمَا مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا، وَأَنَّكَ آخِذٌ فِيهِمَا مِنَ السَّمَاءِ لِرُوحِهِمَا وَأَعْضَائِكَ؛ وَفَرَزَ عِنْدَ نَفْسِكَ أَنَّ الْوُضُوءَ لَيْسَ شَيْئاً إِلَّا مَسْحَةٌ سَمَاوِيَّةٌ تُسَبِّغُهَا عَلَى كُلِّ أَطْرَافِكَ، لِيَشْعَرَ بِهَا جِسْمُكَ وَعَقْلُكَ؛ وَأَنَّكَ بِهِذِهِ الْمَسْحَةِ السَّمَاوِيَةِ تَسْتَقْبِلُ اللَّهَ فِي صَلَاتِكَ سَمَاوِيًّا لَا أَرْضِيًّا .

فَإِذَا أَنْتَ اسْتَشْعَرْتَ هَذَا وَعَمِلْتَ عَلَيْهِ وَصَارَ عَادَةً لَكَ، فَإِنَّ الْوُضُوءَ حِينَئِذٍ يَنْزِلُ مِنَ النَّفْسِ مَنْزِلَةَ الدَّوَاءِ، كُلَّمَا أُغْتَمِمْتَ أَوْ تَسَخَّطْتَ أَوْ غَشِيَتْكَ حَزَنٌ أَوْ عَرَضَ لَكَ وَسْوَاسٌ، فَمَا تَوَضَّأْتَ عَلَى تِلْكَ النِّيَّةِ إِلَّا غَسَلْتَ الْحَيَاةَ وَغَسَلْتَ السَّاعَةَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ . وَتَرَى الْمَاءَ تَحْسَبُهُ هَدِوَاءً لِنَبَا لِيَنَّ الرُّضَى، وَإِذَا هُوَ يَنْسَابُ فِي شَعُورِكَ وَفِي أَحْوَالِكَ جَمِيعاً .

قَالَ الْمَسِيَّبُ: وَقُمْتُ أَنَا فَجَدَّدْتُ وَضُوءِي عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ بِتِلْكَ النِّيَّةِ، فَإِذَا أَنَا عِنْدَ نَفْسِي مُسْتَضِيءٌ بِرُوحِ نَجْمِيَّةٍ لَهَا إِشْرَاقٌ وَسَنَاءٌ، وَإِذَا الْوُضُوءُ فِي أَضْعَافِ مَعَانِيهِ هُوَ مَا عَلَّمْنَا مِنْ أَنَّهُ الطَّهَارَةُ وَالنَّظَافَةُ، أَمَّا فِي أَقْوَى مَعَانِيهِ فَهُوَ إِفَاضَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا التَّقْدِيسُ وَالتَّرَكُّيبُ وَغَسْلُ الْوَقْتِ الْإِنْسَانِيِّ مِمَّا يُخَالِطُهُ كُلَّمَا مَرَّتْ

(١) مُتَبَايِنَةٌ: مُخْتَلِفَةٌ .

(٢) طَفَلَتْ: مَالَتْ .

ساعات، وأبتدأوه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطولاً مترطباً بالماء.

ثم صلى بنا الشيخ، وأمرني بالمبيت مع الرجل، كأنما خشي البدوات^(١) أن تبدؤ له فتنقص عزمه، أو هو زادني عليه لأغير شخصه وأبدل وحدته التي كان فيها، أو كأن الشيخ لم يأمن على الرجل أن يكون إنسانه الروحي قد تنبه بأكمله فوضعي كالتنبيه له.

وجاءنا العشاء من دار الشيخ فطعمنا، ثم قام الرجل فتوضأ وصلينا العتمة وجلسنا نتحدث، فاستبأنه نبأه^(٢)، فقال: مهلاً. ثم نهض فتوضأ الثالثة وقال: تالله ما أعرف الوضوء بعد اليوم إلا ملاسة بين السماء والنفس، وما أعرف وقته من الروح إلا كساعة الفجر على النبات الأخضر.

قال المسيب: وأصبحنا فغدونا على الإمام، ثم لزماني الرجل في بعض أموري، ثم وافينا المسجد صلاة العصر لحضور درس الشيخ؛ وكان الناس كالحب المتراصف على العنقود، لا أدري من ساقهم وجمعمهم؛ كأنما علمت الكوفة أن رجلاً مسلماً كفر بالله كفره صلعاء وأنه سيحضر درس الشيخ، وسيحضر الشيخ من أجله، فهبت الرياح الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها.

وجلس الشيخ مجلس الحديث فقال:

روينا أن رجلاً كاثب به جراحة، فأتى قرناً^(٣) له فأخذ مشقصاً^(٤) فدبح به نفسه، فلم يصل عليه النبي ﷺ، وترك جنازته مطرودة تقتحم متلفة الآخرة كما أقتحمت متلفة الدنيا!

روينا في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعن نفسه يطعن نفسه في النار، والذي يقتحم يقتحم في النار»

روينا عنه ﷺ: «من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة!»

روينا عنه ﷺ قال: «كان رجل به جراح فقتل نفسه، فقال الله: بذرني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة!».

(١) البدوات: المفاجئات.

(٢) استبأنه نبأه: سأله عنه.

(٣) القرن بالفتح: جعبة الشباب.

(٤) المشقص: سهم ذو نصل عريض.

قال الشعبي: يقول الله: «بَدَرْنِي عَيْدِي بِنَفْسِهِ...» أي بدرني^(١) وتألّه فجَعَلَ
نَفْسَهُ إِلَهَ نَفْسِهِ، فَقَبَضَهَا وَتَوَفَّاهَا، فَكَانَ ظَالِماً.

بَدَرْنِي وتألّه في آخرِ أَنْفَاسِهِ لِحَظَّةٍ يَنْقَلِبُ إِلَيْ، فَكَانَ مَعَ ظُلْمِهِ مَغْرُوراً أَحْمَقاً!
بدرني وتألّه حينَ ضَاقَ، فَهَوَّرَ نَفْسَهُ^(٢) في الموتِ من عَجْزِهِ أَنْ يُمَسِّكَهَا فِي
الْحَيَاةِ، فَكَانَ عَاجِزاً مَعَ ظُلْمِهِ وَغُرُورِهِ وَحُمَقِهِ!

بدرني وتألّه على جَهْلِهِ بِسِرِّ الْحَيَاةِ وَحِكْمَتِهَا، فَلَمْ يَسْتَحِ هَذَا الْمَخْلُوقُ الظَّالِمُ
الْمَغْرُورُ فِي حُمَقِهِ وَعَجْزِهِ وَجَهْلِهِ - لَمْ يَسْتَحِ أَنْ يَجِئَنِي فِي صُورَةِ إِلَهٍ!
بَدَرْنِي وتألّه، فَطَبَعَ نَفْسَهُ طَابِعَهَا الْأَبَدِيُّ مِنْ غِيٍّ وَتَمَرِّدٍ وَسَفَاهَةٍ، وَأَرْسَلَهَا إِلَيَّ
مَقْتُولَةً يَرُدُّهَا عَلَيَّ.

بدرني وتألّه كأنما يقول: إِنَّ لَهُ نَصْفَ الْأَمْرِ وَلِيَّ النِّصْفِ: أَنَا أَحْيَيْتُ وَهُوَ
أَمَات...!

بَدَرْنِي عَيْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ! قال الشعبي: وَإِنَّمَا تُحَرِّمُ الْجَنَّةَ عَلَى
مَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ، إِذْ يَنْقَلِبُ إِلَى اللَّهِ وَعَلَى رُوحِهِ جَنَائَةً يَدُو مَا تُفَارِقُهَا إِلَى الْأَبَدِ: فَهُوَ
هَنَّاكَ جِيفَةً مِنَ الْجَيْفِ مَسْمُومَةٌ أَبَداً، أَوْ مَخْنُوقَةٌ أَبَداً، أَوْ مَذْبُوحَةٌ أَبَداً، أَوْ مَهْشُمَةٌ
أَبَداً يَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَنْتَ بَدَرْتَنِي بِنَفْسِكَ، وَجَرَيْتَ مَعِيَ فِي الْقَدَرِ مَجْرَى وَاحِداً،
فَسْتَخْلُدُ نَفْسَكَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ عَمَلِكَ، وَمَا قَتَلْتَ إِلَّا حَسَنَاتِكَ.

قال الشعبي: وَلَوْ عَرَفَ قَاتِلُ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيَصْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ جِيفَةً أَبَدِيَّةً، فَمَنْ ذَا
الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ كَذَا وَكَذَا تَحَوَّلَ جِمَاراً وَبَقِيَ جِمَاراً، فَيَرْضَى أَنْ يَتَحَوَّلَ
وَيُسْرَعَ لِيَتَحَوَّلَ؟

مِنْ ذَلِكَ نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ نَفْسَهُ، كَمَا يَنْظُرُ إِلَى ذَبَابَةٍ
تُوجَّهَتْ بِالسَّبَبِ إِلَى الشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْأَفْلَاقِ كُلِّهَا، ثُمَّ جَاءَتْهُ تَقُولُ: اشْهَدْ لِي.

قال الشيخ: وَمِمَّ يَقْتُلُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ؟ أَمَّا إِنَّ الْمَوْتَ آتٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا
مَقْصِرَ لِحَيِّ عَنْهُ، وَهُوَ الْخَبِيئَةُ الْكُبْرَى تُلْقَى عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ؛ فَمَا ضَرَرُ الْخَبِيئَةِ
الصَّغِيرَةِ فِي أَمْرِ مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ؟

(٢) هَوَّرَ نَفْسَهُ: أَرْهَقَهَا.

(١) بدرني: سبني وأتى إلي.

إنَّ المرءَ لا يقتلُ نفسه من نجاح بل من خيبة، فإنَّ كانتِ الخيبةُ من مالٍ فهي الفقرُ أو الحاجة، وإنَّ كانت من عافيةٍ فهي المرضُ أو الاختلال، وإنَّ كانت من عزَّةٍ فهي الدُّلُّ أو البؤسُ، وإنَّ كانت ممَّا سوى ذلك - كالنساءِ وغيرهنَّ - فهي العجزُ عن الشهوةِ وفسادِ التخيُّلِ، كلُّ ذلك موجودٌ في الناسِ، يحملُهُ أهلُهُ راضينَ به صابرينَ عليه، وهو الغبارُ النفسيُّ لهذه الأرضِ على نفوسِ أهلِها. ويا عجباً! إنَّ العميانَ هم بالطبيعةِ أكثرُ الناسِ ضحكاً وأتساماً وعبثاً وسخريةً، أفتريدون أن تُخاطبكمُ الحياةُ بأفصح من ذلك؟

ليستِ الخيبةُ هي الشرُّ، بل الشرُّ كلُّهُ في العقلِ إذا تبلَّدَ فجمدَ على حالةٍ واحدةٍ من الطمعِ الخائبِ، أو في الإرادةِ إذا وهنت فبقيت متعلِّقةً بما لم يُوجد. أفلا ترون أنَّه حينَ لا يُبالي العقلُ ولا الإرادةُ لا يبقى للخيبةِ معنى ولا أثرٌ في النفسِ، ولا يخيبُ الإنسانَ حينئذٍ، بل تخيبُ الخيبةُ نفسها؟

لهذا يأبى الإسلامُ على أهلِهِ التَّرفَ العقليَّ والتخيُّلَ الفاسدَ، ويشدُّ كلَّ الشَّدَّةِ في أمرِ الإرادةِ، فلا يترخَّصُ في شيءٍ يتعلَّقُ بها، ولا يزالُ يُنمِّيها بأعمالٍ يوميةٍ تشدُّ منها لتكوُنَ رقيبةً على العقلِ حارسةً له، فإنَّ للعقلِ أمراضاً كثيرةً يقيسُ فيها درجاتٍ من الطيشِ حتى يبلغَ الجنونَ أحياناً؛ فكانتِ الإرادةُ عقلاً للعقلِ؛ هي لينُهُ إذا تصلَّبَ، وهي حركتُهُ إذا تبلَّدَ، وهي جِلْمُهُ إذا طاش، وهي رضاهُ إذا سَخِطَ.

الإرادةُ شيءٌ بينَ الروحِ والعقلِ، فهي بينَ وجودينَ؛ ولهذا يكونُ بها الإنسانُ بينَ وجودينِ أيضاً، فيستطيعُ أن يعيشَ وهو في الدنيا كالمنفصلِ عنها، إذ يكونُ في وجودِهِ الأقوى وجودَ روحِهِ، وأكبرُ همِّه نجاحُهُ في هذا الوجودِ.

وهذا النجاحُ لا يأتي من المالِ، ولا تُحقِّقُهُ العافية، ولا تُيسِّرهُ الشهواتُ، ولا يُسَنِّيهِ^(١) التَّخيلُ الفاسدُ؛ ولا يكونُ من متاعِ الغرورِ، ولا ممَّا عُمرُهُ خمسونَ سنةً أو مائةً سنةً؛ بل يأتي ممَّا عُمرُهُ الخلودُ وممَّا هو باقٍ أبداً في معانيهِ من الخيرِ والحقِّ والصِّلاحِ؛ فهنا يُعِينُ المرضُ بالصبرِ عليه ممَّا لا تُعِينُ الصحةُ، ويُقَيِّدُ الفقرُ بحقائقِهِ ما لا تُقَيِّدُ الثروةُ؛ وهنا يكونُ العقلُ الإنسانيُّ عاملاً أكثرَ ممَّا هو متخيُّلاً، وقانِعاً أكثرَ ممَّا هو طامعاً؛ وهنا لا موضعٌ لِغلبةِ الشهوةِ، ولا كِبَرِاءِ النفسِ، ولا

(١) يسنيه: يجعله سنياً نبيلاً.

حُبِّ الذات؛ وهذه الثلاث هي جالبةُ الشقاء على الإنسان حتى في أحوال السعادة، وبدونها يكون الإنسان هائناً حتى في أحوال الشقاء.

بالإرادة المؤمنة القويّة ينصرف ذكاء المؤمن إلى حقائق العالم وصلاح النفس بها، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاء إلى خيال الإنسان وفساد الإنسان...

وإذا أنصرف الذكاء إلى حقائق الدنيا كان العقل سهلاً مَرناً مطواعاً، وأستحال عليه أن يفهم فكرة قتل النفس أو يُقرّها، فإن هذه الفكرة الخبيثة لا تستطرق إلى العقل إلا إذا تحجّر وأنحصر في غرض واحد قد خاب وخابث فيه الإرادة ففرغت الدنيا عنده.

ولو أن أمراً تمّ عزمته على قتل نفسه ثم صابر الدنيا أياماً، لأنفسح عزمه أو رك^(١)؛ إذ يلين العقل في هذه المدة نوعاً ما، ويجعل الصبر بينه وبين المصيبة مسافة ما، فتتغير حالة النفس هوناً ما؛ فالصبر كالترّوح بالهواء على العقل الذي يكاد يختنق من احتباسه في معنى واحد مُقفل من جوانبه «ومثل العقل في هذه الحال مثل القائم في إعصار لفته بالتراب لفاً وسدّ عليه منافذ الهواء، وحبسّه في هذا التراب الملتفّ حبس الحشرة في جوف القصبّة؛ فهو على أليقين أنها حالة ساعة طارئة في الزمن لا حالة الزمن؛ وأن الهواء الذي جاء بهذا الهم هو الذي يذهب بهذا الهم.

وكما أن الأرض هي شيء غير هذا الإعصار الشائر منها، فالحياة كذلك هي أمر آخر غير شقائها.

قال الإمام: وفي كتاب الله آيتان تدلان على أنه كتاب الدنيا كلها، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين: أحدهما المثال الروحي للفرد الكامل، والآخر المثال الروحي للجماعة الكاملة.

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾.

وأما الثانية فهي قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

(١) رك: ضعف.

ففي رجاءِ اللَّهِ واليومِ الآخرِ يتسامى الإنسانُ فوقَ هذه الحياةِ الفانية، فتمرُّ همومُها حوله ولا تصدمه، إذ هي في الحقيقة تجري من تحته فكأن لا سلطانَ لها عليه؛ وهذه الهمومُ تجدُ في مثلِ هذه النفسِ قُوًى بالغة تصرفها كيف شاءت، فلا يجيءُ الهمُّ قوةً تسحقُ ضعفاً، بل قوةً تمتحنُ قوةً أخرى أو تُثيرُها لتكونَ عملاً ظاهراً يقلِّدُه الناسُ ويتفغنونَ منه بالأسوةِ الحسنة، والأسوةِ وحدها هي عِلْمُ الحياة. وقد ترى الفقيرَ مِنَ الناسِ تحسُّبه مسكيناً، وهو في حقيقته أستاذٌ من أكبرِ الأساتيدِ يُلقي على الناسِ دروسَ نفسه القويَّة.

وفي رجاءِ اللَّهِ واليومِ الآخرِ يبطلُ أكبرُ أسبابِ الشرِّ في الناسِ، وهو نظَرُ الإنسانِ لِمَنْ هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظراً لا يبعثُ إلا الحقدَ وأكسخت، فينظرُ المؤمنُ حينئذٍ إلى ما في الناسِ مِنَ الخيرِ والصلاحِ والإيمانِ والحقِّ والفضيلة، وهذه بطبيعتها لا تبعثُ إلا السرورَ والغبطة. وَمَنْ جعلها في تفكيره أبطلَ أكثرَ الدنيا من تفكيره؛ وبها تسقطُ الفروقُ بينَ الناسِ عاليهم ونازلهم؛ كالرجلِ الفقيرِ العالمِ إذا قَدِمَ على الغنيِّ العالمِ؛ جَمَعَ بينهما الاتفاقُ العقليُّ وسقطَ ما عداه.

وفي رجاءِ اللَّهِ واليومِ الآخرِ يعيشُ الإنسانُ عُمرَه الطويلَ أو القصيرَ كأنه في يومٍ يُصبحُ منه غادياً على الحشرِ والحسابِ؛ فهو متَّصلٌ بالخلودِ غيرُ مَغْنِيٍّ إلا بأسبابه؛ وبهذا تكونُ أمراضُه وآلامُه ومصائبُه ليستَ مَكَاَرَةً مِنَ الدنيا، بل هي تلكَ المَكَاَرَةُ التي حُقِّتْ أَلْجَنَةُ بها؛ ولا يَضُرُّه الجِزْمَانُ لَأَنَّهُ قَرِيبُ الزوالِ، ولا يَغُرُّه المتاعُ لَأَنَّهُ قَرِيبُ الزوالِ أيضاً.

وفي رجاءِ اللَّهِ واليومِ الآخرِ يَسُوذُ الإنسانُ على نفسه؛ وَمَنْ كَانَ سَيِّدَ نَفْسِهِ كَانَ سَيِّدَ مَا حَوْلَهَا يُصَرِّفُهُ بِحُكْمِهِ، وَمَنْ كَانَ عَبْدَ نَفْسِهِ صَرَّفَهُ بِحُكْمِهِ كُلِّ مَا حَوْلَهُ.

قالَ الشعبيُّ: وأما المَثَالُ الروحيُّ لِلْجَمَاعَةِ الكاملةِ، فهو في وصفِ الْمُؤْمِنِينَ بأنهم «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ»؛ فهذا هذا، ما أَحْسَبُهُ يَحْتَاجُ إِلَى بَسْطِ وَبَيَانِ.

إِنَّ أَكْثَرَ مَا يَضِيقُ بِهِ الْإِنْسَانُ يَكُونُ مِنْ قَبْلِ مَنْ حَوْلَهُ مِمَّنْ يُعَايِشُهُمْ وَيَتَّصِلُ بِهِمْ لَا مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، فإذا قَامَ أَجْتِمَاعُ أُمَّةٍ عَلَى أَنَّهُمْ (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) تَقَرَّرَتِ الْعَظَمَةُ النَّفْسِيَّةُ لِلْجَمِيعِ عَلَى السَّوَاءِ؛ وَمَنْ كَانُوا كَذَلِكَ لَمْ يَخْقِرُوا الْفَقِيرَ بِفَقْرِهِ، وَلَمْ يُعْظَمُوا الْغَنِيَّ لِغِنَاهُ، وَإِنَّمَا يُحَقَّرُونَ وَيُعْظَمُونَ لِصِفَاتٍ سَامِيَةٍ أَوْ حَقِيرَةٍ. وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ يَكُونُ الْفَقِيرُ الصَّابِرُ أَعْظَمَ قَدْرًا مِنَ الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ، وَإِعْظَامُ النَّاسِ

لِفَضِيلَةِ الْفَقِيرِ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ فَقْرُهُ عِنْدَ نَفْسِهِ شَيْئاً ذَا قِيَمَةٍ فِي الْإِنْسَانِيَةِ .

ومتى تَصَحَّحَتْ آراءُ الجماعةِ في هذه المعاني المؤلمةِ لِلنَّاسِ بَطَلَ أَلْمُهَا وأَسْتَحَالَتْ معانيها، وصارَ لا يَبْلَى معنى من معاني الحياةِ في إنسانٍ إِلَّا وَضَعَ إيمانهُ معنىً جديداً في مكانه، وتَصَبَّحَ الْفَضِيلَةُ وَحْدَهَا غَايَةَ النَّفْسِ فِي الْجَمِيعِ ؛ وبذلك يَصْبِرُ الْفَرْدُ عَلَى مَصَائِبِهِ، لا بِقُوَّتِهِ وَحْدَهُ، ولكن بِجَمِيعِ الْقُوَى الَّتِي حَوْلَهُ . أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّ إِعْجَابَ النَّاسِ بِالشَّجَاعَةِ وَتَعْظِيمَهُمْ صَاحِبَهَا يَضَعُ فِي أَلَمِ السِّلَاحِ لَذَّةً يُحِسُّهَا لَحْمُ الشَّجَاعِ الْبَطْلُ ؟

قَالَ الْمَسِيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَجْلِسِ، فَقَالَ . أَيُّهَا الشَّيْخُ، وَإِذَا فَسَدَ النَّاسُ وَعَلَّظَتْ قُلُوبُهُمْ، وَتَقَطَّعَتْ بَيْنَهُمُ الْأَسْبَابُ، وَلَمْ يَعُودُوا (رَحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)، وَشَبَّتُوا بِالْفَقِيرِ، وَتَهَزَّأُوا بِالْمُبْتَلَى وَطَرَحُوهُ فِي أَلْسِنَتِهِمْ كَمَا يَطْرَحُ الشَّاعِرُ فِي لِسَانِهِ رَجُلًا يَهْجُوهُ لَا يَكْفُ عَنْهُ - فَمَا عَسَى أَنْ يَصْنَعَ الْمَسْكِينُ حِينَئِذٍ وَكُلُّ شَيْءٍ يَدْفَعُهُ إِلَى قَتْلِ نَفْسِهِ؟

وقال الشعبي: ههنا الرجاء في الله واليوم الآخر، وهو شعور لا يشتري بمال، ولا يلتبس من أحد، ولا يغسُرُ على مَنْ أَرَادَهُ؛ وَالْفَقِيرُ وَالْمُبْتَلَى وَغَيْرُهُمَا إِنَّمَا يَصْنَعُ كُلُّ مِنْهُمْ مِثَالَهُ السَّامِي؛ فَالصَّبْرُ عَلَى هَذَا الْعَنَتِ هُوَ صَبْرٌ عَلَى إِتْمَامِ الْمِثَالِ، وَإِذَا وَقَعَ مَا يَسُوءُكَ أَوْ يُحْزِنُكَ فَابْحَثْ فِيهِ عَنْ فِكْرَتِهِ السَّامِيَةِ، فَقَلَّمَا يَخْلُو مِنْهَا، بَلْ قَلَّمَا يَجِيءُ إِلَّا بِهَا.

قَالَ الْمَسِيَّبُ : فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ : وَكَيْفَ يَصْنَعُ أَمْرُؤُ الْآلِ^(١) أَحْوَالُ الدُّنْيَا إِلَى مَا يُخِيفُهُ، أَوْ بَلَّغَ أَلَمُهُ مَبْلَغَهُ مِنْ قَلْبِهِ فَهَمَّ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ؟

قال الشعبي: فليجعل الخوفَ خَوْفَيْنِ: أَحَدُهُمَا خَوْفُهُ عَذَابَ اللَّهِ خَالِداً مُخْلِداً فِيهِ أَبَداً؛ فَيَذْهَبَ الْأَقْوَى بِالْأَضْعَفِ . وَإِذَا أَبْتَلِيَ فَلْيَضْمِمْ إِلَى نَفْسِهِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ بَلَاءً مِنْهُ؛ لِيَكُونَ هُمُّ أَحَدٍ هَمِّينِ، فَيَذْهَبَ الْأَثْقَلُ بِالْأَخْفِ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ وَنَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ كَالَّذِي أُعْطِيَ طِفْلاً نَزَقاً طَيَّاشاً عَارِماً مَتَمَرِّداً لِيُؤَدِّبَهُ وَيُحْكِمَ تَرْبِيَّتَهُ وَتَقْوِيمَهُ فَيُثَبِّتَ بِذَلِكَ أَنَّهُ أَسْتَاذٌ، فَيُعْطَى أَجْرَ صَبْرِهِ وَعَمَلِهِ، ثُمَّ يَضِيقُ الْأَسْتَاذُ بِالطِّفْلِ سَاعَةً فَيَقْتُلُهُ . أَكْذَلِكَ النَّادِيْبُ وَالتَّرْبِيَّةُ؟

(١) آلت: تحولت.

الانتحار

٣

قال المسيب بن رافع: وكان الإمام قد شغل خاطره^(١) بهذه القصة فأخذت تمُدُّ مدّها في نفسه، ومكثت له من معانيها بمقدار ما مكث لها في همّه، وتفتّق بها ذهنه عن أساليب عجيبة يتهيأ بعضها من بعض كما يلد المعنى المعنى. فلما قال الرجلان مقالهما آنفاً وأجابهما بتلك الحكمة والموعظة الحسنة، اتقدح له من كلامهما وكلامه رأي فقال:

يا أهل الكوفة: أنشدكم الله والإسلام أيما رجل منكم ضاق بوجه يوماً فأراد إزهاقها إلا كشف لأهل المجلس نفسه وصدقنا عن أمره؛ ولا يجذن في ذلك ثلثاً^(٢) ولا عاباً، فإنما النكبة مذهب من مذاهب القدر في التعليم؛ وقد يكون ابتداء المصيبة في رجل هو ابتداء الحكمة فيه لنفسه أو لغيره؛ وما من حزين إلا وهو يشعر في بعض ساعات حزنه أنه قد غيبت فيه أسرار لم تكن فيه، وهذا من إبانة الحقيقة عن نفسها وموضعها كما لآل^(٣) في سيف بريته.

وعقل ألهم عقل عظيم، فلو قد أريد استخراج علم يعلمه الناس من اللذات والنعم؛ لكان من شرح هذا العلم من الحمير والبغال والدواب ما لا يكون مثله ولا قرأه في العقلاء، ولا تبلغه القوى الأدمية في أهلها؛ بيد أنه لو أريد علم من البؤس والألم والحاجة لما وجد شرحه إلا في الناس، ثم لا يكون الخاص منه إلا في الخاصة منهم.

وما بأن أهل النعمة ولا غمروا المساكين في تطاولهم بأعناقهم إلا من أنهم يعلنون أكتاف الشياطين؛ فالشيطان دابة الغنى الذي يجهل الحق عليه في غناه ويحسب نفسه مخلى لشهواته ونعيمه؛ كما هو دابة العالم الذي يجهل الحق عليه

(٣) لآل: التمتع وبرق.

(٢) ثلثاً: عاباً وعبياً.

(١) خاطره: باله.

في علمه، ويزعم نفسه مخلى لعقله أو رأيه، وما طال الطويل بذلك ولا عن ذلك
قَصُرَ القصير، وهل يصح في الرأي أن يُقال هذا أطول من هذا لأن الأول فوق
السُّلَمِ والآخر فوق رجله...؟

قال المسيب: فقام شيخ من أقصى المجلس وأقبل يتخطى الرقاب والناس
يتفرجون^(١) له حتى وقف بإزاء الإمام؛ وتفرسته^(٢) وجعلت عيني تنجمه^(٣)، فإذا
شيخ تبدو طلاقة وجهه شباباً على وجهه، أبلغ الغرة مُتهلّل عليه بشاشة الإيمان
وفي أساريره أثر من تقطيب قديم، ينطق هذا وذاك أن الرجل فيما أتى عليه من
الدهر قد كان أطفأ المصباح الذي في قلبه مرة ثم أضاءه. وعجبت أن يكون مثل
هذا الشيخ قد همّ بقتل نفسه يوماً، وأنا أرى بعيني نفسه هذه مُثبّقة في الحياة أبتاق
النخلة السحوق.

وتكلم هذا الرجل فقال:

أما إذ ناشدتنا^(٤) الله والإسلام وميثاق العلم ووحى الأقدار في حكمتها، فإنني
محدثك بخبري على وصفه ورضفه: أملت^(٥) منذ ثلاثين سنة ووقف بي من الدهر
ما كان يجري، وأصبحت في مُزاولة الدنيا كعاصر الحجر يُريد أن يشرب منه،
وعجزت يدي حتى لظفر دجاجة في نبشها التراب عن الحبة والحشرة أقدر مني؛
وطرقتني النوائب^(٦) كأنما هي تُساكنني في داري، وأكلني الدهر لحماً ورماني
عظاماً، فما كان يقف عليّ إلا كلاب الطريق؛ ولي يومئذ امرأة أعقب منها طفلاً،
ويلزمني حقهما ولا أستطيعه؛ وكان بيننا حب فوق المعاشرة والألفة قد تركني من
أمرأتي هذه كالشاعر الغزل من صاحبتة، غير أن الشعر في دمي لا في لساني.

فلما نهكتني^(٧) المصائب وتناولتني من قريب ومن بعيد؛ قلت للمرأة ذات
يوم وقد شجبت وأنكسر وجهها وتقبّض^(٨) من هزاله: وأيم الله يا فلانة لو جاز أن
يؤكل لحم الأدمي لذبحت نفسي لتأكلي وتدرّي على الصبي؛ ولقد هممت أن
أركب رأسي وأذهب على وجهي لتفقداني فتفقدا شؤمي عليكما؛ ولكن ردني

(١) يتفرجون له: يُسحون له الطريق.

(٢) تفرسته: نظرت إليه بإمعان.

(٣) تنجمه: تنفضه.

(٤) ناشدتنا الله: استحلقتنا.

(٥) أملت: افترت.

(٦) طرقتني النوائب: حلت بي المصائب.

(٧) نهكتني: أتعبتني وأضيتني.

(٨) تقبّض: انكمش.

قلبي، وهو حَبَسَنِي في هذه الدنيا الصغيرة التي بينكما، فليس لي مِنَ الأرضِ مَشْرِقٌ ولا مغربٌ إِلَّا أَنْتِ وهذا الصَّبِي. وَلَسْتُ أَدْرِي - وَاللَّهِ - مَا نَصْنَعُ بِالْحَيَاةِ وَقَدْ كُنَّا مِنْ نَبَاتِهَا الْأَخْضَرِ فَرَجَعْنَا مِنْ حَطْبِهَا الْيَابِسِ؛ وَعَادَتِ الشَّمْسُ لَا تَغْدُوها بَلْ تَمْتَصُّ مِنْهَا مَا بَقِيَ، وَلَا تَسْتَضِيءُ لَهَا، وَلَكِنْ تَسْتَوْفِدُ عَلَيْهَا!

إِنْ مَنْ فَقَدَ الْخَيْرَ وَوَقَعَ فِي الشَّرِّ، حَرِيٌّ^(١) أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ خَيْرًا عَظِيمًا إِذَا قَتَلَ نَفْسَهُ فَيُخَلِّصَ مِنَ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ جَمِيعًا، لَا يُكْدِي^(٢) وَلَا يَنْجَحُ، وَلَا يَأْلَمُ وَلَا يَلْدُ؛ وَكَمَا أَنْكَرْتُهُ الدُّنْيَا فَلْيَنْكَرْهَا. أَمَّا إِنَّهُ إِنْ كَانَ الْقَبْرُ فَالْقَبْرُ وَلَكِنْ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ لَا عَلَى ظَهْرِهَا كَحَالِنَا؛ وَإِنْ كَانَ الْمَوْتُ فَالْمَوْتُ وَلَكِنْ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ وَفِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا كَهَذَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ أَنْوَاعًا أَنْوَاعًا. قَدْ مَاتَتْ أَيَّامُنَا، وَتَرَكْنَا نَعِيشُ كَالْمَوْتَى لَا أَيَّامَ لَهُمْ، وَزَادَ عَلَيْنَا الْمَوْتَى فِي النِّعْمَةِ وَالرَّاحَةِ أَنَّهُمْ لَا يَتَطَقَّلُونَ^(٣) عَلَى أَيَّامٍ غَيْرِهِمْ فَيُطَرِّدُوا عَنْ يَوْمٍ هَذَا وَيَوْمٍ ذَاكَ.

قَالَ: فَاسْتَعِيرَتْ^(٤) الْمَرْأَةُ بَاكِيَةً، وَلَمَّا فَرَعَتْ مِنْ كَلَامِ دَمْعِهَا قَالَتْ: كَأَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تُفْجَعَنَّا فِيكَ؟ قُلْتُ: مَا عَدَوْتُ مَا فِي نَفْسِي؛ وَلَكِنْ هَلْ بَقِيَ فِي مَنْ تُفْجَعِينَ فِيهِ؟ أَمَّا ذَهَبَ مِنِّي ذَاكَ الَّذِي كَانَ لَكَ زَوْجًا وَكَاسِبًا، وَجَاءَ الَّذِي هُوَ هُمُكَ وَهُمْ هَذَا الصَّبِيُّ مِنْ رَجُلٍ كَالْحَفْرَةِ لَا تَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانِهَا وَتَأْخُذُ وَلَا تُعْطِي؟

أَمْ وَاللَّهِ لَكَأَنِّي خُلِقْتُ إِنْسَانًا خَطَأً، حَتَّى إِذَا تَبَيَّنَ الْغَلْطُ أُرِيدُ إِرْجَاعِي إِلَى الْحَيَوَانِ فَلَمْ يَأْتِ لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ، وَبَقِيتُ بَيْنَهُمَا؛ يَمُرُّ النَّاسُ بِي فَيَقُولُونَ: إِنْسَانٌ مِسْكِينٌ. وَأَحْسَبُ لَوْ نَطَقَتِ الْكَلَابُ لَقَالَتْ عَنِّي: كَلْبٌ مِسْكِينٌ. يَا عَجَبًا! عَجَبًا لَا يَنْتَهِي! أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا فِي يَدِنَا مِنَ الْعِجْزِ وَالْيَأْسِ كَأَنَّمَا هِيَ بَغْرَةٌ نَجْهَدُ فِي تَحْوِيلِهَا بِاقْوَتَةٍ أَوْ لَوْلَةٍ...

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: وَاللَّهِ لَشُنَّ حَيِّيتٍ عَلَى هَذَا إِنَّ هَذَا لَكَفْرٌ قَبِيحٌ، وَلَشُنُّ مُتٍّ عَلَيْهِ إِنَّهُ لَا قَبْحَ وَأَشَدَّ.

فَقُلْتُ لَهَا: وَيَحْكُ وَمَاذَا تَنْظُرُ الْعَيْنُ الْمُبْصِرَةُ فِي الظَّلَامِ الْحَالِكِ إِلَّا مَا تَنْظُرُ الْعَمِيَاءُ؟

قَالَتْ: وَلِمَ لَا تَنْظُرُ كَمَا يَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ بِنُورِ اللَّهِ؟

(٣) يتطقلون: يعيشون على حساب غيرهم.

(٤) استعيرت: بكت.

(١) حري: جدير.

(٢) كدى: قلَّ خيره وعطاؤه.

قلتُ : فأنظري أنت وخبريني ماذا تَرَيْنِ . أترين رغيفاً؟ أترين إداماً؟ أترين ديناراً؟

قالت : واللهُ إني لأرى كلَّ ذلك وأكثر من ذلك . أرى قمراً سيكشفُ هذه السُدفة^(١) المظلمة إن لم يطلُع فكانَ قَدْ .

قال : فعاظمتني المرأةُ ورأيتها حينئذٍ أشدَّ عليَّ بقلَّةِ ذاتِ عقلِها من قلَّةِ ذاتِ يدي ؛ ولولا حبِّي إياها ورحمتي لها لأوقعتُ بها^(٢) . وأستحكم في ضميري أن أزهقَ نفسي وأدعها لِمَا كُتِبَ لها .

وقلتُ : إنَّ جُبْنَ المرأةِ هو نصفُ إيمانِها حينَ لا يكونُ نصفَ عقلِها ، وللقدرِ يدٌ ضعيفةٌ على النساءِ تصفَعُهُنَّ وتمسحُ دموعَهُنَّ ، ولهُ يدٌ أخرى على الرجالِ ثقيلةٌ تصفَعُ الرجلَ وتأخذُ بحلقِهِ فتعصرُهُ .

قال : وكنتُ قد سمعتُ قولَ الجاهليةِ في هذه الخليفة ؛ أرحامٌ تدفعُ ، وأرضٌ تبَّلَعُ . فحضرني هذا القولُ تلكَ الساعةَ وشُبَّ لي ، وأعتقدُ أنَّ هذا الإنسانَ شيءٌ حقيرٌ في الغايةِ مِنَ الْهَوَانِ والضُّعَةِ : حملتهُ أمُّهُ كُرْهاً ، وأثقلتُ بِهِ كُرْهاً ، ووضعتُهُ كُرْهاً ؛ وهو من سُؤْمِهِ عليها إذا دَنَا لها أن تَضَعَ لم يخرج منها حتى يَضْرِبَهَا الْمَخَاضُ فتتقلبُ وتصيحُ وتتمزَّقُ وتنصدعُ^(٣) ؛ وربما نَشِبَ فيها فقتلها ، وربما التوى فيبقرَ بطنُها عنه . وإذا هي ولدتهُ على أيِّ حالِها من عُسْرٍ وتطريقٍ بمثلِ الْمَطَارِقِ الْمُحْطَمَةِ ، أو سَرَّاحٍ ورواحٍ كما يتيسَّرُ - فإنَّما تلدهُ في مَشِيمَةٍ ودماءٍ وقَدَرٍ مِنَ الْأَخْلَاطِ كأنَّما هو خارجٌ من جُرحٍ . ثم تتناولُهُ الدنيا فتضَعُهُ من معانيها في أقبحِ وأقْدَر من ذلك كله . ثم يستوفي مدَّتَهُ فيأخذُهُ القبرُ فيكونُ شراً عليه في تمزيقِهِ وتعفينِهِ وإحاليتهِ .

قال : وحضرني مع كلمةِ الجاهليةِ قولُ ذلك الجاهلِ الزنديقِ الذي يُعرفُ (بالْبَقْلِيِّ) - إذ كان يزعمُ أنَّ الإنسانَ كالْبَقْلَةِ ، فإذا مات لم يَرْجِعْ . وقلتُ لِنفسي : إنَّما أنت بَقْلَةٌ حمقاء ذاوِيةٌ في أرضٍ نَشَاشَةٍ^(٤) ، فقتلتها ملحُ أرضِها أكثرَ ممَّا أحيّاها .

(١) السُدفة : الظلمة والعتمة .

(٢) أوقعت بها : نزلت بها ضرباً .

(٣) تنصدع : تتكسر .

(٤) الأرض النشاشة : السبخة التي يوجد فيها الماء والملح .

قال: وُثِّتْ إلى المِديَّة^(١) أريدُ أن أتوجَّأَ بها، فتبادرني المرأةُ وتحولُ بيني وبينها؛ وأكادُ أبطشُ بها مِنَ الغَيْظِ، وكانتُ رُوحُ الجَحِيمِ تَزْفِرُ من حولي لو سَمِعُوا سمعوا لها شهيقاً وهي تَفُورُ؛ فما أدري أَيُّ مَلَكٍ هَبَطَ بوحي الجَنَّةِ في لِسَانِ أُمْرَأَتِي.

قُلْتُ لها: إِنَّهَا عَزَمَةٌ مِنِّي أَنْ أَقْتَلَ نَفْسِي.

قَالَتْ: وما أريدُ أَنْ أَقْضِيَهَا وَلَسْتُ أَرُدُّكَ عَنْهَا وَسْتُمْضِيهَا.

قُلْتُ: فَخَلِّي بَيْنَ نَفْسِي وَبَيْنَ المِديَّةِ.

قَالَتْ: كُلُّنَا نَفْسٌ أَنَا وَأَنْتِ والصَّبِيُّ فَلْتَقْضِ مَعاً؛ وما بِنَفْسِي عَنْ نَفْسِكَ رَغْبَةٌ وَلَا نَدْعُ الصَّبِيَّ يَتِمًّا يَصْفَعُهُ مَنْ يُطْعِمُهُ، وَيَضْرِبُهُ أَبْنُ هَذَا وَأَبْنُ ذَاكَ إِذْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ فِي أَوْلَادِ النَّاسِ أَنَا ابْنُ ذَلِكَ وَلَا ابْنُ هَذَا.

قُلْتُ: هَذَا هُوَ الرَّأْيُ.

قَالَتْ: فَتَعَالَ أَدْبِحِ الطِّفْلَ....

قَالَ المَسِيَّبُ بْنُ رَافِعٍ: وما بَلَغَ الرَّجُلُ فِي قِصَّتِهِ إِلَى ذَبْحِ صَغِيرِهِ حَتَّى ضَجَّ النَّاسُ ضَجَّةً مُنْكَرَةً؛ وَتَوَهَّمْ كُلُّ أَبٍ مِنْهُمْ أَنَّ طِفْلَهُ الصَّغِيرَ مُمَدَّدٌ لِلذَّبْحِ وَهُوَ يُنَادِي أَبَاهُ وَيَسْتَقِ حَلْقَهُ بِالصَّرَاحِ: يَا أَبِي يَا أَبِي؛ أَدْرَكْنِي يَا أَبِي.

أَمَّا الإِمَامُ فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَكُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ، كَيْفَ تَصْنَعُ جَهَنَّمَ حَطَبَهَا؟

وَأَنَا فَمَا قَطُّ نَسِيتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، وَمَا قَطُّ رَأَيْتُ مِنْ بَعْدِهَا كَافِراً وَلَا فَاسِقاً فَاعْتَبَرْتُ أَعْمَالَهُ إِلَّا كَانَ كُلُّ ذَلِكَ شَيْئاً وَاحِداً هُوَ طَرِيقَةُ صَنْعَتِهِ حَطَباً... كَانَ الشَّيْطَانُ لَعَنَهُ اللَّهُ يَقُولُ لِاتِّبَاعِهِ؛ جَفَّفُوهُ...

وَكَانَتْ هُنَّيْهَاتٌ، ثُمَّ فَاءَ النَّاسُ وَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَاحُوا بِالْمَتَكَلِّمِ: ثُمَّ مَاذَا؟

قَالَ الرَّجُلُ: فَفَتَحْتُ عَيْنِي وَقَلْبِي مَعاً وَرَمَقْتُ^(٢) الطِّفْلَ المَسْكِينَ الَّذِي لَا يَمْلِكُ إِلَّا يَدَيْهِ الضَّعِيفَتَيْنِ؛ وَنَظَرْتُ إِلَى مَجْرَى السَّكِينِ مِنْ حَلْقِهِ وَإِلَى مَحْزَاهَا^(٣) فِي

(١) المِديَّة: السَّكِينِ.

(٢) رَمَقَ: نَظَرَ بِطَرَفٍ نَظَرَهُ.

(٣) مَحْزَاهَا: مَوْضِعَ الذَّبْحِ.

رقيبته اللينة؛ ورأيتُهُ كأنما تفرَّق بصرُهُ مِنَ الفَرْعِ على كُلِّ جهةٍ، ورأيتُهُ يتضرَّعُ لي بعينيه الباكيتينِ أَلَا أَذْبَحَهُ، ورأيتُهُ يتوسَّلُ بيديه الصغيرتينِ كأنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ مِنِّي أَمَامَ قَاتِلِهِ، ثُمَّ خِيلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَتَلَوَّى وَيَنْتَفِضُ وَيَصْرُخُ مِنَ أَلَمِ الذَّبْحِ تَحْتَ يَدِ أَبِيهِ؛ تَحْتَ يَدِ أَبِيهِ التَّعَسِ.

يا ويلتأه! لقد أَخَذَنِي مَا كَانَ يَأْخُذَنِي لَوْ تَهَدَّمَتِ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ، وَحَسَبْتُ الْكَوْنَ كُلَّهُ قَدْ أَنْفَجَرَ صُراخاً مِنْ أَجْلِ الْوَلَدِ الضَّعِيفِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ إِلَّا رَبُّهُ أَمَامَ الْقَاتِلِ.

فَهَزَّوَلْتُ^(١) مَسْرِعاً وَتَرَكْتُ الدَّارَ وَالْمَرْأَةَ وَالصَّبِيَّ وَأَنَا أَقُولُ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. يَا مَنْ خَلَقَ الْوَلَدَ عَالِماً بِأُمِّهِ وَأَبُوهُ وَحَدَّاهُ وَبَاقِيَ الْعَالَمِ هَبَاءً عِنْدَهُ. يَا مَنْ دَبَّرَ الرُّضِيعَ فَوَهَبَهُ مُلْكاً وَمَمْلَكَةً وَغِنًى وَسُروراً وَفَرَحاً، كُلُّ ذَلِكَ فِي ثَدْيِ أُمِّهِ وَصَدْرِهَا لَا غَيْرَ يَا إِلَهِي: أَنْسِيَنِي مِثْلَ هَذَا النِّسْيَانِ، وَأَرْزُقْنِي مِثْلَ هَذَا الرِّزْقِ، وَأَكْفُلْنِي بِمِثْلِ هَذَا التَّدْبِيرِ فَإِنِّي مُنْقَطِعٌ إِلَّا مِنْ رَحِمَتِكَ أَنْقِطَاعَ الرُّضِيعِ إِلَّا مِنْ أُمِّهِ.

قَالَ الرَّجُلُ: وَلَقَدْ كُنْتُ مَغْروراً كَالْجِيْفَةِ الرَّاكِدَةِ تَحْسِبُ أَنَّهَا هِيَ تَفُورُ حِينَ فَارَقْتُ حَشَرَاتِهَا. وَلَقَدْ كُنْتُ أَحْقَرُ مِنَ الذَّبَابِ الَّذِي لَا يَجِدُ حَقَائِقَهُ، وَلَا يَلْتَمِسُهَا إِلَّا فِي أَقْدَرِ الْقَدَرِ.

وَمَا كَذْتُ أَمْضِي كَمَا تَسُوقُنِي رَجُلَايَ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتاً نَدِيّاً مَطْلُولاً يُرْجِعُ تَرْجِيعَ الْوَرْقَاءِ^(٢) فِي تَخَانِيهَا وَهُوَ يُرْتَلُ هَذِهِ الْآيَةُ:

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾^(٣).

قَالَ: فَوَقَفْتُ أَسْمَعُ وَمَاذَا كُنْتُ أَسْمَعُ؟ هَذِهِ شَعْلٌ لَا كَلِمَاتٍ، أَحْرَقْتُ كُلَّ مَا كَانَ حَوْلِي وَلَمَسْتُ مِصْبَاحَ رُوحِي الْمُنْطَفِئِ فَإِذَا هُوَ يَتَوَهَّجُ، وَإِذَا الدُّنْيَا كُلُّهَا تَتَوَهَّجُ فِي نَوْرِهِ، وَأَرْتَفَعَتْ نَفْسِي عَنِ الْجَذْبِ^(٤) الَّذِي كُنْتُ فِيهِ وَكَأَنَّمَا لَفَّتْنِي سَحَابَةٌ مِنَ السُّحُبِ، فَفِي رُوحِي نَسِيمُ الْمَاءِ الْبَارِدِ وَرَائِحَةُ الْمَاءِ الْعَذْبِ.

لَعَنَ اللَّهُ هَذَا الْأَضْطِرَابَ الَّذِي يُبْتَلَى الْخَائِفُ بِهِ. إِنَّا نَحْسَبُهُ أَضْطِرَاباً وَمَا هُوَ

(١) هزولت: ركضت.

(٢) الورقاء: اليمامة.

(٣) فرطاً: تنقاسمه الأهواء.

(٤) الجذب: المحل.

إلا اختلاط الحقائق على النفس وذهاب بعضها في بعض، وتضرُّب الشر في الخير والخير في الشر حتى لا يبين جنس من جنس، ولا يعرف حد من حد، ولا تمتاز حقيقة من حقيقة. وبهذا يكون الزمن على المبتلى كالماء الذي جمد لا يتحرك ولا يتسائر. فيلوح الشر وكأنه دائماً لا يزال في أوله يُنذر بالأهوال، وقد يكون هو له أنتهى أو يوشك.

قال الرجل: وكنت أرى ياسي قد أغترى كل شيء، فامتد إلى آخر الكون وإلى آخر الزمن؛ فلما سكن ما بي إذا هو قد كان يأس يوم أو أيام في مكان من الأمكنة؛ أما ما وراء هذه الأيام وما خلف هذا المكان، فذلك حكمه حكم الشمس التي تطلع وتغيب على الدنيا لإحيائها، وحكم الماء الذي تهجم السماء به ليسقي الأرض وما عليها، وحكم استمرار هذه الأجرام السماوية في مدارها لا تمسكها ولا ترنها إلا قوة خالقها.

أين أثر الإنسان الدنيء الحقيق في كل ذلك؟ وهل الحياة إلا بكل ذلك؟ وما الذي في يد الإنسان العاجز من هذا النظام كله فيسوع^(١) له أن يقول في حادثة من حوادثه إن الخير لا يتبدى وإن الشر لا ينتهي؟

تعتري المصائب هذا الإنسان ليمحو من نفسه الخسة والدناءة، وتكسر الشر والكبرياء، وتفتأ^(٢) الجدة والطيش؛ فلا يكون من حمقه إلا أن يزيد بها طيشاً وجدة، وكبرياء وشرّاً، ودناءة وخسة، فهذه هي مصيبة الإنسان لا تلك. المصيبة هي ما ينشأ في الإنسان من المصيبة.

قال: ورددت الآية الكريمة في نفسي لا أشبع منها، وجعلت أرثلها أحسن ترتيل وأطربته وأشجاء؛ فكانت نفسي تهتز وترتج كأنما هي تبدأ تنظيم ما فيها لإقرار كل حقيقة في موضعها بعد ذلك الاختلاط والاضطراب.

صبر النفس مع الذين يمثلون روحانيتها تمثيلاً دائماً بالغداة والعشي، وعلى نور الحياة وظلامها، يريدون وجه الله الذي سبيله الحب لا غيره من مال أو متاع. وتقيد العينين بهذا المثل الأعلى كما يكون الأمر في الجمال والحب؛ والربط على

(١) يسوع: يسمح. (٢) فتأ الغضب: سكته وكسره.

الإرادة كَيْلًا تَتَفَلَّتْ فَتُسِفُ^(١) إلى حقائر الدنيا المسماة هُزْأً وتهكماً زينة الدنيا، تلك التي تُشبهه حقائق الذباب العالية . . . فتكون قَذِرَةً نَجِسَةً، ولكنها مع ذلك زينة الحياة لهذا الخَلْقِ الذَّبَابِي.

تلك - واللّه - هي أسباب السعادة والقوة. أمّا المصائب كلّها، فهي في إغفال القلب الإنساني عن ذكر الله.

* * *

قال: ولما صَحَّحتُ توبتي، وقَوَّيْتُ اليقين في نفسي، كَبُرَتْ رُوحِي وَاتَّسَعَتْ، وَأَنْبَعَثَتْ لَهَا بَوَاعُثٌ مِنْ غَيْرِ حَقَائِقِ الذَّبَابِ، وَأَشْرَقَ فِيهَا الْجَمَالُ الإِلَهِيُّ ساطِعاً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ الصَّبْحُ يَطْلُعُ عَلَيَّ كَأَنَّهُ وَلَادَةٌ جَدِيدَةٌ، فَأَنَا دَائِماً فِي عُمْرِ طِفْلِ، وَجَاءَنِي الْخَيْرُ مِنْ حَيْثُ اخْتَسِبُ^(٢) وَلَا أَحْتَسِبُ، وَكَأَنَّمَا نِمْتُ فَأَنْتَبَهْتُ غَنِيًّا وَعَمِلَ القلبُ الْحَيُّ فِي الزَّمَنِ الْحَيِّ.

ولقد أَفْذْتُ مِنَ الْآيَةِ طَبِيعَةً لَمْ تَكُنْ فِيَّ، وَلَا يَثْبُتُ مَعَهَا الشَّرُّ أَبَداً، فَأَصْبَحَ مِنْ خِصَالِي أَنْ أَرَى الْحَاضِرَ كُلَّهُ مَتَحَرِّكاً يَمُرُّ بِمَا فِيهِ مِنْ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ جَمِيعاً، وَأَسْتَشْعِرُ حَرَكَتَهُ مِثْلَمَا تَرَى عَيْنَايَ مِنْ قِطَارِ الْإِبِلِ يَهْتَرُّ تَحْتَ رِحَالِهِ وَهُوَ يُغْذُّ السَّيْرَ^(٣).

لَمْ أُبْعِدْ قَلِيلاً وَأَنَا أَمْشِي مَطْمَئِناً تَائِباً مَتَوَكِّلاً حَتَّى دَعَانِي رَجُلٌ ذُو نِعْمَةٍ وَمُرُوءَةٍ وَجَاءَ، وَكَأَنَّمَا كَلَّمَهُ قَلْبُهُ أَوْ كَلَّمَهُ وَجْهِي فِي قَلْبِهِ فَاسْتَنْبَأَنِي، وَبَشَّرَنِي^(٤) حَالِي وَأَقْتَضَصْتُ قِصَّتِي. فَقَالَ: سَيُحْيِيكَ اللَّهُ بِالطِّفْلِ الَّذِي كَذَبْتَ تَقْلُتُهُ فَأَرْجِعْ إِلَى دَارِكَ. ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيَّ دَنَائِيرَ وَقَالَ: إِتَجَزَّ بِهَذِهِ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ وَبِرُكَّتِهِ فَيَسِينُمُو فِيهَا طِفْلاً مِنْ أَمْوَالٍ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ. وَقَدْ صَدَّقَ إِيْمَانُهُ وَإِيْمَانِي، فَبَارِكْ لِي اللَّهُ وَنَمَا طِفْلُ الْمَالِ وَبَلَغَ وَجَاوَزَ إِلَى شَبَابِهِ.

* * *

قَالَ الْمَسِيَّبُ: وَجَلَسَ الرَّجُلُ وَكَانَ كَالْخَطِيبِ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَقَالَ الْإِمَامُ: مَا أَشْبَهَ النُّكْبَةَ بِالْبَيْضَةِ تُحَسَّبُ سِجْنًا لِمَا فِيهَا وَهِيَ تَحُوطُهُ وَتَرْبِيهِ وَتُعِينُهُ عَلَى تِمَامِهِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا الصَّبْرُ إِلَى مَدَّةٍ، وَالرَّضَى إِلَى غَايَةٍ، ثُمَّ تَنْقُفُ الْبَيْضَةُ فَيُخْرِجُ خَلْقًا آخَرَ.

وَمَا أَلْمُؤْمِنُ فِي دُنْيَاهُ إِلَّا كَالْفَرْخِ فِي بَيْضَتِهِ، عَمَلُهُ أَنْ يَتَكَوَّنَ فِيهَا، وَتِمَامُهُ أَنْ يَنْبَثِقَ شَخْصُهُ الْكَامِلُ فَيُخْرِجَ إِلَى عَالَمِهِ الْكَامِلِ.

(١) تسف: تنحط.
(٢) احتسب: اعتقد وظن وأمل.
(٣) يغذ السير: يجذ في سيره.
(٤) بشته: أعلمته وأطلعته على أمري.

الانتحار

٤

قال المسيب بن رافع: ومد الإمام عينه وقد رُفِعَ له شخص من المجلس؛ ثم جلى بنظره كأنما يتطلع إلى عجيبة كالحق إذا بطل، والصدق إذا كذب؛ ثم ردَّ بصره عليَّ كأنه يُعجِبني من عجيبة؛ ثم سَجَا^(١) طرفه كأنما أنكر رأي عينيه فهو يلتبس رأي قلبه. وتبينت في وجهه أنقباضاً خيلاً إليَّ أنَّ الشيطان جاءه بهذا الرجل يُفجِّمه^(٢) به يريه كيف يجعل أحد المؤمنين الصالحين يتحمس في دينه ليرجع بعد ذلك أصلاً لا غنى عنه في إنشاء قصة كُفراً!

هذا هو ضيفنا (أبو محمد البصري) يتخوض^(٣) الناس ليجيء فيحدثنا حديثه في قتل نفسه والاثم بربه؛ فلو قيل لي: إن قوس السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره، قد وقع إلى الأرض وأصطبغ من ألوانه أوحالاً وأقذاراً؛ لكان هذا كهذا في تعظيمه وإنكاره والعجب منه؛ فأبو محمد من الرجال الخمس^(٤) الذين لو كُفِّرَ أحدهم ثم قيل: «إنه كفر»، لقصر اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شئنها، كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تآلى أن يعمل عملاً يخرج به من الكون، فلا يبقى في أرض ولا سماء ولا تناله يد الله! إن في لفظ الكفر مع ذاك، وفي لفظ الجنون مع هذا - شيئاً من نفاق العقل وتأديبه في أداء المعنى الأخرق الذي لا يشبهه جنون ولا كفر.

ونعود بالله من خذلانه^(٥)؛ فلقد يكون الرجل المؤمن في تشدده وإيغاله في الدين - كالذي يصنع حبلاً يقتله فتلاً شديداً فيميره على طاق بعد طاق، ليكون أشدَّ

(١) سجا: سكن ودام.

(٢) يفجِّمه: يقنعه ويتغلب عليه.

(٣) يتخوض: يتخطى.

(٤) الخمس: أي المتحمسين في دينهم.

(٥) خذلانه: تخليه.

لَهُ وَأَقْوَى، ثُمَّ يُجَادِبُهُ الشَّيْطَانُ حَبْلَهُ، فَإِذَا هُوَ كَانَ فِي الرَّهْنِ مِثْلَ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً فِي سَقْفِ حَدَادٍ؛ فَرَأَتْهُ يَصُبُّ الْحَدِيدَ الْمَصْهُورَ يَجْعَلُهُ سِلْسِلَةً خَلْقَةً فِي حَلْقَةٍ، فَذَهَبَتْ تَحْكِيهِ وَتُرْسِلُ مِنْ لُعَابِهَا خَيْطاً فِي خَيْطِ تَزْعُمِهِ سِلْسِلَةً...!

إِنَّ مَعَ كُلِّ مُؤْمِنٍ شَيْطَانَهُ يَتَرَبَّصُ^(١) بِهِ، فَلِهَذَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ كَالَّذِي يَشْعُرُ أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا مِنْذُ سَاعَةٍ، فَهُوَ أَبَدًا مُحْتَرَسٌ مَتَهَيِّءٌ مُتَجَدِّدٌ الْحَوَاسِ مُزَهِّفٌهَا يَسْتَقْبِلُ بِهَا الدُّنْيَا جَدِيدَةً عَلَى نَفْسِهِ بَيْنَ الْفَتْرَةِ وَالْفَتْرَةِ: وَمِنْ هَذَا حِكْمَةُ أَنْ يُؤَذِّنَ الْمُؤَذِّنُ، وَأَنْ تُقَامَ الصَّلَاةُ مِرَاراً فِي الْيَوْمِ، فَكَلَّمَا بَدَأَ وَقْتُ قَالَ الْمُؤْمِنُ: الْآنَ أَبَدًا إِيْمَانِي أَطْهَرَ مَا كَانَ وَأَقْوَى.

* * *

وَقَالَ الْإِمَامُ: هَيْه يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! فَقَالَ الْبَصْرِيُّ وَقَدْ رَأَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِ الْإِمَامِ: لَا يُفْرِغَنَّكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَدْ يَجْعَلُ مَا يُحِبُّهُ هُوَ فِيمَا نَكْرَهُ نَحْنُ؛ وَلَيْسَ لِلْأَقْدَارِ لُغَةٌ فَتَجَرِّي عَلَى الْفَاطِنَا؛ وَقَدْ تُسَمَّى النَّازِلَةُ^(٢) تَنْزُلُ بِنَا خَسَاراً وَهِيَ رِيحٌ، أَوْ نَقُولُ مُصِيبَةٌ جَاءَتْ لِتَبْدِيلِ الْحَيَاةِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا طَرِيقَةً تَسِيرُ لِتَبْدِيلِ الْفِكْرِ. إِنَّمَا لُغَةُ الْقَدَرِ فِي شَيْءٍ هِيَ حَقِيقَةُ هَذَا الشَّيْءِ حِينَ تَظْهَرُ الْحَقِيقَةُ؛ وَكَأَيِّنْ مِنْ حَادِثَةٍ لَا تُصِيبُ أَمْرًا فِي نَفْسِهِ إِلَّا لَتَقَعَ بِهَا الْحَرْبُ بَيْنَ هَذِهِ النَّفْسِ وَبَيْنَ غَرَائِزِهَا. فَتَكُونُ أَعْمَالُ الطَّبِيعَةِ الْمَعَادِيَةِ أَسْبَاباً فِي أَعْمَالِ الْعَقْلِ الْمُنْتَصِرِ.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ الَّذِي يُقْضَى عَلَى الْإِنْسَانِ، لَا يَكُونُ إِلَّا وَسَائِلَ مِنَ الْقَدَرِ يُرَدُّ بِهَا الْإِنْسَانُ إِلَى عَالَمِ فِكْرِهِ الْخَاصِّ بِهِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا عَالَمٌ وَاحِدٌ لِكُلِّ مَنْ فِيهَا، وَلَكِنْ دَائِرَةُ الْفِكْرِ وَالنَّفْسِ هِيَ لِصَاحِبِهَا عَالَمُهُ وَحْدَهُ. وَالسَّعِيدُ مَنْ قَرَّ فِي عَالَمِهِ هَذَا وَأَسْتَطَاعَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِ كَالْمَلِكِ فِي مَمْلَكَتِهِ، نَافِذَ الْأَمْرِ فِي صَغِيرَتِهَا وَكَبِيرَتِهَا؛ وَالشَّقِيُّ مَنْ لَا يَزَالُ ضَائِعاً فِي كُلِّ هَذَا كَالْأَجْنَبِيِّ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ وَغَيْرِ قَوْمِهِ وَغَيْرِ أَهْلِهِ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ يُصْبِحُ أَجْنَبِيًّا عَنِ الْإِنْسَانِ مَا دَامَ هُوَ أَجْنَبِيًّا عَنْ نَفْسِهِ.

لَقَدْ كُنْتُ ضَالًّا عَنْ نَفْسِي وَعَالَمِيهَا، فَكُنْتُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَسْتَشْعِرُ شُعُورَ اللَّصِّ، أَشْيَاؤُهُ هِيَ أَشْيَاءُ النَّاسِ جَمِيعاً؛ وَاللَّصُّ يَنْظُرُ إِلَى أَمْوَالِ النَّاسِ بَعَيْنَيْ شَاعِرٍ مُتَحَبِّبٍ كَلِيفٍ^(٣)، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ بَعَيْنِي مُقَاتِلٍ مَتَرَبِّصٍ حَذِرٍ.

(١) يَتَرَبَّصُ بِهِ: يَتَحَيَّنُ الْفُرْصَ.

(٢) النَّازِلَةُ: الْمُصِيبَةُ الطَّارِئَةُ.

(٣) كَلِيفٌ: عَاشِقٌ.

وَكُنْتُ نَزَقًا^(١) حديدَ أَلطِيعِ سَرِيعِ الْبَادِرَةِ^(٢)؛ وَمَنْ فَقَدَ عَالَمَ نَفْسِهِ وَكَانَ فِي مَثَلِ اللَّصِّ الَّذِي ذَكَرْتُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الطَّبَاعَ تَكُونُ هِيَ أَسْلِحَتُهُ يَدْفَعُ بِهَا أَوْ يَعْتَدِي. وما قَطُّ تَمَكَّنَ إِنْسَانٌ مِنْ نَفْسِهِ وَأَحَاطَ بِهَا وَنَفَذَ فِيهَا تَصَرُّفَهُ؛ إِلَّا كَانَ رَاضِيًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذْ يَتَّصِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِجَهْتِهِ أَلْسَامِيَّةٍ لَا غَيْرَهَا، حَتَّى فِي اتِّصَالِهِ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النَّاسِ وَأَعْدَائِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ؛ فَمَا يَرَى هَوْلًا وَلَا هَوْلًا إِلَّا أَمْتَحَانًا لِفَضَائِلِهِ وَإِثْبَاتًا لَهَا. وَقَدْ يَكُونُ عَدُوُّكَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ عَيْنًا لَكَ فِي رُؤْيَا نَفْسِكَ؛ فَفِيهِ بَرَكَةٌ هَذِهِ الْحَاسَّةُ وَنِعْمَتُهَا.

ولو نحن كُنَّا مُسْلِمِينَ إِسْلَامَ نَبِيِّنَا ﷺ، وَإِسْلَامَ الْمُقْتَدِينَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ - لَأَدْرِكُنَا سِرُّ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ؛ وَهُوَ أَنْ يَقَرَّ الْإِنْسَانُ فِي عَالَمِ نَفْسِهِ وَيَجْعَلَ بَاطِنَهُ كِبَاطِنِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَهِيٍّ، لَيْسَ فِيهِ إِلَّا قَانُونُهُ الْوَاحِدُ الْمُسْتَمَرُّ بِهِ إِلَى جِهَةِ الْكَمَالِ، الْمُرْتَفِعُ بِهِ مِنْ أَجْلِ كَمَالِهِ عَنْ دَوَافِعِ غَيْرِهِ؛ فَتَنْظَرُ الْإِنْسَانُ إِلَى نَقْصِ غَيْرِهِ هُوَ أَوَّلُ نَقْصِهِ. وَالْمُؤْمِنُ كَالْغَصْنِ؛ إِنْ أَثْمَرَ فَتِلْكَ ثَمَارُ نَفْسِهِ، وَإِنْ عَطَلَّ لَمْ يَشْحَذْ وَلَمْ يَحْشُدْ وَأَسْتَمَرَّ يَعْمَلُ بِقَانُونِهِ.

ولقد نشأتُ فِي مَغْرَسٍ^(٣) كَرِيمٍ، عَلَى صُورَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ تُشَبِّهُ صُورَةَ الثَّمَرَةِ الْحُلُوةِ، اجْتَمَعَ لَهَا مِنْ طَبِيعَةِ مَغْرَسِهَا وَمَرْتَبَتِهَا مَا تَتَعَيَّنُ بِهِ مِنْ حِلَاوَةٍ وَنَكْهَةٍ وَمَذَاقٍ؛ فَلَمَّا عَقَلْتُ^(٤) وَعَرَفْتُ النَّاسَ بَعْدَ فَجَارِيَتِهِمْ^(٥) وَخَالَطْتُهُمْ، رَأَيْتُنِي مِنْهُمْ كَالْتَفَاحَةِ مُلْقَاةٍ فِي الْبَصْلِ. وَكَانَتْ أَلْتَفَاحَةُ حُمَقَاءَ فَرَادَتْ حُمَقًا، وَكَانَتْ جَدِيدَةً فَرَادَتْ جِدَةً، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْحِكْمَةَ قَدْ مَسَخَتْ فِي الدُّنْيَا وَبَدَلَتْ إِذْ خَلَقَتِ الْبَصْلَةَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَتِ أَلْتَفَاحَةَ؛ وَمَا عَلِمْتُ أَلْخِرْقَاءَ أَنَّ الْكَمَالَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مَجْمُوعُ نَقَائِصٍ، وَأَنَّ لِلْجَمَالِ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا الَّذِي أَسْمُهُ الْقُبْحُ؛ لَا يَعْرِفُ هَذَا إِلَّا مَنْ هَذَا؛ وَأَنَّ الْبَصْلَةَ لَوْ أَدْرَكْتُ مَا يُرِيدُ النَّاسُ مِنْ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى التَّفَاحَةِ لَسَمَّيْتُ نَفْسَهَا هِيَ التَّفَاحَةَ، وَقَالْتُ عَنْ هَذِهِ إِنَّهَا هِيَ الْبَصْلَةُ!

ولمَّا رَأَتْ تَفَاحَتِي أَنَّهَا عَاجِزَةٌ أَنْ تَجْعَلَ الشَّجَرَ كُلَّهُ فِي مِثْلِ مَرْتَبَتِهَا وَمَغْرَسِهَا - قَالَتْ: إِنَّ الْأَمْرَ أَكْبَرُ مِنْ طَبِيعَتِي، وَمَا دَامَ سِرُّ الْكَوْنِ مُعْلَقًا فَلَا تَعْرِيفَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ

(١) نزقًا: سريع الغضب، طائشًا.

(٢) البادرة: الغضب.

(٣) مغرس: منبت في بيت وعائلة.

(٤) عقلت: أدركت.

(٥) جاريته: ماشيتهم ووافقتهم.

سِرٌّ مغلَقٌ، وَلَيَبْقَى كُلُّ شَيْءٍ فِي طَبِيعَةِ نَفْسِهِ، فَعَلَى هَذَا يَصْلُحُ كُلُّ شَيْءٍ وَلَوْ فِي نَفْسِهِ وَحْدَهَا.

قال أبو محمد: ولكن بقيت وخشة الدنيا وجفوتها، إذ لم أكن أهدئت إلى عالمي، ولا تأكدت عقيدتي بنفسي؛ فكان كل ما حولي منجساً^(١) في رُوحِي بشره، وكأنت الدنيا بهذا كالمطابقة في رأيي على معنى واحد، وزادني أنني كنت رجلاً عزباً متعففاً؛ وما أشبه فراغ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من الذكاء؛ هذا هو العقل البليد، وتلك هي الرجولة أبليدة!

والمرأة تُضاعِفُ معنى الحياة في النفس، فلا جرم كان الخلاء منها مضاعفةً لمعنى الموت؛ عليم هذا من علم وجهله من جهل، فكنت أعيش من الكون في فراغ ميت، وكنت أحس في كل ما حولي وحشة عقلية تُشعرني أن الدنيا غير تامة؛ وكيف تيم في عيني دنيا أراها غير الدنيا التي في قلبي؟

وعرفت أن كل يوم يمضي على الرجل العزب المتعفف لا يمضي حتى يهيء فيه مرض يوم آخر. ومن هذه الأيام المريضة المتهاكة، تُعد الحياة انتقامها من هذا الحي الذي نقض آيتها وأفتات عليها^(٢)، وجعل نفسه كالإله لا زوجة له ولا صاحبة!

وإنم الله إن الشيطان لا يفرح بالرجل الزاني وبالمرأة الزانية ما يفرح بالرجل العزب وبالمرأة العزباء؛ لأنه في ذنك رذيلة في أسلوبها، أما في هذين فالشيطان رذيلة في أسلوب فضيلة...! هناك يلثم الشيطان ويمضي، وهنا يأتي الشيطان ويُقيم!

وقد عشت ما عشت بقلب مغلق وعقل مفتوح؛ وليتني كنت جاهلاً مغلقاً عقله، وكان قلبي مفتوحاً لأفراح هذا الكون العظيم!

ومضت أيامي يضرب بعضها في بعض، ويمرض بعضها بعضاً حتى انتهت مُتتهاها، وجاء اليوم المذنف^(٣) الهالك الذي سيموت.

أصبحت فقلت لنفسي: كم تعيشين ويحك في أحكام جسد مختل لا تصدق أحكامه، وما أنت معه في طبيعتك ولا هو معك في طبيعته؛ فقيم اجتماعكما إلا على بلاني ونكدي^(٤)؟

(١) منجساً: نابتاً.

(٢) افتات عليها: جار عليها في الحكم.

(٣) المذنف: المريض مرضاً ثقيلاً.

(٤) نكدي: سوء حظي.

لم تصطلحاً قط على واجب ولا لذة، ولا حلال ولا حرام؛ فأنتما عدوّان لا همّ لِكليهما إلّا إفساد المسرة التي تَغْرِضُ لِآخر. وما أدري بمن يسخرُ الشيطانُ منكما؟ فالعابدُ الذي يُوسوسُ باللذاتِ يتمنى أقترافها، كالفاجرِ الذي يُواقِعُها ويقتحمُها!

ويحك يا نفس! إنّي رأيتُ هذه الدنيا الخرقاء لم تُقدّم لي إلّا رغيفاً وقالت: إملأ بهذا بطنك وعقلك وعينيك وأذنيك ومشاعرك. آه، آه! مُمكنٌ واحدٌ معه أربعُ مستحيلات؛ إنّ هذا لا يُلِيثُنِي^(١) أن يذهب مني بالأربعة التي تُمسِكُنِي على الحياة: الأمل والعقل والإيمان والصبر.

لقد أَسْتَوَى في هذه الكآبةِ صغيرُ همّي وكبيره، وما أراني إلّا قد أشرفتُ على الهلكة التي لا باقية لها، فإنّ وجهي المتكلِّح^(٢) المتقبّضُ يدُ منّي على أعصابٍ مُحْتَضِرَةٍ نَهَكْتَهَا^(٣) أمراضها ووساوسها، وإنّما وجهُ الإنسانِ في قُطُوبِهِ^(٤) أو تَهْلِيلِهِ هو وجهه ووجهُ دُنياءٍ تَعْبَسُ أو تَبْتَسِمُ.

وتألّه لقد عجزتُ عن كفاح الدنيا بهذه الأعصابِ المريضةِ الواهنة؛ فإنّ جِبَالَةَ الصَّيْدِ - صَيْدِ الوحش - لا تكونُ من خِيطِ الإبرة...! وأراني أصبحتُ كإنسانٍ حَجَرِيّ ليس في طبيعته أَلْتَوَاءٌ إلى يمين الحياة ويسارها؛ ويُخَيَّلُ إليّ من صلابتي أنّي الأسد، ولكنّي أسدٌ من حجر، لا تَفْرِضُ قُوَّتُهُ الْفَرَارَ منه على أحد!

قال أبو محمد: ورأيتُ نفسي في هذا الحوارِ كَالْمَيِّتَةِ، لا تُجِيبُ ولا تَعْتَرِضُ ولا تُنْكِرُ، وكنتُ أَظُنُّهَا تُراوِدُنِي على الحياة أو ترُدُّني عن غَوَايَتِي^(٥)؛ فَمَلَانِي سكونها جَزَعاً، وأيقنتُ أنّ الشيطانَ بيني وبينها، وأنّه أخذَ بِمَنَافِلِهَا، فأردتُ الصلاةَ فَثَقُلْتُ عنها ورأيتُني لا أصلحُ لها، بل خَيَّلَ إليّ أنّي إذا قُمْتُ إلى الصلاةِ فَإِنَّمَا قُمْتُ لِأَتَهَرَّأَ بالصلاة!

وجعلَ الشيطانُ يأخذُنِي عن عقلي ويردُّني إليه، ثُمَّ يأخذُنِي ويردُّني، حتى توهَّمْتُ أنّي جُنِيتُ، وكأنّما كان يُريدُ اللعينُ بَقِيَّةَ إيماني يُجاذِبُنِي فيها وأجاذبه، فلم ألبث أن مسّني خبالٌ وألقيتُ هذه البَقِيَّةَ في يديه!

(١) لا يُلِيثُنِي: لا يغيثني.

(٢) المتكلِّح: المتغير، المصفر.

(٣) نهكتها: أتعبتها.

(٤) قُطُوبِهِ: عبوسه.

(٥) غَوَايَتِي: ضلّالتي.

ثُمَّ أَفْقَتْ إِفَاقَةً سَرِيعَةً، فَرَأَيْتُ (المصحفَ) يَرْقُبُنِي قَرِيباً، فَعُذْتُ بِهِ^(١) وَعَظَّمْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: إِمْنَعِ الضَّرْبَةَ عَنْ قَلْبِي. بَيَّنَّدَ أَنِّي أَحْسَنْتُ أَنَّهُ خَصَمِي فِي مَوْقِفِي لَا ظَهِيرِي؛ كَأَنِّي جَعَلْتُهُ مَصْحَفًا عِنْدَ زَنْدِيقٍ، فَكَانَ كُلُّ إِيْمَانِي الَّذِي بَقِيَ لِي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنِّي ضَعَفْتُ عَنْ حَمْلِ الْمَصْحَفِ كَمَا ثَقُلْتُ عَنِ الصَّلَاةِ، فَبَقِيَ الظَّاهِرُ ظَاهِرًا وَالنَّجِسُ نَجِسًا.

وَلَمْ تَكُنْ نَفْسِي فِيَّ وَلَا كُنْتُ فِيهَا؛ فَرَأَيْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ لَا أَدْرِي مَا هُوَ، غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَعْقُولًا مِنْ تَخَالِيطِ مَجْنُونٍ تَرَكَهُ عَقْلُهُ مِنْ سَاعَةٍ: بَقَايَا شُعُورٍ ضَعِيفٍ، وَبَقَايَا فَهْمٍ مَرِيضٍ، تَتَصَاغَرُ فِيهِمَا الدُّنْيَا، وَتَحَاقَرُ بِهِمَا الْعَقْلُ.

فَلَمَّا أُنْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا لَمْ أَعْقِلْ مَا عَمَلْتُ، وَكَانَتْ أَلْمُوسَى قَدْ أَصَابَتْ مِنْ يَدِي عِزْقًا نَاشِرًا^(٢) مُنْتَبِرًا، فَفَارَ الدَّمُ وَأَنْفَجَرَ مِنْهُ مِثْلُ الْيَنْبُوعِ ضَرِبَ عَنْهُ الصَّخْرُ فَانْبَسَقَ فَانْبَسَقَ.

وَتَحَقَّقْتُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ الْمَوْتُ فَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ

قَالَ الْمَسِيبُ رَاوِي الْقِصَّةِ: وَتَجَهَّمُ وَجْهَ الرَّجُلِ فَاطْرَقَ وَسَكَتَ، وَكَانَ عَلَى وَجْهِهِ شَفَقٌ مُخَمَّرٌ فَاطْلَمَ بَغْتَةً عِنْدَ مَا قَالَ: «فَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ».

وَأُرْتِجَ الْمَسْجِدُ بِصَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ: فَرَأَيْتُ مَاذَا؟ رَأَيْتُ مَاذَا؟

وَبَعَثَتِ الصَّيْحَةُ أَبَا مُحَمَّدٍ فَقَالَ: رَأَيْتُ ثَلَاثَةَ وُجُوهِ أَشْرَفَتْ مِنَ الْمَصْحَفِ تَنْظُرُ إِلَيَّ كَالْعَاتِبَةِ، وَكَانَ أَوْسَطُهَا كَالْقَمَرِ الطَّالِعِ، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ الْجَنَّةِ كُلُّهَا وَجْهًا لَكَانَتْهُ فِي نَضْرَتِهِ وَبِشَاشَتِهِ. وَغَمَغَمَتِ^(٣) الْوُجُوهُ الثَّلَاثَةُ بِكَلِمَاتٍ لَمْ أَسْمَعْ مِنْهَا شَيْئًا، وَلَكِنْ نَظَرَهَا إِلَيَّ كَأَن يُوْذِي لِي مَعَانِيَهَا، وَكَأَنَّهُا تَقُولُ: «أَكْذَلِكِ الْمُؤْمِنُ . . . ؟».

ثُمَّ غَابَتْ وَتَخَلَّتْ عَنِّي وَبَرَزَتْ ثَلَاثَةُ وُجُوهِ أُخْرَى، كَأَنَّهَا نَقَاضُ تِلْكَ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَوْسَطُهَا، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ الْجَحِيمِ كُلُّهَا وَجْهًا لَكَانَتْهُ فِي نُكْرِهِ وَهَوْلِهِ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ الْوَجْهَ الْأَصْغَرَ مِنْهَا وَجْهَ سُورَةِ مِنْ سُورِ الْمَصْحَفِ، فَفَكَّرْتُ، فَوَقَعَ لِي مِمَّا قَامَ فِي نَفْسِي مِنَ اللَّعْنَةِ أَنَّهَا: «تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبٍ وَتَبَّ» . . .

(١) عذت به: لجأت إليه.

(٢) ناشراً: نافراً.

(٣) غمغمت الوجوه بانت عن ذعر وخوف.

وَطَمَسَ^(١) الظلام هذه الرؤيا وتَغَيَّمَت الدنيا، فأيقنْتُ أَنَّ آتامي قد أَقْبَلْتُ عليَّ ظُلْمَةً بعدَ ظُلْمَةٍ، وأَلْتَمَعَ شيءٌ أَحْمَر، فنظَرْتُ فإذا الدَّمُ يتخايلُ في عينيَّ كأنَّهُ شَعْلٌ تَلَوَّى، فجزَعْتُ أَشَدَّ الجزع، وحسبْتُها طرائقَ ممتدَّة لِرُوحِي تذهبُ بها إلى الجحيم . ومائتُ كُلَّ خواطري بعدَ ذلك إلا فكرةً واحدةً بقيتَ حيَّةً تَأْكُلُ في قلبي أَكْلَ النار، وهي: «كيفَ تجرأتُ فوضعتُ بيني وبينَ اللَّهِ حُمُقي؟» .

ويقولون: إِنَّ أختي قد رَأَتْني أَتَشَحَّطُ^(٢) في دمي فصاحت، وجاءَ الناسُ على صوتِها، وكانَ فيهم طبيب، فبعدَ لأي ما، أَستطاعَ حَبْسَ الدم، وأحتالَ حيلَتُهُ حتى أَسَفَّ^(٣) الجُرحَ دواءً وَضَمَدَهُ؛ فجعلتُ أَثُوبُ نَفْساً بعدَ نَفْسٍ، وراجعتُ قليلاً قليلاً . . . ثم طافَتِ الحَياءُ على عينيَّ ففتَحْتُها، فإذا الأشياءُ تبدو لي وليسَ فيها حقائقٌ ولا معانٍ، كأنَّها تَتَخَلَّقُ^(٤) جديدةً تحتَ بصري، وكأنَّها خارجةٌ لِإِسعائها من يدِ اللَّهِ! وتماثلتُ شيئاً بعدَ ساعات، فأحسستُ أَنَّ نفسي قد رجعتُ إليَّ ساحرةً مُني تقولُ: كيفَ رَأَيْتَ العَمَلَ العقلِ أَيُّها العاقلُ؟

وبدأتَ الحَياءُ تتجددُ، فأقسمتُ بيني وبينَ نفسي أَنَّ أَجَدَدَ إيماني بِاللَّهِ . ولم أَكُذْ أَفْعَلُ حتى أَحسستُ أَنَّ قُوَّةَ الوجودِ كُلِّها مستقرَّةٌ في رُوحِي، وَخَيْلٌ إليَّ أَنِّي أَنَا وحدي أَلْقَوِي على هذه الأرضِ قُوَّةَ جِبَالِها وصخورِها، على حينَ كانَ جسمي ممدداً كالْمِيتِ لا يَتَماسَكُ مِنَ الضعفِ!

فأيقنْتُ حينئذٍ ما أَعْرِفُهُ قَطُّ مِنَ الدنيا ولم أشعرَ به قَطُّ في الحَياءِ ولم يَأْتِنِي بِهِ عِلْمٌ ولا فكرٌ: أيقنْتُ أَنَّها مُعْجَزَةُ الإِيمانِ الجَدِيدِ الغَضِّ^(٥)، المَتَّصِلِ بِاللَّهِ لِتَوْهٍ كإِيمانِ الأنبياءِ دونَ أَنْ تَلْمَسَهُ شهوةٌ، أو تُعَرِّضَهُ خاطرةٌ، أو تُكْذِرَهُ ذَرَّةً واحدةً من فكرٍ أَرْضِي دَنَسَ .

قالَ المَسِيَّبُ: ثُمَّ جَلَسَ المَتَحَدِّثُ، وكانَ الناسُ في آخِرِ كَلامِهِ كأنَّما غادروا الدنيا ساعةً، ورجعوا إليها على مِثْلِ حالَتِهِ ومِثْلِ إيمانِهِ؛ فَسَكَتَ الإِمامُ ولم يتكلم، ليدعَ كُلَّ نَفْسٍ تُكَلِّمُ صاحبَها .

(١) طمس: غطى .

(٢) أتشخط: أتخبط .

(٣) أسف: أسعف الجرح بوضع الدواء فيه لينقطع .

(٤) تتخلق: تبدو على هيئة جديدة .

(٥) الغض: الطريء .

الانتحار

٥

قال المسيَّب بن رافع: وأطرق الناس قليلاً بعدَ خَبَر (أبي محمد البُضري)؛ إذ كان كلُّ منهم قد جَمَعَ باله لِمَا سَمِعَ، وأخذ يَحْدِثُ^(١)، في نفسه ويُراجِعُها الرأْيَ، وكان المجلسُ قد أَمْتَدَّ بنا منذُ العَصْرِ وما يكادُ النهارُ يُشْعِرُنَا بِإِدْبَارِهِ، حتى أَعْتَرَضَتْ في شَمْسِهِ الغُبرَةُ التي تَعْتَرِيها إذا دَنَتْ أَنْ تَغْرُبَ. وكانَ إلى يساري فتى رِيَّانُ الشَّبَابِ، حَسَنُ الصُّورَةِ، وَضِيءُ مُشْرِقٍ، لَهُ هَيْئَةٌ وَسَمْتٌ، أَقْبَلَ عَلَيَّ الْآيَّامَ، وَأَقْبَلَ الْآيَّامَ عَلَيْهِ.

فسمعتني أطنُّ على أُذُنِ (مجاهد الأزدِي)؛ وكثتُ أعرِفُه شاعراً في كلامِهِ وشاعراً في قلبِهِ؛ فقلْتُ لَهُ: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ النِّهَارِ يَا مُجَاهِدُ إِلَّا مِثْلُ صَبْرِ الْمُحِبِّ دَنَا لَهُ الْوَعْدُ؛ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا مِثْلُ مَا تَتَلَفَّفُ صَاحِبَتُهُ، تَأْخُذُ عَلَيْهَا ثَوْبَهَا وَغُلَّائِلَهَا، وَلَكِنْ بَعْدُ أَنْ تُسْقِطَهَا مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا، لَتَرَى جَمَالَ جَسَمِهَا هُنَا وَهُنَا!

فَاهْتَزَّ الْفَتَى لِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَسَالَتْ الرُّقَّةُ فِي أُعْطَافِهِ، وَقَالَ: يَا عَمَّ، أَمَا تَرَى مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ كَأَنَّهُ وَجْهُ بَالِكٍ مَسَحَ دُمُوعُهُ وَلَيْسَ حَوْلَهُ إِلَّا كَابَةُ الزَّمَنِ...؟

قلْتُ: كَأَنَّ لَكَ خَبْرًا يَا فَتَى، فَإِنْ كَانَ شَأْنُكَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ فَقَضُّهُ عَلَيْنَا وَعَلَّلْنَا بِهِ سَائِرَ الْوَقْتِ إِلَى أَنْ تَجِبَ الشَّمْسُ، وَلَعَلَّكَ طَائِرٌ بَنَّا طَيْرَةً فَوْقَ الدُّنْيَا.

قال: فَمَهْ^(٢)؟

قلت: تَقُومُ فَتَتَكَلَّمُ، فَإِنِّي أَرَى لَكَ لِسَانًا وَبَيَانًا.

قال: أَوْ يَخْسُنُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ عَنْ صَرْعَةِ الْحُبِّ وَصَرِيْعِهِ، وَعَاشِقِهِ وَعَاشِقٍ؟

(١) يَحْدِثُ: يَفْكَرُ وَيُغَلِّبُ فِكْرَهُ عَلَى فِكْرِهِ.

(٢) مَهْ: اسْمُ فِعْلٍ أَمْرٍ بِمَعْنَى أَسْكُتْ.

فبادر مجاهد فقال: ويحك يا فتى! لقد تحجرت واسعاً؛ إنَّ المؤمن ليصلي بين يدي الله وكتاب سيئاته في عنقه منشور مقروء. وهل أوقات الصلاة إلا ساعات قلبية لكل يوم من الزمن، تأتي الساعة ممَّا قبلها كما تأتي توبة القلب ممَّا عمل الجسم؟ إنَّما يتلقى المسجد من يدخله لساعته التي يدخله فيها، ولو أنَّه حاسبه عن أمس وأول منه وما خلا من قبل، لطردة من العتبة! إنَّ المسجد يا بُنيَّ إنَّما يقول لداخله: أدخل في زمني ودع زمناك، وتعال إليَّ أيُّها الإنسان الأرضي، ليتحقَّق أنَّ فيك حاسة من السماء، وجثني بقلبك وفكرك، ليَشعرا ساعة أنَّهما فيَّ لا فيك. ولنا الآن يا بُنيَّ في مُتحدِّث كُندي القوم يتطارحون فيه أخبارهم، بل نحن في مجلس عالم تكلمت فيه رقة هذا ورقبة هذا بما سمعت؛ فقم أنت فأذكر علم قلبك وقص علينا خبر طيش الحب والشباب الذي يشبه الكلام فيه أن يكون كلاماً عن الصعود إلى القمر والقبض من هناك على البرق!

قال المسيب: فأنتهض الفتى، ورأيت مجاهداً يتنهَّد كأنما أنصدعت^(١) كبده: فقلت: ما بالكَ؟ قال: إنَّ شبابي قد مرَّ عليَّ الساعة فتسمت منه في برودة^(٢) هذا الفتى، ثم فقدته فقدأ ثانياً فهرمتُ هَرماً ثانياً، وجاءني الحزن من إحساسي بأنِّي شيخ، حزن من هم أن يدخل باب حبيب ثم رُدّ....!

وتحدَّث الفتى، فإذا هو يدير بين فكَّيه لسان شاعر عظيم، يتكلَّم كلامه بنفسين: إحداهما بشرية تصنع المعنى والألفظ، والأخرى علوية تُلقِي فيها النار والنور.

قال: إنَّ لي قصة أيُّها الشيخ، لم يبقَ منها إلا الكلام الذي دُفئت فيه معانيها؛ وقد تأتي القصة من أخبار القلب مُفعمَّة بالآلام والأحزان، لا يراذ بالآلام وأحزانها إلا إيجاد أخلاقٍ للقلب يعيش بها ويتبدل. والذي قدَّر عليه الحب لا يكون قد أحبَّ غيره أكثر ممَّا يكون قد تعلَّم كيف ينسى نفسه في غيره، وهذه كما هي أعلى درجات الحب؛ فهي أعلى مراتب الإحسان.

ومنى صدق المرء في حبه كأنَّ فكرته فكرتين: إحداهما فكرة، والأخرى عقيدة تجعل هذه الفكرة ثابتة لا تتغيَّر؛ وهذه كما هي طبيعة الحب فهي طبيعة الدِّين.

(٢) برودة: ثوب.

(١) أنصدعت: تحطمت، تكسرت.

ولا شيء في الدنيا غير الحب يستطيع أن ينقل إلى الدنيا ناراً صغيرة وجنة صغيرة، بقدر ما يكفي عذاب نفس واحدة أو نعيمها! وهذه حالة فوق البشرية.

والفضائل عائماتها تعمل في نقل الإنسان من حيوانيته، وقد لا تنقل إلا أقله ويبقى في الحيوانية أكثره: ولكن الحب الصادق يقتلع الإنسان من حيوانيته بمرّة واحدة، بيد أنه لا يكون كذلك إلا إذا قتلته بالأمه؛ فهو كأعلى النسك والعبادة.

كَانَ حَبْرِي أَنِّي دُعِيتُ يَوْمًا إِلَى مَا يُدْعَى لِمِثْلِهِ الشَّبَابُ فِي مَجْلِسٍ غِنَاءٍ وَشَرَابٍ. يَا لَهُ مِنْ مَجْلِسٍ! وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، والبعوضة في قصتي أنا كَانَتْ أَمْرًا نَصْرَانِيَّةً. قَيْنَةُ^(١) فَلَانِ الْمَغْنِيَّةِ الْحَادِثَةُ الْمُخْسِنَةُ الْمَتَادِبَةُ، تَحْفَظُ الْخَبَرَ وَتُرْوِي الشَّعْرَ، وَتَتَكَلَّمُ بِالْفَاطِ فِيهَا خِلَاوَةً وَجْهَهَا، وَتَخْلُقُ الثَّكَّةَ إِذَا شَاءَتْ خَلَقَ الزَّهْرَةُ الْمَتَفَتِّحَةَ عَلَيْهَا، سَقِطُ النَّدَى؛ وَتَجِدُ بِالْحَدِيثِ مَا شَاءَتْ وَتَهْزُلُ، فَتَجْعَلُ لِلْكَلامِ عَقْلًا وَشَهْوَةً تُضَاعِفُ بِهِمَا مَنْ تَحَدِّثُهُ فِي شَهْوَاتِهِ وَعَقْلِهِ!

وَسَتَجْرِي فِي قِصَّتِهَا أَلْفَاظُ الْقِصَّةِ نَفْسِهَا، لَا أَتَانُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَتَذَمُّ؛ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ الْخَمْرَ بِلَفْظِ الْخَمْرِ وَلَمْ يَقُلْ: «الْمَاءُ الَّذِي فِيهِ الشُّكْرُ»، وَوَصَفَ الشَّيْطَانَ وَلَمْ يَقُلْ: «الْمَلَكُ الَّذِي عَمِلَ عَمَلُ الْمَرْأَةِ الْحَسَنَاءِ فِي تَكْبِيرِهَا»، وَذَكَرَ الْأَصْنَامَ بِأَنَّهَا الْأَصْنَامُ، وَلَمْ يُسَمِّهَا: «حَامِلَةُ السَّمَاءِ الَّتِي يَصْنَعُهَا الْإِنْسَانُ بِيَدَيْهِ» وَحِكَايَةُ مَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ هِيَ كَلَامٌ يَقْبَلُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَيَلْتَزِمُ وَيَتَعَانَقُ!

قَالَ الْمَسِيبُ: فَتَبَسَّمَ إِمَامُنَا وَنَظَرَتْ عَيْنَاهُ تَسْأَلَانِ سَوَالًا. أَمَّا مُجَاهِدُ الْأَزْدِيُّ فَكَانَ مِنْ هَزَّةِ الطَّرَبِ كَأَنَّهُ عَلَى قَتَبٍ بَعِيرٍ، وَقَالَ: لِلَّهِ دَرَّةٌ فَتَى، إِنَّ هَذَا لَيَبَانٌ كَحَيْلِ الْعَيْنِ...

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى: وَذَهَبْتُ إِلَى الْمَجْلِسِ وَقَدْ جَعَلْتُهُ هَذِهِ الْمَغْنِيَّةُ مِنْ حَوَاشِيهِ وَأَطْرَافِهِ كَأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لَهَا هِيَ. أَمَّا هِيَ فَجَعَلَتْ نَفْسَهَا تَفْسِيرًا لِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ: «اللَّذَّةُ...»

قَالَ الْمَسِيبُ: وَطَرِبَ مُجَاهِدٌ طَرَبًا شَدِيدًا، وَسَمِعْتُهُ يُخَافِثُ بِصَوْتِهِ يَقُولُ: «لِلَّهِ دَرُّهَا أَمْرًا؛ هَذِهِ، هَذِهِ عَدْوَةُ الْخُورِ الْعَيْنِ!».

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى: وَتَطَرَّبَ جَمَاعَةُ أَهْلِ الْمَجْلِسِ إِلَى الشَّرْبِ، وَمَا ذُقْتُ خَمْرًا

(١) قينة: أمة، بفتح الميم.

قطّ، ولن أذوقها ولو شربها الناس جميعاً، ولن أذوقها ولو أنقطع الغيث ولم تنمطر السماء إلا خمرأ؛ فإني مُذْ كُنْتُ يافعاً رأيتُ أبي يشربها، وكانت أمي تلومهُ فيها وتشتدُّ في تعنيفه وتحتدِّم^(١)، وكانا يتشاحنان^(٢) فينالها بالأذى ويَنذري^(٣) عليها بالسبِّ وفُحش القول. وسَكِرَ مرةً وغلبهُ السكرُ حتى ثارت أحشاؤه، فذَرَعَهُ^(٤) القَيءُ فتوهَّمَنِي وعاء، وجاء إليّ وأنا جالسٌ فأمسك بي وقاء في حجري، حتى أفرغ جوفهُ؛ وثارت أمي لِتَنزِعَهُ وأنشأت تُعالجُهُ عني فتصارَعَ جنونُهُ وعقلها حتى كَفَّاتَهُ^(٥) على وجهه كالإناء؛ فالتوى كالحية بطناً لظُهر، وأستجمع كالقُنْفِذِ في شوكه، ثم لَكَرَها برجله أسفل بطنها فأنقلبَت، وأصاب رأسها إِجَانَةً^(٦) العجين فتشَلَّم^(٧) تثليماً أَلِيناً كأنما شُدِّحَ^(٨) ضرباً بحجر، وانتَثَر دماغها على الأرض أمام عيني، ورأيتها لم تزد على أَنْ دَفَعَتْ بإحدى يديها في الهواء، وضمت بالأخرى إلى صدرها، تتوهَّم أنَّها تحميني وتدفعهُ عني؛ ثُمَّ سَكَتَتْ، ولو لم تمت مِن الشَّجَّةِ في رأسها لماتت مِن الضربة في بطنها!

قال المسيب: وأطرقَ ألفتى هُنيهةً وأطرقَ الناسُ معه؛ فرفعَ مُجاهدٌ صوته وقال: رَحِمَهَا اللهُ! فقالَ الناسُ جميعاً: رَحِمَهَا اللهُ.

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى: وَكَانَ عَامَّةٌ مَن فِي الْمَجْلِسِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ مِنِّي، وَيَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَوْ سَاعَ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَشْرِبَ دَمَ أُمِّهِ مَا شَرِبْتُ أَنَا الْخَمْرَ، فَقَالُوا لِلْمَغْنِيَةِ: إِنَّ هَذَا لَا يَدْخُلُ فِي دِيوَانِنَا^(٩) فَنظَرْتُ إِلَيْهِ، وَهَرَبْتُ أَنَا مِنْ نَظَرِهَا بِإِطْرَاقَةٍ؛ ثُمَّ قَالَتْ: تَشْرَبُ عَلَى وَجْهِهِ؟ فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ وَجْهَكَ يَقُولُ لِي: لَا تَشْرَبِ... فَتَضَاحَكْتُ وَقَالَتْ: أَهْوِ يَقُولُ لَكَ غَيْرَ مَا يَقُولُ لِهَؤُلَاءِ؟ فَهَرَبْتُ مِنْ كَلَامِهَا بِإِطْرَاقَةٍ أُخْرَى، وَوَصَلَتْ إِلَى إِطْرَاقَتَيْنِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ قَلْبِي؛ وَتَبَّعَتْ فِيهَا مِثْلُ حُنُوِّ الْأُمِّ عَلَى طِفْلِهَا إِذَا أَذَنَّهُ بِلِسَانِهَا فَاطْرُقَ سَاكِتاً يَشْكُوها إِلَى قَلْبِهَا!

وَأَلْتَفَتْتُ لِمَنْ حَضَرَ وَقَالَتْ لَهُمْ: لَسْتُ أَطِيبُ لَكُمْ وَلَا تَنْتَفِعُونَ بِي إِلَّا أَنْ

(١) تحتدِّم: تشتدُّ.

(٢) يتشاحنان: يتشاجران.

(٣) يَنذري: تشفق.

(٤) ذَرَعَهُ: يندفع ويعنف.

(٥) شُدِّحَ: ضرب رأسه.

(٦) إِجَانَةً: فاجأه.

(٧) تشَلَّم: إنه تعبير قديم العهد، يريدون به الشرب كأنه

(٨) كَفَّاتَهُ: قلبه.

ديوان ملك.

تَشْرَبُوا لِي وَلَهُ وَلِأَنْفُسِكُمْ، وَأَنْحِطْ عَلَيْهِمُ السَّاقِي، فَشَرَبُوا أَرْطَالاً وَأَرْطَالاً، وَهِيَ بَيْنَ ذَلِكَ تُغْنِيهِمْ وَقَدْ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِمْ وَخَلَا وَجْهَهَا لَهُمْ مِنْ دُونِي وَإِنَّمَا تُخَالِسُنِي^(١) النَّظْرَةَ بَعْدَ النَّظْرَةِ.

فوسوس لي شيطاني أَنْ تَشُدَّزَ مع هذه بِمِثْلِ عَزَمَتِكَ مَعَ الْخَمْرِ فَإِنَّمَا هُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ. وَلَكِنِّي كُنْتُ أَحْذُ النَّظْرَ^(٢) إِلَيْهَا، فَمَرَّةً أَوَامِقُهَا نَظْرَةُ الْمُحِبِّ لِلْحَبِيبِ، وَمَرَّةً أَغْضِي عَنْهَا بِنَظْرَةٍ لَا تَنْظُرُ؛ وَكَأَنِّي بِذَلِكَ كُنْتُ أَخْذُهَا وَأَدْعُهَا، وَأَصِلُّهَا وَأَهْجُرُهَا. فَقَالَتْ لِي كَالْمُنْكَرَةِ عَلَيَّ: مَا بِأَلْكَ تَنْظُرُ إِلَيَّ هَكَذَا؟ وَلَكِنْ هَيْئَةً وَجْهَهَا جَعَلْتَ الْمَعْنَى: لَا تَنْظُرْ إِلَيَّ إِلَّا هَكَذَا...!

وَأَسْرَعَ الشَّرَابُ فِي الْقَوْمِ وَأَفْرَطَ عَلَيْهِمُ السُّكْرُ؛ فَبَقِيَتْ لِي وَحْدِي وَبَقِيَتْ لَهَا وَحْدَهَا؛ ثُمَّ تَنَاوَلَتْ عَوْدَهَا وَضَمَّتْهُ إِلَيْهَا ضَمًّا شَدِيداً أَكْثَرَ مِنْ الضَّمِّ... وَالْمَسْتَهْ صَدَرَهَا وَنَهَدِيهَا، ثُمَّ رَنَتْ إِلَيَّ بِمَعْنَى، فَمَا شَكَّكَتُ أَنَّهَا ضَمَّتْ لِي أَنَا وَالْعَوْدَ؛ ثُمَّ غَنَّتْ هَذَا الصَّوْتُ:

أَلَا قَاتَلَ اللَّهَ الْحَمَامَةَ غُدُوَةً عَلَى الْغَصَنِ؛ مَاذَا هَيَّجَتْ حِينَ غَنَّتِ؟
فَمَا سَكَنَتْ حَتَّى أَوْنَتْ لِصَوْتِهَا وَقُلْتُ: تُرَى هَذِي الْحَمَامَةُ جُنَّتِ؟

وَمَا وَجَدُ أَعْرَابِيَّةٍ قَدَفَتْ بِهَا صُرُوفُ النَّوَى^(٣) مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكْ ظَنَّتِ...
إِذَا ذَكَرَتْ مَاءَ الْعِضَاءِ^(٤) وَطَيْبَهُ وَبَرَدَ الْجَمَى مِنْ بَطْنِ خَبْتِ^(٥)، أَرْنَتْ^(٦)
بِأَكْثَرِ مَنِي لَوْعَةٍ، غَيْرَ أَنَّنِي أَجْمَجُمُ أَحْشَائِي عَلَى مَا أَجُنَّتِ^(٧)!
وَعَثَّتْهُ غِنَاءٌ مِنْ قَلْبٍ يَشُنُّ، وَصَدْرٍ يَنْتَهَدُ، وَأَحْشَاءٌ لَا تُخْفِي مَا أَجُنَّتْ^(٨)؛
وَكَأَنَّهُ تَرْتَفِعُ بِالصَّوْتِ ثُمَّ كَأَنَّمَا يَهْمِي^(٩) أَلْدَمَعُ عَلَى صَوْتِهَا، فَيَرْتَعِشُ وَيَتَنَزَّلُ قَلِيلاً
قَلِيلاً حَتَّى يَشُنَّ أُنِينَ الْبَاكِيةِ، ثُمَّ يَعْتَلِجُ^(١٠) فِي صَدْرِهَا مَعَ الْحُبِّ، فَيَتَرَدَّدُ عَالِياً
وَنَازِلاً، ثُمَّ يَرْفُضُ الْكَلَامَ فِي آخِرِهِ دَمَوْعاً تَجْرِي.

- | | |
|--|---|
| (١) تخالسنِي: تسارقني. | (٦) أَرْنَتْ، نَشَطَتْ. |
| (٢) أَحْذُ النَّظْرَ: أَمَعِنُ النَّظْرَ. | (٧) أَجْمَجُمُ: أَخْفِي شَيْئاً فِي صَدْرِي. |
| (٣) صُرُوفُ: مَصَائِبُ. النَّوَى: الْبَعْدُ. | (٨) أَجُنَّتْ: مِنْ أَجْنِ الثَّوْبِ إِذَا دَقَّ. |
| (٤) الْعِضَاءُ: ضَرْبٌ مِنَ الشَّجَرِ، ذُو أَشْوَاك. | (٩) يَهْمِي: يَنْهَمِرُ. |
| (٥) خَبْتٌ: اسْمُ مَكَانٍ. | (١٠) يَعْتَلِجُ: يَخْتَلِجُ. |

قال المسيب: فنظر إليّ مُجاهدٌ وقال: عدوةُ الجنة - واللّه - هذه يا أبا محمد، لا تقبلُ الجنةَ مَنْ يكونُ معها. تقولُ له: كنتَ معَ عدوتي!

ثم قال الفتى: وكان القومُ قد أُنشَوا، فاعتراهم نصفُ النومِ وبقي نصفُ اليقظة في حواسهم، فكلُّ ما رأوه مثلاً رأوه كأحلام لا وجودَ لها إلا خلفَ أجفانهم المُثقلة سُكراً ونعاساً. ووثبتَ المغنيةُ فجاءت إلى جانبي وألتصقت بي، وأسرعَ الشيطانُ فوسوسَ لي: أن أحذرُ فإنك رجلٌ صدق، وإذا صدقتَ في الخمرِ فلا تكذبُ في هذه، ولئن مسستها إنها لضياحك آخرَ الدهر!

فعجبتُ أشدَّ العجبِ أن يكونَ شيطاني أسلمَ وأعنتُ عليه كما أعينَ الأنبياءُ على شياطينهم. ولكنَّ اللعينَ مضى يضدني عن المرأةِ دونَ معانيها، وكان مني كالذي يُدني الماءَ من عيني القليلِ الملتهبِ جوفهُ ثم يجعلهُ دائماً قوتَ فيه، ولقد كنتُ مِنَ الفُحولةِ بحيثُ يبدو لي من شدةِ الفُورةِ في دمي وشبابي أنني أجمعُ في جسمي رجالاً عدةً، ولكنَّ ضربي الشيطانُ بالخجلِ فلم أستطعُ أن أكونَ رجلاً معَ هذه المرأةِ.

وعجبتُ هي لذلك وما أسرعَ ما نطقَ الشيطانُ على لسانها بالموعظةِ الحسنة...! فقالتُ أحبتك ما لم أحبَّ أحداً، وأحببتُ خجلَك أكثرَ منك، فما يسرني أن تأثمَ في فتدخلَ النارَ بحبي، ولو أنك أبتعتني من مولاي؟ فقلتُ: بكم أشتراك؟ قالت: بألفِ دينار! قلتُ: وأين هي مني وأنا لو بغتُ نفسي ما حصلتُ لي؟

فتممَ الشيطانُ موعظته، وقالتُ وأشارت إلى قلبها: إنَّ قلبي هذا قبلكَ غنياً كنتُ أو فقيراً، وأحسُّ بك وحدك حُبَّ العذراءِ أولَ ما تُحب، وأنا - كما تراني - أعيشُ في السيئاتِ كالْمُكرهةِ عليها، فسأعملُ على أن تكونَ أنتَ حَسَنَتِي عندَ الله، أذهبُ إليه حاملةً في قلبي حُبِّي إياك وعِفَّتِي عنك، ولئن كانتَ عِفَّةٌ مَنْ لا يشتهي ولا يجدُ تُعدُّ فضيلةً كاملةً، إنَّ عِفَّةً مَنْ يجدُ ويشتهي لتُعدُّ ديناً بحاله. ولا يزالُ حبي بكرةً، ولا أزالُ في ذلكَ عذراءَ القلبِ، وهؤلاءِ قد نزعوا الحياءَ عني من أجلِ أنفسهم، فالبسني أنتَ من أجلكَ خاصّةً؛ وإنَّ قوةَ حُبِّي كالذي سيتألمُ بك ويتعذبُ منك لِطولِ ما يصبرُ عنك، ستكونُ هي بعينها قوةً لفضيلتي وطهارتي.

ثُمَّ تناولت عودها وسوّته وغثت:

فلو أنّا على حَجَرٍ دُبَحْنَا جَرى الدَمَيانِ بالخبرِ اليقين^(١)
وجعلت تتأوّه في غنائها كأنّها تُذبح ذبحاً، ثُمَّ وضعت العودَ جانباً وقالت: ما
أشقاني! إذا أتفتّت لي ساعةٌ زواجي في غير وقتها فجاءت كالْحُلُمِ يأتي بخيالِ
الزمنِ فلا يكونُ فيه من الأشياءِ إلّا خيالُ الأشياءِ.

ثُمَّ سألتني: ما بالك لم تشربِ الخمرَ ولم تدخلِ في الديوان؟ فبدرَ شيطاني
المؤمن... وساقَ في لِساني خبرَ أُمِّي وأبي، فانتصحتَ عيناها باكيةً وتمّ لها رأيي
في كرايي أنا في المسكر؛ وكانَ شيطانها بعدَ ذلك شيطانا خبيثاً مع أصحابها،
وطريقاً زاهداً معي أنا وحدي!

ورأيتها لا تُجالسني إلّا مُتزايلةً^(٢) كالعذراءِ الخفراءِ إذا انقبضتَ وغطّت
وجهها، وصارت تخافني لأنّها تُحبنى، وهَيَّيَ الشيطانُ إليها فعاذت لا ترى في
الرجل الذي هو تحتَ عينيها التَّيِّبِينَ... ولكنَّ القديسَ الذي تحتَ قلبها البكرَ.

ولم تغدُ جمالي هو الذي يُعجبها ويُضيقها، بل كانَ يُعجبها مِنِّي أني صنعةٌ
فضيلتها التي لم تصنع شيئاً غيري....

وانطلقَ الشيطانُ بعدَ ذلك فيّ وفيها بداهته وخُنكتِه وبكلِّ ما جَرَّبَ في النساءِ
والرجالِ من لَذَنِ آدَمَ وحواءَ إلى يومي ويومها!... فكانَ يجذبني إليها أشدَّ
الجذبِ، ويدفعها عني أقوى الدفعِ، ثم يُغريني بكلِّ رذائلها ولا يُغريها هي إلّا
بفضائلي. وألقى منها في دمي فكرةً شهوةً مجنونةً متقلّبةً، وألقى مِنِّي في دميها فكرةً
حكيمَةً رزينَةً مستقرّةً. وكنتُ ألقاها كلَّ يومٍ وأسمعُ غناءها؛ فما هو بالغناءِ ولكنتُه
صوتُ كلِّ ما فيها لكلِّ ما فيّ، حتى لو أنصتَ جسمُها بجسمي وسارَ البدنُ البدنُ،
وهمسَ الدَّمُ للدَّمِ، لكانَ هو هذا الغناء الذي تُغنيه.

وأصبحتُ كلِّما استقمتُ لحبّها تَلَوْتُ عَلَيَّ؛ إذ لستُ عندها إلّا الأملُ في المغفرةِ
والثوابِ، وكأثما مُسَخَّتْ حَبْلًا طوله من هنا إلى الجَنَّةِ لتتعلّقَ به. وعادَ أمتناعُها مِنِّي
جنوناً دينياً ما يُفارِقُها، فأبتلاني هذا بمثلِ الجنونِ في حُبّها من كَلَفٍ^(٣) وشغفٍ.

(١) من جميل أساطير العرب، أنه إذا قتل اثنان معاً في وقت واحد وجرى دمياهما والتقيا أنهما
متحابان، فإذا جرى دمياهما باتجاهين متعاكسين أنهما متشاحنان.

(٢) متزايلة: منحازة.

(٣) كلف: شغف: شديد الحب.

وأنحصرت نفسي فيها، فرجعت معها أشدَّ غباوةً من الجاهل ينظرُ إلى مدَّ بصره من الأفق فيحكم أنَّ ههنا نهايةَ العالم، وما ههنا إلا آخرُ بصره وأولُ جهله. وأنفلت مني زمامُ روحي، وأنكسر ميزانُ إرادتي، وأختلَّ استواءُ فكري، فأصبحتُ إنساناً من النقائص المتعادية أجمع اليقين والشك فيه، والحب والبغض له، والأمل والخيبة منه، والرغبة والعزوف عنها، وفي أقل من هذا يخطفُ العقل، ويتدلَّه من يتدلَّه.

ثم أبليت مع هذا اللَمِّ^(١) بجنون الغيظ من أبتذليها لأصحابها وعفيتها معي، فكنتُ أطيأُ قطعاً بين السماء والأرض، وأجدُ عليها وأتنكرُ لها، وهي في كل ذلك لا تزيدني على حالة واحدة من الرهبانية؛ فكانَ يطيرُ بعقلي أن أرى جسمها ناراً مشتعلة، ثم إذا رُمته أستحال ثلجاً، وقَرَحَت الغيرةُ قلبي وفشَّت كيدي من عبادة الشيطان مع الجميع، الراهبة مع رجل واحد فقط!...

ورجعت خواطري فيها ممَّا يُعقل وما لا يُعقل؛ فكنتُ أرى بعضها كأنه راجع من سفرٍ طويل عن حبيب في آخر الدنيا، وبعضها كأنه خارج من دارٍ حبيب في جوارى، وبعضها كأنه ذاهب إلى المارستان...^(٢)

ورأيتنا كأننا في عالمين لا صلةَ بينهما، ونحن معاً قلباً إلى قلب، فذهب هذا بالبقية التي بقيت من عقلي، ولم أر لي منجاة إلا في قتل نفسي لأزهرق هذا الوحش الذي فيها.

وذهبت فابتغت شعيرات من السمِّ الوحي الذي يُعجل بالقتل، وأخذتها في كفي وهممت أن أقحمها وأبتلعها، فذكرتُ أمي، فظَهَرَتْ لخيالي مشدوخة الرأس في هيئة موتها، وإلى جانبها هذه المرأة في هيئة جمالها، وثبتت على عيني هذه الرؤيا، وأدمنتُ النظرَ فيها طويلاً فإذا أنا رجلٌ آخرٌ غير الأول، وإذا المرأة غير تلك، وطعت عبرة الموت على شهوة الحياة فمحتها، وصحَّ عندي من يومئذ أن لا علاج من هذا الحب إلا أن تُقرن في النفس صورة امرأة ميتة إلى صورة المرأة الحية، وكلما ذُكرت هذه جيء لها بتلك، فإذا استمر ذلك فإن الميتة تُميتها في النفس وتُميت الشهوة إليها، ما من ذلك بُد، فليجزئه من شك فيه.

وأنفتح لي رأي عجيب، فجعلتُ أتأمل كيف آمنَ شيطاني ثم كَفَرَ بَعْدُ، على

(١) اللَمِّ، محرَّكة بالفتح: الجنون.

(٢) المارستان: مستشفى المجاذيب.

أَنَّ شَيْطَانَهَا هِيَ كَفَرَتْ فِي الْأَوَّلِ ثُمَّ آمَنَ فِي الْآخِرِ؟ فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ إِلَّا غَبِيًّا خَامِدًا
الْفِطْنَةُ^(١)، إِذْ لَمْ يَسْتَخْ لِي الصَّوَابُ حَتَّى كَذَبْتُ أَرْهَقُ نَفْسِي وَأَخْسِرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ؛
فَإِنَّ الشَّيْطَانَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - إِنَّمَا رَدَّنِي عَنِ الْفَاحِشَةِ وَهِيَ ذَنْبٌ وَاحِدٌ، لِيَرْمِيَنِي بَعْدَهَا
فِي الذُّنُوبِ كُلِّهَا بِالمَوْتِ عَلَى الْكُفْرِ!

وَرَدَّ إِلَيَّ هَذَا الْخَاطِرُ مَا عَزَبَ^(٢) مِنْ عَقْلِي . وَمَنْ أَتَبْلِيَّ بِبَلَاءٍ شَدِيدٍ يُزَلِّزُ
يَقِينَهُ ثُمَّ أَبْصَرَ الْيَقِينَ، جَاءَ مِنْهُ شَخْصٌ كَأَنَّمَا خُلِقَ لِسَاعَتِهِ؛ فَلَعَنْتُ شَيْطَانِي
وَاسْتَعِذْتُ بِاللَّهِ مِنْ مَكْرِهِ، وَالْقَيْثُ أَلَسَّ فِي التَّرَابِ وَغَيْبَتُهُ فِيهِ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي:
وَيْحَكَ يَا نَفْسُ! إِنَّ الْحَيَاةَ تَعْمَلُ عَمَلًا بِالْحَيِّ، أَفَتَرْضَيْنَ أَنْ تَعْمَلَ الْحَيَاةَ بِأَبْطَالِهَا
وَرِجَالِهَا مَا عَرَفْتَ وَمَا عَلِمْتَ، ثُمَّ يَكُونُ عَمَلُهَا بِكَ أَنْتِ الْقَعُودَ نَاحِيَةً وَالبُكَاءَ عَلَى
أَمْرَاءَ؟

أَيُّهَا النَّفْسُ، مَا الْفَرْقُ بَيْنَ سَرَقَةِ لَحْمٍ مِنْ دُكَّانِ قِصَّابٍ، وَبَيْنَ سَرَقَةِ لَحْمٍ
أَمْرَاءَ مِنْ دَارِ أَبِيهَا، أَوْ زَوْجِهَا، أَوْ مَوْلَاهَا...؟

أَيُّهَا النَّفْسُ، إِنَّ إِيمَانَنَا أَسْلَافِنَا مَعَنَا؛ إِنَّ الْإِسْلَامَ فِي الْمُسْلِمِ.

قَالَ الْمَسِيَّبُ: وَهَذَا طَاشَ مُجَاهِدٌ وَأَسْتَحْفَهُ الطَّرِبُ، فَصَاحَ صَيْحَةً النَّصْرِ:
اللَّهُ أَكْبَرُ! وَجَاوَبَهُ أَهْلُ الْمَسْجِدِ فِي صَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ: اللَّهُ أَكْبَرُ! وَلَمْ يَكْذِبْ يَهْتَفُ بِهَا
النَّاسُ حَتَّى أَرْتَفَعَتْ صَيْحَةُ الْمُؤَذِّنِ لِصَلَاةِ الْمَغْرَبِ. اللَّهُ أَكْبَرُ...

(٢) عزب: ضاع وذهب.

(١) الفطنة: الذكاء.

الانحمار

٦

تتمة

قال المسيب بن رافع: وأنفض^(١) مجلس الشيخ، ودَرَجت^(٢) بعده أعوام في عدة الشهور من حمل المرأة، بلغت فيها أمور الناس مبلغها من خير الدنيا وشرها، مما أعرف وما لا أعرف؛ ودخلت البصرة أنا ومُجاهد الأزدي، نسمع الحسن وناخذ عنه؛ فإننا لسائران يوماً في سكة^(٣) بني سُمرة، إذ وافقنا الفتى صاحب النصرانية مقبلاً علينا، وكُنّا فقدناه تلك المدة، فأسرع إليه مُجاهد فالتزمه وقال: مرحباً بذي نسب إلى القلب. وسلّمْتُ بعده وعانقته، ثم أقبلنا نسأله، فقلْتُ له: ما كان آخر أولئك؟ قال مُجاهد: بل ما كان آخر أولها هي؟

فضحك الرجل وقال: النصرانية تعني؟ قال: آخرها من أولها كهذا مني؛ وأوماً إلى ظله في الأرض ممدوداً مشبوحاً مختلطاً غير متميز؛ كأنه ثوب منشور ليس فيه لابس، وكُنّا في الساعة التي يصير فيها ظل كل شيء مثليه فهو مزج المَسخ بالمشخ...

قال مُجاهد: ما أفظَّ جوابك وأثقله يا رجل! كأنك - واللّه - تاجر لا صلة له بالأشياء إلا من أثمانها؛ فنظره إلى فراهة أدابية من الدواب وإلى فراهة الجارية من الرقيق سواء.

قال الرجل: فأنا - واللّه - تاجر، وأنا الساعة على طريق الإيوان^(٤) الذي يلتقي فيه تجار العراق والشام وخراسان؛ وقد ضربت في هذه التجارات وحسنت بها حالي وتأثّلت منها؛ غير أنّ قلب التاجر غير التاجر، فليس يزُن ولا يقبض، ولا

(٣) سكة: طريق.

(٤) هذه المفردة تناسب ما يسمونه اليوم (البورصة).

(١) انفَضَّ: تفرَّق.

(٢) درجت: مضت.

بيع ولا يشتري. أمّا «تلك» فأصبحت نسياناً ذهب لِسِيْلِهِ في الزّمن!

قال مُجاهد: فكيف كنت تراها وكيف عدت تنظر إليها؟

قال: كنت أنظرُ إليها بعيني وأفكاري وشهواتي؛ فكانت بذلك أكثر من نفسها ومن النساء، وكانت ألواناً ألواناً ما تنقضي، فلما دخل بيني وبينها الزّمن والعقل، أبعدَها هذا عن قلبي وأبعدَها ذاك عن خيالي؛ فنظرتُ إليها بعيني وحدهما، فرجعت امرأة ككلِّ امرأة؛ وبنزولها من نفسي هذه المنزلة، رجعت أقل من نفسها ومن النساء، وهذه القِلَّةُ فيما عرفت لا تُصيبُ امرأة عند مُحبِّها إلا فعلت بجمالها مثل ما تفعله الشيخوخة بجسمِها، فأدبرت به ثم أدبرت وأستمرت تُدبر!

وانت فإذا أبصرت امرأةً شيخةً قد ذهبت التي كانت فيها... وأخطرت في ذهيك نيّةٍ ممّا بين الرجال والنساء، فهل تُراكَ واجداً الشهوة والميل إلا الثُّفرة والمغصية؟ إن هذا الذي كان الحُبَّ والهوى والعشق، هو بعينه الذي صار الإثم والذنب والضلالة!

قال مُجاهد: كأنك لما ذهبت تقتل نفسك من حبِّها قتلتها هي في نفسك؟

قال: يا رحمةً قد رَحِمْتُ بها نفسي يومئذ! أمّا - واللّه - إن الذي يقتل نفسه من حُبِّ امرأةٍ لَغَيٍّ. وَبَحْه! فليَتَخَلَّصْ من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسها. وقد جعل الله للحُبَّ طرفين: أحدهما في اللذة، والآخر في الحماقة؛ ما منهما بُدْ. فهذا الحُبُّ يلقي صاحبه في الأحلام ويُعشي بها على بصره، ثم إن هو اتَّجَعَ بطرفه السعيد إلى حظِّه المقبل وأتَّفَقَتِ اللذة للمُحِبِّ، أيقظته اللذة من أحلامه؛ وإن اتَّجَعَ الحُبُّ بطرفه الشقي إلى حظِّه المُدبر، وقَعَتِ الحماقات فتوناً شتى بين الحبيبين، وفعلت آخراً ففعل اللذة، فأيقظت العاشق من أحلامه أيضاً. وهذا تدبيرٌ من الرحمة في تلك القوّة المدمرة المسمّاة الحُبَّ. أفلا يدل ذلك على أن اللذة وهم من الأوهام ما دام تحقُّقها هو فناءها؟

خذ عني يا مجاهد هذه الكلمة: «ليس الكمال من الدنيا ولا في طبيعتها، ولا هو شيء يُذكر، ولكن من عظمة الكمال أن أستمراز العمل له هو إدراكه».

قال مُجاهد: لقد علمت بعدنا علماً، فمن أين لك هذا وعمّن أخذت؟

قال: عن السماء!

قال: ويلك! أين عقلك، فهل نزل عليك الوحي؟

قَالَ الرَّجُلُ : لا ، وَلَكِنْ تَعَالَيَْا مَعِيَ إِلَى الدَّارِ فَأَحْدِثْكُمْ .

قَالَ الْمَسِيَّبُ : وَذَهَبْنَا مَعَهُ ؛ فَأَتَيْنَا بِطَعَامٍ نَظِيفٍ فَأَكَلْنَا ، وَأَشْعَرْنَا الدَّارَ أَنْ رُبَّهَا قَدْ وَقَعَ فِيهَا شَاءٌ مِنْ دَنِيَاهُ وَتَوَاصَلَتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ ؛ فَلَمَّا غَسَلْنَا أَيْدِيَنَا قَالَ مُجَاهِدٌ : هَيْه يَا أَبَا . . . يَا أَبَا مَنْ ؟ قَالَ : أَبُو عُيَيْدٍ . قَالَ : هَيْه يَا أَبَا عُبَيْدٍ . . .

فَأَفْكَرَ الرَّجُلُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : عَهْدُ كَمَا بِي مِنْذُ تَسْنَعُ فِي مَجْلِسِ الْإِمَامِ الشَّعْبِيِّ بِالْكُوفَةِ ؛ وَقَدْ كُنْتُ فِي بَقِيَّةٍ مِنَ النِّعْمَةِ أَتَجَمَّلُ بِهَا ، وَكَأَنْتُ تُمَسْكِنِي عَلَى مَوْضِعِي فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ؛ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ الْبَقِيَّةُ تَدِقُّ وَتَنْفُضُ حَتَّى نَكِدَ عَيْشِي وَوَقَعْتُ فِي الْأَيَّامِ الْمَقْعَدَةِ الَّتِي لَا تَمْشِي بِصَاحِبِهَا ، وَأَنْقَلَبَ الزَّمَنُ كَالْعَدْوِ الْمُغِيرِ جَاءَ لِيُضْطَلِمَ^(١) وَيُخْرِبَ وَيُفْسِدَ ، فَأَثَّرَ فِيَّ أَقْبَحُ آثَارِهِ ، فَبِعْتُ مَا بَقِيَ لِي وَتَحَمَلْتُ عَنْ الْكُوفَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَقُلْتُ : إِنْ لَمْ تَتَغَيَّرْ حَالِي تَغَيَّرْتُ نَفْسِي ، وَلَا أَكُونُ فِي الْبَصْرَةِ قَدْ أَنْتَهَيْتُ إِلَى الْفَقْرِ ، بَلْ أَكُونُ قَدْ بَدَأْتُ مِنَ الْفَقْرِ كَمَا يَبْدَأُ غَيْرِي ، وَأَدْعُ الْمَاضِيَ فِي مَكَانِهِ وَأَمْضِي إِلَى مَا يَسْتَقْبِلُنِي .

فَالْتَمَسْتُ رُقَّةً فَالْتَأَمْتُ^(٢) عَشْرِينَ رَجُلًا ، فَلَمَّا كُنَّا فِي الطَّرِيقِ ، سَلَبْنَا أَلِلْصُوصَ وَحَازُوا الْقَافِلَةَ وَمَا تَحْوِيهِ ، وَنَجَوْتُ أَنَا رَاكِبًا فَرَسِي وَعُمْرِي ، وَأَدْرَكْتُ حِينَئِذٍ أَنَّ الْحَيَاةَ وَحْدَهَا مِلْكٌ عَظِيمٌ ، وَأَنَّهَا هِيَ الْأَدَاةُ الْإِلَهِيَّةُ ، وَالْبَاقِي كُلُّهُ هُوَ مِنْ أَنْفُسِنَا لِأَنْفُسِنَا وَالْأَمْرُ فِيهِ هَيِّنٌ وَالْخَطْبُ يَسِيرٌ .

وَقُلْتُ : لَوْ أَنَّ أَلِلْصُوصَ قَدْ مَرُّوا بِنَا كَمَا يَمُرُّ النَّاسُ بِالنَّاسِ لَمَّا نَكَبُونَا ، وَلَكِنَّهُمْ عَرَضُوا لَنَا غُرُوضَ اللَّصِّ لِلْمَالِ وَالْمَتَاعِ لَا لِلنَّاسِ ، فَوَضَعُوا فِيْنَا الْأَيْدِي النَّاهِيَةَ ؛ وَمِنْ هَذَا أَدْرَكْتُ أَنَّ لَيْسَ الشَّرُّ إِلَّا حَالَةً يَتَلَبَّسُ بِهَا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهَا . فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَاصِلُ السَّعَادَةِ فِي الْإِنْسَانِ إِلَّا يَعْأُ^(٣) بِهِذِهِ الْحَالَاتِ مَتَى عَرَضَتْ^(٤) لَهُ ؛ وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا ، تَمَثَّلَ الشَّرُّ كَمَا يَرَاهُ وَاقِعًا فِي غَيْرِهِ ؛ فَالْمَرْأَةُ الْعَفِيفَةُ إِذَا عَرَضَتْ لَهَا حَالَةٌ مِنَ الْفُجُورِ ، وَنَظَرَتْ إِلَى نَفْسِهَا وَحَظَّتْ نَفْسَهَا ، فَقَدْ تَعَمَّى وَتَرَلَّ ؛ وَلَكِنَّهَا إِذَا نَظَرَتْ إِلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِهَا وَإِلَى أَثَرِهِ عَلَى الْفَاجِرَةِ ، كَأَنَّ كَأَنَّمَا زَادَتْ عَلَى نَفْسِهَا نَفْسًا أُخْرَى تُرِيهَا أَلْأَشْيَاءَ مَجْرَدَةً كَمَا هِيَ فِي حَقَائِقِهَا .

(٣) يَعْأُ : يَهْتَمُّ .

(٤) عَرَضَتْ : حَصَلَتْ .

(١) يَضْطَلِمُ : يَسْتَأْصِلُ .

(٢) التَّأَمْتُ : اجْتَمَعْتُ .

قال: ومضيتُ على وجهي تتقاذفني البقاعُ والأمكنة: وأنا أعاني الأرضَ والسماءَ، وأخشى الليلَ والنهارَ، وأكابِدُ الألمَ والجوعَ، حتى دخلتُ البصرةَ دخولَ البعيرِ الرزاحِ، قَطَعَ الصَّحراءُ تَأْكُلُ منه ولا يأكلُ منها، فأنضاهُ^(١) السفرُ وحسرةُ الكلالِ^(٢) ونَحْتَةُ الثقلِ الذي يحملُهُ، فجاءَ بِنِيَّةٍ غيرِ التي كانَ قد خرجَ بها. وكانتْ أيامي هذه عمراً كاملاً مِنَ الشَّقاءِ، جعلتني أوقِنُ أَنَّ هؤلاءِ النَّاسَ في الحَيَاةِ إنَّهم إلَّا كالذُّوَابِ تحتِ أحمالها: لا تختارُ الدَّابَّةُ ما تحملُ ولا مَنْ تحملُ، ولا يَتْرَكَ لها مع هذا أن تختارَ الطَّرِيقَ ولا مدةَ السَّيرِ؛ وليسَ لِلدَّابَّةِ إلَّا شَيْئان: صبرُها وقُوَّتُها؛ إنْ فقدَتْهُما هلكَتْ، وإنْ وَهَّتا فيها كانَ ضعفُها بحسبِ ذلك.

إنَّ هناك أوقاتاً مِنَ الشَّقاءِ والبؤسِ تقذفُ بالإنسانِ وراءَ إنسانيَّتِهِ وإنسانيَّةِ البشرِ جميعاً، لا تُبالي كيف وقعَ وفي أيِّ وادٍ هَلَكَ، فلا ينفعُ الإنسانَ حينئذٍ إلَّا أنْ يعتصمَ^(٣) بأخلاقِ الحيوانِ، في مثلِ رِضاةِ الذي هو أحكمُ الحِكْمَةِ في تلكِ الحالِ، وصبرِهِ الَّذِي هو أقوى القوَّةِ، وقناعتِهِ التي هي أغنى الغِنَى، وجهلِهِ الَّذِي هو أعلمُ العِلْمِ، وتوكلِهِ الَّذِي هو إيمانُ فطرَتِهِ بِفطرَتِهِ. لا يُبالي الحيوانُ مالاً ولا نعيماً، ولا متاعاً ولا منزلةً، ولا حظاً ولا جاهاً، ولنْ تجدَ حمارَ المَلِكِ يعرفُ مِنَ المَلِكِ أكثرَ ممَّا يعرفُ حمارُ السَّقاءِ مِنَ السَّقاءِ؛ ولعلَّكَ لو سألتَهُما وأطافا الجوابَ لَقَالَ لك الأولُ: إنَّ الَّذِي فوقَ ظهري ثَقِيلٌ مَقِيَّتٌ بغيضٍ؛ ولَقَالَ لك الثاني: إنَّ الَّذِي يركبُهُ خَفِيفٌ سَهْلٌ سَمَحٌ!

ولكنَّ بلاءَ الإنسانِ أَنَّهُ حينَ يَطْوَحُهُ البؤسُ^(٤) والشَّقاءُ وراءَ الإنسانيَّةِ، لا ينظرُ لِغيرِ النَّاسِ، فيزيدهُ ذلكَ بُؤساً وحسرةً، ويمحِقُ^(٥) في نفسه ما بقي مِنَ الصَّبرِ، ويقَلِّبُ رِضاةَ غيظاً، وقناعتَهُ سخطاً، ويبتليه كُلُّ ذلكَ بالفِكْرَةِ المهلِكَةِ أعجزَها أنْ تُهْلِكَ أحداً فلا تجدُ مَنْ تُدْمِرُهُ غيرَ صاحبِها؛ فإذا هي وجدتْ مَساعاً^(٦) إلى النَّاسِ فأهلكَتْ وعائتْ وأفسدتْ، فجعلتْ صاحبَها إمَّا لِيصاً أو قاتلاً أو مُجرماً، أيَّ ذلك تيسَّر!

(٤) يطوَّحه البؤسُ: أخذه كل مأخذ.

(٥) يمحِقُ: يمحو.

(٦) مساعاً: سبياً.

(١) أنضاه: أنعبه.

(٢) الكلال: التعب الشديد.

(٣) يعتصم: يلجأ ويتقوى.

قال: وكنتُ أعرفُ في البصرةَ فلاناً التاجرَ من سرّاتها^(١) ووجوه أهلها، فاستطرقته^(٢)؛ فإذا هو قد تحوّل^(٣) إلى خُراسان، وليسَ يعرفني أحدٌ في البصرةَ ولا أعرفُ أحداً غيره؛ فكأنما نُكِبْتُ مرةً ثانيةً بغارةٍ شرٍّ من تلك، غيرَ أنّها قطعَتْ عليّ في هذه المرةِ طريقَ أيامي، وسلبتني آخرَ ما بقيَ لِنفسي، وهو الأمل!

ورأيتُ أنّه ما مِن نزولي إلى الأرضِ بُدّ، فأكونُ فيها إنساناً كالدابةِ أو الحشرة: حياتها ما اتَّفَقَ لا ما تُريدُ أنْ يتَّفَقَ؛ وأنّه لا رأيَ إلا أنْ أسخَرَ مِنَ الشهواتِ فأزهدَ فيها وأنا القويُّ الكريم، قبلَ أنْ تسخَرَ مِنّي إذا جفّثها وأنا الطامعُ العاجز!

وفي الأرضِ كفايةٌ كُلُّ ما عليها وَمَن عليها، ولكن بطريقتها هي لا بطريقةِ الناس؛ وما دامتْ هذه الدنيا قائمةً على التغييرِ والتبديلِ وتحوّلِ شيءٍ إلى شيءٍ، فهذا الطَّبِيعِيُّ الذي يأكلُهُ الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنّه قد أَكِلَ ولا أنّه أَفْتَرَسَ ومُزَقَ، بل هو عندها قد تحوّلَ قوّةً في شيءٍ آخرَ ومضى؛ أمّا عندَ الناسِ فذلك خُطْبُ^(٤) طويلٌ في حكايةِ أوهامِ مِنَ الخوفِ والوجلِ^(٥)، كما لو اخترعتْ قصةَ خرافيةٍ تحكيها عن أسدٍ قد زَرَعَ لحماً... فتعهّدهُ فأنبتهُ فحصدَهُ فأكلَهُ، فذهبَ الزرعُ يحتجُّ على آكلِهِ، وجعلَ يشكو ويقول: ليسَ لهذا زرعتني أنت، وليسَ لهذا خرجتُ أنا تحتَ الشمسِ، وليسَ من أجلِ هذا طلعتِ الشمسُ عليّ وعليك!

والإنسانُ يرى بعينه هذا التغييرَ واقعاً في الإنسانيةِ عامتها وفي الأشياءِ جميعها؛ فإذا وقعَ فيه هو ضجٌّ وسَخَطٌ، كأنَّ لَهُ حقاً ليسَ لأحدٍ غيره، وهذا هو العجيبُ في قصةِ بني آدم، فلا يزالُ فيها على الأرضِ كلماتٌ مِنَ الجنةِ لا تُقالُ هنا ولا تُفهمُ هنا؛ بل محلُّ الاعتراضِ بها حينَ يكونُ الإنسانُ خالداً لا يقعُ فيه التغييرُ والتبديلُ. ومن هذا كانَ خيالُ اللذةِ في الأرضِ هو دائماً باعثُ الحماقةِ الإنسانيةِ.

قال أبو عبيد: وذهبتُ أعتَمِلُ بيديّ وجسمي على آلامِ مَنْ أَلْفَاقَةٍ وَالضَّرِّ، وَمِنَ الْخِيبَةِ وَالْإِخْفَاقِ، وَمِنَ الْجِءِ الْمَسْكَنَةِ، وَإِحْوَاجِ الْخَصَاصَةِ^(٦)؛ فلقد رأيتُني وإنَّ يدي كيدِ العبدِ، وظهري كظهرِ الدابةِ، ورجلي كرجلِ الأسيرِ، وعُنُقِي كعُنُقِ

(١) سرّاتها: أغنياتها.

(٢) استطرقته: جثته ليلاً.

(٣) تحوّل: انتقل.

(٤) خطب: بسكون الطاء: المصيبة.

(٥) الوجل: الخوف.

(٦) الخصاصة: الفقر المدقع وشدة.

المغلول، ويطلع قرصُ الشمس على الدنيا ويغيبُ عنها وما أعتَمِلُ إلا بقرصٍ من الخبز، ولقد رأيتُني أبذلُ في صيانةِ كلِّ قطرةٍ من ماءٍ وجهي سحابةً من العرقِ حتى لا أسألَ الناس، ويا بؤساً لي إن سألتُ وإن لم أسأل!

وما كان يُمكنني على هذه الحياة المُرَمَقَة^(١)، تأتي رَمَقاً بعدَ رَمَقٍ في يومٍ يوم - إلا كلامُ الشعبي - الذي سمعتهُ في مسجدِ الكوفة، وقوله فيمن قتل نفسه؛ فكانَ كلامه نوراً في صدري يُشرقُ منه كلُّ يومٍ مع الصبحِ صبحٌ لإيماني. ولكن بقيتُ أيامَ نعمتي الأولى ولها في نفسي ضَرْبانٌ مِنَ الوجعِ كالذي يجدهُ المجرُوحُ في جرحه إذا ضَرَبَ عليه، فكانَ الشيطانُ لا يجدُ منفذاً إليَّ إلا منها. وفقدتُ الصديقَ وعونه، فما كان يُقبلُ عليَّ صديقٌ إلا في أحلامي من وراءِ الزمنِ الأول! قال مُجاهد: والحبيب؟

فتبسّمَ الرجل وقال: إذا فرغت^(٢) الحياة من الذي هو أقلُّ مِنَ الممكن، فكيف يكونُ فيها الذي هو أكثرُ مِنَ الممكن؟ إنَّ جوعَ يومٍ واحدٍ يجعلُ هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لا شِعْرَ فيها، ويتركُ الزمنَ وما فيه ساعةً واحدةً مُعْطَرَةً... والبؤسُ يَقْطَعُ مؤلماً في القلبِ الإنسانيَّ تُحرِّمُ عليه الأحلامَ؛ وما الحبُّ من أولِهِ إلى آخرِهِ إلا أحلامُ القلوبِ بعضها ببعض!

قال أبو عبيد: وتَضَعُضْتُ^(٣) لهذه الحياة المخزية وأبرمتني^(٤) أيامها، وحملتُ في الميتِّ والحي، ورأيتُ الشيطانَ - لعنةُ الله - كأنما اتَّخَذَنِي وعاءَ مُطَرَّحاً على طريقهِ يُلْقِي فيه القمامة^(٥)...، وظهرَ لي قلبي في وساوسِهِ كالمدينةِ الحَرِّيةِ ضَرَبَها الوباءُ، فأعمرُ ما فيها مَقْبَرَتُها؛ وعادَ البؤسُ وَقَاحَ الوجهِ لا يستحي، فلا أراه إلا في أرذلِ أشكالِهِ وأبردها؛ ولقد يكونُ البؤسُ لبعضِ الناسِ على شيءٍ مِنَ الحياءِ فيأتي في أسلوبٍ معتدِرٍ كالمرأةِ الدميمة^(٦) في نقابها^(٧).

وقلتُ لِنَفْسي: ما هو - واللَّهِ - إلا القتل، فهذا عُمرُ أراه كالأسيرِ أُقِيمَ على النطع^(٨) وسُلَّ عليه السيفُ، فما ينتقمُ منه أَلَمْتَقِمُ بأفْطَعٍ من تأخيرِ الضربةِ، وما يرحمهُ الراحِمُ بأحسنَ من تعجيلها!

(١) المرمقة: الباقي من الحياة.

(٢) فرغت الحياة: انتهت.

(٣) تضعضعت: تخلصت.

(٤) أبرمتني: أضجرتني.

(٥) القمامة: الزبالة.

(٦) الدميمة: البشعة.

(٧) نقابها: ما تغطي به وجهها.

(٨) النطع: الآنية ينزل فيها دم من قطع رأسه.

وَبِتُّ أَوَامِرُ هَذِهِ النَّفْسِ فِي قَتْلِهَا وَأَحَدْتُهَا حَدِيثَ الْمَوْتِ، فَسَدَدْتُ رَأْيِي فِيهِ وَقَالَتْ: مَا تَصْنَعُ بِجِسْمٍ كَالْمَتَعَفِّنِ أَصْبَحَ كَالْمَقْبُورِ لَا أَيَّامَ لَهُ إِلَّا أَيَّامُ أَنْقِرَاضِهِ وَتَفْثِيئِهِ؟ بَيَّدَ أَنِّي ذَكَرْتُ كَلَامَ (الشَّعْبِيِّ) فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَأَنَا أَحْفَظُهُ كُلَّهُ، فَجَعَلْتُ أَهْذُهُ ^(١) مَا أَتْرَكَ مِنْه حَزْفاً، وَأَتَّخَذْتُهُ مِتْكَلِماً مَعَ نَفْسِي لَا كَلِماً، كُنْتُ كُلِّماً غَلْبَنِي الضَّعْفُ رَفَعْتُ بِهِ صَوْتِي وَأَصْغَيْتُ كَمَا أَصْغَى إِلَى إِنْسَانٍ يُكَلِّمُنِي فَرَأَيْتُ الشَّيْطَانَ بَعْدَ ذَلِكَ كَاللَّصِّ إِذَا طَمَعَ فِي رَجُلٍ ضَعِيفٍ مُنْفَرِدٍ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَهُ وَجَدَ مَعَهُ رَجُلًا ثَانِيًا قَوِيًّا فَهَرَبَ!

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَنَالَنِي رَوْحٌ مِنْ أَلَا طَمَنَّتَانِ وَجَدْتُ لَهُ السَّكِينَةَ فِي قَلْبِي فَنِمْتُ، فَإِذَا الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ الَّذِي لَا يَنْسَاهُ مَنْ سَمِعَ بِهِ، فَكَيْفَ الَّذِي رَأَاهُ بَعِينِهِ؟

رَأَيْتُنِي مِتْنًا فِي يَدٍ غَاسِلِهِ يُقَلِّبُهُ وَيَغْسِلُهُ كَأَنَّهُ خِرْقَةٌ؛ ثُمَّ حُمِلْتُ عَلَى النَّعْشِ كَأَنَّ الْحَامِلِينَ قَدْ رَفَعُونِي يَقُولُونَ: أَنْظُرُوا أَيُّهَا النَّاسُ كَيْفَ يَصِيرُ النَّاسُ؛ ثُمَّ صَلَّى عَلَيَّ الْإِمَامُ الشَّعْبِيُّ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ، ثُمَّ ذَلَيْتُ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ وَهَيْلِ التَّرَابِ عَلَيَّ، وَتَرَكْتُ وَحِيدًا وَأَنْصَرَفُوا!

وَمَا أُدْرِي كَمْ بَقِيتُ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ رَأَيْتُ كَأَنَّمَا تُفَخَّحُ فِي الصُّورِ ^(٢) وَبُعْثِرَتْ أَلَمَوَاتٌ جَمِيعًا، فَطَرْنَا فِي الْفَضَاءِ، وَكَانَتْ النُّجُومُ غِبَارًا حَوْلَنَا كَثْرَابِ الْعَاصِفَةِ فِي الْعَاصِفَةِ؛ وَإِذَا نَحْنُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَفِي هَوْلِ الْمَوْقِفِ!

وَتَوَجَّهْتُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ فِي جِسْمِي إِلَى الرَّجَاءِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ؛ وَرَأَيْتُ أَعْمَالِي رُؤْيَا أَحْزَنْتَنِي، فَهِيَ كَمَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ كُلُّ أَهْلِهَا صَعَالِيكَ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمُسْتَوْرِينَ، أَرَى مِنْهُمْ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي السَّاعَةِ بَعْدَ السَّاعَةِ نَذَرُوا وَتَبَعَثُوا وَضَاعُوا كَأَعْمَالِي الصَّالِحَةِ!

وَذَكَرْتُ أَنِّي كِدْتُ أَقْتُلُ نَفْسِي فِرَارًا بِهَا مِنَ الْعُمْرِ الْمَوْلِمِ؛ فَنَظَرْتُ فَإِذَا الزَّمَنُ قَدْ ظَهَرَ فِي أَبْدِيَّتِهِ، وَرَجَعَ الْمَاضِي حَاضِرًا بِكُلِّ مَا حَوَى كَأَنَّهُ لَمْ يَمُضْ، وَإِذَا عَمْرِي كُلُّهُ لَا يَكَادُ يَبْلُغُ طُرْفَةَ عَيْنٍ مِنْ دَهْرٍ طَوِيلٍ، فَحَمَدْتُ اللَّهَ أَنِّي لَمْ أَفْتِدِ الْمَ الْلَحْظَةَ الْقَصِيرَةَ الْقَصِيرَةَ، بَعْدَابِ الْأَبَدِ الْخَالِدِ الْخَالِدِ الْخَالِدِ.

وَجِيءَ عَلَى أَعْيُنِ الْخَلْقِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَأَكْثَرِهِمْ لَذَاتٍ فِي تَارِيخِ الدُّنْيَا كُلِّهِ، فَصَاحَ صَائِحٌ: هَذَا أَنْعَمُ مَنْ كَانَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْذُ خَلَقَهَا اللَّهُ إِلَى أَنْ طَوَاهَا. ثُمَّ غُمِسَ هَذَا الْمَتَّعُ فِي النَّارِ غُمْسَةً خَفِيفَةً كَتَبْضَةِ الْبِزْقِ، وَأُخْرِجَ إِلَى الْمَحْشَرِ،

(٢) الصُّور: البوق.

(١) أَهْذُهُ: أَسْرَعَ فِي قِرَاءَتِهِ.

وقيلَ لَهُ والناسُ جميعاً يسمعون: هل دُفَّتَ نعيماً قط؟ قال: لا - والله -.

ثُمَّ جِيءَ بِأَتْعَسِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَشَدَّهُمْ بُؤْساً مِنْذُ خُلِقَتِ الْأَرْضُ، فَعُمِسَ فِي الْجَنَّةِ غَمْسَةً أَسْرَعَ مِنَ النَّسِيمِ تَحَرَّكَ وَمَرَّ، ثُمَّ أُخْرِجَ إِلَى الْمَحْشَرِ وَقِيلَ لَهُ: هل دُفَّتَ بُؤْساً قط؟ قال: لا - والله -.

وَسَمِعْنَا شَهيقَ جَهَنَّمَ وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمِيْزُ مِنَ الْغَيْظِ؛ فَأَيَقُنْتُ أَنَّ لَهَا نَفْساً خُلِقَتْ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ. وَخَرَجَ مِنْهَا عُقْبٌ عَظِيمٌ هَائِلٌ، لَوْ تَضَرَّعَتْ^(١) السَّمَاءُ كُلُّهَا نَاراً لِأَشْبَهَتْهُ، فَجَعَلَ يَلْتَقِطُ صِنْفاً صِنْفاً مِنَ الْخَلْقِ، وَبَدَأَ بِالْمُلُوكِ الْجَبَابِرَةِ فَالْتَقَطَهُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً كَالْمَغْنَطِيسِ لِثَرَابِ الْحَدِيدِ؛ وَقَذَفَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ؛ ثُمَّ أَنْبَعَثَ فَالْتَقَطَ الْأَغْنِيَاءَ الْمُفْسِدِينَ فَأَطَارَهُمْ إِلَيْهَا؛ ثُمَّ جَعَلَ يَأْخُذُ قَوْمًا قَوْمًا، وَقَدْ الْجَمْنِي الْعَرَقُ مِنَ الْفَرْعِ؛ ثُمَّ طَرَزَتْ أُنَا فِيهِ، وَنَظَرْتُ، فَإِذَا أَنَا مُخْتَبِسٌ فِي مُظْلَمَةٍ نَارِيَّةٍ كَالْهَآوِيَةِ، لَيْسَ حَوْلِي فِيهَا إِلَّا قَاتِلُو أَنْفُسِهِمْ. وَلَوْ أَنَّ بِحَارَ الْأَرْضِ جُعِلَ فِيهَا الْبَحْرُ فَوْقَ الْبَحْرِ فَوْقَ الْبَحْرِ، إِلَى أَنْ تَجْتَمَعَ كُلُّهَا فَيَكُونَ الْعَمَقُ كَبَعْدِ مَا بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، ثُمَّ تُسَجَّرُ^(٢) نَاراً تَلْطِئُ، لَكَانَتْ هِيَ الْهَآوِيَةُ الَّتِي نَحْنُ فِي أَعْمَاقِهَا؛ وَكُنْتُ سَمِعْتُ مِنْ إِمَامِنَا الشَّعْبِيِّ: أَنَّ عَصَاةَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤَخِّدِينَ إِذَا مَاتُوا عَلَى إِيْمَانِهِمْ كَانُوا فِي النَّارِ أَحْيَاءَ وَجَوَارِحُهُمْ مَوْتَى؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْجَوَارِحَ قَدْ أَطَاعَتِ اللَّهَ وَسَبَّحَتْهُ فَكُرِّمَتْ بِذَلِكَ حَتَّى عَلَى جَهَنَّمَ، ثُمَّ يَعَذَّبُونَ عَذَاباً فِيهِ الرَّحْمَةُ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ وَيَنْتَظَرُهُمْ إِيْمَانُهُمْ عَلَى بَابِ النَّارِ، فَكَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ قَتَلَ نَفْسَهُ، فَسَمِعَ قَائِلاً مِنْ بَعِيدٍ يَقُولُ لِمُؤْمِنٍ: أَخْرِجْ فَإِنَّ إِيْمَانَكَ يَنْتَظِرُكَ. فَصَاحَ الَّذِي إِلَى جَانِبِي: وَأَنَا، أَفَلَا يَنْتَظِرُنِي إِيْمَانِي؟ فَقِيلَ لَهُ: وَهَلْ جِئْتَ بِهِ؟

وَرَأَيْتُ رَجُلًا ذَبَحَ نَفْسَهُ يُرِيدُ أَنْ يَصْرَحَ يَسْأَلُ اللَّهَ الرَّحْمَةَ، فَلَا يَخْرُجُ الصَّوْتُ مِنْ خَلْقِهِ، إِذْ كَانَ قَدْ قَرَأَهُ وَبَقِيَ مَقْرِيئاً! وَأَبْصَرْتُ آخَرَ قَدْ طَعَنَ فِي قَلْبِهِ بِمِدْيَةٍ، فَهُوَ هُنَاكَ تَسْلُخُ الزَّبَانِيَّةِ قَلْبَهُ تَبَحُّثُ هَلْ فِيهِ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ، فَلَا تَزَالُ تَسْلُخُ وَلَا تَزَالُ تَبْحَثُ! وَرَأَيْتُ آخَرَ كَانَ تَحَسَّى^(٣) مِنَ السَّمِّ فَمَاتَ ظِمَامًا يَنْلَظِي^(٤) جَوْفَهُ، فَلَا تَزَالُ تَنْشَأُ لَهُ فِي النَّارِ سَحَابَةٌ رَوِيَّةٌ تَبْرُقُ بِالمَاءِ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْهُ وَرَجَاها، أَنْفَجَرَتْ عَلَيْهِ بِالصَّوَاعِقِ ثُمَّ عَادَتْ تَنْشَأُ وَتَنْفَجِرُ!

(١) تَضَرَّعَتْ: اشْتَدَّ اشْتَعَالُهَا.

(٢) تَسَجَّرَتْ: شَرِبَ.

(٣) تَحَسَّى: يَشْتَعَلُ.

(٤) يَنْلَظِي: يَشْتَعَلُ.

وقال رجل: إنما كنت مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقت نفسي. فنودي: أو ما علمت أن الله يحاسبك على أنك عاقل لا مجنون، وقوي لا ضعيف، وقادر لا عاجز؟ كنت تعقل بالأقل أنك ستموث، وكنت تقوى على أن تصبر، وكنت تقدر أن تترك الشر.

وقال رجل عالم قد حز في يده بسكين فمات: «لم يكن الكمال من الدنيا ولا في طبيعتها ولا هو شيء يُدرك». فصرخ فيه صوت رهيب: «ولكن من عظمة الكمال أن أستمرا العمل له هو إدراكه!».

قال أبو عبيد: ثم انتصب بإزائي شيطان مارد أحمر، يلتمع ألتماع الزجاج فيه الخمر، فقام في وجهي وقال: بماذا جئت إلى هنا يا عدو الخمر؟ فما كان إلا أن سمعت النداء: شفعت فيك الخمر التي لم تشربها، أخرج، إن إيمانك ينتظرك. فصخت: الحمد لله! وتحرك بها لساني، فانتبهت.

لقد علمت أن الصبر على المصائب نعمة كبرى لا ينعم الله بها إلا في المصائب.

وحي القبور

ذهبتُ في صُبح يوم عيدِ الفطرِ أحملُ نفسي بنفسي إلى المَقْبَرَةِ، وقد ماتَ لي مِنَ الْخَوَاطِرِ مَوْتَى لَا مَيِّتَ وَاحِدٍ؛ فَكُنْتُ أَمْشِي وَفِي جَنَازَةٍ بِمُشِيعِيهَا^(١)؛ مِنْ فِكْرِ يَحْمِلُ فِكْرًا، وَخَاطِرٍ يَتَّبِعُ خَاطِرًا، وَمَعْنَى يَبْكِي، وَمَعْنَى يُكَيِّ عَلَيْهِ.

وكذلك دأبي^(٢) كُلَّمَا أَنْحَدَزْتُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي تَأْتِيهِ الْعيونُ بدموعها، وتمشي إليه النفوسُ بأحزانها، وتجيءُ فيه القلوبُ إلى بقايا. تلك المقابرُ التي لَا يَنَادِي أَهْلُهَا مِنْ أَهْلِيهِمْ بِالْأَسْمَاءِ وَلَا بِالْأَلْقَابِ، وَلَكِنْ بِهَذَا النِّدَاءِ: يَا أَحِبَّائَنَا، يَا أَحْزَانَنَا!

ذهبتُ أزوُرُ أمواتي الأعزاءَ وَأَتَّصِلُ مِنْهُمْ بِأَطْرَافِ نَفْسِي، لِأَحْيَا مَعَهُمْ فِي الْمَوْتِ سَاعَةً أَغْرَضُ فِيهَا أَمْرَ الدُّنْيَا عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ، فَأَنْسَى وَأَذْكَرُ، ثُمَّ أَنْظُرُ وَأَعْتَبِرُ، ثُمَّ أَتَعَرَّفُ وَأَتَوْسَّمُ^(٣)، ثُمَّ أَسْتَبْطِنُ مِمَّا فِي بَطْنِ الْأَرْضِ، وَأَسْتَظْهِرُ مِمَّا عَلَى ظَهْرِهَا.

وَجَلَسْتُ هُنَاكَ أَشْرِفُ مِنْ دَهْرٍ عَلَى دَهْرٍ، وَمِنْ دُنْيَا عَلَى دُنْيَا، وَأَخْرَجْتُ الذِّكْرَةَ أَفْرَاحَهَا الْقَدِيمَةَ لِتَجْعَلَهَا مَادَّةً جَدِيدَةً لِأَحْزَانِهَا؛ وَأَنْفَتَحَ لِي الزَّمَنُ الْمَاضِي فَرَأَيْتُ رَجْعَةَ الْأَمْسِ، وَكَأَنَّ دَهْرًا كَامِلًا خُلِقَ بِحَوَادِثِهِ وَأَيَّامِهِ، وَرُفِعَ لِعَيْنِي كَمَا تُرْفَعُ الصُّورَةُ الْمَعْلُوقَةُ فِي إِطَارِهَا.

أَعْرِفُ أَنَّهُمْ مَاتُوا، وَلَكِنِّي لَمْ أَشْعُرْ قَطُّ إِلَّا أَنَّهُمْ غَابُوا؛ وَالْحَبِيبُ الْغَائِبُ لَا يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَلَا الْمَكَانُ فِي الْقَلْبِ الَّذِي يُحِبُّهُ مَهْمَا تَرَاخَتْ بِهِ الْأَيَّامُ^(٤)؛ وَهَذِهِ هِيَ بَقِيَّةُ الْروُحِ إِذَا امْتَرَجَّتْ بِالْحُبِّ فِي رُوحٍ أُخْرَى: تَتْرُكُ فِيهَا مَا لَا يُمَحَى لِأَنَّهَا هِيَ خَالِدَةٌ لَا تُمَحَى.

ذهبَ الْأَمْوَاتُ ذَهَابَهُمْ وَلَمْ يُقِيمُوا فِي الدُّنْيَا؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ مَرُّوا بِالدُّنْيَا

(١) مشيعها: مرافقها.

(٣) توسَّم: استطلع.

(٢) دأبي: بسكون الهمزة: عادتني.

(٤) تراخت به الأيام: امتدت.

ليس غير، فهذه هي الحياة حين تُعَبَّرُ عنها أَلْفَسُ بِلسانِها لا بلسانِ حاجِتها وجرِصِها.

الحياة مدة عمل، وكأنَّ هذه الدنيا بكلِّ ما فيها مِنَ المتناقضات، إنَّ هي إِلَّا مَصْنَعٌ يُسَوِّغُ كُلَّ إنسانٍ جانباً منه، ثُمَّ يُقالُ لَهُ: هذه الأداةُ فأصنع ما شئتَ، فضيلتك أو رذيلتك.

*** (١)

جلستُ في المقبرة، وأطرقْتُ أفكرُ في هذا الموت. يا عجباً للناس! كيف لا يستشعرونَهُ وهو يهدمُ من كُلِّ حيِّ أجزاء تُحيطُ بِهِ قبلَ أنْ يهدمَهُ هو بجملتيه؛ وما زالَ كُلُّ بُنيانٍ مِنَ الناسِ بِهِ كالحائطِ المُسلَّطِ عليه خرابه، يتأكَّلُ من هنا ويتناثرُ من هناك؟! هناك؟! هناك!؟

يا عجباً للناس عجباً لا ينتهي! كيف يجعلونَ الحياةَ مدةَ نزاع وهي مُدة عمل، وكيف لا تبرحُ تنزُّو التَّوازي بهم في الخِلافِ وألْباطِلِ، وهم كلُّما تدافعوا بينهم قضيةٌ مِنَ النزاعِ فضربوا خَصْماً بخَصْمٍ وردَّوا كَيْداً بكيدٍ، جاءَ حَكْمُ الموتِ تكذيباً قاطعاً لِكُلِّ مَنْ يَقولُ لشيءٍ: هذا لي؟

أما - واللَّهِ - إنَّه ليسَ أعجبُ في السَّخَرَةِ بهذه الدنيا من أنْ يُعطىَ النَّاسُ ما يملكونَهُ فيها لإثباتِ أنْ أحداً منهم لا يملكُ منها شيئاً، إذْ يأتِي الآتي إليها لحماً وعظماً، ولا يرجعُ عنها الرَّاجِعُ إِلَّا لحماً وعظماً، وبينَهما سفاهةُ العَظَمِ واللَّحْمِ حتى على السَّكِينِ القاطعة

تأتي الأَيامُ وهي في الحَقِيقَةِ تَفِرُّ فِرارَها؛ فَمَنْ جاءَ من عمرِهِ عشرونَ سنةً فلإنَّما مَضَتْ هذه العشرونَ من عمرِهِ. ولقد كانَ ينبغي أنْ تُصَحَّحَ أَعْمالُ الحياةِ في الناسِ على هذا الأصلِ البَينِ، لولا الطَّباعُ المَدْخولَةُ والنفوسُ الغافِلَةُ، والعقولُ الضَّعِيفَةُ، والشَّهواتُ العارِمةُ؛ فإنَّه ما دامَ العَمْرُ مُقْبِلاً مُذْبِراً في اعتِبارٍ واحدٍ، فليسَ لِلإنسانِ أنْ يتناولَ مِنَ الدُّنيا إِلَّا ما يُرضِيهِ محسوباً لَهُ ومحسوباً عليه في وقتٍ معاً؛ وتكونَ الحياةُ في حَقِيقَتِها لَيْسَتْ شيئاً إِلَّا أنْ يكونَ الضَّمِيرُ الْإنسانِي هو الحَيِّ في الحَيِّ.

وما هي هذه القبورُ؟ لقد رجعتُ عندَ أَكْثَرِ النَّاسِ مَعَ المَوْتَى أبنيةَ ميتة؛ فما

(١) يقصد إنسانية الحياة.

قط رأوها موجودة إلا لينسوا أنها موجودة؛ ولولا ذلك من أمرهم لكان للقبر معناه الحي المتغلغل في الحياة إلى بعيد؛ فما القبر إلا بناء قائم لفكرة النهاية والانقطاع؛ وهو في الطرف الآخر رد على البيت الذي هو بناء قائم لفكرة البدء والاستمرار؛ وبين الطرفين المَعْبُد وهو بناء لفكرة الضمير الذي يحيا في البيت وفي القبر، فهو على الحياة والموت كالقاضي بين خصمين يَصْلِحُ بينهما صلحاً أو يقضي.

القبر كلمة الصديق مبنية متجسمة، فكل ما حولها يتكذب ويتأول، وليس فيها هي إلا معناها لا يَدْخُلُهُ كَذِبٌ ولا يعتريه تأويل. وإذا ماثت في الأحياء كلمة الموت من غرور أو باطل أو غفلة أو أثر، بقي القبر مذكراً بالكلمة شارحاً لها بأظهر معانيها، داعياً إلى الاعتبار بمدلولها، مبيناً بما ينطوي عليه أن الأمر كله للنهاية.

القبر كلمة الأرض لمن يندفع فيرى العمر الماضي كأنه غير ماض، فيعمل في إفراغ حياته من الحياة بما يملؤها من ردائله وخسائسه؛ فلا يزال دائماً في معاني الأرض وأستجماعها. والاستمتاع بها، يتلو في ذلك تلو الحيوان ويقتاس به، فشريعته خوفه وأعضاؤه؛ وترجع بذلك حيوانيته مع نفسه الروحانية، كالحمار مع الذي يملكه ويعلفه، ولو سئل الحمار عن صاحبه من هو؟ لقال: هو حماري...

القبر على الأرض كلمة مكتوبة في الأرض إلى آخر الدنيا، معناها أن الإنسان حي في قانون نهايته، فلينظر كيف ينتهي.

إذا كان الأمر كله للنهاية، وكان الاعتبار بها والجزاء عليها، فالحياة هي الحياة على طريقة السلامة لا غيرها؛ طريقة إكراه الحيوان الإنساني على ممارسة الأخلاقية الاجتماعية، وجعلها أصلاً في طباعه، ووزن أعماله بنتائجها التي تنتهي بها، إذ كانت روحانيته في النهايات لا في بداياتها.

في الحياة الدنيا يكون الإنسان ذاتاً تعمل أعمالها؛ فإذا انتهت الحياة أنقلبت أعمال الإنسان ذاتاً يخلد هو فيها؛ فهو من الخير خالد في الخير، ومن الشر هو خالد في الشر؛ فكان الموت إن هو إلا ميلاد للروح من أعمالها؛ تولد مرتين: آتية وراجعة.

وإذا كان الأمر للنهاية فقد وجب أن تبطل من الحياة نهايات كثيرة، فلا يترك

الشرُّ يمضي إلى نهايته بل يُخَسِّمُ في بَذْنِهِ وَيُقْتَلُ في أولِ أنفاسِهِ، وكذلك الشأنُ في كلِّ ما لا يَحْسُنُ أَنْ يُبْدَأَ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَمْتَدَّ: كَالْعِدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ، وَالْبَخْلِ وَالْأَثَرَةِ، وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْغُرُورِ، وَالْخِدَاعِ وَالْكَذِبِ؛ وَمَا شَابَهُ هَذِهِ أَوْ شَابَهَا، فَإِنَّهَا كُلُّهَا أَنْبَعَاتٌ مِنَ الوجودِ الْحَيَوَانِيِّ وَأَنْفِجَارٌ مِنْ طَبِيعَتِهِ؛ وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ مِنْهَا فِي الْإِرَادَةِ قَبْرٌ كِي تَسْلَمَ لِلنَفْسِ الطَّيِّبَةِ إِنْسَانِيَّتُهَا إِلَى النِّهَايَةِ.

يَا مَنْ لَهُمْ فِي الْقُبُورِ أَمْوَاتٌ!
إِنَّ رُؤْيَا الْقَبْرِ زِيَادَةٌ فِي الشُّعُورِ بِقِيَمَةِ الْحَيَاةِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْقَبْرِ مِنْ مَعَانِي السَّلَامِ الْعَقْلِيِّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

الْقَبْرُ فَمَنْ يُنَادِي: أَسْرِعُوا أَسْرِعُوا، فَهِيَ مَدَّةٌ لَوْ صُرِّفَتْ كُلُّهَا فِي الْخَيْرِ مَا وَقَّتْ بِهِ؛ فَكَيْفَ يَضِيعُ مِنْهَا ضَيَاعٌ فِي الشَّرِّ أَوْ الْإِثْمِ؟ لَوْ وُلِدَ الْإِنْسَانُ وَمَشَى وَأَيْقَعَ وَشَبَّ وَأَكْتَهَلَ وَهَرَمَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَمَا عَسَاءَ كَانَ يُضِيعُ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ الْوَاحِدِ؟ إِنَّ أَطْوَلَ الْأَعْمَارِ لَا يَرَاهُ صَاحِبُهُ فِي سَاعَةِ مَوْتِهِ إِلَّا أَقْصَرَ مِنْ يَوْمٍ.

يُنَادِي الْقَبْرِ: أَصْلِحُوا عِيُونَكُمْ، وَعَلَيْكُمْ وَقْتُ لِإِصْلَاحِهَا؛ فَإِنَّهَا إِنْ جَاءَتْ إِلَى هُنَا كَمَا هِيَ، بَقِيَتْ كَمَا هِيَ إِلَى الْأَبَدِ، وَتَرَكَهَا أَلَوْقَتْ وَهَرَبَ.

هُنَا قَبْرٌ، وَهُنَاكَ قَبْرٌ، وَهُنَاكَ الْقَبْرِ أَيْضاً؛ فَلَيْسَ يَنْظُرُ فِي هَذَا عَاقِلٌ إِلَّا كَانَ نَظَرُهُ كَأَنَّهُ حَكْمٌ مُحْكَمٌ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ كَيْفَ تَنْبَغِي وَكَيْفَ تَكُونُ.

فِي الْقَبْرِ مَعْنَى إلْغَاءِ الزَّمَانِ، فَمَنْ يَفْهَمُ هَذَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَى أَيَّامِهِ، وَأَنْ يُسْقِطَ مِنْهَا أَوْقَاتَ الشَّرِّ وَالْإِثْمِ، وَأَنْ يُمِيتَ فِي نَفْسِهِ خَوَاطِرَ السُّوءِ؛ فَمِنْ مَعَانِي الْقَبْرِ يَنْشَأُ لِلْإِرَادَةِ عَقْلُهَا الْقَوِيُّ الثَّابِتُ؛ وَكُلُّ الْأَيَّامِ الْمَكْرُوهَةِ لَا تَجِدُ لَهَا مَكَاناً فِي زَمَنِ هَذَا الْعَقْلِ، كَمَا لَا يَجِدُ اللَّيْلُ مُحَلّاً فِي سَاعَاتِ الشَّمْسِ.

ثَلَاثَةُ أَرْوَاحٍ لَا تَصْلُحُ رُوحُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِهَا:

رُوحُ الطَّبِيعَةِ فِي جَمَالِهَا، وَرُوحُ الْمَعْبَدِ فِي طَهَارَتِهِ، وَرُوحُ الْقَبْرِ فِي مَوْعِظَتِهِ.

عروسٌ تُزَفُّ إلى قبرها

١

كَانَ عَمْرُهَا طَاقَةً أَزْهَارٍ تُسَمَّى أَيَّامًا.

كَانَ عَمْرُهَا طَاقَةً أَزْهَارٍ يَنْتَسِقُ فِيهِ الْيَوْمُ بَعْدَ الْيَوْمِ كَمَا تَنْبُتُ الْوَرَقَةُ النَّاعِمَةُ فِي الزَّهْرَةِ إِلَى وَرَقَةٍ نَاعِمَةٍ مِثْلِهَا.

أَيَّامُ الصَّبَا الْمَرِحَةِ حَتَّى فِي أَحْزَانِهَا وَهَمُومِهَا؛ إِذْ كَانَ مَجِيئُهَا مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي خُصَّ بِشَبَابِ الْقَلْبِ، تَبْدُو الْأَشْيَاءُ فِي مَجَارِي أَحْكَامِهَا كَالْمَسْحُورَةِ؛ فَلِئِنْ كَانَتْ مُفْرِحَةً جَاءَتْ حَامِلَةً فَرَحَيْنِ، وَإِنْ كَانَتْ مُحْزَنَةً جَاءَتْ بِنَصْفِ الْحُزْنِ.

تِلْكَ الْأَيَّامُ الَّتِي تَعْمَلُ فِيهَا الطَّبِيعَةُ لِشَبَابِ الْجِسْمِ بِقُوَى مُخْتَلِفَةٍ: مِنْهَا الشَّمْسُ وَالْهَوَاءُ وَالْحَرَكَةُ، وَمِنْهَا الْفَرَحُ وَالنَّسْيَانُ وَالْأَحْلَامُ!

وَشَبَّتِ الْعُذْرَاءُ وَأَفْرَعَتْ فِي قَالِبِ الْأَنْوَةِ الشَّمْسِيِّ الْقَمَرِيِّ، وَآكْتَسَى وَجْهُهَا دِيبَاجَةً^(١) مِنَ الزَّهْرِ الْغَضِّ^(٢)، وَأَوْدَعَتْهَا الطَّبِيعَةُ سِرَّهَا النَّسَائِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ الْعُذْرَاءَ فَنَّ جَمَالٍ لِأَنَّهَا فَنُّ حَيَاةٍ، وَجَعَلَتْهَا تِمَثَالًا لِلظَّرْفِ: وَمَا أَعْجَبَ سِحْرَ الطَّبِيعَةِ عِنْدَ مَا تُجَمِّلُ الْعُذْرَاءَ بِظَرْفٍ كَظَرْفِ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ سَتَلِدُهُمْ مِنْ بَعْدِ! وَأَسْبَغَتْ^(٣) عَلَيْهَا مَعَانِي الرِّقَّةِ وَالْحَنَانِ وَجَمَالَ النَّفْسِ؛ وَمَا أَكْرَمَ يَدَ الطَّبِيعَةِ عِنْدَ مَا تَمَهَّرُ الْعُذْرَاءُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْفَاتِ مَهَرَهَا الْإِنْسَانِي!

وَحُطِّبَتِ الْعُذْرَاءُ لِزَوْجِهَا، وَعُقِدَ لَهُ عَلَيْهَا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنْ شَهْرِ مَارَسَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ بَعْدَ الظَّهْرِ.

(١) ديباجة: بشرة.

(٢) الغض: الطريء.

(٣) أسبغت: أعطت وشملت.

وماتت عذراء بعد ثلاث سنين، وأنزلت إلى قبرها في اليوم الثالث من شهر
مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر!
وكانت السنوات الثلاث عُمرَ قلبٍ يُقَطِّعُهُ المرض، ينتظرون به العُرس،
وينتظرُ بنفسه الرُّمس!
يا عجائب القَدَر! أذاك لحنٌ موسيقيٌّ لأنينٍ أستمَرَّ ثلاث سنوات، فجاء آخره
موزوناً بأوله في ضبطٍ ودقة؟
أكانت تلك العذراء تحملُ سرّاً عظيماً سيُغيِّرُ الدنيا، فردَّت الدنيا عليها يومَ
التهنئة والابتسام والزيّنة، فإذا هو يومُ الولولة^(١) والدموع والكفن؟

٢

واهاً لك أيُّها الزمن! من الذي يفهمك وأنت مدّة أقدار؟
واليوم الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعددِ أهلِ الدنيا جميعاً، وبهذا يعودُ
لكلِّ مخلوقٍ سرُّ يومه، كما أن لكلِّ مخلوقٍ سرُّ روجه، وليس إليه لا هذا ولا
هذا.
وفي اليوم الزمني الواحدِ أربعمائة مليونِ يومٍ إنسانيٍّ على الأرض! ومع ذلك
يُحصيه عقلُ الإنسانِ أربعاً وعشرين ساعة؛ يا للغباوة...!
وكلُّ إنسانٍ لا يتعلّقُ مِنَ الحياةِ إلّا بالشعاع الذي يضيءُ المكانَ المظلمَ في
قلبه، والشمسُ بما طلعت عليه لا تستطيعُ أن تُنيرَ القلبَ الذي لا يضيئه إلّا وجهُ
محبوب.
وفي الحياةِ أشياءٌ مكذوبةٌ تُكَبِّرُ الدنيا وتُصَغِّرُ النفسَ، وفي الحياةِ أشياءٌ
حقيقيةٌ تُعْظِمُ بالنفسِ وتُصَغِّرُ بالدنيا؛ وذَهَبُ الأرضِ كلّهُ فقرٌ مُدَقِّعٌ حينَ تكونُ
المعاملةُ معَ القلبِ.
أيُّها الدنيا؛ هذا تحقيرُك الإلهيُّ إذا أكبرك الإنسان!

* * *

(١) الولولة: العويل والبكاء.

ويا عَجَباً لأهل السوءِ الْمُغْتَرِّينَ بحياة لا بدَّ أن تنتهي! فماذا يرتقبونَ إلا أن تنتهي؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضة؛ وهل أعجب وأغمض من أن يكونَ انتهاءُ الإنسانِ إلى آخرها هو أوَّلُ فكرِهِ في حقيقتها؟

فَإِذَا تَحِينُ الدَّقَائِقُ الْمَعْدُودَةُ الَّتِي لَا تَرْفُمُهَا السَّاعَةُ وَلَكِنْ يَرْفُمُهَا صَدْرُ الْمُخْتَضِرِ^(١)... عِنْدَ مَا يَكُونُ مُلْكُ الْمُلُوكِ جَمِيعاً كَالْتِرَابِ لَا يَشْتَرِي شَيْئاً الْبَتَّةَ...

.... ماذا يكونُ أيُّها المجرمُ بعدَها تَقَرَّفُ الْجَنَايَةِ، وَيَقُومُ عَلَيْكَ الدَّلِيلُ، وَتَرَى حَوْلَكَ الْجُنْدَ وَالْقُضَاةَ، وَتَقِفُ أَمَامَكَ الشَّرِيعَةُ وَالْعَدْلُ؟

أَعْمَالُنَا فِي الْحَيَاةِ هِيَ وَحْدَهَا الْحَيَاةُ، لَا أَعْمَارُنَا، وَلَا حُطُوطُنَا. وَلَا قِيَمَةٌ لِلْمَالِ، أَوْ أَلْجَاهِ، أَوْ أَلْعَافِيَةِ، أَوْ هِيَ مَعاً - إِذَا سُلِبَ صَاحِبُهَا الْأَمْنُ وَالْقَرَارُ! وَالْأَمْنُ فِي الدُّنْيَا مَنْ لَمْ تَكُنْ وَرَاءَهُ جَرِيمَةٌ لَا تَزَالُ تَجْرِي وَرَاءَهُ. وَالسَّعِيدُ فِي الْآخِرَةِ مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ جَرِيمَةٌ تُطَارِدُهُ وَهُوَ فِي السَّمَاوَاتِ.

كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَخْدَعُ أَلَالَةُ صَاحِبَتِهَا وَفِيهَا (الْعَدَاةُ): مَا تَتَحَرَّكُ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَّا أَشْعَرَتْهُ فَعَدَّاهَا؟ وَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكْذِبَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ وَفِيهِ الْقَلْبُ: مَا يَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا أَشْعَرَهُ فَعَدَّهُ؟

٣

وَرَأَيْتُ الْعُرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ.

أَفَرَأَيْتِ أَنْتِ الْغَنَى عِنْدَ مَا يُذْبِرُ عَنْ إِنْسَانٍ لِيَتْرَكَ لَهُ الْحَسْرَةَ وَالذِّكْرَى الْأَلِيْمَةَ؟ أَرَأَيْتِ الْحَقَائِقَ الْجَمِيلَةَ تَذْهَبُ عَنْ أَهْلِهَا فَلَا تَتْرَكَ لَهُمْ إِلَّا الْأَحْلَامَ بِهَا؟ مَا أَتَعَبَ الْإِنْسَانَ حِينَ تَتَحَوَّلُ الْحَيَاةُ عَنْ جَسَمِهِ إِلَى الْإِقَامَةِ فِي فِكْرِهِ!

وَمَا هِيَ الْهَمُومُ وَالْأَمْرَاضُ؟ هِيَ الْقَبْرُ يَسْتَبْطِئُ صَاحِبَهُ أحياناً فَيَنْفُضُ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ شَيْئاً مِنْ تَرَابِهِ....!

رَأَيْتِ الْعُرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ، فَيَالِلُهُ مِنْ أَسْرَارِ الْمَوْتِ وَرَهْبَتِهَا! فَرَعَ

(١) المحتضر: المنازع سكرات الموت.

جسْمُها كما فرَغَتْ عنْهَا الأشياءُ من معانيها! وتخلَّى هذا الجسْمُ عن مكانِهِ لِلرُّوحِ
تَظْهَرُ لِأَهْلِهَا وتَقِفُ بَيْنَهُم وَفَقَّةَ الْوَدَاعِ!

وتحوَّلَ الزَّمَنُ إلى فِكْرِ الْمَرِيضَةِ؛ فلم تَعُدْ تعيشُ في نهارٍ وليلٍ، بل في فِكْرِ
مُضِيِّ أو فِكْرِ مَظْلَمٍ!

يا إلهي! ما هذا الْجِسْمُ الْمُتَهَدِّمُ الْمُقْبِلُ على الآخرة؛ أهو تمثالٌ بَظَلٍ تعبِيرُهُ،
أم تمثالٌ بدأ تعبِيرُهُ؟

لقد وثِّقَتْ أَنَّهُ الْمَوْتُ، فكانَ فِكْرُهَا الإلهيُّ هو الَّذي يتكلَّمُ؛ وكانَ وجهُها كوجهِ
العابِدِ: عليه طَيِّفُ الصَّلَاةِ ونورُها. والروحُ الإنسانيةُ متى عبَّرَتْ لا تُعبِّرُ إِلَّا بالوجهِ.

ولها ابتسامةٌ غريبةُ الجمالِ؛ إذ هي ابتسامةُ آلامٍ أيقنَتْ أَنَّها مُوشِكةٌ أَنْ تنتهي! ابتسامةُ روحٍ لها مثلُ فَرَحِ السَّجِينِ قد رأى سَجَانَهُ واقفاً في يَدِهِ الساعةُ يرقُبُ
الدَّيْقَةَ والثَّانِيَةَ ليقولَ له: انْطَلِقْ!

ودخلتُ أعودُها فرَأَتْ كأَنِّي آتٍ مِنَ الدُّنْيَا...! وَتَنَسَّمَتْ مِنِّي هَوَاءَ الْحَيَاةِ،
كأَنِّي حَديقَةٌ لا شَخْصٌ!

وَمَنْ غَيْرُ الْمَرِيضِ الْمُدْنَفِ^(١)، يَعْرِفُ أَنَّ الدُّنْيَا كَلِمَةٌ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى أَبَدًا إِلَّا الْعَاقِبَةُ:
مَنْ غَيْرُ الْمَرِيضِ الْمُشْفِي عَلَى الْمَوْتِ، يَعِيشُ بِقُلُوبِ النَّاسِ الَّذِينَ حَوْلَهُ لَا بِقَلْبِهِ؟

تلك حالةٌ لا تنفعُ فيها الشَّمْسُ ولا الْهَوَاءُ ولا الطَّبيعَةُ الْجَمِيلَةُ، ويقومُ مقامُ
جميعِها لِلْمَرِيضِ أَهْلُهُ وَأَحِبَّاءُهُ!

وكانَ دُؤُوهَا من رهبةِ الْقَدَرِ الدَّانِي كَأَنَّهُمْ أُسْرَى حَرْبٍ أَجْلَسُوا تَحْتَ جِدَارٍ
يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ! وكانت قُلُوبُهُمْ من فزعِها تَبْضُ نبْضاً مثلَ ضَرَبَاتِ الْمَعَاوِلِ.

وباقْتِرَابِ الْحَبِيبِ الْمُحْتَضَرِّ مِنَ الْمَجْهُولِ، يُصْبِحُ مَنْ يَحِبُّهُ في مَجْهُولٍ آخَرَ،
فتختلطُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ بِالْمَوْتِ، ويعودُ في مثلِ حَيْرَةِ الْمَجْنُونِ حِينَ يُمَسِّكُ بِيَدِهِ الظِّلَّ
المتحركَ لِيَمْنَعَهُ أَنْ يَذْهَبَ وتَعْرِوه في ساعةٍ واحدةٍ كَابَةُ عَمْرٍِ كَامِلٍ، تُهَيِّئُ لَهُ جَلَالَ
الْجِسْمِ الَّذِي يَشْهَدُ بِهِ جَلَالَ الْمَوْتِ!

(١) المدنف: الشديد المرض.

وحادث ساعة ما لا يفهم، ساعة كل شيء، وهي ساعة ألاشيء في العقل
الإنساني! فالتفتت العروس لأبيها تقول: «لا تحزن يا أبي...» ولأمها تقول: «لا
تحزني يا أمي...»!

وتبسمت للدموع كأنما تحاول أن تكلمها هي أيضاً؛ تقول لها: «لا
تبكي...!» وأشفقت على أحيائها وهي تموت، فاستجمعت روحها ليبقى وجهها
حيًا من أجلهم بضغ دقائق! وقالت: «سأغادرُكم مبتسمةً قيعيشوا مبتسمين، سأتركُ
تذكاري بينكم تذكّار عروس!...».

ثم ذكرت الله وذكرتهم به، وقالت: «أشهد أن لا إله إلا الله». وكررتها
عشرًا! وتملأت روحها بالكلمة التي فيها نور السماوات والأرض، ونطقت من
حقيقة قلبها بالاسم الأعظم الذي يجعل النفس منيرةً تلالاً حتى وهي في أحزانها.
ثم استقبلت خالق الرحمة في الآباء والأمهات وفي مثل إشارة وداع من
مسافرٍ أبعث به القطار، ألقت إليهم تحيةً من أبسامتها وأسلمت الروح!

٤

يا لعجائب القدر! مشينا في جنازة العروس التي تُزفُّ إلى قبرها طاهرةً
كالطفلة ولم يبارك لها أحد! فما جاوزنا ألدّارَ إلا قليلاً حتى أبصرتُ على حائط في
الطريق إعلاناً قديماً بالخط الكبير الذي يصيح للأعين؛ إعلاناً قديماً عن (رواية)
هذا هو اسمها: «مبروك...!».

وأخترقنا المدينة وأنا أنظرُ وأنقصي^(١)، فلم أرَ هذا الإعلان مرةً أخرى!
وأخترقنا المدينة كلها، فلما أنقطع العمرانُ وأشرفنا على المقبرة، إذا آخرُ حائطٍ
عليه الإعلان: «مبروك...!»

(١) أنقصى: أبحث.

موت أم

رجعت من الجنازة بعد أن غُبرْتُ قدمي ساعة في الطريق التي ترابها تراب وأشعة، وكأنت في النعش لؤلؤة آدمية محطمة، هي زوجة صديق طحطحتها^(١) الأمراض ففرقتها بين علل الموت، وكان قلبها يحييها فأخذ يهلكها، حتى إذا دنا أن يقضي عليها رحمتها الله ففضى فيها قضاءه. ومن ذا الذي مات له مريض بالقلب ولم يره من قلبه في علته كالعصفورة التي تهتك تحت عيني ثعبان سلط عليها سموم عينيه!

كانت المسكينة في الخامسة والعشرين من سنّها، أما قلبها ففي الثمانين أو فوق ذلك؛ هي في سنّ الشباب وهو متهذّب في سنّ الموت.

وكانت فاضلة تقيّة صالحة، لم تتعلّم ولكن علمها التقوى والفضيلة. وأكمل النساء عندي ليست هي التي ملأت عينها من الكتب فهي تنظر إلى الحياة نظرات تجلّ مشاكل وتخلق مشاكل ولكنها تلك التي تنظر إلى الدنيا بعين متلألئة بنور الإيمان تقرّ في كلّ شيء معناه السماوي، فتؤمن بأحزانها وأفراحها معاً، وتأخذ ما تُعطى من يد خالقها رحمة معروفة أو رحمة مجهولة. هذه عندي تُسمّى امرأة، ومعناها المعبد القدسي؛ وتكون الزوجة، ومعناها القوة المُسعدة؛ وتصير الأمّ، ومعناها التكملة الإلهية لصغارها وزوجها ونفسها.

ومهما تبلغ المرأة من العلم فالرجل أعظم منها بأثقل رجل، ولكن المرأة حق المرأة هي تلك التي خلقت لتكون للرجل مادة الفضيلة والصبر والإيمان، فتكون له حياً وإلهاماً وعزاء وقوة، أي زيادة في سروره ونقصاً من آلامه.

ولن تكون المرأة في الحياة أعظم من الرجل إلا بشيء واحد، هو صفاتها التي تجعل رجلها أعظم منها.

(١) طحطحتها: أنهكتها.

ومشيئتُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي الْبَسْتُهُ الْمَيِّتَةَ معنَى الْقَبْرِ، إِلَى الْقَبْرِ الَّذِي الْبَسَ الْمَيِّتَةَ
معنَى الْبَيْتِ وَأَنَا مِنْذُ مَشَيْتُ فِي جَنَازَةِ أُمِّي (رَحِمَهَا اللَّهُ) لَا أَسِيرُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ مَعَ
الْأَحْيَاءِ، وَلَكِنْ مَعَ الْمَوْتَى، فَاتَّبِعْ مِنَ الْمَيِّتِ صَدِيقًا لَيْسَ رَجُلًا وَلَا أَمْرًا، لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ
هَذِهِ الدُّنْيَا؛ وَأَمْشِي فِي سَاعَةٍ لَيْسَتْ سَتَيْنَ دَقِيقَةً، لِأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنَ الزَّمَنِ؛ وَلَا أَرَى
الطَّرِيقَ مِنْ طَرَقِ الْحَيَاةِ، لِأَنَّنِي فِي صُحْبَةِ مَيِّتٍ؛ وَتُصْبِحُ لِلْأَرْضِ فِي رَأْيِي جُغْرَافِيَّةً
أُخْرَى عَمِيَ النَّاسُ عَنْهَا لِشِدَّةِ وَضُوحِهَا، كَالْأُلُوهِيَّةِ خَفِيَّتْ مِنْ شِدَّةِ مَا ظَهَرَتْ.

يَقُولُونَ: إِنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ يَغْمُرُهَا الْبَحْرُ. أَمَّا أَنَا فَأَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ
أَنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ لَا يَغْمُرُهَا الْبَحْرُ الَّذِي وَصَفُوا، وَلَكِنْ خِصْمٌ آخَرُ زَخَارٌ^(١)
مُتَضَرِّبٌ، هُوَ ذَلِكَ الْبَحْرُ التَّرَائِي الْعَظِيمُ الْمَسْمُومُ «الْمَقْبِرَةُ».

يَقُولُونَ: إِنَّ الْحَيَاةَ هِيَ... هِيَ مَاذَا - وَيَحْكُمُ - أَيُّهَا الْمَغْرُورُونَ؛ أَفَلَا تَرَوْنَ
هَذِهِ الصَّلَاةَ الدَّائِمَةَ بَيْنَ بَطْنِ الْأُمِّ وَبَطْنِ الْأَرْضِ؟

لَعَمْرِي كَيْفَ تَجْعَلُ هَذِهِ الْحَيَاةَ لِلنَّاسِ قُلُوبًا مَعَ قُلُوبِهِمْ، فَيَحْسُ الْمَرْءُ بِقَلْبِ،
وَيَعْمَلُ بِقَلْبٍ آخَرَ: يَعْتَقِدُ ضَرَرَ الْكَذِبِ وَيَكْذِبُ، وَيَعْرِفُ مَعْرَةَ الْإِنِّمِ وَيَأْتِمُ، وَيُوقِنُ
بِعَاقِبَةِ الْخِيَانَةِ ثُمَّ يَخُونُ؛ وَيَمْضِي فِي الْعَمْرِ مُنْتَهِيًا إِلَى رَبِّهِ، مَا فِي ذَلِكَ شَكٍّ،
وَلَكِنَّهُ فِي الطَّرِيقِ لَا يَعْمَلُ إِلَّا عَمَلًا مِنْ قَدَرٍ مِنْ رَبِّهِ...؟

هَبَّتِ الرِّيحُ فِي السَّحَرِ عَلَى رَوْضَةٍ غَنَاءَ فُطَابَتْ لَهَا، فَعَقَدَتْ عُقْدَتَهَا أَنْ تَتَّخِذَ
لَهَا بَيْتًا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الطَّيِّبِ لِتَقِيمَ فِيهِ... يَا لَهَا حِكْمَةً مِنَ التَّدْبِيرِ! تَزْعُمُ الرِّيحُ
الْإِقَامَةَ عَلَى حِينِ كُلِّ وَجُودِهَا هُوَ لِحِظَةٌ مَرُورِهَا، وَتَحْلُمُ بِالْقَرَارِ فِي الْبَيْتِ وَهِيَ لَا
تَمْلِكُ بِطَبِيعَتِهَا أَنْ تَقِفَ.

يَا لَهَا حِكْمَةً سَامِيَةً، لَا يَسْكُنُهَا مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا أَسْخَفُ مَا فِي الْحُمُقِ!

هَمَدَ الْحَيِّ وَأَنْطَفَأَتْ عَيْنَاهُ، وَلَكِنَّهُ تَحَرَّكَ فِي تَارِيخِهِ مِمَّا ضَيَّقَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ
وَسَّعَ، وَأَصْبَحَ يَنْظُرُ بَعِينَ مِنْ عَمَلِهِ إِمَّا مُبْصِرَةً أَوْ كَالْعَمِيَاءِ؛ فَلَوْ تَكَلَّمَ يَصِفُ الْحَيَاةَ
الْدُّنْيَا لَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ النُّجُومَ عَلَى الْأَرْضِ مَصَابِيحُ مَاتِمٍ أَقِيمَ بَلِيلٍ. وَمَا أَعْجَبَ أَنْ
يَجْلِسَ أَهْلُ الْمَاتِمِ فِي الْمَاتِمِ لِيُضْحَكُوا وَيَلْعَبُوا!

(١) زَخَار: مَلَىءٌ بِالْحَرَكَةِ وَالضَّجَّةِ.

ولو نطق الموتى لقالوا: أيُّها الأحياء، إنَّ هذا الحاضر الذي يمرُّ فيكون ماضيكم في الدنيا، هو بعينه الذي يكون مستقبلكم في الآخرة، لا تزيدون فيه ولا تنقصون. وإنَّ الدنيا تبدأ عندكم من الأعلى إلى الأدنى: من العظماء إلى الفقراء؛ ولكنها تنقلب في الآخرة فتبدأ من الفقراء إلى العظماء؛ وأنتم ترسمونها بخطوط المطامع والحظوظ، ويرسمها الله بخطوط الحِزَمَانِ والمُجاهدة؛ إنَّ التأمُّ على الأرض من تمَّ بمتاعها ولذاتها، ولكنَّ التأمُّ في السماء من تمَّ بنفسه وحدها.

يا أسفا! لن يقول الميتُ لحيٍّ شيئاً، ومن يدري؟ لعلنا ونحن نلجُد للموتى وننزِلُهم في قبورهم، يرون بأرواحهم الخالدة أننا نحن موتاهم المساكين، وأننا مدفونون في القبر الذي يسمونه «الكرة الأرضية»! وهل الكرة الأرضية من اللانهاية إلا حفرة برجلٍ نملٍ لتُدفن فيها نملة...

الحياة... أتريد أن تعرفها على حقيقتها؟ هي المُبهَماتُ الكثيرة التي ليس لها في الآخر إلا تفسير واحد: حلال أو حرام.

ورجعنا مع الصديق إلى بيته، وله خمسة أطفالٍ صغارٍ لو أنهم هم الذين أنشزعوا من أمهم لترك كلُّ واحدٍ على قلبها مثل المَكْواةِ المحمى عليها في النار إلى أن تحمرَّ؛ ولكنَّ أمهم هي التي نزعَتْ منهم، فكان بقاؤهم في الحياة تخفيفاً لسكرة الموت عليها. وعَشِيْتها الغُشيَّةُ فماتت وهي تضحك، إذ تراهم نائمين تحت جناح الرحمة الإلهية الممدود، وقالت: إنها تسمع أحلامهم. وكانوا هم عقلها في ساعة الموت!

تبارك الذي جعل في قلب الأمِّ دنیا من خلقه هو، و دنیا من خلق أولادها!
تبارك الذي أثاب الأمَّ ثواب ما تُعاني، فجعل فرحها صورة كبيرة من فرح صغارها!

وجاء أكبرُ الأطفال الخمسة، وكأته ثمانية أرتالٍ من الحياة لا ثمانية أعوامٍ من العمر؛ جاء إلينا كما يجيء الفرعُ لقلوبٍ مطمئنة، إذ كان في عينيه الباكتين معنى فقد الأم!

وطعَّت عليه الدموعُ فتناول منديلَهُ ومسحها بيده الصغيرة، ولكنَّ روحه

اليتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معاني يَتَمِّها!
وظهر الانكسار في وجهه يعبرُ بِبَلاغةٍ أَنَّهُ قد أَحسَّ حقيقةَ ضعفِهِ وطفولتِهِ بِإزاءِ
المصيبةِ الَّتِي نزلتْ بِهِ، وجلسَ مستسلماً تُترجِمُ هيئتهُ معانيَ هذه الكلمة: «رِفْقاً
بِي!».

ثُمَّ تطيرُ من عينيهِ نظراتٌ في الهواءِ، كأنَّما يُحسُّ أَنَّ أُمَّهُ حولهُ في الجوّ
ولكنَّهُ لا يراها!

ثُمَّ يُرخي عينيهِ في إغماضَةٍ خفيفةٍ، كأنَّما يرجو أن يَرى أُمَّهُ في طَوِيَّتِهِ! ^(١)
ولا يُصدِّقُ أَنَّها ماتت، فَإِنَّ صوتَها حيٌّ في أذنيه لا يزالُ يسمعهُ من أمس!
ثُمَّ يعودُ إلى وجهِهِ الانكسارُ والاستسلامُ، ويتململُ في مجلسِهِ، فينطقُ
جسمُهُ كُلُّهُ بهذه الكلمة: «يا أُمِّي!».

أَحسَّ - ولا ريبَ - أَنَّهُ قد ضاعَ في الوجودِ، لأنَّ الوجودَ كانَ أُمَّهُ .
ولمَسَ خشونةَ الدنيا منذُ السَّاعةِ، بعدَ أن فقدَ الصِّدرَ الَّذِي فيه وَحدَهُ لِبِنِ
الحياةِ لِأَنَّ فيه قلبَ أُمَّهِ وروحَها .
وشعرَ بالذلِّ ينسابُ إلى قلبِهِ الصَّغيرِ، لأنَّ تلكَ التي كانَ يملكُ فيها حقَّ
الرحمةِ قد أخذتْ مِنْهُ وتركتَهُ بلا حقٍّ في أحدٍ؛ وليسَ لأَحَدٍ أَمَانٌ!
ولبستُهُ المِسْكَنَةُ، لأنَّ لَهُ شيئاً عزيزاً أصبحَ وراءَ الزمانِ فَلَنْ يَصِلَ إليه!
ولبستُهُ المِسْكَنَةُ، لأنَّهُ صارَ وَحدَهُ في المَكانِ كما هو وَحدَهُ في الزمانِ!
وأرسمَ على وجهِهِ التَّعجُّبَ، كأنَّهُ يسألُ نَفْسَهُ: «إذا لم تكنِ أُمِّي هنا، فلماذا
أنا هنا؟!».

ثُمَّ تَغَرَّغَرَتْ ^(٢) عيناهُ فيُخرجُ منديلَهُ ويمسحُ دمعَهُ بيدهِ الصَّغيرةِ، ولكنَّ روحَهُ
اليتيمةَ تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهِهِ معانيَ يَتَمِّها!

ونَهَضَ الصَّغيرُ ولم ينطقْ بذاتِ شَفَةٍ؛ نهَضَ يحملُ رجولَتَهُ التي بدأتْ منذُ
السَّاعةِ!

(٢) تغرغرت: دمت.

(١) طويته: سريره داخله.

انتَهَتْ - أيُّها الطُفْلُ المسكينُ - أيامُكَ مِنَ الأمِّ؛ هذه الأيامُ السعيدَةُ التي كنتَ
تعرفُ الغَدَ فيها قَبْلَ أنْ يَأْتِيَ معرفَتَكَ أَمْسِ الذي مضى؛ إذْ يَأْتِي الغَدُ وَمَعَكَ أُمُّكَ!
وبدأتْ - أيُّها الطُفْلُ المسكينُ - أيامُكَ مِنَ الزَّمنِ، وسيأتي كلُّ غَدٍ مُحجَّباً
مرهوباً؛ إذْ يَأْتِي لَكَ وَحْدَكَ، ويأتي وَأَنْتَ وَحْدَكَ!
الأم...؟ يا إلهي، أيُّ صَغِيرٍ على الأَرْضِ يَجِدُ كِفَايَتَهُ مِنَ الرُّوحِ إِلَّا فِي
الأمِّ؟

قصة أب

حدّثني المسكينُ فيما حدّث وهو يصفُ ما نزلَ به قال :

رأيتُ النَّاسَ قد أنعمَ اللَّهُ عليهم أن يكونوا آباءَ فَنَسًا^(١) بالولَدِ في آثارِهِمْ، ومدَّ بالنسلِ في وجودِهِمْ، وزادَ منه في أرواحِهِمْ أرواحاً، وضمَّ به إلى قلوبِهِمْ قلوباً، وملأَ أعينَهُمْ من ذلك بما تقرُّ به قُرَّةُ عينٍ كانتَ لم تجدْ ثم وجدتْ؛ فهم بهؤلاءِ الأطفالِ يملكونَ القوَّةَ التي تُرجِعُهُمْ أطفالاً مثلَهُمْ في كلِّ ما يسرُّهم، فيكبرُ الفرحُ في أنفُسِهِمْ وإن كانَ في ذاتِ نفسِهِ ضئيلاً صغيراً، ما يسرُّهم، فيكبرُ الفرحُ في أنفُسِهِمْ وإن كانَ في ذاتِ نفسِهِ ضئيلاً صغيراً، ويعظمُ الأملُ في أشياءِهِمْ وإن كانَ هو عن شيءٍ حقيرٍ لا يؤبَهُ^(٢) له.

وتلك حقيقةٌ من حقائقِ السعادةِ لا أسمى ولا أعظمُ منها إلا الحقيقةُ الأخرى: وهي القوَّةُ التي يتحوَّلُ بها الكونُ في قلبِ الوالدينِ إلى كنزٍ مِنَ الحبِّ والرحمةِ وجمالِ العاطفةِ، بسخرٍ من ابتسامةِ طفلٍ أو طفلةٍ، أو بكلمةٍ منهما أو حركةٍ، على حينٍ لا يتحوَّلُ مثلُ ذلك ولا قريباً منه بَمالِ الدُّنيا، ولا بِمُلْكِ الدُّنيا.

رأيتُ النَّاسَ قد أنعمَ اللَّهُ عليهم أن يكونوا آباءَ، ولكِنَّهُ أبتلاني بأنْ أكونَ أباً، وأُخرجَ لي من أفراحِ قلبي أحزانَ قلبي! ولقد كنتُ كرجلٍ ملكٍ داراً يستمتعُ بها، فتمنَّى أن يُشرَعَ^(٣) في جانبِ منها غرفةٌ يزخرُفُها، فلمَّا تمَّ لَهُ ذلك وبلغَ المقتَرَحَ، أنهدمتِ الدَّارُ وبقيتِ الغرفةُ قائمة!

عَمَرَكَ اللَّهُ، أشعرُ هذا الرجلُ في نكبتهِ بالغرفةِ أم بالدارِ؟ وهل تراه زادَ أو نقص؟ ويا ليتَهُما بيتٌ وغرفةٌ من بيتٍ؛ فإنَّ الحِجارةَ تحيا بالبناءِ إذا ماتت بالهدمِ، ولكنَّ مَنْ ذا يُحيي الزوجةَ ماتت بعدَ أن وضعتْ بِكرَها الأولَ والآخِرَ! إنَّها طفلةٌ وُلِدَتْ وكأَنَّما أُخْرِجَتْ من تحتِ الرُّدمِ، إذ وُلِدَتْ تحتَ ماضٍ مَنْ

(١) نسا: زاد.

(٢) يؤبه: يهتَم، يلتفت إليه.

(٣) أي أن يفتح غرفة تؤدِّي إلى الشارع.

أَلْحِيَاةٍ مِنْهُمْ، وَهَلْ فَرْقٌ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ أُمُّهَا قَدْ وَلَدَتْهَا فِي الصَّحْرَاءِ ثُمَّ أَكْرَهَتْ أَنْ تَدْعَهَا وَحْدَهَا فِي ذَلِكَ الْقَفْرِ تَصْرُخُ وَتَبْكِي! فَالْمَسْكِينَةُ عَلَى الْحَالِيْنَ مَنْقُطَةٌ أَوَّلَ مَا أَنْقَطَعَتْ مِنْ حَنَانِ أَلَامٍ وَرَحْمَتِهَا.

طِفْلَةٌ وَلَدَتْ صَارِخَةً، لَا صَرْخَةَ أَلْحِيَاةٍ، وَلَكِنْ صَرْخَةَ النُّوحِ وَالنَّذْبِ عَلَى أُمِّهَا.

صَرْخَةُ حَزِينَةٍ مَعْنَاهَا: ضَعُونِي مَعَ أُمِّي وَلَوْ فِي الْقَبْرِ!
صَرْخَةُ تَرْتَعِدُ، كَأَنَّ الْمَسْكِينَةَ شَعُرَتْ أَنَّ الدُّنْيَا خَالِيَةٌ مِّنَ الصَّدْرِ الَّذِي يُدْفِنُهَا!
صَرْخَةُ تَتَرَدَّدُ فِي ضَرَاةٍ^(١)، كَأَنَّهَا جَمَلَةٌ مَرْكَبَةٌ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ: «يَا رَبِّ أَرْحَمْنِي مِنْ حَيَاةٍ بِلَا أُمٍّ!».

قَالَ الْمَسْكِينُ وَهُوَ يَبْكِي أَمْرَاتِهِ:

وَلَمَّا ضَرَبَهَا الْمَخَاضُ، ضَاعَفَتْ قُوَّتَهَا مِنْ شَعُورِهَا أَنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدَ قَلِيلٍ مَضَاعَفَةً بِمَوْلُودِهَا، وَسَتَكُونُ رُوحِينَ لَا رُوحاً وَاحِدَةً، وَتَلِدُ لِي أَلْحِيَاةً وَالْحُبَّ الْإِلَهِيَّ مَعاً، وَتَأْتِي لِقَلْبِي بِمِثْلِ طِفْلَتِيهِ الْأُولَى الَّتِي يَسْتَحِيلُ أَنْ تَأْتِيَ الرَّجُلَ إِلَّا مِنْ زَوْجِهِ. كُلُّ ذَلِكَ ضَاعَفَ قَوَاهَا سَاعَةً وَشَدَّ مِنْهَا؛ وَلَكِنْ مَا أَسْرَعَ مَا تَبَيَّنَتْ أَنَّهُ الْمَوْتُ، إِذْ غَضَلْتُ وَعَسَّرَ خُرُوجُ مَوْلُودِهَا.

وَجَاءَهَا الْجِرَاحِيُّ بِمِنْضَعِهِ، وَكَأَنَّهَا رَأَتْهُ ذَابِحاً لَا طَبِيباً، فَجَعَلَتْ تَعْبُرُ بَعَيْنَيْهَا، إِذْ لَمْ تَمْلِكْ فِي آلَامِهَا الْقَاتِلَةِ غَيْرَ لُغَةٍ هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ.

كَانَتْ بِنَظَرَةٍ تَبْكِي عَلَى وَعَلَى بُؤْسِي، وَبِأُخْرَى تَبْكِي عَلَى بُؤْسِ مَوْلُودِهَا وَشِقَائِهِ؛ وَبِنَظَرَةٍ تُودِّعُنِي، وَبِأُخْرَى تَدْعُو أَلَلَّةً لِي جِزَاءَ مَا أَحْسَنْتُ إِلَيْهَا؛ وَبِنَظَرَةٍ تَتَوَجَّعُ لِنَفْسِهَا، وَبِأُخْرَى تَتَأَلَّمُ مِنْ أَنَّهَا تَرَانِي أَكَادُ أَجَنَ.

نَظَرَاتٍ نَظَرَاتٍ...

يَا إِلَهِي! لَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ وَقَفَ بَيْنَ عَشْرِينَ مَرَّةً تُحِيطُ بِهِ، فَأَنَا أَرَاهُ مَوْتاً مُتَعَدِّداً لَا مَوْتاً وَاحِداً، وَكُلُّ نَظَرَةٍ مِنْ عَيْنِي زَوْجَتِي إِلَيَّ كَأَنَّهَا هِيَ نَظَرَةٌ، وَكَأَنَّ عِنْدِي أَنَا مَرَّةً أَلْروحِ لِلْروحِ.

(١) ضَرَاةٌ: تَوَسَّلَ.

ولكنّها لم تنسَ أنّها تموتُ لوضع مولودها، وأنّ هذه الآلامَ الدمويّةُ الذابحةُ هي الوسيلةُ لأنْ تتركَ لي بقيّةَ حيّةٍ منها؛ فيا للرحمةِ والحنانِ والحُبِّ! لقدِ ابْتَسَمَتْ لي وهي تموتُ؛ وهي تَلِدُ؛ وهي تُذَبِّحُ!

ليستَ رحمَةُ المرأةِ الْمُحِبَّةِ خيالاً إلا إذا كانتَ حرارةُ الشَّمْسِ التي تُحْيِي الدُّنْيَا خيالاً أيضاً؛ إنّ هذا القلبَ النُّسُويَّ المُستَقَرَّ فوقَ أحشاءِ تحمِلُ الجنينَ صابرةً راضيةً فَرِحَةً بِالْأَلَمِ، وتغذوه وتُقاسِمُهُ حياةً نَفْسِهَا - هذا القلبُ يحمِلُ الحُبَّ أيضاً صابراً راضياً فَرِحاً بِالْأَلَمِ، ويغذوه ويُقاسِمُهُ حياةً نَفْسِهِ.

وللرحمةِ الإلهيةِ أدلةٌ كثيرةٌ تدلُّ الإنسانَ عليها دلالاتٍ مختلفة؛ فالشَّمْسُ تدلُّ عليها بالضوءِ الَّذي تَطْعَمُهُ الحَيَاةُ، والهواءُ يدلُّ عليها بالضوءِ الَّذي تَتَنَفَّسُهُ الحَيَاةُ، والماءُ يدلُّ عليها بالضوءِ الَّذي تَشْرَبُهُ الحَيَاةُ، وهكذا إلى أنْ يَأْتِيَ فِي الْآخِرِ قَلْبُ المرأةِ فَيَدُلُّ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْحُبِّ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الْحَيَاةُ.

إِتْسَامَةُ الحُبِّ غَالِبَتْ زَفَرَاتِ المَوْتِ الَّتِي تَعْتَلِجُ مِنْ تَحْتِهَا حَتَّى غَلَبَتْهَا، وَأَعَادَتْ الْحَيَاةَ لَحْظَةً إِلَى وَجْهِ زَوْجَتِي لِأَرَاهَا آخَرَ مَا أَرَاهَا فِي صُورَةِ الْمُحِبَّةِ لِي، فَكَانَ كُلُّ جَمَالٍ نَفْسِهَا مُنْتَشِراً عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ، وَظَهَرَتْ فِيهِ رُوحُهَا وَعَوَاطِفُهَا تَوَدُّعُنِي وَدَاعاً حَزِيناً مُتَبَسِّماً يَتَكَلَّمُ بِعَجْزِهِ عَنِ الْكَلَامِ.

إِتْسَامَةُ لَا رَيْبَ أَنَّ فِيهَا أَشْيَاءَ لَيْسَتْ مِنْ جَمَالِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَلَا مِنْ حَقَائِقِهَا؛ فَكَأَنَّمَا أَلْتَمَعْتُ بِأَشْعَةٍ مِنَ الْخُلْدِ تَرَفُّ رَفِيقَهَا عَلَى وَجْهِ الْحَبِيبِ لِيُظْهِرَ سَاعَةَ المَوْتِ أَنَّ حَيَّةً أَقْوَى مِنَ المَوْتِ.

قَالَ الْمِسْكِينُ: وَنَثَرَ الطَّيِّبُ ذَا بَطْنِهَا فَكَانَتْ طِفْلةً، وَمَا كَانَتْ زَوْجَتِي تَقْتَرِحُ أَنْ يَكُونَ الْجَنِينُ غَيْرَهَا، بَلْ كَانَتْ مُسْتَيَقِنَةً أَنَّهَا تَضَعُهَا أَنْثَى، وَصَعَتْ لَهَا ثِيَابَهَا، وَوَشَّتْهَا بِزِينَةِ الْأُنُوثَةِ، وَعَرَضَتْ أَسْمَاءَ الْبَنَاتِ فَأَخْتَارَتْ أَسْمَهَا أَيْضاً، وَكُنْتُ أَكْرَهُ ذَلِكَ مِنْهَا وَأَرِيدُ وَلِداً لَا بِنْتاً، فَكَانَتْ تُغَايِظُنِي بِعَمَلِهَا وَإِصْرَارِهَا غِيظَ دُعَابَةٍ لَا غِيظَ جَفَاءَ.

وَمَضَتْ لَا تَذْكُرُ إِلَّا بِنْتَهَا مَدَّةَ الحَمَلِ، وَلَا تَتَكَلَّمُ إِلَّا عَنْ بِنْتِهَا، وَقَدْ كُنْتُ أَعْجَبُ لِذَلِكَ؛ فَلَمَّا قَضَى اللَّهُ فِيهَا قَضَاءَهُ، عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ الرُّوحِ، فَكَانَ الْإِلَهَامُ فِيهَا أَنَّهَا عَلَى بَابِ قَبْرِهَا، وَأَنَّهَا لَنْ تَرَى طِفْلَتَهَا، وَلَنْ تَعِيشَ لَهَا،

فعاثت أيام الحمل مع ذكراها: تضم ثيابها إلى صدرها وتحملها على يدها،
وتناغيها وتقبلها، وتأخذها من ألومهم وتردّها إليه؛ وكذلك نعت المسكينة
بالمسكينة!

لك الله يا معجزة الرحمة، يا نفس الأم!

ولما قيل: ماتت. جعل يكلمني المتكلم ولا أعقل؛ فإن الكلمة التي تأتي
بالمصيبة المتوقعة طال ارتقابها، لا تأتي بمعان لغوية كغيرها من الكلام، بل
بأسلحة تضرب في النفس وفي العقل، وتلحق جراحاً وفتكاً.

وجعلني موتها كأنني ميت يحمل نفسه، ما حوله إلا المشيعون؛ وأحسنت
كان قوة أخذت بإحدى رجلي فوضعتها في الآخرة وتركت الثانية في الدنيا،
ولحقتني من الجزع ما الله عالم به، ووجدت أخرق ألوجد، وبكيت أحرّ البكاء؛
وجعلت أفكاري تنحدر من رأسي إلى حلقي فأختنق بها ثم لا ينفس عني إلا
الدمع، كأن أعضائي اختلت مما ضغطني من الحزن، فأنا أتفس برثتي وعيني.

بموتها شعزت بها؛ ولعلّ من أجل ذلك لا يشعر الإنسان بلذة الحب كاملة إلا
في آلام الحب وحدها، وكانت في حياتها تضع من روحها في سروري، وهذا هو سر
المرأة المحبوبة: يجدد محبتها في كل سرور لمحات روحانية؛ وكذلك فعلت بعد
موتها، فجعلت روحها في أحزاني؛ ولولا أن روحها في أحزاني لقتلني المصيبة.

وكنّت أذلف^(١) وراء النعش وقد بطل في نفسي الشعور بالدنيا، وكان الناس
يمشون حولي بما فيهم من الحياة، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنهم سائرون
كما يذهبون إلى كل مكان؛ أمّا أنا فكنت أمشي بما في من الحب منكسراً منخلاً
متضعفاً، لأنني وحدي سائر وراء ما لا يلحق.

وثقل الناس على قلبي، ورجع كل أمرهم عندي إلى العيب والنقيصة، إذ
كان لي عقل طارئ من الحالة التي أنا فيها ليس مثله لأحد منهم، وكنّت وحدي
المصاب بينهم، فكنت وحدي بينهم العاقل.

أنا أمشي لأنتهي إلى آخر مصيبي، وهم يمشون لينتهوا إلى آخر الطريق؛
وشتان^(٢) ما نحن وشتان!

(٢) شتان: اسم فعل ماضٍ بمعنى بعد.

(١) دلف: مشى.

ولمّا رأيتُ قبرها أبْتَدَرْتُ عَيْنَيَّ تَنْظُرَانِ بِالدُمُوعِ لَا بِالنَّظَرِ، ورَأَيْتُ التُّرَابَ كَأَنَّهُ
غُيُومٌ مَلُونَةٌ بِالْوَانِ السُّحْبِ الدَّاكِنَةِ تَتَهَيَّأُ فِي سَمَائِهَا تَحْتَ الظَّلَامِ لِتُخْفِيَ كَوَكَباً مِنْ
الكَوَاكِبِ؛ وَظَهَرَ لِي الْقَبْرُ كَأَنَّهُ قَمٌّ الْأَرْضِ يُخَاطَبُ الْإِنْسَانَ بِحَزْمٍ صَارِمٍ، يُخَاطَبُ الْفَقِيرَ
وَالْغَنِيَّ، وَالضَّعِيفَ وَالْقَوِيَّ، وَالْمَلُوكَ وَالصَّعَالِيكَ: «أَنَّ كُلَّ قُوَّةٍ تُنَزَعُ هُنَا».

قال المسكين: وكما يجدُ الإنسانُ في أَيَّامِ الْمَطَرِ رائحةَ النسيمِ المبتلِّ بِالماءِ،
كُنْتُ أُسْتَرْوَحُ^(١) فِي رَجْعَتِي إِلَى الدَّارِ رائحةَ نَسِيمِ مَبْتَلٍ بِالدُمُوعِ؛ وَحَضَرْتُ الْمَائِمَ
وَعَزَّانِي النَّاسَ، فَكُنْتُ فِيهِمْ كَالْمَأْسُورِ بَيْنَهُمْ: لَا أَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ يَدْعُونِي فَأَنْجُو عَلَى
وَجْهِ، وَلَا أَرَى إِلَّا أَنَّهُمْ يَجْرِعُونَنِي الْوَجُودَ غُصَصاً كَمَا تَجْرَعْتُ الْفَقْدَ غُصَّةً
غُصَّةً؛ إِلَى أَنْ تَفْرُقُوا مَعَ سَوَادِ اللَّيْلِ فَأَنْكَفَأْتُ إِلَى الدَّارِ، فَإِذَا كُلُّ شَيْءٍ قَدْ تَغَيَّرَ
وَلَمَسَهُ الْمَوْتُ لَمَسَةً، وَإِذَا الدَّارُ نَفْسُهَا كَالْعَيْنِ الْمَقْرُوحَةِ مِنْ آثَارِ الْبِكَاءِ: مَا تَمَّ
شَيْءٌ إِلَّا لِيُطَالِعَنِي بِأَنْ مَسَرَاتِي قَدْ مَاتَتْ!

وَلَاخَ أَصْبَحُ لِعَيْنَيَّ السَّاهِرَتَيْنِ ضُبْحاً فَاتِراً تَبَيَّنَتْ فِيهِ الْخَجَلُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: «لَمْ
أُطْلَعْ لَكَ»، فَانْسَلَلْتُ مِنَ الْبَيْتِ، وَذَهَبْتُ أَمْشِي فِي دُنْيَا هِيَ أَلْكَابَةُ الْمَضِيئَةِ سَخِرَتْ
أَلْأَقْدَارُ مِنْهَا بِإِظْهَارِهَا فِي هَذَا الضَّوِّ مَظْهَرَ وَجْهِ الْعَجُوزِ الْمُتَصَابِغَةِ فِي زِينَةِ لَا
تَزِيدُهَا إِلَّا قُبْحاً!

ومضيتُ عَلَى وَجْهِ لَا غَايَةَ لِي، أَضْرِبُ فِي كُلِّ جِهَةٍ كَأَنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أَهْرَبَ
مِنْ نَفْسِي! وَمَا خَطَرَ لِي قَطُّ أَنِّي فِي يَوْمٍ جَدِيدٍ، بَلْ كُنْتُ عِنْدَ نَفْسِي لَا أَزَالُ.
أَمْسَ، وَتَغَيَّرَ عِنْدِي الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ: فَأَحْدَهُمَا سَاعَةً مَوْتٍ لَا تَتْرُكُ مَا فِيهَا، وَالْآخَرُ
قَبْرٌ مَيِّتٌ لَا يَرُدُّ مَا فِيهِ.

أَوْ مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي يَنْتَهِي فِيهِ الْمَوْجُودُ لِيَعْدَبُنَا بِالتَّذَكُّرِ أَنَّهُ كَانَ مَوْجُوداً!

قَالَ الْمَسْكِينُ ثُمَّ أَعَادَتْنِي قَدَمَايَ إِلَى الْبَيْتِ لِأَرَى طِفْلَتِي - وَمَا كُنْتُ رَأَيْتُهَا - وَلَقَدْ
كَانَتْ وَلادَتْهَا أَوَّلَ الْحَيَاةِ لَهَا، وَأَوَّلَ الْحَيَاةِ لِي أَيْضاً؛ إِذْ لَوْلَاهَا لَأَتَحَرَّتُ غَيْرَ شَيْءٍ.
يَا وَيْلَتَا! لَمْ تَلْتَقِ عَيْنِي بِعَيْنِ الطِّفْلِ حَتَّى أَنْفَجَرَتْ تَبْكِي. أَتَبْكِينَ لِي يَا أَبَتِي
أَمْ عَلَيَّ؟

(١) استروح: أشفم.

أهَذَا بِكَأُوكِ أَيْتُهَا الْمَسْكِينَةُ، أُمُّهُ صَوْتُ قَلْبِكَ الْيَتِيمِ؟
أَصَوْتُكَ أَنْتِ، أُمُّهُ رُوحُ أُمِّكَ تَصْرُخُ تَرْتِي لِي، وَتَتَوَجَّعُ لِفَرْطِ مَا قَاسَيْتِ!
يَا أَبْنَتِي، إِنَّمَا أَنْتِ الْحَقِيقَةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي خَرَجْتَ لِي مِنْ كُلِّ تِلْكَ الْخَيَالَاتِ
الشَّعْرِيَّةِ الْجَمِيلَةِ، خَيَالَاتِ الْأَيَّامِ السَّعِيدَةِ الَّتِي مَرَّتْ!
يُخَلِّقُ الْمَوَالِيدَ مِنَ اللَّحْمِ وَالْأَدَمِ! وَأَرَاكِ أَنْتِ يَا مَسْكِينَةَ، خُلِقْتَ مِنَ اللَّحْمِ
وَالْأَدَمِ وَالْأَدَمُوعِ!

بَقِيَّةُ حَيَاةٍ مَاتَتْ! فَهَلْ مَعْنَى ذَلِكَ إِلَّا أَنَّكَ بَقِيَّةُ مَوْتٍ يَحْيَا؟
مَسْكِينَةُ، مَسْكِينَةُ؛ لَوْ أَنَّ نَوَامِيسَ الْعَالَمِ مَتَغَيِّرَةٌ لِشَيْءٍ لَتَغَيَّرَتْ مِنْ أَجْلِ بُؤْسِكَ
فَرَدَّتْ لَكَ الْأَمَّ؛ وَلَكِنَّهَا لَنْ تَتَغَيَّرَ، وَمَا بِكَأُونا وَآلَامُنَا وَتَعَاسُنَا إِلَّا ثَرَاثٌ^(١) الْحَيَاةِ
فِي أَجْسَامِنَا الْأَرْضِيَّةِ، كُلُّ ذَلِكَ طَبِيعَةٌ وَلَكِنَّ بَقْعَةً أَنْظَفَ مِنْ بَقْعَةٍ، وَأَرَاكِ يَا أَبْنَتِي
كَالْبَيْتِ الَّذِي هُدِمَ أَوَّلَ مَا بُنِيَ يَمْلُؤُهُ تَرَاهُ!
لَنْ تَتَغَيَّرَ النَوَامِيسُ، فَلَنْ تَجْدِيَ عَطْفَ الْأُمِّ، وَلَكِنْ لَنْ يَتَغَيَّرَ قَلْبِي أَيْضًا، فَلَنْ
تُحْرَمِي عَطْفَ الْأَبِ.

وَإِذَا صَبَرَ النَّاسُ عَلَى الْحَيَاةِ فَمِنْ أَجْلِكَ يَا مَسْكِينَةَ! مِنْ أَجْلِ ضَعْفِكَ
وَأَنْقِطَاعِكَ سَأَعَانِي الصَّبْرَ لَكَ، وَأَعَانِي الصَّبْرَ لِي، وَأَعَانِي الصَّبْرَ عَنْ أُمِّكَ، سَأَصْبِرُ
عَلَى الصَّبْرِ نَفْسِي!

يَا أَبْنَتِي، يَا أَبْنَتِي، لِمَاذَا وَضَعْتَ الْأَقْدَارُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ فِي النَّاحِيَةِ الَّتِي لَيْسَ
فِيهَا إِلَّا قَبْرٌ مَظْلَمٌ مَقْفَلٌ عَلَى أُمِّكَ، وَأَبٌ مَسْكِينٌ مَقْفَلٌ عَلَى آلامِهِ؟

قَالَ الْمَسْكِينُ: وَهَكَذَا كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْبُؤْسِ وَالْهَمِّ، فَلَمْ أَتَزَوَّجْ إِلَّا لِتَصْنَعَ لِي
حَبِيبِي دُمُوعِي، ثُمَّ لَمْ تَمُتْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَرَكْتَ لِي حَبِيبَةً أُخْرَى سَتَظَلُّ زَمَنًا طَوِيلًا
تَصْنَعُ لِي دُمُوعِي!

(١) ثَرَاثٌ: وِرَاثَةٌ.

السَّكَّةُ

حَدَّثَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ الْفَقِيهَ الْبَغْدَادِيَّ قَالَ: حَصَلْتُ فِي مَدِينَةِ (بَلَخ) سَنَةً ثَلَاثِينَ وَمِائَتِينَ، وَعَالِمُهَا يَوْمَئِذٍ شَيْخُ خُرَاسَانَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْزَاهِدُ صَاحِبُ الْمَوَاعِظِ وَالْحِكَمِ؛ وَهُوَ رَجُلٌ قَلْبُهُ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ، وَنَفْسُهُ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَالْفَلَكَ الْأَعْلَى مِنْ وَرَاءِ نَفْسِهِ، كَأَنَّهُ يُلْقَى عَلَيْهِ فِيمَا زَعَمُوا.

وَكَانَ يُقَالُ لَهُ عِنْدَهُمْ: (لَقَمَانُ هَذِهِ الْأُمَّةِ)؛ لِمَا يُعْجِبُهُمْ مِنْ حِكْمِهِ فِي الزَّهْدِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَقَدْ حَضَرْتُ مَجَالِسَهُ وَحَفِظْتُ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئاً كَثِيراً، كَقَوْلِهِ: مَنْ دَخَلَ مَذْهَبَنَا هَذَا (يَعْنِي الطَّرِيقَ) فَلْيَجْعَلْ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ خِصَالٍ مِنَ الْمَوْتِ: مَوْتُ أَبْيَضٍ، وَمَوْتُ أَسْوَدٍ، وَمَوْتُ أَحْمَرَ، وَمَوْتُ أَخْضَرَ؛ فَالْمَوْتُ الْأَبْيَضُ الْجُوعُ، وَالْمَوْتُ الْأَسْوَدُ أَحْتِمَالُ الْأَذَى، وَالْمَوْتُ الْأَحْمَرُ مُخَالَفَةُ النَّفْسِ، وَالْمَوْتُ الْأَخْضَرُ طَرَحُ الرِّقَاعِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ (يَعْنِي لِبْسَ الْمَرْقَعَةِ وَالْخَلْقِ مِنَ الثِّيَابِ).

وَقُلْتُ يَوْمَاً لِصَاحِبِهِ وَتَلْمِيزِهِ (أَبِي ثُرَابٍ) وَجَارِئَتُهُ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْكَلَامِ: قَدْ فَهَمْنَا وَجْهَ التَّسْمِيَةِ فِي الْمَوْتِ الْأَخْضَرِ مَا دَامَتِ الْمَرْقَعَةُ خَضِرَاءَ؛ فَمَا الْوَجْهُ فِي الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ؟ فَجَاءَ بِقَوْلٍ لَمْ أَرْضَهُ، وَلَيْسَ مَعَهُ دَلِيلٌ، ثُمَّ قَالَ: فَمَا عِنْدَكَ أَنْتَ؟ قُلْتُ: أَمَّا الْجُوعُ فَيُمِيتُ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا وَيَتْرَكُهَا بِيضَاءَ نَقِيَّةٍ، فَذَلِكَ الْمَوْتُ الْأَبْيَضُ؛ وَأَمَّا أَحْتِمَالُ الْأَذَى فَهُوَ أَحْتِمَالُ سَوَادِ الْوَجْهِ عِنْدَ النَّاسِ، فَهُوَ الْمَوْتُ الْأَسْوَدُ؛ وَأَمَّا مُخَالَفَةُ النَّفْسِ فَهِيَ كِإِضْرَامِ النَّارِ فِيهَا، فَذَلِكَ الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ.

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ: وَكَثُرَتْ ذَاتَ نَهَارٍ فِي مَسْجِدِ (بَلَخ) وَالنَّاسُ مُتَوَافِرُونَ^(١) يَنْتَظِرُونَ (لَقَمَانَ الْأُمَّةِ) لِيَسْمَعُوهُ، وَشَغَلَهُ بَعْضُ الْأَمْرِ فَرَاثَ^(٢) عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مَنْ يَعْظُمُنَا إِلَى أَنْ يَجِيءَ الشَّيْخُ؟ فَالْتَفَتَ إِلَيَّ أَبُو ثُرَابٍ وَقَالَ: أَنْتَ رَأَيْتَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، وَرَأَيْتَ بَشْراً الْحَافِيَّ وَفَلَاناً وَفَلَاناً، فَقُمْ فَحَدِّثِ النَّاسَ عَنْهُمْ، فَإِنَّمَا هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالُهُمْ هُمْ بَقَايَا النَّبُوَّةِ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي إِلَى الْأَسْطُوَانَةِ الَّتِي

(١) متوافرون: كثر.

(٢) فراث: تأخر.

يجلس إليها إمام خراسان فأجلسني ثمة^(١) وقعد بين يدي .

وتناولت الأعناق^(٢) ، ورماني الناس بأبصارهم^(٣) ، وقالوا : البغدادي ! البغدادي ! وكأنما ضوعفت عندهم بمجلسي مرةً وبنسبتي مرةً أخرى ، فقلتُ في نفسي : - واللّه - ما في الموتِ الأحمر ولا الأخضر ولا الأسود موعظة ، ولو ليس عزرائيل قوس قزح لأفسد شعراً هذه الألوان معناه ، وإنما يجب أن يكون كما يجب أن يكون ؛ ولا موعظة في كلام لم يمتلئ من نفس قائله ، ليكون عملاً فيتحول في النفوس الأخرى عملاً ولا يبقى كلاماً ؛ وإنه ليس الوعظ تأليف القول للسامع يسمعه ، لكنه تأليف النفس لنفس أخرى تراها في كلامها ، فيكون هذا الكلام كأنه قرابة بين النفسين ، حتى لكان الدم المتجاذب يجري فيه ويدور في الفاظه .

وكنْتُ رأيتُ رؤيا (بلخ) تتصل بقصة قائمة في بغداد ، فقصصتها عليهم ، فكانت القصة كما حكيتها : أتي أمثجت بالفقر في سنة تسع عشرة ومائتين ؛ وأنحسمت مادتي^(٤) وقحط منزلي فحطاً شديداً جمع عليّ الحاجة والضّر وألمسكنة ؛ فلو أنكمشت الصحراء المُجدبة فصعرت ثم صعرت حتى ترجع أذرعاً في أذرع ، لكانت هي داري يومئذ في محلة باب البصرة من بغداد .

وجاء يوم صحراوي كأنما طلعت شمسُه من بين الرمل لا من بين الشّعب ، وموت الشمس على داري في بغداد مروّرها على الورقة الجافة المعلقة في الشجرة الخضراء ؛ فلم يكن عندنا شيء يُسيغه خلق آدمي ، إذ لم يكن في الدار إلا ترابها وججارثها وأجداعها ؛ ولي امرأة ولي منها طفل صغير ، وقد طوّينا على جوع يخسف^(٥) بالجوف خسفاً كما تهبط الأرض ؛ فلتمثنت حيثئذ لو كنا جُرذاناً فنقرض الخشب ! وكان جوع الصبي يزيد المرأة ألماً إلى جوعها ، وكنْتُ بهما كالجانح بثلاثة بطون خاوية .

فقلتُ في نفسي : إذا لم تأكل الخشب والحجارة فلنأكل بشمئنا . وجمعت نيتي على بيع الدار والتحول عنها ، وإن كان خروجي منها كالخروج من جلدي : لا

(١) ثمة : ظرف زمان بمعنى هناك .

(٢) تناولت الأعناق : اشرأبت .

(٣) رماني الناس بأبصارهم : انفتحت .

(٤) انحسمت مادتي : افتقرت .

(٥) يخسف : ينهار .

يَسْمَى إِلَّا سَلَخاً وَمَوْتاً؛ وَبِثُّ لَيْلَتِي وَأَنَا كَالْمُتَخَنِّ حُمِلَ مِنْ مَعْرَكَةٍ: فَمَا يَنْقَلِبُ إِلَّا عَلَى جِرَاحٍ تَعْمَلُ فِيهِ عَمَلُ السِّيفِ وَالْأَسْثَةِ الَّتِي عَمِلْتُ فِيهَا.

ثُمَّ خَرَجْتُ بَعْلَسَ^(١) لِصَلَاةِ الصُّبْحِ؛ وَالْمَسْجِدُ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ السَّمَاءُ تَكُونُ فِيهِ، فَرَأَيْتُنِي عِنْدَ نَفْسِي كَأَنِّي خَرَجْتُ مِنَ الْأَرْضِ سَاعَةً. وَلَمَّا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ رَفَعَ النَّاسُ أَكْفَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ (تَعَالَى)، وَجَرَى لِسَانِي بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ بِكَ أَعُوذُ أَنْ يَكُونَ فَقْرِي فِي دِينِي، أَسْأَلُكَ الْنَفْعَ الَّذِي يُصْلِحُنِي بِطَاعَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ بَرَكَةَ أَرْضِي بِقَضَائِكَ، وَأَسْأَلُكَ الْقُوَّةَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالرِّضَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

ثُمَّ جَلَسْتُ أَنْتَاطِلُ شَأْنِي، وَأَطَلْتُ الْجُلُوسَ فِي الْمَسْجِدِ كَأَنِّي لَمْ أَغْذُ مِنْ أَهْلِ الزَّمَنِ فَلَا تَجْرِي عَلَيَّ أَحْكَامُهُ، حَتَّى إِذَا أَرْتَفَعَ الضُّحَى وَأَبْيَضَتِ الشَّمْسُ جَاءَتْ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ، فَخَرَجْتُ أَسَبِّبُ لِبَيْعِ الدَّارِ، وَأَتَبَعْتُ وَمَا أَدْرِي أَيْنَ أَذْهَبُ، فَمَا سِرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى لَقِينِي (أَبُو نَصْرٍ الْأَصْيَادُ) وَكُنْتُ أَعْرِفُهُ قَدِيمًا، فَقُلْتُ: يَا أَبَا نَصْرٍ! أَنَا عَلَى بَيْعِ الدَّارِ؛ فَقَدْ سَاءَتِ أَلْحَالُ وَأُخَوِّجَتِ الْخِصَاصَةُ، فَأَقْرِضْنِي^(٢) شَيْئاً يُمَسِّكُنِي عَلَى يَوْمِي هَذَا بِالْقَوَامِ مِنَ الْعَيْشِ حَتَّى أَبِيعَ الدَّارَ وَأَوْفِيكَ.

فَقَالَ: يَا سَيِّدِي! خُذْ هَذَا الْمَنْدِيلَ إِلَى عِيَالِكَ، وَأَنَا عَلَى أَثَرِكَ لِأَحِقُّ بِكَ إِلَى الْمَنْزَلِ. ثُمَّ نَاوَلَنِي مَنَدِيلاً فِيهِ رُقَاقَتَانِ بَيْنَهُمَا حُلُوى، وَقَالَ: إِنَّهُمَا وَاللَّهِ بَرَكَةُ الشَّيْخِ.

قُلْتُ: مَنْ الشَّيْخُ وَمَا الْقِصَّةُ؟

قَالَ: وَقَفْتُ أَمْسَ عَلَى بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ وَقَدْ أَنْصَرَفَ النَّاسُ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَمَرَّ بِي أَبُو نَصْرٍ بِشَرِّ الْحَافِي فَقَالَ: مَالِي أَرَاكَ فِي هَذَا الْوَقْتِ؟ قُلْتُ: مَا فِي الْبَيْتِ دَقِيقٌ وَلَا خَبِزٌ وَلَا دَرْهَمٌ وَلَا شَيْءٌ يُبَاعُ. فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ؛ إِحْمِلْ شَبَكَّتَكَ وَتَعَالَ إِلَى الْخَنْدَقِ؛ فَحَمَلْتُهَا وَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا أَنْتَهَيْنَا إِلَى الْخَنْدَقِ قَالَ لِي: تَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ. فَفَعَلْتُ، فَقَالَ: سَمِّ اللَّهَ - تَعَالَى - وَالْقِ الشَّبَكَةَ. فَسَمَّيْتُ وَأَلْقَيْتُهَا، فَوَقَعَ فِيهَا شَيْءٌ ثَقِيلٌ، فَجَعَلْتُ أَجْرُهُ فَشَقُّ عَلَيَّ؛ فَقُلْتُ لَهُ: سَاعِدْنِي فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَنْقَطِعَ الشَّبَكَةُ، فَجَاءَ وَجَرُّهَا مَعِيَ، فَخَرَجْتُ سَمَكَةً عَظِيمَةً لَمْ أَرْ مِثْلَهَا سَمَنًا وَعِظْمًا وَقَرَاهَةً. فَقَالَ: خُذْهَا وَبِغْهَا وَأَشْتَرِ بِشَمَنِهَا مَا يُصْلِحُ

(١) غَلَسَ: الْهَزِيعُ الْآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ الْعَتَمَةِ قَبْلَ الْفَجْرِ.

(٢) أَقْرَضَ: دَيْنٌ.

عِيَالِكَ. فحملتها فاستقبلني رجلٌ اشتراها، فأبتعت لأهلي ما يحتاجون إليه، فلما أكلت وأكلوا ذكرْتُ الشيخَ فقلتُ أهدي له شيئاً، فأخذتْ هاتينِ الرقاقتينِ وجعلتُ بينهما هذه الحلوى، وأتيتُ إليه فطرقتُ ألباب، فقال: من؟ قلتُ: أبو نصر! قال: افتح وضع ما معك في الدهلِيز وأدخل. فدخلتُ وحدثتهُ بما صنعتُ فقال: الحمدُ لله على ذلك. فقلتُ: إنِّي هياتُ لبيتِ شيئاً وقد أكلوا وأكلتُ ومعِي رقاقتانِ فيهما حلوى.

قال: يا أبا نصر! لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجتِ السمكة! اذهب كُلْهُ أنت وعِيالك.

قال أحمدُ بنُ مسكين: وكنتُ مِنَ الجوعِ بحيثُ لو أصبتُ رغيفاً لحسبتهُ مائدةً أنزلتُ مِنَ السماء، ولكنَّ كلمةَ الشيخِ عَنِ السمكةِ أشبعَتْني بمعانيها شبعاً ليس من هذه الدنيا، كأنما طعمتُ منها ثمرةً من ثمارِ الجنة؛ وطفقتُ^(١) أرددها لِنفسي وأتأملُ ما تُفتقُ الشهواتُ على الناس، فأيقنتُ أنَّ البلاءَ إنَّما يُصيبُنَا من أنَّا نُفسِرُ الدنيا على طولِها وعرضِها بكلماتٍ معدودة، فإذا استقرَّ في أنفسنا لفظٌ من ألفاظِ هذه الشهوات، استقرَّتْ به في النفسِ كُلُّ معانيهِ مِنَ المعاصي والذنوب، وأخذتْ شياطينُ هذه المعاني تحومُ على قلوبنا، فنصبحُ مُهيئينَ لهذه الشياطين، عاملينَ لها، ثُمَّ عاملين معها، فتدخلُنَا مداخلُ السوءِ في هذه الحياة، وتُفجِمُنَا في ألورطة^(٢) بعدَ ألورطة، وفي أهلكةَ بعدَ الهلكة.

وما هذه الشياطينُ إلَّا كالذبابِ والبعوضِ والهوام^(٣)، لا تحومُ إلَّا على رائحةٍ تجذبُها، فإنَّ لم تجذ في النفسِ ما تجتمعُ عليه، تفرقتْ ولم تجتمع، وإذا ألمتِ ألواحدهُ منها بعدَ ألواحدهِ لم تثبت. فلو أنَّا طردنا من أنفسنا الكلماتِ التي أفسدتْ علينا رؤيةَ الدنيا كما خلقتْ. لَكَانَ لِلدنيا في أنفسنا شكلٌ آخرُ أحسنُ وأجملُ من شكلِها، ولكانتْ لنا أعمالٌ أخرى أحسنُ وأظهرُ من أعمالنا.

فالشيخُ لم يكن في نفسه معنىً لكلمةِ (التلذذ)، وبطرده من نفسه هذا اللفظَ ألواحده، طردَ معانيَ الشرِّ كُلِّها، وصلَّحَ له دينه، وخلصتْ نفسه للخيرِ ومعاني

(١) طفق: شرع، بدأ.

(٢) الورطة: المصيبة.

(٣) الهوام: الحشرات.

الخير. ولو أن رجلاً وضع في نفسه امرأة يعشقها، لصارت الدنيا كلها في نفسه كالمخدع^(١): ما فيه إلا المرأة وحدها بأسبابها إليه وأسبابه إليها...

وقد كنت سمعت في درس شيخنا أحمد بن حنبل هذا الحديث: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لتطروا إلى ملكوت السموات». فما فهمت - والله - معناه إلا من كلمة الشيخ في السمكة، وقد علمنيها هذا الصياد العامي؛ فالشياطين تنجذب إلى المعاني، والمعاني يوجد لها اللفظ المستقر في القلب استقرار غرض أو شهوة أو طمع؛ فإذا خلا القلب من هذه المعاني، فقد أمن من مآزغها له وشغلها إياه، فيصبح فوقها لا بينها؛ ومتى صار القلب فوق الشهوات ولم يجد من ألفاظها ما يغميه ويعترض نظره إلى الحقائق، انكشفت له هذه الحقائق فأنكشف له الملكوت؛ فإذا وقع بعد في واحدة من اللذات ولو (كالرفاقتين والحلوى)، استغلت الأشياء عليه فحجبته^(٢)، وعاد بينها أو تحتها، وغمي عمى اللذة؛ والأجباب على البصر كأنه تعليق العمى على البصر.

وكنت لا أزال أعجب من صبر شيخنا أحمد بن حنبل وقد ضرب بين يدي المعتصم بالسياط حتى غشي عليه فلم يتحول عن رأيه؛ فعلمت الآن من كلمة السمكة أنه لم يجعل في نفسه للضرب معنى الضرب، ولا عرف للصبر معنى الصبر الأدمي؛ ولو هو صبر على هذا صبر الإنسان لجزع^(٣) وتحول، ولو ضرب ضرب الإنسان لتألم وتغير؛ ولكنه وضع في نفسه معنى ثبات السنة وبقاء الدين، وأنه هو الأمة كلها لا أحمد بن حنبل، فلو تحول لتحول الناس، ولو ابتدع لابتدعوا؛ فكان صبره صبر أمة كاملة لا صبر رجل فرد، وكان يضرب بالسياط ونفسه فوق معنى الضرب، فلو قرضوه بالمقاريض^(٤) ونشروه بالمناشير لما نالوا منه شيئاً؛ إذ لم يكن جسمه إلا ثوباً عليه، وكان الرجل هو الفكر ليس غير.

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل، ولكنهم يرونها أمانات قد اتشمتوا عليها من الله ليتبقى بهم معانيها في هذه الدنيا؛ فهم يزرعون في الأسم زرعا بيد الله، ولا يملك الزرع غير طبيعته، وما كان المعتصم وهو يريد شيخنا على غير رأيه، وعقيدته إلا كالأحمق يقول لشجرة التفاح: اثمري غير التفاح.

(٣) جزع: خاف.

(٤) قرض: قض.

(١) المخدع: مكان النوم.

(٢) حجبته: منعه.

قال أحمد بن مسكين: وأخذت الرُّقَاقَتَيْنِ وأنا أقولُ في نفسي: لعنَ اللهُ هذه الدنيا! إنَّ من هوانها على اللهِ أن الإنسانَ فيها يلبسُ وجهه كما يلبسُ نعله. فلو أنَّ إنساناً كاثَّ لهُ نظرةٌ ملائكيَّةٌ ثُمَّ أَعْرَضَ الخَلْقَ يَنْظُرُ في وجوههم، لَرَأَى عليها وُحُولاً وأَفْذَاراً كالتي في بَعَالِهِمْ أو أَقْدَرَ أو أَقْبَحَ، ولَعَلَّهُ كان لا يَرى أَجْمَلَ الوجوه التي تَسْتَهِيهِمُ النَّاسُ^(١) وتَتَصَبَّاهَا^(٢) مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ، إِلَّا كالأَحْذِيَةِ العتيقة...

ولكنِّي أَحْسَنْتُ أَنْ في هاتينِ الرُّقَاقَتَيْنِ سرُّ الشيخ، ورأيتُهما في يدي كالوثيقتينِ بخيرٍ كثيرٍ؛ فقلتُ: على بركةِ اللهِ. ومضيتُ إلى داري؛ فلَمَّا كُنْتُ في الطريقِ لقيتُني امرأةٌ معها صبيٌّ، فنظرتُ إلى المنديلِ وقالت: يا سيدي، هذا طفْلٌ يتيمٌ جائعٌ ولا صبرَ لَهُ على الجوعِ، فأطعمهُ شيئاً - يرحمَكَ اللهُ -. ونظرتُ إليَّ الطِفْلُ نظرةً لا أنساها؛ حَسِبْتُ فيها خُشُوعَ ألفِ عابِدٍ يعبدونَ اللهَ (تعالى) مُنْقَطِعِينَ عَنِ الدُّنْيَا؛ بل ما أَظُنُّ ألفَ عابِدٍ يستطيعونَ أن يُرَوِّا النَّاسَ نظرةً واحدةً كالتي تكونُ في عينِ صبيٍّ يتيمٍ جائعٍ يسألُ الرَّحمةَ. إنَّ شِدَّةَ أَلْهَمٍ لَتَجْعَلَ وجوهَ الأَطْفَالِ كوجوهِ القَدِيسِينَ، في عينٍ مَنْ يراها مِنَ الآبَاءِ والأمهاتِ، لِعَجَزِ هؤلاءِ الصِّغارِ عَنِ الشَّرِّ الآدَمِيِّ وَأَنقِطَاعِهِمْ إِلَّا مِنَ اللهِ والقلبِ الإنسانيِّ، فيظهرُ وجهُ أحدهمُ وكأنَّهُ يَصْرُخُ بمعانيه يقولُ: يا ربَّاهُ يا ربَّاهُ!

قال أحمد بن مسكين: وَخُيِّلَ إليَّ حينئذٍ أَنَّ الجَنَّةَ نَزَلَتْ إلى الأَرْضِ تَغْرِضُ نَفْسَهَا على مَنْ يُشْبِعُ هذا الطِفْلَ وأُمَّه، والنَّاسَ عَمِّي لا يُبْصِرُونَهَا، وكأنَّهم يَمْرُونَ بها في هذا المَوْطِنِ مَرورَ الحَمِيرِ بِقَصْرِ المَلِكِ: لو سُلِّتْ فَضَّلْتُ عَلَيْهِ الإِضْطِبابَ الذي هِيَ فِيهِ...

وذكرتُ أُمْرَاتِي وَأَبْنَاهَا وهما جائعانِ مُدَّ أَمْسٍ، غيرَ أَنِّي لم أَجِدْ لهما في قلبي معنى الزَّوْجَةِ والأولَدِ: بل معنى هذه المرأةِ المُحْتَاجَةِ وطفليها، فَأَسْقَطْتُهما عَنِ قلبي ودَفَعْتُ ما في يدي لِلْمَرْأَةِ وَقُلْتُ لَهَا: خُذِي وَأطْعِمِي أَبْنَكَ، و- واللَّهُ - ما أملكُ بِيضَاءً ولا صَفْرَاءً، وإنَّ في داري لَمَنْ هو أَحوجُ إلى هذا الطَّعامِ؛ ولولا هذه الحَلَّةُ بي لَتَقَدَّمْتُ فيما يُضِلُّحُك. فَدَمَعَتْ عيناها، وأَشْرَقَ وَجْهُ الصَّبِيِّ، ولكنَّ طَمَّ^(٣) على قلبي ما أنا فِيهِ فلم أَجِدْ لِلدَّمْعَةِ معنى الدَّمْعَةِ، ولا لِلْبَسْمَةِ معنى البَسْمَةِ.

(١) تستهيم الناس: تستهويهم.

(٢) تصبهاها: تعشقها.

(٣) طمَّ: خيم.

وقلتُ في نفسي : أما أنا فأطوي إن لم أصب طعاماً ، فقد كان أبو بكر الصديق يطوي ^(١) ستة أيام ، وكان ابنُ عمر يطوي ، وكان فلانٌ وفلانٌ يَمَنَّ حفظنا أسماءهم وزوينا أخبارهم ؛ ولكن من للمرأة وأبناها بمثل عقدي ونيتي ؟ وكيف لي بهما ؟

ومشيتُ وأنا مُنكسرٌ منقبض ، وكأني كنتُ نسيْتُ كلمةَ الشيخ : «لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجتِ السمكة» . فذكرتها وصرفتُ خاطري إليها وشغلتُ نفسي بتدبرها وقلتُ : لو أنني أشبعْتُ ثلاثةَ بجرعِ اثنين لَحُرِمْتُ خمسَ فضائلٍ وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة ، وهذه الفضيلةُ محتاجةٌ إلى مثل هذا العمل ، وهذا العملُ محتاجٌ إلى أن يكونَ هكذا ، فما يستقيمُ الأمرُ إلا كما صنعت .

وكانتِ الشمسُ قد أنبسطت في السماءِ وذلك وقتُ الضُّحى الأعلى ، فملتُ ناحيةً وجلستُ إلى حائطٍ أفكرُ في بيعِ الدارِ ومن يبتاعها ، فأنا كذلك إذ مرَّ أبو نصر الصيادُ وكأنَّه مُستطارٌ فرحاً ، فقال : يا أبا محمد ، ما يُجسِّسُك ههنا وفي دارك الخيرُ والغنى ، قلتُ : سبحان الله ! من أين خرجتِ السمكةُ يا أبا نصر ؟

قال : إني لفي الطريقِ إلى منزلك ، ومعِي ضرورةٌ من ألقوتِ أخذتها ليعيالك ، ودراهمُ استَدْنْتُها لك ، إذا رجلٌ يَسْتَدِلُّ الناسَ على أبيك أو أحدٍ من أهله ، ومعهُ أثقالٌ وأحمال ، فقلتُ له : أنا أدلك . ومشيتُ معه أسأله عن خبره وشأنيه عند أبيك . فقال : إنَّه تاجرٌ من البصرة ، وقد كان أبوك أودعه مالا من ثلاثين سنة ، فأفلسَ وأنكسرَ المالُ ثُمَّ تركَ البصرةَ إلى خراسانَ ، فصلَّحَ أمره على التجارةِ هناك ، وأيسرَ بعدَ المِحنةِ ، وأسْتَظْهَرَ بعدَ الخِذلانِ ، وأقبلَ جَدُّه بالثراءِ والغنى ؛ فعادَ إلى البصرة ، وأرادَ أن يتحلَّلَ ، فجاءك بالمالِ وعليه ما كان يربحه في هذه الثلاثين سنة ، وإلى ذلك طرائفُ وهدايا .

قال أحمدُ بنُ مسكين : وأنقلبَ إلى داري فإذا مالٌ جَمٌّ وحالٌ جميلة ! فقلتُ : صدقَ الشيخ : «لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجتِ السمكة» ! فلو أن هذا الرجلَ لم يلقَ في وجهه أبا نصر ، في هذه الطريقِ ، في هذا اليومِ ، في هذه الساعةِ ، لما أهتدى إليَّ ؛ فقد كان أبي مغموراً لا يعرفه أحدٌ وهو حيٌّ ؛ فكيف به ميتاً من وراء عشرين سنة ؟

والَيْتُ ليعلمنَّ اللهُ شكري هذه النعمة ؛ فلم تكن لي هِمةٌ إلا البحثَ عن

(١) يطوي : ينام بلا عشاء .

المرأة المحتاجة وأبنها، فكفيتُهما وأجريتُ عليهما رزقاً، ثُمَّ اتَّجَرْتُ في المال، وجعلتُ أَرْبَهُ^(١) بالمعروف والصَّنيعة والإحسان وهو مُقْبِلٌ يزدادُ ولا ينقُص، حتى تمولتُ وتأملتُ^(٢).

وكأنِّي قد أعجبني نفسي، وسرَّني أنِّي قد ملأتُ سِجِلَاتِ الْمَلَائِكَةِ بحسناتي، ورجوتُ أن أكونَ قد كُتِبْتُ عندَ اللَّهِ في الصَّالحين، فنمتُ ليلةً فرأيتُني في يومِ القيامةِ وأُخِلْتُ بموجِّ بعضهم في بعض، وألهولُ هولِ أَلْكَونِ الْأَعْظَمِ على الإنسانِ الضعيف، يُسألُ عن كُلِّ ما مَسَّهُ من هذا الكون. وسمِعْتُ الصَّائِحَ يقول: يا معشرَ بني آدم! سَجَدَتِ الْبَهَائِمُ شُكْراً لِلَّهِ أَنَّهُ لَمْ يجعلها من آدم. ورأيتُ النَّاسَ وقد وُسِّعَتْ أبدانُهم فهمَ يَحْمِلُونَ أوزارَهم على ظُهُورِهِم مخلوقةً مجسَّمة، حتى لَكَانَ الْفَاسِقُ على ظَهْرِهِ مَدِينَةً كُلُّهَا مُخْزِيَاتٍ!

وقيل: وَضَعَتِ الْمَوَازِينُ. وجيءَ بي لِوِزْنِ أَعْمَالِي، فَجُعِلَتْ سِيتَانِي في كِفَّةٍ وَأُلْقِيَتْ سِجِلَاتُ حَسَنَاتِي في الْأُخْرَى، فَطَاشَتْ^(٣) السِّجِلَاتُ وَرَجَحَتْ أَلْسِنَاتُ، كَأَنَّمَا وَزَنُوا الْجِبَلَ الصَّخْرِيُّ الْعَظِيمَ الضَّخْمَ بِلُفَافَةٍ مِنَ الْقُطَنِ...

ثُمَّ جَعَلُوا يُلْقُونَ الْحَسَنَةَ بَعْدَ الْحَسَنَةِ مِمَّا كُنْتُ أَصْنَعُهُ فَإِذَا تَحْتَ كُلِّ حَسَنَةٍ شَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ: كَالزَّيَاءِ وَالْعُرُورِ وَحُبِّ الْمَخْمَدَةِ عِنْدَ النَّاسِ وَغَيْرِهَا، فَلَمْ يَسْلَمْ لِي شَيْءٌ، وَهَلَكْتُ عَنِّي حُجَّتِي، إِذِ الْحِجَةُ مَا يُبَيِّنُهُ الْمِيزَانُ، وَالْمِيزَانُ لَمْ يَدُلَّ إِلَّا عَلَى أَنِّي فَارِغٌ.

وَسَمِعْتُ الصَّوْتَ: أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ؟ فَقِيلَ: بَقِيَ هَذَا.

وَأَنْظَرُ لِأَرَى مَا هَذَا الَّذِي بَقِيَ، فَإِذَا الرَّقَاقَتَانِ اللَّتَانِ أَحْسَنْتُ بِهِمَا عَلَى الْمَرْأَةِ وَأَبْنَيْهَا فَأَيْقَنْتُ أَنِّي هَالِكٌ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أَحْسَنُ بِمِائَةِ دِينَارٍ ضَرْبَةً وَاحِدَةً فَمَا أَغْنَتْ عَنِّي، وَرَأَيْتُهَا فِي الْمِيزَانِ مَعَ غَيْرِهَا شَيْئاً مَعْلُوقاً، كَالْغَمَامِ^(٤) حِينَ يَكُونُ سَاقِطاً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ: لَا هُوَ فِي هَذِهِ وَلَا هُوَ فِي تِلْكَ.

وَوُضِعَتِ الرَّقَاقَتَانِ، وَسَمِعْتُ الْقَائِلَ: لَقَدْ طَارَ نَصْفُ ثَوَابِهِمَا فِي مِيزَانِ أَبِي نَصْرِ الصَّيَادِ. فَأَنْخَذْتُ^(٥) أَنْخَذَالاً شَدِيداً، حَتَّى لَوْ كُسِرَتْ نِصْفَيْنِ لَكَانَ أَخْفَ عَلَيَّ

(١) أَرْبَهُ: أَزِيدُهُ.

(٢) تَأَمَّلْتُ: اغْتَنَيْتُ.

(٣) طَاشَتْ: خَفَّتْ وَانْحَرَفَتْ.

(٤) الْغَمَامُ: الْغَيْمُ.

(٥) أَنْخَذْتُ: شَعَرْتُ بِالْخَسْرَانِ وَالْهَزِيمَةِ.

وأهون. بَيَدَ أَنِّي نَظَرْتُ فَرَأَيْتُ كِفَّةَ الْحَسَنَاتِ قَدْ نَزَلَتْ مِنْزِلَةً وَرَجَحَتْ بَعْضَ الْرُجْحَانِ.

وَسَمِعْتُ الصَّوْتَ: أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ؟ فَقِيلَ بَقِيَ هَذَا.

وَأَنْظَرُوا مَا هَذَا الَّذِي بَقِيَ، فَإِذَا جَوْعُ أَمْرَاتِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ! وَإِذَا هُوَ شَيْءٌ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ، وَإِذَا هُوَ يَنْزِلُ بِكَفَّةٍ وَيَرْتَفِعُ بِالْآخَرَى حَتَّى أَعْتَدَلَتَا بِالسَّوِيَّةِ. وَثُبَّتَ الْمِيزَانُ عَلَى ذَلِكَ فَكُنْتُ بَيْنَ الْهَلَاكِ وَالنَّجَاةِ.

وَأَسْمَعُ الصَّوْتَ: أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ؟ فَقِيلَ بَقِيَ هَذَا.

وَنَظَرْتُ فَإِذَا دَمَوْعُ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْمَسْكِينَةِ حِينَ بَكَتْ مِنْ أَثَرِ الْمَعْرُوفِ فِي نَفْسِهَا، وَمِنْ إِثَارِي^(١) إِيَّاهَا وَأَبْنَاهَا عَلَى أَهْلِي. وَوُضِعَتْ غَرَّغَرَةٌ^(٢) عَيْنِهَا فِي الْمِيزَانِ فَفَارَتْ، فَطُمْتُ^(٣) كَأَنَّهَا لُجَّةٌ، مِنْ تَحْتِ اللَّجَّةِ بَحْرٍ؛ وَإِذَا سَمَكَةٌ هَائِلَةٌ قَدْ خَرَجَتْ مِنَ اللَّجَّةِ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا رُوحُ تِلْكَ الدَّمْعِ، فَجَعَلْتُ تَعْظُمُ وَلَا تَزَالُ تَعْظُمُ، وَالْكَفَّةُ تَرْجَحُ وَلَا تَزَالُ تَرْجَحُ، حَتَّى سَمِعْتُ الصَّوْتَ يَقُولُ: قَدْ نَجَا! وَصَخْتُ صَبِيحَةً أَنْتَبَهْتُ لَهَا، فَإِذَا أَنَا أَقُولُ: «لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ السَّمَكَةُ!».

(١) إِثَارِي: تَفْضِيلِي.

(٢) غَرَّغَرَةٌ: دَمْعٌ.

(٣) طُمْتُ: فَاضَتْ.

الزاهدان

٢

قال أحمد بن مسكين: انتشر حديث السمكة في أهل (بلخ). وأستفاض^(١) بينهم، وكنت قصصته عليهم يوم السبت، فلما دار السبت من أسبوعه لقيني شيخهم حاتم بن يوسف (لقمان الأمة) ومعه صاحبه أبو تراب، فقال: يا أحمد! لكأنك في هذه المدينة قمر طلع بليل فلا يعط الناس في يوم السبت غيرك؛ ومن سمع فكأنه عاين^(٢)، وليس على السنة أهل بلخ منذ تحدثت إلا بشر وأبن حنبل، ولا على بال أحد منهم إلا موعظتك وحديثك.

والكلام عن الصالحين في مثل ما وصفت وحكى قُرب من حقائقهم، وسُمُو إلى معانيهم، وليس في القول باب له موقع كموقع القصة عن هؤلاء الذين يخلقهم الله في البشرية خلق النور: يضيء ما حوله من حيث يرى، ويعمل فيما حوله من حيث لا يرى، وفي ظاهره الجمال والمنفعة، وفي باطنه القوة والحياة. ولست أقول لك أذهب فحدث الناس، ولكني أقول أذهب فأعط الناس عقلاً من الحديث.

قال ابن مسكين: فلما صلينا العصر، قدمني أبو تراب فجلست في مجلسي ذاك، وهتف بي الناس يريدون الحديث عن بشر الحافي وما سقط لي من أخباره، على الطريقة التي حدثتهم بها من قبل، فأبتدأت بذكر موته (رحمه الله) وأن يومه كأنما أجمع له أهل خمس وسبعين سنة، إذ خرجت جنازته بعد صلاة الصبح، فلم يحصل في قبره إلا في الليل مما احتشد^(٣) في طريقه من الخلق، حتى لكأن في نعيه سرًا من أسرار الجنة يُطالعهم به الموت فخرجوا ينظرون إليه، وكانوا يصيحون في جنازته: هذا - والله - شرف الدنيا قبل شرف الآخرة.

(١) استفاض: انتشر.

(٢) عاين: رأى.

(٣) احتشد: تجمهر، اجتمع.

ثُمَّ قُلْتُ: حَدَّثَنِي حُسَيْنُ الْمَغَازِلِيِّ: أَنَّ بَشْرًا (رَحِمَهُ اللَّهُ) كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا الْخَبِزَ تَوَرُّعًا عَنِ الشَّبَهَاتِ وَكَتْفَاءَ لِحُضُورَةِ الْحَيَاةِ بِالْأَقْلَى الْإِسْرَ، وَكَانَ يَقُولُ فِي ذَلِكَ: يَدٌ أَقْصَرُ مِنْ يَدِي، وَلَقَمَةٌ أَصْغَرُ مِنْ لَقَمَةٍ. وَسُئِلَ مَرَّةً: بِأَيِّ شَيْءٍ تَأْكُلُ الْخَبِزَ؟ فَقَالَ: أَذْكَرُ الْعَافِيَةَ فَأَجْعَلُهَا إِدَامًا. وَقَدْ أَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ، وَكَانَ يَرَى هَذَا نَقْصًا فِي نَفْسِهِ حَتَّى فَضَّلَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ بِأَشْيَاءَ: مِنْهَا أَنَّ لَهُ أَهْلًا؛ غَيْرَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ: لَوْ تَزَوَّجْتَ تَمَّ نُسُكُكَ. فَقَالَ: أَخَافُ أَنْ تَقُومَ الزَّوْجَةُ بِحَقِّي وَلَا أَقُومَ بِحَقِّهَا. فَكَانَتْ هَذِهِ النِّيَّةُ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلَ مِنْ زَوَاجِهِ.

وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يُؤَاكِلُ أَحَدًا، وَلَا يَسْعَى إِلَى لِقَاءِ أَحَدٍ، حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا رَغِبَ فِي مُوَاخَاةِ الزَّاهِدِ الْعَظِيمِ (مَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ)، أَرْسَلَ إِلَيْهِ (الْأَسْوَدُ بْنُ سَالِمٍ) وَكَانَ صَدِيقًا لَهُمَا، فَقَالَ لِمَعْرُوفٍ: إِنَّ بَشْرَ بْنَ الْحَارِثِ يُرِيدُ مُوَاخَاةَكَ وَهُوَ يَسْتَحِي أَنَّ يُشَافِهَكَ^(١)، بِذَلِكَ، وَقَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلُكَ أَنْ تَعْقِدَ لَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ أَخُوَّةَ يَحْتَسِبُهَا وَيَعْتَدُّ بِهَا؛ إِلَّا أَنَّهُ يَشْتَرِطُ فِيهَا شَرْوْطًا: أَوَّلُهَا أَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَشْتَهَرَ ذَلِكَ، وَثَانِيهَا أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مُزَاوَرَةٌ وَلَا مُلَاقَاةٌ. فَقَالَ مَعْرُوفٌ: أَمَّا أَنَا فَلِذَا أَحْبَبْتُ أَحَدًا لَمْ أَحِبَّ أَنْ أَفَارِقَهُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا، وَأَزُورُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَأَوْثِرُهُ عَلَى نَفْسِي فِي كُلِّ حَالٍ؛ وَأَنَا أَعْقِدُ لِبَشْرِ أَخُوَّةَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَكِنِّي أَزُورُهُ مَتَى أَحْبَبْتُ، وَأَمْرُهُ بِلِقَائِي فِي مَوَاضِعَ نَلْتَقِي فِيهَا إِذَا هُوَ كَرِهَ زِيَارَتِي.

قَالَ حُسَيْنُ الْمَغَازِلِيِّ: وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ أَمْرِ بَشْرِ مَعْرُوفًا فِي بَغْدَادَ، لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِبَغْدَادَ إِمَامٌ غَيْرُهُ وَغَيْرُ أَبِي حَنْبَلٍ؛ فَمَا كَانَ أَكْثَرَ عَجَبِي حِينَ كُنْتُ عَنْدهُ يَوْمًا وَقَدْ زَارَهُ (فَتَحَّ الْمُؤَصِّلِي)، فَقَامَ فَجَاءَ بِدَارِهِمْ مَلَأَ كَفَّهُ وَدَفَعَهَا إِلَيَّ وَقَالَ: أَشْتَرِ لَنَا أَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الطَّعَامِ، وَأَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الْحُلُوى، وَأَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الطَّيِّبِ، وَمَا قَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ قَطُّ، وَهُوَ الَّذِي رَأَى الْفَاكِهَةَ يَوْمًا فَقَالَ: تَرَكْتُ هَذِهِ عِبَادَةً! وَهُوَ الْقَائِلُ لِأَبِي نَصْرِ الصِّيَادِ: لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ أَلْسِمَكَةُ.

فَذَهَبْتُ فَأَشْتَرَيْتُ وَأَنْتَقَيْتُ وَتَخَيَّرْتُ، ثُمَّ وَضَعْتُ الطَّعَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، فَرَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مَعَهُ وَمَا رَأَيْتُهُ أَكَلَ مَعَ غَيْرِهِ، وَرَأَيْتُهُ مُنْسَبِطًا إِلَيْهِ وَمَا لِي عَهْدٌ كَانَ بِأَنْبَسَاطِهِ إِلَى أَحَدٍ. وَقَدْ كُنْتُ أَخْبِرْتُهُ فِي ذَلِكَ النَّهَارِ بِخَبْرِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، عَلِمْتُهُ مِنْ أَدْرِيسَ

(١) يَشَافِهَكَ: يَحْذَنُكَ.

الحداد: فإنه لما زالت المحنة بعد أن ضرب بين يدي المعتصم وضُرف إلى بيته، حُمِلَ إليه مالٌ كثيرٌ من سَرَوَاتٍ^(١) بغدادَ وأهل الخِيرِ فيها، فردَّ جميعَ ذلك ولم يقبل منه قليلاً ولا كثيراً، وهو محتاجٌ إلى أيسره، وإلى الأقل من أيسره، وإلى الشيء من أقله، فجعلَ عمه إسحاقَ يَحْسِبُ ما وردَ ذلك اليوم، فكانَ خمسين ألفَ دينار، فقالَ له الإمام: يا عم، أراك مشغولاً بحساب ما لا يُفيدُك. قال: قد ردَدْتُ اليومَ كذا وكذا ألفاً وأنت محتاجٌ إلى حبةٍ من دانق. فقالَ الإمام: يا عم، لو طلبتاهُ لم يأتنا، وإنما أتانا لما تركناه.

قال المَعَاذِلِي: فَبِمَنْتُ تلكَ الليلةَ وأنا أفكُرُ في صنيعِ الشَّيخ، وقد تعلَّقَ خاطري به: كيف أنقلبَتِ الحالُ معه، وأي شيءٍ هذه الحال؟ وجعلتُ أِكْدُ ذهني لأعرفَ الحَقِيقَةَ العَقْلِيَّةَ التي سَلَطَتْ عليه هذه الضَّرورةَ فَتَسَلَّطَ النِّعِمُ على نفسه، وأنا أعلمُ أنَّ للقومِ علوماً روحانيَّةً لَيْسَتْ في الكُتُب، فمنها لا يتعلمونه إِلَّا مِنَ الْفَقْرِ، ومنها ما لا يتعلمونه إِلَّا مِنَ الْبَلَاءِ، ومنها، ومنها؛ ولكنَّ لَيْسَ منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات؛ وذهبَ قلبي إلى أوهام كثيرةٍ لَيْسَ في جميعِها طائِلٌ ولا بها معرفة، حتى غلبتني عياني، وأنا من وَهَجِ الْفَكْرِ نائمٌ كالمريض، وقد ثَقُلَ رأسي وأختلطَ فيه ما يُعَقِّلُ بما لا يُعَقِّلُ.

فَرَأَيْتُ أولَ ما رَأَيْتُ مَلِكاً جباراً يحكُمُ مَدِينَةً عَظِيمَةً، وقد أَطْلَقَ الْمَنَادِي فِي جَمْعِ كُلِّ أَطْفَالٍ مَدِينَتِهِ، فَجِيءَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ دَارٍ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ قَدْ جَلَسَ عَلَى سِرِيرِهِ وَفِي يَدِهِ مِقْرَاضٌ عَظِيمٌ، قَدْ أَتَخَذَهُ عَلَى هَيْئَةِ نَصْلِينَ^(٢) عَرِيضِينَ لَوْ وُضِعَتْ بَيْنَهُمَا رَقَبَةٌ لَفَصَلَاها عَنْ جَسَمِهَا؛ فَكَانَ هَذَا الْجَبَّارُ يَتَنَاوَلُ الطِّفْلَ مِنْ أَوْلَيْكَ فَيَضَعُ أَصَابِعَ إِحْدَى قَدَمَيْهِ فِي شِقْيِ الْمِقْرَاضِ فَيَقْرَضُهَا، فَإِذَا هِيَ تَتَنَاضَّرُ أَسْرَعَ مِمَّا يَقْرَضُ الْمَقْصُصُ الْخِيطَ، ثُمَّ يَرْمِي بِالطِّفْلِ مَغْشِياً عَلَيْهِ، وَيَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ فَيَبْتَرُ^(٣) أَصَابِعَهُ، وَالْأَطْفَالُ يَصْرَخُونَ؛ وَأَنَا أَرَى كُلَّ ذَلِكَ وَلَا أَمْلِكُ إِلَّا غِيظِي عَلَى هَذَا الْجَبَّارِ مِنْ حَيْثُ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمْضِيَ فِيهِ هَذَا الْغَيْظَ فَأَقْرَضَ عَنقَهُ بِمِقْرَاضِهِ.

ثم رَأَيْتُهُ يَأْخُذُ طِفْلاً صَغِيراً، فَلَمَّا جَاءَتْ قَدَمُ الطِّفْلِ بَيْنَ شِقْيِ الْمِقْرَاضِ صَاحَ: يَا

(١) السروات: الأغنياء.

(٢) نصل السيف: المكان القاطع منه. (٣) بتر: قطع.

رَبِّ، يَا رَبِّ. فَإِذَا الْمِقْرَاضُ يَلْتَوِي فَلَا يَصْنَعُ شَيْئاً، وَكَأَنَّ فِيهِ حَجَراً صَلْداً لَا قَدَمَ رَخْصَةَ^(١). فْتَمَيَّزَ الْجَبَّارُ مِنَ الْغَيْظِ وَقَالَ: مَنْ هَذَا الطِّفْلُ؟ فَسَمِعَتْ هَاتِفاً يَهْتَفُ: هَذَا بَشَرُ الْحَافِي! لَا يَلْبُغُ تَأْجُ مَلِكٍ فِي الْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لِقَدَمِهِ الْحَافِي نَعْلًا عِنْدَ اللَّهِ!

وَكَانَ إِلَى يَمِينِي رَجُلٌ يَتَوَضَّأُ وَجْهَهُ صَلَاحاً وَتَقْوَى، فَقُلْتُ لَهُ: مَنْ هَذَا الطَّاعِيَةُ^(٢)؟ وَلِمَ اتَّخَذَ الْمِقْرَاضُ لِأَقْدَامِ الْأَطْفَالِ خَاصَّةً؟

فَقَالَ: يَا حُسَيْن! إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ هُوَ ذُلُّ الْعَيْشِ، وَهَذَا وَسَمُهُ لِأَهْلِ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ، يُحَقِّقُ بِهِ فِي الْإِنْسَانِ مَعْنَى الْبَهِيمَةِ أَوَّلَ مَا يَدْبُ^(٣) عَلَى الْأَرْضِ، حَتَّى كَأَنَّهُ ذُو حَافِرٍ لَا ذُو قَدَمٍ.

قُلْتُ: فَمَا بَالُ هَذَا الطِّفْلِ لِمَ يَعْمَلُ فِيهِ الْمِقْرَاضُ؟

قَالَ: إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً اسْتَخْصَمَ^(٤) لِنَفْسِهِ، أَوَّلَ عَلَامَتِهِ فِيهِمْ أَنَّ أُنْذَلَ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ، وَهُمْ يَجِيثُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لِإِبْتَاتِ الْقُدْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى حُكْمِ طَبِيعَةِ الشَّهَوَاتِ الَّتِي هِيَ نَفْسُهَا طَبِيعَةُ الذَّلِّ؛ فَإِذَا أَطْرَحَ أَحَدُهُمْ يَلْشَهَوَاتٍ وَزَهْدٍ فِيهَا، وَأَسْتَقَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي عَقْدِ نِيَّةٍ وَقُوَّةِ إِرَادَةٍ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِالزَّاهِدِ كَمَا يَصِفُهُ النَّاسُ، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ قَوِيٌّ أَخْتَارَتْهُ الْقُدْرَةُ لِيَحْمِلَ أَسْلِحَةَ النَّفْسِ فِي مَعَارِكِهَا الطَّاحِنَةِ، كَمَا يَحْمِلُ الْبَطْلُ الْأَرُوغُ أَسْلِحَةَ الْجِسْمِ فِي مَعَارِكِهِ الدَّامِيَةِ: مَذَا يَتَعَلَّمُ مِنْهُ فَنٌّ، وَذَاكَ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ فَنٌّ آخَرُ، وَكِلَاهُمَا يُرْمَى بِهِ عَلَى الْمَوْتِ لِإِيجَادِ أَنْوَعِ الْمُسْتَعْمَرِ مِنَ الْحَيَاةِ، فَأَوَّلُ فُضَائِلِهِ الشُّعُورُ بِالْقُوَّةِ، وَآخِرُ فُضَائِلِهِ إِيجَادُ الْقُوَّةِ.

قَالَ الْمَغَازِلِيُّ: وَضَرَبَ النَّوْمُ عَلَى رَأْسِي ضَرْبَةً أُخْرَى - فَإِذَا أَنَا فِي أَرْضٍ حَبِيثَةٍ دَاخِنَةٍ، قَدْ أَرْتَفَعَ لَهَا دُخَانٌ كَثِيفٌ أَسْوَدُ يَتَضَرَّبُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ رَجَعْتُ أَرَى شَعْلًا خُمراً تَذْهَبُ وَتَجِيءُ كَأَنَّهَا أَجْسَامٌ حَيَّةٌ، فَوَقَعَ فِي وَهْمِي أَنَّ هَذِهِ هِيَ الشَّيَاطِينُ: إِيَّائِي وَجُنُودَهُ، وَسَمِعْتُ صَارِخاً يَقُولُ: يَا بُشْرَى! قُلْتُ بِكَ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ - لَقَدْ أَكَلَ بَشَرُ الْحَافِي مِنَ أَطْيَبِ الطَّعَامِ وَأَطْيَبِ الْحُلُوفِ بَعْدَ أَنْ أَسْتَرَقَ عِنْدَ حَجَرٍ مَا وَسَّادَهَا^(٥) وَذَهَبَهَا وَفَضَّهَا! فَعَارِضُهُ صَائِحٌ أَسْمَعُ صَوْتَهُ وَلَا أَرَى شَخْصَهُ - وَبِكَ - زَلْتَبُورُ^(٦)! إِنَّ هَذَا شَرُّ عَلَيْنَا مِنْ عَامَّةِ نُسُكِهِ وَعِبَادَتِهِ؛ فَهَذَا - وَبِحُكِّ - هُوَ إِلَهُ هَذَا الْاَعْنَى الَّذِي كَانَ لَا

(١) رَخْصَةُ: طَرِيْقَةُ الدِّنَةِ.

(٤) اسْتَخْصَمَ: اسْتَخْصَمَهُم.

(٢) الطَّاعِيَةُ: الظَّالِمُ.

(٥) مَدْرَهَا: مَدْنَهَا وَحَصَرَهَا.

(٣) يَدْبُ: يَمْشِي.

(٦) زَلْتَبُورُ: هُوَ اسْمُ بَعْضِ رُلْدٍ يَمْنِي.

بُطِيقَةُ بَشَرٍ: إِنَّهُ إِعْنَاتٌ^(١) سَلَطَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنِّي دَفَعْتُ هَذَا (الْمَغَارِلِي) الْأَعْمَى الْقَلْبَ لِئَنِّي لَمْ أَفْعَلْ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ مِنْ رَدِّهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ عَلَى حَاجَتِهِ، زَهْدًا وَوَرَعًا، وَقُوَّةَ عَزْمٍ، وَنَفَاقًا لِزَادَةٍ: وَقُلْتُ: عَسَى أَنْ تَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ شَهْوَةُ الزَّهْدِ فَيُخْشِدَ أَوْ يَغَارَ، أَوْ تُعْجِبَهُ نَفْسُهُ فَيَكُونَ لِي مِنْ ذَلِكَ لَمَّةٌ^(٢) بَقِيَتْ فَاوْرَسَ لَهَا، فَإِنَّ تَأْتِي هَذِهِ مِنْ أَبْوَابِ التَّوَابِ كَمَا تَأْتِي غَيْرُهُمْ مِنْ أَبْوَابِ الْأَمْعَاصِي، وَتَتَوَرَّعُ مَعَ أَهْلِ التَّوَرَّعِ كَمَا تَتَحَرَّعُ مَعَ أَهْلِ التَّحَرُّعِ: وَتَكُنُّ الرَّجُلُ رَجُلًا وَدِينُهُ حَقِيقَةُ الرَّاهِدِ، فَقَدْ أُعْطِيَ الْقُوَّةَ عَلَى جَمَلِ تَهَوُّاتِ نَفْسِهِ أَشْخَاصًا صَاحِبَةً يَغَادِيهَا وَيَقَاتِبُهَا، فَإِذَا أَنْ جَعَلْتُ شَهْوَتَهُ فِي النَّفْسِ قَتْلَ اللَّذَّةِ، وَإِذَا جَعَلْتُهَا فِي الْكَأَبَةِ قَتْلَ الْكَأَبَةِ، وَبِئْسَ الزَّاهِدُ الْعَابِدُ هُوَ الَّذِي يَتَقَشَّفُ وَيَسْعَفُ، وَيَتَحَقَّفُ وَيَتَلَقَّفُ، فَإِنْ كَثِيرًا مَا تَكُونُ هَذِهِ هِيَ (وَصَافٍ الدَّلَّ وَالْحَمَى، رِيكُونُ لَهَا عَمَلُ الْعِبَادَةِ وَفِيهِ إِثْمُ الْأَمْعَصِيَّةِ، وَتَكُنُّ الزَّاهِدُ حَرَّ الرَّاهِدِ مَنْ أَدَارَ فِي مِثْلِ الْأَشْيَاءِ عَيْنًا قَدْ تَعَلَّمَتْ النَّظَرَ بِحَقِّهِ وَالْإِعْصَاةَ^(٣) بِحَقِّهِ، فَبُهِدَ لَا يَخْطِئُ، مَعْنَى النَّسْرِ إِلَى لِبْسَاءِ^(٤) عَيْنِهِ فِي صُرُوفِ الْخَيْرِ، وَلَا مَعْنَى النَّجْوَى إِذَا وَرَدَتْ فِي صُورَةِ النَّسْرِ، وَبِذَلِكَ يَضَعُ نَفْسَهُ فِي حَيْثُ شَاءَ مِنْ أَمْتَرَتِهِ، لَا فِي حَيْثُ شَاءَ مِنْ أَلْسِيَا أَنْ تَصْبَغَ مِنْ مَنَازِلِهَا أَلْسِيَا.

وَمَا أَتَى بَشَرٌ هَذِهِ الطَّيِّبَاتِ إِلَّا لِيُكَادِرَ بِهَا وَسْوَاسِي وَيُرَدِّي عَنْ نَفْسِهِ وَرَعَنَ الْلَمَّةَ قَلْبِهِ، سَوَى أَنَّهُ أَحْبَبَهُ زَهْدُ ابْنِ حَنْبَلٍ وَنَظَرَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى زَهْدِ نَفْسِهِ لِحَبِطِ أَجْرِهِ، سَبَبُهُ الطَّيِّبَاتِ عَالِجُ نَفْسِهِ عِلَاجُ مَرِيضٍ، وَقَدْ غَيَّرَ عَنْ حَرِيرِ طَعَامِهِ بَطْعَانًا، كَمَا يَسْتَدْ عَلَى جَمِيدِهِ ثَوْبًا بِشَرِبَ، وَلَا شَهْوَةَ لِلْجَنَّةِ فِي أَحَدِهِمَا.

عَارِ الْمَغَارِلِي: وَثَقُلَ الثَّرَمُ عَلَيَّ ثِقَلًا آخَرًا، فَرَأَيْتُنِي فِي وَادٍ عَظِيمٍ، وَفِي رِجْلِهِ مِثْلُ الطُّورِ^(٥) مِنْ الْحِجَارَةِ قَدْ رُكِّمَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَرَأَيْتُنِي مَعَ بَشَرٍ أَقْصَى عَلَيْهِ خَيْرُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، فَقَالَ: أَنْظِرْ - وَبِحُكْمِهِ - إِذَا التَّمَّاسُ بِسَمَرِهَا خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَهِيَ هُنَا فِي وَادِي الْحَقَاتِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَجَرٍ لَوْ أَصَابَتْ أَحْمَدُ لَقَتَلَتْهُ وَتَكَاتُ فَمَرَّةً آخَرَ الدَّهْرَ.

إِنَّ أَلْمَارَ يَا بَنِي هُوَ مَا يَعْمَلُهُ أَلْمَالُ لَا جَوْهَرًا مِنَ الْكَذْهَبِ وَالْبَيْضَةِ، فَإِذَا كُنْتَ

(١) إعنات: إعتاب.

(٢) لمة: عوينة.

(٣) الإغصاة: من الجنون.

(٤) لبساة: سكران الزمان.

(٥) الطور: عظيم تقویر.

بِمَفَازَةٍ^(١) لَيْسَ فِيهَا مِنْ يَبِيعُكَ شَيْئاً بِذَهَبِكَ، فَالْتِرَابُ وَالذَّهَبُ هُنَاكَ سَوَاءٌ؛ وَالْفَضَائِلُ هِيَ ذَهَبُ الْآخِرَةِ؛ فَهَذَا تُجَدُّ بِالْمَالِ دُنْيَاكَ الَّتِي لَا تَبْقَى أَكْثَرَ مِنْ بَقَايِكَ، وَهَذَا تُجَدُّ بِالْفَضَائِلِ نَفْسَكَ الَّتِي تَخْلُدُ بِخُلُودِهَا.

وَمَعْنَى الْغِنَى مَعْنَى مُلْتَبِسٍ عَلَى الْعُقُولِ الْآدَمِيَّةِ لِاجْتِمَاعِ الشَّهَوَاتِ فِيهِ، فَحِينَ يَرُدُّ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ خَمْسِينَ أَلْفًا، يَكُونُ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ صَحَّحَ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْعَمَلِ وَجْهًا مِنَ التَّصْحِيحِ.

قَالَ حُسَيْنُ الْمَغَازَلِيِّ: وَغَطَّنِي^(٢) النَّوْمُ فِي أَعْمَاقِهِ غَطَّةً أُخْرَى؛ فَإِذَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ فِي دَرَسِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَهُوَ يُحَدِّثُ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا عَظَّمْتَ أُمَّتِي الدِّينَارَ وَالْدِّرْهَمَ، نَزَعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ؛ وَإِذَا تَرَكَوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، خَرُمُوا بَرَكَةُ الْوَحْيِ» وَهَمَّ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي تَفْسِيرِهِ وَلَكِنَّهُ رَأَى فَأَمْسَكَ^(٣) عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: يَا حُسَيْنُ! إِذَا اجْتَرَأَ شَيْخُكَ بِالرَّغِيفِ فَهَذَا عِنْدَهُ هُوَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ؛ فَإِنْ أَكَلَ الطَّيِّبَاتِ فَقَدْ عَرَضَتْ حَالٌ جَعَلَتْ هَذِهِ الطَّيِّبَاتِ عِنْدَهُ هِيَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ؛ وَفِي هَذِهِ النُّفُوسِ السَّمَاوِيَّةِ لَا يَكُونُ الْجُزْءُ الْأَرْضِيُّ إِلَّا مُحَدُودًا، فَلَا يَكُونُ مَحْصُولُهُ إِلَّا مَا تَرَى مِنْ قَدْرِ الضَّرُورَةِ.

وَلَمَّا صَغُرَ الْجُزْءُ الْأَرْضِيُّ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ مَلَكَوا الْأَرْضَ كُلَّهَا بِقُوَّةِ الْجُزْءِ السَّمَاوِيِّ فِيهَا، إِذْ كَانَتْ إِرَادَتُهُمْ فَوْقَ الْأَطْمَاعِ وَالشَّهَوَاتِ، وَكَانَتْ بِذَلِكَ لَا تَذُلُّ وَلَا تَضَعُفُ وَلَا تَنْكَسِرُ؛ فَالْآدَمِيَّةُ كُلُّهَا تَنْتَهِي إِلَى بَعْضِ صُورٍ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ مَحَلُّهُمْ فِي أَعْلَاهَا

يَا حُسَيْنُ! أَلَا وَإِنْ رَدَّ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ هُوَ كَذَلِكَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ.

قَالَ حُسَيْنٌ: وَذَهَبْتُ أَعْتَرِضُ عَلَى الْإِمَامِ بِمَا كَانَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنَّ هَذَا الْمَالَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَسْبِهِ، فَقَدْ كَانَ يَتَحَوَّلُ فِي يَدِهِ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ؛ وَأُتْسِنْتُ أَنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ وَأَقْدَارُ نَفُوسِهِمْ، فَلَمْ أَكْذُ أَفْتَحْ فَمَيَّ حَتَّى رَأَيْتُ الْكَلَامَ يَتَحَوَّلُ طِينًا فِي فَمِي لِيَذْكُرَنِي بِهَذَا الْمَعْنَى؛ وَكَذْتُ أَخْتَنِّقُ فَأَنْتَفَضَتْ أَنْفَاسُ، فَطَارَ النَّوْمُ وَالْجِلْمُ.

(١) المفازة: الطريق الضيق.

(٢) غطني النوم: غلبنني.

(٣) أمسك: توقف وانقطع.

إِبْلِيسُ يُعَلِّمُ

٣

قال أحمد بن مسكين: ودار السبب الثالث، وجلست مجلسي للناس وقد انتظمت خلقتهم؛ فقام رجل من عرض^(١) المجلس فقال: إن الحسن بن شجاع البلخي تلميذ الإمام أحمد بن حنبل، كان منذ قريب يحدثنا بأحاديث عن الشيطان، حفظنا منها قوله ﷺ: «إن المؤمن ينضي^(٢) شيطانه كما ينضي أحدكم بغيره في سفره». وكان الحسن يقول في تأويله: إن شيطان الكافر ذهبن سمين كاس، وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار. فهل يأكل الشيطان ويذهن ويلبس ليكون له أن يجوع مع المؤمن ويعرى ويتشعث ويتغير؟

قال ابن مسكين: فقلت في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله! ما أرى السائل إلا شيطان هذا السائل؛ فإن إبليس إذا أراد أن يسخر من العالم ويسمعه طنزَه وتهكمه^(٣)، حرّك من يسأله عنه ما هو وكيف هو؛ كأنما يقول له: تنبّه - ويحك - على معنای، فانت تتكلّم وأنا أعمل، وانت صورة من الرد عليّ، ولكنّي حقيقة من الرد عليك، وما أنت في محاربتك لي بالوعظ إلا كالذي يريد أن يضرب عُنق عدوّه بمائة أسم وضعّت للسيف...

قال: وكنت قد سمعتُ خبراً عجيباً عن أبي عامر قبيصة بن عُقبة الكوفي المحدث الحافظ الثقة أحد شيوخ أحمد بن حنبل؛ وهو الرجل الصالح العابد الذي كان يُقال له: (راهب الكوفة)؛ من زهده وعبادته واحتباس نفسه في داخله كأنما جسده جدار بين نفسه وبين الدنيا، فقلت - والله - لأعظن الشيطان بهذا الخبر، فإن أسماء الزهاد والعباد والصالحين هي في تاريخ الشياطين كأسماء المواقع التي

(١) عرض، بتسكين الراء: جهة.

(٢) ينضي: يتعب ويهزل.

(٣) الطنز: السخرية والتهكم.

تنهزم فيها الجيوش، وما الرجل العابد إلا صاحب الغمرات^(١) مع الشيطان، وكأته يحتمل المكاره عن أمة كاملة بل عن البشرية كلها حيث كانت من الأرض، فالناس بحسبونه قد تخلّى من الدنيا ويظنون الترك أيسر شيء، وما علموا أن الزهد لا يستقيم للزاهد حتى يجعل جسمه كأته نوع نظام آخر غير نظام أعضائه؛ ولا أشق من ذلك على النفس. ومعجزة الزاهد أنه مكلف أن يخرج للناس أقوى القوة من المعاني التي هي عند الناس أضعف الضعف؛ ولو أن ملكاً عظيماً تعب في جمع الدنيا وفتح الممالك حتى جيزت^(٢) له جوانب الأرض، لكان عمله هذا هو الوجه الآخر لتعب الزاهد في مجاهدة هذه الدنيا وتركها.

* * *

قال أحمد بن مسكين: وقصصت عليهم القصة فقلت: كان أبو عامر قبيصة بن عتبة كثير الفكر في الشيطان، يؤدّ لو رآه وناقله الكلام؛ وكان يتدبر الأحاديث التي صَحَّ ورودها فيه، ويفسر معنى الشيطان بأنه الروح الحي للخطأ على الأرض؛ والخطأ يكون صواباً محولاً عن طريقته وجهته، ولهذا كان إبليس في الأصل ملكاً من الملائكة وتحول عن طبيعته حين خلق آدم (عليه السلام)، أي وجد في الكون روح الخطأ حين وجد فيه الروح الذي سيخطيء.

فلما هبط آدم من الجنة وحرمها هو وزوجه وذريته، كان إبليس (لعنه الله) هو معنى بقاء هذا الجرماني واستمراره على الدهر؛ فكان هذه الأدمية أخرجت من الجنة، وأخرجت معها قوة لا تزال تضدّها عنها، ليضطربا في الكفاح ملياً من زمن هو عمر كل إنسان، وهذا هو العدل الإلهي: لم يعرف آدم حق الجنة، فعرف ألا يأخذها إلا بحققها، وأن يقاتل في سبيل الخير قوة الشيطان.

وبات أبو عامر ذات ليلة يفكر في هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته. ثم هو^(٣) فكان بين اليقظة والنوم، وذلك حين تكون العين نائمة والعقل لا يزال متنبهاً، فكان العين مترجعة تبصر من تحت أجبانها بصراً بشارتها فيه العقب.

فرأى شيخنا أبو عامر صورة إبليس جاءت في ربي رجل زاهد، حسن السميت^(٤) طيب الريح، نظيف الهيئة، وكاذ يشبه عليه لولا أنه قد عرفه من عينه.

(٣) همام: تحير

(٤) السميت: الهيئة السطيف

(١) الغمرات: الحروب

(٢) جيزت: تحصّلت

فَإِنَّ عَيْنِي الْكَاذِبِ تَصْدُقَانِ عَنْهُ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْكَاذِبَ آدَمِيٌّ قَفَرٌ^(١) كَالْمَتَاهَةِ مِنَ الْأَرْضِ، فَجَعَلَ عَيْنِيهِ كَالْعَلَامَاتِ لِمَنْ خَاضَ الْفَلَاةَ.

وظَهَرَ الشَّيْطَانُ زَاهِدًا عَابِدًا تَقِيًّا نَقِيًّا كَأَنَّهُ دِينَ صَحِيحٌ خُلِقَ بَشَرًا، فَصَرَخَ فِيهِ أَبُو عَامِرٍ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ! أَمْعَصِيَّةٌ فِي ثَوْبِ الطَّاعَةِ؟

قَالَ إِبْلِيسُ: يَا أَبَا عَامِرٍ! لَوْ لَمْ تَقُلْ: أَلْمَعْصِيَّةُ إِنَّهَا طَاعَةٌ لَمْ يُقَارَفْهَا^(٢) أَحَدٌ. وَهَلْ خُلِقَتِ الشَّهَوَاتُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَغَرِيزَتِهِ إِلَّا لِتَقْرِيبِ هَذِهِ الْمَعَاصِي مِنَ النَّفْسِ، وَجَعَلَ كُلَّ مِنْهَا طَاعَةً لِشَيْءٍ مَا؛ فَتَقَعُ الْمَعْصِيَّةُ بِأَنَّهَا طَاعَةٌ لَا بِأَنَّهَا مَعْصِيَّةٌ أَوْ لَا تَرَى يَا أَبَا عَامِرٍ أَنَّ الْحِيلَةَ مُحْكَمَةٌ فِي الدَّخْلِ مِنَ الْجِسْمِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي الْخَارِجِ عَنْهُ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَذَا الْبَاطِنَ بِهَذَا الْمَعْنَى وَهَذَا الْعَمَلِ لَمَّا كَانَ لظَاهِرِ الْوُجُودِ كُلِّهِ فِي الْإِنْسَانِ مَعْنًى وَلَا عَمَلٌ؟

قَالَ الشَّيْخُ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ! فَمَا أَرَى الْمَوْتَ قَدْ خُلِقَ إِلَّا رَدًّا عَلَيْكَ أَنْتَ، لِتُبَيِّنَ النَّاسُ أَنَّكَ أَلْمَمْتَلَى أَلْمَمْتَلَى، وَلَكِنَّكَ الْفَارِغُ الْفَارِغُ؛ بَلْ كُلُّ شَهْوَاتِكَ سَخَرِيَّةٌ مِنْكَ وَرَدُّ عَلَيْكَ، فَلَا طَعْمَ لِلذَّيْءِ مِنْ لَذَاتِكَ إِلَّا وَهْيٌ تَمُوتُ، وَإِنَّمَا تَمَامُ وَجُودِهَا سَاعَةٌ تَنْقُضِي؛ وَمَتَى قَالَتْ أَلَلَّذَةُ: قَدْ أَنْتَهَيْتِ. فَقَدْ وَصَفَتْ نَفْسَهَا أَبْلَغَ الْوَصْفِ.

قَالَ إِبْلِيسُ: يَا أَبَا عَامِرٍ، وَلَكِنْ أَلَلَّذَةُ لَا تَمُوتُ حَتَّى تَلِدَ مَا يُبْقِيهَا حَيَّةً، فَهِيَ تَلِدُ الْخَنِينَ إِلَيْهَا، وَهُوَ لَا يَسْكُنُ حَتَّى يَعُودَ لَذَّةً تَنْقُضِي وَتَلِدُ.

قَالَ الشَّيْخُ: مَعَانِي أَلْتَرَابِ، مَعَانِي أَلْتَرَابِ؛ كُلُّ نَبْتَةٍ فِيهَا بِذَرَّتُهَا، وَلَكِنْ (عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ) لِمَاذَا جِئْتَنِي فِي هَذِهِ الصُّورَةِ؟

قَالَ إِبْلِيسُ: لِأَنِّي لَا أَلْبَسُ إِلَّا مُحِبَّةَ الْقَلْبِ الْآدَمِيِّ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَطَرَدْتَنِي أَلْقُلُوبُ كُلُّهَا وَبَطَلُ عَمَلِي فِيهَا، وَهَلْ عَمَلِي إِلَّا التَّلْبِيسُ وَالتَّزْوِيرُ؛ أَفْتَدْرِي يَا أَبَا عَامِرٍ أَنِّي لَا أَعْتَرِي الْحَيَوَانَ قَطُّ.

قَالَ الشَّيْخُ: لِأَنَّ الْحَيَوَانَ لَا يَنْظُرُ إِلَى الشَّيْءِ إِلَّا نَظْرَةً وَاحِدَةً، هِيَ نَظْرَةُ وَفَهْمُهُ مَعًا، فَلَا مَحَلَّ لِلتَّزْوِيرِ مَعَ هَذِهِ النَّظْرَةِ الْوَاحِدَةِ؛ وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾. فَأَنْتَ أَتُهَا الشَّيْطَانُ التَّزْوِيرَ، وَالتَّزْوِيرُ

(٢) يقارفها: يقع فيها.

(١) قفر: صحراء.

موضعه الكذب؛ فمن لم يكذب في الفكر ولا في النظر ولا في الفهم ولا في الرجاء، فليس لك عنده عمل.

قال إبليس: يا أبا عامر! وهل ترى (رحمك الله) أعجب وأغرب وأدعى إلى الهزء والسخرية من أن أعظم العقلاء الزهاد العباد، هو في جملة معانيه حيوان ليس له إلا نظرة واحدة في كل شيء؟

قال الشيخ: عليك وعليك...؛ إن الحيوان شيء واحد، فهو طبيعة مسخرة بنظامها، ولكن الإنسان أشياء متناقضة بطبيعتها، فالوهيته أن يقر النظام بين هذه المتناقضات، كأنما أمثجن فأعطى من جسمه كونا فيه عناصر الاضطراب، وحولها عناصر الاضطراب، ثم قيل له دبّره.

فضحك إبليس. قال الشيخ: مم ضحكك لعنك الله؟

قال: ضحكك من أنك أعلمتني حقيقة الإبلسية، فالزهاد هم الصالحون لأن يكونوا أعظم الأبالسة...

قال الشيخ: عليك لعنة الله، فما هي تلك الحقيقة التي زعمت؟

قال إبليس: - واللّه - يا أبا عامر، ما غلا إنسان في زعم التقوى والفضيلة إلا كانت هذه هي الإبلسية؛ وسأعلمك يا أبا عامر حقيقة الزهد والعبادة. فلا تقل إنها ألوهية تفر النظام بين متناقضات الإنسان ومتناقضات الطبيعة.

قال الشيخ: وتسخر مني لعنك الله؟ فمتى كنت تعلم الحقيقة والفضيلة؟

قال إبليس: أو لم أكن شيخ الملائكة؟ فمن أجدر من شيخ الملائكة أن يكون عالمها ومعلمها؟

قال: عليك لعنة الله؛ فما هي حقيقة الزهد والعبادة؟

قال إبليس: حقيقتها يا أبا عامر، هي التي أعجزتني في نبيكم.

قال الشيخ: ﷺ؛ فما هي؟

قال إبليس: هي ثلاث بها نظام النفس، ونظام العالم، ونظام اللذات والشهوات: أن تكون لك تقوى، ثم يكون لك فكر من هذه التقوى، ثم يكون لك نظر إلى العالم من هذا الفكر. ما اجتمعت هذه الثلاث في إنسان إلا قهر الدنيا وقهر إبليس.

فإن كانت التقوى وحدها - كتقوى أكثر الزهاد والرهبان - فما أيسر أن أجعل
النظر منها نظر الغفلة والجبن والبلادة والفضائل الكاذبة، وإن كان الفكر وحده -
كفكر العلماء والشعراء - فما أهون أن أجعل النظر به نظر الزيف والإلحاد والبهيمة
والرذائل الصريحة.

قال الشيخ: صدق الله العظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

قال إبليس: يا أبا عامر! ما يضرني - والله - أن أفسر لك، فإن قارورة من
الصنغ لا تصبغ البحر، وأنا أعد الزهاد والعلماء المصلحين فأضع في الناس بجانب
كل واحد منهم مائة ألف امرأة مفتونة، ومائة ألف رجل فاسق، ومائة ألف مخلوق
ظالم، فلو أنك صبغت البحر بملء قارورة حمراء لما صبغت البحر الإنساني
بالزاهد والمصلح، ما دام المصلح شيئاً غير السيف، وما دام الزاهد شيئاً غير
الحاكم.

قال الشيخ: لعنك الله من شيطان عارم، فإذا وضعت المصلح بين مائة ألف
فاسد، فهل هذه إلا طريقة شيطانية لإفساده؟
قال إبليس: ومائة ألف امرأة فتانة مفتونة يا أبا عامر، كل واحدة تحسب
جسمها...

فصرخ الشيخ: أغرب عني عليك لعنة الله!
قال إبليس: ولكن الآية الآية يا أبا عامر. لقد لقيت المسيح وجربته وهو كان
تفسيرها.

قال الشيخ: عليه السلام! وعليك أنت لعنة الله! فكيف قال؟ وكيف صنع؟
قال إبليس: ألقيت به جائعاً في الصحراء لا يجد ما يطعمه، ولا يظن أنه
يجد، ولا يرجو أن يظن؛ ثم قلت له: إن كنت روح الله وكلمته كما تزعم فمز
هذا الحجر ينقلب خبزاً. فكان تقياً، فتذكر فإذا هو مبصر، فقال: ليس بالخبر
وحده يحيا الإنسان، فمثل هذا لو مات جوعاً لم يتحول، لأن الموت إتمام حقيقته
السامية فوق هذه الدنيا، ولو ملث له الدنيا خبزاً وهو جائع لم يتحول، لأن له
بصراً من فوق الخبز إلى حقيقته السماوية؛ فليس بالخبر وحده يحيا؛ بل بمعان
أخرى هي إشباع حقيقته السماوية التي لا شهوة لها.

ثُمَّ ارْتَقَيْتُ^(١) بِهِ إِلَى ذُرْوَةِ جَبَلٍ وَأَرِثْتُهُ مَمَالِكَ الْخَافِقِينَ^(٢)، كَشَفْتُهَا كُلَّهَا لِعَيْنَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: هَذَا كُلُّهُ لَكَ إِذَا أَنْتَ سَجَدْتَ لِي. فَكَانَ مُتَقَبِّلاً، فَتَذَكَّرَ فَإِذَا هُوَ مُبْصِرٌ: أَبْصَرَ حَقِيقَةَ الْخَيَالِ الَّذِي جَسَّمَتْهُ لَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُعْطِي مِثْلَ مَعَانِي هَذِهِ الْمَمَالِكِ فِي جَرَّةِ خَمْرٍ، كَمَا يُعْطِيهَا فِي سَاعَةِ لَذَّةٍ، كَمَا يُعْطِيهَا فِي شِفَاءٍ غِیْظٍ بِالْقَتْلِ وَالْأَذَى؛ ثُمَّ لَا يَبْقَى مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بَاقٍ غَيْرُ الْإِثْمِ، وَلَا يَصْغُ مِنْهُ صَحِيحٌ إِلَّا الْحَرَامُ. وَمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا نَفْسَهَا لَمْ يَبْقَ لَهَا إِذَا بَقِيََتْ فَهِيَ خَيَالٌ فِي جَرَّةِ الْحَيَاةِ، كَمَا هِيَ خَيَالٌ فِي جَرَّةِ الْخَمْرِ.

يَا أَبَا عَامِرٍ؛ إِنَّ هَذَا الْنَظَرَ، الَّذِي وَرَاءَهُ التَّذَكُّرُ، الَّذِي وَرَاءَهُ التَّقْوَى، الَّتِي وَرَاءَهَا اللَّهُ - هَذَا وَحْدَهُ هُوَ الْقُوَّةُ الَّتِي تَتَنَاوَلُ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فَتُصَفِّيْهَا أَرْبَعَ مَرَاتٍ حَتَّى تَعُودَ بِهَا إِلَى حَقَائِقِهَا التَّرَابِيَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي آخَرُهَا الْقَبْرِ، وَآخِرُ وَجُودِهَا التَّلَاشِي.

فَالْبَصَرُ الْكَاشِفُ الَّذِي يُجَرِّدُ الْأَشْيَاءَ مِنْ سِحْرِهَا الْوَهْمِيِّ، هَذَا هُوَ كُلُّ السَّرِّ.

قَالَ الشَّيْخُ: لَعَنَكَ اللَّهُ؛ فَكَيْفَ مَعَ هَذَا تَفْتَنُ الْمُؤْمِنُ؟
قَالَ إِبْلِيسُ: يَا أَبَا عَامِرٍ، هَذَا سَوَالُ شَيْطَانِي... تُرِيدُ - وَيَحْكُ - أَنْ تَحْتَالَ عَلَى الشَّيْطَانِ؟ وَلَكِنْ مَا يَضُرُّنِي أَنْ أَفْسَرَهَا لَكَ.

لَيْسَ الْإِيمَانُ هُوَ أَلَا عِتْقَادٌ وَلَا عَمَلٌ، وَلَوْ كَانَ مِنْ هَذَيْنِ لَمَّا شَقَّ عَلَى أَحَدٍ وَلَصَلَحَتْ الدُّنْيَا وَأَهْلُهَا؛ إِنَّمَا الْإِيمَانُ وَضْعُ يَقِينٍ خَفِيِّ يَكُونُ مَعَ الْغَرِيزَةِ فِي مَقَرِّهَا، وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ فِي مَقَرِّهَا لِيَتَضَدَّرَ عَنْهُ أَعْمَالُ الْغَرِيزَةِ؛ وَهَذَا الْيَقِينُ لَا يَصْلُحُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ يَقِينًا ثَابِتًا بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا، فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فَيَتَذَكَّرُ فَيُبْصِرُ. هُنَاكَ مِيرَاثٌ مِنَ الْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِ، فَالْيَقِينُ بِهَذَا الْمِيرَاثِ هُوَ سِرُّ الْإِيمَانِ.

وَالْعَمَلُ الشَّيْطَانِيُّ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي إِفْسَادِ هَذَا الْيَقِينِ وَمُعَارَضَةِ الْخَيَالِ الْعَظِيمِ الَّذِي فِيهِ بِالْحَقَائِقِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَظْهَرُ لِلْمَغْفَلِ عَظِيمَةً، كَمَا تُشَبُّ نَارُ أَكْبَرُ مِنْ قُرْصِ الشَّمْسِ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَبْلَهِ: أَنْظِرْ بَعَيْنَيْكَ، فَيُصَدِّقُ أَنَّهَا أَكْبَرُ مِنَ الشَّمْسِ.

وَمَتَى صَغُرَ هَذَا الْيَقِينُ وَكَانَتْ الْحَقَائِقُ الدُّنْيَوِيَّةُ أَكْبَرَ مِنْهُ فِي النَّفْسِ؛ فَأَيَسُرُّ أَسْبَابُ الْحَيَاةِ حَيْثُ يُفْسِدُ الْمَعْتَقَدُ وَيُسْقِطُ الْفَضِيلَةَ؛ وَيَدْرِهِمْ وَاحِدٌ يُوجَدُ أَلَلُّصُ حَيْثُ.

(١) ارتقيت: صعدت.

(٢) الخافقين: المشرق والمغرب.

أما إذا ثبتَ اليقينُ فالشيطانُ معَ الإنسانِ يصغرُ ثمَّ يصغرُ، ويعجزُ ثمَّ يعجزُ.
حتى ليرجعُ مثلَ الدرهمِ إذا طمعَ الطامعُ أنْ يجعلَ الرجلَ الغنيَّ الكثيرَ المالِ ليصا
مِنَ اللصوص بهذا الدرهمِ.

قالَ الشيخُ: لعنكَ الله! فإنَّ لم تستطعَ إفسادَ هذا اليقينِ فكيفَ تصنعُ في فتنةِ
المؤمنِ؟

قالَ إبليسُ: يا أبا عامر، إنَّ لم أستطعَ إفسادَ اليقينِ زدتُهُ يقينياً فيفسدُ،
وأستحسانُ الرجلِ لأعمالِهِ الساميةِ قد يكونُ هو أولُ أعمالِهِ السافلةِ؛ وبأيِّ عجبٍ
يكونُ الشيطانُ شيطاناً إلا بمثلِ هذا؟

قالَ أحمدُ بنُ مسكينٍ: وغضبَ الشيخُ، فمدَّ يدهُ فأخذَ فيها عُقَّ إبليسَ وقد
راهُ دقيقاً، ثمَّ عَصَرَهُ عَصراً شديداً يُريدُ خنقه؛ ففقهَهُ الشيطانُ ساخراً منه. ويتنبَّهُ
الشيخُ، فإذا هو يشدُّ بيدهِ اليمنى على يدهِ اليسرى

الدنيا والدرهم

٤

قال أحمد بن مسكين: وأزف^(١) ترخلي عن (بلخ)، وتهبأت للخروج، ولم يبق من مدة مقيلي بها إلا أيام يجيء فيها السبت الرابع، وكان قد وقعت مُمارة بيني وبين مفتي (بلخ) أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف الباهلي تلميذ أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة، ويزعمون أنه شحيح على المال، وأنه يتغلل^(٢) من مُستغلات كثيرة^(٣)، فكأثما غشيته^(٤) غمامتي، فهو لا يرى أن أتكلّم في الزهد، ويحسب هذا الزهد تماوت العباد، ونقض الأيدي من الدنيا، وسوء المصاحبة لما يُنعم الله به على العبد، وخذلان القوة في البدن، وما جرى هذا المجرى من تزوير الحياة بالباطيل التي زعم أنها باطل الطاعات وما أقربها من باطل المعصية. ولم يكن هذا المفتي قد سمعني ولا حضر مجلسي، ولولا الذي لم يعرفه من ذلك لقد كان عرف.

وجادلته^(٥) فرأيت أنه واهن^(٥) الدليل، ضعيف الحجة، يُخمن تخمين فقيه، وينظر إلى الخفايا من حقائق النفوس نظر صاحب النص إلى الظاهر، كأن الحقيقة إذا أُلقيت على الناس مضت نافذة كفتوى المفتي... ويزعم أن الوعظ وعظ الفقهاء، يقولون: هذا حرام. فيكون حراماً لا يقارفه^(٦) أحد، وهذا حلال. فيكون حلالاً لا يتركه أحد، وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومدخله إلى النفس وسياسته فيها، ولا يعرف أن الحقيقة كالأنثى: إن لم تُزَيَّن بزينة لم تستهواً أحداً؛ وأن الموعظة إن لم تتأد في أسلوبها الحي كانت بالباطل أشبه، وأنه لا يُغيّر النفس إلا النفس التي فيها قوة التحويل والتغيير، كنفس الأنبياء ومن كان في طريقة روجهم،

(١) أزف: ناقشته.

(٢) غشيته: غطته.

(٣) غشيته: غطته.

(٤) غشيته: غطته.

(٥) غشيته: غطته.

(٦) غشيته: غطته.

وأن هذه الصناعة إنما هي وضع نور البصيرة في الكلام، لا وضع القياس والحجة، وأن الرجل الزاهد الصحيح الزهد، إنما هو حياة تلبسها الحقيقة لتكون به شيئاً في الحياة والعمل. لا شيئاً غير القول والتوهم، فيكون إلهامها فيه كحرارة النار في النار: مَنْ وَاتَاهَا أَحْسَاهَا.

ولعمري، كم من فقيه يقول للناس: هذا حرام. فلا يزيد هذا الحرام إلا ظهوراً وأنكشافاً ما دام لا ينطق إلا بنطق الكتب، ولا يحسن أن يصل بين النفس والشرع، وقد خلا من القوة التي تجعله روحاً تتعلق بالأرواح بها وتضعه بين الناس في موضع يكون به في اعتبارهم كآته آت من الجنة منذ قريب، راجع إليها بعد قريب.

والفقيه الذي يتعلق بالمال وشهوات النفس، ولا يجعل همه إلا زيادة الرزق وحظ الدنيا - هو الفقيه الفاسد الصورة في خيال الناس، يفهمهم أول شيء ألا يفهموا عنه؛ إذ جزؤه فوق بصيرته، وله في النفوس رائحة الخبز، وله معنى: خمس وخمسة عشرة... (١) وكان دنياه وضعت فيه شيئاً فاسداً غريباً يفسد الحقيقة التي يتكلم بها؛ ولست أدري ما هو هذا الشيء، ولكني رأيت فقهاء يعظون ويتكلمون على الناس في الحرام والحلال وفي نص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم لم أجذ لكلامهم نفعاً ولا رداً، إذ يلهمون الناس بأرواحهم غير المعنى الذي يتكلمون فيه؛ وتسخر الحقيقة منهم - على خطرهم (٢) وجلال شأنهم - بذات الأسلوب الذي تسخر به من لص يعط أيضاً آخر فيقول له: لا تسرق...

قال ابن مسكين: فلما دار يوم السبت أقبل الناس على المسجد أفواجا، وكانوا قد تعالموا إزماع الرحيل عن بلديهم - وجاء (لقمان الأمة) في أشياجه وأصحابه، وجاء أبو إسحاق المفتي في جماعته؛ واستقر بي المجلس فنقدت الناس بنظري، فكأنهم من كثرتهم نبأت غطى الأرض، فأذكرني هذا شيخنا السري بن مغلس السقطي (٣)، وكان قد لزم داره في بغداد لا يخرج منها ولا يراه إلا من قصد إليه، وهممت أن أجعل الموعظة في شرح كلمته المشهورة: «لا تصح المحبة بين

(١) يقصد من ذلك أن الحياة عملية حسابية.

(٢) خطرهم: أهميتهم.

(٣) السقط: رديء المتاع، وباتعه يسمى السقطي.

أثنين حتى يقول أحدهما للآخر: يا أنا». وما نقلوا عنه من أنه قال مرة لبعض أصحابه: منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي: (الحمد لله). فقال صاحبه: وكيف ذلك؟ قال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجل فقال: نجا حانوتك. فقلت: الحمد لله فأنا نادم من ذلك الوقت على ما قلت؛ إذ أردت لنفسي خيراً من الناس!

قال ابن مسكين: ولكني أحييت أن أكلّم المفتي ومال المفتي؛ فحدثهم حديث معرفتي بالسري: أتني سمعت يوماً (غيلان الخياط) يقول: إن السري كان اشترى كُر^(١) لوز بستين ديناراً، وأثبتته في رزنامجه^(٢) وكتب أمانته: ربحه ثلاثة دنانير؛ فلم يلبث أن غلا السعر فبلغ تسعين ديناراً؛ فأتاه الدلال الذي كان اشترى له فقال: أريد ذلك اللوز. قال الشيخ: خذه. قال: بكم؟ فقال: بثلاثة وستين ديناراً. وكان الدلال رجلاً صالحاً، فقال للشيخ: إن اللوز قد صار الكُر بثسعين. قال السري: ولكني عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله، فليست أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً. فقال الدلال: وأنا قد عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله، ألا أغش مسلماً، فليست اشترى منك إلا بـتسعين؛ فلا الدلال اشترى منه، ولا السري باعه...!

قال أحمد بن مسكين: فلما سمعت ذلك لم تكن لي همّة إلا أن ألقى الشيخ وأصحابه وأخذ عنه، فلم أعرج^(٣) على شيء حتى كنت في المسجد الذي يصلي فيه، فأجدته في خلقتِه وعنده من كنت أعرفهم: عبد الله بن أحمد بن حنبل، وإدريس الحداد، وعلي بن سعيد الرازي، وحواله خلق كثير وهو فيهم كالشجرة الخضراء بين الهشيم تعلوه نضرة روجه، وكأنما يمدّه بالنور عرق من السماء، فهو يتلأل للعين؛ ولا يملك الناظر إليه إلا أن يحس في ذات نفسه أنه الأدنى، من رؤيته في ذات نفسه أن هذا هو الإنسان الأعلى.

ورأيت على وجهه آلاماً تمسحه مسحاً الأشواق لا مسحاً الآلام، آثار ما يجلده في روجه القويّة، لا كالآلام الناس التي هي آثار الجرماني في أرواحهم ألوانه الضعيفة فلا تمسح وجوههم إلا مسح الغم والكآبة.

(١) الكر، بضم الكاف هو مكياك عظيم يقدرون فيه الحساب، يساوي أربعين إردباً مصرياً.

(٢) رزنامجه: دفتر حساباته.

(٣) أعرج: أمل، الو.

وما يُخطئ النظر في تمييز آلام السماء على هذه الوجوه السعيدة من آلام الأرض في الوجوه الأخرى، فإن الأولى تتنذى على روح الناظر بمثل الطل إذا قطره الفجر، والأخرى تتور في روحه كما تهيج الغبرة إذا ضربت الريح الأرض.

كان الشيخ في وجود فوق وجودنا؛ فلا تتلون له الأشياء ولا تعدو عنده ما هي في نفسها، ولا يحمل الشيء له إلا معناه من حيث يصلح أو لا يصلح، ومن حيث ينبغي أو لا ينبغي. فإنما تتلون الأشياء عند ما يضع الشيطان عينه في عين الناظر إليها؛ وإنما تزيد وتنقص في القلب عندما يكون روح الشيطان في القلب؛ وإنما يشتبه ما ينبغي وما لا ينبغي عند ما يأتي الشيء من جهتين: جهته من طبيعته هو، وجهته من طبيعتنا نحن. وبهذا قد يجمع الإنسان المال ثم لا يجد في المال معنى الغنى، وقد تتفق أسباب النعيم ولا يكون منها إلا الدل. وكم من إنسان يجد وكأنه لم يجد إلا عكس ما كان ينبغي، وآخر لم يجد شيئاً ووجد بذلك راحته.

* * *

قال ابن مسكين: وما كان أشد عجبى حين تكلم الشيخ، فقد أخذ يجيب عما في نفسي ولم أسأله، كأن الذي في فكري قد أنتقل إليه؛ فروى الحديث: «إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم، نزع منها هبة الإسلام؛ وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حرموا بركة الوحي». ثم قال في تأويله:

إن ملك الوحي ينزل بالأمر والنهي ليخضع صولة^(١) الأرض بضولة السماء، فإذا بقي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بقي عمل الوحي إلا أنه في صورة العقل، وبقيت روحانية الدنيا إلا أنها في صورة النظام، وكان مع كل خطأ تصحيحه؛ فيصبح الإنسان بذلك تنفيذاً للشرعية بين أمر مطاع ومأمور مطيع، فيتعامل الناس على حالة تجعل بعضهم أستاذاً لبعض، وشيئاً منهم تعديلاً لشيء، وقوة سنداً لقوة؛ فيقوم العزم في وجه التعاون، والشدّة في وجه التراخي، والقدرة في وجه العجز؛ وبهذا يكونون شركاء متعاونين، وتعود صفاتهم الإنسانية وكأنها جيش عامل يناصر بعضه بعضاً، فتكون الحياة مفسرة ما دامت معانيها السامية تأمر أمرها وتلهم إلهامها، وما دامت ممثلة في الواجب النافذ على الكل.

والناس أحرار متى حكمتهم هذه المعاني، فليست حقيقة الحرية الإنسانية إلا

(١) صولة: جولة.

الْخُضُوعَ لِلْوَاجِبِ الَّذِي يَحْكُمُ، وبذلك لا بغيرِهِ وَيُتَّصَلُ ما بَيْنَ الْمَلِكِ وَالسُّوقَةِ^(١)، وما بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ، اتِّصَالَ الرَّحْمَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَاتِّصَالَ الْقَسْوَةِ فِي التَّأْدِيبِ وَحَدِّهِ. فَبِرْكَةُ الْوَحْيِ إِنَّمَا هِيَ جَعْلُ الْقُوَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَمَلًا شَرْعِيًّا لَا غَيْرَ.

أَمَّا تَعْظِيمُ الْأَمَةِ لِلدُّنْيَا وَالْدَّرْهِمِ، فَهُوَ اسْتِبْعَادُ الْمَعَانِي الْحَيَوَانِيَّةِ فِي النَّاسِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ، وَتَقْطُعُ ما بَيْنَهُمْ مِنَ التَّشَابُكِ فِي لُحْمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَجَعْلُ الْكَبِيرِ فِيهِمْ كَبِيرًا وَإِنْ صَغُرَتْ مَعَانِيهِ، وَالصَّغِيرِ فِيهِمْ صَغِيرًا وَإِنْ كَبُرَ فِي الْمَعَانِي؛ وَبِهَذَا تَمُوجُ الْحَيَاةُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَلَا يَسْتَقِيمُ النَّاسُ عَلَى رَأْيٍ صَحِيحٍ؛ إِذْ يَكُونُ الصَّحِيحُ وَالْفَاسِدُ فِي مِلْكِ الْإِنْسَانِ لَا فِي عَمَلِ الْإِنْسَانِ، فَيَكْتَنِزُ الْغَنِيُّ مَالًا وَيَكْتَنِزُ الْفَقِيرُ عِدَاوَةً، كَأَنَّ هَذَا قَتْلُ مَالٍ هَذَا، وَكَأَنَّ أَعْمَالَ قَتَلَتْ أَعْمَالَ، وَتَرْجِعُ الْأَصْفَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ مُتَعَادِيَةً، وَتُبَاعُ الْفَضَائِلُ وَتُشْتَرَى، وَيَزِيدُ مَنْ يَزِيدُ وَلَكِنْ فِي الْقَسْوَةِ، وَيَنْقُصُ مَنْ يَنْقُصُ وَلَكِنْ فِي الْحَرِيَّةِ، وَتَكُونُ الْمَنْفَعَةُ الذَّاتِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَأْمُرُ فِي الْجَمِيعِ وَتَنْهَى، وَيَدْخُلُ الْكَذِبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الْنَظَرِ إِلَى الْأَعْمَالِ، فَيَرَى كُلُّ إِنْسَانٍ كَأَنَّمَا دِرْهُمُهُ وَدِينَارُهُ أَكْبَرُ قِيَمَةً مِنْ دِينَارٍ الْآخِرِ وَدِرْهُمِهِ، فَإِذَا أُعْطِيَ نَقْصٌ فَغَشَّ، وَإِذَا أَخَذَ زَادٌ فَسَرَقَ؛ وَتُصْبِحُ النُّفُوسُ نَفُوسًا تِجَارِيَّةً تُسَاوِمُ قَبْلَ أَنْ تُنْبَعَثَ لِفَضِيلَةٍ، وَتُمَاكِسُ^(٢) إِذَا دُعِيَتْ لِإِدَاءِ حَقٍّ، وَيَتَعَامَلُ النَّاسُ فِي الشَّرَفِ عَلَى أَصُولٍ مِنَ الْمَعْدَةِ لَا مِنَ الْأَرْوَاحِ، فَلَا يُقَالُ حِينَئِذٍ، إِنَّ رَغِيفِينَ أَكْثَرُ مِنْ رَغِيفٍ وَاحِدٍ. كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْعَدَدِ، بَلْ يُقَالُ: إِنَّ رَغِيفِينَ أَشْرَفُ مِنْ رَغِيفٍ. كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْكُفَاكِ.

أَمَّا التِّجَارَةُ - وَهِيَ التَّفْسِيرُ الظَّاهِرُ لِمَعَانِي النُّفُوسِ - فَتُصْبِحُ بَيْنَ الْغَشِّ وَالضَّرَرِ وَالْمَمَّاكِرَةِ، وَتَكُونُ يَقْظَةً التَّاجِرِ مِنْ غَفْلَةِ الشَّارِي، وَتَفْسُدُ الْإِرَادَةُ فَلَا تُحْدِثُ إِلَّا آثَارَهَا الزَّائِغَةَ^(٣). وَما التَّاجِرُ فِي الْأَمَّةِ الْقَوِيَّةِ إِلَّا أَسْتَاذٌ لِتَعْلِيمِ الصَّدَقِ وَالْخُلُقِ فِي الْمَوْضِعِ الْمَتَقَلَّبِ، فَكَلِمَتُهُ كَالرَّقْمِ مِنَ الْعَدَدِ لَا يَحْتَمِلُ أَزِيدَ وَلَا أَنْقَصَ مِمَّا فِيهِ، وَيُمْتَحَنُ بِالْدُّنْيَا وَالْدَّرْهِمِ أَشَدَّ مِمَّا يُمْتَحَنُ الْعَابِدُ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ. وَقَدْ شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ فِي قَضِيَّةٍ، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ: إِنِّي بِمَنْ يَعْرِفُكَ. فَأَنَاهُ بِرَجُلٍ أَتَنَى عَلَيْهِ خَيْرًا، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ: أَنْتَ جَارُهُ الْأَدْنَى الَّذِي يَعْرِفُ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ؟ قَالَ:

(١) السُّوقَةُ: الْعَامَّةُ مِنَ النَّاسِ.

(٢) تُمَاكِسُ: تَشَاخَى فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ.

(٣) الزَّائِغَةُ: الْمُنْحَرِفَةُ.

لا. قال: فكنت رفيقهُ في السفر الذي يُستدلُّ به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا.
قال: فعاملتُهُ بالدينار والدرهم الذي يَسْتَيُنُّ به ورعُ الرجل؟ قال: لا.
قال عمر: أظنُّكَ رأيتُهُ قائماً في المسجد يَهْمُهُمُ بالقرآن، يَخْفِضُ رأسَهُ طَوَّراً
ويرفعُهُ أخرى؟ قال: نعم.

قال: فأذهب فلست تعرفهُ!

وإنَّما التاجرُ صورةٌ من ثِقَةِ النَّاسِ بعضهم ببعض، وإرادةُ الخيرِ واعتقادِ
الصدق، وهو في كُلِّ ذلك مظهرٌ توضعُ أليدُ عليه كما تجسُّ^(١) أليدُ مرضِ المريضِ
وصحته.

فإذا عظمتِ أَلَمَةُ الدينارِ والدرهم، فإنَّما عظمتِ النفاقَ والطَّمَعُ والكذبُ
وَالْعَدَاوَةُ وَالْقِسْوَةُ وَالاستِعْبَادُ؛ وبهذا تُقَيَّمُ الدنانيرُ والدراهمُ حُدُوداً فاصلةً بينَ
أهلِها، حتى لتَكونَ المِساواةُ بينَ غنيٍّ وفقيرٍ كالمِساواةِ بينَ بلدينِ قد تباعدَ ما بينهما.
وإنَّما هيبَةُ الإسلامِ في العِزَّةِ بالنفسِ لا بالمال، وفي بذلِ الحِياةِ لا في الجِرْصِ
عليها، وفي أخلاقِ الروحِ لا في أخلاقِ أليد، وفي وضعِ حُدُودِ الفِضائلِ بينَ النَّاسِ
لا في وضعِ حُدُودِ الدراهم، وفي إزالةِ النقائصِ مِنَ الطَّبَاعِ لا في إقامتها، وفي
تَعَاوُنِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ لا في تعاديها، وفي اعتبارِ الْغِنَى ما يُعْمَلُ بِالْمَالِ لا ما
يُجْمَعُ مِنَ الْمَالِ، وفي جعلِ أَوَّلِ الثَّرْوَةِ الْعَقْلَ والإرادة، لا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...
هذا هو الإسلامُ الذي غلبَ أَلَمُ، لأنَّه قَبْلَ ذلك غلبَ النَّفْسُ وَالطَّبِيعَةُ.

(١) تجسُّ: تدسّ.

دُعَابَةُ إِبْلِيسَ (١)

أما إني سأقصُّ هذه الحكاية كما اتَّفَقْتُ، لا أزيئها بخیال، ولا أتريَّدُ فيها بخبر، ولا أولدُ لها معنى؛ فإنَّما هي حكايةُ حُبِّ الخبيث: فُتْها حَذْفُه (٢) ودَهاؤُه، ورقَّتْها غِلْظَتُه وشرُّه، ومعانيها بلاؤُه ومُحَنَّتُه؛ وأعوذُ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

لَمَّا فَكَّرْتُ فِي وَضْعِ مَقَالَةِ (إِبْلِيسَ) مِنْ أَحَادِيثِ (ابْنِ مَسْكِينٍ)، وَأَدْرْتُ رَأْيِي فِي نَهْجِهَا وَحُدُودِهَا وَمَعَانِيهَا، جَعَلْتُ فِكْرِي يَتَقَطَّعُ فِي ذَلِكَ، يَذْهَبُ وَيَجِيءُ كَأَنِّي بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَنَازَعَةٌ، أَوْ كَأَنِّي فِي نَفْسِي شَيْئاً يَتَنِينَنِي وَيَقْطَعُنِي عَنِ الْعَزَمِ؛ وَخُيِّلَ إِلَيَّ حِينَئِذٍ أَنَّ (إِبْلِيسَ) هَذَا مُنْفَعَةٌ مِنَ الْمَنَافِعِ . . . وَأَنَّهُ هُوَ قَانُونُ الطَّبِيعَةِ الَّذِي نَصُّ مَادَّتِهِ الْأُولَى: مَا أَعْجَبَكَ فَهُوَ لَكَ. وَنَصُّ مَادَّتِهِ الْآخِرَةِ: مَا أَحْتَجَّتْ إِلَيْهِ فَتَمْنُهُ أَنْ تَقْدَرَ عَلَى أَخْذِهِ . . .

وَهَجَسَ فِي نَفْسِي هَاجِسٌ: أَنَّ (إِبْلِيسَ) قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْحَرِيَّةِ كَمَا هُوَ قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْإِثْمِ، وَأَنَّهُ إِنْ يَكُنْ فِي قُلُوبِ الْمُسَاقِ فَهُوَ أَيْضاً فِي أَدْمَغَةِ الْفَلَّاسِفَةِ وَإِنْ كَانَ فِي سَقُوطِ أَهْلِ الرَّذِيلَةِ إِلَى الرَّذِيلَةِ، فَهُوَ كَذَلِكَ فِي سَمَرِ أَهْلِ الْفَنِّ إِلَى الْفَنِّ . . . قَالَ الْهَاجِسُ (٣): وَإِنَّ (إِبْلِيسَ) أَيْضاً هُوَ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الْعَمَلِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَادِيِّ، فَهُوَ مَنْ تَمَّ حَقِيقُ أَنْ يَلْقَبُوهُ «صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ».

وَلَكِنِّي لَمْ أَحْفَلْ (٤) بِهَذِهِ الْوَسَاوِسِ وَلَمْ أُعْجِ (٥) عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا، وَأَسْتَعْنْتُ اللَّهَ وَأَمْضَيْتُ نَيْتِي عَلَى الْكِتَابَةِ، وَأَخَذْتُ أَقْلَبُ الْمَوْضُوعَ، وَأَنْبَتْهُ فِكْرِي لَهُ، وَأَسْتَشْرِفُ (٦) لِمَا يُوْدِي إِلَيْهِ النَّظَرُ، وَأَتَطَلَّعُ لِمَا يَجِيءُ بِهِ الْخَاطِرُ، وَالتَّمَسُّ مَا أُنْبِي عَلَيْهِ الْكَلَامَ كَمَا هِيَ عَادَتِي؛ فَلَمْ يَقَعْ لِي شَيْءٌ أَلْبَتَ، كَأَنَّمَا ذَهَبَ أَوَّلُ ابْتِدَاءِ

(١) الدعابة: المزاح واللعب.

(٤) أحفل: أهتم.

(٢) حذفه: اتفانه.

(٥) أعج: أمل، أعرج.

(٣) الهاجس: الهاتف.

(٦) استشرف: استطلع.

الموضوع فلا أول له ولا سبيل إلى اقتحامه، وكأنه من وراء العلم فلا يبلغ إليه، وكأنه من التَعَذُّر كمحاولة تصوير حماقة الحياة كلها في كلمة. وإيليس كلمة فيها حماقة الحياة كلها.

ومن عادتني في كتابة هذه الفصول التي تنشرها (الرسالة)، أن أدع الفصل منها تقلُّهُ الخواطرُ في ذهني أيامَ الثلاثاء والأربعاء والخميس، وأترك أمره للقوة التي في نفسي، فتتولد المعاني من كل ما أرى وما أقرأ، وتنبأ^(١) من ههنا وههنا، ويكون الكلام كأنه شيء حيّ أريد له الوجود فوجد.

ثم أكتب نهار الجمعة، ومن ورائه ليل السبت وليل الأحد كالمدد من وراء الجيش إذا نالته فترة أو كنت على سفر أو قطعني عن الكتابة شيء مما يعرض.

وفي أسبوع إيليس (لعنة الله)، مرّت الأيام الثلاثة وفيها ثلاثة ألوان: صخر لا روح فيه، وكسل لا نشاط معه، واضطراب لا مساك له. وأطلت التفكير يوم الخميس، فكأنت تعتريني خواطر مضحكة: فيعرض لي مرة أن أصور إيليس امرأة ليكون إيليس الجميل... وتارة أتوهم أن إيليس يريد أن يكون شيخاً كبعض رجال الدين الذين لا تزال تطلع على خائنة منهم، ليقال إيليس اتقي المصلي... وجيئاً أظن أنه يريد أن يكون كاتباً مؤلفاً شهيراً ليقال إيليس المفكر المصلح... وخطر لي أخيراً أنه يريد أن يكون حاكماً ملجداً فاجراً، ليكون إيليس التام لا إيليس الناقص...

ولما ذهبت الأيام الثلاثة باطلاً، خيل إلي أن إيليس (أخزاه الله) يسألني عن المقالة: إلى أي شيء أنقلبت...؟ فسق^(٢) ذلك عليّ وأغشمت به، غير أنني أطمأننت إلى يوم الجمعة وأن وراءه ليلتين. وكانت قد غربت شمس الخميس، فقلت: فلاخرج لأتفرج مما بي، وعسى أن أجمع نفسي للتفكير إذا جلست في النادي، ولعله يقع ما أستوحيه أو يفتح لي باب في القراءة.

وخرجت، فلم أجاوز الدار حتى أبدرتني من مبط عليه الخبر من القاهرة أن نسيباً لنا من العظماء توفي أخوه اليوم. فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ ضاع يوم الجمعة. إذ لا بد من السفر لتشيع الجنازة وحضور المأتم ثم قلت: لعل في هذا

(٢) شق: صعب.

(١) تنبأ: تنهمر وتتوالى.

السفر استجماماً^(١) ونشاطاً فأستدرك الأسبوع كله في يومين، وإنما الاستكثار بالقوة لا بالزمن، ولا يد للإبليس في الموت والحياة، فليس إلا أطراحه وقلة المبالاة به، وإنما هي خطرات من وساويه.

وأصبحت في القاهرة، ومشيئت في الجنازة قبل الظهر مسيرة ساعة كاملة؛ وكانت الشمس ساطعة تتلألأ، وأنا مثقل بشباب الشتاء وكنت أتوقع أن يكون اليوم من أيام الريح المجنونة، فلما انتهينا إلى الصحراء، هبت الريح هبواً لينا، ثم رقت فكأنت إلى الشدة ما هي: ولكنها ماضية تسفي^(٢) الرمل في الأعين فيأخذ في أجفاني أكال^(٣) وتهيج، وليس معي شيء أتقيها به؛ غير أنني شغلت، فكري بروية المقابر، وجعلتها في نفسي كالمقالة المكتوبة سطرأ وراء سطر؛ وقلت: ههنا الحقيقة في أول تفسيرها، وغير المفهوم في الحياة يفهم هنا.

ثم رجعت مندب الجسم بالعرق وعليّ نضج منه، وكان القميص من الصوف، وبصدري أثر من النزلة الشعبية^(٤)، وإذا تندب الصوف وجب نزعه وإلا فهي العلة ما منها بد.

ثم لم تكن إلا ساعة حتى أنخرقت الريح وجعلت تغصف وبرد الجوّ، فأيقنت أنه الزكام، وقلت في نفسي: هذا باب على حدة، والمقالة ذاهبة لا محالة، فستخلف الذهن ويتبدل؛ والشيطان كريم في الشر يعطي من غير أن يسأل...

ونقل ذلك عليّ فكان الغم به علة جديدة، بيد أنني لم أزل أرجو الفرصة في أحد اليومين: السبت والأحد. وقلت: إن من البلاء الفكر في البلاء، ولعل من السلامة الثقة بالسلامة؛ فإذا نبهت العزيمة رجوت أن يتغلغل أثرها في البدن كله فيكون علاجاً في الدم يحدث به النشاط ويُرَهف^(٥) منه الطبع وتجم عليه النفس. وفي قوة العصب كهربائية لها عملها في الجسم إذا أحسن المرء بعثها في نفسه وأحكم إفاضتها وتصريفها على طريقة رياضية؛ ولهي الدواء حين يعجز الدواء، وهي القوة حين تُخذل القوة.

فاعترمت وصممت، وأحتلت على الإرادة، وتكثرت من أسباب الثقة

(١) استجماماً: راحة لتجدد النشاط.

(٢) تسفي الرمل: تنشره.

(٣) الأكال: الحكاك.

(٤) النزلة الشعبية: الرشح والزكام.

(٥) يرهف: يرقق ويلطف.

وترصّدت لها السوانح العقلية التي تشع في النفس، وقلت لإبليس: إجهّد جُهدك، فما تذهب مذهباً إلا كان لي مذهب. ولكنّ اللعين أخطر في ذهني قول القائل يسخر فيه من ذلك الكاتب البغدادي.

لو قيل: كم خمس وخمس؟ لاغتدى يوماً وليلته يعدّ ويحسب ويقول: مُفضّلة عجيب أمرها ولئن فهمت لها، لأمرّي أعجب خمس وخمس ستة، أو سبعة قولان قالهما الخليل وتعلّب

ثمّ أجمعت الرجوع من يومي إلى (طنطا)، لأتقي البرد بعلاجه إن نالني أثره، وكان عليّ وقت إلى أن يقوم القطار، فذهبت فقضيت واجباً من زيارة بعض الأقارب في ضاحية (الجيزة)، ثمّ ركبنا الترام الذي أعلم أنّه ذاهب إلى محطة سكة الحديد.

وجلست أفكر في إبليس ومقالته، والتراّم يبيع في طريقه نحو ثلاث الساعة، حتى بلغ، الموضوع الذي ينعرج^(١) منه إلى المحطة، وهو بحيال (جمعية الإسعاف)، حيث تشعب^(٢) طرق أخرى؛ وكنت منصرفاً إلى التفكير مستغرقاً فيه، طائف النظرات على الجوّ، فما راعني إلا اختلاف منظر الطريق؛ وأنشبه، فإذا الترام يفرّق مروق السهم في تلك السبيل الصاعدة إلى (الجيزة) . . . من حيث جئت.

فلعنت الشيطان وتلبّثت^(٣) حتى وقف هذا الترام، فغادرته ورجعت مهزولاً إلى ذلك المنشعب، فصادتُ تراماً آخر، فوثبتُ إليه كأنّي أُحملُ إليه حملاً، ودفعْتُ لأجرة، وأنطلق، فإذا هو مُنصب في تلك الطريق عينها الذاهبة إلى الجيزة من حيث جئت . . . ولا أستطيع الانحدار منه وهو منطلق، فتسخطت^(٤) ولعنت الشيطان مرة أخرى، ورأيتُ أن عبثه قد ترادف؛ فلما سكن الترام رجعت مهزولاً إلى ذلك المنشعب ولم يبق من الوقت غير قليل.

وأنظرُ ثمّ، فإذا ترام وراء ترام، وإذا قد وقعت حادثة لأحدى السيارات وأجتمع الناس وسدت الطريق . . . فجعلت أغلي من الغيظ، ولعنت هذا الدّعابة الخبيث. وأذكرني الكمين نادرة الأعرابي الذي عضّه ثعلب، فأتى راقياً، فقال له

(١) ينعرج: يتحول، يحط.

(٢) تشعب: تفرق.

(٣) تلبّثت: انتظرت.

(٤) تسخطت: غضب.

الراقي: ما عَضَّكَ؟ فاستحى أن يقول ثعلب، وقال: كلب. فلَمَّا أَبْدَأَ الرَّجُلُ رُقِيَّةَ الكلب، قَالَ لَهُ الأعرابي: وَأَخْلَطَ بِهَا شَيْئاً مِنْ رُقِيَّةِ الثَّعَالِبِ...

ثُمَّ إِنِّي لَمْ أَرُ بُدْأً مِنْ بُلُوغِ الْمَحْطَةِ عَلَى قَدَمِي لِأَتِمَّ عَلَى عَزِيمَتِي فِي مُرَاعِمَةِ اللَّعِينِ، فَاسْرَعْتُ أَطْوِي الْأَرْضَ وَكَأَنَّمَا أُحْرَصُ فِي أَحْشَائِهِ^(١) وَكَأَنَّ بِصَدْرِي انْتِهَابٌ فَهَاجَ بِي، غَيْرَ أَنِّي تَجَلَّدْتُ وَأَتَسَعْتُ لِاحْتِمَالِهِ وَنَلَعْتُ حَيْثُ أَرَدْتُ. ثُمَّ ذَهَبْتُ أَلْتَمِسُ فِي الْقِطَارِ عَرَبَةً حَاصَّةً أَعْرِفُهَا، كَانَتْ مِنْ عَرِيَّاتِ الدَّرَجَةِ الْأُولَى فَجَعَلُوهَا فِي الثَّانِيَةِ يَرْفَهُونَ بِهَا بَعْضَ التَّرْفِيهِ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْمَسَافِرِينَ: وَأَصْبَحْتُ فِيهَا مَكَاناً خَالِياً كَأَنَّمَا كَانَ مِهْيَأً لِي بِخَاصَّةٍ... فَأَتَحَطَّطْتُ فِيهِ إِلَى جَانِبِ رَجُلٍ أَوْرَبِيٍّ أَحْسَبُهُ أَلْمَانِيَا لِنِشَاوَتِ خَلْقِهِ وَعُنْجُفِيَّتِهِ؛ وَجَلَسْتُ أَنْقَضُ عَنْ صَدْرِي، ثُمَّ أَقْبَلْتُ أَسْخَرُ مِنْ إِبْلِيسَ وَبِكَأَيَّتِهِ، وَجَعَلْتُ أَتَعْجَبُ مِمَّا اتَّفَقَ مِنْ هَذَا التَّنْدِيرِ.

وَتَحَرَّكَ الْقِطَارُ وَأَتَبَعْتُ، وَكَأَنَّ الْأَوْرَبِيَّ إِلَى جَانِبِي مِمَّا يَلِي الْأَنَافَةَ وَقَدْ تَرَكَهَا مَفْتُوحَةً، فَأَحْسَسْتُ الْهَوَاءَ يَنْصُبُ مِنْهَا كَالْمَاءِ الْبَارِدِ وَأَنَا مُتَنَدِّ بِالْعَرَقِ؛ وَتَرَقَيْتُ أَنْ يُغْلِقَهَا الرَّجُلُ فَلَمْ يَفْعَلْ، فَصَابِرَتُهُ قَلِيلاً فَإِذَا هُوَ سَاكِنٌ مَطْمَئِنٌّ يَتَرَوَّحُ بِالْهَوَاءِ وَكَأَنَّمَا يَسْرِبُهُ، وَتَأْمَلْتُهُ إِذَا شِخَّ فِي حُدُودِ الْأَسْتِينَ أَوْ فَوْقَهَا، غَيْرَ أَنَّهُ عَلَى بَقِيَّةٍ مِنْ قُوَّةٍ مَصَارِعَ فِي أَكْتَازِ عَظْلِهِ وَاجْتِمَاعِ قُوَّتِهِ وَوَثَاقَةِ تَرْكِيبِهِ، فَأَيَقُنْتُ أَنَّ الْهَوَاءَ مِنْ حَاجَتِهِ، وَهَمَنْتُ أَنْ أَتَبَّهَ أَوْ أَقُومَ أَنَا فَأَغْلِقَ الْأَنَافَةَ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ فَعَلْتُ، غَيْرَ أَنَّ الشَّيْطَانَ (أَخْرَأَهُ اللَّهُ) وَسَّوَسَ لِي: أَنَّ هَذَا رَجُلٌ أَجْنَبِيٌّ غَرِيبِي، وَأَنْتَ مَصْرِيٌّ شَرْقِيٌّ، فَلَا يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تُعَلِّمَهُ وَتُعَلِّمَ الْحَاضِرِينَ أَمَامَكُمَا أَنَّكَ أَنْتَ الْأَضْعَفُ عَلَى حِينٍ أَنَّهُ هُوَ الْأَسْنُّ، وَكَيْفَ لَا تَقُومُ لِمَا يَقُومُ لَهُ وَقَدْ كُنْتَ تُبَاكِرُ الْمَاءَ الْبَارِدَ فِي صَمِيمِ الشِّتَاءِ، وَكُنْتَ لَا تَلْبَسُ فِي أَشَدِّ أَيَّامِ الْبَرْدِ غَيْرَ ثِيَابِ الصَّيْفِ، وَكُنْتَ تَحْمِلُ كَذَا وَكَذَا ثِقَلًا لِلرِّيَاضَةِ، وَتُعَانِي كَذَا وَكَذَا مِنْ ضَرْوبِ الْقُوَّةِ، وَكُنْتَ تَلْوِي بِيَدَيْكَ عَوْدَ الْحَدِيدِ، وَكُنْتَ وَكُنْتَ...

فَتَذَمُّنْتُ - وَاللَّهِ - مِمَّا خَطَرَ لِي؛ وَأَيَقُنْتُ أَنَّ أَتَبَّهَ الرَّجُلَ، وَرَأَيْتُ عَمَلِي هَذَا ضَعْفًا وَفُسُولَةً^(٢)، وَلَمْ أَعْبَأْ بِالْهَوَاءِ وَلَا بِالْعَرَقِ وَلَا بِالنَّزْلَةِ الشَّعْبِيَّةِ وَلَا بِالزَّكَامِ، وَتَرَكْتُ الْأَوْرَبِيَّ وَشَأْنَهُ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى كِتَابٍ كَانَ فِي يَدِي، وَتَنَاسَيْتُ أَنَّ هَذِهِ الْأَنَافَةَ

(١) أَحْشَائِهِ: جوفه.

(٢) فُسُولَةٌ: نَذَالَةٌ لَامْرُوءَةٍ فِيهَا.

جهة من تدبير إبليس؛ وكان القطار مزدحماً بالراجعين من المعرض الزراعي الصناعي، وبعض الناس وقوف فلا مطعم في مكان آخر...

ولبثت ساعة ونصف ساعة في تيار من هواء (فبراير) ينصب أنصباباً، ويغصف عصفاً، وكأني أسبح منه في نهر تحت ظلمة الليل الماطر، وألناس معجبون بي وبالأوربي، وهذا الأوربي معجب بي أكثر منهم، وقد رأى مكاني وعرف موضعي؛ وكان إلى يميني مجلس بقي خالياً ولم يقدم أحد على أن يجلس فيه خوفاً من الرجل الأوربي...

ثم تراءيت أنوار محطة (طنطا)، ولم يبق من هذه المحنة غير دقيقتين؛ فوالله الذي لا يخلف بغير اسمه - عز وجل -، لقد كان إبليس رقيقاً جلفاً^(١) بارداً ثقیلاً المزاج؛ إذ لم أكذ أنهياً للقيام، حتى رأيت الرجل الأوربي قد مد يده فأغلق النافذة...

ورجعت إلى داري وأنا أقول: ثم ماذا يا إبليس؛ ثم ماذا أيها الدغيب^(٢) وحاولت بجهدتي أن أكتب أو أقرأ فلم أتحرك بشيء من ذلك، وكانت الساعة العاشرة ليلاً، فصليت وأوتيت إلى مضجعي.

ثم أصبحت يوم السبت، فإذا كتاب من الأستاذ صاحب (الرسالة): أنه سيطلع عددان معاً قريباً لهما مقالتي، إذ تغتفر المطبعة في أيام عيد الأضحى. وكان أمني في المقالة الواحدة مخدولاً مما قاسيت، فكيف لي ناشئ؟

وأخطلط في نفسي هم. بهم، وما يفسد عليّ أمري شيء مثل الضيق، فإذا تضايقت كنت غير من كنت؛ ولكني تيقظت وتنهت وأملت العافية مما أجده من ثقة البرد وضعفته، وأحدثت طمعا في النشاط إذا جلست للكتابة في الليل. فإني بالنهار أعمل للحكومة.

فلما كان الليل لم أجد أمري على ما أحت، وجلست متفكراً مُعْتَلّاً، وثقل رأسي من ضربة النافذة، وتسلط عليّ ظن المريض والعجز عن الكتابة، وانتفض الأمر كله فإبشيت أشد على نفسي فلا طائل، فكان من صواب التدبير عندي أن

(١) حنفاً قاسياً غظاً.

(٢) الدغيب والمداغب والدغابة، بالتشديد. أكلنا حتى واحد.

استجِمْ بالنوم ثُمَّ أنهَضَ في السَّحَرِ لِلْكِتَابَةِ؛ فأوصيتُ من يُوقظني؛ وحرَّرتُ الساعةَ المنبِّهَةَ على تمامِ الثَّانِيَةِ بعدَ منتصفِ اللَّيْلِ.

وأحسنتُ أَنِّي جائعٌ، وَأَنَّ معدتي مَشْحُوذَةٌ^(١)، ونسيتُ كلَّ ما أعرفُ مِنَ الطَّبِّ؛ وجاءَني بِشَوَاءٍ وَخَلَوَى وما بينهما، فحطَّطْتُ فِيهِ وَلَفَفْتُ الْآخَرَ بِالْأَوَّلِ، ثُمَّ قُمْتُ أُرِيدُ النَّوْمَ، فَإِذَا الطَّعَامُ كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نَافِذَةِ الْقِطَارِ، وَكَانَ الَّذِي فِي الْفِكْرِ مِنَ الْمَقَالَةِ أَثْقَلَ مِنَ الَّذِي فِي الْمَعْدَةِ مِنَ الطَّعَامِ، وساءَ الْهَضْمُ فِي الدِّمَاغِ وَالْبَطْنِ جَمِيعاً!

وجعلتُ أَتَنَاوَمُ وَأَرْخِي أَعْضَائِي وَأَتَوَهَّمُ الْكُرَى^(٢) وَأَسْتَذْنِيهِ بِكُلِّ مَا أعرفُ من وسيلةٍ، ثُمَّ لَا أَزْدَادُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَرْقَاءً، وَتَمَرُّدَ الْفِكْرِ، وَأَحْسَنْتُ رَأْسِي يَكَادُ يَنْفَجِرُ، وَصِرْتُ أَتَمَلُّمُ وَلَا أَتَقَارُّ، وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ لَوْ كَانَ لِي عَقْلَانِ مَا أَسْتَطَعْتُ كِتَابَةَ الْمَقَالَةِ عَنْ إِبْلِيسَ - لَعْنَةُ اللَّهِ -؛ وَأَذْكُرُنِي الْخَبِيثُ نَادِرَةً مُضْحَكَةً: أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَرْكَبُ حِمَارًا ضَعِيفًا، وَكَانَ يَبْعُثُهُ فَلَا يَنْبِعْثُ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَرْفُقْ بِهِ. فَقَالَ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ يَمْشِي فَلِمَ صَارَ حِمَارًا...؟

وقدذُفْتُ بِنَفْسِي مِنَ الْفَرَاشِ وَنَظَرْتُ فِي السَّاعَةِ، فَإِذَا هِيَ مُوشِكَةٌ أَنْ تَبْلَغَ الثَّانِيَةَ وَلَمْ أَجِسْ أَلْرقَادَ بعدَ، فَأَسْرَعْتُ إِلَى الْمُنْبِّهَةِ وَحَرَرْتُهَا عَلَى تَمَامِ السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ صَبَاحًا، وَأَيَقَنْتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُرْهِقُنِي طُغْيَانًا وَكَيْدًا، فَطَفَفْتُ أَلْعَنَهُ، وَمَا أَحْسَبُهُ إِلَّا قَدْ رَأَى أَلْعَنَ مَذْحًا فَهُوَ يَسْتَزِيدُنِي...

ثُمَّ رَجَعْتُ أَحَاوِلُ النَّوْمَ، فَمَا كَانَ هَذَا اللَّيْلُ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا أَوَّلُهُ آخِرُهُ إِلَى أَنْ طَلَعَ الْفَجْرُ.

وَجَاءَ يَوْمُ الْأَحَدِ وَهُوَ يَوْمُ غُطْلَةِ الْأَوْرَبِيِّينَ، فَمَا أَشَدَّ عَجْبِي إِذْ تَرَكْنِي فِيهِ إِبْلِيسُ كَأَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ لَهُ وَقْتًا فِي هَذَا الْيَوْمِ...

وَالآنَ يُزَيِّنُ لِي الْخَبِيثُ أَنْ أَخْتِمَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ بِ.....ب.....وَلَكِنْ لَا.

لا.

(٢) الكُرَى: النَّعَاسُ وَالنَّوْمُ.

(١) مَشْحُوذَةٌ: خَاوِيَةٌ.

الشيطان...

قال الشيخ أبو الحسن بن الدَّقَاقِ: كَانَ شَيْخِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الْأَزْهَرِيُّ الْعَجْمِيُّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَجُلًا صَاحِبَ آيَاتٍ وَخَوَارِقٍ مِمَّا فَوْقَ الْعَقْلِ، كَأَنَّمَا هُوَ سِرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ الْجَارِيَةِ فِي هَذَا الْكَوْنِ، قَدْ بَلَغَ بِنَفْسِهِ رَتَبَةَ الْكُجَمِ فِي أَفْقِهِ وَلَا لَائِهِ مِنْ إِشْرَاقِ رُوحِهِ وَصَفَائِهَا؛ وَقَدْ أَرْتَفَعَ بِأَدَمِيَّتِهِ فَوْقَ نَفْسِهَا؛ فَأَصْبَحَ فِي النَّاسِ وَمَعَهُ سَمَاوُهُ، يَجْعَلُهَا بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ الدُّنْيَا.

وَالرَّجُلُ إِذَا بَلَغَ هَذَا الْمَبْلَغَ كَانَ حَيًّا كَالْمَيِّتِ سَاعَةً أَحْتَضَارِهِ: يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ مَا فِي الْحَيَاةِ نَظْرَةً مَنْ يَتْرُكُ لَا مَنْ يَأْخُذُ، وَمَنْ يَعْتَبِرُ لَا مَنْ يَغْتَرُّ، وَمَنْ يَلْفِظُ لَا مَنْ يَتَذَوِّقُ، وَمَنْ يُدْرِكُ أَلْسَرُ لَا مَنْ يَتَعَلَّقُ بِالظَّاهِرِ؛ وَيَرَى الشَّهَوَاتِ كَأَنَّهَا مِنْ لَغْوٍ لَا يَعْرِفُهَا، فَهِيَ الْفَاطَظُ فِيهَا مَعَانِي أَهْلِهَا لَا مَعَانِيهِ، وَإِنَّمَا تَلْبَسُ كَلِمَاتُنَا مَعَانِيهَا مِنْ أَنْفُسِنَا. وَفِي الْأَنْفُسِ مِثْلُ الْهَشِيمِ^(١): إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ الْمَعَانِي الْمَشْتَعِلَةُ اسْتَطَارَ حَرِيقًا وَتَضَرَّمَ، وَفِيهَا عَلَى الْمَجَاهِدَةِ مِثْلُ الْكَمَاءِ؛ فَإِذَا خَالَطَتْهُ تِلْكَ الْمَعَانِي انْطَفَأَتْ بِهِ وَخَمَدَتْ.

وَقَدْ سَأَلْتُ الشَّيْخَ مَرَّةً: كَيْفَ تَحْدُثُ الْكِرَامَاتُ وَالْحَوَارِقُ لِلْإِنْسَانِ؟ فَقَالَ: يَا وَلَدِي إِنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ النَّاسِ الْمَحْجُوبِينَ يَتَصَرَّفُ فِي جَسَمِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لِرُوحَانِيَّتِهِ شَيْئًا، فَإِذَا أُبْلِيَ فِي الْمَجَاهِدَةِ وَوَقَعَ فِي قَلْبِهِ النُّورُ، تَصَرَّفَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لَجَسَمِهِ شَيْئًا، فَمَنْ أَطَاقَ أَنْ يَنْسَلِخَ مِنْ بَشَرِيَّتِهِ، وَأَتَسَّعَتْ ذَاتُهُ فِي مَعَانِي السَّمَاءِ بِمَقْدَارِ مَا ضَاقَتْ مِنْ مَعَانِي الْأَرْضِ، وَكَانَ مُعَدًّا لِأَنْ يَتَحَقَّقَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ، مُعَانًا عَلَى ذَلِكَ بِطَبِيعَةٍ فَوْقَ الْأَعْتَدَالِ - فَقَدْ شَاعَ فِي الْكَوْنِ، وَأَصَابَ لَهُ وَجْهًا وَمَذْهَبًا إِلَى تِلْكَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَهْدِمُ فِي الْعَالَمِ وَتَبْنِي، وَتُفَرِّقُ وَتَجْمَعُ، وَتَنْقُلُ الصُّورَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ؛ فَإِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ جَوْهَرٌ وَاحِدٌ هُوَ النُّورُ، حَتَّى الْجَبَلُ هُوَ نَوْزٌ صَخْرِيٌّ، وَحَتَّى الْبَحْرُ هُوَ نَوْزٌ مَائِيٌّ، وَحَتَّى الْحَدِيدُ وَالذَّهَبُ وَالتُّرَابُ، كُلُّ

(١) الهشيم: الحشيش الجاف.

ذلك نور صرّفته القدرة الإلهية تصرّفها المعجز، فكان، على ما نرى، ظاهراً
مخيلاً يلائم نقصنا وعجزنا، وحقيقة قاهرة على غير ما نرى. ومن ذا يعقل أن
الصخر نور متحمم إذا لم يكن له إلا عقل عبق وحاسة؟ ومن ذا يطيق أن ينهم
بحرايبه وعيونه قول الله - تعالى - : ﴿وَرَى لَيْكًا حَسْبًا جَمِدَةً وَهِيَ تُرْمَرُ السَّحَابُ صُنْعَ اللَّهِ
الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ الْحَيَاةَ ۚ فَالْحَيَاتُ جَمِدَةٌ ثَابِتَةٌ، غَيْرَ أَنَّهُا نَزَلَتْ بِأَرْضِهَا وَنَمُوخٌ فِي نَفْسِهَا ۚ
رَمَتْ نَادًى أَلَّهَ أَنْ يَتَكَشَّفَ نَوْرُ كَلَامِهِ لِيَعْقِلَ الْإِنْسَانِي ۚ فَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ عِلْمًا
جَدِيدًا فِي الْأَرْضِ ۚ بَيَّنَّ أَنْ السَّحَابَ وَالْجِبِلَّ مَادَّةً وَاحِدَةً وَصُنْعَ وَاحِدٍ ۚ

وبما لها سخرية بالإنسان وجهله فإنه إذا كانت الحقيقة غير ما نرى، فكل
شيء في الدنيا هو رد على النظر الإنساني، ويكاد الجبل العظيم يكون كلمة عظيمة
تقول للإنسان : «كذبت»

فأنشأ في الخوازيق والكرامات راجع إلى القدرة أن يسلط الإنسان الروحاني
ما فيه من سر النور على ما في بعض الأشیاء من هذا السر. وتلك هي طاعة
بعض الكواكب لمن يصرف من أسادق وتصل بحالته

عندما بقي في أرجل الروحاني شيء من أمر جسمه يقول : «أنا» . ثم يكون
في أرجل من تلك القدرة ذرة، فإن هو حاول أن يخترق أعادة أبي الكون أو
يعرفه إلا كما يعرف حجر تلقى بعدل أن يتصرف بالجبل الذي هو منه فيثقل أو
يرحله أو يزلزله.

ولا خير على الأرض مطلقاً إلا وهو أحد من حضرة هذه الـ «أنا» . في
أشياءه ولا شر على الأرض مطلقاً إلا وهو إضافة حقوقي إليها . فحين لا ينفي لها
حق في شيء عند نسبها . يحب لها الحق عيشه على كل شيء . وهذا هي
الكرامات الخفية من أكرام الخالق

من أراد أن تتصل نفسه بالله : فلا يكن في نفسه شيء من حظ نفسه . ولا
يؤمن إيمان هؤلاء العامة : يكون إيمانهم بالله مكرة تذكر ونسي . أنا عملهم فهو
إيمانهم أناسخ بالجسم وسهواته تذكر ولا ينسى .

وأنت ترى رجالاً أرواح يأكلون ويشربون ويسبون، ولكن هذا كله ليس فيه
شيء من أرواحهم . على خلاف غيرهم من أناس : فهو من أرواحهم في
مطاعهم . ومن ثم لا يجري الشيطان من الأولين إلا في مجاز صيقه أشد الضيق لا

يكاذ ينفذ منها إلى فكر أو شهوة أو حلم من أحلام الدنيا، أما الآخرون فالشيطان
مبهم هو تيار الدم، يغب غيابه في الأسفل والأعلى.

قال أبو الحسن: وكثا يومئذ في دمشق، فبثني كلام الشيخ عن الشيطان إلى
ما قرأته عن كثيرين ممن رأوا الشيطان أو حوروه أو صاروه؛ فقلت للشيخ: إن
من حَقَّ علي أن أسألك حَقِّي عليك، وما في نفسي أحب إلي ولا أعجب من أن
أرى الشيطان وأكلمه وأسمعه، وأنت قادر أن تقني إليه كما نقلتني إلى ما دخلت
بي عليه من عوالم الغيب.

قال الشيخ: وماذا يرد عليك أن ترى الشيطان وتكلمه؟

قلت: سبحان الله! لا يجني علي شيئاً إلا أن أسخر منه.

قال الشيخ: فأني أخشى يا ولدي، أن يكون الشيطان هو الذي يريد أن تراه

وتسمع.

قلت: فأريد أن أسأله عن سره، يكون علم لا مخربة.

قال: لو كشف لك عن سره لما كان شيطاناً، فإنما هو شيطاناً بسره لا

بغيره.

قلت: فأريد أن أرى الشيطان لاكون قد رأيت الشيطان!

قال الشيخ: لا حرج إلا قوة إلا بالله! لو كنت يا أم الحسر بأربع أرجل

بهرت من الشيطان بثلاث سيد وبركته بحرك من واحد.

قلت: يا سيدي، عمو كنت حماراً بطر عن الشيطان في أرجل الأربع

كثها، إذ لا حاجة به إلى إعواء حماراً.

نظم الشيخ وقاراً ولا بد أن ترى الشيطان وتكلمه.

قلت: لا بد.

قال: إنه هو يفرها، قسم.

قال أبو الحسن: وكاد الشيخ إذ سر إلى أم حذاري حيث معه حارساً عن

الحرس، عائلاً يوصل سي ما أم به أم، وأصبح ظراً آدمياً مطلقاً به. ولا تقف أحراق

الأم وجد القوة المتكلمة لإرجاء رسم القوة تستمد من الشيخ الواصل. فلا بد

من إمام، كأنها سلسلة نفسية متميزة في الأرض، فتتغير الواحدة منها بالواحدة، إذ تقع في جزها فتورق وتثمر؛ كالشجرة: جو يسوها، وجو يذبلها، وجو يسلبها سلباً؛ وكذلك تفعل النفس إذا كان لها جو.

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالمحمول، فرأيتنا وقد أشرفنا على بناء عظيم، ورأيت أقواماً يتلقون الشيخ ويسلمون عليه ويتبركون بمقدمه؟ فأنكرتهم نفسي ووجدت منهم وحشة، فالتفت إلي الشيخ وقال: هؤلاء من الجن، وما إليهم قصداً، فلا تشتغل بما ترى وأشتغل بي.

ثم انتهي إلى البناء العظيم، فتستقبلنا طائفة أخرى، ويدخلون الشيخ وأنا خلفه، ويمرون بنا على دنيا مخبوءة تعجز الوصف، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت؛ فيقولون: هذه كنوز سليمان وذخائره، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً فرأينا ثم^(١) نعيماً وملكاً كبيراً، ثم أنهينا آخراً إلى مغارة خسيفة كأنها عرق من عروق جسم الأرض، يتفجر منها دوي كالرعد القاصف، إلا أنه في السمع كخوار الثور، إلا أنه نور خيل إلي أن رأسه في قدر جبل عظيم، يتعلق به غناب^(٢) في قدر جبل آخر، على جسم يسد الخافقين، فخواره كأنه صراخ الأرض، وإذا أنا بأقبح مكان منظرأ، وأنتيه ريحاً، كأنه سجن بناؤه من الجيف.

فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا سجن إبليس، وهو هنا في هذه المغارة منذ زمن سليمان - عليه السلام -.

قلت: أقمنسجون هو؟

قالوا: وإنه مع ذلك موقرٌ بأمثال الجبال حديداً يربض به في مخبئه، فلا يتزعزع ولا يتحلل.

قلت: وإنه مع ذلك قد ملأ الدنيا فساداً، فكيف به لو كان طليقاً؟

قالوا: فلو أنه كان طليقاً لاستحوذ^(٣) على الناس كافة؛ فيجتمع أهل الأرض على شهوة واحدة لا شيء غيرها، فيبطل مع هذه الشهوة الواحدة كل تدبير بينهم، فلا تقوم لهم سياسة، ولا يكون بينهم وازع^(٤)؛ فيرجعون كالكلاب أصابها الكلب

(١) ثم بفتح الثاء ظرف مكان بمعنى هناك.

(٢) غناب الثور وغيبه هو ما تنثى من لحم ذقته من أسفل.

(٣) استحوذ: استمال.

(٤) وازع: رادع.

وهاج بها، فأنيابها في لحمها، لا يزال يعض بعضها بعضاً، فليس لجميعها إلا عمل واحد يسلمها إلى الهلاك، ويصبح ظهر الأرض أغرى من سراً أديم.

وإنما يصلح الناس باختلاف شهواتهم وتنافرهما وتنازعها: فبعضها يحكم بعضاً، وشيء منها يزغ شيئاً، ومن تخلص من نزوة قمع بها نزوة أخرى؛ كالمتروج المخصن: يحكم بالجلد والرجم على من ليست له امرأة فزنا؛ وكالغني الواجد: يحكم على اللص الذي لم يجد فسرق، وهلم جرا.

وما ينشأ الناس في ثلاثة أعمار، فيشبون ويكتهلون ويهرمون، إلا ليتخلف شهواتهم وتختلف مقادير الرغبة فيها، فتتحقق من ثم تلك الحكمة الإلهية في التدبير ويجد الشرع محلّه بينهم، كما يجد العصيان بينهم محلّه.

ولو أن أمة كلها أطفال أو كهول أو شبوخ، لبادت^(١) في جيل واحد؛ وإنه ليس أسمح من الرذيلة تكون وحدها في الأرض إلا الفضيلة تكون وحدها، فلا بد من شيء يظهر به شيء غيره كالضد والضد؛ والمعركة إذا انتصر كل من فيها كانت هزلاً وكانت شيئاً غير المعركة.

قال أبو الحسن: وقلت لهم: فإذا كان الشيطان سجيناً قد ربضت به أثقاله، حتى لهو في سجن من سجن مبالغه في كفه والتضييق عليه - فكيف يفتن الناس في أرجاء الأرض ويونسوس في قلوبهم، حتى لهو يد بين كل يدين، وحتى لهو العين الثالثة لعيني كل إنسان؟

قالوا: إن في روجه النارية قوة تفصل منها وتنتشر في الأرض، كشعاع الشمس من الشمس: هذه كرة نارية مئة معلقة على الأجسام مرصدة لها، وتلك كرة نارية حية معلقة على النفوس مرصدة لها، وبهذه وتلك عمار الدنيا وأهل الدنيا.

قلت: لعلكم أردت أن تقولوا: خراب الدنيا وأهل الدنيا. فغلطتم، فكان ينبغي أن يجيء بدل الغلط...

فقال أحدهم: يا أبا الحسن، خرق الثوب المسمار. جاز هنا لأمن اللبس أن يكون المفعول به - وهو الثوب - مرفوعاً وفاعله - وهو المسمار - منصوباً، هل جئت - ويحك - تطلب النحر أو تطلب الشيطان...؟

(١) بادت: فئت.

قال أبو الحسن: فقطعني الجنّي - والله - وأخجلني، ونظرتُ خلسةً إلى الشيخ أراه كيف يسخرُ مني، فإذا الشيخُ وقد أمّلسَ فلا أراه، وإذا أنا وحدي بين الجنِّ ولبازاءِ هذا السّاحرِ وُضِعَتْ عينُهُ في جبهتِهِ وشقَّ فمُهُ في قفاه..! فسُرِّي عني وزالَ ما أجده، وقلْتُ في نفسي: الآنَ أبلغُ أربي^(١) من الشيطانِ ويكونُ الأمرُ على ما أريد، فلا أجِدُ من أحسِّسُم ولا تقطُعي هيبةُ الشيخ..!

ووقعَ هذا الخاطرُ في نفسي، فاستعدتُ بالله ولعنتُ الشيطانَ وقلْتُ: هذا أولُ عَبيهِ بي وجعلهُ إِيَّاي من أهلِ الرِّياءِ، كأنَّ لي شأنًا في حضورِ الشيخِ وشأنًا في غيابه، وكأنِّي مُناقٍ أعلنُ غيرَ ما أُمِرُ، وقلْتُ: إنا لله! كذتُ يا أبا الحسنِ تشيطُن! ثمَّ هممتُ أن أنكص^(٢) على عقبي، فقد أيقنْتُ أنَّ الشيخَ إنَّما تخلَّى عني لأكونَ هنا بنفسِي لابه، وما أنا هنا إلَّا به لا بنفسِي، فيوشِكُ إذا بقيتُ في موضعي أن أهلك! بئدَ أنَّ المِغارةَ أنكشفت لي فجأةً فما ملكتُ أن أنظر؛ ونظرتُ فما ملكتُ أن أقف، ووقفْتُ أرى، فإذا دخانٌ قد هاجَ فأرتفعَ يثورُ ثورانَهُ حتى تملأَ المكانُ به، ثم رَقَّ ولطَفَ.

وأسْتَضْرَمْتُ^(٣) منه نارَ عَظيمةَ لها وهَجَانٌ شديدٌ يتضَرَّمُ بعضها في بعضٍ. ويُسمَعُ من صوتِها مَعمعةٌ^(٤) قويَّة، ثمَّ خمدت.

وأنفجرَ في موضعِها كالسِّدِّ المُنْبَثِقِ من ماءٍ كثيفٍ أبيضٍ أصفرَ أحمرَ، كأنَّهُ صديدٌ^(٥) يتقيحُ في دمٍ، ثمَّ غاض.

وتتبعتُ في مكانِهِ حَمَأةً متينةً جعلتُ ثوبًا وتَعَطَّمُ حتى خِفْتُ أن تبتلعني وأذهبَ فيها، فسميتُ اللهَ - تعالى - فَعَارَتْ في الأرضِ

ثمَّ نظرتُ فإذا كلبٌ أسودٌ مُحَنَرُ الخِمالِيقِ، هائلُ الخَلْقَةِ مستأيد^(٦)، قد وقفَ على جيفةٍ قَدِيرَةٍ غابَ فيها حَظْمُهُ يعبُ من نَسِيلِ يو.

فقلْتُ: أيُّها الكلبُ، أأنت الشيطانُ؟

وأنظرُ فإذا هو مسخٌ شاذٌّ كأنَّهُ إنسانٌ في بهيمةٍ قد أمتزجا وطعَى منهما شيءٌ على شيءٍ، وأما وجهُهُ فأقبحُ شيءٍ منظرًا، تحسبُهُ قد لَيسَ صورةَ أعمالِهِ..

(١) أربي: معرّكة.

(٢) أنكص: أترجع.

(٣) استضرمت: اشتعلت.

(٤) مَعمعة: غايي.

(٥) صديد: قبح الجرح.

(٦) مستأيد: يتخلى بأخلاق الأسود.

ونطق فقال: أنا الشيطان!

قلت: فما تلك الجيفة؟

قال: تلك دنياكم في شهواتها، وأنا ألتقم قلب الفاسق أو ألأثم منكم، كما ألتقم دودة من هذه الجيفة.

قلت: عليك لعنة الله وعلى الفاسقين والأتمين، فكيف كنت دخاناً، ثم أنقلبت ناراً، ثم رجعت قيحاً، ثم صرّت حمأة^(١)، ثم كنت كلباً على جيفة؟

قال: لا تلعن الفاسقين والأتمين؛ فإنهم العباد الصالحون بأحد المعنيين، وأنت وأمثالك عباد صالحون بالمعنى الآخر، أليس في الدنيا حياة ووقاحة؟ فأولئك يا أبا الحسن هم وقاحتي أنا على الله! أنا منكم في زهدكم جرماناً الحرمان، وفقرو الفقر، ولقد أهلكتموني بؤساً؛ غير أنني معهم لذّة اللذة، وشهوة الشهوة، وغنى الغنى، لا تنم لذّة في الأرض، ولا تحلو لذائفها وإن كانت حلالاً، إلا إذا وضعت أنا فيها معنى من معاني أو وقاحة من وقاحتي! حتى لأجعل الزوجة لزوجها مثل الشعر البليغ إذا استعار لها معنى مني، وكل ما فسدت به المرأة فهو مجازي وأستعاري لها أ جعلها به بليغة...

وأنتم يا أبا الحسن تقطعون حياتكم كلها تُجاهدون إثم ساعة واحدة من حياة عبّادي، فأنظر - رحمك الله - لئن كانت ساعة من حياتهم هي جهنمكم أنتم، فكيف تكون جهنم هؤلاء المساكين؟

إنك رأيتني دخاناً لأنّي كذلك أنبعث في القلب الإنساني، فمتى تحركت فيه حركة الشر كنت كالأحتيال لإضرار النار بالنفخ عليها؛ فمن ثم أكون دخاناً، فإذا غفل عني صاحب القلب تضرّمت في قلبه ناراً تطلب ما يطفئها؛ ثم يواقع الإثم والمعصية ويقضي نهمته^(٢) فأبرد عن قلبه، فيكون في قلبه مثل الحرق الذي برد فتأكل موضعه فتقيح، ثم يختلط قيح أعماله بمادته الترابية الأرضية، فينقلب هذا المسكين حمأة إنسانية لا تزال ترو وتنفخ كما رأيت.

قلت: أعوذ بالله منك! أفلا تعرف شيئاً يردك عن القلب وأنت دخان بغد؟
ففقهة اللعين وقال: ما أشد غفلتك يا أبا الحسن، إذ تسأل الشيطان أن يخترع

(١) حمأة: ناراً.

(٢) نهمته: جوعته.

التوبة! أما لو أن شيئاً يَخْتَرُعُ التوبةَ في الأرض لَأَخْتَرَعَهَا الْقَبْرُ الَّذِي يَدْفَنُ فِيهِ
بَعْضُكُمْ بَعْضاً كُلَّ طَرْفَةِ عَيْنٍ مِنَ الزَّمَنِ، فَتُزَلُّونَ فِيهِ أَلَمِيَّتَ الْمُسْكِينِ قَدْ انْقَطَعَ مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ وَتَتْرَكُونَهُ لِأَثَامِهِ، وَحِسَابِ أَثَامِهِ، وَالْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ فِي أَثَامِهِ؛ ثُمَّ تَعُودُونَ
أَنْتُمْ لِاقْتِرَافِ هَذِهِ الْأَثَامِ بَعِينِهَا!

قُلْتُ: عليك وعليك أيُّها اللعين؛ ولكن ألا يتبدد هذا الدخانُ إذا ضَرَبَتْهُ
الرَّيحُ أَوْ انْطَفَأَ مَا تَحْتَهُ!

قال: أوه! لقد أوجعتني كأنما ضَرَبْتَنِي بِجَبَلٍ مِنْ نَارٍ، إِنَّ نَبِيَّكُمْ عَرَفَهَا وَلَكِنَّكُمْ
أَغْيَاءٌ؛ تَأْخُذُونَ كَلَامَ نَبِيَّكُمْ كَأَنَّمَا هُوَ كَلَامٌ لَا عَمَلَ، وَكَأَنَّهُ كَلَامُ إِنْسَانٍ فِي وَقْتِهِ لَا
كَلَامَ النُّبُوَّةِ لِلدَّهْرِ كُلِّهِ وَلِلْحَيَاةِ كُلِّهَا؛ وَلِهَذَا غَلَبْتُ أَنَا الْأَنْبِيَاءَ عَلَى النَّاسِ، فَإِنِّي أَضْعُ
الْمَعَانِي الَّتِي تَعْمَلُ، لَا الْحِكْمَةَ الْمَتْرُوكَةَ لِمَنْ يَعْمَلُ بِهَا وَمَنْ لَا يَعْمَلُ.

أندري يا أبا الحسن، لماذا أعجزني أسلافكم الأولون مثل: عُمرَ وأبي بكر؟
حتى كان إسلامهم من أكبر مصائبِي، فتركوني زمناً - وأنا الشيطان - أرتابُ في أنني
أنا الشيطان...؟

قُلْتُ: لماذا؟

قال: أراك الآن لم تَلْعَنَ، فَلَسْتُ قَائِلَهَا إِلَّا إِذَا تَرَحَّمْتَ عَلَيَّ.

قُلْتُ: عليك وعليك من لَعَنَاتِ اللَّهِ! قل لماذا؟

قال: أسألك ويأمرُ وطْفلي وَيَقْتَرِحُ؟ لا بدَّ أن تترحمَ!

قُلْتُ: يرحمنا الله منك! قل لماذا؟

قال: وهذه لعنةٌ في لفظةٍ رحمة؛ لا، إِلَّا تترحمَ عليَّ أنا إبليس الرجيم^(١)!

قُلْتُ: فيُعْزِي أَلَلَهُ عَنْ عِلْمِكَ؛ لَقَدْ أَلْهَمْتَنِيهَا رُوحُ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ النُّبُوَّةَ كَانَتْ
هِيَ بِأَعْمَالِهَا وَصِفَاتِهَا تَفْسِيراً لِلْأَلْفَاظِ عَلَى أَسْمَى أَلْوَجُوهِ وَأَكْمَلِهَا، فَكَانَ رُوحُ النَّبِيِّ
ﷺ لِنَتْلِكَ الْأَرْوَاحِ كَالْأَمِّ لِأَبْنَائِهَا؛ وَقَدْ رَأَوُهُ لَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلَا حَظَّ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ
لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِالْقَضْدِ فِي أَمْرِ النَّفْسِ، وَجَعَلَ نَاحِيَةَ الْإِسْرَافِ فِيهَا إِسْرَافاً فِي الْعَمَلِ
لِسَعَادَةِ النَّاسِ. وَكَلَّمَا أَرْتَدَّ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ وَحَظَّوْظُهَا أَرْتَدَّ إِلَيْكَ - أَيُّهَا اللعين -
وَأَقْبَلَ عَلَى شَقَاءِ نَفْسِهِ، وَكَلَّمَا عَمِلَ لِسَعَادَةِ غَيْرِهِ أَبْتَعَدَ عَنْكَ - أَيُّهَا الرجيم - وَأَقْبَلَ

(١) الرجيم: المطرود

على سعادة نفسه، وترك الغضب وحفظ النفس هو الصبر؛ وصبر الأنبياء والصدّيقين ليس صبراً على شيء بعينه في الحياة، بل هو الصبر على حوادث العمر كله، كصبر المسافرين إن كان عزيمة مدة الطريق كلها، وإلا كان فساداً في القوة ووقع به الخذلان.

فهذا الصبر المعتزّم المصمّم، الذي يوطّن به الرجل نفسه أن يكون رجلاً إلى الآخر - هو تعب الدنيا، ولكنه هو رَوْحُ الْجَنَّةِ مَعَ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا. والمؤمن الصابر رجلٌ مُقْفَلٌ عَلَيْهِ بِأَقْفَالِ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي لَا يَفْتَحُهَا الشَّيْطَانُ وَلَا تَفْتَحُهَا مَصَائِبُ الدُّنْيَا؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُنْضِي شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِي^(١) أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي سَفَرِهِ». كأنه يقول: لو لم يصبر المسافر دائماً معتزماً مدة سفره كلها لما أنضى شيطانه.

فصاح الشيطان: أوّه، أوّه! ولكن قل لي يا أبا الحسن: ما صبر رجل مؤمن قوي الإيمان، قد استطاع بقوة إيمانه أن يفيق من سُكْرِ الْغِنَى، فَتَخَلَّصَ مِنْ نَزَوَاتِ الشَّاطِئِينَ الذَّهَبِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَسْمُونَهَا الدُّنَايَا؛ وَقَدْ أَرَدْتُهُ عَلَى أَنْ يَكْذِبَ، فَرَأَى الْإِيمَانَ أَنْ يَصْدُقَ؛ وَجَهَدْتُ بِهِ يَغْضَبُ، فَرَأَى الْحِكْمَةَ أَنْ يَهْدَأَ؛ وَحَاوَلْتُ مِنْهُ أَنْ يَطْمَعَ، فَرَأَى الرَّاحَةَ أَنْ يَرْضَى؛ وَسَوَّلْتُ لَهُ أَنْ يَحْسُدَ، فَرَأَى الْفَضِيلَةَ أَلَّا يُبَالِيَ؛ وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ بِمَا يَشُقُّ أَنَّهُ الْإِيمَانُ وَالصَّبْرُ وَالْهَدْوُ وَالرِّضَا وَالْقَنَاعَةُ؛ وَأَحَاطَ نَفْسَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ بِالسَّعَادَةِ الْقَلْبِيَّةِ وَاجْتَرَأَ بِهَا؛ وَقَصَرَ نَظَرَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ وَوَجَدَ الْجَمَالَ فِي نَفْسِهِ الطَّيِّبَةِ الصَّافِيَةِ؛ وَأَجْرَى مَا يُؤْلِمُهُ وَمَا يَسُرُّهُ مَجْرَى وَاحِداً؛ وَنَظَرَ إِلَى الْعَمْرِ كُلِّهِ كَأَنَّهُ يَوْمٌ وَاحِدٌ يَرْقُبُ مَغْرَبَ شَمْسِهِ؛ وَأَخَذَ مِنْ إِرَادَتِهِ قُوَّةً أَنْسَنَهُ مَا لَمْ تُعْطِهِ الدُّنْيَا، فَلَمْ يَخْفَلْ بِمَا أُعْطِيَ الدُّنْيَا وَمَا مَنَعَتْ؛ وَعَاشَ عَلَى فَقْرِهِ بِكُلِّ ذَلِكَ كَمَا يَعِيشُ الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ: هَذَا فِي قَصْرِ مِنْ لَوْلُؤَةٍ أَوْ يَاقُوتَةٍ أَوْ زَبَرٍ جَدَّةٍ، وَذَاكَ فِي قَصْرِ مِنْ الْحِكْمَةِ أَوْ مِنَ الْإِيمَانِ أَوْ مِنَ الْعَقْلِ.

قال الشيطان: فلما أعجزني صلاحاً ورضى وصبراً وقناعة وإيماناً واحتساباً، وكان رجلاً عالماً فقيهاً - سَوَّلْتُ^(٢) لَهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لِيَعِظَ النَّاسَ فَيَنْتَفِعُوا بِهِ، وَيُصْصِرَهُمْ بِدِينِهِمْ - وَتَكَلَّمَ فِي نَصِّ كَلَامِ اللَّهِ؛ فَعَقَّدَ الْمَجْلِسَ وَوَعِظَ، وَأَنْصَرَفُوا وَبَقِيَ وَحْدَهُ.

(١) ينضي: يهزل، يضعف.

(٢) سَوَّلْتُ: وسوست له.

فجاءت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء في الدين من أمر طبيعتهن؛ وكانت امرأة جزلة غضة رابية، يهتز أعلاها وأسفلها، وتمشي قصيرة الخطو مثاقلة كالمتضايقة من حمل أسرار جمالها وأسرار بدنِها الجميل؛ فبغض مشيتها يقطّط بعضها نوم فاتر تُخالطه اليقظة؛ ولا يراها الرجل الفحل التام الفحولة إلا رأى الهواء نفسه قد أصبح من حولها أنثى، مما تعصف به ريحها العطرة عطر زيتها وجسمها.

وكان الواعظ قد ترمّل من أشهر، وكانت المرأة قد تأيّم^(١) من سنوات؛ فلما رآها غصّ طرفه^(٢) عنها؛ ولكنها سألتها بالفاظها العذبة عن أمور هي من أسرار طبيعتها، وسألتها عن طبيعتها بالفاظها؛ فسمع منها مثل صوت البلور، يتكسر بعضه على بعض.

وتحدّث له وكأنها تتحدّث فيه: فسمع بأذنيه ودمه، ثم كان غصّ عينه أقوى لرؤية قلبه وجمع خواطره.

ورأى صوتها يشتهي؛ وعانقته رائحتها العطرية النفاذة؛ وأحاطته بجو كجو القراش؛ وعاذت أنفاسها كأنها وسوسة قبل؛ وصارت زفرائها كالقذر إذا استجمعت غليانا؛ وطلعت في خياله غريانة كما تطلع للسكران من كأس الخمر حورية غريانة، لها جسم يبدو من اللين والبضاضة والنعمة كأنه من زبد البحر؟

قال أبو الحسن: وكنت كالنائم، فما شعرت إلا بصوت كصك الحجر بالحجر، لا كتكسر البلور بغضه على بعض، وسمعت شيخي يقول:

أفسفت...

(١) تأيّم: مات عنها زوجها.

(٢) غصّ طرفه عنها: مال بنظره عنها.

تاريخ يتكلم...

أيعرفُ القراءُ أنَّ في الأحلام أحلاماً هي قِصَصُ عقليةٍ كاملةٍ لأجزاءٍ محكمةٍ
الوضعِ مُتَّسِقَةٍ التركيبِ بديعةٍ التَّأليفِ، تجعلُ المرءَ حينَ ينامُ كأنَّه أسلمَ نفسه إلى
(شركةٍ مِنَ الملائكة)، تَسِيحُ بِهِ في عالمٍ عجيبٍ كأنَّما سُجِّرَ فتحوَّلَ إلى قصةٍ؟

إنَّ يكنِ في القراءِ مَنْ لا يعلمُ هذا فليعلمهُ مِنِّي؛ فإنِّي كثيراً ما أكتبُ وأقرأ في
النومِ؛ وكثيراً ما يُلْقِي عَلَيَّ من بارعِ الكلامِ، وكثيراً ما أرى ما لو دَوَّنْتُهُ لَعُدَّ مِنَ
الخوارقِ والمعجزاتِ.

وهذه القصةُ التي أرويتها اليومَ، كانتِ المعجزةُ فيها أني مشيتُ في التاريخِ كما
أمشي في طريقٍ ممتدةٍ؛ فتقدَّمتُ إلى أهلِ سنة ٣٩٥ للهجرة وما يليها، فِعِشْتُ معهم
وَتَخَبَّرْتُ من أخبارهم، ثُمَّ رجعتُ إلى زماني لأقْصُ ما رأيتهُ على أهلِ سنة ١٣٥٣...

أَمَسَيْتُ البارحةَ كالمغمومِ في أحوالٍ ثَقِيلَةٍ على النفسِ ما تَنَظَّلِقُ أَنفُسُ لها،
أولَّها سوءُ الهضمِ؛ ومتى كانَ البدءُ من هُنا لم تكنِ الحركةُ في النفسِ إِلَّا دائِرةً:
تَذهَبُ ما تَذهبُ ثُمَّ لا تنتهي إِلَّا في سوءِ الهضمِ عَينِه. فجلستُ في التَّديِّ الذي
أُسَمِّرُ^(١) فيه أحياناً، فكانَ لِحْوَهُ وَزَنُّ أَحْسَنَتُهُ كَمَا يُحَسُّ الغائِصُ في الماءِ ثَقُلَ الماءِ
عليه؛ ودَخُنْتُ الكَرْكَرَةَ^(٢) فلم تكنِ هواءٌ ودُخاناً يَتَرَوَّخُ، بَلْ كانتِ من ثِقَلِها
كَالطعامِ يَدْخُلُ على الطعامِ؛ ونَظَرْتُ ناحِيَةً فأخَذْتُ عَيني رَجُلًا فِليي الخِلْقَةِ^(٣)،
مُنْطادَ البَطْنِ^(٤) كأنَّما تُفِخُ بَطْنُهُ بِالآلاتِ، يَحْمِلُ مِنْهُ مَقْدَارَ أَرْبَعَةٍ مِنْ بَطُونِ أَلْبَدِيناتِ
الحواملِ كُلِّ مِنْهُنَّ في الشَّهْرِ التَّاسِعِ مِنْ حَمْلِها... وكانَ معي إلى كُلِّ هذا أَلْبلاءُ
خَمْسُ صُحُفٍ يَوْمِيَّةٍ أريدُ قراءَتَها...

ثُمَّ جِئْتُ إلى الدَّارِ والمِعرَكَةِ حاميةً في أعصابي؛ وما كانَ سوءُ الهضمِ مَنَومَةً
فيدعو إلى النومِ، فدَخَلْتُ بَيْتَ كُتُبِي وأرَدْتُ كِتَاباً أَيُّ كِتَابٍ تَنالُهُ يَدِي، فخرَجَ لي كِتَابُ

(٣) فِليي الخِلْقَةِ: ضَحْها كالْفِيلِ.

(١) أَسْمَرُ فِيهِ: أَقْضَى لِبالي السَّمرِ فِيهِ.

(٤) مُنْطادَ البَطْنِ: مُفْتَحَ البَطْنِ.

(٢) الكَرْكَرَةُ: النَّارِجِيلَةُ.

في خرافات الأولين وأساطيرهم وهذيانهم وسوء هضمهم العقلي... كالكلام عن أدونيس وأرطاميس وديونيس وسميراميس وإيسيس وأتوبيس وأثرغيس... فاستعدت بالله وقلت: حتى الكتب لها في هذه الليلة أعصاب قد نالتها الثقلة وآلم؟

وبات الليل يقظان معي، وبقيت متململاً أتقلب حتى أخذ الصداغ في رأسي، فأنقلب ألتعب نوماً، وجاء من النوم تعب آخر، وقذفت إلى عالم الأحلام في قبلة تستقر بي حيث تريد لا حيث أريد:

ورأيتني في قوم لا أعرف منهم أحداً قد اجتمعوا جماهير، وسمعت قائلاً منهم يقول: «الساعة يمر مولانا العالي». فقلت لمن يليني: «من يكون مولانا العالي؟» قال: «أو أنت منهم؟» قلت: «ممن؟» فألهاه عن جوابي تشوف الناس وأنصرفهم إلى رجل أقبل راكباً حماراً أشهب؟ فصاحوا: «القمر القمر^(١)» ورفع الرجل الذي يناكبني صوته يقول: «البركات والعظماث لك يا مولانا العالي!».

قلت: إنا لله! لقد وقعت في قوم من الزنادقة، يعارضون «التحيات والصلوات والطيبات لله»؛ ثم مر صاحب الحمار بحذائي، وغمره الرجل علي، فقال: ما بالك لا تقول مثله؟ قلت: أعود بالله من كفر بعد إيمان. فكأنما أراد أن يُلطمني فرقع يده، فصيح في: كما أنت - ويلي - وإلا قبضت عليك، وأسلمت لك للبوليس، وشكوتك إلى النيابة، ورفعتك إلى محكمة الجنح^(٢)!

قال: ماذا أسمع؟ الرجل مجنون فخذوه! وأحاط بي جماعة منهم، ولكئه ترجل عن حماره وأخذ بيدي ومشينا، فقلت: من أنت يا هذا؟ قال: أراك من غير هذا البلد؛ أما تعرف الحاكم بأمر الله؟ فانا هو. قلت: أنظر - ويحك - ما تقول. فما أظنك إلا مموراً؛ لقد كتبت أمس كتاباً إلى مجلة (الرسالة) أرخته ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٥٣ و ١٨ من مارس سنة ١٩٣٥، وأرسلت به مقالة «الخروفين».

قال: ماذا أسمع؟ نحن الآن في سنة ٣٩٥؛ فالرجل مجنون، أولاً فأنت أيها الرجل من معجزاتي. لقد جئت بك من التاريخ، فستري وتكتب، ثم تعود إلى التاريخ فتكون من معجزاتي، وتقصر عني وتشهد لي...

قلت: فإني أعرف أعمالك إلى أن قُلت في سنة ٤١١...

(١) القمر اسم لذلك الحمار.

(٢) الجنح، مفردة جُنحة وهي الجريمة.

قال: أو إله أنت فتخلق ست عشرة سنة بحوادثها؟ لقد كذت من أفنك
وغاوتك تُفسد عليّ دعوى المعجزة!

وهاج الصداغ في رأسي، وبلغ سوء الهضم حدّه، وأشتبكت سينات إيسيس
وأتوبيس إلخ بسين إبليس، ومرّت بين كلّ هذا حوادث الطاغية المعتوه^(١) المتجبر،
فرايته يتدع في كلّ وقت بدعا، ويخترع أحكاماً يكره الناس على أن يعملوا بها،
ويعاقبهم على الخروج منها، ثم يعود فينقض أمره، ويعاقب على الأخذ به، كأنّ
الذي نقض غير الذي أبرم، وكأنّه حين يتبلّد فيعجزه أن يخترع جديداً - يجعل
أختراعه إبطالاً لأختراعه.

ورأيت أنّه كأنما يعتد نفسه مخّ هذه الأمة، فلا بدّ أن يكون عقلاً يعقوليها، ثمّ
لا بدّ أن يستغلي الناس ويستبدّ بهم استبداد الشريعة في أمرها ونهيها، فكانت
أعماله في جملتها هي نقض أعمال الشريعة الإسلامية، وظنّ أنّه مستطيع محو
ذلك العصر من أذهان الناس وقتل التاريخ الإسلامي بتاريخ قاتل سفك.

وسؤل^(٢) له جنونه أنّه خلق تكذيباً للنبوة؛ ثمّ أفرط عليه الجنون فحصل
في نفسه أنّه خلق تكذيباً للالوهية؛ وفي تكذيبه للنبوة والالوهية يحمل الأمة
بالقهر والغلبة على الاتصاف إلاّ به هو؛ وفي سبيل إثباته لنفسه صنع ما صنع،
فجاء تاريخه لا ينفي الوهية ولا نبوة، بل ينفي العقل عن صاحبه؛ وجاء هذا
التاريخ في الإسلام ليتكلّم يوماً في تاريخ الإسلام...

رأيتني أصبحت كاتباً لهذا الحاكم، فجعلت أشهد أعماله وأدوّن تاريخه،
وأقبلت على ما أفرّدني به وقلت في نفسي: لقد وضعتني الدنيا موضعاً عزيزاً لم
يرتفع إليه أحد من كتابها وأدبائها، فسأكتب عن هذا الدهر بعقل بينه وبين هذا
الدهر ٩٦٨ سنة صاعدة في العلم.

ودوّنت عشرة مجلّدات ضخمة أنتبهت وأنا أحفظها كلّها، فإذا هي
جمل صغيرة، جعل الحلم كلّ نبذة منها سِفراً ضخماً كما يُخيّل للنائم أنّه
عاش عمراً طويلاً وأحدث أحداثاً ممتدة، على حين لا تكون الرؤيا إلا
لحظة.

(١) المعتوه: المخبول.

(٢) سؤل: سَوَّغ وأوحى له وسمع.

وهذه هي المجلدات التي قلت: إن التاريخ يتكلم بها في التاريخ...

المجلد الأول

ابن علي هذا الطاغية بنقيصتين: إحداهما من نفسه، والأخرى من غيره؛ فأما التي من نفسه فإنني أراه قد خلق وفي مخه لفافة عصبية من يهودية جدو رأس هذه الدعوة؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم المهدي عبيد الله، ويقولون: إن عبيد الله هذا كان أبن امرأة يهودية من حداد يهودي، فاتفق أن جرى ذكر النساء في مجلس الحسين بن محمد القداح، فوصفوا له تلك المرأة اليهودية، وأنها آية في الحسن؛ وكان لها من الحداد ولد، فتزوجها الرجل وأدب ابنها وعلمه، ثم عرفه أسرار الدعوة العلوية وعهد إليه بها.

ومن بعض اللوائف العصبية في المخ ما ينحدر بالوارثة مطبوعاً على خيره أو شره، لا يد للمرء فيه ولا حيلة له في دفعه أو الانتفاء منه، فيكون قدراً يتسلسل في الخلق ليحدث غاياته المقدورة، فمتى وقع في مخ إنسان فالدنيا به كالحبلى ولا بد أن تتمخض^(١) عنه.

هذه اللفافة اليهودية في مخ هذا الطاغية ستحقق به قول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ فهو لن يكون العدو للإسلام دون أن يكون الأشد في هذه العداوة، ولن يكون فيها الأشد حتى يفعل بها الأفاعيل المنكرة. وما أرى هذه المآذن القائمة في الجو إلا تخرق بمنظرها عينه من بغضه للإسلام وأنطوائه على عدوانه؛ فويل لها منه!

وأما النقيصة الثانية فقد ابتلي بقوم فتوهم بأرائهم ومذهبهم، وهم حمزة بن علي، والأخرم، وفلان، وفلان... وقد لفقوا للدنيا مذهباً هو صورة عقولهم الطائشة، لا يجيء إلا للهدم، ثم لا يضع أول معاوله إلا في قبة السماء ليهدمها...! ولو أنا جمعت هذا المذهب في كلمة واحدة لقلت: هو حماقة حمقاء تريد إخراج الله من الوجود لإدخال الله في بعض الطغاة!

ويتلقَّبون في مذهبهم بهذه الألقاب: العقل، الإرادة، الإمام، قائم الزمان، علة العلل...!

(١) تتمخض عنه: تنتج عنه.

المجلد الثاني

أظهر الطاغية أن الله يؤيد به الإسلام، ليتألف أَلْجَنَدَ والشعب ويستميلهم إليه، وكان في ذلك لثيم الكيد، دنىء الجيلة، يهودي المكر؛ فأمر بعمارة المدارس للفقهِ والتفسير والحديث والفُتيا، وبذل فيها الأموال، وجعل فيها أَلْفَقَهَاءَ (والمشايخ)، وبالغ في إكرامهم، والتوسعة عليهم، والتخضع لهم، ودخل في ظلال العمام... وأحضر لنفسه فقيهين مالكيين (اثنين لا واحد) يُعَلِّمَانِهِ وَيُفَقِّهَانِهِ، وكان أشبه بمريد مع شيخ الطريقة يتسعد^(١) به ويتيمن^(٢)؛ أشرف ألقابه أنه خادم أَلِعمامة الحضراء، وأسعد أوقاته اليوم الذي يقول له فيه الشيخ: رأيتك في الرؤيا ورأيت لك...!

وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة من هذا الطاغية، هي بعينها ربا أَللفافة اليهودية في مُحه؛ تُضَلِّحُ بإقراض مائة، وفيها نية الخراب بالستين في المائة...! فإنه ما كاد يتمكن من الناس ويعرف إقبالهم عليه وثقتهم به، حتى طلبت أَللفافة اليهودية رأس المال والزبا؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخرايها، وأبطل العيدين وصلاة الجمعة، وقتل أَلْفَقَهَاءَ وقتل معهم فقيهيهِ وأستاذيهِ، وعاد كالمريد المنافق مع شيخ الطريقة، يقول في نفسه: إن هناك ثلاثة تعمل عملاً واحداً في الصيد: الفخ، والعمامة، واللحية...!

إن هذا الطاغية ملك حاكم، يستطيع أن يجعل حماقته شيئاً واقعاً، فيقتل علماء الدين بإهلاكهم، ويقتل مدارس الدين بإخرايها، ولو شاء لاستطاع أن يشق من المسلمين كل ذي عمامة في عمامته. وبلغ من كفره أن يتبجح^(٣) ويرى هذا قوة، ولا يعلم أنه لهوانه على الله قد جعله أَلله كالذبابة التي تُصِيبُ الناس بالمرض، وألبوضة التي تقتل بالحمى، والقملة التي تضرب بالطاعون، فلو فخرت ذبابة، أو تبجحت قملة، أو استطالت بعوضة، لجاز له أن يطن طنينه في العالم. وهل فعل أكثر مما تفعل؟

لقد أودى بأناس يقوم إيمانهم على أن الموت في سبيل الحق هو الذي يخلدُهم في الحق، وأن أنتراعهم بالسيف من الذي يضعهم في حقيقتها، وأن هذه الروح الإسلامية لا يطمسها الطغيان إلا ليجلوها.

(١) يتسعد: يجعله سبب سعادته.

(٢) يتيمن: يتفاءل.

(٣) تبجح: أعلن فرحه وجاهر به مفتخراً.

إِنَّهُ - وَاللَّهِ - مَا قَتَلَ وَلَا شَتَقَ وَلَا عَذَّبَ، وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ أَحْتَاجَ فِي عَصْرِهِ هَذَا إِلَى قَوْمٍ يَمُوتُونَ فِي سَبِيلِهِ، وَأَعَوِزُهُ ذَلِكَ النَّوْعُ السَّامِيُّ مِنَ الْمَوْتِ الْأَوَّلِ الَّذِي كَانَ حَيَاةَ الْفَكْرِ وَمَادَّةَ التَّارِيخِ، فَجَاءَتْ الْقَمَلَةُ تَحْمِلُ طَاعُونَهَا...!

لَقَدْ أَحْيَاهُمْ فِي التَّارِيخِ، أَمَّا هُمْ فَقَتَلُوهُ فِي التَّارِيخِ، وَجَاءَهُم بِالرَّحْمَةِ مِنْ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، أَمَّا هُمْ فَجَاءَهُوهُ بِاللَّعْنَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً!

المجلد الثالث

يرى هذا الطاغية أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ خُرَافَةٌ وَشُغُودَةٌ عَنِ النَّفْسِ، وَأَنَّ مُحَوِّ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَظِيمَةِ هُوَ نَفْسُهُ إِيْجَادُ أَخْلَاقٍ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ كَانَ جَرِيئاً حِينَ جَاءَ فَاحْتَلَّ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ فَلَا يَطْرُدُهُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا جَرَاءَةُ شَيْطَانٍ كَالَّذِي تَوَقَّحَ عَلَى اللَّهِ حِينَ قَالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وَلِهَذَا أَمَرَ النَّاسَ بِسَبِّ الصُّحَابَةِ، وَأَنْ يُكْتَبَ ذَلِكَ عَلَى حِيطَانِ الْمَسَاجِدِ وَالْمَقَابِرِ وَالشُّوَارِعِ!

أَخْزَاهُ اللَّهُ! أَهِيَ رَوَايَةٌ تَمَثِّلِيَّةٌ يُلَصِّقُ الْإِعْلَانُ عَنْهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ؟ لَوْ سَمِعَ لَسَمِعَ الْمَسَاجِدَ وَالْمَقَابِرَ وَالشُّوَارِعَ تَقُولُ: أَخْزَاهُ اللَّهُ...!

المجلد الرابع

هَذَا الْفَاسِقُ لَا يَرْكَبُ إِلَّا حِمَاراً أَشْهَبَ يُسَمِّيهِ: (القمر)، وَقَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ مُحْتَسِباً لِغَايَةِ خَبِيثَةٍ؛ فَهُوَ يَدُورُ عَلَى حِمَارِهِ هَذَا فِي الْأَسْوَاقِ وَمَعَهُ عَبْدٌ أَسْوَدٌ، فَمَنْ وَجَدَهُ قَدْ عَشَّ؛ أَمَرَ الْأَسْوَدَ ف...! وَوَقَفَ هُوَ يَنْظُرُ وَيَقُولُ لِلنَّاسِ: انظُرُوا...!

وَمِنْ غَلْبَةِ الْفُسُوقِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى شَبَعَتِهِ أَنَّ دَاعِيَتَهُ (حُمَزَةُ بْنُ عَلِيٍّ) نَوَّهَ^(١) بِالْحِمَارِ فِي كِتَابِهِ وَأَوْماً إِلَيْهِ بِالثَّنَاءِ، لِخَصَالٍ: مِنْهَا أَنْ...! وَكَتَبَ حُمَزَةُ هَذَا فِي بَعْضِ رِسَائِلِهِ: أَنَّ مَا يَرْتَكِبُهُ أَهْلُ الْفَسَادِ بِجَوَارِ الْبَسَاتِينِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا (الْفَاسِقُ) مِنَ الْمُنْكَرِ وَالْفَحْشَاءِ - إِنَّمَا يُرْتَكَبُ فِي طَاعَتِهِ...!

هَذِهِ طَبِيعَةُ كُلِّ حَاكِمٍ فَاسِقٍ مُلْحَدٍ، يَرَى فِي نَفْسِهِ رِذَائِلَهُ غُرْبَانَةً، فَلَا يَكُونُ كَلَامُهُ وَعَمَلُهُ وَفِكْرُهُ إِلَّا فُحْشاً يَتَعَرَّى؛ وَإِنَّ فِي هَذَا الرَّجُلِ غَرِيزَةً فَسَقَ بِهَيْمِيَّةٍ مُتَصَلَّةٍ بِطُورٍ^(٢) الْحَيَوَانِ الْإِنْسَانِيَّ الْأَوَّلِ؛ فَمَا مِنْ رَيْبٍ أَنَّ فِي جَسَمِهِ خَلِيَّةً عَصَبِيَّةً مُهْتَاجَةً،

(١) نَوَّهَ: ذَكَرَ فَضَائِلَهُ.

(٢) طُورَ بِتَسْكِينِ الْوَائِ: الْمَرَحَلَةَ.

ما زالت تَسْبَحُ بالوارثة في دماء الأحياء، متلقفة على خصائصها، حتى استقرت في أعصاب هذا ألفاسق، فأنفجرت بكل تلك الخصائص.

ولست أرى أكثر أعماله ترجع في مَرَدِّها إلا إلى طغيان هذه الغريزة فيه؛ فهو يُحاولُ هدم الإسلام، لأنه دينُ العِفَّةِ ودينُ صَوْنِ المرأة، يلزمها حجاب عِفَّتِها وإبائها، ويمنعها الابتذال والخلاعة، ويعينها أن تتخلص ممن يشتهيها، ولو كان الحاكم... إنه يَمَقُّ هذا الدينَ القوي، كما يَمَقُّ اللص القانون؛ فهو دينٌ يثقلُ على غريزته ألفاسقة، ولكل غريزة في الإنسان شعورٌ لامهناً لها إلا أن يكون حراً حتى في التوهم؛ وهل يُعجِبُ السَّكِرُ شيءٌ أو يُرضيه أو يُلذِّه، كما يُعجِبُه أن يرى الناس كلهم سُكارى؛ فينشئ هو بالخمَر، وتسكُرُ غريزته برؤية السُّكْرِ؟

وما زال رأيُ الفساق في كل زمنٍ أن الحرية هي حرية الاستمتاع، وأن تقييد اللذة إفسادٌ للذة.

المجلد الخامس

يزعمُ الطاغية أنه يُعزِّزُ قومه، وما أراه يُعزِّهم، لكنه يمتحنُ ذلهم وضعفهم وهوانهم على الأمم؛ يتجرأ شيئاً فشيئاً، مُتَنَطِّراً ما يَسَهِّلُ، مترقباً ما يُمكن؛ وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هي أمواتنا دفنوا أنفسهم فيها؛ فمن ذلك يهدم الأخلاق ويظنُّ عند نفسه أنه يهدم قبوراً لا أخلاقاً.

ولقد سَخِرَ منه المصريون بنكتةٍ من ظرفهم البديع، وجاءوه من غريزته، فصنعوا امرأةً من الورق الذي يُشبهُ الجلد، وألبسوها حُفَّها وإزارها، حتى لا يشكَّ مَنْ رآها أنها آدمية، ثم وضعوا في يدها قَصَّةً وأقاموها في طريقه؛ فلما رآها عدلٌ إليها^(١) وأخذ من يدها القَصَّةَ وقرأها، فإذا فيها سَبُّ لهُ ولإبائِهِ؛ وسخريةٌ من جنونه ورُعونته المضحكة؛ فغضب وأمر بقتل المرأة؛ فكاثت هذه سخرية أخرى حين تحقق أنها من الورق، وأخذته النكتة الظريفة بمثل البرق والرعد؛ فاستشاط^(٢) وأمر عبيده من السودانيين بتحريق الدور ونهب ما فيها وسبي النساء والفجور بهن؛ حتى جاء الأزواج يشترون زوجاتهم من العبيد، بعد أن طازت الزوبعة السوداء في بياض الأعراض.

اندلعت ثورة الفجور في المدينة، لا من العبيد، ولكن من الحيوان العتيق المستقر في هذا الطاغية.

(١) عدل إليها: مال وعزج عليها.

(٢) استشاط: اشتعل غضباً.

المجلد السادس

وهذه رُعوثة من أفتح رُعوناته، كأن هذا الحيوان لا يحسب نساء الأُمَّة كلها إلا نساءه، فيأمرهن بأمر أمراته، وكأن النساء في رأيه إن هن إلا أستجابات عصيئة تُطلق وتُرد.

إن لموجة الفسق في الغريزة الطاغية جزراً ومداً يقعان في تاريخ الفساق؛ فهذا الطاغية قد جَزَرَتْ فيه الموجة، فأمر أن يُمنع النساء من الخروج ليلاً ونهاراً، لا تطأ أرض المدينة قَدَم امرأة، وأمر الخفافين ألا يصنعوا لهن الأَخفاف والأحذية؛ ولما عَلِم أن بعض النساء خرجن إلى الحمامات هَدَم الحمامات عليهن! ولو مدَّت الموجة في تفسق الفاسق لَفَرَض على النساء الخروج والاتصال بالرجال والتعرض للإباحة.

إن الإصلاح والفساد كلاهما فساد ما لم يكن الإصلاح نظافة في الروح وسموا في القلب.

المجلد السابع

يزعم الطاغية أنه سيهدم كل قديم؛ وإنني لأخشى - والله - أن يأمر الناس في بعض سطوات جنونه: أن كل من كان له أب أو أم بلغ الستين فليقتله، ليتخلص الأُمَّة من قديمها الإنساني!...

كأنه لا يعرف أنه إنما يتسلط على أيام معاصريه لا على التاريخ؛ ويحكم على طاعة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثهم من الأسلاف؛ فما هو إلا أن يهلك حتى ينبعث في الدنيا شيثان: تثن رُمته^(١) في بطن الأرض، وتثن أعماله على ظهر الأرض. إن هذا الرجل المسلط، كالغبار المُستطَار لا يُكنس إلا بعد أن يقع...

ولقد رأى المأفون أن أكل الناس الملوخيا الخضراء والفُقع، والثرمس والجزجير، والزبيب والعنب - هو قديم في طباع الناس، فنهى عن كل ذلك، لا يُباع ولا يُؤكل، وظهر على أن جماعة باعوا أشياء منها فضربهم بالسياط، وأمر قطيف بهم في الأسواق، ثم ضرب أعناقهم؛ كأن الذي يحمل الملوخيا الخضراء على رأسه لبيعها يلبس عمامة خضراء...

(١) رُمته: جفته.

أهذا - ويَحْه - تجديد في الأمة، أم تجديد في المعدة... ؟

المجلد الثامن

لا يَرْضَى الطاغيةُ إِلَّا أَنْ يَمَحَقَ^(١) روحانيَّةَ الأُمَّةِ كُلِّهَا، فلا يتركُ شيئاً روحانيّاً لَهُ في أعصابِ الناسِ أثرٌ مِنَ الْوَقَارِ، وَيَمْنَنُ يَسْتَظْهَرُ - وَيَلْه - إِذَا مُحِجَّتْ روحانيَّةُ الأُمَّةِ وأشرقتْ نزعُها الدينيَّةُ على الانحلال؟ كأنَّه لا يعلمُ أَنَّ حَقِيقَةَ الوجودِ لِأُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا تُسْتَمَدُّ مِنْ إيمانِها بالمثلِ الأعلى الَّذِي يدفعُها في سُلُوكِها إلى الحياةِ بِقُوَّةٍ، كما يدفعُها في حربِها إلى الموتِ بِقُوَّةٍ؛ وكأنَّه لا يعلمُ أَنَّ التاريخَ كُلَّهُ تُقَرَّرُهُ في الأرضِ بضعةُ مبادئٍ دينيَّةٍ.

هذا الحاكمُ الأخرقُ هو عندي كالَّذِي يَقُولُ لِنَفْسِهِ: لم أستطعُ أَنْ أفتَحَ دولةً، فلأفتَحَ دولةً في مملكتي... لقد أمرَ بهدمِ الكنائسِ والبُيُوتِ، حتى بلغَ ما هَدَمَ منها ثلاثين ألفاً ونيِّفاً.

أيُّ مجنونٍ أسخفُ جنوناً من هذا الَّذِي يحسبُ أنْفوسَ الإنسانِ كالأخشابِ؛ تَقْبَلُ كُلُّهَا بِغَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ أَنْ تُدَقَّ فِيهَا الْمَسَامِيرُ... ؟ سيعلمُ إِذَا نَشَبَتْ حَرْبٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دولةٍ أُخْرَى، أَنَّهُ كَسَرَ أَشَدَّ سِوْفِهِ مِضَاءً حِينَ كَسَرَ الدِّينَ!

المجلد التاسع

هذه هي الطَّامَّةُ الْكُبْرَى؛ فلا أدري كيفَ أَكْتُبُ عنها: لقد تطاولَ المَجْنُونُ إلى الألوهيةِ فَادَّعَاهَا، وصارَ يَكْتُبُ عن نَفْسِهِ: بِأَسْمِ الحاكمِ الرَّحْمَنِ! لو كانَ أغْبَى الْأَغْيَاءِ في موضِعِهِ لَأَتَقَى شيئاً، لا أقولُ تقوى الدِّينِ وَالضَّمِيرِ، وَلَكِنْ تقوى الْتَّفَاقِ السِّيَاسِيِّ؛ فَكأنَّ يَحْمِلُ النَّاسَ على أَنْ يَقُولُوا عنه: «أَبَانَا الَّذِي في الْأَرْضِينَ...!».

وإِلَّا فَأَيُّ جَهْلٍ وَخَبْطٍ، وَأَيُّ خُمٍ وَتَهَوُّرٍ، أَنْ يَكُونَ إِلَهُ على حِمَارٍ، وَإِنْ كَانَ أَسْمُ حِمَارِهِ الْقَمَرُ!

المجلد العاشر

سيأخذُه اللَّهُ بِأَمْرَةٍ؛ وَلِكُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ مِنْ جَنْبِهِ؛ لَقَدْ بَلَغَ مِنْ وقاحةِ غريزَتِهِ أَنْ

(١) يمحَق: يمحور.

اَتَتَفَكَ^(١) أختَهَ الأَمِيرَةَ (ستَ المُلْك)، ورمَها بِألفاحِشَة، وَهِي مِن أَزكى النِّسَاءِ وَأفْضَلِهِنَّ، وَأَتَهَمَها بِالأمير (سيف الدين بن الدَّوَّاس) وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّها تُدَبِّرُ قَتْلَه، وَأَنَّها أَجْتَمَعَتْ لذلِكَ بِسيفِ الدِّين. فَسَأَمَسَكَ عَنِ الْكِتَابَةِ فِي هَذَا المَجْلَد، وَأَدْعُ سائِرَهَ بِياضاً حَتَّى أَذْهَبَ إِلَيْهَما فَأُعِينَهُما بِما عِنْدِي مِنَ الرَّأْي، ثُمَّ أَعُوذُ لِتَدْوِينِ ما يَقعُ مِن بَعْد... .

وَرَأَيْتُ أَنِّي أَجْتَمَعْتُ بِهِما وَأَطْمَأَنَّا إِلَيَّ، فَأَخَذْنَا نُدِيرُ الرَّأْيَ:
قَالَتِ الأَمِيرَةُ لِسيفِ الدِّينِ فِيمَا قَالَتْهُ: «وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تُتْبِعَهُ غِلْماناً يَقْتُلُونَهُ إِذا خَرَجَ فِي غِدٍ إِلَى جَبَلِ المَقْطَمِ، فَإِنَّهُ يَنْفِرُ بِنَفْسِهِ هُنَاكَ!».
فَقُلْتُ أَنَا: «لَيْسَ هَذَا بِالرَّأْيِ وَلَا بِالتَّدْبِيرِ».
قَالَتْ: «فَمَا الرَّأْيُ وَالتَّدْبِيرُ عِنْدَكَ؟».

قُلْتُ: «إِنَّ لَنَا عِلْماً يَسْمُونَهُ (عِلْمُ النَفْسِ)، لَمْ يَقَعْ لِعِلْماءِكُمْ، وَقَدْ صَحَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا العِلْمِ أَنَّ الرِّجْلَ طائِشٌ الْغَرِيزَةُ مَجْنُونُها، وَأَنَّ الأَشْعَةَ اللَّطِيفَةَ السَّاحِرَةَ الَّتِي تُتْبَعُ مِنْ جِسْمِ الأَمْرَأَةِ هِيَ الَّتِي تُنْفَجِرُ فِي مُحُوِّ مَرَّةٍ بَعْدَ مَرَّةٍ؛ فَإِذا خَبَتْ^(٢) هَذِهِ الأَشْعَةُ، وَبَطَلَتِ الْغَرِيزَةُ، بَطَلَتْ دَواعِي أَعْمَالِهِ الْخَبِيثَةُ كُلُّها، وَكَفَّ^(٣) عَنِ مَحاولَتِهِ أَنْ يَجْعَلَ الأُمَّةَ مَمْلُوءَةً مِنْ غَرائِزِ جَسْمِهِ وَشَهَوَاتِهِ، لَا مِنْ فُضائلِها وَدِينِها. فَلَوْ أَخَذْتُمْ بِرَأْيِي وَأَمْضَيْتُمُوهُ فَإِنَّهُ سَيُنَكِّرُ أَعْمالَهُ إِذا عَرَضَها عَلَى نَفْسِهِ الجَدِيدَةِ، وَبِهَذَا يُصْلَحُ ما أَفسَدَ، وَتَكُونُ حَيَاتُهُ قَدْ نَطَقَتْ بِكَلِمَتِها الصَّحِيحَةِ كما نَطَقَتْ بِكَلِمَتِها الْفاسِدة؛ إِذا... .».

قالَ الأَمِيرُ: «إِذا ماذا؟».

قُلْتُ: «إِذا حُصِّي... .».

فَضَحَكَتِ سِتُّ المُلْكِ ضَحْكَةً رَثَّتْ رَنِيناً.

قُلْتُ: «نَعَمْ إِذا حُصِّيَ هَذَا الحاكِمُ».

فَغَلَبَها الضَّحْكُ أَشَدَّ مِنَ الأَوَّلِ، وَرَمَتْني بِمَنْدِيلٍ لَطِيفٍ كانَ فِي يَدِها أَصابَ وَجْهِي، فَأَنْتَهَبْتُ وَأَنَا أَقولُ:

«نَعَمْ إِذا حُصِّيَ هَذَا الحاكِمُ... .».

(٣) كَفَّ: تَوَقَّفَ.

(٢) خَبَتْ: سَكَتَتْ.

(١) اَتَتَفَكَ: أَتَهَمَ بِالْفَجْرِ.

كُفْرُ الدُّبَابَةِ . . .

قالَ كَلِيلَةُ وهو يَعِظُ دِمْنَةَ وَيُحَذِّرُهُ وَيَقْضِي حَقَّ اللَّهِ فِيهِ؛ وكانَ دِمْنَةُ قد داخلَهُ الغُرُورُ وَزَهاهُ النَّصْرُ، وظَهَرَ مِنْهُ الْجَفَاءُ وَالْغِلْظَةُ، وَلَقِيَ الشَّعَالَ بَ من زَيْغِهِ^(١) وإلْحَادِهِ عَتَا شديداً:

. . . وأَعْلَمَ يا دِمْنَةُ أَنَّ ما زَعَمْتَهُ من رأيكَ تامٌّ لا يعْتَرِيهِ النِّقْصُ، هو بعَيْنِهِ الناقِصُ الَّذي لم يَتَمَّ؛ والغُرُورُ الَّذي ثَبُتَ بِهِ أَنَّ رأيكَ صَحِيحٌ دُونَ الْآراءِ، لَعَلَّهُ هو الَّذي يَثْبُتُ أَنَّ غَيْرَ رأيكَ في الْآراءِ هو الصَّحِيحُ.

ولو كانَ الْأَمْرُ على ما يَتَخَيَّلُ كُلُّ ذِي خِيالٍ، لَصَدَقَ كُلُّ إنسانٍ فيما يزعمُ، ولو صَدَقَ كُلُّ إنسانٍ فيما يزعمُ، لَكَذَبَ كُلُّ إنسانٍ؛ وإِنَّمَا يَدْفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بَعْضاً، لِيَجِيءَ حَقُّ الْجَمِيعِ مِنَ الْجَمِيعِ، ويبقى الصَّغِيرُ مِنَ الْخَطَا صَغِيراً فلا يَكْبُرُ، ويثْبُتُ الْكَبِيرُ مِنَ الصَّوابِ على موضِعِهِ فلا يُنْتَقَصُ، ويَصْخُ الصَّحِيحُ ما دَامَتِ الشَّهادَةُ لَهُ، ويفْسُدُ الْفاسِدُ ما دَامَتِ الشَّهادَةُ عَلَيْهِ، وما مِثْلُ هذا إِلَّا مِثْلُ الْأَرنبِ وَالْعُلَماءِ.

قالَ دِمْنَةُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

قالَ: زَعَمُوا أَنَّ أَرنباً سَمِعَتِ الْعُلَماءَ يَتَكَلَّمُونَ في مَصِيرِ هذه الدُّنيا، ومَتى يَتَأَذَّنُ^(٢) اللَّهُ بِانْقِرَاضِها، وكيفَ تَكُونُ الْقارِعَةُ^(٣)؛ فَقالُوا: إِنَّ في الْأَنْجُومِ نَجُوماً مُدْبِئَةً، لو أَتَتْ ذَنْبَ أَحَدِها على جِزْمِ أَرْضِنا هذه لَطَارَتْ هَواءَ كائِها نَفْحَةُ الْناْفَخِ، بَلْ أضعَفُ مِنْها كائِها رَفْرَةُ صَدْرِ مريضٍ، بَلْ أوهى كائِها نَفْثَةُ من شَفَتَيْنِ. فَقالَتِ الْأَرنبُ: ما أَجْهَلُكُمْ أَيُّها الْعُلَماءُ! قد وَاللَّهِ خَرَفْتُمْ وَتَكَذَّبْتُمْ وَأَسْتَحْمَقْتُمْ؛ ولا تَزالُ الْأَرْضُ بِخَيْرٍ مَعَ ذِواتِ الْأَذْناِبِ؛ وَالْدَلِيلُ على جَهِلِكُمْ هو هذا - قالُوا: وأَرْتَهُمْ ذَبَّها . . .!

قالَ كَلِيلَةُ: وكم من مَغْرُورٍ يُنْزَلُ نَفْسَهُ مِنَ الْأَنْبياءِ مَنْزِلَةً هذه الْأَرنبِ من

(١) زَيْغُهُ: رِوْغانُهُ.

(٢) يَتَأَذَّنُ: يَسْمَحُ.

(٣) الْقارِعَةُ: الْقِيامَةُ.

أولئك العلماء؛ فيقول: كذبوا وصدقتُ أنا، وأخطأوا جميعاً وأصبتُ، والتَّبَسَ عليهم وأنكشَفَ لي، وهم زعموا وأنا المستيقِن. ثُمَّ لا دليلَ لَهُ إِلَّا مثلُ دليلِ الأرنبِ الخرقاءِ من هَتَّةٍ تتحركُ في ذنبِها.

وكان يُقال: إِنَّهُ لا يُجاهِرُ^(١) بالكفرِ في قومٍ إِلَّا رجلٌ هانَ عليهم فلم يعبثوا به، فهو الأذلُّ المستصَف؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبأ بهم، فهو الأعرزُ الطاغية؛ ذاك لا يخشونه فيدعونه لنفسِهِ وعليهِ شهادةُ حُميقِهِ، وهذا يخشونه فيتركون معارضةَ وعليهِ شهادةُ ظُلُمِهِ؛ وما شرٌّ من هذا إِلَّا هذا.

وقالتِ العلماء: إِنْ كُنْتَ حاكماً تَشْنُقُ مَنْ يُخالِفُكَ في الرأي، فليسَ في رأسِكَ إِلَّا عقلُ أَسْمُهُ الخبل؛ وَإِنْ كُنْتَ تَقْتُلُ مَنْ يُنْكِرُ عليك الخطأ، فليسَ لَكَ إِلَّا عقلُ أَسْمُهُ الحديد؛ وَإِنْ كُنْتَ تَحْبِسُ مَنْ يُعارضُكَ بالنظر، ففِيكَ عقلُ أَسْمُهُ الجدار؛ أَمَّا إِنْ كُنْتَ تَنَاطَرُ^(٢) وتجادِل، وتفتنُ وتفتنُ، وتدعو الناسَ على بصيرةٍ ولا تأخذهم بالعمى - ففِيكَ العقلُ الَّذِي أَسْمُهُ العقل.

قالَ كليله: وأنا يا دِمنة، فلو كُنْتُ قائداً مُطاعاً، وأميراً مُتَّبِعاً، لا يُعصى لي أمر، ولا يُردُّ عَلَيَّ رأي، ولا يُنْكِرُ مني ما يُنْكِرُ مِنَ المخلوقِ إذا أخطأ، ولا يُقالَ لي دائماً إِلَّا إحدى الكلمتين: أصبتُ، ثُمَّ هي دائماً أصبتُ؛ ولا يُلْقاني أحدٌ من قومي بالكلمةِ الأخرى، رَهْبَةٌ من سَخَطِي^(٣)، رَهْبَةٌ الجُبْناء، أو رغبةٌ في رضاي رغبةُ المنافقين، وزعموا أَنَّهُم على ذلك قد صَحَّتْ نِيَّاتُهُمْ وخلصَ لي باطنُهُم جميعاً - فلو كُنْتُ وكانوا على هذا، لأحالتني نقضُهُم إلى نقصِ العقلِ بعدَ كمالِهِ، وردَّتني فُسولَتُهُم إلى فُسولةِ الرأي بعدَ جُودَتِهِ، فأخْلِقُ^(٤) بي أن أعتبرَ وضعَهُم إياي في موضعِ الآلهة، هو إنزالُهُم إياي في منزلةِ الشياطين؛ وإِلَّا كُنْتُ حقيقاً أن يُقصيني ما أصابَ ألعنَزَ أَلَتِي زعموا لَهَا أَنَّها أنثى الفيل...

قالَ دِمنة: وكيفَ كانَ ذلك؟

قال: زعموا أَنَّهُ كانَ في إحدى خَرَائِبِ أَلْهِنْدِ جماعةٌ منَ العِظاءِ^(٥)، وكانَ

(١) يجاهر: يعلن على الملأ من الناس.

(٢) تناظر: تجادل وتجادور.

(٣) سخطي: غصبي.

(٤) أخلق بي: أجدر بي.

(٥) العِظاء، مفردة عِظاءة وعِظاية، وهي السحلية.

فيها عَصْرُ فُوطٍ كبير^(١)، فمَلَكَتْهُ الْجَمَاعَةُ وَذَهَبَتْ تَأْتِمِرُ^(٢) عَلَى أَمْرِهِ وَتَنْتَهِي. فَمَرَّ
 بِهِذِهِ الْخُرْبَةُ فِيلٌ جَسِيمٌ مِنَ الْفِيلَةِ الْهِنْدِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، لَمْ يُحَسَّ بِالْعَظَاءِ، وَلَمْ يُمَيِّزْ فَرْقًا
 بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْحَشَرَاتِ وَبَيْنَ الْحَصَى مَشُورًا يَلْتَمِعُ فِي الْأَرْضِ هُنَا وَهُنَا؛ قَالُوا
 فَغَضِبَ الْعَصْرُ فُوطُ، وَكَانَ قَائِدًا عَظِيمًا، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الْفِيلِ يَنْظُرُ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي
 مُدَافَعَتِهِ^(٣)، وَكَيْفَ يَحْتَالُ فِي هَلَاكِهِ، فَرَأَاَ لَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا بِأَقْدَامِهِ يَنْقُلُهَا وَاحِدَةً
 وَاحِدَةً؛ فَقَدَّرَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ أزالَ قَدَمَ الْفِيلِ عَنِ الْأَرْضِ زَالَ الْفِيلُ نَفْسُهُ؛ فَجَاءَ
 فَأَعْتَرَضَ الطَّرِيقَ، وَذَبَّ دَبَّيْبَهُ؛ فَلَمَّا رَفَعَ الْفِيلُ قَدَمَهُ أَهْتَبَلَ^(٤) هَذِهِ الْعُفْلَةَ مِنْهُ.
 وَأَنْدَسَ^(٥) تَحْتَهَا، فَأَنْدَسَ مَقْبُورًا فِي التُّرَابِ!

ثُمَّ إِنَّ الْعَظَاءَ أَتَقَدَّتْ أَمِيرَهَا. فَلَمَّا مَضَى الْفِيلُ لِسَبِيلِهِ وَرَأَتْ مَا نَزَلَ بِهَا،
 تَفَرَّتْ إِلَى أَجْحَارِهَا^(٦)، وَأَسْتَكْنَتْ^(٧) فِيهَا تَرْتَقِبُ وَتَتَرَبَّصُ^(٨)، فَدَخَلَتْ إِلَى الْخُرْبَةِ
 عَنَزُ جَعَلَتْ تَتَقَمُّ مِنْهَا وَتَرْتَعُ فِيهَا، وَرَأَتْهَا الْعَظَاءُ فَاجْتَمَعْنَ يَأْتِمِرْنَ^(٩)...
 فَقَالَ مِنْهَا قَائِلٌ: هَذِهِ أَنْثَى الْفِيلِ. فَسَأَلَتْ عَظَايَةَ مِنْهِنَّ: وَأَيُّنَ الْنَابِإِ
 الْعَظِيمَانِ؟

قَالَتِ الْأُولَى: إِنَّ الْإِنَاثَ دُونَ الذَّكَورَةِ فِي خَلْقِهَا، وَالْأُنْثَى هِيَ الْذَكَرُ مَقْلُوبًا
 أَوْ مَخْتَصِرًا أَوْ مَشُوهًا، وَلِذَلِكَ هُنَّ يَقْلِينَ الْحَيَاةَ أَوْ يَخْتَصِرْنَهَا أَوْ يَشُوْهَنَّهَا، أَفَلَا
 تَرَيْنَ الْنَابِإِينَ الْعَظِيمِينَ الْبَارِزِينَ فِي ذَلِكَ الْفِيلِ الْجَسِيمِ، كَيْفَ نَبَتَا صَغِيرِينَ مَنقَلِبِينَ
 فَوْقَ رَأْسِ أَنْثَاهُ...؟

فَقَالَتْ وَاحِدَةٌ: إِنَّ جَارَ قَوْلِكَ فِي الرَّأْيِ فَأَيُّنَ الْخُرْطُومِ؟
 قَالَتِ الْآخَرَى: هُوَ هَذِهِ الزَّنْمَةُ الْمَتَدَلِّيَةُ مِنْ حَلْقِهَا، وَذَلِكَ خُرْطُومٌ عَلَى قَدْرِ
 أَنْوَةِ الْأُنْثَى...!

قَالُوا: ثُمَّ اجْتَمَعَ رَأْيُهُنَّ عَلَى أَنَّ يُمْلَكَنَّ أَنْثَى الْفِيلِ هَذِهِ؛ وَأَنَّ يَهْبَيَنَّ لَهَا الْخُرْبَةَ
 وَأُمْتَهَا. وَسَمِعَتِ الْمَاعِزَةُ كَلَامَهُنَّ فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا: لَا جَرَمَ أَنَّ تَكُونُ الْعَنَزُ فِيلَةً فِي
 أُمَّةٍ مِنَ الْعَظَاءِ، فَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ لَا كَبِيرَ إِلَّا بِصَغِيرٍ، وَلَا قَوِيَّ إِلَّا بِضَعِيفٍ،

(١) العَصْرُ فُوطُ هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْعَظَاءِ يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهَا.

(٢) تَأْتِمِرُ: تَنْصَاعُ لِأَمْرِهِ.

(٣) مُدَافَعَتُهُ إِيعَادُهُ بِالْحِيلَةِ.

(٤) أَهْتَبَلَ: انْتَهَزَ.

(٥) أَنْدَسَ: دَخَلَ خَلْسَةً.

(٦) أَجْحَارُهَا: أَوْكَارُهَا.

(٧) اسْتَكْنَتْ: كَمَنْتَ.

(٨) تَتَرَبَّصُ: تَنْتَظِرُ عُفْلَةً.

(٩) يَأْتِمِرْنَ: يَتَنَاقِشْنَ.

ولا طاغية إلا بذليل؛ وإنَّ العظمة إنَّ هي إلا شهادةُ الحقارة على نفسها، وإنَّه ربُّ عظيم طاغية متجبرٍ ما قام في الناس إلا كما تقومُ الحيلة، ولا عاش إلا كما يعيش الكذب، ولا حَكَم إلا كما يحكمُ الخداع. وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحده، فمتى جاءت إليه فقد جاءت، ولو أنها أدبرت^(١) عنه من ناحية لرجعت من ناحية أخرى، ليثبتَ الحظُّ أنه الحظُّ.

وتقدَّم العطاء إلى العنز، فقلن لها: أيُّها ألفيلةُ العظيمة، إنَّ قرينك العظيم قد مسَّ أميرنا العصفرة فوطً بقدميه فغيبه تحت سنبع أرضيين، وأنت أنشأه وسيدته، فقد اخترناكِ ملكة علينا، ووهبتا لك الخبرة وما فيها.

قالت العنز: فإنِّي أتُهب منكنَّ هذه الهبة، ونعمًا صنعتن؛ غير أنَّ بينكن وبينني ما بين العظاية والأفيل. وما بين الحصاة والجبل، فإذا أنا قلتُ، فأنا قلتُ؛ وإذا أنا أمرتُ، فأنا أمرتُ؛ وإذا أنا فعلتُ، فأنا فعلتُ. هنا في هذه الأمة كلها (أنا) واحدة ليس معها غيرها؛ لأنَّ ههنا في هذا الرأس دماغُ فيلة، وفي هذا الجسم قوةُ فيلة، وفي الخبرة كلها فيلة واحدة؛ فلا أعرفنَّ منكنَّ على الصواب والخطأ إلا الطاعة طاعة الأعمى للبصير. ألا وإنَّ أولَ الحقائق أنِّي فيلة وأنكنَّ عطاء؛ ومتى بدأ أليقين من هنا سقطَ الخلاف من بيننا وبطلَ الاعتراض منكنَّ، وقوتني حقٌّ لأنها قوة، وباطلي كذلك حقٌّ لأنه من قوتي؛ وقد قال أسلافنا^(٢) حكماءُ ألفيلة: إنَّ القوي بين الضعفاء مَشِيئةٌ مُطلقة، فهو مُضِلُّحٌ حتى بالافساد، حكيمٌ حتى بالحماقة، إمامٌ حتى بالحرافة، عالمٌ حتى بالجهالة نبيٌّ حتى بالسعودة...!

قالوا: وننكرُ عليها عظايةً صالحةً عالمةً كانت ذات رأيٍ ودينٍ في قومها، وكُنَّ يُسميها: (العمامة)، ليياضها وصلاحها وطهارتها، فقالت: ولا كلُّ هذا أيُّها ألفيلة؛ لقد تحرَّضتِ^(٣) غيرَ الحق؛ فإنَّك تحكيمننا من أجلنا لا من أجلك، وما قولك إلا كلماتٌ تُحقِّقها أعمالنا نحن؛ فلكَ الطاعة فيما يُضِلُّحنا، وما كان من غيره فهو ردُّ عليك، ورأيك شيءٌ ينبغي أن تكونَ معه آراؤنا، لتتبيينَ الأسبابَ أسبابَ الموافقة والمخالفة، فنأخذَ عن بيتٍ ونتركَ عن بيَّة؛ وقد كان يُقال في قديم الحكمة: إنَّه يجبُ على مَنْ يُقدِّمُ رأياً لِلأمةِ الحازمةِ كي تأخذَ به، أو يضعَ لها شرعاً ليُحمِّلها عليه، أو يسُنَّ لها سنةً لتتبعها - إنَّه يجبُ على هذا المتمدِّمِ لتحويلِ

(١) أدبرت: رحلت.

(٢) أسلافنا: أجدادنا.

(٣) تحرَّضت: تقوَّلت.

الأمّة أو تحريرها يتقدّم لأهل الشورى وفي رأيه الرأي، وفي عنقه حبل؛ ثم يتكلّم برأيه ويُسّطه ويدفع عنه، ويُجادلهم ويُجادلونه؛ فإن كان الرأي حقاً أخذوا الرأي، وإن كان باطلاً أخذوا الحبل فشتقوا فيه هذا المتهوّر.

وفي ديننا أن الطاعة في المعصية معصية أخرى؛ ولقد كان لنا عُضْرُوطٌ بحائِث في الأديان دَرّاسةً لِكُتُبِها علامة نَقَاب؛ فكانَ مِنّا علّمانا: أن المخلوق مبنّى على النقص إذ هو ماض إلى الفناء، فيجب ألا يتم منه شيء إلا بمقدار، وألا تكون القوة فيه إلا بمقدار؛ ولهذا كان العقلُ أكتام في الأرض هو مجموعُ العقولِ العظيمة كلّها، وكان أتم الآراء وأصحّها ما أثبت الآراء نفسها أنه أصحّها وأتمّها. فلا الدين أتبع أثبتها ألفيلة، ولا أتبع العقل، وليس إلا هذا (التفيل) الكاذب.

فلما سمعت العنز ذلك تنقّشت وغضبت، وقالت: إيّاكم وهذه الترهات من ألسنتكم، وهذه الأباطيل في عقولكم؛ لا أسمع منكم كلمة الدين ولا كلمة الأنبياء ولا العَصَافِط... فذلك وحي غير وحي أنا؛ وإذا كان غير وحيي أنا فأنا لست فيه، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لا يصلح للحكم الذي شرطه أن الدولة ليس فيها إلا أنا واحدة. وذلك إن لم يجعلكم غرباء عني جعلني غريبة عنكم، ما بُد من إحدى الغزبتين، فهو أول القطيعة، والقطيعة أول الفساد. وما دام في الدين أمر غير أمري، ونهي غير نهي، وتحليل وتحريم لا يتغيران على مشيئتي - فأنا مجنونة إن رضيت لكم هذا...!

فضجكت (الإمامة) وقالت للماعزة: بل قلبي: أنا مجنونة ب (أنا)؛ أفلا يجوز وأنّ خلق من الخلق أن يغتري عقلك شيء مما يعترى العقول؟ ولست نُنكر أنّك قويّة الرأي في ناحية القوة، حسنّة التدبير في ناحية الشجاعة، متجاوزة المقدار في ناحية الحزم والحزم على مصالح الدولة؛ ولكن ألم يقل الحكماء: إنّ الزيادة المسرفة في جهة من العقل، تأتي من النقص المتحيّف^(١) لجهة أخرى؛ وإنه ربّ عقل كان تاماً عبقرياً في أمور، لكنّه ضعيف أبله في غيرها؛ يُحسن في تلك ما لا يُحسنه أحد، ويحكم منها ما لا يحكمه أحد، ثم يغلط في الأخرى ما لا يغلط أحد فيه؟

قالوا: فجاشت^(٢) العنز وفازت من الغضب فورة الجبار، وخيل إليها من

(٢) جاشت: استشاطت غضباً.

(١) المتحيّف: الجائر، الظالم.

عَمَى الْغَيْظِ أَنَّهَا ذَهَبَتْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَأَنَّ زَنْمَتَهَا أَمْتَدَّ مِنْهَا خُرْطُومٌ طَوِيلٌ، وَأَنَّ قَرْنَيْهَا أَنْبَعَجَ مِنْهُمَا نَابَانِ عَظِيمَانِ؛ وَقَالَتْ: وَيَحْكُمُ! خَذُوا هَذِهِ (الْعِمَامَةَ) فَاسْتَقْوَاهَا؛ فَإِنَّهَا كَمَا قَالَتْ؛ تَقْدَمَتْ إِلَيْنَا بِالرَّأْيِ وَالْحَلِّ...!

وَكَانَ فِي الْعِظَاءِ ضِعَافٌ وَمَهَازِيلُ وَجُبْنَاءُ، وَمَأْكُولُونَ لِكُلِّ أَكَلٍ؛ فَتَشَبَّحَ^(١) لَهُمْ أَنْ أَنْشَى الْفِيلُ هَذِهِ... سَتَخْلُقُهُمْ فِيلَةً إِنْ هُمْ أَطَاعَوْهَا؛ فَإِذَا مَرَدُّوا^(٢) عَلَيْهَا فَإِنَّهَا مِنْ صِرَامَةِ الْبَاسِ بَحِثْ تَجْعَلُ كُلَّ ظُلْفٍ مِنْ أَظْلَافِهَا جِبَلًا فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ فَتَسُوخُ بِهِمُ الْأَرْضُ. ثُمَّ إِنَّهُمْ انْخَزَلُوا وَتَرَجَّعُوا، وَأَخَذَتْ (الْعِمَامَةُ) الصَّالِحَةَ فَشَنَقَتْ، وَحَمَدَ الرَّأْيِ مِنْ بَعْدِهَا، وَانْقَطَعَ الْخِلَافُ وَالذِّينُ وَالْعَقْلُ الْحَرُّ...؛ وَأَقْبَلَتْ دَوْلَةُ الْعِظَاءِ عَلَى الْعِزِّ تُجَرِّزُ أَذْيَالَهَا.

قَالُوا: وَأَغْتَرَبَ الْمَاعِزَةُ وَأَحْسَنَتْ لَهَا وَجُوداً لَمْ يَكُنْ، وَعَرَفَتْ لِنَفْسِهَا وَهِيَ مَاعِزَةُ نِبَاهَةٍ شَأْنِ الْفِيلِ الْقَوِي، فَلَجَّتْ^(٣) فِي عِمَائِهَا وَكَفَّرَتْ بِجَنَسِهَا، وَقَالَتْ: لَمْ يَخْلُقْنِي اللَّهُ فِيلَةً وَخَلَقْتُ نَفْسِي؛ فَأَنَا لَا هُوَ...

وَبَيَّتْ عِنْدَهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ بِعِزٍّ وَإِنْ أَشْبَهَتْهَا كُلُّ عِزٍّ فِي الدُّنْيَا؛ وَذَهَبَتْ تُقَلِّدُ وَتَعِيشُ عَلَى مَذَاهِبِ الْفِيلَةِ بَيْنَ الْعِظَاءِ؛ فَإِذَا مَشَتْ أَرْتَجَّتْ وَتَخَطَّرَتْ كَأَنَّهَا بِنَاءٌ يَتَقَلَّقُ، وَإِذَا أَضْطَجَعَتْ أُنْذِرَتْ الْأَرْضُ أَنْ تَتَمَسَّكَ لَا تَذْكُهَا بِجَنَسِهَا...!

وَمَرَّ ذَلِكَ الْفِيلُ بِهَذَا الْخِرَابِ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَاذَتْ الْعِظَاءُ كُلُّهُنَّ بِالْفِيلَةِ... وَتَاهَبَتْ هَذِهِ لِلْقِتَالِ، وَتَحَصَّصَتْ فِي الْمُبَارَزَةِ وَالْمَنَاجَزَةِ... (وَالْمَعَانِزَةِ) فَتَنَصَّبَتْ قَرْنَيْهَا، وَحَرَكَتْ زَنْمَتَهَا، وَطَاطَأَتْ، وَشَدَّتْ أَظْلَافَهَا فِي الْأَرْضِ، وَثَبَّتَتْ قَوَائِمَهَا، وَصَلَبَتْ عِظَامَهَا، وَنَفَسَتْ شَعْرَهَا، وَتَشَوَّكَتْ^(٤) كَالْقُنْفُذِ، وَأَصْرَتْ بِكُلِّ ذَلِكَ إِصْرَارَهَا، وَكَانَتْ عِزًّا نَاطِيحَةً مِنْذُ كَانَتْ تَتَّبِعُ أُمَّهَا وَتَتْلُوهَا، فَكَيْفَ بِهَا وَقَدْ تَفَقَّلَتْ...؟

ثُمَّ إِنَّهَا ثَبَّتَتْ فِي طَرِيقِ الْفِيلِ لِيَرَى بَعَيْنِيهِ هَذَا الْهُوْلَ الْكَهَاتِلَ... فَأَقْبَلَ فَمَدَّ خُرْطُومَهُ، فَنَالَهَا بِهِ، فَلَفَّهَا فِيهِ، فَفَبَضَّهَ، فَرَفَعَهُ، فَطَوَّحَهَا^(٥)، فَكَأَنَّمَا ذَهَبَتْ فِي السَّمَاءِ...!

(١) تشبَّح: خيَّل إليهم أنه شبح.

(٢) مردوا: تمرّدوا.

(٣) لجّت: تملّكت.

(٤) تشوّكت: أظهرت في جلدها ما يشبه الشوك.

(٥) طوّح: تحرك ذات اليمين وذات اليسار.

وتَهَارَبَتِ الْعِظَاءُ وَلُذُنٌ^(١) بِأَجْحَارِهِنَّ، ثُمَّ عَدَوْنَ عَلَى رِقَبِهِنَّ؛ فَإِذَا جِيفَةُ الْعِزْرِ
غَيْرَ، بَعِيدَ، فَذَبَبْنَ عَلَيْهَا وَأَرْتَعَيْنَ فِيهَا، وَعَلِمْنَ أَنَّهَا كَانَتْ مَاعِزَةً فَيَلَّهَا جَنُوتُهَا،
وَأَدْرَكْنَ أَنَّ الْكَذِبَ عَلَى الْحَقَائِقِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ حَقَائِقَ أُخْرَى تَقْتُلُهُ، وَأَنَّ مَنْ غَلَبَ
أُمَّةَ الْعِظَاءِ عَلَى أَمْرِهَا فَلَيْسَتْ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي عِظَاءً فَيَغْلِبُهَا؛ وَأَنَّ تَغْيِيرَ الْمَخْلُوقَاتِ،
إِنَّمَا يَكُونُ بِتَحْوِيلِ بَاطِنِهَا لَا بِتَحْوِيلِ ظَاهِرِهَا، وَأَنَّ الْإِنَاءَ الْأَحْمَرَ يُرِيكَ الْمَاءَ مُحْمَرًا
وَالْمَاءَ فِي نَفْسِهِ لَا حُمْرَةَ فِيهِ، حَتَّى إِذَا أَنْكَسَرَ الْإِنَاءُ ظَهَرَ كَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ؛ وَكُلُّ مَا
يُخْفِي الْحَقُّ هُوَ كَهَذَا الْإِنَاءِ: لَوْ عَلَى الْحَقِّ لَا فِيهِ؛ ثُمَّ أَيْقَنَ أَنَّ مُحَاوَلَةَ إِخْرَاجِ أُمَّةٍ
كَامِلَةٍ مِنْ نَزْعَاتِ مَاعِزَةٍ مَأْفُونَةٍ^(٢)، هِيَ كَمُحَاوَلَةِ اسْتِيلَادِ الْقَبِيلِ مِنَ الْمَاعِزَةِ...!

قَالَ كَلِيلَةُ: وَأَعْلَمُ يَا دِمْنَةُ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْعِزَرَ الْحَمَقَاءَ قَدْ كَفَرَتْ كُفْرَ
الذَّبَابَةِ، لَمَا أَخَذَهَا اللَّهُ أَخَذَ الذَّبَابَةُ.

قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ: زَعَمُوا أَنَّ ذَبَابَةَ سُودَاءَ كَانَتْ مِنْ حَمَقَى الذَّبَّانِ، فَذَرَبَتِ الْحَمَاقَةُ عَلَيْهَا
أَبْدِيَّةً، فَلَوْ أَنْقَلَبَتْ نَقْطَةً حَبِرٍ فِي دَوَاةٍ لَمَا كُتِبَتْ بِهَا إِلَّا كَلِمَةٌ سُخْفٍ.

وَوَقَعَتْ هَذِهِ الذَّبَابَةُ عَلَى وَجْهِ أَمْرَأَةٍ رَنْجِيَّةٍ ضَخْمَةٍ، فَجَعَلَتْ تُقَابِلُ بَيْنَ نَفْسِهَا
وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ؛ وَقَالَتْ: إِنَّ هَذَا لَيْمَنْ أَدُلُّ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ فَوْضَى لَا نِظَامَ فِيهِ، وَأَنَّهُ
مُرْسَلٌ كَيْفَ يَتَّقَى عَلَى مَا يَتَّقَى، عَبَثًا^(٣) فِي عِبَثٍ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدْ كَذَّبُوا النَّاسَ،
إِذْ كَيْفَ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ خَلْقِي (أَنَا) وَخَلَقْتُ هَذِهِ الذَّبَابَةَ الضَّخْمَةَ الَّتِي أَنَا فَوْقَهَا...؟

ثُمَّ نَظَرَتْ لَيْلَةً فِي السَّمَاءِ، فَأَبْصَرَتْ نَجُومَهَا يَتَلَأَلُ وَبَيْنَهَا الْقَمَرُ؛ فَقَالَتْ:
وَهَذَا دَلِيلٌ آخَرٌ عَلَى مَا تَحَقَّقَ عِنْدِي مِنْ فَوْضَى الْعَالَمِ، وَكَذِبِ الْأَدْيَانِ، وَعَبَثِ
الْمَصَادِفَاتِ؛ فَمَا الْإِيمَانُ بَعِيْنِهِ إِلَّا الْإِلْحَادُ بَعِيْنِهِ، وَوَضَعَ الْعَقْلُ فِي شَيْءٍ هُوَ إِيجَادُ
الْأَلُوْهِيَّةِ فِيهِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ وَضْعِي (أَنَا فِي الْأَرْضِ وَرَفَعُ هَذَا
الذَّبَّانِ الْأَبْيَضِ وَيَغْسُوبُهُ^(٤) الْكَبِيرُ إِلَى السَّمَاءِ...؟

(١) لُذُنٌ: لُجَانٌ.

(٢) مَأْفُونَةٌ، الْمَتَمَدِّحَةُ بِمَا لَيْسَ عِنْدَهَا، ذَاتُ الرَّأْيِ الضَّعِيفِ.

(٣) عَبَثًا: لَعِبًا.

(٤) الْيَغْسُوبُ: أَمِيرُ الذَّبَابِ وَالنَّحْلِ وَنَحْوِهِمَا.

ثُمَّ إِنَّهَا وَقَعَتْ فِي دَارِ فَلَاحٍ، فَجَعَلَتْ تَمُورَ^(١) فِيهَا ذَهَاباً وَجِيئَةً، حَتَّى رَجَعَتْ بَقْرَةُ الْفَلَاحِ مِنْ مَرَعَاهَا، فَهَيَّتَ^(٢) الذَّبَابَةُ وَجَمَدَتْ عَلَى غُرَّتِهَا^(٣) مِنْ أَوَّلِ الْنَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ، كَأَنَّهَا تَزَاوِلُ عَمَلًا؛ فَلَمَّا أَمْسَتْ قَالَتْ: وَهَذَا دَلِيلٌ أَكْبَرُ الدَّلِيلِ عَلَى فَوْضَى الْأَرْزَاقِ فِي الدُّنْيَا، فَهَاتَانِ ذَبَابَتَانِ قَدْ ثَقَبَتَا ثُقُبَيْنِ فِي وَجْهِ هَذِهِ الْبَقْرَةِ... وَاکْتَنَتَا فِيهِمَا تَأْكُلَانِ مِنْ شَحْمِهَا فَتَعْظَمَانِ سَمْنًا؛ وَالنَّاسُ مِنْ جَهْلِهِمْ بِالْعِلْمِ الذَّبَابِيِّ يَسْمُونَهَا عَيْنِينَ. وَأَنَا قَضَيْتُ أَلْيَوْمَ كُلَّهُ أَخْمِشُ وَأَعْضُ وَالسَّعْ لِاثْقَبَ لِي ثُقْبًا مِثْلَهُمَا فَمَا أَنْتَزَعْتُ شَعْرَةً؛ فَهَلْ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ رَزْقِي (أَنَا) وَرَزْقُ هَاتَيْنِ الذَّبَابَتَيْنِ فِي وَجْهِ الْبَقْرَةِ...؟

ثُمَّ إِنَّهَا رَأَتْ حُفْنَسَاءَ تَدِبُ دَبِيبَهَا فِي الْأَرْوَاحِ^(٤) وَالْأَقْدَارِ؛ فَانْظَرَتْ إِلَيْهَا وَقَالَتْ: هَذِهِ لَا تَضْلُحُ دَلِيلًا عَلَى الْكُفْرِ؛ فَإِنِّي (أَنَا) خَيْرٌ مِنْهَا؛ (أَنَا) لِي أَجْنَحَةٌ وَلَيْسَ لَهَا، (وَأَنَا) خَفِيفَةٌ وَهِيَ ثَقِيلَةٌ؛ وَمَا كَأَنَّهَا إِلَّا ذَبَابَةٌ قَدِيمَةٌ مِنْ دُبابِ الْقُرُونِ الْأُولَى، ذَلِكَ الَّذِي كَانَ بَلِيدًا لَا يَتَحَرَّكُ فَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ الْحَرَكَةَ جَنَاحًا. ثُمَّ إِنَّهَا أَضَعَّتْ فَسَمِعَتِ الْخَفْنَسَاءَ تَقُولُ لِأُخْرَى وَهِيَ تُحَاوِرُهَا: إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَخْلُوقُ أَنَّهُ كَمَا يَشْتَهِي فَلْيَكْفُرْ كَمَا يَشْتَهِي؛ يَا وَيْحَنَا! لِمَ لَمْ نَكُنْ جَاموسًا كَهَذَا الْجَامُوسِ الْعَظِيمِ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فَرْقٌ إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَنْفُخُهُ وَلَمْ نَجِدْ...؟

فَقَالَتِ الذَّبَابَةُ: إِنَّ هَذَا دَلِيلُ الْعَقْلِ فِي هَذِهِ الْعَاقِلَةِ، وَلَعَمْرِي إِنَّهَا لَا تَمْشِي مِثْلَ قِلَّةٍ مِنْ أَنَّهَا بَطِيئَةٌ مُرْهَقَةٌ بَعْجَازِهَا، وَلَكِنْ مِنْ أَنَّهَا وَقُورٌ مُثْقَلَةٌ بِأَفْكَارِهَا، وَهِيَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنِّي (أَنَا) الْأَسَابِقَةُ إِلَى كَشْفِ الْحَقِيقَةِ...!

وَجَعَلَتِ الذَّبَابَةُ لَا يَسْمَعُ مِنْ دَنْدَنَتِهَا إِلَّا، أُنَا، أُنَا، أُنَا، أُنَا... مِنْ كُفْرِ إِلَى كُفْرٍ غَيْرِهِ، إِلَى كُفْرِ غَيْرِهِمَا؛ حَتَّى كَأَنَّ السَّمَاوَاتِ كُلَّهَا أَصْبَحَتْ فِي مَعْرَكَةٍ مَعَ ذَبَابَةٍ...

ثُمَّ جَاءَتِ الْحَقِيقَةُ إِلَى هَذَا الْإِلْحَادِ الْأَحْمَقِ تَسْعَى سَغِيهَا؛ فَبَيْنَا الذَّبَابَةُ عَلَى وَجْهِ حَائِطٍ، وَقَدْ أَكَلَتْ بَعُوضَةً أَوْ بَعُوضَتَيْنِ، وَأَعْجَبَتْهَا نَفْسُهَا، فَوَقَفَتْ تَحْكُ ذِرَاعَهَا بِذِرَاعِهَا - دَنَّتْ بَطَّةً صَغِيرَةً قَدْ أَنْفَلَقَتْ عَنْهَا أَلْبَيضَةُ أَمْسَ، فَمَدَّتْ مِنْقَارَهَا، فَالْتَقَطَتْهَا.

وَلَمَّا أَنْطَبَقَ الْمِنْقَارُ عَلَيْهَا قَالَتْ: أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَ الْبَطَّةَ...!

(١) تمور: تتحرك في كل اتجاه.

(٣) غرَّتْهَا: مفاجأتها.

(٢) بهتت: دهشت.

(٤) الأرواح: السواد والسماد.

يا شباب العرب!

يقولون: إن في شبابِ العربِ شيخوخةَ ألهممِ والعزائم؛ فالشبابُ يمتدّون في حياةِ الأممِ وهم ينكمشون.

وإن ألهو قد خفّ بهم حتى ثقلت عليهم حياةُ الجِدِّ، فأهملوا الممكّناتِ فرجعتْ لهم كالمستحيلات.

وإن الهزل^(١) قد هوّن عليهم كلَّ صعبةٍ فأختصروها؛ فإذا هزءوا بالعدوّ في كلمةٍ فكأنما هزموه في معركةٍ...

وإن الشبابَ منهم يكونُ رجلاً تاماً، ورجولهُ جسمه تحتجُ على طفولةِ أعماله. ويقولون: إن الأمرَ العظيمَ عندَ شبابِ العربِ ألا يحملوا أبداً تبعيةً^(٢) أمرٍ عظيم.

ويزعون أن هذا الشبابَ قد تمّت ألافهُ بينهُ وبين أغلاطه، فحياتهُ حياةُ هذه الأغلاط فيه.

وأنت أبرعُ مُقلدٍ للغربِ في الرذائلِ خاصّةً؛ وبهذا جعلهُ الغربُ كالحيوانِ محصوراً في طعامهِ وشرابه، ولذاته.

ويزعمون أن الزجاجةَ من الخمرِ تعملُ في هذا الشرقِ المسكينِ عملَ جنديٍّ أجنبيٍّ فاتحٍ...

ويتواصون بأن أولَ السياسةِ في استعبادِ أممِ الشرقِ، أن يُتركَ لهمُ الاستقلالُ التامُ في حريةِ الرذيلةِ...

ويقولون: إنّه لا بدّ في الشرقِ من التّينِ للتّخريب: قوّة أوروبا، ورذائل أوروبا.

(٢) تبعه: مسؤولية.

(١) الهزل: اللعب والمزاح.

يا شباب العرب! من غيركم يُكذَّب ما يقولون ويزعمون على هذا الشرق
المسكين؟

من غير الشباب يضع القوة بإزاء هذا الضعيف الذي وصفوه لتكون جواباً عليه؟
من غيركم يجعل النفوس قوانين صارمة^(١)، تكون المادة الأولى فيها: قدّرنا
لأننا أردنا؟

ألا إن المعركة بيننا وبين الاستعمار معركة نفسية، إن لم يُقتل فيها الهزل قتل
فيها الواجب!

والحقائق التي بيننا وبين هذا الاستعمار إنما يكون فيكم أنتم بحثها التحليلي،
تكذب أو تصدق.

الشباب هو القوة؛ فالشمس لا تملأ النهار في آخره كما تملؤه في أوله.
وفي الشباب نوع من الحياة تظهر كلمة الموت عنده كأنها أخت كلمة النوم.
وللشباب طبيعة أول إدراكها الثقة بالبقاء، فأول صفاتها الإصرار على العزم.
وفي الشباب تصنع كل شجرة من أشجار الحياة أثمارها؛ وبعد ذلك لا تصنع
الأشجار كلها إلا خشباً...

يا شباب العرب! اجعلوا رسالتكم: إما أن يحيا الشرق عزيزاً، وإما أن
تموتوا.

أنقذوا فضائلنا من رذائل هذه المدينة الأوربية، تُنقذوا استقلالنا بعد ذلك،
وتنقذوه بذلك.

إن هذا الشرق حين يدعو إليه الغرب؛ «يدعو لمن ضره أقرب من نفعه»
لبئس المولى ولبيس العشير.

لبئس المولى إذا جاء بقوته وقوانينه، ولبيس العشير إذا جاء برذائله وأطماعه.
أيها الشرقي! إن الدينار الأجنبي فيه رصاصة مخبوءة، وحقوقنا مقتولة بهذه
الدنانير.

(١) صارمة: حازمة.

أَيُّهَا الشَّرْقِيُّ! لَا يَقُولُ لَكَ الْأَجَنبِيُّ إِلَّا مَا قَالَ الشَّيْطَانُ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ! لَمْ يَكُنِ الْعَسِيرُ يَغْسُرُ عَلَى أَسْلَافِكُمْ الْأَوَّلِينَ، كَأَنَّ فِي يَدِهِمْ مِفْتَاحَ مِنَ الْعُنَاصِرِ يَفْتَحُونَ بِهَا.

أَتُرِيدُونَ مَعْرِفَةَ السِّرِّ؟ السِّرُّ أَنَّهُمْ أَرْتَفَعُوا فَوْقَ ضَعْفِ الْمَخْلُوقِ، فَصَارُوا عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَالِقِ.

غَلَبُوا عَلَى الدُّنْيَا لَمَّا غَلَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَعْنَى الْفَقْرِ، وَمَعْنَى الْخَوْفِ، وَالْمَعْنَى الْأَرْضِي.

وَعَلَّمَهُمُ الدِّينَ كَيْفَ يَعِيشُونَ بِاللَّذَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي وَضَعَتْ فِي كُلِّ قَلْبٍ عَظَمَتَهُ وَكِبْرِيَاءَهُ.

وَأَخْتَرَعَهُمُ الْإِيمَانُ أَخْتِرَاعًا نَفْسِيًّا، عَلَامَتُهُ الْمَسْجَلَةُ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ: لَا يَذَلُّ.

حِينَ يَكُونُ الْفَقْرُ قِلَّةَ الْمَالِ، يَفْتَقِرُ أَكْثَرُ النَّاسِ، وَتَنْخَذِلُ^(١) الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَتَهْلِكُ الْمَوَاهِبُ.

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ فَقْرُ الْعَمَلِ الطَّيِّبِ، يَسْتَطِيعُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَغْتَنِّي، وَتَنْبَعُثُ الْقُوَّةُ وَتَعْمَلُ كُلُّ مَوْهَبَةٍ.

وَحِينَ يَكُونُ الْخَوْفُ مِنْ نَقْصِ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَالْآمَةِ، تَفْسُرُ كَلِمَةُ الْخَوْفِ مَائَةً رَذِيلَةً غَيْرِ الْخَوْفِ.

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ مِنْ نَقْصِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ وَعَذَابِهَا، تُصْبِحُ الْكَلِمَةُ قَانُونُ الْفَضَائِلِ أَجْمَعِ.

هَكَذَا أَخْتَرَعَ الدِّينُ إِنْسَانَهُ الْكَبِيرَ النَّفْسِ الَّذِي لَا يُقَالُ فِيهِ: انْهَزَمَتْ نَفْسُهُ.

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ! كَانَتْ حِكْمَةُ الْعَرَبِ الَّتِي يَعْمَلُونَ عَلَيْهَا: أَطْلُبِ الْمَوْتَ تَوَهَّبْ لَكَ الْحَيَاةَ.

(١) تنخذل: تنهزم.

وَالنَّفْسُ إِذَا لَمْ تَخْشَ الْمَوْتَ كَانَتْ غَرِيزَةُ الْكِفَاحِ أَوَّلَ غَرَائِزِهَا تَعْمَلُ .
وَلِلْكِفَاحِ غَرِيزَةٌ تَجْعَلُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا نَصْرًا ، إِذْ لَا تَكُونُ الْفِكْرَةُ مَعَهَا إِلَّا فِكْرَةٌ
مُقَاتِلَةٌ .

غَرِيزَةُ الْكِفَاحِ يَا شَبَابَ ، هِيَ الَّتِي جَعَلَتِ الْأَسَدَ لَا يُسَمَّنُ كَمَا تَسَمَّنُ الْأَشَاءُ
لِلدَّبْحِ .

وَإِذَا أَنْكَسَرَتْ يَوْمًا ، فَالْحَجَرُ الصَّلْدُ^(١) إِذَا تَرَضَّرَضَتْ^(٢) مِنْهُ قِطْعَةٌ كَانَتْ دَلِيلًا
يَكْشِفُ لِلْعَيْنِ أَنَّ جَمِيعَهُ حَجَرٌ صَلْدٌ .

* * *

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! إِنَّ كَلِمَةَ (حَقِّي) لَا تَحْيَا فِي السِّيَاسَةِ إِلَّا إِذَا وَضَعَ قَائِلُهَا
حَيَاتَهُ فِيهَا .

فَالْقُوَّةُ الْقُوَّةُ يَا شَبَابَ ! الْقُوَّةُ الَّتِي تَقْتُلُ أَوَّلَ مَا تَقْتُلُ فِكْرَةَ التَّرَفِّ والتَّخُثُّ .
الْقُوَّةُ الْفَاضِلَةُ الْمَتَسَامِيَةُ الَّتِي تَضَعُ لِلْأَنْصَارِ فِي كَلِمَةِ (نَعَمْ) مَعْنَى نَعَمْ .
الْقُوَّةُ الْصَارِمَةُ الْفَنَازَةُ الَّتِي تَضَعُ لِلْأَعْدَاءِ فِي كَلِمَةِ (لَا) مَعْنَى لَا .
يَا شَبَابَ الْعَرَبِ إَجْعَلُوا رِسَالَتَكُمْ : إِمَّا أَنْ يَحْيَا الشَّرْقُ عَزِيزًا ، وَإِمَّا أَنْ
تَمُوتُوا .

(٢) تَرَضَّرَضَتْ : تَكَسَّرَتْ .

(١) الصَّلْدُ : الصَّلْبُ ، الْقَاسِي .

لَوْ...!

رأيتني جالساً في مسرح هزلي بمدينة اسكندرية، كما يجلس القاضي في جريمة يحمل أهلها بين يديه أثامهم وأعمالهم، ويحمل هو عقله وحكمه .
وقد ذهبتُ لأرى كيف يتساحف^(١) أهل هذه الصناعة؛ فكان حُكمي أن السخافة عندنا سخيفة جداً

رأيتهم هناك ينقدون العيوب بما ينشئ عيوباً جديدة، ويسبحون بأيديهم سباحة ماهرة؛ ولكن على الأرض لا في البحر، وتكاد نظرتهم إلى الحقيقة الهزلية تكون عمى ظاهراً عما هي به حقيقة هزلية؛ ولا غاية لهم من هذا التمثيل إلا الرقاعة^(٢) والإسفاف والخلط^(٣) والهديان، إذ كان هذا هو الأشبه بجمهورهم الذي يحضرهم، وكان هو الأقرب إلى تلك الطباع العامة أبلدة التي اعتادت من تكلف الهزل ما جعلها هي في ذات نفسها هزلاً يسخر منه .
ولا أسخف من تكلف النكتة الباردة قد خلّت من المعنى، إلا تكلف الضحك المصنوع يأتي في عقبها كالبرهان على أن في هذه النكتة معنى .

فالفن المضحك عند هؤلاء، إنما هو السخف الذي يوافقون به الروح العامة الضئيلة الكاذبة المكذوب عليها، التي يبلغ من بلايتها أحياناً أن تضحك للنكتة قبل إلقائها، لفرط خفتها ورعونتها^(٤)، وطول ما تكلفت وأعتادت . فما ذلك الفن إلا ما ترى من التخليط في الألفاظ، والتضريب^(٥) بين المعاني، وإيقاع الغلط في المعقولات؛ ثم لا ثم بعد هذا . فلا دقة في التأليف، ولا عمق في الفكرة، ولا سياسة في جمع النقائق، ولا نقاذ في أسرار النفس، ولا جد يؤخذ من هزلية الحياة، ولا عظمة تُستخرج من صغائرها، ولا فلسفة تُعرف من حماقاتها .

(٣) الرعونة : التصرف بحماقة .

(٤) التضريب : التخليط .

(١) يتساحف : يبدى ما به من حماقة .

(٢) الرقاعة : الحماقة .

والفرق بعيد بين ضحك هو صناعة ذهن لتحريك النفس، وشخذ الطبع، وتصوير الحقيقة صورة أخرى، وبين ضحك هو صناعة ألباهة للهو والعبث، والمجانة لا غير.

وكان معي قريب من أذكاء الطلبة المتخصصين للآداب الإنجليزية، فلم نلبث إلا يسيراً حتى جاء ثلاثة من ضباط الأسطول الإنجليزي، فجلسوا بحداثنا صفًا تلوح عليهم مخايل الظفر، ولهم وقار البطولة، وفيهم أرواح الحرب؛ وهم يبدون في ثيابهم البيض المطرأة^(١) كأنهم ثلاثة نُسور هبطت من الغمام إلى الأرض، فلأعينها نظرات تدور هنا وهناك تُنكر وتُعرف.

وأعجبني أن أراهم في هذا المكان الهزلي الممتلىء بالضعفاء، كأنهم ثلاث حقائق بين الأغلاط، أو ثلاث أغلاط كبيرة... وكان أبداع ما أراه على هيئة وجوههم وأسرُّ له، تواضع هذا الاستعداد الحربي وتحوُّله إلى استعداد للسخرة... ثم تأملتُهم طويلاً؛ فإذا صرامة وشهامة، وسكينة ووداعة، وحسن سَمَت وحلاوة هيئة في جلسة رزينة متوقفة، لا يُشبهها في حس النفس التي تعرف معاني القوة إلا وضع ثلاثة مدافع مُصوّبة.

وجعلت أقلب عيني في الناس الموجودين وملامحهم وهيئاتهم، ثم أرجع البصر إلى هؤلاء الثلاثة، فأرى المصري كالمقتنع بأنه محدود بمدينة أو قرية لا يعرف لنفسه مكاناً في غيرهما، فهو من ثم لا يرحل ولا يُغامر، ولا تتقاذفه الدنيا؛ وأرى الإنجليزي كالمقتنع بأن كل مكان في العالم ينتظر الإنجليز...

وخيل إليّ - والله - أن رجلاً من هؤلاء الإنجليز الأقوياء المعتقدين بأنفسهم^(٢) لا يهاجر من بلاده إلا ومعه نفسه وأستقلاله، وتاريخه وروح دولته، وطبيعة أرضه؛ فهو مستيقن أن الله لا يرزقه رزقاً أي الرزق كان على ما يتفق، بل رزقاً إنجليزياً: أي فيه كفايته.

ورأيت شيئاً عجيباً من الفرق بين طابع السلم على وجوه، وبين طابع الحرب على وجوه أخرى؛ ففي تلك معاني السهولة والملاينة والجرص على مادة الحياة،

(١) المطرأة: المكواة.

(٢) المعتقدين بأنفسهم: المعتزين، الواقفين من أنفسهم.

وفي هذه معاني العزم والمقاومة والجزم على مجد الحياة لا على ماديتها.

وتبيئت أسلوبين من الأساليب الاجتماعية: أحدهما في فرد قد بنى أمره على أن أمة تحمله، فهو يعيش بأضعف ما فيه: والآخر في فرد قد وضع الأمر على أنه هو يحمل أمة فلا يدع في نفسه قوة إلا ضاعفها.

وعرفت وجهين من وجوه التربية السياسية: أحدهما بالظنطنة، والتهويل والصراخ، واستعارة ألفاظ غير الواقع للواقع، وتحميل الألفاظ غير ما تحمل؛ والآخر بالهدوء الذي يقهر الحوادث، والصبر الذي يغلب الزمن، والعقيدة التي تفرض أعمالها العظيمة على صاحبها وتجعل أعظم أجره عليها أن يقوم بها.

وميزت بين أثريين من آثار الأرض في أهلها: أحدهما في المصري السنج الوادع الألوف الحي الذي هو كرم الطبيعة، والآخر في الإنجليزي العسير المغامر الثفور الملح على الدنيا كأنه تطفل الطبيعة...

والقى ابن العم الذي كان معي سمعة إلى هؤلاء الضباط، وهم من فلاسفة الرأي على ما يظهر من حديثهم، ثم نقل إلي عنهم، فقال كبيرهم: لقد فرغت من بحثي الذي وضعته في فلسفة خمول الشرقيين، وأفضيت منه إلى حقائق عجيبة، أظهرها وأخفاها معاً أن أمة من هذه الأمم لا يمكن للأجنبي فيها، ولا تثقل وطأته^(١) عليهم، ولا يطول ثواؤه^(٢) في أرضهم، ولا يحتلها من يطمع فيها، ما لم يكن سادتها وأمرؤها وكبرائها كأنهم فيها دولة محتلة.

وهؤلاء الكبراء هم آفة الشرق؛ فمن أعظم واجباتنا أن نزيد في تعظيمهم، وأن نمد لهم في المال والجاه، ونبسط لهم أكرمين والشمال، ونوهمهم أن عظمته هكذا ولدت فيهم وهكذا ولدوا بها من أمهاتهم كما ولدوا بأيديهم وأرجلهم... وخاصة عظماء رجال الأديان المفتونين بالدنيا؛ فإننا نصنع بغرور الجميع وسخافاتهم وجزمهم وطمعهم أشياء اجتماعية ذات خطر لا يصنع لنا مثلها إلا الشياطين ومن لنا بالحكم على الشياطين؟ وهذا ما تنبه له (غاندي) ذلك المهزول الهندي الذي تقوم دنياء بأربعة شلنات، ولا يزن أكثر من بضعة أرطال من الجلد والعظم، ولا بطش عنده ولا قوة فيه، وهو مع ذلك جبار

(١) وطأته: سطوته.

(٢) ثواؤه: بقاؤه.

سماوي في يده البرق والرعد يرى ويسمع في أرجاء الدنيا .

قال ضابط اليمين : وبصناعة الكبرياء هذه الصناعة يكون رجل الشعب من هؤلاء الشرقيين رجل تقليد بالطبيعة، ورجل ذل بالحالة، ورجل خضوع بالجملية؛ فليس في نفسه أنه سيد نفسه ولا سيد غيره، بل أكبر معانيه أن غيره سيد عليه فيكون معه دائماً خيال استعباده .

وتكلم ضابط اليسار : ولكن المترجم لم يميز أقواله ، لأن ثلاث عشرة امرأة كن يصرخن في الرواية الهزلية بلحن طويل يقلن في أوله : «عاوزين رجالة تدلّغنا...» وكانت الموسيقى تصرخ معهن وتولول كأنها هي أيضاً امرأة محرومة...

ثم أرهف^(١) المترجم أذنه فقال كبيرهم : إن هؤلاء الشرقيين ست حواس : الخمس المعروفة ، وحاسة الخمول الذي خدعتهم عنه الطبيعة البليدة فسموه الترف والهزل واللهو ؛ والأمة الأوربية التي تحتل بلاداً شرقية تجد فيها لصغائر الحياة جيشاً أقوى من جيشها ؛ فعشرة آلاف جندي بعنادهم وآلاتهم ، لا يصنعون شيئاً إلا الاستفزاز^(٢) والتحدي وإثبات أنهم غاصبون ؛ ولكن ما أنت قائل في عشرة آلاف مكان كهذا المسرح براقصاته وموسايقه وخموره ورواياته ، وبهؤلاء الرجال المخشيين الهزليين الرقعاء الذين هم وحدهم معاهدة سياسية ناجحة بيننا وبين شباب الأمة... ؟

قال ضابط اليمين : نعم إن فن الاحتلال فن عسكري في الأول ، ولكنه فن أخلاقي في الآخر ؛ ولهذا يجب تعيين نقطة اتجاه للشباب تكون مضيئة لامعة جذابة مغرية ؛ ولكنها في ذات الوقت مُحْرِقَةٌ أيضاً ، وهذه هي صناعة إهلاك الشباب بالضوء الجميل ، وما على السياسي الحاذق في الشرق إلا أن يحمي الرذيلة ، فإن الرذيلة ستعرف له صنيعه وتحميه ..

فتكلم ضابط اليسار ، ولكن صوته ذهب في عشرين صوتاً من رجال المسرح ونسائه يصيحون جميعاً : «يا حلوة يا خفافي ، يا مجننه الشبان...» .

(١) أرهف السمع : دقق .

(٢) الاستفزاز : إثارة الغضب .

ولَمَّا أَلْمَمْتُ^(١) بحوارِ الضباطِ الثلاثةِ قُلْتُ لِصاحبي: إِسْتَاذِنْ لي عليهم أَكْلَهُمْ. ففَعَلَ وعَرَّفَنِي إليهم، وترَجَّمْ لهم مقالةَ (يا شبابُ العرب) وكانَ يحملُها. فكأَنَّمَا رماهم منها بالجيشِ والأسطولِ.

ثُمَّ قُلْتُ لِكبيرِهِم: لَسْتُ أَنْكَرُ أَنَّ الْإِنْجِلِيزِيَّ لو دَخَلَ جَهَنَّمَ لَدَخَلَهَا إِنْجِلِيزِيًّا. وَلَا أَجْحَدُ أَنَّ لَهُ في الْحَيَاةِ مِثْلَ هِدَايَةِ الْحَيَوَانِ، لِأَنَّهُ رَجُلٌ عَمَلِيٌّ: دَلِيلُ مَنْفَعَتِهِ أَنَّهَا مَنْفَعَتُهُ وَحَسْبُ، ثُمَّ لَا دَلِيلَ غَيْرُ هَذَا وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا هَذَا. فَإِذَا قَالَ الشَّرْقِيُّ: حَقِّي، وَقَالَ الْإِنْجِلِيزِيُّ: مَنْفَعَتِي، بَطَلَتِ الْأَدَلَّةُ كُلُّهَا، وَرَأَى الشَّرْقِيُّ أَنَّهُ مَعَ الْإِنْجِلِيزِيِّ كَالَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يَقْنَعَ الذَّنْبَ بِقَانُونِ الْفَضِيلَةِ وَالرَّحْمَةِ.

وقد عَرَفْنَا أَنَّ في السِّيَاسَةِ عَجَائِبَ، مِنْهَا مَا يُشَبِّهُ أَنْ يَلْقَى إِنْسَانٌ إِنْسَانًا فيقولُ له: يا سَيِّدِي الْعَزِيزُ، بِكُلِّ أَحْتِرَامٍ أَرْجُو أَنْ تَتَلَقَّ مِنِّي هَذِهِ الصَّفْعَةُ . . .

وفي السِّيَاسَةِ مَوَاعِيدُ عَجِيبَةٌ، مِنْهَا مَا يُشَبِّهُ غَرْسَ شَجَرَةٍ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَالتَّوَكُّيدَ لَهُمْ بِالْإِيْمَانِ أَنَّهَا سَتُثْمِرُ رُغْفَانًا مَخْبُوزَةً . . . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُطْعَمُ فَتُشَوَّرُ الْرُغْفَانُ الْمَخْبُوزَةُ حَشْوُهَا اللَّحْمُ وَالْإِدَامُ . . .

وفي السِّيَاسَةِ مُحَارَبَةُ الْمَسَاجِدِ بِالْمَرَاقِصِ، وَمُحَارَبَةُ الزَّوْجَاتِ بِالْمُومَسَّاتِ، وَمُحَارَبَةُ الْعَقَائِدِ بِأَسَانِدَةِ حُرِيَةِ الْفِكْرِ، وَمُحَارَبَةُ فَنُونِ الْقُوَّةِ بِفَنُونِ اللَّذَّةِ. وَلَكِنْ لو فَهِمَ الشَّبَابُ أَنَّ أَمَاكِنَ اللَّهِ في كُلِّ مَعَانِيهَا لَيْسَتْ إِلَّا غَذْرًا بِالْوَطَنِ في كُلِّ مَعَانِيهِ!

ولو عَرَفَ الشَّبَابُ أَنَّ مُحَارَبَةَ اللَّهِ هي أَوَّلُ الْمَعْرَكَةِ السِّيَاسِيَةِ الْفَاصِلَةِ! ولو أَدْرَكَ الشَّبَابُ أَنَّ أَوَّلَ حَقِّ الْوَطَنِ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمَلَ في نَفْسِهِ مَعْنَى الشَّعْبِ لَا مَعْنَى نَفْسِهِ!

ولو رَجَعَ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ كَمَا هُوَ في طَبِيعَتِهِ آلَةٌ حَرَبِيَّةٌ تَصْنَعُ مِنَ الشَّبَابِ رِجَالَ الْقُوَّةِ!

ولو عَلِمَ الشَّبَابُ أَنَّ رُوحَ هَذَا الدِّينِ لَيْسَتْ: اعْتَقَدْ وَلَا تَعْتَقَدْ. وَلَكِنْ أَفْعَلْ وَلَا تَفْعَلْ!

ولو أَيْقَنَ الشَّبَابُ أَنَّ فَرَائِضَ هَذَا الدِّينِ لَيْسَتْ إِلَّا وَسَائِلَ عَمَلِيَّةٍ لِإِمْتِلَاءِ النَّفْسِ بِمَعَانِي التَّقْدِيسِ!

(١) أَلَمْتُ: اطَّلَعْتُ.

ولو فهم الشباب أن ليس في الوجود إلا هذه المعاني تجعل النفس فوق المادة
وفوق الخوف وفوق الذل وفوق الموت نفسه!
ولو بحث الشباب النفس الإنجليزية القوية ليعرف بالبرهان أنها نصف مسلمة
فكيف بها لو كانت مسلمة؟ ...

وكان المترجم ينقل إليهم كلامي، فما بلغت إلى حيث بلغت، حتى شد
الضابط على يدي وهزها؛ فنظرت، فإذا أنا قد كنت نائماً بعد سهرة طويلة في ذلك
المسرح، وإذا يد المترجم نفسه هي التي تهزني لانتبه. ...

أيها المسلمون!

نهضت فلسطين تجلّ العقدة التي عُقدت لها بين السيف، والمكر، والذهب.
عقدة سياسية خبيثة، فيها لذلك الشعب الحرّ قتل وتخريب، وفقر.
عقدة الحكم الذي يحكم بثلاثة أساليب: الوعد الكذب، والفناء البطيء،
ومطامع اليهود المتوحشة.

أيها المسلمون! ليست هذه محنة فلسطين، ولكنها محنة الإسلام؛ يريدون
ألا يُثبت شخصيته العزيزة الحرة.

كل قرش يدفع الآن لفلسطين، يذهب إلى هناك ليجاهد هو أيضاً.

أولئك إخواننا المجاهدون؛ ومعنى ذلك أن أخلاقنا هي حلفاؤهم في هذا
الجهاد.

أولئك إخواننا المنكوبون؛ ومعنى ذلك أنهم في نكبتهم أمتحان لضمائرينا
نحن المسلمين جميعاً.

أولئك إخواننا المضطهدون؛ ومعنى ذلك أن السياسة التي أدلتهم تسألنا
نحن: هل عندنا إقرار للذل؟

ماذا تكون نكبة الأخ إلا أن تكون أسماً آخر لمرودة سائر إخوته أو مدلتهم؟
أيها المسلمون! كل قرش يدفع لفلسطين، يذهب إلى هناك ليفرض على
السياسة احترام الشعور الإسلامي.

يتلّوهم باليهود يحملون في دماهم حقيقتين ثابتتين: من ذل الماضي وتشريد
الحاضر.

ويحملون في قلوبهم يقمتين طاغيتين: إحداهما من ذهبيهم، والأخرى من
ردائهم.

وَيُخَبِّتُونَ فِي أَدْمَغِيَّتِهِمْ فِكْرَتَيْنِ خَبِيثَتَيْنِ: أَنْ يَكُونَ الْعَرَبُ أَقْلِيَّةً، ثُمَّ أَنْ يَكُونُوا
بَعْدَ ذَلِكَ خَدَمَ الْيَهُودِ.

فِي أَنْفُسِهِمْ الْحَقْدَ، وَفِي خِيَالِهِمْ الْجَنُونَ، وَفِي عَقُولِهِمْ الْمَكْرَ، وَفِي أَيْدِيهِمْ
الذَّهَبَ الَّذِي أَصْبَحَ لَيْمًا لَأَنَّهُ فِي أَيْدِيهِمْ.
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُلُّ قَرَشٍ يُدْفَعُ لِفِلَسْطِينَ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيَتَكَلَّمَ كَلِمَةً تَرُدُّ
إِلَى هَؤُلَاءِ الْعَقْلِ.

إِبْتَلَوْهُمْ بِالْيَهُودِ يَمْرُؤُونَ مَرُورَ الدَّنَانِيرِ بِالرِّبَا الْفَاحِشِ فِي أَيْدِي الْفُقَرَاءِ.
كُلُّ مَائَةِ يَهُودِيٍّ عَلَى مَذْهَبِ الْقَوْمِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مَائَةً
وَسَعْبِينَ...

حَسَابُ خَبِيثٍ يَبْدَأُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَا يَنْتَهِي أَبَدًا وَفِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَقْلِ.
وَالسِّيَاسَةُ وَرَاءَ الْيَهُودِ، وَالْيَهُودُ وَرَاءَ خِيَالِهِمُ الدِّينِيَّ، وَخِيَالُهُمُ الدِّينِيُّ هُوَ طَرْدُ
الْحَقِيقَةِ الْمُسْلِمَةِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُلُّ قَرَشٍ يُدْفَعُ لِفِلَسْطِينَ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيُثَبِّتَ الْحَقِيقَةَ
الَّتِي يُرِيدُونَ طَرْدَهَا.

يَقُولُ الْيَهُودُ: إِنَّهُمْ شَعْبٌ مُضْطَهَّدٌ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْعَالَمِ.
وَيَزْعُمُونَ: أَنَّ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَعِيشُوا أَحْرَارًا فِي فِلَسْطِينَ، كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ
جَمِيعِ بِلَادِ الْعَالَمِ...

وَقَدْ صَنَعُوا لِلْإِنْجِلِيزِ أَسْطُورًا عَظِيمًا لَا يَسْبُحُ فِي الْبَحَارِ، وَلَكِنْ فِي
الْخَزَائِنِ...

وَأَرَادَ الْإِنْجِلِيزُ أَنْ يَطْمِثُوا فِي فِلَسْطِينَ إِلَى شَعْبٍ لَمْ يَتَعَوَّذَ قَطُّ أَنْ يَقُولَ: أَنَا.
وَلَكِنْ لِمَاذَا كَسَتْكُمْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ أَرْضِهَا بِمَكْنَسَةِ أَيُّهَا الْيَهُودُ؟

أَجْهَلْتُمْ الْإِسْلَامَ؟ الْإِسْلَامُ قُوَّةٌ كَتَلَكَ الَّتِي تُوجِدُ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُخَالَفَ فِي كُلِّ
أَسَدٍ.

قوة تُخرج سلاحها بنفسها، لأن مخلوقها عزيز لم يوجد ليؤكل، ولم يُخلق ليذلل.

قوة تجعل الصوت نفسه حين يرمجر، كأنه يعلن الأسدية العزيرة إلى الجهات الأربع.

قوة وراءها قلب مشتعل كالبركان، تتحول فيه كل قطرة دم إلى شرارة دم ولئن كانت الحوافر تهتئ مخلوقاتها ليركبها الراكب، إن المخالب والأنياب تهتئ مخلوقاتها لمعنى آخر.

لو سُئِلْتُ ما الإسلام في معناه الاجتماعي؟ لَسَأَلْتُ: كم عدد المسلمين؟ فإن قيل: ثلثمائة مليون. قلت: فالإسلام هو الفكرة التي يجب أن يكون لها ثلثمائة مليون قوة.

أيجوع إخوانكم أيها المسلمون وتشبعون؟ إن هذا الشَّعْ ذنب يعاقب الله عليه.

والغنى اليوم في الأغنياء المُمسكين عن إخوانهم، هو وصف الأغنياء باللؤم لا بالغنى.

كل ما يذلُّ المسلمون لفلسطين، يدلُّ دلالات كثيرة، أقلها سياسة المقاومة.

كان أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك، فافتحوا أنتم أيديكم... كانوا يرمون بأنفسهم في سبيل الله غير مكترئين^(١)، فأرموا أنتم في سبيل الحق بالدنانير والدراهم.

لماذا كانت القبلة في الإسلام إلا ليعتاد الوجه كلها أن تتحول إلى الجهة الواحدة؟

لماذا ارتفعت المآذن إلا ليعتاد المسلمون رفع الصوت في الحق؟
أيها المسلمون! كونوا هناك. كونوا هناك مع إخوانكم بمعنى من المعاني.

(١) مكترئين: مهتمين.

لو صَامَ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِي كُلُّهُ يَوْمًا وَاحِدًا وَبَذَلَ نَفَقَاتِ هَذَا الْيَوْمِ الْوَاحِدِ
لِفِلَسْطِينِ، لَأَغْنَاهَا.

لو صَامَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ يَوْمًا وَاحِدًا لِإِعَانَةِ فِلَسْطِينِ، لَقَالَ النَّبِيُّ مُفَاخِرًا
الْأَنْبِيَاءَ: هَذِهِ أُمَّتِي!

لو صَامَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا يَوْمًا وَاحِدًا لِفِلَسْطِينِ، لَقَالَ الْيَهُودُ الْيَوْمَ مَا قَالَهُ
أَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ: إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ...

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! هَذَا مَوْطَنٌ يَزِيدُ فِيهِ مَعْنَى الْمَالِ الْمَبْذُولِ فَيَكُونُ شَيْئًا
سَمَاوِيًّا.

كُلُّ قِرْشٍ يَبْذُلُهُ الْمُسْلِمُ لِفِلَسْطِينِ، يَتَكَلَّمُ يَوْمَ الْحِسَابِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا
إِيمَانُ فُلَانٍ!

قصة الأيدي المتوضئة...

قال راوي الخبر: ذهبت إلى المسجد لصلاة الجمعة؛ والمسجد يجمع الناس بقلوبهم ليخرج كل إنسان من دنياه، فلا يفكر أحد أنه أسمى من أحد؛ ولقد يكون إلى جانبك الصانع أو الأجير أو الفقير أو الجاهل، وأنت الرئيس أو العظيم أو الغني أو العالم، فتنظر إليه وإلى نفسك فتحس كأن خواطرك متوضئة متطهرة، وترى كلمة الكبرياء قد فقدت روحها، وكلمة التواضع قد وجدت روحها؛ وتشعر بالنفس المجتمعة قد نصبت الحرب للنفس المنفردة؛ ولو خطر لك شيء بخلاف ذلك رأيت الفقير إلى جانبك تويخاً لك، ونظرت إليه ساكناً وهو يتكلم في قلبك، وشعرت بالله من فوقكما، وأستعنت لك روح المسجد كأنها تهتم بطردك منه، وخيل إليك أن الأرض ستلطم وجهك إذا سجدت عليها، وأيقنت من ذات نفسك أن لست هناك في دنياك وليس صاحبك في دنياه، وإنما أنتما هناك في إنسانية ميزانها بيد الله وحده؛ فلا تدري أيكما الذي يخف وأيكما الذي يشغل.

قال: والعجيب أن هذا الذي لا يجهله أحد من أهل الدين، يعرفه بعض علماء الدين على وجه آخر، فتراه في المسجد يمشي مختلاً، قد تحلى بحليته، وتكلف لرفوه، فليس الحبة تسع اثنين، لا وتطاول كأنه المئذنة، وتصدّر كأنه القبلة، وانتفع كأنه مملىء بالفروق بينه وبين الناس؛ وهو بعد كل هذا لو كشف الله تمويهه لأنكشف عن تاجر علم بعض شروطه على الفضيلة أن يأكل بها، فلا يجد دنياه إلا في المسجد، فهو نوع من كذب العالم الديني على دينه.

قال الراوي: وصعد الخطيب المنبر وفي يده سيفه الخشبي يتوكأ عليه؛ فما استقر في الذروة حتى خيل إلي أن الرجل قد دخل في سِر هذه الخشبة، فهو يبدو كالمريض ثقيمه عصاه، وكألهرم يمسكه ما يتوكأ عليه؛ ونظرت فإذا هو كذبت صريح على الإسلام والمسلمين، كهيئة سيفه الخشبي في كذبها على السيوف ومعدنها وأعمالها.

وتأله ما أدري كيف يستحلّ عالم من علماء الدين الإسلامي في هذا العصر، أن يخطب المسلمين خطبة جمعتهم وفي يده هذا السيف علامة الذلّ والضعف والتراجع والانقلاب والإدبار والهزل والسخرية والفضيحة والإضحاك؛ ومتى كان الإسلام يأمرُ بتجريح السيف من الخشب وتحتيتها وتسويتها وإرهاق حذها الذي لا يقطع شيئاً، ثم وضعها في أيدي العلماء يعلّون بها ذؤابة^(١) كل منبر، لتتعلّق بها العيون، وتشهد فيها الرمز والعلامة، وتستوجي منها المعنوية في الدينونة التي يجب أن تتجسّم لثرى؟

أفي سيف من الخشب معنوية غير معنى الهزل والسخافة، وبلاهة العقل وذلة الحياة، ومنح التاريخ ألفتاح الممتصر، والرمز لخضوع الكلمة وصبيانية الإرادة؟ قال: وكان تمام الهزء بهذا السيف الخشبي الذي صنعه وزاره أوقاف المسلمين، أنه في طول صنّامة^(٢) عمرو بن مغديكرب الزبيدي فارس الجاهلية والإسلام، فكان إلى صدر الخطيب، ولولا أنه في يده لظهر مقيضه في صدر الرجل كأنه وسام من الخشب...

قال: وكان الخطيب إذا تكلف وتصنّع وظهر منه أنه قد حمي وثار ثائرته، ارتجّ وغفل عن يده، فتضطرب فيها قبضة السيف فتلكزه في صدره كأنما تذكره أن في يده خشبة لا تصلح لهذه الحماسة...! (٣)

قال: وخطب العالم على الناس، وكان سيفه الخشبي يخطب خطبة أخرى: فأما الأولى فهي محفوظة معروفة ولا تنتهي حتى ينتهي أثرها، إذ هي كالقراءة لإقامة الصلاة؛ وكانت في عهدنا الأول كالدرس لإقامة شأن من شؤون الاجتماع والسياسة، فبينها وبين حقيقتها الإسلامية مثل ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى. وأما الخطبة الثانية فقد عقلتها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها، وهذه هي عبارتها:

ويحكم أيها المسلمون! لو كنث بقية من خشب سفينة نوح التي أنقذ فيها

(١) ذؤابة: رأس.

(٢) صنّامة: اسم للسيف.

(٣) كانت القاعدة الشرعية تبيح للخطيب المسلم، إذا ما افتتح بلداً غضباً بالسيف أن يخطب ويده سيفه.

الجنس البشري، لَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَضَعُونِي هَذَا الْمَوْضِعَ؛ وَمَا جَعَلَكُمْ اللَّهُ حَيْثُ أَنْتُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَعَلْتُمُونِي حَيْثُ أَنَا، تَكَادُ شَرَارَةُ تَذْهَبُ بِي وَبِكُمْ مَعًا، لِأَنَّ فِيَّ وَفِيكُمْ الْمَادَّةَ الْخَشَبِيَّةَ وَالْمَادَّةَ الْمُتَخَشَّبَةَ.

وَيَحْكُم! لَوْ أَنَّهُ كَانَ لِيُخْطِيَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْكَلَامِ النَّارِيِّ الْمَضْطَرَمِّ، لَمَا بَقِيَتْ الْخَشَبَةُ فِي يَدِهِ خَشَبَةً. وَكَيْفَ يَمْتَلِئُ الرَّجُلُ إِيْمَانًا بِإِيْمَانِهِ، وَكَيْفَ يَصْعَدُ الْمَنْبِرَ لِيَقُولَ كَلِمَةَ الدِّينِ مِنَ الْحَقِّ الْغَالِبِ، وَكَلِمَةَ الْحَيَاةِ مِنَ الْحَقِّ الْوَارِجِ - وَهُوَ كَمَا تَرَوْنَهُ قَدْ أَنْتَهَى مِنَ الْأَذَلِّ إِلَى أَنْ فَقَدَ السِّيفَ رَوْحَهُ فِي يَدِهِ؟

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! لَنْ تُفْلَحُوا^(١) وَهَذَا خَطِيئَتُكُمْ أَلْتَكَلَّمْتُ فِيكُمْ، إِلَّا إِذَا أَفْلَحْتُمْ وَأَنَا سَيِّفُكُمْ الْمَدْفَعُ عَنْكُمْ. أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، غَيِّرُوهُ وَغَيِّرُونِي.

* * *

قَالَ رَاوِي الْخَبَرِ: وَلَمَّا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ مَا^(٢) النَّاسُ إِذْ أُنْبِغَتْ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الشَّبَابِ يَصِيحُونَ بِهِمْ يَسْتَوْقِفُونَهُمْ لِيُخْطِبُوهُمْ؛ ثُمَّ قَامَ أَحَدُهُمْ فَخَطَبَ، فَذَكَرَ فِلَسْطِينَ وَمَا نَزَلَ بِهَا، وَتَغَيَّرَ أَحْوَالُ أَهْلِهَا، وَنَكَبَتْهُمْ وَجِهَادُهُمْ وَأَخْتِلَالَ أَمْرِهِمْ، ثُمَّ أَسْتَنْجَدَ وَأَسْتَعَانَ، وَدَعَا الْمَوْسَرَ^(٣) وَالْمُخَفَّ^(٤) إِلَى الْبَذْلِ وَالتَّبَرُّعِ وَإِقْرَاضِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَتَقَدَّمَ أَصْحَابُهُ بِصِنَادِيقٍ مَخْتُومَةٍ، فَطَافُوا بِهَا عَلَى النَّاسِ يَجْمَعُونَ فِيهَا الْقَلِيلَ وَالْأَقْلَ مِنْ دَارِهِمْ هِيَ فِي هَذِهِ الْحَالِ دَارُهُمْ أَصْحَابُهَا وَضَمَائِرُهُمْ.

قَالَ: وَكَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ قَرَوِيٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْفَلَاحِينَ الَّذِينَ تَعْرِفُ الْخَيْرَ فِي وَجْهِهِمْ، وَالصَّبْرَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَالْقَنَاعَةَ فِي نَفْسِهِمْ، وَالْفَضْلَ فِي سَجَايَاهُمْ؛ إِذْ أَمْتَزَجَتْ بِهِمْ رَوْحُ الطَّبِيعَةِ الْخَصْبَةِ فَتَخْرُجُ مِنْ أَرْضِهِمْ زُرْعًا وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ زُرْعًا أُخْرَى - فَقَالَ لِرَجُلٍ كَانَ مَعَهُ: إِنَّ هَذَا الْخَطِيبَ خَطِيبَ الْمَسْجِدِ قَدْ غَشَّنَا وَهَؤُلَاءِ الشَّبَابُ قَدْ فَضَحَوْهُ؛ فَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ خُطْبَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا فِي أَخْصِ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ: وَنَبَّهَنِي هَذَا الرَّجُلُ السَّادِجُ إِلَى مَعْنَى دَقِيقٍ فِي حِكْمَةِ هَذِهِ الْمَنَابِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَمَا يُرِيدُ الْإِسْلَامُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ كَمَحَطَاتِ الْإِذَاعَةِ، يَلْتَقِطُ كُلُّ مَنْبَرٍ أَخْبَارَ الْجِهَاتِ الْأُخْرَى وَيُذَيِّعُهَا فِي صَيَغَةِ الْخُطَابِ إِلَى الرُّوحِ وَالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، فَتَكُونَ

(٣) المومس: الغني.

(٤) المخف: الفقير.

(١) تفلحوا: تنجحوا.

(٢) ما: ما.

خطبة الجمعة هي الكلمة الأسبوعية في سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع؛ وبهذا لا يجيء الكلام على المنابر إلا حيا بحياة الوقت، فيصبح الخطيب ينتظره الناس في كل جمعة أنتظار الشيء الجديد؛ ومن ثم يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل.

قال: وخيل إلي بعد هذا المعنى أن كل خطيب في هذه المساجد ناقص إلى النصف، لأن السياسة تكرهه أن يخلع إسلاميته الواسعة قبل صعوده المنبر، وألا يصعد إلا في إسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوعظ هو مع ذلك نصف وعظ... فالخطبة في الحقيقة نصف خطبة، أو كأنها أثر خطبة معها أثر سيف...

قال: وأخرج القروي كيسه فعزل منه دراهم وقال: هذه لطعام أتبلغ به ولأوتيتي^(١) إلى البلد، ثم أفرغ الباقي في صناديق الجماعة؛ وأقنتيت أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعت في صناديقهم كل ما معي؛ ولقد حسبت أنه لو بقي لي درهم واحد لمضى يسبني ما دام معي إلى أن يخرج عني.

قال الراوي: ثم دخلت إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن، فإذا هناك رجال من علماء المسلمين، إثنان أو ثلاثة: (الشك في ثالثهم لأنه حليق اللحية). ثم توافي^(٢) إليهم آخرون فتموا سبعة؛ ورأيتهم قد خلطوا بأنفسهم صاحب (اللا لحية)، فعلمت أنه منهم على المذهب الشائع في بعض العصرين من العلماء والقضاة الشرعيين، أحسبهم يحتجون بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ وكل أمرى فإنما تبصره مرآته كيف يظهر في أحسن تقويم، أبلحية أم بلا لحية...؟

وأدزت عيني في وجوههم، فإذا وقار وسمت ونور لم أر منها شيئا في وجه صاحب (اللا لحية)؛ وأنا فما أبصرت قط لحية رجل عالم أو عابد أو فيلسوف أو شاعر أو كاتب أو ذي فن عظيم، إلا ذكرت هذا المعنى الشعري البديع الذي ورد في بعض الأخبار، من أن لله (تعالى) ملائكة يُقسمون: والذي زين بني آدم باللحى.

وكان من السبعة رجل ترك لحيته عافية على طبيعتها؛ فامتدت وعظمت حتى

(٢) توافي: جاء.

(١) أوتيتي: عودتي.

نَشَرَتْ حَوْلَهَا جَوًّا رُوحَانِيًّا مِنْ أَلْهِيَّةٍ تَشْعُرُ الرَّقِيقَةَ بِتَيَّارِهِ عَلَى بُعْدٍ، فَكَانَ هَذَا أُبْلَغَ رَدٍّ عَلَى ذَلِكَ.

قال؛ وَأَنْصَتَ الشَّيْخُ جَمِيعاً إِلَى خُطْبِ الشَّبَّانِ، وَكَانَتْ أَصْوَاتُ هَؤُلَاءِ جَافِيَةً^(١) صُلْبَةً حَتَّى كَانَتْهَا صَخَبٌ^(٢) مَعْرَكَةٌ لَا فَنٌّ خُطَابَةٌ، وَعَلَى قَدَرٍ ضَعْفِ الْمَعْنَى فِي كَلَامِهِمْ قَوِيَّ الْأَصَوْتِ؛ فَهَمَّ يَصْرُخُونَ كَمَا يَصْرُخُ الْمُسْتَغِيثُ فِي صَيْحَاتٍ هَارِبَةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

فَقَالَ أَحَدُ الشَّيْخِ الْفَضْلَاءِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ! جَاءَ فِي الْخَبَرِ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ». وَوَاللَّهِ مَا تَعَسَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا مِنْذُ تَعَبَّدُوا لِهَٰذَيْنِ حِرْصاً وَشُحاً؛ «وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(٣)، وَلَوْ تَعَارَفَتْ أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَوَادِثِ لَمَّا أَنْكَرْتَهُمُ الْحَوَادِثُ.

فَقَالَ آخَرُ: وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ الْفُلْهَانِ»، وَلَكِنْ مَا بَالُ هَؤُلَاءِ الشَّبَّانِ لَا يُورِدُونَ فِي خُطْبِهِمْ أَحَادِيثَ مَعَ أَنَّهَا هِيَ كَلِمَاتُ الْقُلُوبِ؟ فَلَوْ أَنَّهُمْ شَرَحُوا لِلْعَامَةِ هَذَا الْحَدِيثَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ الْفُلْهَانِ» لَأَسْرَعَ الْعَامَّةُ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ.

قَالَ الْثَالِثُ: وَلَكِنْ جَاءَنَا الْأَثَرُ فِي وَصْفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: «إِنَّهَا فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ يَتَعَلَّمُ صِغَارُهَا مِنْ كِبَارِهَا، فَإِذَا كَانَ آخِرُ الزَّمَانِ تَعَلَّمَ كِبَارُهُمْ مِنْ صِغَارِهِمْ». فَنَحْنُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَقَدْ سُلِّطَ الصِّغَارُ عَلَى الْكِبَارِ يُرِيدُونَ أَنْ يَنْقُلُوهُمْ عَنْ طِبَاعِهِمْ إِلَى صِبْيَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ.

قَالَ الرَّاوي: فَقُلْتُ لِصَدِيقٍ مَعِيَ: قُلْ لِهَذَا الشَّيْخِ: لَيْسَ مَعْنَى الْأَثَرِ مَا فَهَمْتُ، بَلْ تَأْوِيلُهُ أَنَّ آخِرَ الزَّمَانِ سَيَكُونُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ زَمَنُ جِهَادٍ وَأَقْتِحَامٍ، وَعَزِيمَةٍ وَمُغَالَبَةٍ عَلَى اسْتِقْلَالِ الْحَيَاةِ؛ فَلَا يَصْلُحُ لِرِوَايَةِ الْأُمَّةِ إِلَّا شَبَابُهَا الْمُتَعَلِّمُ الْقَوِيُّ الْجَرِيءُ، كَمَا نَرَى فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ، فَيَنْزِلُونَ مِنَ الْكِبَارِ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ؛ إِذْ تَكُونُ الْحِمَاسَةُ مُتِمَّةً لِقُوَّةِ الْعِلْمِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «أَمَّتِي كَالْمَطَرِ: لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ».

قَالَ الرَّاوي: وَلَمْ يَكِدِ الصَّدِيقُ يَحْفَظْ عَنِّي هَذَا الْكَلَامَ وَيَهْمُ بِتَبْلِيغِهِ، حَتَّى

(١) جافية: قاسية صلبة.

(٢) صخب: ضجيج.

(٣) شح: بخل.

وقعت الصيحة في المكان؛ فجاء أحد الخطباء ووقف يفعل ما يفعله الرعد: لا يكرز إلا زمجرة واحدة؛ وكان الشيوخ الأجلاء قد سمعوا كل ما قيل، فأطرقوا يسمعون مرة رابعة أو خامسة؛ وفرغ الشباب من هديره فتحوّل إليهم وجلس بين أيديهم متأذّباً متخشعاً ووضع الصندوق المختوم.

فقال أحد الشيوخ: لم يخف علينا مكانك، وقد بذلتم ما أستطعتم؛ فبارك الله فيك وفي أصحابك.

وسكت الشاب، وسكت الشيوخ، وسكت الصندوق أيضاً...

ثم تحرّكت النفس بوخي الحالة؛ فمدّ أولهم يده إلى جيبه، ثم دسها فيه، ثم عيّن^(١) فيه قليلاً؛ ثم... أخرج الساعة ينظر فيها.

وانتقلت العدوى إلى الباقين، فأخرج أحدهم منديله يتمخّط فيه، وظهرت في يد الثالث شحنة طويلة، وأخرج الرابع سواكاً فمرّ به على أسنانه، وجرّ الخامس كراسة كانت في قبائه، ومدّ صاحب اللحية العريضة أصابعه إلى لحيته يخللها؛ أما السابع صاحب (اللاحية)، فثبت يده في جيبه ولم تخرج، كأن فيها شيئاً يستحي إذا هو أظهره، أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة.

وسكت الشاب، وسكت الشيوخ، وسكت الصندوق أيضاً...

قال الراوي: ونظرْتُ فإذا وجوههم قد لبست للشباب هيئة المدرّس الذي يُقرّر لتلميذه قاعدة قرّرها من قبل ألف مرة لألف تلميذ؛ فحجل الشاب وحمل صندوقه ومضى...

أقول أنا: فلما أنتهى الراوي من (قصة الأيدي المتوضئة)، قلت له: لعلك أيها الراوي استيقظت من الحلم قبل أن يملأ الشيوخ الأجلاء هذا الصندوق، وما ختم عقلك هذه الرواية بهذا الفصل إلا بما كدّدت^(٢) فيه ذهنك من فلسفة تحوّل السيف إلى خشبة؛ ولو قد امتدّ بك النوم لسمعت أحدهم يقول لسايرهم: بمن ينهض إخواننا المجاهدون وبمن يصلون؟ لهذا قال رسول الله ﷺ: «جاهل سخّي^(٣) أحب إلى الله من عالم بخيل». ثم يملئون الصندوق....

(١) عيّن فيه قليلاً: أي بحث بأصبعه.

(٢) كدّدت: اتعبت.

(٣) سخّي: كريم.

نجوى التمثال

أَيْهَا الْمَفْتَرِشُ الصَّخْرَةَ يَشُدُّ ذِرَاعِيهِ أَقْوَى الْأَشْدِّ كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَعَ الصَّخْرَةَ فِيهِمَا،

مُتَنَاهِضاً بِصَدْرِهِ^(١) لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ وَإِنْ رَبَضَ فَإِنَّ الْوَثْبَةَ فِي يَدَيْهِ، مُتَمَطِّياً^(٢) بِضُلْبِهِ لِيُشِيرَ مِنْ جِسْمِهِ الْهَادِيءِ إِلَى مَعَانِيهِ الْمَفْتَرِسَةِ، مُقْعِياً عَلَى ذَنْبِهِ^(٣) وَمَتَحَفِزاً بِسَائِرِهِ كَأَنَّهُ قُوَّةٌ أُنْدِفَاعٍ تَهْمُ أَنْ تَنْفِلَتْ مِنْ جَاذِبَةِ الْأَرْضِ.

وَأَنْتِ أَيُّهَا الْهَيْفَاءُ^(٤) تَمَثِّلُ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمَتَمَدِّنَةَ فِي نَحَافَتِهَا وَهِيَ كَهَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ ضَارِبَةٌ بِذِرَاعِي أَسَدٍ فِي غِلْظٍ مِذْفَعِينَ

حَكِيمَةٌ فِي النَّظَرِ كَأَنَّمَا تَمُدُّ فِي سَرَائِرِ الْأُمَمِ نَظْرَةَ الْمَتَأَمِّلِ، وَلَكِنَّ يَدَهَا كَيِّدِ الْحِكْمَةِ السِّيَاسِيَّةِ عَلَى تَرْكِيبِ عَقْلِي تَحْتَهُ الْمَخَالِبُ . . .

سَاكِنَةٌ كَأَنَّهَا تَمَثِّلُ السَّلَامَ عَلَى أَنَّهَا فِي جَوَارِ الْأَسَدِ كَالسَّلَامِ بَيْنَ الشُّعُوبِ: تَلْمَحُ فِيهِ إِنْسَانُ الْعَالَمِ وَوَحْشُ الْعَالَمِ . . . يَا أَبَا الْهَوْلِ.

أَنْتِ جَوَابٌ عَنْ ذَلِكَ اللَّغْزِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ كَلَامٌ لَا يَتَكَلَّمُ وَسَكُوتٌ لَا يَسْكُتُ.

وَالَّذِي أَشَارَ بِرَأْسِ الْإِنْسَانِ عَلَى جِسْمِ اللَّيْثِ^(٥) أَنَّهُ قُوَّةٌ عَمِيَاءُ كَالضَّرُورَةِ وَلَكِنَّهَا مُبْصِرَةٌ كَالْإِخْتِيَارِ.

وَالَّذِي أَخْرَجَ مِنْ قَتْنِي الْغَرِيزَةِ وَالْعَقْلِ فَنَّا ثَالِثاً لَا يَزَالُ فِي الْأَرْضِ يَنْتَظِرُ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَلِدُ إِنْسَاناً عِظَامُهُ مِنَ الْحَجَرِ؟

(١) متناهضاً بصدرة: مرتفعاً.

(٢) متمطياً: متمدداً، وذلك بعد النوم.

(٤) الهيفاء: الفتاة الممتشقة الطول.

(٥) الليث: الأسد.

(٣) مقعياً على ذنبه: جالساً.

وَأَنْتِ يَا مِصْرَ:

أَوَاقِفَةُ ثَمَّةٍ لِلشَّرْحِ وَالتَّفْسِيرِ، تَقُولِينَ لِلْمِصْرِيِّ: إِنَّ أَجْدَاذَكَ يَسْأَلُونَكَ مِنْ
آلَافِ الْسِّنِينَ بِهَذَا الرَّمْزِ: أَلَا مَعْجَزَةٌ مِنَ الْقُوَّةِ تَمْطُ عُضَلَاتِ الْحَجَرِ؟
أَلَا بَسْطَةٌ^(١) مِنْ الْعِلْمِ تَجْعَلُكَ أَيُّهَا الْمِصْرِيُّ وَكَأَنَّكَ رَأْسُ لِحْجَمِ الطَّبِيعَةِ؟ أَلَا فَنٌّ
جَدِيدٌ تَرْفَعُ بِهِ أَبَا الْهَوْلِ فِي الْجَوْ فَتَزِيدُهُ عَلَى قُوَّةِ الْوَحْشِ وَذِكَاةِ الْإِنْسَانِ خِفَّةَ الطَّيْرِ؟
أَمْ تَقُولِينَ لِلْمِصْرِيِّ: إِنَّ أَجْدَاذَكَ يُوصُونَكَ بِهَذَا الرَّمْزِ أَنْ تَكُونَ كَالظَّهْرِ
الْأَسَدِيِّ لَا يُرْكَبُ مَطَاةً، وَكَالرَّأْسِ الْإِنْسَانِيِّ لَا تُقَيَّدُ حَرِيئَةً، وَكَالرَّبْصَةِ الْجَبَلِيَّةِ لَا
تَسْهَلُ إِزَاحَتُهَا، وَكَالْإِبْهَامِ الْمُرْكَبِ مِنْ غَامِضَيْنِ لَا يَتَيَسَّرُ بِهِ عَبَثُ الْعَابِثِ،
وَكَالْصَّرَاحَةِ الْمَجْتَمِعَةِ مِنْ عُنْصُرٍ وَاحِدٍ لَا يَغْلُطُ فِي حَقِيقَتِهَا أَحَدٌ؟
أَمْ تَقُولِينَ يَا مِصْرَ: إِنَّ تَفْسِيرَ أَبِي الْهَوْلِ الْأَوَّلِ أَنَّ النِّهْضَةَ الْمِصْرِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ
يَوْمَ تُخْرِجُ الْبِلَادَ مَنْ يَصْنَعُ أَبَا الْهَوْلِ الثَّانِي؟

تَمَثَّالُ النِّهْضَةِ أَمْ صَفْحَةٌ مِنَ الْحَجَرِ قَدْ صَوَّرَ الشَّعْبُ عَلَيْهَا، وَدَوَّنَ فِيهَا
إِحْسَاسَهُ بِتَارِيخِهِ، وَوَصَفَ بِهَا إِدْرَاكَهُ حَيَاةَ الْمَعَانِي الْأَسَامِيَةِ؟
أَمْ هُوَ كِتَابَةٌ فَصَلٍ مِنَ التَّارِيخِ بِقَلَمِ الْحَيَاةِ وَعَلَى طَرِيقَةٍ مِنْ بِلَاغَتِهَا، خَشِيتَ
عَلَيْهِ أَلْفَنَاءَ فَدَوْنَتَهُ فِي أَسْلُوبٍ مِنْ أَسَالِيبِ الْبَقَاءِ الْحَجَرِيِّ الصُّلْدِ؟
أَمْ ذَاكَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الْأُمَّةِ أَحَالَهُ الْفَنُّ مِنْ زَمَنِ إِلَى مَادَةٍ؛ وَمِنْ مَعْنَى إِلَى
حَسٍّ، وَمِنْ خَبَرٍ إِلَى مَنْظَرٍ، وَكَانُوا يَتَكَلَّمُونَ عَنْهُ فَجَعَلَهُ الْفَنُّ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ؟
أَمْ هُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي خَلَقَتْهَا نَفُوسُ هَذَا الْجِيلِ تُخَاطَبُ بِهِ
الْأَنفُوسُ الْآتِيَةُ لِتُتِمَّ عَلَيْهَا، وَتُضَيَّفَ فِيهِ إِلَى الْمَعْنَى سِرُّ الْمَعْنَى، وَتَضَعُ الْكَلِمَةُ
الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى لِسَانِ الطَّبِيعَةِ تَتَكَلَّمُ بِالتَّمَثَّالِ كَمَا تَتَكَلَّمُ بِالْجِيلِ؟
أَمْ تَرْكِيبٌ سِيَاسِيٌّ إِذَا فَسَّرْتَهُ أَلْفَةً كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ الثَّابِتَ إِذَا أَحْتَاجَ إِلَى مَنْ
يُثَبِّتُهُ... فَلَنْ يَمَحُوهُ مَنْ يُنْكِرُهُ، وَأَنَّ الظَّاهِرَ إِنْ أَحْتَاجَ إِلَى مَنْ يَدُلُّ عَلَيْهِ... فَلَنْ
يُخْفِيَهُ مَنْ لَا يَرَاهُ؟

(١) بسطة: سعة.

بل أراك لا هول^(١) فيك يا أبا الهول الجديد.

أفذاك من رقة داخلتك ورحمة جاءتك من مس يد المرأة...؟
أم الهول اليوم قد أصبح في العقل والعاطفة ومد العين النسائية إلى بعيد...؟

أم لا يتم في هذه المدينة رأس رجل وجسم سبع إلا... إلا بأنامل امرأة؟
ألا من يعلمني أهذه المرأة منك هي تهذيب للإنسان والوحش أم تكملة عليهما؟

ألا من يأتيني بالحكمة فيك من وضع الرجل القوي رأساً ولا جسم، والأسد المفترس جسماً ولا رأس، ثم لا يكمل دونهما إلا المرأة وحدها.
إنما كنت يا أبا الهول لغز ألصمت، فلما أضيقت المرأة إليك أصبحت لغز أنطقي... فيا للهول!

(١) هول: قوة.

فاتحُ الجوّ المصري

يا طيرَ المثلِ الأعلى!

لقدِ انْفَلَتَ^(١) من رذيلةِ الخوفِ وتركتُها في الترابِ مَوْطِئاً الْقَدَمَ، وقلْتُ لها: ويحك، لقد آنَ لِلشَّبابِ المصريِّ؛ فهو مُغَامِسٌ^(٢) في ماءِ الصَّواعقِ^(٣)، مُتَطَوِّحٌ^(٤) في اللَّجَّةِ الْأَزَلِيَّةِ^(٥) التي تغوصُ فيها الكواكبُ^(٦)، يطيرُ بروحِ الشَّرارةِ، وَيَهْبِطُ بروحِ الغيثِ^(٧)، وَيُلْجِمُ^(٨) الْجَوَّ وَيُسْرِجُهُ^(٩)، ويتعلَّمُ كيفَ يَشْوِي عدوّه في عَيْنِ الشَّمْسِ.

وكنْتَ بطلاً مُغامراً فخطوتُ في طريقِ الملائكةِ بهذهِ الْفَضِيلَةِ وحملَكَ الْجَوَّ؛ ولو أَنَّكَ خِفْتَ وكنْتَ على جَنَاحَيْ جَبْرِيلَ لا على طيَّارةٍ، لَخَافَ جَبْرِيلُ على جَنَاحَيْهِ من حَظْمَةِ هذا الْمَعْنَى الترابيِّ الطاغيةِ الَّذِي يَحْكُمُ على الْأَحْيَاءِ بِالْمَوْتِ بلا موتٍ، لِأَنَّهُ الْأَذَلُّ وَالْخَضُوعُ وَالرَّذِيلَةُ.

وحملَكَ الْجَوَّ إلى قُبَّةِ السَّمَاءِ، وهنالكَ نَظَرَ الْعَالَمُ فرأى لِمِصْرَ النَاهِضَةِ عَلِمَهَا الْإِنْسَانِيُّ يَتَنَفَّسُ تحتَ الْكَوَاكِبِ.

وحملَكَ الْجَوَّ إلينا، فلَمَّا رَفَعْنَا رُؤُوسَنَا لِإِثْرِكَ، رَفَعْنَاهَا في الْوَقْتِ بينِ شُعُوبِ الْأَرْضِ.

وَضَرَبْتُ يا جَنَاحَ مِصْرَ في الْهَوَاءِ، وَأَعْتَانُ السَّمَاءِ^(١٠) مَمْلُوءَةً بِالزُّعْزَعِ^(١١) وَالْهَوَجَاءِ وَالْعَاصِفِ، وَالسَّمَاءُ في فَصْلِهَا الْمَكْفُوهِ الَّذِي تَخْلُعُ فِيهِ كُلُّ سَاعَةٍ وَتَلْبَسُ

(١) انفلت: تخلصت.

(٧) الغيث: المطر.

(٢) مغامس: مبلل.

(٨) يلجم: يضع اللجام للحصان.

(٣) تلك كناية عن السحاب.

(٩) يسرجه: يضع السرج للحصان.

(٤) متطوح: متمائل في كل اتجاه.

(١٠) أعنان، مفردة عنان، بالفتح: نواحيها.

(٥) اللجة الأزلية: السماء.

(١١) الزعزع: تردد الصوت كالجلجلة.

(٦) تلك كناية عن أجواز الفضاء.

وَتَمَرَّقُ^(١) وَتَطْوِي، فَرِذْتَ بِجُرْأَتِكَ فِي بُرَاهِينِ الْقَضِيَّةِ الْمَصْرِئَةِ بِرَهَانِ قُوَّةِ
الْمُخَاطَرَةِ، وَأَضَفْتَ إِلَى مَنْطِقِهَا وَضْعاً جَدِيداً مُفْجِئاً مِنْ رُوحِ التَّضْحِيَةِ.

وِطَرْتَ بَيْنَ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ فَجَعَلْتَهُمَا يَسْتَوِيَانِ فِي اعْتِقَادِكَ؛ إِذْ وَصَلْتَ فِكْرَةَ
الْمَوْتِ بِسَرِّ الْإِيمَانِ، وَالْحَيَاةِ بِسَرِّ الْعَزِيمَةِ.

وَكُنْتَ رَجُلَ أَمْتِكَ بِإِنْكَارِ ذَاتِ نَفْسِكَ مِنْ أَجْلِهَا.

وَأَتَسَعْتَ لِلتَّارِيخِ بِوَضْعِكَ عُمُرَكَ الْمَحْدُودَ عَلَى الطَّيَّارَةِ، وَقَدَفِكَ بِهَا وَبِهِ فِي
مَسْنَحِ الْأَجْلِ.

وَتَجَرَّدْتَ لِلْأَبَدِيَّةِ لِتُعْطِيَ بِلَادَكَ: إِمَّا شَهِيدَ مَجْدٍ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا شَهِادَةَ فَخْرٍ
فِي الدُّنْيَا.

وَكُنْتَ عَلَى طَيَّارَتِكَ الصَّغِيرَةِ الْمُتَطَارِدَةِ تَحْتَ أَلْرِيحِ، وَحَوْلَكَ رُوحُ الْهَرَمِ
الْأَكْبَرِ الْقَائِمِ بِإِرَادَةِ مِصْرَ وَكَأَنَّهُ مِسْمَارٌ مَدْقُوقٌ فِي كُرَّةِ الْأَرْضِ بَيْنَ الْقُطْبِ وَالْقُطْبِ.

وَأَنْتِ يَا «فَائِزَةٌ» يَا هَذِهِ الصَّغِيرَةُ الْخَارِجَةُ مِنْ مَالِ صَاحِبِهَا وَجُهِدِهِ وَعَزِيمَتِهِ
كَمَا تَخْرُجُ الْقُوَّةُ مِنْ ضَعْفٍ، أَعْلَمْتِ إِذْ أَنْتِ تَرْتَفِعِينَ وَتَهْبِطِينَ بَيْنَ السَّحَابِ كَمَا
تَتَوَائِبُ الْفَرَّاشَةُ عَلَى الْنَوَّارِ فِي رَوْضَةِ مُزْهَرَةٍ، وَإِذْ أَنْتِ تَفْتَقِينَ وَتُحَوِّكِينَ فِي مَلَاءَةِ
السَّحَابِ كَأَنَّكَ بِمَحَرِّ كِكِ الدَّوَّارِ تَنْسُجِينَ فِي السَّمَاءِ بِمَغْزَلٍ، وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ صَفْقِ
أَلْرِيَّاحِ الْهُوجِ^(٢)، تَحْتَ السَّمَاءِ الْمُدْجَّجَةِ^(٣)، فِي كُبَّةِ الشِّتَاءِ^(٤)، كَأَنَّكَ مُنَاطِرَةٌ
تَجْرِي بَيْنَ الْعَزِيمَةِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْعَزِيمَةِ فِي الطَّبِيعَةِ، وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ ذُنَابِ الْأَعَاصِيرِ،
وَنُومِرِ السَّحَابِ^(٥) وَسِبَاعِ الْغَيْمِ ذَوَاتِ اللَّبْدَةِ الْكَثِيفَةِ الْمُتَشَعِّعَةِ، كَأَنَّكَ بِصَوْتِكَ
وَأَزِيرِكَ تُطْلِقِينَ عَلَى وَحْشِ الْجَوِّ مِدْفَعاً رَشَاشاً يَتْرُكُهَا صَرَغِي،

وَإِذْ تَرَاكِ أَلْرِيحُ فَتَقُولُ عَنْكَ: رِيحٌ صَنَعَهَا الْإِنْسَانُ. وَيَرَاكِ النُّجْمُ فَيَقُولُ: نَجْمٌ
أَفْلَتَ مِنَ النُّظَامِ الْأَرْضِيِّ. وَتَرَاكِ الْمَلَانِكَةُ فَتَقُولُ: وَيَحْكُ يَا أَبْنَى آدَمَ، كَأَنَّكَ بِمَا

(١) كِتَابَةُ عَنِ الْمَطَرِ وَطَبِيعَةِ الشِّتَاءِ.

(٢) الْهُوجُ، مَفْرُودُهُ هُوجَاءٌ أَيْ الْمَجْنُونَةُ الَّتِي لَا تَسْتَقِرُّ وَلَا تَهْدَأُ.

(٣) الْمُدْجَّجَةُ: الْمَفْعَمَةُ.

(٤) كُبَّةُ الشِّتَاءِ: عَنَفُهُ وَغَزَارَتُهُ.

(٥) السَّحَابُ: الْغَيْمُ.

خَلَقَهُ الْعَقْلُ تَطْمَعُ مِثًا فِي سَجْدَةٍ أُخْرَى كَالَّتِي سَجَدْنَاهَا لِآدَمَ يَوْمَ خَلَقَهُ اللَّهُ . . . أَعْلَمْتِ إِذْ أَنْتِ كَذَلِكَ يَا «فَائِزَةُ»، أَنَّ التَّارِيخَ الْمَصْرِيَّ سَيَحْوِلُكَ مِنْ طَيَّارَةٍ إِلَى آيَةٍ كَايَةِ بَدْءِ الْخَلْقِ، لِأَنَّ فِيكَ بَدْءَ الطَّيْرَانِ فِي مِصْرَ؟

سلاماً يا فاتحَ الْجَوِّ الْمَصْرِي . لقد أَجَالَتْ الْأَيَّامُ قِدَاحَهَا^(١) فخرَجْتَ الْقُرْعَةَ عَلَيْكَ، وَأَوْحَى إِلَيْكَ الْوَاجِبُ آيَةً: بِسْمِ اللَّهِ مَضَعُهَا وَمَجْرَاهَا . وطرِزْتَ فإذا أَنْتِ بِهَا عَابِرٌ فَوْقَ الْحَاضِرِ لِتَجِيئَنَا مِنْ جَانِبِ الْمُسْتَقْبَلِ . وهبْطْتَ عَلَيْنَا كَأَنَّكَ فِي بَرِيدِ السَّمَاءِ كَتَابٌ مَجْدٍ حَيٍّ لِلْوَطَنِيَّةِ الْظَافِرَةِ . بل كِتَابٌ قِصَّةٌ رَائِعَةٌ أَلْفَتْهَا الْعَوَاصِفُ مِنْ فُتَيْنِ: ثَوْرَةُ الْجَوِّ وَثَوْرَةُ نَفْسِكَ الْمَصْرِيَّةِ . وَحَكَّتْهَا فِي صَوْتَيْنِ: رَفِيفِ الطَّيَّارَةِ وَصُرْخَةِ ضَمِيرِكَ الْوَطَنِيِّ . وجعلَتْهَا فَصْلَيْنِ: أَنْتِ وَالْمَجْهُولُ . أَلَا حَسْبُكَ مَجْدًا أَنْ يَحْيَا الشَّعْبُ كُلُّهُ بَضْعَةَ أَيَّامٍ فِي قِصَّتِكَ!

فعلى مَهْدِ الْجَوِّ، وفي حَرِيرِ الشَّعَاعِ، وَتَحْتَ كِلَةِ السَّحَابِ .. وُلِدَ لِمِصْرَ يَوْمٌ تَارِيخِي . وخرَجْتَ الْكُتَيْبَانِيَّةَ الَّتِي طَالَ احْتِبَاسُهَا^(٢) فِي الْقُلُوبِ الْمَصْرِيَّةِ لَا يُفْرَجُ عَنْهَا لِأَنَّ سَجَانَهَا ظَلَمَ السِّيَاسَةَ . وَأَتَجَهَّتْ أَفْرَاحُ شَعْبٍ كَامِلٍ إِلَى الْفَتَى الْجَرِيءِ الَّذِي رَمَتْ بِهِ هِمَّتُهُ فَوْقَ هَاوِيَةِ الْمَوْتِ فَتَخَطَّاهَا . وتَلَقَّى شَعُورُ الْأُمَّةِ رِسُولَهُ الْمِقْدَامَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ مُلْجَأٌ فِي خِطَابِهِ إِلَّا شَعُورُهُ بِهِذِهِ الْأُمَّةِ . وَأَرْتَجُّ الْوَادِي كُلَّهُ كَأَنَّهُ غِمْدٌ يَتَقَلَّقُ حِينَ يُسَلُّ مِنْهُ السَّيْفُ . ثُمَّ أُهْدِيَتْ كَلِمَةُ مِصْرَ لِابْنِهَا الَّذِي كَتَبَ فِي جَوْهَا الْكَلِمَةَ السَّمَاوِيَّةَ الْأُولَى . وَكَانَتْ سَاعَةً تَلَاشَى عَنْهَا الزَّمَنُ فَأَرْتَفَعَتْ مِنْهُ أَرْبَعَةُ آلَافِ سَنَةٍ وَهَتَفَ مَعَهَا الْفَرَاعَتَةُ: بَوْرُكْتُ يَا «صَدِيقِي»!

(١) قِدَاحُهَا: كَاسُهَا لِتَقْرَعَ فِيهَا عَلَى طَرِيقَةِ الْجَاهِلِيَّةِ . (٢) احْتِبَاسُهَا: سَجْنُهَا .

لِلَّهِ دُرُّكَ أَيُّمَا أَبْنِ عَزِيمَةٍ ! كَأَنَّمَا كَشَفْتَ أَهَآوِيلَ الْوُخْيِ وَهَبَطْتَ فِي سَحَابَةٍ
مُجَلِّجَةٍ إِنْ لَمْ تَحْمِلْ كِتَابًا مُتَزَلًّا فَكَأَنَّمَا حَمَلْتَ شَخْصًا مُتَزَلًّا .
وَلَعَلَّكَ رَسُولُ الْغَيْمِ الْعَابِسِ لِهَذَا الْجَوِّ الْمَصْرِئِ الَّذِي يَضْحَكُ دَائِمًا ضَحْكَةً
الْفِيلَسُوفِ السَّاحِرِ فِي حِينٍ أَصْبَحَتِ الْحَيَاءُ قُوَّةً لَا فِلْسَفَةَ . . .
وَلَعَلَّكَ مَبْعُوثُ الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ لِهَذَا السَّكُونِ النَّائِمِ الَّذِي يَطْوِي كُلَّ يَوْمٍ فِي طَيِّ
النَّسْيَانِ مَا حَدَّثَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي قَبْلَهُ . . .
وَلَعَلَّكَ نَبِيُّ الْجَدْيَةِ وَالْمَرَارَةِ لِهَذِهِ الْحَلَاوَةِ الْنِيلِيَّةِ الْمُفْرِطَةِ الَّتِي كَادَ مِنْهَا
الشَّعْبُ أَنْ يَكُونَ سُكَّرَ أَخْلَاقٍ يُذَابُ وَيُشْرَبُ . . .
وَلَعَلَّكَ تَفْسِيرُ مَصْحُحِ لِعَقِيدَتِنَا الْمَغْلُوطَةِ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، أَنَّ الْقَضَاءُ أَنْ
تُقَدِّمَ بِلَا خَوْفٍ ، وَأَنَّ الْقَدَرَ أَنْ تَتَّقَ بِلَا مُبَالَاهُ .
أَمَّا - وَاللَّهِ - لَقَدْ غَمَزْتَ الشَّعْبَ بِمَوْجَةِ هَوَاءٍ جَدِيدَةٍ جِئْتَ بِهَا فِي جَنَاحَيْكَ ،
وَنَفَخْتَ رُوحَ طَيَّارَتِكَ الْمَجِيدَةِ فِي الْقُلُوبِ فَجَعَلْتَهَا كُلُّهَا تَرْفِرُفُ كَأَنَّ لَكَ فِي ضُلُوعِ
كُلِّ مِصْرِيٍّ طَيَّارَةً .

أجنحة المدافع المصرية

إِسْتَجْنَحِي^(١) يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي، إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرْقِي. لَقَدْ مَدَّتْ لُغَةُ الْقُوَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَدَّهَا حَتَّى أَصْبَحَ الطَّيْرَانُ بَعْضَ مَعَانِي الْمَشْيِ، وَلَمْ يَعِدِ الْعَالَمُ يَدْرِي كَيْفَ تَكُونُ الصُّورَةُ الْآخِرَةُ الَّتِي يَسْتَقَرُّ فِيهَا مَعْنَى إِنْسَانِهِ.

فَلْتَتَمَجَّدْ مِصْرُ بِإِنْسَانِهَا الْبَرْقِيِّ الَّذِي تَخْرُجُ النَّارُ بِيَدِهِ مِنْ أَغْرَاضِ السَّحَابِ، وَتُفَرِّقُ فِي أَصَابِعِهِ هَزَاتِ الرَّعْدِ، وَيَجْعَلُ فِي قُبَّةِ السَّمَاءِ صَلَصَلَةً وَجَلْجَلَةً، وَيَحْمِلُ الْأَسْمَ الْمِصْرِيَّ إِلَى مُعَلَّقِ النَّجْمِ، فَيَضَعُ لَهُ هُنَاكَ التَّعْرِيفَ النَّارِيَّ الَّذِي وَضَعْتَهُ الْكَوَلُ الْعَظَمَى لِأَسْمَائِهَا.

وَلْتَتَمَجَّدْ مِصْرُ بِإِنْسَانِهَا الْبَرْقِيِّ الَّذِي يُشْعِرُهَا حَقِيقَةَ الْعُلُوِّ الْعَالِي، وَالْعُمُقِ الْعَمِيقِ، وَالسَّعَةِ الَّتِي لَا تُحْدُ؛ وَيَزِيدُ فِي مَعَانِي أَحْيَانًا مَعْنَى جَدِيدًا لِأَحْيَاءِ الشُّحْبِ، وَفِي مَعَانِي أُمُوتِنَا مَعْنَى جَدِيدًا لِمُوتَى الْكَوَاكِبِ.

إِنْسَانٌ بَرْقِيٌّ يُتَمَّمُ بِشَجَاعَتِهِ فِي السَّمَاءِ بِطَوْلَةٍ فَلَا جُنَا لِلْإِنْسَانِ الشَّمْسِيِّ فِي الْأَرْضِ، وَيَعْلُو بِكِبْرِيَاءِ مِصْرَ فِي ذُرُوءِ الْعَالَمِ، فَتَظْهَرُ طَيَّارَاتُهَا الْعَظِيمَةُ قُدْرَةً فِي الْجَوِّ كَمَا ظَهَرَتْ آثَارُهَا الْعَظِيمَةُ قُدْرَةً فِي الثَّرَى.

إِنَّهَا مِصْرُ، مِصْرُ الْقَادَرَةِ الَّتِي سَجَرَتِ الْقِدَمَ بِقُوَّتِهَا وَفَتْهَا، فَبَقِيَ فِيهَا عَلَى حَالِهِ وَجَلَالَتِهِ، وَأَنْهَزَمَ الْدَهْرُ عَنْهُ كَأَنَّهُ قُوَّةٌ عَلَى قُوَّةِ الزَّمَنِ نَفْسُهَا.

فَاسْتَجْنَحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي. إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرْقِي.

وَلَمَّا فُتِحَ السَّجَلُ ذَاتَ صَبَاحٍ لِيَكْتُبَ مِصْرُ أَسْمَاءَ الْفَوْجِ الْأَوَّلِ مِنْ نُسُورِهَا الْحَرْبِيِّينَ، صَاحَ مَجْدُهَا الْخَالِدُ مِنْ أَعْمَاقِ التَّارِيخِ:

«أَضْرَمِي الشَّمْلَةَ الْآدَمِيَّةَ الْأُولَى يَا مِصْرُ، وَأَفْتَحِي الْقَبْرَ الْجَوِّيَّ الْأَوَّلَ، وَالْجِدِي

(١) استجنجي: اجعلي لنفسك جناحين.

فيه من عنصريك المسلمين والأقباط، وضعي الحياة في أساس الحياة، وأستقبلي عصرك الجديد بأذان المسجد ودق الناقوس ليباركه الله، وليتلق الشعب أول طياريه بقلوب فيها روح المعركة، وأكباد عرفت من النار؛ ولا ينظرن إلى طياراته الأول إلا بعد أن ينظرن الأنعشين فيرى مجد الموت في سبيل الوطن، فتسطع نظراته ببريق الكبرياء، ولمعة العزيمة، وشعاع الإيمان؛ ويأتلق فيها النور السماوي الذي يجعل الناس في بعض ساعاتهم كواكب، نور صلاة الشعب على موتاه الشهداء».

وأستجاب القدر لصوت المجد، فالتج^(١) الظلام في وضح الصبح، وأنطفأ سراج في النهار قبة الفلك، وأطبقت نواحي الجو إطباق ليلة تساقطت أركانها وأقبل الضباب يعترض اعتراض جبل عائم يتذبذب^(٢) في بحر، وأستأرض^(٣) السحاب فتخلّى عن طبيعته السماوية الرقيقة، وتذامرت^(٤) العناصر على القتال يحض^(٥) بعضها بعضاً، وتغشت^(٦) السماء بوجه الموت: كلع فازيد^(٧) وأنتفخ، وتكسرت فيه العضون كل غضن كسفة ظلام، وعاد أوسع شيء أضيق شيء، فكان الفضاء كصدر المحتضر: ليس معه إلا عمر ساعة وأنفاسها.

وابتدرت إلى مجد الموت الطيارة المصرية الأولى؛ وكان فيها إنكليزيان يقودانها فأباهما الموت، فذهبت فانتحرت أسفا وتردت متحطمة، وأنسل الرجال من مخالب الردي^(٨)، وكانا في الطيارة كورقتين من الثبت في قم جرادة همت تفضمها...

وتستبق الثانية فإذا فيها وديعة الكرم من عنصري مصر: «حجاج ودوس» وكان سرًا من أسرار مصر اجتماعهما في مداخض الغمام ومزاليقه، ليكونا هدية مصر الأولى إلى مجدها الحربي، ثم ليكونا هدية المجد إلى إحساس هذا الشعب يحس منهما العالم المنطوي له في مستقبل النصر.

واعتسفت^(٩) طيارة الشهيد طريق الفناء ومثاه^(١٠) الحياة، فذهبت عنها

(١) التج: أصبح لجة. (٦) تغشت: تغطت.

(٢) يتذبذب: يتردد لوجوده في الهواء، ويتحرك. (٧) اريد: تلبد.

(٣) استأرض: تحول إلى أرض. (٨) الردي: الموت.

(٩) اعتسفت: مالت وخطت على غير هداية. (١٠) مثاه: صعوبة الحياة ومتطلباتها.

(٥) يحض: يحث.

معارق الأرض، وعميت عليها معالم السماء، وخرجت من تصريف أيدي
البطلين إلى تصريف أجليهما، وأصبحت كأنها تطير في الأنفاس الباقية لهما؛
فما تتقدم ولا تتأخر؛ ولم تكن طيارة تحملهما، بل جناحاً ممدوداً لهما من
رحمة الله.

ثم أجترها الموت إلى غور، فأنحطت من الهوائ جانحة كالطائر يطلب ملجأ
في العاصفة، ثم انتفضت واثبة، وتمطرت منقيلة، فاشتعلت فاستعرت فأنضجت
راكبها، رحمهما الله!

وكثيراً ما يكون منظر الحزن في الحياة هو أنهماك الحياة في عمل جديد تبدع
منه السروز والقوة. أحترق البطلان ليتسلم مصر في نعيهما رماداً لن يبنى تاريخ
العزة الوطنية إلا به.

فاستجني يا مدافع مصر وطيري. إن المجد يطلب منا إنسانه البرقي.

صنعت النار الأدمية الحقيقية، ووضعت لنا الاسم البديع الذي نطلقه على
طيارينا الأبطال، فلا تسموهم نُسور الجوّ، ولكن سموهم «جمرات الجوّ».

صنعت نارنا الحقيقية، وأوحى إلينا أن نستبدل من أنفسنا حالة بحالة، وأن
نفاجيء شعورنا الحالِم فصدمة بالأم اليقظة المرة، وأن نغير قاعدة الحياة في التريبة
المصرية فلا تكون: العيش العيش، ولكن القوة القوة.

صنعت النار الحقيقية، وأثبتت لنا أن الحياة إن هي إلا أداة للحَي، وليس
الحَي أداة للحياة، فليتصرف بها على قوانين الروح وأمالها فيسمو وتسمو، ولا
يدعها تتصرف على مذاهب أقدار المادة وتصاريفها فيذلها وتذلّه. وفي قانون
الروح: لا قيمة للعالم الأشياء إلا كما تصلح لنا؛ وفي قانون المادة وضغطة الحياة:
كما تصلح لنا وكما تصلح لها...

بلى، قد صنعت النار الأدمية الحقيقية، وأعطينا قصة الحرية كاملة في معنى
واحد: وهو أن هذه الحرية لعاشقها كأجمل الجميلات للمتفاسين عليها: جمالها
متوحش، وخلعتها مفترسة، وظرفها سفاك للدم.

فاستجني يا مدافع مصر وطيري. إن المجد يطلب منا إنسانه البرقي.

والى السماء يا «جَمَرَاتِ الْجَوْ»، فإذا أَسْتَوَيْتُمْ^(١) على السحاب، فليست
الطَّيَّارَةُ ثُمَّ طَيَّارَةٌ، بل حقيقة حَيَّةَ عاملةٌ للمجد، فلتحمل معناها المصري من بطلها
المصري.

وإذا سبختم في مَهَيْطِ الْقَدَرِ، فليس الطَّيَّارُ ثُمَّ طَيَّاراً، بل حياةٌ عبقريةٌ أرسلتها
مصرُ تستنزلُ للحياةِ أقداراً سعيدة.

وإذا خَضَعْتُمْ فِي الْمَغْرَكِ الضَّنْكَ^(٢) تتبعثُرُ فيه أَلْجَالُ على الرياح، فليس
الجسمُ المصريُّ هناك من لحم ودم، بل ناموساً طبعياً ماضياً إلى غاية.

وإذا تَقَادَفْتُمْ فِي بَحْرِ الشَّمْسِ، فأنتم هناك على شِبَالِكِ طَرَحْتُمُوهَا لِصَيْدِ أَيَّامٍ
مضيئةٍ تلتئمُ في تاريخ مصر.

وإذا نَفَذْتُمْ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ، فأنظروها بأعينكم معالي مصر، وأفهموها
بقلوبكم ذاتيةِ الوطنِ المصريِّ تعلو وتعلو ولا تزالُ أبداً تعلو.

إنما الطَّيَّارَةُ وسلاحُها وطيارُها تَأْلِيْفٌ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْعُنَاصِرِ، معناه في
العزيمة «لا بد». ومتى هَدَرَتِ الطَّيَّارَةُ هَدِيرَهَا فَإِنَّمَا تَقُولُ لِلْبَطْلِ مِنْكُمْ: هَلُمَّ مِنْ
عَالٍ إِلَى أَعْلَى، إِلَى أَكْثَرِ عُلُوءٍ، إِلَى أَقْصَى حَدُودِ الْوَاجِبِ عَلَى النَّفْسِ حِينَ يَأْخُذُ
الْوَاجِبُ الْكُلَّ وَحِينَ تُعْطِي النَّفْسُ الْكُلَّ.

فأستجنحي يا مدافع مصر وطيري. إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِي.

(١) استويتم: ركبتم.

(٢) الضَّنْكَ: ضيق العيش.

الطماطمُ السياسي...

كَانَ (م): باشا رَحْمَهُ أَلَلَهُ - دَاهِيَةً مِنْ دُهَاةِ السِّيَاسَةِ الْمَصْرِيَّةِ، يَلْتَوِي مَرَّةً فِي يَدِهَا أَلْتَوَاءَ الْحَبْلِ، وَيَسْتَوِي فِي يَدِهَا مَرَّةً أَسْتَوَاءَ السَّيْفِ، وَلَا يُرَى أَبَدًا إِلَّا مِنْكُمْشًا مُتَحَرِّزًا^(١) كَأَنَّ لَهُ عَدُوًّا لَا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ وَلَا مَتَى يَقْتَحِمُ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ كَغَيْرِهِ مِنْ أَلرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ كَانُوا آلَاتٍ لِلْكَذِبِ بَيْنَ طَالِبِ الْحَقِّ وَغَاصِبِ الْحَقِّ - يَعْرِفُ أَنَّ عَدُوَّهُ كَامِنٌ فِي أَعْمَالِهِ.

وَكَانَ ذَكِيًّا أَرِيبًا^(٢)، غَيْرَ أَنَّ مُلَابَسَتَهُ لِّلْسِيَاسَةِ الدَّائِرَةِ عَلَى مَحْوَرِهَا، جَعَلَتْ نَصْفَ ذَكَائِهِ مِنْ أَلذِّكَاءِ وَنَصْفَهُ مِنْ أَلْمَكْرِ؛ فَكَانَ فِي مُرَاوَعَتِهِ كَأَنَّ لَهُ ثَلَاثَةَ عَقُولٍ: أَحَدُهَا مَصْرِيٌّ، وَآخَرُ إِنْجِلِيزِيٌّ، وَالثَّالِثُ خَارِجٌ مِنْ أَلْحَالِينَ.

وَبِهَذَا تَقَدَّمَ وَعَاشَ أَثِيرًا عِنْدَ أَلرُّؤَسَاءِ مِنْ أَلْإِنْجِلِيزِ، وَأَسْتَمَرَّتْ مَجَارِيهِ مُطَرِّدَةً^(٣) لَدَيْهِمْ حَتَّى بَلَّغُوا بِهِ إِلَى أَلْوِزَارَةِ، إِذْ كَانَ حَسَنَ أَلْفَهْمِ عَنْهُمْ، سَرِيعَ أَلِاسْتِجَابَةِ إِلَيْهِمْ؛ يَفْهَمُ مَعْنَى أَلْفَاطِهِمْ، وَمَعْنَى أَلْنِيَّةِ أَلَّتِي تَكُونُ وَرَاءَ أَلْفَاطِهِمْ، وَمَعْنَى آخَرَ يَتَبَرَّعُ هُوَ بِهِ لِأَلْفَاطِهِمْ... فَكَانَ هُوَ وَأَمثَالُهُ فِي رَأْيِ تِلْكَ أَلْسِيَاسَةِ أَلْقَدِيمَةِ، رِجَالًا كَالْأَفْكَارِ: يُوضَعُ أَحَدُهُمْ فِي مَكَانِهِ مِنْ أَلْحَكْمِ كَمَا تُوضَعُ صِيغَةُ أَلشُّكِّ لِإِفْسَادِ أَلْيَقِينِ، أَوْ صِيغَةُ أَلْوَهْمِ لِتَوَلِيدِ أَلْخِيَالِ، أَوْ صِيغَةُ أَلْهَوَى لِإِيجَادِ أَلْفِتْنَةِ.

وَكَانَ صَدِيقِي (فَلَانٌ) - رَحْمَهُ أَلَلَهُ - صَاحِبَ سِرِّهِ (السَّكْرَتِيرِ)، وَقَدْ وَثِقَ بِهِ أَلْبَاشَا حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُعَالِيهِ^(٤) بِمَا فِي نَفْسِهِ، وَبَيْئُهُ^(٥) هُمُومُهُ وَأَحْزَانُهُ، وَيَرَى فِيهِ دُنْيَا حَرَّةً يَخْرُجُ إِلَيْهَا كُلَّمَا ضَاقَتْ بِهِ دُنْيَا وَظِلْفَتِهِ، وَيَسْتَعِيرُ مِنْهُ أَلْيَقِينَ أَحْيَانًا بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ مِصْرِيًّا لَمْ يَتَمَّ بَعْدُ تَحْوِيلُهُ فِي أَلْكُرْسِيِّ...

(١) مُتَحَرِّزًا: مُحْتَرَسًا.

(٢) أَرِيبًا: ذَكِيًّا.

(٣) مُطَرِّدَةً: مُتَدَاغَةً مُتَوَالِيَةً.

(٤) يُعَالِيهِ: يُطْلَعُهُ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ.

(٥) بَيْئُهُ: يَشْكُو لَهُ مَا يَعْانِيهِ.

فحدثني الصديق بعد موت هذا الباشا قال : إِنَّهُ دعاه يوماً لِيُفَاتِحَهُ الرَّأْيَ فِي أمرٍ من أمورِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : إِنَّ الرَّئِيسَ الْإِنْجِلِيزِيَّ غَيْرُ مُطْمَئِنٍّ إِلَيْكَ لِأَنَّ حَقِيقَةَ مِنْ الْحَقَائِقِ الصَّرِيحَةِ ظَاهِرَةٌ عَلَى وَجْهِكَ، فَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّكَ تَقُولُ لَهُ بَعِينِكَ إِنَّكَ مَصْرِيٌّ مُسْتَقِلٌّ .

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ : لَيْتَ كَانَ ذَلِكَ مَا يُغْضِبُهُ إِنَّ الْخُطْبَ لَهَيْنَ، فَلَسْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ نَظَّارَةِ سُودَاءٍ . . .

فَضَحِكَ الْبَاشَا وَقَالَ : يَا بُنَيَّ، هَذَا الْإِنْجِلِيزِيُّ عِنْدَنَا كَالشَّيْطَانِ : ﴿إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، وَوَاللَّهِ يَا بُنَيَّ إِنِّي لِأَشَدُّ أَنْفَةً مِنْكَ، وَإِنَّ صَدْرِي لَشَجِيٌّ^(١) مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنْ هَذَا الْكَرْبِ^(٢)، وَلَكُنَّا - نَحْنُ الشَّرِيقِيِّينَ - قَدْ ضَعْنَا مِنْذُ فَقَدْنَا الشَّخْصِيَّةَ الْأَجْتِمَاعِيَّةَ .

أَتَرَاكَ تَفْهَمُ شَيْئاً لَوْ قُلْتُ لَكَ : رَجُلٌ، أَسَدٌ، جَبَلٌ، مَدِينَةٌ، أَسْطُولٌ؟ إِنَّ تَرْكِيبَنَا الْأَجْتِمَاعِيَّ شَيْءٌ كَهَذَا الْكَلَامِ : فِيهِ مِنْ ضَخَامَةِ الْكَلْفِ بِقَدَرٍ مَا فِيهِ مِنْ أَنْحِلَالٍ الْمَعْنَى وَأَضْمَحْلَالِهِ . وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ إِذَا أُفْرِدَتْ مَعْنَى صَحِيحٌ يَقُومُ بِهَا وَتَقُومُ بِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى مَعْنَى كَلَّا مَعْنَى .

أَصْبَحَ الشَّرِيقِيُّ يَعِيشُ فِي أُمْتِهِ عَلَى قَاعِدَةٍ أَنَّهُ مُنْفَرَدٌ لَا صِلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَطْرَافِ لَا فِي الزَّمَانِ وَلَا فِي الْمَكَانِ، وَنَسِيَ مَعْنَى الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : «إِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا» . فَمَاذَا كَانَ يُرِيدُ أَعْظَمُ الْمَصْلُوحِينَ الْأَجْتِمَاعِيِّينَ مِنْ قَوْلِهِ : «كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا»؟ إِلَّا أَنْ يُقَرَّرَ لِأُمْتِهِ أَنَّ الْفَرْدَ يَنْبُوعُ الْأَجْيَالِ الْمُقْبِلَةِ كُلِّهَا، فَلْيَعْمَلْ لَهَا وَلِنَفْسِهِ كَأَنَّهَا مُوقِفَةٌ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ مُسْتَمِرٌّ فِيهَا .

هَذِهِ حِكْمَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ دَقِيقَةٌ، عِنْدَنَا نَحْنُ لَفْظُهَا وَلِسْنَا نَعْرِفُ مَعْنَاهَا، وَعِنْدَ الْإِنْجِلِيزِيِّ مَعْنَاهَا وَلَا يَعْرِفُونَ لَفْظُهَا . أَهْمُ الْمُسْلِمُونَ أَمْ نَحْنُ؟

وَعَلَى قَاعِدَةٍ الْإِنْفِرَادِ أَنْفَرَدَ كُلُّ شَيْءٍ؛ فَاتَّرَ الشَّرِيقِيُّ حَيَاتَهُ عَلَى وَطَنِهِ، وَقَدَّمَ لِدُنْيَتِهِ عَلَى وَاجِبِهِ، وَتَعَامَلَ بِالْمَالِ فِي مَوَاضِعِ الْمُعَامَلَةِ بِالْأَخْلَاقِ؛ وَكَانَ طَبِيعِيًّا مَعَ هَذَا أَنْ يَخْتَصِرَ الْدِينَ اخْتِصَاراً يَجْعَلُهُ مِقْدَاراً بَيْنَ مِقْدَارَيْنِ، فَلَا هُوَ دِينٌ وَلَا هُوَ غَيْرُ دِينٍ؛ وَبِذَلِكَ يُنَاسِبُ فَرْدِيَّتَهُ وَيَقْعُدُ تَحْتَ حُكْمِهِ وَهُوَ خَارِجٌ عَلَيْهِ؛ فَتَرَى الرَّجُلَ مِنْ

(٢) الْكَرْبُ : الضِّيقُ .

(١) شَجِيٌّ : حَزِينٌ .

هذه الملايين يؤمن بالله وهو يحلف به كذبا على درهم، ويصلي ويفجر في يوم واحد، ويتعب في نفسه ويخون سواه في وقت معاً.

ومتى كانت الحالة النفسية للأمة هي هذه الفردية ومصالحتها ودواعيها، كان الكذب أظهر خلال هذه الأمة، إذ هو أنفراد الكاذب بحظه ومصالحته وداعيته؛ ولا يكذب عليك إلا من يرجو أن تكون مغفلاً، أو من قدّر في نفسه أن المعاملة العامة في الأمة هي على قاعدة المغفلين. . . ويكذبون في هذا أيضاً فيسمونه جذاقاً وبراعة (وشطارة).

وإذا عمّ الكذب فشا منه الهزل؛ فكل كاذب هازل، وهل يجد الكاذب وهو يكذب إلا إذا كان مجنوناً؟ ومن الهزل ضرب هو المباشطة بالكذب، ومنه ضرب من كذب الحقائق، ومنه من كذب الخيال، وكيفما دارت الحال لا تجده إلا كذاباً.

ومتى صار الكذب أصلاً يعمل عليه، تقرر عند الناس أن الكلام إنما يقال ليُقَالَ فقط. أفلمست ترى الرجلين إذا أخبر أحدهما صاحبه بالخبر فيه شيء من الغرابة أو البعد، لا يكلمه الآخر أول ما يتكلم إلا أن يسأله: صحيح؟ صدق؟

ولا أضرب على الأمة من هذه العقيدة - عقيدة أن الكلام يقال ليُقَالَ فقط - فإنها هي طابع الهزل على أخلاق الأمة، وعلى كل أحوالها، وعلى حكومتها أيضاً.

ومن الهزل والكذب ترانا مبالغين في كل شيء، حتى ليكون لنا الواحد كالآحاد في غيرنا فنجعل مائة بصفرين، نجيء بأحدهما من اعتياد الكذب على الحقيقة، ونجيء بالآخر من حقيقة إفلاسنا.

هذه مبالغة خطيرة، وأخطر ما فيها أننا نريد المبالغة في الدلالة على الأشياء، فتتقلب المبالغة في الدلالة علينا نحن، وعلى كذب طباعتنا، وعلى قوضى العقل فيها. نعم وحتى تثبت أننا لا عزم لنا، من كونها مبالغة لا تدقيق في معناها؛ وأن لا صبر لنا، من أنها لا ثبات لحقيقتها المهزومة؛ وأن لا شدة لنا في طلب الحق، لأننا بها من أهل الغفلة في وصف الحق؛ وأننا لا نتمثل العواقب إذ نرسل الكلام إرسالاً ولا نخشى ما يكون من عاقبته.

وأيسر ما يفهم من هذه المبالغات التي أصبحت طريقة من طرق الشعب في التعبير، أن هذا الشعب لا يصلح في شيء إلا بالحكومة، فهو نفسه كالمبالغة، والحكومة له كالتصحيح؛ وهذه هي العلة في أن الشعب الكذوب يلجأ إلى حكومته

في كل كبيرة وصغيرة في العمل، كما أنها هي العلة في أن حكومتها تكذب عليه بكل صغيرة وكبيرة في السياسة.

ومن أثر الكذب الشعبي والمبالغة الشعبية، ما نراه من اهتمام كل فرد بما يقول الناس عن أعماله، فيديرها على ذلك وإن قلت منفعتها، وإن فسدت حقيقتها، وإن جلبت عليه من الضرر في ماله ونفسه ما هي جالبة؛ فقاعدتهم هي هذه: ليس الشأن في الحياة للعمل في نفسه، ولكن فيما يقال عنه؛ فإن لم يقل شيء فلا تعمل شيئاً...

هذه يا بني أمة لا يكون حكامها إلا مبالغات أيضاً...

قال صاحب السر: وأرتفع من الطريق صوت بائع يُنادي على سلعته: أحسن من التفاح يا طماطم...

فضحك الباشا وقال: هكذا يقولون لنا عن الطماطم السياسي العفّين: إنه ليس تفاحاً وحسب، بل هو أحسن من التفاح...

إن الأمة لن تكون في موضعها إلا إذا وضعت الكلمة في موضعها، وإن أول ما يدل على صحة الأخلاق في أمة كلمة الصدق فيها، والأمة التي لا يحكمها الصدق لا تكون معها كل مظاهر الحكم إلا كذباً وهزلاً ومبالغة.

البك والباشا

وحدثني صاحب سر (م) باشا قال: جاء يوماً إلى زيارة الباشا رجل دخل عليّ مهتلاً مشرق الوجه كأنه مُضَاء من داخله بشمعة... وبتَرْتُح عِظْفَاهُ كأنما تهزّه أسرارُ عِظْمَتِهِ؛ ويمشي متخلعاً كالمرأة الجميلة التي أثقلها لَحْمُهَا وأثقلتها المعاني الكثيرة من أعين الناظرين إليها، وعلى شفّتيه خيال من فكرة هؤلاء الكُبراء المغرورين الذين لا يأمر أحدهم رجلاً صغيراً إلا لِيُعْلِمَهُ أَنَّهُ هو كبير، فيكون في الأمر شيثان: الأمر واللوم؛ وأقبل عليّ في هيئة شامخة لو نطقت لقلت: سُبِّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى. سُبِّحَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ فِي الْأَسَدِ شعرة جبارة خرج منها الأسد كله.

سُبْحَانَ اللَّهِ ولا إله إلا الله. هذا (فلان باشا) الذي قرأت في الصُحفِ أمس أنهم أنعموا عليه برتبة الباشوية؛ خلقه الله من ترابٍ وحولت الرتبة هذا التراب الذي فيه إلى ذهب خالص... ينظر إليّ وبرغمه أن تَقِفَ عيناه عليّ وعلى الحائط؛ ولا تجد نفسه المزهوة سبيلاً إلى التعبير عن الرتبة إلا هذا الازدراء المنبعث من شخصه العظيم لمن لم يكن كشخصه. ما بين أمس واليوم زاد هذه الزيادة الآدمية، أو كأنما كانت صورته خطوطاً فقط فوضعت فيها الألوان...

(باشا!) هذه ألباء وهذه ألألف وهذه ألشين الممدودة ليست حروفاً خارجة من الأبجدية العامة؛ فإن الأبجدية قد تجعل ألباء في بليد مثلاً، وألألف في أبله، وألشين الممدودة في شاهد زور مثلاً مثلاً... بل تلك حروف من حروف الدولة، منتزعة من قوة قادرة على أن تجعل حياة صاحبها من الشكل ما يُسبِغُه ألفن على الحجر من شكل يمثّل ينصب للعظيم.

قال: وكنت أعرّف هذا الرجل، وهو رجل أمي لا يحسن إلا كتابة أسمه كما تكتب الدجاجة في الأرض... فكانت الرتبة عليه كإطلاق لفظ الحديقة على صخرة من الصخور الصلدة؛ وهذا ممّا يحتمله المجاز بعلاقة ما؛ ولكن الذي لا يسوغ في المجاز، ولا في مبالغ الاستعارة، ولا في خرافات المستحيل، أن

تزعم الصخرة للناس أن لفظ الحديقة الذي أطلق عليها قد أنبت فيها أشجار الحديقة . . .

قال صاحب السر: وأستأذنت له على ألباشا فسئل له الإذن وقال: هذا رجل أصبح كالورقة المبصومة بخاتم الدولة، فلتكن ما هي كائنة فإن لها اعتبارها. ثم تلقاه تلقى الهازل المتهكم وقال له: أهنتك بالتخوي . . . مباركون يا باشا. وأقبل عليه وبسط له وجهه.

وكان في ألباشا دُعاة ظريفة يُعرف بها، وهو كثير النوادر والملح، وله حصيصة عجيبة، فيكون بين يديه كُدس من الأوراق التي تُعرض عليه ينظر فيها ويقرأها ويتدبرها، وهو في ذلك يستمع إلى محدثيه ويراجع ويرد عليه، فيصرف الناس والأوراق في وقت واحد، ويستعمل ناحيتين من فكره استعمالاً واحداً لا يخل بالإصابة^(١) في شيء من هذه ولا من تلك.

ثم قال لألباشا الحديث وعينه إلى ما بين يديه: هذه أوراق سرقة ثور عظيم، فكم يساوي الثور العظيم الآن . . . ؟

قال صاحبنا الذكي القطن: إذا كان من الثيران التي تُعرض في المعارض وتنال المدايا الذهبية فقد يتعد سعره ويغالي به.

قال الباشا: نعم نعم، إن من الثيران ثيراناً يُنعم عليها بالأوسمة، ولكن هذا الثور الذي سألتك عنه يا باشا هو ثور محراث لا ثور معرض . . .

قال الآخر: إذا كان ثور محراث فمثله كثير فلا يكون ثوراً عظيماً كما قلت وليست له إلا قيمة مثله.

قال ألباشا: أراني أخطأت، ولعن الله العجلة، فهذه أوراق سرقة حمار!

قال صاحب السر: وأنصرفت عنهما بأوراق، وقد رأيت يد ألباشا مملوءة لصاحبنا بتحيات كلها صفعات؛ فلم يكن إلا يسير حتى خرج مبتهجاً يُميد السرور بعطفه. ثم دعاني ألباشا ودفع إلي بطاقة بالحاجة التي جاء فيها الرجل، ثم قال:

(١) لا يخل بالإصابة: لا يخطئ.

يا ليت لنا في ألقاب الدولة لقب (رحمه الله) ... يُنعمُ به على مثل هذا.
أندري يا بُنيَّ أن هذه ألقاب وهذه الألقاب لم تكن في القديم إلا كوضع علامة
الشر على أهل الشر ليهابهم^(١) الناس، حتى كأنما يُكتب على أحدهم من لقب بك
أو باشا: مُلحق بالدولة ...

وكان الشعب أمياً جاهلاً لا يستطيع الإدراك ولا يُحسن التمييز، فكانت
الألقاب كالقوانين الشخصية الموضوعة في صيغة موجزة مفهومة متعينة الدلالة،
وكان كل من يحمل لقباً من الحكومة يستطيع أن يقول للناس: لقد وضعت
الحكومة كلمة الأمر في شفتي ...

وكان اللقب إعلان من الحكومة المستبدة لشعبها الجاهل: إن هذا البك
والباشا من يحق له أن يُحترم.

من الهزل أن يشتري اسم النصر الحربي أو يوهب أو يُعار؛ وأقبل منه في
باب الهزل أن يُنعم على مثل هذا الأمي بلقب باشا. وأنا أعرف أنه قد بذل في
سبيله ما بذل، وأضاع ما أضاع، فكان الذين منحوه إيَّاه لم يفعلوا شيئاً إلا وضع
توقيعهم على أخذ الثمن.

ولقد أصبح الرجل تحت تأثير الكلمة العظيمة مخبولاً بسخرها الوهمي،
فحبس ذلك إدخالاً له في وظيفة كل حاكم، وإشراكاً له في الحكم متى اقتضته
مجاري أموره وأحواله، أو حاجات أسبابه وأتباعه؛ وها هو ذا قد جاء يطلب حقه،
فإن مثله لا يفهم من لقب (باشا) إلا أن الحكومة قد سوّغت سلطته الظهور
والعمل، فمدت باعة وقوت أمره ونوّهت^(٢) باسمه لمصالحها وعمالها؛ فهو عند
نفسه قد التّخّم منذ اليوم بالنسب الحكومي، وفي كلمة واحدة، هو قد وُلد من
بطن الحكومة ...

ألا ترى أن الشعب لو استرد سلطته الكاملة، وأن الناس لو أيقنوا أن الألقاب
الفاظ فارغة من الأمر والنهي والوسيلة والشفاعة، لَمَا بقي من يعبأ بها، ولكان
حاملها هو أول من يسخر منها؟

فهي إذن شعبذة^(٣) من الحكومة وتضليل في مثل هذا الرجل الأمي، وهي

(١) يهاب: يخاف.

(٢) نوّه: دلّ على فضله.

(٣) الشعبذة: الشعوذة والدجل.

ضربَ من التهويلِ والمبالغةِ في سواءِ من الكُبراءِ والعُظماءِ ، كأنَّ الوزيرَ الذي يلقَّبُ
بالباشا، يجعلُ فيه لقبَهُ وزيرين، وكأنَّ مثلَ هذا الأُمِّيِّ المَغفَلِ، يجعلُ فيه لقبَهُ
شخصاً، آخرَ غيرَ الأُمِّيِّ المَغفَلِ ..

أنا قلُّما رأيتُ رجلاً يحتاجُ إلى القابِ يتعظَّمُ بها إلا وهو لا يحتاجُ إليها؛
فأينَ يكونُ موضعُ هذه الرتبِ والألقابِ؟

ساكنو الشباب ..

قال صاحب سر (م) باشا: وجاءني يوماً اثنان من شيوخ الدين من ذوي هياتهم وأصحاب المنزلة فيهم، كلاهما هامة وقامة، وجبة وعمامة، ودرجة من الإمامة؛ ولهما نسيم ينفخ عطرأ حسيته من ترويح أجنحة الملائكة؛ وعليهما من الوقار كظل الشجرة الخضراء في لهب الشمس تفيء به يمنة ويسرة. فتوجهت إليهما بنظري، وأقبلت عليهما بنفسي، ووضعْتُ حواسي كلها في خدمتهما؛ وقلت: هؤلاء هم رجال القانون الذي مادته الأولى القلب.

ما أسخف الحياة لولا أنها تدل على شرفها وقدرها ببعض الأحياء الذين نراهم في عالم التراب كأن مادتهم من السحب، فيها لغيرهم الظل والماء والنسيم، وفيها لأنفسهم الطهارة والعلو والجمال؛ يثبتون للضعفاء أن غير الممكن ممكن بالفعل، إذ لا يرى الناس في تركيب طباعهم إلا الإخلاص وإن كان جرماناً، وإلا المروءة وإن كانت مشقة، وإلا محبة الإنسانية وإن كانت الماء، وإلا الجِدُّ وإن كان عناء، وإلا القناعة وإن كانت فقراً.

هؤلاء قوم يؤلفون بيد القدرة، فهم كالكتب قد أنطوت على حقائقها وختمت كما وضعت، لا تستطيع أن تخرج للناس من حقيقة نصف حقيقة ولا شبه حقيقة ولا تزويراً على حقيقة.

وما أعجب أمر هذه الحياة الإنسانية القائمة على النواميس^(١) الاقتصادية! فالسماء نفسها تحتاج فيها إلى سماسرة لعرض الجنة على الناس بالثمن الذي يملكه كل إنسان وهو العمل الطيب.

قال: ونظرْتُ إلى الشيخين على اعتبار أنها من بقية النبوة العاملة فيها شريعة نفسها. تلك الشريعة التي لا تتغير ولا تبدل كيلا يتغير الناس ولا يتبدلوا. ثم سألتهما عن حاجتهما، فإذا أحدهما قد عمل أبياتاً من الشعر جاء يمدح بها ألباشا

(١) النواميس، مفردة ناموس وهو القانون.

لِيُزِيلَ إِلَيْهِ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: «مَا أَشْبَهَ حَجَلَ الْجِبَالِ بِالْوَانِ صَخْرَهَا!» هَذَا عَالَمٌ دُنْيَا يَحْدُهَا مِنَ الشَّرْقِ الْغَرِيفُ، وَمِنَ الْغَرْبِ الدِّينَارُ، وَمِنَ الشَّمَالِ الْجَاهُ، وَمِنَ الْجَنُوبِ الشَّيْطَانُ . . .

ثُمَّ نَشَرَ وَرَقَةً فِي يَدِهِ وَأَخَذَ يَسْرُدُ^(١) عَلَيَّ الْقَصِيدَةَ، وَهِيَ عَلَى رَوِيِّ الْهَاءِ، تَنْتَهِي أَبْيَاتُهَا: هَا. هَا. هَا. فَكَانَ يَقْرُؤُهَا شِعْراً - أَوْ كَمَا يُسَمِّيهِ هُوَ شِعْراً - وَكُنْتُ أَسْمَعُهَا أَنَا قَهْقَهَةً مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي رَكِبَ أَكْتَافَ هَذَا الْعَالَمِ الدِّينِيِّ: هَا. هَا. هَا. هَا. . .

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَأَدْخَلْتُهُمَا عَلَى أَلْبَاشَا، فُوقَفَ الْمَدَّاحُ يَمْدَحُ بِقَصِيدَتِهِ، وَأَخَذَتْ لِحِيَّتُهُ الْوَافِرَةَ تَهْتَزُّ فِي إِنْشَادِهِ كَأَنَّهَا مِنْقُضَةٌ يَنْفُضُ بِهَا الْمَلَلُ عَنْ عَوَاطِفِ أَلْبَاشَا. . . وَكَانَ لِلْآخِرِ صَمْتُ عَامِلٍ فِي نَفْسِهِ كَصَمْتِ الطَّبِيعَةِ حِينَ تَنْفَطِرُ^(٢) الْبَذْرَةُ فِي دَاخِلِهَا، إِذْ كَانَتْ الْحَاجَةُ حَاجَتَهُ هُوَ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِصَاحِبِهِ رَافِداً وَظَهيراً يَحْمِلُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لِتَنْتَقِلَ الْأَشْيَاءُ حَوْلَ الْمَمْدُوحِ فَيَأْخُذَهُ السَّخَرُ، فَيَكُونُ جَوَابُ الشَّمْسِ عَلَى هَذِهِ الَّلَغَةِ أَنْ تُضِيءَ يَوْمَ الشَّيْخِ، وَجَوَابُ الْقَمَرِ أَنْ يَمْلَأَ ظِلَامَهُ، وَجَوَابُ اللَّيْلِ أَنْ يَفْتَرِسَ عَدُوَّهُ، وَجَوَابُ النَّهَارِ أَنْ يَهْطِلَ عَلَى أَرْضِهِ.

وَأَلْبَاشَا لَا يَدْعُ^(٣) ظَرْفَهُ وَدُعَابَتَهُ، وَكَانَ قَدْ لَمَحَ فِي أَشْدَاقِ الْعَالَمِ الْمُتَشَاعِرِ أَسْنَاناً صِنَاعِيَةً، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ نَظْمِهِ الْرَكِيكِ قَالَ لَهُ: يَا أَسْتَازَ، أَحْسَبُنِي لَا أَكُونُ إِلَّا كَاذِباً إِذَا قُلْتُ لَكَ: لَا فَضَّ فُوكَ.

ثُمَّ ذَكَرَ الْآخِرُ حَاجَتَهُ: وَهِيَ رَجَاؤُهُ أَنْ يَكُونَ عِمْدَةُ الْقَرْيَةِ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ لَا مِنْ ذَوِي عِدَاوَتِهِ. فَقَالَ لَهُ أَلْبَاشَا: وَلِقَرِيَّتِكُمْ أَيْضاً أَبُو جَهْلٍ . . . ؟

وَلَمَّا أَنْصَرَفَا قَالَ لِي أَلْبَاشَا: لِأَمْرِ مَا جَعَلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لِأَنْفُسِهِمْ زِيّاً خَاصّاً يَتَمَيَّزُونَ بِهِ فِي النَّاسِ، كَأَنَّ الدِّينَ بَابٌ مِنَ التَّحَرُّفِ وَالتَّنَصُّفِ، بَعْضُ الْكَيْفِ فِي ثِيَابِهِ؛ فَهَؤُلَاءِ يَسْكُنُونَ الْجُبْنَ وَالْقَفَاطِينَ وَكَأَنَّهَا دَوَاوِينُهُمْ لَا ثِيَابُهُمْ . . .

قَدْ أَفْهَمُ لَهُذَا مَعْنَى صَحِيحاً إِذَا كَانَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مُحْصِوْراً فِي وَاجِبَاتِ

(١) يسرد: هنا بمعنى ينشد.

(٢) تنفطر: يتشقق.

(٣) يدع: يترك.

عمله كالجندى في معاني سلاحه، فيكون العظيم والتوقير لثوب العالم الديني كأداء التحية للثوب العسكري: معناه أن في هذا الثوب عملاً سامياً أوله بيع الروح وبذل النفس وترك الدنيا في سبيل المجتمع؛ هذا ثوب الموت يفرض على الحياة أن تعظمه وتجله، وثوب الدفاع تجب له الطاعة والانقياد، وثوب القوة ليس له إلا المهابة والإعزاز في الوطن.

ولكن ماذا تصنع الجبة اليوم؟ إنها تطعم صاحبها...

أثر الجيش معروف في دفاع الأمم العدو عن البلاد، فأين أثر جيش العلماء في دفاع المعاني العدو عن أهل البلاد، وقد احتلت هذه المعاني وضربت وتملكت وتركت هذا العالم الديني في ثوبه كالجندى المنهزم: يحمل من هزيمته فضيحة ومن ثوبه فضيحة أخرى؟

أنت يا بني قد رأيت (الشيخ محمد عبده) وعرفته؛ فرحم الله هذا الرجل، ما كان أعجب شأنه! لكأنه - والله - سحابة مطوية على صاعقة. ولو قلت إنه قد كان بين قلبه ورأسه طريق لبعض الملائكة. لأشبه أن يكون هذا قولاً.

كان يزورني أحياناً فأراني مرغماً على أن أقدم له مجلسين أحدهما قلبي. وكان له وجه يأمر أمراً، إذ لا تراه إلا شعرت به يرفعك إلى حقيقة سامية.

رجل نبت على أعراق^(١) فيها إبداع المبدع العظيم الذي هيأه لرسالته، فعواصفه كالعطر في شجرة العطر الشذية، وشمائله كجمال السماء في زرقه السماء الصافية، وعظمته كزوجة البحر في منظر البحر الصاحب. وكثيراً ما كان يتعجب من هذا أستاذه (السيد جمال الدين الأفغاني) فيسأله مندهشاً: بالله قل لي: أبني أي ملك أنت؟

لم يكن أبني ملك ولا أبني أمير، ولكنني أبني القوآت الروحية العاملة في هذا الكون؛ فهي أعدته، وهي ألهمته، وهي أنطقته، وهي أخرجته في قومه إعلاناً غير كتمان، ومُصارحة غير مخادعة، وهي جعلت فيه أسدياً لأسد، وهي ألقت في كلامه تلك الشهوة الروحية التي تذاق وتُحب، كالحلاوة في الحلوى.

هذا هو العالم الديني: لا بد أن يكون أبني القوآت الروحية، لا أبني الكتب

(١) أعراق: أصول.

وحدها، ولا بد أن يخرج بعمله إلى الدنيا، لا أن يدخل الدنيا تحت سقف الجامع...

وأنا فما ينقضي عجبي من هؤلاء العلماء الذين هم بقايا تنضاء بجانب الأصل؛ يبحثون في سنن النبي ﷺ: كيف كان يأكل ويشرب ويلبس ويمشي ويتحدث؛ كأنهم من الدنيا في قانون المائدة، وآداب الولائم، ورؤوس المجتمعات؛ أما تلك الحقيقة الكبرى، وهي كيف كان النبي ﷺ يُقاتل ويُحارب لهداية الخلق، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتها؟ وكيف كان يطباعه القوية الصريحة تعديلاً فعلاً في هذه الإنسانية للنواميس الجائرة؟ وكيف كان يحمل الفقر ليكسر به شره^(١) النواميس الاقتصادية التي تقضي بجعل الأخلاق أثراً من آثار السعة والضيق، فتخرج من الغني متعافياً ومن الفقير ليصاً؟ وكيف استطاع ﷺ بفقره السامي أن يحول معنى الغنى في نفوس أصحابه، فيجعله ما أستغنى عنه الإنسان من شهوات الدنيا وترك، ما نال منها وجمع؟ أما هذا ونحوه من حقائق النبوة العاملة في تنظيم الحياة، فقد أهملوه، إذ هو لا يوجد في الكتب وشروحيها وحواشيها^(٢)، ولكن في الحياة وأفعالها وأكدارها؛ وبذلك أصبح شيوخنا من الأمة في مواضع لم يضعهم فيها الدين ولكن وضعتهم فيها الوظيفة.

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة: سئل بعض العرب: بم ساد فلان فيكم؟ قالوا: أحتجنا إلى علمه وأستغنى عن دنيانا...

(١) شره: شدة وقسوة.

(٢) حواشيها، مفردة حاشية، وهي مكان يوجد في ذيل الصفحة، تكتب شروحات على ما غمض من المعاني في الصفحة.

الأخلاقُ المحاربة

وحدّثني صاحبُ سرٍّ (م) باشا بهذا الحديث قال: كُنا في ثورة سنة ١٩١٩ سنة الهزاهز^(١) والفتن، وقد تفاقمت^(٢) الثورة، وأخذَ الشبابُ يعملُ ويفكرُ فيما يستطيعُ أن يعملَ، وما يجبُ أن يعملَ؛ وكانَ السُّخْطُ العامُّ هو ميراثُ الوقتِ، فكانتِ قلوبُ الشعبِ تُلهمُ واجباتها إلهاماً، إذ لم يكن في هذه القلوبِ كلّها إلا لدعةُ الدَّمِ تُعيّنُ اتجاهَ أعمالها وتحدّده.

كانتِ الثورةُ زلزلةً وقعت في التاريخ، فجاءت تحتَ زمنٍ راكِدٍ لا يتغيّرُ إلا بأن يُنسَفَ، ولا ينسِفُهُ إلا مادةُ إلهية كالحركة الكونية التي تُخرِجُ اليومَ الجديدَ مِنَ اليومِ القديمِ؛ فكانَ القَدَرُ يعملُ بأيدي الإنجليزِ عملاً مصرياً، ويعملُ بأيدي المصريينِ عملاً آخر.

وتعلّمَ الشعبُ من دفنِ شهدائه كيفَ يَسْتَنْبِطُ الدَّمِ فيُنْبِثُ بِهِ الحريّةَ، وكيف يزرعُ الدَّمْعَ فيُخرِجُ منه العزمَ، وكيف يستثيرُ الحزنَ فيُثمرَ لَهُ المجد.

وكانَ رصاصُ الإنجليزِ يُصيبُ هدَفينِ معاً: فيصرعُ شهداءنا، ويقتلُ الموتَ السياسيَّ الذي احتلَّ معهم هذه البلاد. وقد أنعموا على الشعبِ بالصدمة الأولى، فنشبتِ المعركةُ التي تُقاتلُ فيها الأخلاقُ القوميةُ لِنَتَصِرَ؛ وشعرَتِ مصرُ في جهادها بأنّها مصرُ، فالنمَسَ روحها التاريخيُّ رمزُهُ العَظيمُ في الأُمّةِ ليظهرَ فيه عاتياً جباراً؛ فكانَ هذا الرمزُ الجليلُ العَظيمُ هو سعد زغلول.

قالَ صاحبُ السِّرِّ: وكانَ الطليبةُ قد غَدَوْا من أولِ النهارِ يتظاهرونَ، وقد جعلتُهُمُ الثورةُ كالأرواحِ تَخَلَّصَتْ مِنَ المَوْتِ بِالمَوْتِ فلا تخشاهُ ولا تُبالِيه، واستقلَّتْ عن العقلِ بتحوّلها إلى شعورٍ مَحْضٍ، وخرَجَتْ عن القوانينِ كُلِّها إلا القانونَ الخفيَّ الذي لا يَعْلَمُ ما هو.

(١) الهزاهز: الثورات وعدم الاستقرار السياسي. (٢) تفاقمت: امتدت وعظمت.

كانوا في معاني قلوبهم لا في غيرها، فلست تراهم إلا عظماء في عظمة المبدأ الذي ينتصرون له، أقوياء في قوة الإيمان الذي يعملون به، أجلاء في جلال الوطن الذي يحيون ويموتون في سبيله.

وكانوا في الشعب هم خيال الأمة العامل المدرك، وشعورها الحي المتوثب، وقواها البارزة من أعماقها، وأملها الزاحف ليقهر الصعوبة.

يقادون بأنفسهم الغالية ويؤثرون عليها، وليس في أحد منهم ذاته ولا أغراض شخصيه. فما أجل وما أعظم! وما أروع وما أسمى! أيثها الحياة! هل فيك أشرف من هذه الحقيقة إلا حقيقة النبوة؟

قال: وكان أخي هو زعيم هؤلاء الطلبة في مدينتنا؛ قوي على الزعامة وفي بها؛ يحمل قلباً كالجمرة الملتهبة، وله صوت بعيد تحسب الرعد يققع^(١) به. إذا مشى في جهاده كان كل ما على الأرض تراباً تحت قدميه، فلا يمشي إلا محتقراً هذه الدنيا وما فيها، غير مقدس منها إلا دينه ووطنه؛ وسلاحه أن كل شيء فيه هو سلاح على الظلم وضد الظلم.

وكان في ذلك اليوم يقود «المظاهرة»، وحوله جماعة من خالصته وصفوة إخوانه، يمشون في الطلبة تحت جو متقيد كان فيه غضب الشباب، عنيف كأنما أمتزج به السخط الذي يفورون به، رهيب كأنه متهيب لينفجر؛ فلما بلغوا موضعاً من الطريق ينعطفون عنده أنصب عليهم المدفع الرشاش...

قال: فإني لجالس بعد ذلك في الديوان إذ دخل علي أخي هذا ينتفض غضباً كأن المعاني تنبعث من جسده ليقاقل، ورأيت له عيني ينظر الناظر فيهما إلى النار التي في قلبه؛ فخشيت أن يكون القوم أطلقوا عليهم الجنون والرصاص معاً.

وأستنبأته^(٢) خبر أصحابه فقال: إن الذين كانوا حوله وقعوا يتشخطون^(٣) في دمائهم، فوقف هو شاخصاً إليهم كأنه ميت معهم، وقد أحس كأنما خلع عن جسمه نواويس الطبيعة، فلا يعرف ما هي الحياة ولا ما هو الموت؛ وكان الرصاص يتطاير من حوله كأن أرواح الشهداء تلتقاه وتبعثره لا يناله بسوء. قال: وما أنسى لا

(١) يققع: يصدر أصواتاً عنيفة راعدة.

(٢) استنبأته: سأله عن أصحابه.

(٣) يتشخطون: يتخبطون بدمائهم.

أنسى ما رأيته في تلك الساعة بين الدنيا والآخرة؛ فلقد رأيت بعيني رأسي الدم المِصريّ يُسلّم على الدم المِصريّ، ويسعى إليه فيُعانقه عناق الأحاب.

ثم قال: أين هذا الباشا؟ وما باله لم يصنع شيئاً في الاحتياط لهذه الفورة؟ يكادُ الخزي - وألله - يكون في هذه الوظائف على مقدار المرتب...

قال صاحب السر: ولم يتم كلمته حتى خرج علينا الباشا متكسراً الوجه من الحزن قد تغرّرت عيناه، فأخذ بيد أخيه إلى غرفته وتبعتهما، ثم قال: هوناً ما يا بُني، إنَّ العلة فيكم أنتم يا شباب الأمة، فكل ما أبطلنا أو نُبتلى به هو مما يستدعيه خمولكم وتستوجبهُ أخلاقكم المتخاذلة؛ إننا من غيركم كالمُدافع الفارغة من ذخيرتها: لا تصلح إلا شكلاً، وبهذه العلة كان عندنا شكل الحكومة لا الحكومة.

أندري يا فتى ما هي الحكومة الصحيحة في مثل حالتنا؟ هي أن تحكموا أنتم في الشعب حكومة أخلاقية نافذة القانون، فتضبطوا أخلاق النساء والرجال، وتردوها كلها أخلاقاً مُحاربة لا تعرف إلا الجِدَّ والكرامة وصرامة الحق؛ وإلا فكما تكونون يولى عليكم...

هذا وحده هو الذي يُعيد الأجانب إلى رُشدِهِم وإلى الحقيقة، فما أراهم يُعاملوننا إلا كأننا ثياب معلقة ليس فيها لباسوها...

كيف يتصلحك^(١) المِصريّ للأجنبي لو أن في المِصريّ حقيقة القوة النفسية؟ أترى بارجة حريّة تتصلحك لزورق صيد جاء يرتق؟

إن في بلادنا المسكينة الأجانب، وأموال الأجانب، وغطرسة^(٢) الأجانب؛ لا لأن فيها الاحتلال، كلا، بل لأن فيها ضعف أهلها، وغفلة أهلها، وكرم أهلها... بعض هذا يا بُني شبيه ببعض، وإلا فما هو كرم الشاة الضعيفة إلا لذة لحمها...؟

نريد لهذا الشعب طبيعة جدية صارمة، ينظر من خلالها إلى الحياة فيستشعر ذاته التاريخية المجيدة فيعمل في الحياة بقوانينها؛ وهذا شعور لا تحدثه إلا طبيعة الأخلاق الاجتماعية القويّة التي لا تتساهل من ضعف، ولا تتسمخ من كذب، ولا ترخص من غفلة. والحقيقة في الحياة كالحقيقة في المنطق: إذا لم يصدق البرهان

(١) يتصلحك: يتصاغر.

(٢) غطرسة: تكبر وتجبّر.

على كلِّ حالاتها، لم يصدّق على حالة من حالاتها؛ فإذا كنّا ضعفاء كُرماء، أعزّاء، سادة على التاريخ القديم، فنحن ضعفاء فقط . . .

إنَّ الكبراء في الشرق كلّهُ لا يصلحون إلّا للرأي، فلا تُسوموهم غيرَ هذا، فهم قد تلقّوا الدرس من أغلاطهم الكثيرة، وبهذا لن تُفلح حكومةٌ سياسيّة في الشرق الناهض ما لم يكن شبابها حكومة أخلاقيّة يُمِدُّها من نفسه ومن الشعب في كلِّ حادثة بالأخلاق المحاربة.

يا بُنَيَّ، إنَّ القويّ لو اتّفق مع الضعيف على كلمة واحدة لا تتغيّر، لكان معناها للأقوى أكثر ممّا هو للأضعف؛ فإنَّ هذا القويّ الذي يعمل مع الضعيف يكون فيه دائماً شخص آخر مختلف، هو القويّ الذي يعمل مع نفسه.

هكذا هي السياسة؛ أمّا في الإنسانيّة فلا، إذ يكون الحق دائماً بين اثنين أقوى من الاثنين.

خضع بخضع...

وقال صاحب سر (م) باشا فيما حدثني به: جاء ذات يوم قنصل (الدولة الفلانيّة) من هذه الدول الصغيرة؛ التي لو عَلِمَ الذبابُ في بلادها أن في مصر امتيازات أجنبيّة، لطمعت كل ذبابة أن يكون لها في بلادنا أسم الطيارة الحرّية....

ورأيتُه قد دخل عليّ شامخاً باذخاً متجبّراً، كأثُّه قبل أن يجرى إلى هذا الديوان لمقابلة الحاكم المصري - قد تكلم في (التلفون) مع إسرافيل يأمره أن يكون مستعداً للتفخ في الصُور....

جنى ضلوك من رعايا دولته على مصري، فأخذ كما يؤخذ أمثاله، وقضى ساعة أو ساعتين بين أيدي المحققين يسألونه الأسئلة الّهية اللينة التي تحيط بتعريفه من ظاهره، ولا يشبهها في سخافة المعنى إلا أن يسألوه عن ثيابه من أي مصنع هي في أوروبا.... فزعم القنصل أنه كان يجب أن يكون حاضراً يشهد التحقيق، لأنّ جناية أجنبي على مصري تقع أجنبيّة.... فلها شأن ورعاية وأمّياز، وأدعى أنّ المحققين ضايقوا المجرم وعاسروه وتجهّموه بالكلام، ولهذا جاء يحتج.

ورأيتُه جلس متوقفاً كأنما يشعر في نفسه أنه أثقل من مدفع ضخّم، لأنّ في نفسه وهم القوة؛ وخيل إليّ أنه يرى موضعه بين السقف والأرض؛ إذ يحمل في رأسه فكرة أنه الأعلى، وكانت له هيئة صريحة في أن الأجنبي المقيم هنا ليس هو كل الأجنبي، بل لا تزال منه بقية تتممها دولته، وفي الجملة كان الرجل كلمة واضحة مفسرة تنطق بأنّ للقانون المصري قانوناً يحكمه في بلاده!

وأنا قد درستُ القانون الدولي، وعرفت ما هي الامتيازات وما أصلها، وهي لا تعدو كرم الأرنب التي زعموا أنها كانت تملك حماراً تركبهُ وترتفق به، فسألتها أرنب أخرى أن تُزِدَ فها خلفها، فلما اندفع بهما الحمار أستوطأته، فقالت لصاحبتها: يا أختي، ما أفرّة جمارك! ثم سكّثت مدة وأعجبها الحمار فقالت: يا أختي، ما أفرّة حمارنا!...

وكنّا - نحن الشرقيين - من الضعيف والغفلة؛ بحيث لم نبلغ مبلغ الأرنب في حكميتها وتديبيرها وحذرها، فإنّها أسرع ودفعَتْ صاحبَتها وقالت لها: إنزلي - ويلك - قبل أن تقولي: ما أفرّة جماري.

قال: غير أنّي في تلك الساعة نسيت القانون الدولي وكنت في إلهام مصريّتي وحدها، فظهر لي ظهوراً بيّناً أن لا شيء أسمه القانون الحق في هذه الدنيا؛ ولكنّ هناك اتفاقاً بين كلّ خضوع وكلّ تسلط، هو قانون هاتين الحالتين بخصوصيهما. وأسرعْتُ إلى الباشا فأنبأته، وأسرع الباشا فغيّر وجهه، وتبسّط، وتهلّل، وتهيأ بهذا لاستقبال أقدام العزيز، كأنّه أخصّ محبيه يتطلّع إلى مؤانسته، وقد جاء يزوره في داره. ثمّ دخل القنصل، ولم أسمع ممّا دار بينهما إلّا الكلمة الأولى، وهي قول الباشا: لنبدأ يا سيدي من الآخر...

وكانت في الباشا موهبة عجيبة في اختلاب^(١) الأجانب خاصّة، يُديرهم بلباقة كالخاتم في إصبعه؛ حتى قال لي أحدهم: إنّ لهذا الباشا حاسة زائدة، لو سُميت حاسة الأرضاء لكان هذا أسمها الطبيعي، وإنّه يعمل بها كما يعمل المفكّر بتفكيره؛ فهو يتكرّر الأساليب الغربيّة التي يصعد ويهبط بها ميزان الحرارة النفسيّة، وإنّ جلسته يكاد يشعر من مهارته في التمثيل أنّ في جو المكان ستاراً يُرفع وستاراً يُسدّل بين الفصول.

فما لبث القنصل أن خرج بغير الوجه الذي دخل به، ولكنّه عبّس في وجهي أنا وتكرّره لي كأنّه أضغّر شأنِي؛ فأزدرتني عينه، فوثّبت إلى رأسه فكرة الامتيازات. وهذه القوّة الظالمّة (الامتيازات)؛ لو أنّها كانت قوّة قاهرة نافذة، وأعين بها طفيلتي ليقترح دور الناس أمناً مطمئناً - لاستحى هذا الطفيلتي أن يأكل بها؛ إذ تجمع عليه التطفل والمقت^(٢) معاً، ولو قيل لحسام بتار: إنّ لك امتيازاً على بعض السيوف ألا تقارعك^(٣)، وإنّك محميّ أن تنالك سَطوتها إذا قارعتها^(٤) - لأنّ أن يسمى سيفاً بهذا أو بمثل هذا، فإنّ القوّة الظالمّة التي يُعيرونه إيّاها، ليست إلّا مهانة لشرف القوّة العادلة التي هي فيه.

(١) اختلاب: خداع.

(٢) المقت: الكراهة.

(٣) تقارعك: تقاتلك.

(٤) قارعتها: غالبتها.

قال صاحب السر: ووصفت للبasha هيئة القنصل التي أنصرف بها، وتقطيعه في وجهي، وقلت له: إن الأذبابه وقعت في صخفتي أنا من هذه الوليمة... فضحك بملء فيه، ثم قال:

ستبطل هذه الامتيازات، وليس بيننا وبين نهايتها إلا أن ينتهي الشعب إلى حقيقته القومية، فما تركها في مكائتها إلا نزول الشعب عن مكائته، وتألله لكان هؤلاء الأجانب يسألوننا بهذه الامتيازات: أين مكانكم في بلادكم...؟

أتدري ما قاله هذا القنصل حين تجاذبنا الحديث^(١) فيها، بعد أن وضعت نفسي منه في موضع المحامي الذي يخذله^(٢) الدليل، فيحاول أن يستنزل كرم القضاة بعرض بؤس المتهم على شفقتهم، ليستعطف القانون الذي في أيديهم بالقانون الذي في أنفسهم؟

إنه قال: لا يلو من الشرقيون إلا أنفسهم، فهم علموا الأجانب أن تنف ريش الطير أول أكله. وهذه الامتيازات إن هي إلا معاملة بيننا وبين طبيعة الخضوع في الشعب. نعم إنها مضرّة ومعرّة، وظلم وقسوة؛ ولكنها على ذلك طبيعّة في الطبيعة؛ فما دام هذا الشعب لين المأخذ، فإن هذا يوجد له من يأخذه؛ وما دامت الكلمة الأولى في معجم لغته السياسيّة هي مادة (خضع يخضع)، فهذه الكلمة تحمل في معناها الواحد ألف معنى، منها: ظلم يظلم، وركب يركب، وملاك يملك، وأستبد يستبد، ودجل يدجل، وخدع يخدع؛ فهل يكثر أن يكون منها للأجانب أمتار يمتاز؟

قال صاحب السر: ثم زم البasha فمه وسكت: ففهمت الكلمات التي أنطبق فمه عليها وإن لم يتكلم بها، ثم غلبه الضحك فقال: - والله - يا بني لو أن برغوثاً طمر من ثوب صعلوك أجنبي، فوقع في ثوب صعلوك وطني، فتقاتلا فقبض عليهما، فأخذا - لما رضي برغوث الأجنبي أن يحاكم إلا في المحاكم المختلطة...

ثم سكّت البasha مرة أخرى كأنه يقول كلاماً آخر لا يجوز نشره، ثم قال: يا بني، إن الأجانب لا يضعون الحمل إلا على من يحمل؛ فإذا نحن توخينا مرادهم

(٢) يخذله: يعوزه.

(١) تجاذبنا الحديث: تداولناه.

أرادوا لأنفسهم لا لنا؛ وإذا وافقنا لهم غرضاً جعلوه كألدینارٍ فيه مائة قرش، وأبوا إلا أن نُصارِفهم عليه بمائة. هم - ويحك - يمتازون في معاملتنا لا في سطور القوانين والمعاهدات، فلنَبْطِل هذه المعاملة يَبْطُل هذا الامتياز.

إنَّ الحقَّ يا بُنيَّ استحقاقٌ لا دعوى؛ وهذا التنازُعُ على الحياة يجعلُ وسائله الطبيعيةَ الانتزاعَ والمطالبةَ والتجردَ له والدأبُ فيه والإصرارُ عليه. وكلُّ الأقوياء يعلمون أنَّ موضعَ الاعتدالِ بينَ غَضَبِ الحقِّ وبينَ استردادهِ موضعٌ لا مكانَ له في الطبيعة: والأجنبيُّ يعتمدُ علينا نحن في جعله أكبرَ مِنَّا وأوفرَ حُرمةً؛ فإذا أسقطَ الشعبُ هذه الامتيازاتِ من فكره، وروحه وأعصابه، وثارَتْ فيه كبرياءُ الكوطنيةِ فاستنكفَ مِنَ الاستخذاءِ، ونفرَ مِنَ الاختضاعِ، وأبى إلا أن يُعلنَ كرامته، وصرفَ أهتمامه إلى حقوقِ هذه الكرامة، وأصرَّ ألا يُعاملَ أجنبيًّا يرى لنفسه امتيازاً على وطني، وقرَّرَ ذلك في نفسه، ومكَّنَه في رُوعه، وأجمعَ عليه إجماعه على الدين - إذا جاءت (إذا) هذه بشرطها مِنَ الشعب، جاء جوابُ الشرطِ مِنَ الأجانبِ بنزولهم عن الامتيازاتِ وأنحلتِ المشكلة. إننا يا بُنيَّ لا نملكُ ضغطَ السياسة، ولكنَّا نملكُ ما هو أقوى؛ نملكُ ضغطَ الحياة.

لهم امتيازُ بأنهم أجنبٌ عتاً، فليكنْ لنا الامتيازُ الآخرُ بأننا أجنبٌ عنهم في المعاملة، مثلاً بمثل، وما يَفْلُ الحديدُ إلا الحديد.

يقولون: النظامُ الاقتصاديُّ والمالُ الأجنبيُّ. ولكنْ أرايتَ المالَ في يدِ الأجنبيِّ إلا مالاً وتدبيراً وسلطةً وسيادةً، من أنه في يدِ الكوطنيِّ دينٌ وإسرافٌ ورقٌ وذلٌّ؟

لم يظهز لي إلا الساعةُ أنَّ من حِكْمَةِ تحريمِ الربا في شريعتنا الإسلامية، وقايةُ الأمةِ كُلِّها في ثرواتها وضياعِها ومُستغلاتِها، وحمايةُ الشعبِ وملوكِهِ مِنَ الإسرافِ والتخريقِ والكاذبِ، وردُّ الاستعمارِ الاقتصاديِّ، وشلُّ النفوذِ الأجنبيِّ.

أما لو أننا كتبنا مِنَ الأولِ على أبوابِ «البنك العقاري» وأبوابِ ذريته: «يَمْحَقُ اللَّهُ أَرْبَاؤَ» فهلْ كانتْ تُقرأ هذه الكلماتُ أثلثاً على أبوابِ تلك البنوكِ الأجنبيةِ إلا هكذا: «محالٌ خاليةٌ للإيجار»...؟

فلتعصب...!

وقال صاحب سر (م) باشا: جاءني يوماً صحفياً إنجليزياً من هؤلاء الكتاب المتعصبين الذين تطلقهم إنجلترا كما تطلق مدافعها؛ غير أن هذه للبارود والرصاص والقنابل وأولئك للكذب والثهم والمغالطات.

وهو أذن وعين^(١) ولسان وقلم لجريدة إنجليزية كبيرة، معروفة بثقل وطأتها على الشرق والإسلام؛ تضحك بإفساد، وتداوي الحمى بالطاعون، وتعمل في نهضة الشرقيين وأستقلالهم ما يشبه قطع نذري الأثم وهو في شفتي رضيعها المسكين.

ودخل عليّ هذا الكاتب في الساعة التي خرج فيها من غرفتي صاحب جريدة أسبوعية في مدينتنا؛ كان قد نفخ الضفدع لجعلها ثوراً، فحوّل صحيفته إلى جريدة يومية، وهو لا يجد مادتها ولا يستطيع أسبابها، إلا أنه كذاب^(٢) الناس عندنا كان يحسب الكذب في العمل سهلاً مهلاً^(٣) كالكذب في القول، فلم يتعاطفه الأمر العظيم، وأقرض لعمله كل الفاظ النجاح من اللغة...

وظنّ عند نفسه أنه سيخوف بجريدته الكبراء والأعيان والمياسير حتى يغلب على جميعهم، ويشارك أصابعه مع أصابعهم في استخراج ما يحتاج إليه من جيوبهم؛ فلم تعيش جريدته إلا أياماً وأتلف ما جمع، ورهن فيها داره التي لا يملك غيرها؛ وعلم أخيراً أن الذي يكذب فيسمي الخروف جملأً، لا يقبل منه أن يكذب على الكذب نفسه، فيزعم أن الناقة هي التي تتجث هذا الخروف...

ولما انقلبت هذه الجريدة يومية كان ألباشا هو ملجأ الرجل ووزره، وكان لكل يوم في الجريدة أخبار عن ألباشا لا تقع في الدنيا ولا تجمع من الحوادث، ولكن تقع في ذهن الكاتب، وتجمع من صناديق الحروف؛ حتى قال لي ألباشا مرة: إن أسمى قد أصبح موظفاً في هذه الجريدة لجمع الاشتراك...

(١) يقصد بذلك أنه جاسوس.

(٢) دأب، بسكون الهمزة: العادة.

(٣) هذا من الاتباع بلغة العرب.

وتحرى هذا الصحفي أن يستأذن يوماً على ألباشا وفي مجلسه حشد عظيم من السراة والأعيان والعُمد، وكان جمعهم لأمر، فما هو إلا أن دخل الصحفي حتى ابتدّره ألباشا بهذا السؤال: يا أستاذ، ما هي تلغرافات أوربا عن الحوادث التي ستقع غداً...؟

فضج المجلس بالضحك، وفقد المسكين بهذه النكتة أربعين ديناراً كان يؤمل أن يخرج بها، وأعلن ألباشا في أظرف إعلان وأبلغه كذب الرجل ونفاقه وإسفافه، وأنه من رجال الصحافة المدوّرة تدوير الكرغيف...

* * *

قال: ونظرت إلى الصحفي الإنجليزي نظرة أكتشفه بها، فإذا أول الفرق بينه وبين أمثاله عندنا - شعوره أن بلاده قد ربّته (للخارج)، فهو عند نفسه كأنه إنجليزي مرتين؛ ويأتي من ذلك إحساسه بعزّة المالك وقوّة المستعمر، فلا يكون حيث يكون إلا في صراحة الأمر النافذ، أو غموض الحيلة المبهمة؛ ويستحكم بهذا وذاك طبعه العملي، فهو بغريزته مقاتل من مقاتلة الفكر، يلتمس ميدانه بين القوى المتضاربة لا يبالى أن يكون فيه الموت ما دام فيه العمل؛ وبهذا كله تراه نافذ البصيرة قائماً على سواء الطريق، لأنّ الإنجليزي ألباطن فيه يوجّه الإنجليزي الظاهر منه ويسانده؛ وفي أعماق الاثنين تجد إنجلترا، وليس غير إنجلترا.

ثم تفرّست في الرجل أريد كنهه^(١) وحقيقته، فإذا له نفس مفتوحة مقلّة معاً، كغرف الدار: الواحدة يفتح بعضها لِمَا فيه كيما يرى، ويُقفل بعضها على ما فيه كيلا يرى.

وله وجه عملي يكاد يحاسبك على نظراتك إليه؛ تدور في هذا الوجه عينا قد اعتادت وزن الأشياء والمعاني؛ يتلأل في هاتين العينين شعاع النفس القويّة الممرّنة، قد نفّت الثقة بها نصف هموم الحياة عن صاحبها، تُمُدُّ هذه النفس طبيعة مؤمنة بأن أكبر سرورها في أعمالها، فواجبها في الحياة أن تعمل كل ما يحسن بها وكل ما يحسن منها.

لقد خيل إلي، وأنا أنظر إلى نفسيّة هذا الإنجليزي أن كلمة الأخيّة عند هؤلاء الإنجليزي غير كلمة الأخيّة عندنا - نحن الشرقيين -، فإن خيبة النفس لا تيمّ معانيها

(١) كنهه: سرّه وكونه.

أبدأ في النفس العاملة الدائبة، التي يشعرها الواجب أنه شيء إلهي لا يخيب، وأن ما يُرفض على هذه الأرض من العمل الطيب لا يُرفض في السماء.

وكأن الرجل قد أدرك غرضي بملكته الصحافية الدقيقة، فأجابني عن السؤال الذي لم أسأله، وقال لي مبتدئاً: إن أساسنا الشخصية وحاسة الواجب؛ وإن فيكم أنتم كل شيء إلا هذين؛ فأخلاقنا تظهر دائماً في العمل، وأخلاقكم تظهر دائماً في الكلام الفارغ؛ ونحن نطلب الحقيقة، وأنتم تطلبون الألفاظ، حتى إنه لو خسر المصري ألف دينار، ثم أعلن أنها مائة فقط، وصدق الناس أنها مائة؛ لكان عند نفسه كأنه ربح تسعمائة...

قال صاحب السر: وأستاذت له على الباشا فسهل ورحب؛ ثم هممت بالانصراف عنهما، ولكن الإنجليزي قال: يا باشا! إنه قد تمكن في روعي أن صاحب سرك هذا متعصب ديني، وقد علمت أنه ابن فلان القاضي الشرعي، فطروشة ابن العمامة؛ ولقد كان ينظر إلي، وكأنه يتأمل من أين يذبخني...

فضحك الباشا وقال لي: يا فلان إن هذا الكاتب من تلاميذ برناردشو، فهو كأستاذه يجعل لكل حقيقة ذنباً كذيل الهر، ثم يمسكها منه فإذا هي تعض وتلوى...

والتفت بعد ذلك إلى الإنجليزي ثم قال له: جاءني كتابك فإذا كنت تريد رأيي فيما تسميه التعصب الديني عند المسلمين، فعجيب أن تضعوا أنتم الغلطة ثم تسألونا نحن فيها! إنك لتعلم أن هذا التعصب الكذب الذي أكثرتم الكلام فيه، إنما هو لفظ من ألفاظ السياسة الأوربية، أرسلتموه إلينا ليقايل لفظ التعصب الحقيقي؛ ومن قبل هذا اخترعتم لفظة (الأقليات)، وأجريتموها في لغتكم السياسية، لتجعلوا بها لتعضينا الوطني شكلاً آخر غير شكله فتفسدوه علينا بهذه المادة المفسدة؛ وبذلك تضربون أليد اليمنى من غير أن تلمسوها، إذ تضربونها بشل اليد اليسرى.

إن الإسلام في نفسه عدو شديد على التعصب الذي تفهمونه، فهو يقول لإلهه في كتابه العزيز: ﴿كُونُوا قَوْمِينَ بِالْأَقْسَطِ لِمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين.

فإذا كان العدل في هذا الدين عدلاً صارماً، وحقاً مخضاً لا يُميز بشيء البتة،

لا ذات النفس التي فيها اشتهاؤ الدم، ولا أصلها من الأبوين اللذين جاءتا منهما وراثته الدم، ولا أطرافها من الأقربين الذين يلتفون حول نسب الدم - إذا كان هذا، فأين في هذا العدل محل الظلم؟

لعلك تشير إلى هذه الرعونة التي تعرفها في الأغمار والأغفال من العامة، فهذه ليست من أثر الدين، بل هي أثر الجهل بالدين؛ إن هذا ليس تعصباً، بل هو معنى من معاني الحمية النفسية الخرقاء لم تجدوا أنتم له لفظاً، وكان أقرب الألفاظ إليه عندكم هو التعصب، فأطلقتموه عليه للمعنى الذي في نفسه والمعنى الذي في أنفسكم. ألا فاعلم أن إسلام العامة اليوم هو كالدعوى المقبولة شكلاً والمرفوضة بعد ذلك.

قال الإنجليزى: ولكن لهؤلاء العامة علماء دينين يدبرونهم من ورائهم. وهم عندكم ورثة النبي ﷺ أي منبع الفكرة وقوتها.

قال أباشا: غير أن هؤلاء قد أصبحوا كلهم أو أكثرهم لا يتدس^(١) فيهم عزق من تلك الوراثة، وذلك هو الذي بلغ بنا ما ترى؛ فالقوم إلا قليلاً منهم كالأسلاك الكهربائية المعطلة: لا فيها سلب ولا إيجاب؛ ولو أن هؤلاء العلماء كانت فيهم كهرباء النبوة، لكهربوا الأمم الإسلامية في أقطارها المختلفة. إذن لقام في وجه الاستعمار الأوربي أربعمائة مليون مسلم جلد^(٢) صام شديد، متظاهرين متعاونين، قد أعدوا كل ما استطاعوا من قوة العلم، وقوة النفس، وهم لو قذف كل منهم بحجرين لردموا البحر.

أتريد معنى التعصب في الإسلام؟ إنه بعينه كتعصب كل إنجليزى للأسطول؛ فهو تشابك المسلمين في أرجاء الأرض قاطبة، وأخذهم بأسباب القوة إلى آخر الاستطاعة، لدفع ظلم القوة بأخر ما في الاستطاعة.

وهو بذلك يعمل عملين: استكمال الوجود الإسلامى، والدفاع عن كماله.

وإذا أنت ترجمت هذا إلى معناه السياسى، كان معناه إصرار جميع المسلمين على نوع الحياة وكرامتها، لا على استمرار الحياة ووجودها فقط. وذلك هو مبدؤكم أنتم أيها الإنجليز: لا تقبلون إلا حياة السيادة والحكم والحرية، فأنتم مسلمون في هذا المبدأ لو عدلتكم.

(١) يتدس: يدخل في السر.

(٢) جلد، يسكون اللام: صبور في القتال.

أليس من البلاء أن المسلمين اليوم لا يدرُس بعضهم بلادَ بعض إلا على الخريطة... مع أن الحج لم يُشرَح في دينهم إلا ليتعوديهم دراسة الأرض في الأرض نفسها لا في الورق، ثم ليكون من مبادئهم العملية أن العالم مفتوح لا مقفل؟

إنَّ التَّعَصُّبَ في حقيقته هو إعلانُ الأُمَّةِ أنَّها في طاعةِ الشريعةِ الكاملةِ، وأنَّ لها الروحَ الحادةَ لا أبليدةَ، وأنَّ أساسها في السياسةِ الاحترامُ الذاتيُّ لا تقبُّلُ غيرهَ، وأنَّ أفكارها الاجتماعيةَ حقائقٌ ثابتةٌ لا أشكالٌ نظريَّة، وأنَّ مبدأها هو الحقُّ ولا شيءٌ غيرُ الحقِّ، وأنَّ قاعدتها «لا يضرُّكم من ضلَّ إذا هتديتم». فالهدايةُ أولاً والهدايةُ آخرًا: الهدايةُ في القوَّة، والهدايةُ في السياسة، والهدايةُ في الاجتماع. فقلْ لي بحياتك وحياةِ إنجلترا: أيعابُ ذلك على المسلمين إلا بالألفاظ التي يعيبُ اللصُّ بها أهلَ الدارِ لأنَّهم يُحكمون في وجههِ إقبالَ الباب...؟

قالَ: فوجم الإنجليزُ حتى ذهلَ عن نفسه وصاح:

إذا كانَ هذا فلتتعصَّب، فلتتعصَّب.

وزن الماضي

وقال صاحب سر (م) باشا: إني لجالس ذات يوم وفي يدي كتاب لبعض المتفلسفة من ملاحدة أوربا الذين يريدون أن يفهموا ما لا يفهم؛ وكان ألباشا قد رآني مرة أنظر فيه وأتدبر مسائله الغامضة، فقال لي: يا بُني، إن أحد الكلاب كان شاعراً فيلسوفاً، فنظر ليلة في النجوم فراغته وحيرته؛ فآلى أن يفهمها بعقله وتفرغ لدرسيها مدة طويلة، ثم وضع فيها كتاباً نفيساً ضخماً، كان أعظم كتب الفلسفة وأشدّها غموضاً عند الكلاب، وكان اسمه: العظام المبعثرة فوقنا.

قال: فانا جالس أقرأ هذا الكلام الذي لا صحيح فيه إلا أنه غير صحيح. إذ دخل عليّ كاتب متفلسف ملجّد من هؤلاء المدخولين في عقولهم، المفتونين بأوربا ومذاهبها وعلوّياتها وسفليّاتها... وهو يكتب في الصحف، ويؤلف الرسائل، وقد جاء يستنصرخ ألباشا على فلاح شاركه في زراعة أرضه، فزرعه أفلّاح فيها وحصدّه، ودهاه بكيده، وأبتلاه بغلظته، وتهدّده بالثّقة.

وكان هذا الفلاح الساذج الغرير قد سبقه إليّ وعرفه لي تعريفاً قاموسياً محيطاً من مادة كَفَر يكفّر... ثم قال بعد ذلك: إنّه (بياع كلام) يصدق ويكذب حسب الطلب... وألذمه نفسها ليست عنده إلا (عملية حسابية)؛ وهو في أقوى جهاته لا ينفع الدنيا بما تنفعها به البهيمة من أضعف جهاتها.

أما الكاتب فيقول عن هذا الفلاح: إنّه لا يدري أهو يتم بهائمه أم بهائمته هي التي تتيّمه، وإن الذي يرفع القضية على مثل هذا المخلوق إلى محكمة لا يكون إلا كالذي يُعقّق بالعصا على جحر فيه الحية السامة.

ورأى المتفلسف الكتاب على يدي، فتهلّل واستبشر وقال لي: هذا نسب بيتنا... فأدركت من كلمته هذه جملته وتفصيله، وخيل إليّ أنني أرى فيه نفسه الشرقية كالمرأة المطلقة... فقلت له: أنا أشرتُ هذا الكتاب من أوربا، ولكني لم أشرت منها دماغياً.

وكلَّمْتُهُ أَسْتَخْرِجُ ما عِنْدَهُ؛ فإذا هو في قَوْمِهِ وتاريخِ قَوْمِهِ كَالسَّائِحِ في بلادِ أجنبيَّةٍ: يَفْتَحُ لها عَيْنَهُ ولا يَفْتَحُ لها قَلْبَهُ.

وكانَ جريئاً في كلامِهِ مَعَ ألباشا: يَطْرُدُ أَلْقَوْلَ حيثُ شاءَ حقّاً وباطلاً، ثُمَّ لا سِنادَ لِرأيِهِ ولا تَشْيِيتَ لِحُجَّتِهِ إِلَّا قَوْلَ فُلانٍ ورأيِ فُلانٍ، كأنَّ في رأسِهِ عَقْلاً شَخَاضاً... ثُمَّ ذَكَرَ آخَرَ الأَمْرِ ما جاءَ لَهُ، فَخَجَّلَهُ ألباشا وقالَ: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ كَكُلِّ مَسائِلِكَ: تَحْتَاجُ إلى رَأيِ فيلسُوفِ أوربي... وأَعْرَضَ عَنْهُ ولم يَدْخُلْ في شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ.

ولَمَّا أَنْصَرَفَ قالَ ألباشا: يَحْسِبُ هَذَا نَفْسَهُ عالِماً، وهو صُعلوكٌ عِلْمِي... وإنَّما يَكُونُ دِمَاعُهُ وأدْمَغُهُ أَمثالِهِ عِنْدَ أَفلاسِفَةِ والعِلَماءِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَهُمْ كَمَا تَكُونُ سَلَّةُ الأَمْهَلاتِ عِنْدَ الصَّحافِيِّينَ.

إِنَّ هَذَا الرِّجْلَ يُتَمُّ ضَعْفَ عَقْلِهِ في الرَأيِ بِقُوَّةٍ عِنادٍ فِيهِ، لِيَجْعَلَ لَهُ ثَباتَ الحَقِيقَةِ فيظُنُّ حَقِيقَةً، كأنَّ حَضْضَةَ أَلْماءِ بِالْيَدِ في وعاءٍ صَغيرٍ يَنْقُلُ إلى هَذَا الوعاءِ طَبِيعَةَ المَوْجِ؛ وَعِنْدَ أَمثالِ هَذَا المَفْتونِ مِنَ الصَّعاليكِ العِلْمِيِّينَ، أَنَّكَ إِذا تَناولْتَ مَسْأَلَةً فَأَخْطَأْتَ فِيها خَطأً جريئاً، فَقَدْ جَعَلْتَهَا بِخَطِّكَ الجَرىءِ مَسْأَلَةً مِنَ العِلْمِ... وَأَنَّكَ إِذا عانَدْتَ فَتَبَّتِ الخُطأُ في وَجهِ الناقِدينَ سَنَةً، كانَ حَقِيقَةً مَدَّةَ سَنَةٍ...

هَم مَفْتونونَ زائِعونَ، وَمَنْ فِتْنَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ البَعْدَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الأَفْضالِ الشَّرِيقَةِ، كالأَبْعَدِ بَيْنَ العالِمِ والأَجاهِلِ؛ وَلَوْ حَقَّقُوا لَرَأَوْهُ بَعْداً في الغُرائرِ لا في العَقْلِ، أَي كالأَبْعَدِ بَيْنَ الفُجورِ وما أَشَبَّهُه الفُجورَ، وَبَيْنَ التَّقوى وما أَشَبَّهُه التَّقوى.

زَعَمَ الأَحْمَقُ أَنَّ خِصَمَةَ الأَفْلاحِ رَجُلٌ راسِخٌ في المَاضِي، كَأَنَّهُ باقٍ في أَمْسٍ لَمْ يَنْتَقِلْ مِنْهُ، مَعَ أَنَّ أَمْسَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ إلى أَنَّ الأُمَّةَ يَجِبُ أَنْ تَنْبِذَ ماضِيَّها، ثُمَّ أَذْعَى أَنَّ الإسلامَ يَتَعَصَّبُ لِلماضي. هَذِهِ ثَلَاثُ كَلِماتٍ تَخْرُجُ مِنْها الأَربَعَةُ الَّتِي سَكَتَ عَنْها...

وأنا لو شِئْتُ أَنْ أَسْخَرَ مِنْ مِثْلِ هَذَا الصُّعْلوكِ العِلْمِيِّ، لَمَّا وَجَدْتُ في أَساليبِ السَّخَرِيَّةِ أَبلغَ مِنْ أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْهِ بِقارورةِ فارِغَةٍ وأَقولُ لَهُ: املأْها لي مِنْ آراءِ أَفلاسِفَةٍ...

يَغْفُلُ هذا وأمثاله عن أَنَّ الدِّينَ الإسلامي لا يعرف الماضيَ بمعنى ما مضى على إطلاقه؛ بل هو يشترطُ فيه ألاَّ يُخالِفَ العقلَ ولا العلمَ، وألاَّ يناقضَ الهدايةَ؛ ﴿قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا آلَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَقُولُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟ وفي الثالثة: ﴿قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾؟ وفي الرابعة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِآهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ﴾؟

فانظر كيف صَوَّرَ ما نُسَمِيهِ اليومَ بالجمودِ في قوله: (حسبنا)، وكيف صَوَّرَ ما نُسَمِيهِ بالرجعيةِ في قوله (ننبغ)، وتامل كيف رفضَ الجمودَ والرجعيةَ معاً في العلمِ والعقلِ والهدايةِ، أي في آثارها من العلومِ والمخترعاتِ والفضائلِ الإنسانيةِ، وكيف أبطلَ في تلك الثلاثِ الاحتجاجَ بالماضي بهذا الأسلوبِ الدقيقِ العالِي، وهو قوله في كلِّ آيةٍ أولُو، أولُو. لم يغيَرها؛ بل كرَّرها بلفظها أربعَ مرات.

فالمعجِزُ هنا مجيءُ آياتٍ بهذه الصورة المنطقية لإسقاطِ حُجَّتِهِمْ، ونفي معنى التقديسِ عن الماضي فيهنَّ؛ إذ كانَ العلمُ دائمَ التغيُّرِ، وكانَ العقلُ دائمَ التجديدِ والإبداعِ، وكانتِ الهدايةُ شديدةً على الطبيعة الحيوانية التي هي ماضي النفس؛ فكأنَّها جديدةٌ على النفسِ عندَ كلِّ شهوة.

إنَّ الإنسانَ بماضيه وحاضره كأنَّه مقسومٌ قسمين، يقول أحدهما: أريدُ أنْ أكونَ. ويقول الآخرُ: أنا قد كنتُ. فالإسلامُ بهذه الآياتِ قد أوجبَ وزنَ الكلمتين في كلِّ زمنٍ بما هوَ الأصحُّ، وبما هوَ الأنفعُ، وبما هوَ الأهدى؛ وبإشراطِهِ الهدايةَ في جميعها أشارَ إلى أنَّ الكمالَ النفسيَّ للفردِ يجبُ أنْ يكونَ مرتبطاً بالكمالِ الإنسانيِّ للجنسِ.

وهذا معنى عجيب، وأعجبُ منه ما ترى من أنَّ الإسلامَ قد أصلحَ فكرةَ الماضي؛ فنقلها من معنى الآباءِ والأجدادِ للناسِ، إلى المعاني التي هي كالآباءِ والأجدادِ لإنسانيةِ الناسِ. وألأخذُ (بالأهدى) في اجتماعِ أُمَّةٍ مِنَ الأممِ، إنَّما هو بعينه ناموسُ الترقِّي والتطوُّرِ.

ومن أدقِّ الأسرارِ قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ فكلمة (أُمَّة) هذه لم يعرفها أحدٌ على حقيقتها، ولم تُفسَّرْها إلَّا علومُ هذا الزمنِ، فهي المشاعرُ النفسيةُ

التي يتكوّن منها مزاج الشعب، وفيها يستقرّ الماضي؛ كأنّ الآية قد عبّرت بآخر ما
أنتهى إليه علماء النفس: من أنّ الإنسان ابنُ أبويه وابنُ شعبه أيضاً.
فالتعصب في الإسلام هو للعلم النافع، وللمجد الصحيح، وللهداية الباعثة
على الكمال؛ وتعصب الجيل لمثل هذا في ماضيه، هو في اسمه تعصب، غير أنّه
في معناه إنّما هو العمل لتسليم مجد الأُمّة إلى الجيل التالي.

المعجم السياسي

وحدثني صاحب سر (م) باشا قال: كُتِبَ في سنة ١٩٢٠، وهي بنتُ سنة ١٩١٩؛ وقد اجتمعت الأئمة على مقاطعة لجنة (ملنر) لا تُكلّمها، فجعلت السكوت ثورة، وأعلن الشعب أن كلمته في لسان ألفريد ينطق ألفود بها نطق النبي بما يوحي إليه، فما يكون لأحد غيره أن يقولها، ولا أن يقول أوحى إلي. وأبى اللورد ملنر أن يصدق أن للمصريين إجماعاً يُعْتَدُّ به، وأنهم دخلوا في السياسة دخولاً ثابتاً فرسخوا^(١) فيها، وأنهم أصبحوا مع الإنجليز كالإنجليز الذين يقولون عن أنفسهم في مثلهم السائر: ينبغي أن نكون أحراراً مثل أعمالنا.

وزعم اللورد لنفسه، أن هذه الأحزاب المصرية لا يتفق منها اثنين أبداً إلا كان بينهما ثالث يختلفان عليه، وهو الطمع في مناصب الحكم؛ وأستخرج من ذلك أن المصري والمصري كشقي المقراض^(٢): لا يتحركان في عمل إلا على تمزيق شيء بينهما؛ فإن لم يكن بينهما (الشيء) لم يكن بينهما شيء.

وذهب الرجل يتطّى ويخدس على ما يُخيّل له الظن، وقد حسب أن إنجلترا يحق لها أن تقول في المصريين ما يقول الله في خلقه كما ورد في الأثر: «إنما يتقلبون في قبضتي». وكما تقول اليوم لأهل فلسطين من العرب: «إِنْ يَشَأْ بَذَيْبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ»... وكان اللورد هذا رجلاً مُمَارِساً لمشاكل السياسة، دخالاً فيها، ذاهية من دهاء القوم، له في قلبه عيان وأذنان غير ما في وجهه كحذاق السياسيين؛ وهو يعرف أن سياسة قومه لا تدخل في شيء إلا دخول الأبرة بخيطها في الثوب، إن خرجت هي تركت الخيط وقد جمّع وشذ... فأراد أن يمتحن مذهب المصريين في إجماعهم على الاستقلال، وقدّر أنه واجد من الفلاحين عوناً له ومادة لمكره السياسي، وحسب ألفود صورة جديدة من طبقة (ألباشوات) القديمة، ينزلون من الشعب منزلة اليد التي تُمنيك القيد، من الرجل التي فيها

(١) رسخوا: استقرّوا.

(٢) المقراض: المقتص.

القيد، ويضعون معنى كلمة الحاجة في كلمة السياسة، ويقولون: الوطن وهم يريدون الجاه، ويقيمون الشعب كالسلم ينتصب قائماً بأيديهم ليحمل أرجلهم الصاعدة عليه.

فجاء اللورد إلى مصر، فوجد الأمة كلها قد حذرت منه وتيقظت له، حتى نصحه رشدي باشا بأنه لن يجد في مصر هزة تفاوضه؛ ولكنه كان مستيقناً أن أدن السياسة الإنجليزية (كالرديو) لصوتين: صوت الدنانير وصوت الجماهير، فمر في البلاد يرسم على الهواء علامات استفهام، وأنصف^(١) عنه الناس وأهملوه، وكان سير في دائرة الصمت التي مركزها أبو الهول، فبدأ وظل يبدأ حتى انتهى وما زال يبدأ... وساح في البلاد سياحة طويلة، وكأنه لم يسافر إلا من شقة أبي الهول السفلى إلى شقته العليا.

قال صاحب السر: وجاء اللورد لمقابلة الباشا، فمر على مرور كتاب مقفل: لا أعرف منه إلا العنوان؛ غير أنه رجل بمقدار الرجل الذي يخالف أمة كاملة تكاد تحسبه مطويًا على زويدة، وترى له قوتين تجس من أثرهما الرهبة والإعجاب، وإذا تأملت قلتي إن اللطف والظرف أضعف شمائله، وإن الذهاء والحيلة أقوى مواهبه. فلما لقيت الباشا من الغد، سألتني: كيف رأيت اللورد ملنر؟ فقلت: والله يا باشا إنه كالضرورة: ما يتمناها أحد ولكنها تأتي... .

فضحك الباشا وقال: يا ليت لنا - نحن الشرقيين - كل يوم ضرورة تصنع ما صنع اللورد؛ إنه كشف لنا في ذات أنفسنا عن حقيقة من أسمى الحقائق السياسية: وهي أن الشعب الذي يصير ولا يزال يصير يجعل الإغراء لا يغري والخوف لا يخيف.

ويا ليت الأمم الشرقية تتعلم هذا الصمت السياسي عن مجاوبة الكلمة الاستعمارية أحياناً؛ فإن صمت الأمة المصرية عن جواب (ملنر) كان معناه أن قدرة الأمة هي المتكلمة كلامها بدا الصمت، تعلن للعالم أن الواجب الشعبي قد وضع فقله على كل فم.

وقد فسر اللورد هذا السكوت بتفسيره السياسي، فأدرك منه أن في الشعب

(١) انصف عنه الناس: تفرقوا.

أَنْفَةً وَحِمِيَّةً وَقُوَّةً، وَأَنْ حِسَابَ الضَّمِيرِ الْوَطْنِيِّ أَصْبَحَ لِهَذِهِ الْأَفْنَدَةِ كَالْحِسَابِ الْإِلَهِيِّ لِلنَّفْسِ الْمُؤْمِنَةِ: كِلَاهُمَا مُسْتَعْلَنٌ يُخَافُ وَيُتَّقَى، وَكِلاهُمَا كَلِمَةٌ مُحَرَّمَةٌ.

أَيُّهُ مَعْجَزَةٌ هَذِهِ الَّتِي جَعَلْتَ كَلِمَةَ الْأَجْنَبِيِّ تَتَّخِذُ فِي أَذْهَانِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ شَكْلَ قَائِلِهَا، فَاجْتَمَعَتْ لَهَا أَلْبَلَاذُ عَلَى مَعْنَى الْرَفْضِ، وَأَصْبَحَ كُلُّ فَرْدٍ يَعْرِفُ مَحَلَّهُ مِنْ أَلْكَلِ، وَخَضَعَتِ الطَّبَائِعُ بِجَمَلِيَّتِهَا لِقَانُونِ الْعِزَّةِ الْقَوْمِيَّةِ، الَّذِي يُلْزِمُهَا أَلَّا تَخْضَعَ لِلْأَجْنَبِيِّ؟

إِنَّ الْأُتَمَّ بَعْضُ مَسَائِلِ نَفْسِيَّةِ كَهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ فَلَوْ أَنَّ لَنَا خَمْسَةَ دُرُوسٍ سِيَاسِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ كَدُرُوسِ (مِلنر)، لَكَانَتْ لَنَا فِي الْإِيمَانِ الْوَطْنِيِّ كَالْصَلَوَاتِ الْخَمْسِ.

وَالآنَ تَعَلَّمْتَ الْأُمَّةُ أَنَّ الشَّعْبَ الْعَزِيزَ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ فِي فَضِّ مَشَاكِلِهِ^(١) إِلَى الْحَلِّ وَإِلَى طَرِيقَةِ الْحَلِّ أَيْضاً، وَقَدْ كَانَ (مِلنر) هُوَ أَوَّلَ أَسَاتِذَتِنَا فِي تَعْلِيمِنَا الطَّرِيقَةَ.

وَهَذَا الدَّرْسُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ دَرْساً لِلشَّرْقِ كُلِّهِ، فَإِنَّ السِّيَاسَةَ الْأَسْتِعْمَارِيَّةَ قَائِمَةٌ فِيهِ عَلَى خِدَاعِ الطَّرِيقَةِ فِي حَلِّ مَشَاكِلِهِ، فَيَحْلُونَهَا وَيُعَقِّدُونَهَا فِي نَصِّ وَاحِدٍ؛ وَيُثَبِّتُ الْكَلَامُ الَّذِي يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ زَوَالُ الْخِلَافِ، وَيُثَبِّتُ الْعَمَلُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْمُرَادَ كَانَ زَوَالُ الْمَقَاوِمَةِ.

وَفِي السِّيَاسَةِ الْأُورُبِيَّةِ مُوَافَقَاتٌ دَمِيمَةٌ^(٢) كَالنِّسَاءِ الْمَشْرُوهَاتِ، فَإِذَا عَرَضُوا وَاحِدَةً مِنْهَا عَلَى مَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَزَوِّجُوهُ... فَأَبَاهَا وَفَتَحَ لَهَا عَيْنِيهِ بِكُلِّ مَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ الْإِبْصَارِ، أَعْفَوْهُ مِنْهَا وَقَالُوا لَهُ: سَنَاتِيكَ بِالْجَمِيلَةِ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ بِهَا إِلَى مَعْهَدِ التَّجْمِيلِ اللَّغْوِيِّ، فَيَصْقِلُونَهَا وَيَصْبِغُونَهَا، وَيَضَعُونَ لَهَا أَحْمَرَ السِّيَاسَةِ وَأَبْيَضَهَا، ثُمَّ يَعْرِضُونَهَا جَدِيدَةً عَلَى صَاحِبِهِمْ ذَاكَ، وَمَا صَنَعُوا مَا بِهِ صَارَتْ الدَّمِيمَةُ غَيْرَ دَمِيمَةٍ، وَلَكِنْ مَا بِهِ رَجَعَ غَيْرُ الْأَعْمَى كَالْأَعْمَى.

وَلَهُمْ عَقُولٌ عَجِيبَةٌ فِي اخْتِرَاعِ الْأَلْفَاظِ، حَتَّى لَتَكُونَ شِدَّةُ الْوُضُوحِ فِي عِبَارَةٍ، هِيَ بَعِينُهَا الطَّرِيقَةُ لِإِخْفَاءِ الْغَمُوضِ فِي عِبَارَةٍ أُخْرَى. وَكَثِيراً مَا يَأْتُونَ بِالْأَلْفَاظِ مُتَنَفِّخَةٍ تُحَسَّبُ جَزْلاً بَادِنَةً قَدْ مَلَأَهَا مَعْنَاهَا، وَهِيَ فِي السِّيَاسَةِ الْفَاطَ حُبَالَى، تَسْتَكْمِلُ حَمَلَهَا مَدَّةً ثُمَّ تَلِدُ.

(٢) دَمِيمَةٌ: بَشْعَةٌ.

(١) فَضِّ مَشَاكِلِهِ: حَلِّهَا.

ولهم من بعض الكلمات السياسية، كما لهم من بعض الرجال السياسيين؛
فيكون الرجل من ذهاتهم رجلاً كالناس، وهو عندهم مسمار دقوه في أرض كذا أو
مملكة كذا، ويكون اللفظ لفظاً كاللغة، وهو مسمار دقوه في وثيقة أو معاهدة.

ثم ضحك ألباشا وقال: إن أرضنا تُخرج القطن، وسياستنا تُخرج الفاظاً
كالقطن: لا توضع في المغزل إلا مدّت وتحولّت. وإذا ذهبنا نخالفهم في التأويل
والتفسير، لم نجد عندنا المعجم السياسي الذي يملئ النص. أتدري يا بني ما هو
المعجم السياسي؟

أما إنه لو كان كتاباً يتألف من مليون كلمة، لذهبت كلها عبثاً وباطلاً وهراء،
ولكنه ذلك المعجم الحي، ذلك المعجم الذي يتألف من مليون جندي...

اللسانُ المَرْقُع

وقالَ صاحبُ سرٍّ (م) باشا: جاء «حضرتهُ صاحبُ السعادة» فلانٌ لزيارة الباشا؛ وهو رجلٌ مصريٌّ وُلِدَ في بعضِ القرى، ما نعلمُ أنَّ اللهَ (تعالى) ميّزه بجوهرٍ غيرِ الجواهر، ولا طَبِيعٍ غيرِ الطَبِيع، ولا تركيبٍ غيرِ التركيب، ولا زادَ في دميهِ نقطةَ زهَبٍ، ولا وضعَهُ موضِعَ الأوسطِ بينَ فئتينِ مِنَ الخَلِيقَةِ. غيرَ أنَّه زارَ فرنسا، وطافَ بإنجلترا، وساحَ في إيطاليا، وعاجَ على ألمانيا، ولوَّثَ نفسَهُ ألواناً، فهو مصريٌّ ملوَّن. ومن ثَمَّ كانَ لا يرى في بلادِهِ وقومِهِ إلَّا الفُروقَ بينَ ما هنا وبينَ ما هناك. فما يظهرُ له دينٌ قوميٌّ إلَّا مُقابلاً لِشَهواتِ أَحبِّها وغامرَ فيها، ولا لغةَ قوميٍّ إلَّا مقرونةً بلغةٍ أُخرى ودَّ لو كانَ من أَهلِها، ولا تاريخَ قوميٍّ إلَّا مغمى عليه. . . كالميتِ بينَ تواريخِ الأُمَم.

هو كغيرِهِ من هؤلاءِ المترفينَ المنعمينَ: مصريُّ المالِ فقط، إذ كانتِ أسبابُهُم ومستغلاتُهُم في مصر؛ عربيُّ الأسمِ لا غير، إذ كانتِ أَسماؤُهُم من جِناية أَهلِيهِم بالطَبِيعَةِ؛ مُسلمٌ ما مضى دونَ ما هو حاضِر، إذ كانَ لا جيلةَ في أَنسابِهِم التي أَنحدروا منها.

هو كغيرِهِ من هؤلاءِ المترفينَ المنعمينَ المفتونينَ بالمدنيَّة: لِكُلِّ منهم جنسُهُ المِصريُّ ولِفكرِهِ جنسٌ آخر.

قال: وكانَ حضرتهُ صاحبُ السعادة يُكلِّمُ الباشا بالعربيَّة التي تلعنُها العربيَّة، مرتفعاً بها عن لغةِ ألفِصيحِ ارتفاعاً. منحطاً. . . نازلاً بها عن لغةِ السُّوقِ نزولاً عالياً. . . فكانَ يرتَضِخُ لُكنَّةَ أعجميَّة^(١)، بيِّنا هي في بعضِ الألفاظِ جرسٌ عالٍ يطنُّ، إذا هي في لفظٍ آخرَ صوتٌ مريضٌ يئنُّ، إذا هي في كلمةٍ ثالثةٍ نغمٌ موسيقيٌّ يرنُّ. ورأيتُهُ يتكلَّفُ نسيانَ بعضِ الجُمَلِ العربيَّةِ ليلويَ لِسانَهُ بغيرِها مِنَ الفرنسيَّة، لا نظرفاً ولا تملُّحاً ولا إظهاراً لِقدرةٍ أو عِلْمٍ، ولكنِ استجابةً لِلشعورِ الأجنبيِّ الخفيِّ

(١) يرتَضِخُ لُكنَّةَ أعجميَّة: يلهج لهجة أوروية.

المتكبر في نفسه . فكانت وطنيته عقليه تأبى إلا أن تُكذَّب وطنيته لسانه ، وهو بإحداهما زائف على قومه ، وبالأخرى زائف على غير قومه .

* * *

فلما أنصرف الرجل قال الباشا : أف لهذا وأمثال هذا ! أف لهم ولما يصنعون ! إن هذا الكبير يلقبونه «حضره صاحب السعاده» ، ولأشرف منه - واللؤ - رجل قروي ساذج يكون لقبه «حضره صاحب الجاموسه» . . . نعم إن الفلاح عندنا جاهل علم ، ولكن هذا أقبح منه جهلاً ، فإنه جاهل وطنيته .

ثم إن الجاموسه وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن ؛ فما هو عمل حضره (صاحب اللسان المرفع) هذا ؟ إن عمله أن يعلن برطانيته^(١) الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مهينه ، وأنه متجرد من الروح السياسي للغة قومه ؛ إذ لا يظهر الروح السياسي للغة ما ، إلا في الحزب عليها وتقديمها على سواها .

كان الواجب على مثل هذا ألا يتكلم في بلاده إلا بلغته ، وكان الذي هو أوجب أن يتعصب لها على كل لغة تزاحمها في أرضها ، فترك هذا وهذا وكان هو المزاحم بنفسه ؛ فهو على أنه «حضره صاحب سعاده» ، لا ينزل نفسه من اللغة القومية إلا منزلة خادم أجنبي في حانة .

أتدري ما هو سر هؤلاء الكبراء وهؤلاء السراة الذين يطمطمون^(٢) إذا تكلموا فيما بينهم ؟ إنهم عندنا طبقات :

أما واحدة ، فإنهم يصنعون هذا الصنيع منجذبين إلى أصل راسخ في طباعهم ، مما تركه الظلم والاستبداد والحمق في زمن الحكم التركي ؛ فهم يبدون جوهر نفوسهم لأعينهم وأعين الناس ، كأن اللغة الأجنبية فيما بينهم علامة الحكم والسلطة واحتقار الشعب واستمرار ذلك الحمق في الدم . . . وهم بها يتنبلون^(٣) .

وأما طبقة ، فإنهم يتكلمون هذا مما في نفوسهم من طباع أحدثها التفاف والخضوع والذل السياسي في عهد الاحتلال الإنجليزي ؛ فاللغة الأجنبية بينهم تشريف واعتبار ، كأنهم بها من غير الشعب المحكوم الذي فقد السلطة ، وهم بها يتمجدون .

(١) رطانة : لهجة .

(٢) يطمطمون : يجعلون في الستهم عجمة وكلمات منكرة .

(٣) يتنبلون : يرتفعون .

وأما جماعة، فإنهم يتعمّدون هذا يُريدون به عيب اللغة العربيّة وتهجينها^(١)، إذ اتخذوا من عداوة هذه اللغة طريقةً اتحلّوها^(٢) ومذهباً انتسبوا إليه، وفيهم العالمُ بعلوم أوربا، والأديبُ بأدب أوربا؛ وذلك من عداوتهم للدين الإسلامي، إذ جعل هذه اللغة حكومةً باقيةً في بلادهم مع كل حكومة فوق كل حكومة؛ وهم يزدرون هذا الدين ويسقطون عن أنفسهم كل واجباته. وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، إذ يغفلون في مصريّتهم غلواً قبيحاً ينتهي بهم إلى سفه الآراء، وخفة الأحلام، وطيش النزعات، فيما يتصل بالدين الإسلامي وآدابه ولغته. وما أرى الواحد منهم إلّا قد غطى وصفه من حيث هو رقيق، على وصفه من حيث هو عالم أو أديب أو ما شاء. إن هذا لمقت ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ومن أثر تلك ألفيات الثلاث نشأت فئة رابعة، تحوّل فيهم ذلك الخلط من الكلام إلى طريقة نفسية في النفس؛ فهم يُقحمون^(٣) في كتاباتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية، ويحسبون عملهم هذا تطرفاً ومُعابثةً ومُجوناً، على أنه هو الذي يُظهرُ لعين البصير مواضع القطع التاريخي في نفوسهم، وأماكن الفساد القومي في طبيعتهم، وجهات التحلل الديني في أعتقادهم. هؤلاء يكتب أحدهم: (النرفزة) وهو قادر أن يقول الغضب، (والفلير) وهو مستطيع أن يجعل في مكانها المُغازلة، (وسكالنس) وهو يعرف لفظة أنواع واللوان، وهكذا وهكذا؛ ولا - واللّه - أن تكون المسافة بين اللفظين إلّا المسافة بعينها بين قلوبهم ورؤس قلوبهم.

وما برح التقليدُ السخيف لا يعرف له باباً يلج منه إلى السُخفاء إلّا باب التهاون والتسامح؛ ونحن قومٌ أبثّلينا بتزوير العيوب على أنفسنا وعدّها في المحاسن والفضائل، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن. وبهذه الطبيعة المعكوسة نحاول أن نقبس من مزايا الأوربيين، فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلّا عيوبهم، إذ كانت هي الأسهل علينا، وهي الأشكل بطبعنا الضعيف المتسامح الكمتهاون.

(١) تهجينها: تقييحها.

(٢) اتحلّوها: اتخذوها بحلة وعملاً.

(٣) يقحمون: يدخلون بالقوة.

ومن هذا تجدُ مشاكلنا الاجتماعية - على أنها أهونُ وأيسرُ من مشاكل
الأوربيين، وعلى أن في ديننا وآدابنا لكل مشكلة حلها - تجدُها هي علينا أصعبَ
وأشدَّ، لأننا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون، وكل ذلك من شيء واحد:
وهو أن أكثر كُبرائنا هم أكبر بلائنا.

قال صاحب السر: ثم ضحك الباشا ضحكته الساخرة وقال: كيف تصنعُ أمةً
يكون أكثر العاملين هم أكبر العاطلين، إذ يعملون ولكن بروح غير عاملة..

سرُّ القُبَّة

وحدثني صاحبُ سرِّ (م) باشا، قال: نَجَمْتُ^(١) في مصرَ حركةً بِعَقِيبِ أَيَّامِ
الْبِدْعَةِ التُّرْكِيَّةِ، حينَ لم تَبَقْ لشيءٍ هناك قاعدةٌ إِلَّا الْقَاعَةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي تُقَرَّرُهَا
الْمَشَائِقُ... فَمَنْ أَبِي أَنْ يَخْلَعَ الْعِمَامَةَ عَنْ رَأْسِهِ خَلَعُوا رَأْسَهُ؛ وَمَنْ قَالَ (لَا)
أَنْقَلَبْتُ (لَا) هَذِهِ مُشْتَقَّةٌ فَعُلُقَ فِيهَا.

وكانتُ فكرةُ اتِّخَاذِ الْقُبَّةِ فِي تَرْكِيا غِطَاءً لِلرَّأْسِ، قَدْ جَاءَتْ بَعْدَ نَزْعَاتٍ مِنْ
مِثْلِهَا كَمَا يَجِيءُ الْجِذَاءُ فِي آخِرِ مَا يَلْبَسُ الْإِلَاسُ، فَلَمْ يَشْكُ أَحَدٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ قُبَّةً
عَلَى الرَّأْسِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ طَرِيقَةٌ لِتَرْبِيَةِ الرَّأْسِ الْمُسْلِمِ تَرْبِيَةً جَدِيدَةً، لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ
وَلَا سَجْدَةٌ؛ وَإِلَّا فَنَحْنُ نَرَى هَذِهِ الْقُبَّةَ عَلَى رَأْسِ الزَّنَجِيِّ وَالْهَمْجِيِّ، وَعَلَى رَأْسِ
الْأَبْلِهِ وَالْمَجْنُونِ، فَمَا رَأَيْنَاهَا جَعَلَتْ الْأَسْوَدَ أَبْيَضَ، وَلَا عَرَفْنَاهَا نَقَلَتْ هَمْجِيًّا عَنْ
طَبِيعِهِ، وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ أَنَّهَا أَكْمَلَتْ الْعَقْلَ الْنَاقِصَ أَوْ رَدَّتْ الْعَقْلَ الْذَاهِبَ، أَوْ أَنْقَلَبْتُ
آلَةً لِحُلِّ مُشْكَلاتِ الرَّأْسِ الْبَلِيدِ، أَوْ غَضَبَتْ الطَّبِيعَةَ شَيْئًا وَقَالَتْ: هَذَا لِحَامِلِي دُونَ
حَامِلِ الطَّرْبُوشِ وَالْعِمَامَةِ.

وَقَدْ أَحْتَجُّوا يَوْمَئِذٍ لِصَاحِبِ تِلْكَ الْبِدْعَةِ أَنَّهُ لَا يَرَى الْوَجْهَ إِلَّا الْمَدْنِيَّةَ، وَلَا
يَعْرِفُ الْمَدْنِيَّةَ إِلَّا مَدْنِيَّةَ أَوْرِبَا، فَهُوَ يَمْتَثِلُهَا كَمَا هِيَ فِي حَسَنَاتِهَا وَسَيِّئَاتِهَا، وَمَا يَحِلُّ
وَمَا يَحْرُمُ وَمَا يَكُونُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ وَمَا يَكُونُ فِي غِنَى عَنْهُ؛ حَتَّى لَوْ أَنَّ الْأَوْرَبِيِّينَ
كَانُوا غُورًا بِالطَّبِيعَةِ، لَجَعَلَ هُوَ قَوْمَهُ غُورًا بِالصَّنَاعَةِ لِيُشَبَّهُوا الْأَوْرَبِيِّينَ. نَعَمْ إِنَّهَا
حُجَّةٌ تَامَّةٌ لَوْلَا نَقْصُ قَلِيلٍ فِي الْبِرْهَانِ، يُمَكِّنُ تَلَاْفِيَهُ بِإِخْرَاجِ طَبْعَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ كُتُبِ
الْفَتْوحِ الْعُثْمَانِيَّةِ، يَظْهَرُ فِيهَا الْخُلَفَاءُ الْعِظَامُ وَالْأَبْطَالُ الْمَغَاوِيرُ الَّذِينَ قَهَرُوا الْأَوْرَبِيِّينَ
لَا بِسِيَرِ قُبَّعَاتٍ، لِيُشَبَّهُوا الْأَوْرَبِيِّينَ...

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَتَهَوَّرَ فِي هَذِهِ الضَّلَالَةِ زَهْطُ مَنْ قَوْمِنَا، وَأَخَذُوا يَدْعُونَ
إِلَى التَّقْبِعِ فِي مِصْرَ اتِّخَاءِ لِتَرْكِيا، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى سَعْدِ بَاشَا (رَحِمَهُ اللَّهُ) يَطْلُبُ

(١) نجمت: ظهرت.

رأيه، فكان رأيه (لا) بمدّ الألف . . . وعهد إليّ بعضهم أن أسأل الباشا، فقال :

وَيَحَهُم ! ألا يخجلون أن نكون - نحن المصريين - مقلّدين للتقليد نفسه؟ إن هذه بذعة تنحطّ عندنا درجة عن الأصل، فكأنّها بدعتان. ثمّ ضحك الباشا وقال: كان في القديم رجلٌ سمع أن البصلَ بالخلّ نافعٌ للصّفاء، فذهب إلى بستانٍ يملكه وقال لوكيله: ازرع لي بصلاً بخل. . . هكذا يريدون من القبعات: أن تُخرَجَ لهم تركاً بأوربيين.

ليست هذه القبعة في تركيا هي القبعة، بل هي كلمة سبّ للعرب وردّ على الإسلام. ضاقت بها كلّ الأساليب أن تظهرها واضحة بيّنة، فلم يَفِ بها إلا هذا الأسلوبُ وخدّه. وهي إعلانٌ سياسيٌّ بالمناوأة والمخالفة والانحراف عنّا وأطراحنا. فإنّ الذي يخرج من أمته لا يخرج منها وهو في ثيابها وشعارها؛ فهذا انتفح لهم بابُ الخروج في القبعة دون غيرها ممّا يجري فيه التقليد أو يُبدعهُ الابتكار؛ وإلاّ فأني سرّ في هذه القبعات، ومتى كانت الأمم تُقاس بمقاييس الخياطين . . . ؟

لهنا سيفٌ أراد أن يكون مِقْصُفاً فعملَ أولاً ما يعملُ الخُسامُ البتّار، فأجاد وأبدع وأكبره الناس وأعظموه؛ ثمّ صنع ما يصنع المِقْصُص، فماذا عساه يأتي به إلا ما يُنكره الأبطال والخياطون جميعاً؟

أُكْتُبَ علينا أن نطلّ دهرنا نبحت في التقليد الأعمى، وألاّ يخيا الشرقيّ إلاّ مستعبداً ينتظر في كلّ أمرٍ من يقول له: اشرع لي . . . ؟ إن بحثنا فلنبحت في زيّ جديدٍ نتميّز به، فتكون القوى الكامنة فينا وفي طبيعة أرضنا وجوّنا هي التي اخترعت لإظهارها ما يجعله ظاهراً. كما يُخرج زورُ الأسد ليُدّ الأسد. غاية في المنفعة والجمال والملاءمة.

أنا ألبس ما شئت، ولكنني عند السّعة أجدُ حدّاً تقفُ إليه ذاتي الفردية، فلا أرى ثمة موضع أنفراد ولكن موضعَ مُشاكلة، ولا أعرفُ صفةً منفعة لي بل صفةً حقيقةً مِنّي، ويعترضني من هناك المعنى الذي يصيرُ به النوع إلى الجنس. والواحد بل الجماعة وما دمتُ مسلماً أصلي وأركع وأسجد، فالقبعة نفسها تقولُ لي: دعني فلستُ لك.

وهؤلاء الرجال الذين لبسوها في مصر، إنّما اشتقوها من المصدرِ نفسِ

المصدر الذي يخرج منه ألهتك في النساء، وكلاهما منزَع من المُخالفة، وكلاهما ضد من صفة اجتماعية تقوم بها فضيلة شرقية عامة. وليس يعدُّم قائل وجهاً من القول في تزيين القبة، ولا مذهباً من الرأي في الاحتجاج لها، غير أن المذهب الفلسفي لا يعجزها أن تُقيم لك البرهان جدلاً^(١) محضاً على أن حياة المرأة وعفتها إن هما إلا رذيلتان في الفن... وإن هما إلا مرض وضعف، وإن هما إلا كيت وكيت، ثم تنتهي الفلسفة إلى عدهما من البلاهة والغفلة، وما الغفلة والبلاهة إلا أن تُريد فلسفة من فلسفات الدنيا أن تُفحِّم في كتاب الصلاة مثلاً فصلاً في... في الدُّعارة.

لا يهولئك^(٢) ما أقرُّ لك: من أن القُبعة الأوربية على رأس المسلم المصري، تهتك أخلاقي أو سياسي أو ديني أو من هذه كلها معاً، فإنك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب، بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة وتحلل أكثر عقدها، وبعد أن قاربت الحرية العصرية بين النقائص حتى كادت تختلط الحدود اللغوية؛ فحرية المنفعة مثلاً تجعل الصادق والكاذب بمعنى واحد، فلا يُقال: إلا أنه وجد منفعة فصدق، ووجد منفعة فكذب؛ وعند الحرية العصرية أنه ما فرق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدوداً إلا جهل القدماء، وفضيلة القدماء، ودين القدماء. وهذه الثلاثة: الجهل والفضيلة والدين، هي أيضاً في المعجم اللغوي الفلسفي الجديد مترادفات لمعنى واحد، هو الاستعباد أو ألوههم أو الحرافة.

ومتى أزيلت الحدود بين المعاني، كان طبيعياً أن يلتبس شيء بشيء وأن يحل معنى في موضع معنى غيره، وأصبح الباطل باطلاً بسبب وحقاً بسبب آخر، فلا يحكم الناس إلا مجموعة من الأخلاق المتنافرة، تجعل كل حقيقة في الأرض شبهة مزورة عند من لا تكون من أهوائه ونزعاته، فيحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فضلاً مسلحاً، فيكسبون القانون بمدنيتهم قوة همجية تضطره أن يُعد للوحشية الإنسانية، وتدفع هذه الوحشية أن تُعد له.

ومن اختلاط الحدود تجيء القبة على رأس المسلم، وما هي إلا حد يطمس حداً، وفكرة تهزم فكرة، ورذيلة تقول لفضيلة: هانذي قد جئت فأذهبي.

(٢) لا يهولئك: لا يُربكك.

(١) جدلاً محضاً: نقاشاً خالصاً.

ما هو الأكبر من شيئين لا حدَّ بينهما لتعيين الصَّغَر؛ وما هو الأصغر من شيئين لا حدَّ بينهما لتعيين الكِبَر؟ إنها الفوضى كما ترى ما دام الحدُّ لا موضع له في التمييز ولا مقرُّ له في العرف ولا فصلٌ به في العادة؛ ومن هنا كان الدين عند أقوام أكبر كلمات الإنسانية في عامة لغاتها وأملأها بالمعنى، وكان عند آخرين أصغرَها وأفرغها من المعنى؛ وما كبر عند أولئك إلا من أنه يسعُ الاجتماع الإنساني وهو محدودٌ بغاياته العليا، وما صغرَ عند هؤلاء إلا بأن الاجتماع لا يسعه فلا حدَّ له، وكأنَّه معنى مُتوهم لا وجود له إلا في أحرف كلمته.

فجماعة القبعة لا يرون لأنفسهم حدًا يحدونها به من أخلاقنا أو ديننا أو شرفيتنا، وقد مرقوا من كل ذلك وأصبحوا لا يرون في زيننا الوطني ما فيه من قوة السر الخفي الذي يلهمنا ما أودعه التاريخ من قوميتنا ومعاني أسلافنا.

وأنا أعرف أن منّا قوماً يرى أحدهم في ظن نفسه أنه قانون من قوانين التطور؛ فهو فيما يلبسه لا ينظر إلى أنه واحد من الناس، بل واحد من النواميس... ومن هنا الثقل والدعوى الفارغة، وما هو أكبر من الثقل وفراغ الدعوى. وإنه لحق أن يكون بعض الناس أنبياء، ولكن أقبح ما في الباطل أن يظن كل إنسان نفسه نبياً.

وأعلم أن كثيراً ممَّا يُزينونه للشرقي من رذائل المدنية الأوربية، فترى كلاماً تحته معانٍ ومعانٍ لا يعدُّها غير ألجائع إلا حماقة ساعيتها...

سعد زغلول

وقالَ صاحبُ سرٍّ (م) باشا: ألقى إليَّ الباشا ذاتَ يومٍ أنْ (سعداً) مُصَبِّحُنا زائراً، وكأنتَ بينَ الرَّجُلَيْنِ خاصَّةً وأسبابَ وطيدة^(١). وللباشا موقعٌ أعرَفُهُ من نفسِ سعدٍ كما أعرَفُ الشُّعْلَةَ في بركانيها؛ أمَّا سعدٌ فكانَ قدِ أَنتهى إلى النِّهايةِ الَّتِي جعلتُهُ رجلاً في إحدى يديهِ السَّحَرُ وفي الأخرى المِعْجزةُ، فهو من عَظَماءِ هذه البلادِ كقاموسِ اللِّغةِ من كلماتِ اللِّغةِ: يُرَدُّ كُلُّ مُفْرَدٍ إِلَيْهِ في تعريفِهِ، ولا تصحُّ الِكلِّمةُ عندَ أحدٍ إلَّا إذا كانتَ فيه الشَّهادةُ على صحتِها.

وجاءنا سعدٌ غُدُوَّةً، فأسرَعْتُ إلى تقبيلِ يَدِهِ قَبْلَةَ لا تُشَبِّهها القُبالاتُ، إذْ مُثِّلْتُ لي من فرحِها كأنَّها كانتَ منفيَّةً ورجَعْتُ إلى وطنِها العَزيزِ حينَ وُضِعَتْ على تلكَ اليدِ.

إنَّ الرَّجُلَ العَظِيمَ إذا كانَ باراً بأبيه عارفاً قدرَهُ مُدْرِكاً عَظَمَتَهُ، يشعرُ حينَ يُقبَلُ يدَ أبيه كأنَّه يسجدُ بروحِهِ سَجْدَةً لِلَّهِ على تلكَ اليدِ الَّتِي يُقبَلُها، ويجدُ في نفسِهِ اتِّصالاً كهربائياً بينَ قلبِهِ وبينَ سرِّ وجودِهِ، ويَخُصُّهُ العالَمُ بلمسةٍ كأنَّ قُبْلَتَهُ نبَضَتْ في الكونِ: وكلُّ هذا قد أحسنَّه أنا في تقبيلي يدَ سعدٍ، وزِدْتُ عليه شعوري بمثلِ المعنى الَّذِي يَكونُ في نفسِ البَطلِ حينَ يُقبَلُ سِيفَهُ المُنْتَصِرِ.

وضحك لي سعدٌ باشا ضحكتَهُ المَعروُفةَ، الَّتِي يبدأها فمُهُ، وتُتمُّها عيناهُ، ويشرحُها وجهُهُ كُلُّهُ، فتَجِدُ جوابَها في رَوحِكَ كأنَّه في رَوحِكَ ألقاها.

والرَّجُلُ مِنَ النَّاسِ إذا نَظَرَ إلى سعدٍ وهو يبتسمُ، رأى لَهُ أبْتِسامَةً كأنَّها كمالٌ يتواضعُ، فيَحْسُ كَأَنَّ شَيْئاً غَيْرَ طَبِيعِيٍّ يَتَّصِلُ مِنْهُ بِشَيْءٍ طَبِيعِيٍّ، فينتعشُ وَيَتَبُّ في وجودِهِ الرُّوحِيَّ وثَبَّةً عالِيَةً تَكونُ فَرَحاً أو طَرَباً أو إعجاباً أو خُشوعاً أو كُلِّها معاً. غيرَ أنَّ الرَّجُلَ مِنَ الحُكَماءِ إذا تأمَّلَ وجَهَ سعدٍ، وهو يضحكُ ضحكتَهُ المَطمِئِنَّةَ المَتمَكِّنةَ من معناها المَقرُّ أو المَنكِرِ أو السَّاخِرِ أو أيِّ المَعاني - حَسِبَ نَفْسَهُ يرى

(١) أسباب وطيدة: علائق ووشائج قوية.

شكلاً مِنْ الْقَوْلِ لَا مِنْ الضَّحْكِ، وَظَهَرَتْ لَهُ تِلْكَ الْإِبْتِسَامَةُ الْفَلَسْفِيَّةُ مُتَكَلِّمَةً، كَأَنَّهَا مَرَّةً تَقُولُ: هَذَا حَقِيقِي. وَمَرَّةً تَقُولُ: هَذَا غَيْرُ حَقِيقِي.

إِنَّ سَعْدًا الْعَظِيمَ كَانَ رَجُلًا مَا نَظَرَ إِلَيْهِ وَطَنِيٌّ بَعِينَ فِيهَا دَلَائِلُ أَحْلَامِهَا، كَأَنَّهَا هُوَ شَخْصٌ فَكْرَةٌ لَا شَخْصٌ إِنْسَانٌ؛ فَإِذَا أَنْتَ رَأَيْتَهُ كَانَ فِي فِكْرِكَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي نَظْرِكَ؛ فَأَنْتَ تَشْهَدُهُ بِنَظَرَيْنِ: أَحَدُهُمَا الَّذِي تُبْصِرُهُ بِهِ، وَالْآخَرُ ذَاكَ الَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ.

عَبْقَرِيٌّ كَالْجَمْرَةِ الْمَلْتَهَبَةِ لَا تَحْسَبُهُ يَعِيشُ بَلْ يَحْتَرِقُ وَيُحْرَقُ؛ ثَائِرٌ كَالزَّلْزَلَةِ فَهُوَ أَبَدًا يَرْتَجُ وَهُوَ أَبَدًا يَرْجُ مَا حَوْلَهُ؛ صَرِيحٌ كَصَرَاحَةِ الرُّسُلِ، تِلْكَ الَّتِي مَعْنَاهَا أَنَّ الْأَخْلَاقَ تَقُولُ كَلِمَتَهَا.

رَجُلُ الشَّعْبِ الَّذِي يُحْسِنُ كُلُّ مِصْرِيٍّ أَنَّهُ يَمْلِكُ فِيهِ مِلْكًا مِنْ الْمَجْدِ. وَقَدْ بَلَغَ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ مَبْلَغَ الشَّرِيعَةِ، فَاسْتَطَاعَ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: ضَعُوا هَذَا الْمَعْنَى فِي الْحَيَاةِ، وَأَنْزِعُوا هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْحَيَاةِ.

قَالَ صَاحِبُ السِّرِّ: وَأَنْقَضَتِ الزِّيَارَةُ وَخَرَجَ سَعْدٌ وَالْبَاشَا إِلَى يَسَارِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ وَدَاعِهِ قَالَ لِي: - وَاللَّهِ - يَا بُنَيَّ لَكُنَّا زَادَ هَذَا الرَّجُلُ فِي الْقَابِ الدَّوْلَةِ لِقَبًا جَدِيدًا، ثُمَّ ضَحَكَ وَقَالَ: أَتَدْرِي مَا هُوَ هَذَا الْقَلْبُ؟ قُلْتُ: فَمَا هُوَ يَا بَاشَا؟

قَالَ: - وَاللَّهِ - يَا بُنَيَّ مَا مِنْ (بَاشَا) فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ يَكُونُ إِلَى جَانِبِ سَعْدٍ، إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّ رَتْبَهُ (نَصَفَ بَاشَا)...

هَذَا رَجُلٌ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعَظَمَةِ مَبْلَغًا تَصَاغَرَ مَعَهُ الْكَبِيرُ، وَتَضَاعَلَ الْعَظِيمُ، وَتَقَاعَصَرَ الشَّامِخُ؛ نَعَمْ وَحَتَّى تَرَكَ أَقْوَامًا مِنْ خُصُومِهِ الْعِظَمَاءَ، كَفَلَانٍ وَفَلَانٍ، وَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَيَلُوحُ لِلشَّعْبِ مِنْ فِرَاقِهِ وَضَعْفِهِ وَتَطَرُّجِهِ، كَأَنَّهُ ظِلُّ رَجُلٍ لَا رَجُلٍ.

وَقَدْ أَصْبَحَ قُوَّةً عَامِلَةً لَا بَدَّ مِنْ فَعْلِهَا فِي كُلِّ حَيٍّ تَحْتَ هَذَا الْأَفَقِ، حَتَّى كَأَنَّ مَعَانِي نَفْسِهِ الْكَبِيرَةَ تَنْتَشِرُ فِي الْهَوَاءِ عَلَى النَّاسِ، فَهُوَ قُوَّةٌ مَرْسَلَةٌ لَا تُمَسَّكُ، مَاضِيَةٌ لَا تُرَدُّ، مَقْدُورَةٌ لَا يُحْتَالُ لَهَا بِحِيلَةٍ.

هَذَا وَضَعَ إِلَهِي خَاصُّ لَا يُشَبِّهُهُ أَحَدٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمِيدَانِ الْحَرْبِ لَا تُشَبِّهُهُ الْأَمَكْنَةُ الْآخَرَى؛ فَقَدْ غَامَرَ سَعْدٌ فِي الثُّورَةِ الْعُرَابِيَّةِ وَخَرَجَ مِنْهَا، وَلَكِنَّهَا هِيَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ، بَلْ بَقِيَتْ فِيهِ؛ بَقِيَتْ فِيهِ تَتَعَلَّمُ الْقَانُونَ وَالسِّيَاسَةَ، وَتُصَلِّحُ أَغْلَاطَهَا، ثُمَّ ظَهَرَتْ مِنْهُ فِي شَكْلِهَا الْقَانُونِيُّ الدَّقِيقُ. وَبِهَذَا تَرَاهُ يَغْمُرُ الرِّجَالَ مَهْمَا كَانُوا أَذْكَيَاءَ؛

لأن فيه ماليس فيهم، وتراهم يظهرن إلى جانبهِ أشياء ثابتة في معانيها، أما هو
فترأ من جميع نواحيه يتلاطم كالأمواج العاتية.

وتلك الثورة هي التي تتكلم في فيه أحياناً فتجعل لبعض كلماته قوة كقوة
النصر، وشهرة كشهرة موقعة حربية مذكورة.

ولما كان هو المختار ليكون أباً للثورة - حرمته القدرة الإلهية النسل،
وصرفت نزعاً الأبوة فيه إلى أعماله التاريخية، ففيها عنايته وقلبه وهمومه، وهي
نسل حي من روجه العظيمة، ويكاد معها يكون أسداً يزار حول أشباله. ولن يذكر
السياسيون المصريون مع سعد، ولن يذكر سعد نفسه إذا أنقلب سياسياً، فإن
المكان الخالي في الطبيعة الآن هو مكان رجل المقاومة لا رجل السياسة، وهذا هو
السبب في أن سعداً يشعر الأمة بوجوده لذة كلذة الفوز والانتصار، وإن لم يفز
بشيء ولم ينتصر على شيء؛ فأطمئنان الشعب إلى زعيم المقاومة، هو بطبيعته
كأطمئنان حامل السلاح إلى سلاحه.

وسعد وحده هو الذي أفلح في أن يكون أستاذ المقاومة لهذه الأمة؛ فنسخ
قوانين، وأوجد قوانين، وحمل الشعب على الإعجاب بأعماله العظيمة، فنبه فيه
قوة الإحساس بالعظمة فجعله عظيماً، وصرقه بالمعاني الكبيرة عن الصغائر، فدفعه
إلى طريق مستقبله يبدع إبداعه فيه.

إن هذا الشرق لا يحيا بالسياسة ولكن بالمقاومة وما دام ذلك الغرب يزاره؛
والفرصة لا تتخلص من الحلقي الوحشي إلا باعتراض عظامها الصلبة القوية في هذا
الحلق.

وكم في الشرق من سياسي كبير يجعلونه وزيراً، فتكون الوظيفة هي الوزير لا
نفس الوزير، حتى لو خلعوا ثيابه على خشبة ونصبوها في كرسيه، لكأن أكثر نفعاً
منه للأمة، بأنها أقل شراً منه...

يا بُني، كل الناس يرضون أن يتمتعوا بالمال والجاء والسيادة والحكم،
فليست هذه هي مسألة الشرق، ولكن المسألة: من هو النبي السياسي الذي يرضى
أن يضلّب...؟

حماسة الشعب

وحدّثني صاحب سرّ (م) باشا قال: لَمَّا رَجَعَ سعد باشا من أوروبا في سنة ١٩٢١، كانتِ الأُمّةُ في استقباليه كأنّها طائرٌ مدّ جناحيه، لا خلافَ لشيءٍ منه على شيءٍ منه، بل كلّهُ هو كلّهُ؛ وكانتِ المعارضةُ في الاستحالةِ يومئذٍ كاستحالةِ وجودِ رُقعةٍ في ريشِ الطائرِ.

على أنّ ثوبَ السياسةِ المصريّةِ كثيرُ الرُّقع دائماً بالجديدِ والخلقِ^(١)، فرقعةٌ من المعارضين، وأخرى من المتعنتين^(٢)، وثالثةٌ من المتخاذلين^(٣)، ورابعةٌ من المعادين، وخامسةٌ وسادسةٌ وسابعةٌ من الحاسدين والمنافسين والمختلفين لشهوةِ الخلافِ؛ ورقاعٌ بعدَ ذلكِ ممّا نعلمُ وما لا نعلمُ، فإنّ من العجيبِ أنّ هذا الجوّ الذي لا يتقلّبُ إلّا بطيئاً، يتقلّبُ أهلهُ بسُرعةٍ؛ وهذه الطبيعةُ التي لا تكادُ تختلفُ، لا يكادُ أهلها يتفقون.

ولكنّ سعداً (رحمهُ الله) رجعَ من أوروبا رجعةً الكرامةِ لأُمّةٍ كاملة، ففازَ بأنّه لم يخسر شيئاً من الحقِّ، وانتصرَ بأنّه لم يهزم، ودلّ على ثباته بأنّه لم يتزعزع، وذهبَ صولةً ورجعَ صولةً وعزيمة؛ فكانَ إيمانُ الشعبِ هو الذي يتلقّاه، وكانتِ الثورةُ هي التي تحتفلُ به، وبطلتِ العللُ كلّها فلم يجدِ الاعتراضُ شيئاً يعترضُ عليه، وأنفقتِ الأسبابُ فأجتمعتِ الكلمة، وظهرَ سعدٌ كأنّه روحُ الأُمّةِ متمثلاً في قُدرة، حاكماً بقوة، متسلطاً بيقين.

نعم لم ينتصرِ البطلُ، ولكنّ الأُمّةُ احتفتِ به لأنّه يمثلُ فيها كمالاً من نوعٍ آخرٍ هو سرُّ الانتصارِ؛ فكانتِ حماسةُ الشعبِ في ذلكَ اليومِ حماسةً المبدئِ المتمكّن: يُظهرُ شجاعةَ الحياة، وفورةَ العزائم، وفضيلةَ الأخلاص، وشدةَ الصولة، وعنادَ التصميم؛ ويثبتُ بقوةَ ظاهره قوةَ باطنه، وكانَ فرحُ الأُمّةِ عناداً

(١) الخلق، بالفتح: البالي.

(٢) المتعنتين: المتشددین.

(٣) المتخاذلين: المنهزمين.

سياسياً يفرح بأنه لا يزال قوياً لم يضعف، وكان أبتهاجها مجداً يشعر بأنه لا يزال وافراً لم ينتقص، وكان الاجتماع رداً على اليأس، وكانت الحماسة رداً على الضعف.

انبعث صولة الحياة في الشعب كله، وأبتدأ المستقبل من يومئذ، فلو نزلت الملائكة من السماء في سحابة مجلجلة^(١) يسمع تسييحهم ليؤيدوا سعداً - لما زادوه شيئاً؛ فقد كان محلّه من القلوب كأنه العقيدة، وكان التصديق مبدولاً له كأنه الكلمة الأخيرة، وكانت الطاعة موقوفة عليه كأنه الباعث الطبيعي، وكان البطل في كل ذلك يشبه نبياً من قبل أن كلا منهما صورة كاملة للسمو في أفكار أمة.

قال صاحب السر: ورجع ألباشا من القاهرة وقد رأى ما رأى من مسامحة النفوس، وصحة العهد، واجتماع الكلمة، وإعداد الشعب للمراس والمُعانة، فقال:

تالله لقد أثبت (سعد) للدنيا كلها أن مصر الجبارة متى شاءت بنت الرجال على طريقة ألهم الأكبر في العظمة والشهرة والمنزلة والقوة. ولقد صنع هذا الرجل العظيم ما تصنع حرب كبيرة، فجمع الأمة كلها على معنى واحد لا يتناقض، ودفعها بروح قومية واحدة لا تختلف، وجعل عزق السياسة يفوز كما يفوز العزق المجروح بالدم.

إن هذه الأمة بين شيئين لا ثالث بينهما: إما الحزم إلى الآخر وإما الإضاعة. ولا حزم إلا أن يبقى الشعب كما ظهر اليوم: طوفاناً حياً، مستوي الطبيعة، مندفع الحركة، غامراً كل ما يعترضه، إلى أن يقضى الأمر ويقول أعداؤنا: يا سماء أقلعي.

هكذا يعمل الوطن مع أهله كأنه شخص حي بينهم، حين يستوي الجميع في الثقة، ويتأزرز الجميع في الأمل، ويشترك الجميع في العطف الروحي، ولا يبقى لجماعة منهم حظ في رغبة غير الرغبة الواحدة للجميع؛ وهكذا يعمل الوطن بأهله حين يعمل مع أهله.

كان أعداؤنا يحسبوننا ذباباً سياسياً لا شأن له إلا بفضلات السياسة، ولا عمل

(١) مجلجلة: مدوية.

لَهُ فِي أَزْهَارِهَا وَأَثْمَارِهَا وَعِطْرِهَا وَخَلْوَاهَا؛ فَاسْمَعَهُمُ الشَّعْبُ الْيَوْمَ طِينِ النَّحْلِ،
وَأَرَاهِمُ إِبْرَ النَّحْلِ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْأَزْهَارَ وَالْأَثْمَارَ وَالْعِطْرَ وَالْحُلُوى هِيَ لَهُ بِالطَّبِيعَةِ.

وكانوا يتخَرَّصون^(١) أَنَّ مَذْهَبَنَا فِي الْحَيَاةِ لِمَصْلَحَةِ الْمَعَاشِ فَقَطْ، وَأَنَّ الْمِصْرِيَّ،
حَاكِمًا أَوْ مُحْكومًا، لَا يَمُدُّ أَمَالَهُ الْوَطَنِيَّةَ إِلَى أْبَعَدَ مِنْ مَدَّةِ عَمْرِهِ سَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ سَنَةً،
فَإِذَا أَطْلَقُوا أَيْدِيَنَا فِي حَاضِرِ الْأُمَّةِ أَطْلَقْنَا أَيْدِيَهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِهَا. وَمَنْ ثُمَّ طَمِعُوا أَنْ يَكُونَ
الْحَقُّ الْنَاقِصُ فِي نَفْسِهِ حَقًّا تَامًا فِي أَنْفُسِنَا لِهَذِهِ الْعِلَّةِ؛ وَحَسِبُوا أَنَّ السِّيَاسِيَّ الْمِصْرِيَّ لَا
يَتَجَرَأُ أَنْ يَقُولَ مَا يَقُولُهُ السِّيَاسِيَّ الْأَوْرَبِيُّ: مَنْ أَنَّهُ لَا يَخْشَى الْمَوْتَ وَلَكِنَّهُ يَخْشَى الْعَارَ.
فَإِنَّهُ إِذَا مَاتَ وَحْدَهُ، وَإِذَا جَلَبَ الْعَارَ جَلَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ وَعَلَى تَارِيخِ أُمَّتِهِ، يَبْذُ أَنْ
سَعْدًا قَالَهَا؛ وَفِي مِثْلِ هَذَا يَكُونُ قَوْلُ (لَا) مَعْرَكَةً.

وَمَا هِيَ ذِي مَعْرَكَةِ الْيَوْمِ التَّارِيخِيَّةِ، فَإِنَّ الْأَذْرَابَ الْحَيَّةَ الَّتِي تُخْلَقُ مِنْ دِمَائِنَا -
نَحْنُ الْمِصْرِيِّينَ - قَدْ ثَارَتْ فِي هَذِهِ الْأَدْمَاءِ، فِي هَذَا الْكَهَارِ، تُعْلِنُ أَنَّهَا لَا تَرْضَى أَنْ
تَوْلَدَ مَقْيَدَةً بِقِيُودِ.

أَتُدْرِي مَاذَا عَرَضُوا عَلَى سَعْدٍ؟ إِنَّهُمْ عَرَضُوا عَلَيْهِ مَا يُشْبَهُ فِي السَّخْرِيَّةِ
طَاحُونَةً تَامَةً الْأَدَوَاتِ وَالْآلَاتِ مِنْ آخِرِ طَرَاذِ، ثُمَّ لَا تُقَدِّمُ لَهَا إِلَّا حَبَّةَ قَمْحٍ وَاحِدَةً
لِتَطْحَنَهَا. . . . نَتِيجَةُ تَسْخَرُ مِنْ أَسْبَابِهَا، وَأَسْبَابُ تَهْزَأُ بِالنَّتِيجَةِ.

إِنَّ أَوْرِبَا لَا تَحْتَرِّمُ إِلَّا مَنْ يَحْمِلُهَا عَلَى أَحْتَرَامِهِ، فَمَا أَرَى لِلْسِّيَاسِيِّينَ فِي هَذَا
الْشَّرْقِ عَمَلًا أَفْضَلَ وَلَا أَقْوَى وَلَا أَرْدَ بِالْفَائِدَةِ مِنْ إِحْيَاءِ الْحَمَاسَةِ الدَّائِمَةِ الْقَوِيَّةِ
الْبَصِيرَةِ، هِيَ قُوَّةُ الْكَرْفِ لِمَا يَجِبُ أَنْ يُرْفَضَ، وَقُوَّةُ التَّائِيدِ، لِمَا يَجِبُ أَنْ يُقْبَلَ،
وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ وَسِيلَةُ جَمْعِ الْأَمْرِ، وَإِحْكَامِ الْأَشْأْنِ، وَإِقْرَارِ الْعَزِيمَةِ فِي الْأَخْلَاقِ،
وَتَرْبِيَةِ الثَّقَةِ بِالنَّفْسِ، وَبِهَا يَكُونُ إِذْكَاءُ الْحَسِّ وَتَعْوِيدُهُ إِدْرَاكَ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ،
وَالْتَحَمْسَ لَهَا، وَالْكَذْلَ فِيهَا.

وَمَا عِلَّةُ الْعِلَلِ فِينَا إِلَّا ضَعْفُ الْحَمَاسَةِ الشَّعْبِيَّةِ فِي الشَّرْقِ، وَسَوْءُ تَدْبِيرِهَا،
وَقَبْحُ سِيَاسَتِهَا؛ وَإِنَّا لَنَأْخُذُ عَنِ الْأَوْرَبِيِّينَ مِنْ نِظَامِهِمْ وَأَسَالِيهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَعِلْمِهِمْ
وَفَنُونِهِمْ؛ فَنَأْخُذُ كُلَّ ذَلِكَ بِرُوحِنَا الْفَاتِرَةِ فِي خُمُولٍ وَإِهْمَالٍ وَتَوَاكُلٍ وَتَفَرُّدٍ
بِالْمَصْلَحَةِ وَاسْتِبْدَادٍ بِالرَّأْيِ، فَإِذَا دِينَارُهُمْ فِي أَيْدِينَا دَرَاهِمَ، وَإِذَا نَحْنُ وَإِيَّاهُمْ فِي
أَلْشَيْءٍ الْوَاحِدِ كَالنَّحْلَةِ وَالذَّبَابَةِ عَلَى زَهْرَةٍ. . .

(١) يَتَخَرَّصُونَ: يَقُولُونَ.

ليست لنا حماسة الحياة، وبهذا تختلف أعمالنا وأعمالهم، وذلك هو السر أيضاً في أن أكثر حماسنا كلامية مخضبة؛ إذ يكون الصراخ والصياح والتشدق^(١) ونحوها من هذه المظاهر الفارغة - تنقيحاً للطبيعة الساكنة فينا، وتنوعاً منها بغير أن نجهد في التنقيح والتنوع. ومن هذا كانت لنا أنواع من الكلام ينطلق اللسان فيها للخروج من الصمت لا غير... ومنه كثير من هذا الهراء السياسي الذي يدور في المجالس والأحزاب والصحف.

إن حماسة الشعب لا تكون على أعدائه فقط؛ بل على معاييه أيضاً، وعلى ضعفه بخاصة، والشعب ألفتاز في حماسه لو نال حقين مغضوبين لعاد فحسب أحدهما أو كليهما، أما الشعب المتحمس القوي في حماسه، فلو غصب حقين ونال أحدهما لعاد فأبتز^(٢) الآخر.

(١) التشدق: التصنع في الكلام والتفخر فيه.

(٢) ابتز: استحوذ: وأخذ بقوة.

الجمهور

وقال صاحب سر (م) باشا: كان من بعض عملي في الحكومة سنة ١٩٢٢ أن أراقب الحركات والسكنات، وأبث العيون والأزصاد، وأعرف المضطرب والمتقلب في أيام الفتن ونوازل المخنة، محافظة على الأمن، ومبادرة لما يتوقع؛ فكثت كالمِرْصِدِ المهيئ بالآلة لتدوين حركات الزلازل.

وانتهى إلينا يوماً أن راجفة من هذه الزلازل سترجف بفلان من أهل الرأي الحر؛ الذي يستقل ولا يتابع، وينتقد ولا يحابي، ويصرخ ولا يجمع^(١)، وأن قوماً ثوروا عليه الغبار الآدمي من العامة، وأنهم يتحيئون الوقت لتوجيه المكيدة له في شكلها المفترس من هذا الجمهور الناقم.

أما فلان هذا فرجل سياسي عنيد أضاع الحق كله لأنه لا يرضى بنصف الحق... وكلمته في السياسة كأنما تلقى على لسانه من الغيب؛ فلا يتحول عنها ولا يملك أن يتكلم إلا بما يتكلم؛ وقد ذهب بصوته أنه في قوم لا يسمعون إلا ما أردوا، فهو بينهم كالحق المغلوب: لا يموت لأنه غير باطل، ثم لا يحيا لأنه لا ينتصر. وقد كان رجلاً كالمصباح الوهاج^(٢) فالقوا عليه الغطاء، فإذا هو في طبيعته ويبدو للناس بغير طبيعته، وتركه رأيه الحر الصريح كالنبي المكذب يرد صدقه؛ لا لأنه غير صدق، ولكن لأنه غير مستطاع، أو غير ملائم.

ومن آفاتنا - نحن الشرقيين - أننا نستمرى العداوة، وننقاد لأسبابها، ونتطاوع لها تطاوع الصغار بأنفسهم لما في أنفسهم؛ كأن المستبدين الذين كانوا في تاريخنا قد أنتقلوا إلى طبائعنا؛ فرد الفكر على الفكر في مناقشة تجري بيننا - لا يكون من دفع الحقيقة للحقيقة، ولكن من رد الاستبداد على الاستبداد، ومن توثب الطغيان على الطغيان؛ فهو الثلب^(٣)؛ والطمع والتجريح، وهو الجفوة والخصومة

(١) يجمع: يتكلم في داخله بما لا يفهم.

(٢) الوهاج: الوضاء.

(٣) الثلب: التجريح بسمى الكلام.

وَاللَّدَد، وهو المنازعة وَالْعُنْفُ وَالْتِحَامِل؛ وهو بهذه وتلك شرٌ وفسادٌ وسقوط .
وَالْجِدَالُ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ يَبْعَثُ الْفِكْرَ فَيَنْتَهِي إِلَى الْحَقِّ، وَلَكِنَّهُ فِينَا نَحْنُ يَهْيِجُ الْخُلُقَ
فَيَنْتَهِي إِلَى الْشَّرِّ، وَالرَّدُّ عَلَى عَظِيمٍ مَثًا كَأَنَّهُ يَرُدُّ عَلَى مَنْزِلَتِهِ فِي الرَّأْيِ، وَكُشِفَ
الْخَطَأُ عِنْدَنَا تَعْيِيرٌ بِالْخَطَأِ لَا تَبْصِيرٌ بِالصَّوَابِ، وَاسْتِلَابٌ^(١) الْحُجَّةِ مِنْ صَاحِبِهَا
وإفسادها عليه كاستلابِ الْمَلِكِ مِنْ مَالِكِهِ وَطَرْدِهِ مِنْهُ . . . وَمَنْ تَمَّ كَانَ الدِّفَاعُ
بِالْمَكَابِرَةِ أَصْلًا مِنْ أَصُولِ الطَّبِيعَةِ فِينَا، وَكَانَ الْأَضْطِهَادُ حُجَّةً لِلْحُجَّةِ الْعَاجِزَةِ،
وَكَانَ الْإِعْنَاتُ^(٢) دَلِيلًا لِلدَّلِيلِ الَّذِي لَا يَنْهَضُ بِنَفْسِهِ، وَوَمَتَى أَعْتَبَرَ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ
إِمْبَرَاطُورًا عَلَى الْحَقِّ . . . فَلَا جَرَمَ لَا تَرُدُّ كَلِمَةً عَلَى كَلِمَةٍ إِلَّا بِحَرْبٍ .

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَكَبُرَ الْأَمْرُ عَلَى الْبَاشَا، فَجَمَعَ رُؤُوسَ الْمُؤْتَمِرِينَ بِذَلِكَ
الرَّجُلِ الْحَرِّ، وَأَخَذَ يَقْلُبُهُمْ تَقْلِيلَهُ بَيْنَ التَّوَدُّدِ وَالْمَلَاطِفَةِ، وَقَالَ لَهُمْ فِيمَا قَالَ: إِنَّ
فَضِيلَةَ الْجُمْهُورِ هِيَ الَّتِي تَضُمُّ تَرْبِيَةَ الْفَضِيلَةِ وَحِفْظَهَا وَغَلَبَتَهَا عَلَى الْكَرَذَائِلِ، وَإِنَّ
كُلَّ صَاحِبٍ يَكُونُ فَاسِدًا إِذَا لَمْ يَكُنِ الْجُمْهُورُ صَاحِبًا، وَإِنَّ غَيْرَ الْعُقَلَاءِ هُمُ الَّذِينَ
يَقْبَلُونَ الْحَقِيقَةَ فِي يَوْمٍ ثُمَّ يَرْفُضُونَهَا هِيَ ذَاتَهَا فِي يَوْمٍ آخَرَ، فَإِنَّ ذَهَبَتْ تُجَادِلُهُمْ
وَتَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ قَبِلُوهَا - قَالُوا: هَذَا كَانَ أَمْسٍ . . . فَكَأَنَّمَا الْفَاصِلُ بَيْنَ زَمَنَيْنِ
يَجْعَلُ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ ضِدَّيْنِ .

ثُمَّ سَأَلَهُمْ: مَا هُوَ ذَنْبُ الرَّجُلِ؟ فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ: إِنَّهُ خَارِجٌ عَلَيْنَا فِي الرَّأْيِ .
فَقَالَ الْبَاشَا: إِنَّ الْمَعْنَى فِي أَنَّهُ يُخَالِفُكُمْ هُوَ أَنَّكُمْ أَنْتُمْ تُخَالِفُونَهُ؛ فَقَدْ تَكَافَأَتْ
النَّاحِيَتَانِ، وَخِلَافٌ بِخِلَافٍ؛ فَمَا الَّذِي جَعَلَ حَقَّ رَدِّهِ عَنِ الرَّأْيِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ
مِثْلُ هَذَا الْحَقِّ فِي رَدِّكُمْ أَنْتُمْ؟

قَالُوا: إِنَّا الْكَثَرَةُ . قَالَ الْبَاشَا: يَا أَصْدِقَائِي، إِنَّ خَوْفَ الْكَثَرَةِ مِنْ رَأْيِ فَرْدٍ أَوْ
أَفْرَادٍ هُوَ أَسْوَأُ الْمَعْنِيِّينَ فِي تَفْسِيرِ رَأْيِهَا هِيَ؛ وَعَشْرَةُ جَنِيهَاتٍ لَا تَعْبَأُ بِالْجَنِيهِ
الْوَاحِدِ، فَإِنَّهَا تَسْتَغْرِقُهُ؛ بَيِّنْ أُنْ هَذِهِ لَيْسَتْ حَالُ عَشْرَةِ قُرُوشٍ يَا أَصْدِقَائِي . . .

نَعَمْ إِنَّ قَطْعَ الْخِلَافِ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِ الْوَطَنِيَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي
ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ كَالْخِلَافِ فِي أَيِّهِمَا أَطْوَلُ: الْعَصَا أَوْ الْمِثْدَنَةُ . . .؟ فَذَلِكَ جِدَالٌ
مَحْسُومٌ مِنْ نَفْسِهِ بِلَا جِدَالٍ .

(٢) الإعنات: الاتعاب .

(١) استلاب: سرقة .

إِنَّ أَسَاسَ انْخِذَالِنَا^(١) - نحن الشرقيين - في قلوبنا، إذ لا نعتبر المعاني العامة إلا من جهة أنها قائمة بالرجال، ثم نعتبر الرجال إلا من ناحية ما في أنفسهم، ثم لا نعتبر أنفسنا إلا من جهة ما يرضينا أو يغضبنا، وقد لا يغضبنا إلا الحق والجِدُّ، وقد لا يرضينا إلا الباطل والتهاون، ولكنا لا نبالي إلا ما نرضى وما نغضب.

لستُم أحراراً في أن تجعلوا غيركم غير حرٍّ، فإن يكن الرأي الذي يعارضكم رأياً حقاً وتركتم مُنابذته^(٢) فقد نصرتم الحق؛ وإن يكن باطلاً فإظهاره باطلاً هو برهان الحق الذي أنتم عليه؛ ولن تجردوا^(٣) أحداً من اختيار الرأي إلا إذا تجردتم أنتم من اختيار العدل، فإن فعلتم فهذه كبرياء ظالمة، تدعي أنها الحق، ثم تدعي لنفسها حكمه، فقد كذبت مرتين.

إسمعوا أيها السادة: قامت بين اثنين من فلاسفة الرأي مناظرة في صحيفة من الصحف، وتساخلا^(٤) في مقالات عدة، فلما عجز أضعفهما حجة وكعته^(٥) الجدال، كتب مقالته الأخيرة فجاءت سقيمة، فلم ترضه فبيتها ونام عنها على أن يرسلها من الغداة بعد أن يردد نظره فيها ويصح آراءه بالحجج التي يفتح بها عليه. قالوا: فلما نام تمثلت له المقالة في أحلامه جسماً حياً موهوناً مترضضاً^(٦)، مخلوعاً من هنا مكسوراً من هناك، مجروحاً ممّاً بينهما؛ ثم كلمته فقالت له: ويحك أيها الأبله! إن أردت أن تغلب صاحبك وتسكتك عنك، فأجمل مقالتك إلى رأسه في العصا لا في الجريدة...

قال صاحب السر: وضحك القوم جميعاً، وأذعنوا^(٧) وأنصرفوا مقتنعين، قد خلصت دخلتهم لذلك الرجل الحر وتنصلوا^(٨) من جريمة كانت في أيديهم، وما

(١) انخذالنا: انهزامنا.

(٢) منابذته: مخالفته ومجادلته.

(٣) تجردوا: تعزوا.

(٤) تساخلا: تحاوروا وتجادلا وتارة يريح هذا وتارة أخرى يريح ذاك.

(٥) كعم: شد فاه لئلا يعض أو يأكل وهو يقصد أسكته.

(٦) مترضضاً: مصاباً بالرضوض في جسمه.

(٧) أذعنوا: خضعوا.

(٨) تنصلوا: تبرأوا.

جاء ألباشا بمُعْجَزٍ مِنَ الْقَوْلِ، وَلَكِنْ تَصْوِيرُهُ لِلْمَسْأَلَةِ كَانَ حَلًّا لَهَا فِي نَفْسِهِمْ. فَلَمَّا أَدْبَرُوا^(١) تَنَفَّسَ ألباشا كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنَ الْبَحْرِ وَكَانَ يَتَعَاطَى إِنْقَاذَ غَرِيقٍ وَيُعَانِي فِيهِ حَتَّى نَجَا؛ ثُمَّ قَالَ لِي: إِنَّ هَذَا كَانَ جَوَابًا عَنْ شَيْءٍ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنَّهُ هُوَ سَوَالٌ عَنْ شَيْءٍ فِي أَنْفُسِنَا: مَا الَّذِي يَجْعَلُ النَّاسَ عِنْدَنَا يَخْشَوْنَ الْمُعَارَضَةَ فِي الرَّأْيِ الْوَطَنِيِّ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُجَاوِزُونَ عَلَيْهَا بِهِذِهِ الْعَقُوبَةِ الشَّعْبِيَّةِ الْمُنْكَرَةِ؟ وَمَا بِالْهَمِّ لَا يُعْطَوْنَ الرَّأْيَ حُكْمَهُ وَحَقِيقَتَهُ، بَلْ يُعْطَوْنَهُ مِنْ حُكْمِ أَنْفُسِهِمْ وَحَقَائِقِهَا وَشَهَوَاتِهَا الْمُتَقَلِّبَةِ، حَتَّى لَتَرْجِعَ الْفُرُوقُ الضَّعِيفَةُ الْمُتَجَانِسَةُ فِي أَبْنَاءِ الْوَطَنِ الْوَاحِدِ وَكَأَنَّهَا مِنَ الْخِلَافِ وَالْمِبَايَنَةِ فُرُوقٌ جَنْسِيَّةٌ كَأَلَّتِي تَكُونُ بَيْنَ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّةٍ، وَإِنْسَانٍ مِنْ أُمَّةٍ أُخْرَى تُعَادِيهَا.

قلت: إِنَّ رَأْيَ الْكَثَرَةِ قَانُونٌ يَا بَاشَا.

قال: هَذَا صَحِيحٌ، وَلَكِنْ بِشَرْطَيْنِ لَا بِشَرْطٍ وَاحِدٍ: الْأَوَّلُ أَلَّا يَخْرُجَ الرَّأْيُ عَلَى الْقَانُونِ، وَالثَّانِي أَلَّا تَكُونَ الْحَقِيقَةُ فِي الرَّأْيِ الَّذِي يُنَاقَضُ؛ وَمُحَاوَلَةُ إِكْرَاهِ الْمُعَارَضَةِ نَقْصٌ لِلشَّرْطَيْنِ مَعًا؛ ثُمَّ إِنَّ أَسَاسَ الْوَطَنِيَّةِ سَلَامَةُ الْقُلُوبِ وَصَفَاءُ النِّيَّاتِ، وَأُسْتَوَاءُ الْمُرَافِقِ وَالْمُخَالَفِ فِي هَذَا الْحُكْمِ، وَمَتَى وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَكَانَتْ أَلْنِيَّةٌ صَادِقَةٌ مُخْلِصَةٌ، لَمْ يَكُنْ اخْتِلَافُهُمَا إِلَّا مِنْ تَنْوَعِ الرَّأْيِ، وَأَنْتَهِيَ إِلَى آلَاتِفَاقٍ بِغَلْبَةِ أَقْوَى الرَّأْيَيْنِ، وَمَا مِنْ ذَلِكَ بَدَلٌ.

الحَقِيقَةُ يَا بُنَيَّ أَنَّ الْجُمَاهِيرَ الشَّرْقِيَّةَ لَيْسَتْ فِي تَرْبِيَّتِهَا مِنَ الْجُمَاهِيرِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي يُعْتَدُّ بِهَا، إِذْ لَا تَزَالُ فِي أَوَّلِ عَمْرِهَا السِّيَاسِيِّ، وَبِهَذَا السَّبَبِ وَحْدَهُ كَانَ اخْتِلَافُ الْكُبَرَاءِ فِي السِّيَاسَةِ لَا يُشَبَّهُهُ إِلَّا نِزَاعُ الْخَصْمَيْنِ بِغَيْرِ شُهُودٍ وَلَا قَاضٍ نَافِذٍ الْحُكْمِ، فَهُوَ نِزَاعٌ قُوَّةً تَفُورُ بَوْسَائِلِهَا، لَا نِزَاعٌ حَقٌّ يَسْتَعْلِي بِأَدْلَتِهِ.

وهذه الْمَجَالِسُ النِّيَابِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ كُلُّهَا صُورٌ مُمَثِّلَةٌ جَائِفَةٌ، مَنَقُطَعَةٌ السَّمَاءِ مِنْ أَسْبَابِهَا، كَالْفَرْعِ الْمَقْطُوعِ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَإِنَّمَا يَتَنَضَّرُ الْفَرْعُ وَيُثْمِرُ أَثْمَارَهُ إِذَا قَامَ بِشَجَرَتِهِ لَا بِنَفْسِهِ، وَمَا شَجَرَةُ الْفَرْعِ السِّيَاسِيِّ إِلَّا الْجُمْهُورُ السِّيَاسِي.

فَسَبِيلُ الْإِصْلَاحِ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ شَرْقِيَّةٍ أَنْ يَنْهَضَ أَهْلُ الرَّأْيِ مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ فِيهَا بَيْنَ عَالَمٍ وَأَدِيبٍ وَمُحَامٍ وَسَرِيٍّ، وَمَنْ كَانَ سَبِيلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَيَجْعَلُوا لِمَدِينَتِهِمْ دَارَ نَذْوَةٍ لِلْإِجْتِمَاعِ وَالْبَحْثِ وَالْمَشُورَةِ، وَقَوْلُ (نَعَمْ) بِالْحُجَّةِ وَقَوْلُ (لَا) بِالْحُجَّةِ. ثُمَّ

(١) أدبروا: تراجعوا إلى الوراء.

يُعلنون ذلك في جمهورهم وينزلون منه منزلة الأستاذ والآب والصديق في تعليمه وهدايته وإرشاده؛ وتتصل هذه الدور في كل مملكة بعضها ببعض، وتنتهي بالمجالس النيابية. وبغير ذلك لا يملأ الفراغ الذي نراه خاوياً^(١) بين الشعب والحكومة، وبين الكبراء والجماهير، وإنما أكثر مصائبنا من هذا الفراغ؛ فهو الذي يضيع فيه ما يضيع فيه، ويختفي ما يختفي.

منا قوم موظفون في الحكومة؛ لكن أين القوم الذين تكون الحكومة نفسها موظفة عندهم؟

(اعتذار): بهذا المقال أنتهت أحاديث ألباشا؛ فقد أنبأنا صاحب السر أنه سيكتُم السر... .

(١) خاوياً: فارغاً.

المجنون

١

جاء يمشي هادئاً يتخيلُ في مشيته، يَرْجُفُ بَيْنَ الْخُطْوَةِ وَالْخُطْوَةِ كَأَنَّهُ مِنْ كِبَرِهِ يُشْعِرُكَ أَنَّ الْأَرْضَ مُدْرِكَةٌ^(١) أَنَّهُ يَمْشِي فَوْقَهَا. . . . ولا ينقلُ قدمَهُ إِذَا خَطَا حَتَّى يَنْهَضَ بِرَأْسِهِ يُحَرِّكُهُ إِلَى أَعْلَى، فَمَا تَدْرِي أَهوَ يُرِيدُ أَنْ يَطْمِئَنُّ إِلَى أَنَّ رَأْسَهُ مَعَهُ. . . . أَمْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّ هَذَا الرَّأْسَ الْعَظِيمَ قَدْ وُضِعَ عَلَى جَسْمِهِ فِي مَوْضِعِ رَايَةِ الدَّوْلَةِ، فَهُوَ يَهْزُهُ هَزَّ الرَّايَةِ. . . .

وأخذته عيني وليسَ بيني وبينَهُ إِلَّا طَوْلُ غُرْفَةٍ وَعَرْضُهَا - فإِذَا هُوَ زَائِعٌ الْبَصَرِ كَأَنَّمَا وَقَعَ فِي صَحْرَاءٍ يُقْلَبُ عَيْنُهُ فِي جِهَاتِهَا مَتَحِيرًا مَتَرَدِّدًا، ثُمَّ كَأَنَّمَا رُفِعَ لَهُ فِي أَقْصَاهَا جَبَلٌ فَأَخَذَ إِلَى نَاحِيَّتِهِ. . . .

ورَخِبْتُ بِهِ، وَأَجْلَسْتُهُ إِلَى جَانِبِي، فَأَخَذَ يَسْتَعْرِفُ إِلَيَّ^(٢) بِذِكْرِ أَسْمِهِ وَجَمَاعَتِهِ وَبِلَدِهِ، لَا يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا، كَأَنَّهُ عَتَرَةُ بَنِي عَنَسٍ: لِأَرْضِهِ مِنْ طَبِيعَتِهَا جُغْرَافِيَا، وَمِنْ أَسْمِهِ جُغْرَافِيَا عَلَى حِدَةٍ. . . . فَلَمَّا رَأَيْتُ لَا أَثْبِتُهُ مَعْرِفَةً قَالَ: إِنَّ بَكَ نِسْيَانًا.

قُلْتُ: وَكَثِيرًا مَا أُنْسَى غَيْرَ أَنَّ أَسْمَكَ لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَذْكُرُ بِتَارِيخٍ. قَالَ: هَذِهِ غَلْطَةُ الْجَرَائِدِ. . . . وَمَهْمَا تَنَسَّ مِنْ شَيْءٍ فَلَا تَنَسَّ أَنَّكَ أَسْتَادُ «نَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ». . . .

فَسَرَّخْتُ فِيهِ نَظْرِي^(٣)، فَإِذَا أَنَا بِمَجْنُونٍ ظَرِيفٍ أَمْرَدٍ أَهِيْفَ، يَكَاذُ بِرَخَاوَتِهِ وَتَفَكُّكِهِ لَا يَكُونُ رَجُلًا، وَيَكَاذُ يَبْدُو أَمْرَأَةً بِجَمَالِ عَيْنَيْهِ وَفَتُورِهَا.

وَتَوَسَّسْتُ فَإِذَا وَجْهٌ سَاكِنٌ مَنْبَسِطٌ الْأَسَارِيرِ مَمْسُوحٌ الْمَعَانِي، يُنْبِئُ بِانْقِطَاعِ صَاحِبِهِ مِمَّا حَوْلَهُ، كَأَنَّ دُنْيَاهُ لَيْسَتْ دُنْيَا الْنَّاسِ، وَلَكِنَّهَا دُنْيَا رَأْيِهِ. . . .

(١) مدركة: عارفة.

(٢) يستعرف إلي: يقدم نفسه.

(٣) أي نظرت إليه ملياً تأمله.

وتأملت فإذا طفولةً متلبدةً قد ثبتت في هذا الوجه لِتُخرجَ من بين الرجلِ
والطفلِ مجنوناً لا هو طفلٌ ولا رجل .

وتفرست^(١) فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه الصَّفحة ، قتلاها أفكارُ المسكينِ
وعواطفه .

وتبينتُ فإذا رجلٌ مُسترخٍ ، مُتفتِّرُ البدنِ^(٢) ، حائرُ النفس ، كأنه قائمٌ لِتَوَّهٍ مِنْ
النومِ فلا تزالُ في عينه سِنَةٌ ، وكأنه يتكلَّمُ من بقايا حُلُمٍ كان يراه . . .

وحُيِّلَ إليَّ من هذا الخُمُولِ في هذا الشاب ، أنَّ عليه جِواً من تشاؤبه ، وأنَّ
المكانَ كُلَّهُ يتشاءبُ ، فتشاءبتُ

فلما رأى ذلك مني ضحك وقال : إن «نابغة القرن العشرين» رجلٌ مغناطيسيٌّ
عظيم ؛ فها هو ذا قد ألقى عليك النوم . . وحسبك فخراً أن تكونَ أستاذَهُ وأخاهُ
وثِقته ، «فليس على ظهرها اليومَ أديبٌ غيري وغيرُك . . .» .

قلتُ في نفسي : إنا لله ، ما يعتقِدُ الرجلُ أنَّ على ظهرها مجنوناً غيره
وغيري ، وكأنما ألمَ بذلك فقال : لستُ مجنوناً ؛ ولكني كنتُ في البيمارستان . . .

قلتُ : أهو البيمارستانُ الذي يسمَّى مستشفى المجاذيب ؟

قال : لا ؛ إنَّ هذا الذي تُسميه أنت ، هو هو مستشفى المجاذيب ؛ أمَّا الذي
سميته أنا فهو مستشفى فقط . . .

وذكرتُ عندئذٍ أنَّ مِنَ المجانينِ قوماً ظرفاءَ يَدْخُلُهُمُ الفسادُ في عقولهم من ناحية
فكرةٍ ملازمةٍ لا تَبْرُحُ ، فلا يكونُ جنونُهُم جنوناً إلَّا من هذا الوجه ، وسائرُ أحوالهم
كأحوالِ العقلاء ، غيرَ أنَّهم بذلك طيَّاشون^(٣) متقلَّبون ، إذا أزدُهِيَ لم يُطْفِئْهُ النَّاسُ من زَهوهِ
وكبريائه وتنطَّعه ، كأنه واحدٌ الدُّنيا في هذه الفكرة ، وكأنَّ بينَهُ وبينَ اللَّهِ أسراراً ؛ ويظنُّ
عندَ نفسه أنَّه أعقلُ النَّاسِ في أرقى طبقاتِ عقله ، وما جنونهُ إلَّا في هذه الطبقةِ وحدها .

ومثلُ هذا لا بدَّ لَهُ مِمَّنْ يستجيبُ لهذيانه كيما يُحرِّكَ فيه خِفَتَهُ وطيشَهُ وزهوَهُ ،
وليكونَ عندهُ الشَّاهدُ على هذا الوجودِ الخياليِّ المُبدعِ الذي لا يوجدُ إلَّا في عقله
المختل . فإذا هو ظفِرَ بَمَنٍ يُحاسِنُهُ ، أو يُصانِعُهُ ، أو يُجارِيهِ ، حَسِبَهُ مُدْعِناً^(٤) مؤمناً

(٣) طيَّاشون : لا يتصرفون بعوي .

(٤) مدعناً : خاضعاً ، مستلماً .

(١) تفرست : نظر بامعان .

(٢) متفتِّر البدن : كسول .

مصدقاً، فلا يدَّعُ من بعدها ويتعلَّقُ به أشدَّ التعلُّقِ، ويراهُ كأنَّه في ملكه... فيتخذُه صفيّاً وهو يعتقدُ أنَّه رقيق، وقد يزعمُه أستاذُه ليفهمُه من ذلك بحسابِ عقله... أنَّه تلميذه.

وخشيتُ أن يكونَ (نابغةُ القرنِ العشرين) لم يُسمني أستاذُه إلاَّ بحسابٍ من هذا الحساب، فهو سيعطي الأُستاذيةَ حقَّها، ولكن كما هو حقُّها في لغة جنونه... فأصبح في رأيه تلميذه وصنيعته، ومحدثُ هذيانه، وثقته وملجأه، والمحمي من ورائه.

قلتُ في نفسي: إذا أنا تركتُه جالساً كانَ هذا المجلسُ مثابته^(١) من بعد، فلا يعرفُ له محلاً غيره، ويصبحُ كما يُقالُ في تعبيرِ القانونِ «محلّه المختار»، فيتطرَّأ إليَّ لسببٍ ولغير سبب، ويقعُ في أوقاتي وقوعَ السهو لا حسابَ عليه، ويضيعُ فيه ما يضيع. فأجمعتُ أن أصرفه راضياً باليأس؛ وقد انتهت نفسه من معرفتي، وأنتهى عقله إلى الرأي أني لا أضلُّحُ له أستاذاً، لا بحسابه هو ولا بحسابِ الناس.

فقلتُ له: ظني بك أنَّك أستاذُ نفسك، ولا يحسنُ بنابغةِ القرنِ العشرين أن يكونَ له في القرنِ العشرين أستاذ؛ وأراك قد فرغتُ لِلادب، أمّا أنا فمُشغولُ بأعمالٍ وظيفتي، وقد جاءَ من العملِ ما تراه، وتكادُ لا تفي به الساعاتُ الباقية من الوقت... و...

فقطعتُ عليّ وقال: إنَّ الوقتَ ليس في الساعة؛ والدليلُ أني أعطُها فيتعطلُ الوقت، ولا يكونُ فيها يومٌ ولا ساعةٌ ولا ثانيةٌ ولا دقيقة.

فقلتُ: ولكثك إذا عطلتها لم تتعطلِ الشمسُ التي تُعينُ منازلَ النهار، فسيمرُّ الظهْرُ ويحينُ العصر... و...

قال: ويأتي غد، وإنَّما أنا معك اليومَ فقط... ويجبُ أن تغتبطَ^(٢) بأنك أستاذُ (نابغةِ القرنِ العشرين)، فقد قرأتُ الكثيرَ في الأدبِ وقرأتُك، فما كانَ لي رأيٌ إلاَّ رأيتهُ لك... ولا صحَّحتُ عندي نظريَّةً إلاَّ رأيتهُك قد أبديتها، وأنا لا أعتقدُ أدباً في مصرَ إلاَّ ما تُوافينا عليه معاً «ولا أسلمُ جدلاً، ولا جدلاً أسلمُ أن في مصرَ أدباءَ ينالون مني شيئاً، فهو أنا وأنا هو»، ولكن لم يُدعِنوا (لنابغةِ القرنِ العشرين) فليعلمنَّ أنهم «وقعوا مني موقعَ نملةٍ على صخرة... هذا من جهة، ومن جهةٍ أُريدُ سجنائهم وليسَ معي ثمنُها»...

(١) مثابته: ملجأه.

(٢) تغتبط: تُسر.

فتهللت وأستبشرت، وقلتُ له: هذا قرشٌ فهلّم فأشترِ به دخائلك، وفي رعاية الله، ثم أَسْتَوِيتُ لِلْقِيَامِ، ولكنه لم يقم؛ بل تمكّن في مجلسه...

وكرهتُ أن أُنَغِيرَ له وما أشكُ أنَّه في هذا صحيحُ التمييز؛ فما أسرع ما قال: إنَّ «نابغةَ القرنِ العشرين» فتى قويُّ الإرادة؛ فإذا هو لم يصبر عن التدخين ساعاتٍ فما هو بصبور... وإذا لم يُثَبِّتْ لك هذا الأمرَ عن مُعاينة... فما أعطيتُهُ حقّه.

فقلتُ في نفسي: لقد غرستُ الرجلَ من حيثُ أَرَدْتُ أَقْتْلَاعَهُ، وأيقشتُ أنَّه من عِقلَاءِ الْمَجَانِينِ الَّذِينَ تَتَغَيَّرُ فِيهِمُ الْعَاطِفَةُ أحياناً فَنُلْهِمُهُمُ آيَاتٍ مِنَ الذِّكَاةِ لَا يَتَّقُوْا مِثْلَهَا إِلَّا لِنَوَائِغِ الْمُنْطَقِ؛ وذكرْتُ (بهلول) الْمَجْنُونِ الَّذِي حَكَّوْا عَنْهُ أَنَّ إِبْرَاهِيْمَ الْكُشِيِّانِيَّ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَأْكُلُ خَبِيصاً^(١) فَقَالَ لَهُ: أَطْعَمْنِي. قال: لَيْسَ هُوَ لِي، إِنَّمَا هُوَ لِعَائِكَ بِنْتُ الْخَلِيفَةِ بَعَثَتْهُ إِلَيَّ لِأَكْلِهِ لَهَا...

وقالوا: إِنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ الْبَزَازِينِ فَرَأَى قَوْمًا مُجْتَمِعِينَ عَلَى بَابٍ وَكَانَ قَدْ نُقِبَ، فَنَظَرَ فِيهِ وَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ مَنْ عَمِلَ هَذَا؟ قالوا: لَا. قال: فَأَنَا أَعْلَمُ.

فقالوا: هَذَا مَجْنُونٌ يَرَاهُمُ بِاللَّيْلِ وَلَا يَتَحَاشَوْنَهُ^(٢)، فَأَلْطَفُوا^(٣) بِهِ لَعَلَّهُ يُخْبِرُكُمْ. ثُمَّ قالوا: أَخْبِرْنَا. قال: أَنَا جَانِعٌ. فَجَاءَهُ بِطَعَامٍ سَنِيٍّ وَحُلْوَاءٍ؛ فَلَمَّا شَبِعَ قَامَ فَنَظَرَ فِي النَّقَبِ وَقَالَ: هَذَا عَمَلُ اللَّصُوصِ...

وكأنتُ مجلَّةُ (الرسالة) في يَدِ (نابغة القرن العشرين)، فوصلَ الْكَلَامَ بِهَا وَقَالَ: إِنَّهُ يَقْرَأُ كُلَّ مَقَالَاتِي، وَإِنَّهُ وَإِنَّهُ، وَإِنَّهَا وَإِنَّهَا. قلتُ: فما أَسْتَحْسِنْتُ مِنْهَا؟ قال: (مقالة السِمْيَا)...

فقلتُ: متى كَانَ آخِرُ عَهْدِكَ بِرُؤْيَا السِمْيَا؟ قال: أَمْسَ.

قلتُ: فَأَنَا لَمْ أَكْتُبْ مَقَالاً عَنِ السِمْيَا، وَلَكِنَّكَ أَعْجَبْتَ بِمَا رَأَيْتَ أَمْسَ فَتَحَوَّلَ مَا رَأَيْتَهُ حُلُمًا فِي مَقَالَةٍ.

فأعجبتهُ هَذَا التَّأْوِيلُ وَقَالَ: بِمِثْلِ هَذَا أَنَا (نابغة القرن العشرين)، فَأَقْرَأْ مَقَالَتَكَ فِي الْغَيْبِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكْتُبَهَا...

(١) الخبيص: ضرب من الأطعمة يصنع من التمر والسمن.

(٢) يتحاشونه: يتجنبونه.

(٣) أَلْطَفُوا: تَلَطَّفُوا وَأَحْسَنُوا مَعَامِلَتَهُ.

قلت: إنك تُكثرُ أن تقولَ عن نفسك (نابعةُ القرنِ العشرين)، وهذا يحصرُ نبوغَكَ في قرنٍ بعينه؛ فلو قطعتَ الكلمةَ وقلت: (نابعةُ القرن)، لصحَّ أن تكونَ نابعةُ القرنِ التاسعَ عشرَ والثامنَ عشر، وما قبلهما وما بعدهما.

فرايتُ به شذّه^(١) كأنه يفكرُ في جنونه، ثم أفاق وقال: لا؛ لا؛ وإن هاهنا موضعَ نظر، فلو رصيتُ بنابعةَ القرنِ فقط، لَجاءَ مَنْ يقول: إني نابعةُ قرنِ خروف... .

فقلتُ في نفسي: حَمأةٌ مُدَّتْ بماء، وإن هذه الوسائسَ لا تنفكُ تعرفُ^(٢) هذا المسكينَ ما وجدَ من يكلمه؛ والأفكارُ في ذهنهِ مجتمعةٌ مختلطةٌ مسترسلةٌ كأنها ثورةٌ مِنَ الكلامِ لا نظامَ لها، فلا سكوتَ عنه ولا تشاغلَ بما بين يدي.

وسكَّتْ وأعرضتْ عنه؛ فجعلَ طائفُهُ يعتريه، وكانَ السكوتُ قد سلَّطَ أفكارَه عليه، وكأنَّها أخذتْ تصيحُ به في رأسِهِ كما يصيحُ غلمانُ الطرقِ بالمجنون، لا يزالونَ به حتى يُخرِّدوه^(٣) ويفقدوه البقيةَ من صبرِهِ وعقلِهِ معاً. فغضبَ (نابعةُ القرنِ العشرين) ونقلَه الغضبُ إلى حالةٍ زَمهرتَ فيها عيناه^(٤)، وكَلَحَ وجهه^(٥) حتى خِفَّتْ أن يشوَرَ به الجنون، فأقبلتُ عليه وتعلَّلتُ بسؤالِهِ: ألكَ إخوة؟ ألم ينبغِ فيهم نابعة... ؟

قال: إنَّ له أخوا يُعذِّبه، ويوقعُ به ضرباً، ويغلِّله بالسلاسل، ويشدُّه «بأمراسٍ كَثَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلٍ»، وأتته أنزلَ به العذابَ ما لو أنزلَه بحجرٍ لتألَّم. قلت: فانت في حاجةٍ إلى راحةٍ، ويحسنُ بك أن تأويَ إلى مكانٍ تتمددُ فيه. قال: إني منصرفٌ وسأجلسُ في ندي^(٦) كذا «هذا من جهة، ومن جهةٍ ليسَ معي ثمنُ القهوة».

قلت: فهذا قرشٌ تدفعُهُ ثمناً لها، فأذهبِ فاستمتعِ بها وبالتدخينِ وبالأراحةِ في ذلك الندي، فالمكانُ ها هنا كثيرُ الضجيجِ والحركة. وأستوفزتُ للقيام^(٧)؛ ولكئنه لم يتحلَّحل من مجلسِهِ.

(١) شذّه: اندهاشاً واستغراباً.

(٢) تعرفو: تصيب.

(٣) يخرِّدوه: يشجعوه على فعل ما يستهجن.

(٤) زمهرت عيناه: لمعت غضباً.

(٥) كلح وجهه: تغيَّر لونه حتى بدا كالْحاً.

(٦) ندي: مقهى.

(٧) استوفزت للقيام: تحفّزت.

ثم قال: أراك الآن مستبصراً أنني (نابعة القرن العشرين) بعينه.

قلت: بل بعينه اليمنى واليسرى معاً...

قال: لا. لا؛ إنك نسيت أن العرب تقول في التوكيد: عينه ونفسه وذاته.

«أي أنا نابعة القرن العشرين بعينه ونفسه وذاته، فليس غيري نابعة القرن العشرين».

وكادت نفسي تخرج غيظاً، ولكني رأيت الجلم على مثل هذا يجري مجرى الصدقة؛ وقلت: إن أدباء المجانين كثيراً ما يتفق لهم الإبداع الطريف^(١) إذا عللوا شيئاً، كذلك القاص الذي كان يقص على العامة سيرة يوسف - عليه السلام -، فقال لهم فيما قال: إن الذئب الذي أكل يوسف كان اسمه كذا، فردوا عليه: إن يوسف لم يأكله الذئب. قال: فهذا هو أسم الذئب الذي لم يأكل يوسف.

فقلت للمجنون: فما العللة عندك في أن العرب لم يقولوا في التوكيد: عينه وأذنه وأنفه وفمه ويده ورجله؟

فنظر نظرة في الفضاء ثم قال: ليسوا مجانين فيخلطوا هذا الخلط، وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك: وعمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاته ودارهم. «هذا من جهة، ومن جهة ليس معي أجره السيارة إلى بلدي وهي قرشان». قلت: هذه هي أجره السيارة وصحبك السلامة، ونهضت واقفاً؛ ولكنه لم يتحرك.

ثم قال: إنك لم تعرف بعد «أني أقول الشعر في الغزل والنسيب والمدح والهجاء والفخر؛ وأني في الخطابة قس بن ساعدة أو أكثم بن صيفي، وأني صخر لا ينفجر... يابس لا ينعصر، لست كالحجاج بل كعمر».

قلت: هذا شيء يطول بيننا ولا حاجة لك بهذه البراهين كلها، فقد آمنت أنك نابعة القرن العشرين في الأدب والشعر والخطابة والترسل.

قال: والفلسفة؟

قلت: والفلسفة وكل معقول ومنقول؛ وقد أنتهينا على ذلك.

قال: ولكنك تحسبني مجنوناً أو ممروراً «كما حسبتني الجرائد التي زعمت

(١) الطريف: الجديد.

أَنَّ اخْتِفَائِي فِي الْبِيمَارِسْتَانِ كَانَ لِجَنُونِي الْفِكْرِيِّ أَوْ لِدَكَائِي الطَّبِيعِيِّ وَهُوَ الْأَصَحُّ . . . فَبَيَّنَ لِهَذِهِ الْجَرَائِدِ أَنِّي خَرَجْتُ ، وَأَنِّي سَاطِعُ الْأَدَبِ بِطَايِعِ جَدِيدٍ .

قُلْتُ : وَلَكِنِّي لَسْتُ مَرَاوِسِلَ جَرَائِدٍ . وَقَالَ : « فَأَجْعَلْنِي رِسَالَةً وَرَاسِلُهَا عَنِّي أَوْ أَكْتُبْ لَكَ أَنَا مَا تُرْسَلُهُ ، وَمَا جَفْتُكَ إِلَّا لِهَذَا ؛ وَيَجِبُ أَنْ تُلَحِقَنِي بِجَرِيدَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَهَذِهِ الْجَرَائِدُ تَعْرِفُنِي كُلُّهَا ، وَقَدْ تَنَاوَلْتَنِي مِنْ جَمِيعِ النُّوَاحِي الْأَدَبِيَّةِ ؛ فَضْلاً عَنْ أَنِّي كَاتِبٌ قَدْ ، وَخَطِيبٌ قَدْ ، وَشَاعِرٌ قَدْ ، وَهَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ ، فَهَلْ أَعُوْلُ عَلَيْكَ فِي صِلَتِي بِالْجَرَائِدِ أَوْ لَا ؟ » .

قُلْتُ : إِنَّكَ تَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَكَ ، وَقَدْ بَلَّوْتَهُمْ ^(١) وَبَلَّوْا مِنْكَ ، فَلَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيَّ عِنْدَهُمْ .

قَالَ : إِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ بِأَسِي ، وَقَدْ حَسِبُونِي مَجْنُوناً أَسْتَهْوَتْهُ الْأَشْيَاطِينُ ؛ وَمَا عَلِمُوا أَنَّ شَيْطَانَ الشَّعْرِ هُوَ الَّذِي أَسْتَهْوَانِي ، كَمَا أَنَّ شَيْطَانَ الْحُبِّ هُوَ الَّذِي أَسْتَهْوَاكَ . . . هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِيَ ثَمَنُ الْغَدَاءِ ، وَلَا أَكْلُفُكَ شَيْئاً . . . » .

قُلْتُ : فَهَذَا قَرَشٌ لِلْغَدَاءِ فِي مَطْعَمِ الشَّعْبِ . وَهُمْ أَلَا يَتَغَدَّوْنَ وَيُوشِكُ إِذَا أَبْطَأَتْ أَنْ تُوَافِقَهُمْ وَقَدْ اسْتَنْفَدُوا الطَّعَامَ ، وَأَنْتَ لَا تَجْهَلُ أَنَّ الْقَرَشَ فِي مَطْعَمِ الشَّعْبِ هُوَ قَرَشَانِ فِي الْقِيَمَةِ .

قَالَ : صَدَقْتَ ؛ يُوشِكُ أَنْ أُوَافِقَهُمْ وَقَدْ فَرَّغُوا مِنْ طَعَامِهِمْ وَغَسَلُوا الْآتِيَةَ . فَلَأُبْقِ هَذَا لِلْعِشَاءِ وَسَاطُوِي ^(٢) إِلَى اللَّيْلِ . . .

قُلْتُ : فَمَعَكَ أَلَا يَتَمَنَّى الدِّخَانُ ، وَالْقَهْوَةُ ، وَالْغَدَاءُ ، وَأَجْرَةُ السَّيَارَةِ إِلَى بَلَدِكَ . وَقَدْ كَانَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الثَّلَاثِ لِلْمُهْجَرَةِ وَأَسْمُهُ (طَاقُ الْبَصْلِ) ^(٣) يُغْنِي بِقِرَاطٍ وَلَا يَسْكُتُ إِلَّا بِدَانِقٍ . هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ فَخَذَ هَذَا الْقَرَشَ ثَمَناً لِسُكُوتِكَ وَأَنْصَرِفَ .

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَامَ مُغْضَباً وَتَنَفَّسَتْ بَعْدَهُ الصُّعَدَاءُ الطَّوِيلَةُ . . . وَفَتَحَتْ النَّافِذَةَ وَأَسْتَقْبَلَتْ الْهَوَاءَ الْنَقِيَّ وَأَخَذَتْ فِي رِيَاضَةِ النَّفْسِ الْعَمِيقِ ، ثُمَّ زَاغَتْ عَيْنِي إِلَى الْكَابِ ؛ فَإِذَا (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) مُقْبِلَةٌ مَعَ نَابِغَةِ قَرْنٍ آخَرَ

(١) بَلَّوْتَهُمْ : اخْتَبَرْتَهُمْ .

(٢) أَطُوِي : أَنَامُ بِلَا عِشَاءِ . (٣) هَذَا أَحَدُ مَجَانِينِ الْقَرْنِ الثَّلَاثِ فِي الْكُوفَةِ .

المجنون

٢

رَأَيْتُ الْمَجْنُونِينَ يَدْخُلَانِ مَعًا، فَكَأَنَّمَا سَدًّا أَلْبَابَ وَسَوِيَّاهُ بِالْبِنَاءِ وَتَرَكََا الْعُرْفَةَ حَائِطًا مُضْمَتًا لَا بَابَ فِيهِ، مِمَّا أَعْتَرَانِي^(١) مِنَ الضَّيْقِ وَالْحَرَجِ؛ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنَّهُ لَا مَذْهَبَ لِلْعَقْلِ بَيْنَ هَذَيْنِ إِلَّا أَنْ يُعَيَّنَ كِلَاهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، فَأَرَى أَنْ أَدَّعِيَهُمَا وَأَكُونَ أَنَا أَصْرَفُهُمَا؛ وَيَا رَبِّمَا جَاءَ مِنَ النُّوَادِرِ فِي أَجْتِمَاعِ مَجْنُونِينَ مَا لَا يَأْتِي مِثْلُهُ مِنْ عَقْلَيْنِ يَجْتَمِعَانِ عَلَى ابْتِكَارِهِ؛ غَيْرَ أَنِّي خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا الْمَجْنُونُ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ لَا أَمْنُ أَنْ يَثْبُتَ أَحَدُهُمَا بِالْآخِرِ إِذَا خَطَرَتْ بِهِ الْخَطَرَةُ^(٢) مِنْ شَيْطَانِهِ، فَرَأَيْتُ أَنْ يَكُونَ لِي ظَهِيرٌ عَلَيْهِمَا، إِنْ لَمْ يَحِقَّ بِهِ الْعَوْنُ فَلَا أَقْلَ مِنْ أَنْ يَطُولَ بِهِ الصَّبْرُ... وَكَانَ إِلَى قَرِيبٍ مِنِّي الصَّدِيقُ (أ. ش) فَأَرْسَلْتُ فِي طَلْبِهِ.

أَمَّا هَذَا الْمَجْنُونُ الثَّانِي الَّذِي جَاءَ بِهِ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ) فَقَدْ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلِ، وَهُوَ كَالْكِتَابِ الَّذِي خُلِطَتْ صُحُفُهُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ فَتَدَاخَلَتْ وَفَسَدَ تَرْتِيبُهَا، وَأَنْقَلَبَ بِذَلِكَ أَلْعَلُّمُ الَّذِي كَانَ فِيهَا جَهْلًا وَتَخْلِيطًا، يَثْبُتُ الْكَلَامُ بَعْدَ كُلِّ صَفْحَةٍ إِلَى صَفْحَةٍ غَرِيبَةٍ لَا صِلَةَ لَهَا بِمَا قَبْلَهَا وَلَا مَا بَعْدَهَا.

وَهُوَ طَالِبٌ أَزْهَرِيٌّ كَانَ أَكْبَرَ هَمِّهِ أَنْ يَصِيرَ حَافِظًا كَالْحَفَظِ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الرِّوَاةِ وَالْفُقَهَاءِ، فَجَعَلَ يَسْتَظْهِرُ كِتَابًا بَعْدَ كِتَابٍ وَمِثْنًا بَعْدَ مِثْنٍ؛ وَكَانَتْ لَهُ أَدْنُ وَاعِيَةٍ، فَكُلُّ مَا أَفْرَغَ فِيهَا مِنْ دَرَسٍ أَوْ حَدِيثٍ أَوْ خَبَرٍ، نَزَلَ مِنْهَا كَالنَّقْرِ عَلَى آلَةٍ كَاتِبَةٍ، فَيَنْطَبِعُ فِي ذَهَبِهِ أَنْطَبَاعُ الْكِتَابَةِ: لَا تُمَحَى وَلَا تُنْسَى.

ثُمَّ أَلْتَأَتِ هَذِهِ اللَّوْنَةُ وَهُوَ يَحْفَظُ مِثْنًا فِي فَقِهِ الْأَشَافِعِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، فَغَبِرَ سَنِينَ يَتَحَفَّظُهُ، كُلَّمَا أَنْتَهَى إِلَى آخِرِهِ نَسِيَهُ مِنْ أَوَّلِهِ؛ فَيَعُودُ فِي حَفَظِهِ وَرَبَّمَا هَذَا دَابَّةُ

(١) اعتراني: أصابني وداخلني.

(٢) الخطرة: الفكرة.

لا يملُ ولا يجدُ لهذا الغناء معنى، ولا يزالُ مقبلاً على الكتابِ يجمعه، ثم لا يزالُ الكتابُ يتبدّدُ في ذاكرته.

وترك المعهد الذي هو فيه وتخلّى في داره^(١) ليحفظ، وأجمع ألا يدع هذا الممتن أو يحفظه، وكأنّ فيه الموضوع الذي فارقه عقله عنده، وبذلك رجع المسكين آلة حفظ ليس لها مساك^(٢)؛ وأصبح كالذي يرفع الماء من البحر، ثم يلقيه في البحر، لينزع البحر...

وجاء (أ. ش) فقلتُ له، وأومأتُ إلى المجنون الأول: هذا نابغة القرن العشرين.

قال: وهل أنتهي القرنُ العشرون فيعرف من نابغته؟
فقلتُ للمجنون: أجنه أنت. فسأله: وهل بدأ القرنُ الواحد والعشرون؟ قال: لا.
قال: فإنّ هذا الذي إلى جانبي نابغة القرن الواحد والعشرين... فكما جاز أن يكون هو نابغة قرن لم يبدأ، جاز أن أكون أنا نابغة قرن لم ينته.
قلتُ: ولكنك زدت المشكلة تعقيداً من حيث توهمت حلّها؛ فكيف يكون معك في آن وبينك وبينه خمس وستون سنة؟

فنظر نظرة في ألفضاء، وهو كلما أراد شيئاً عسيراً نظر إلى اللاشيء...
ثم قال: هذه الأمور لا تشبه إلا على غير العاقل... وكيف لا يكون بيني وبينه خمس وستون سنة وأنا أتقدّمه؛ النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة...؟
قلتُ للآخر: أ كذلك؟

قال: ممّا حفظناه عن الحسن: أدركنا قوماً لو رأيتموهم لقلمت: مجانين. ولو أدركوكم لقالوا: شياطين...

فضحك الأول وقال: إنّه تلميذي.

قال الثاني: لقد صدق فهو أستاذي، ولكنه حين ينسى لا يذكره غيري...
قلت: لا غرو «فمما حفظناه» عن الزهري: إذا أنكرت عقلك فأقدّحه بعقل...
فغضب نابغة القرن العشرين وقال: ويح لهذا الجاهل، الأحمق، الجاحد للفضل،

(٢) مساك: بقية حفظ.

(١) تخلّى في داره: انزوى وانعزل.

ومع جنونه وخبله . اُبْذَكُرْنِي وهو منذُ كذا وكذا سنة يحفظُ متناً واحداً لا يُمْسِكُهُ عقله إلا كما يُمْسِكُ الماءُ الغرابيل؟ صدق - والله - مَنْ قال : عدوُّ عاقلٍ خيرٌ؛ خير . فقال الثاني : خيرٌ من صديقٍ جاهلٍ ، هأنذا قد ذُكِرْتُكَ من نسيانٍ ، وهأنت ذا رأيت .

فضحك النابغة وقال : ولكني لم أرِدْ أن أقولَ هذا ، بل أرِيدُ أنْ أُولَفَ كلاماً آخر عدوُّ عاقلٍ خيرٌ ، خيرٌ؛ خير من مجنونٍ جاهلٍ

ورأيتُ أنْ ألتقاءِ مجنونينِ شيءٍ طريفٍ غيرُ جنونيهما ، وصحَّ عندي أنْ المجنونُ الواحدُ هوَ المجنونُ ؛ أمّا الأثنانِ فقد يكونُ مِنْ اجتماعِهما وتجاوزِهما فنُ ظريفٍ مِنَ التمثيلِ ، إذا وَجدا مَنْ يُصَرِّفُهُما في الحديثِ ، ويستخرجُ ما عندهُما ، ويستكشفُ منهما قِصتهما العقلية

ولم أكنْ أعرفُ أنْ (نابغة القرن العشرين) مِنَ المجانينِ الذينَ لهم أذنٌ في غيرِ الأذنِ ، وعينٌ في غيرِ العينِ ، وأنفٌ بغيرِ الأنفِ ؛ إذ تتلقى أدمغتهم أصواتاً وأشباحاً وروائحَ من ذاتِ نفسِها لا مِنَ الوجودِ ، وتُدركُها بالتوهُمِ لا بالحاسةِ ، فَتَخْلُقُ^(١) هواجسَهُم خَلْقاً بعدَ خَلْقٍ ، وتخطرُ الكلمةُ مِنَ الكلامِ في ذهنِ أحدهم فيخرجُ منها معناها يتكلمُ في دماغِهِ أو يمشي أو يلاطفُهُ أو يؤذيه أو يفعلُ أفعالاً أخرى .

وبينا أنا أديرُ الرأيَ في إخراجِ فصلٍ مِنَ الجوارِ بينَ هذينِ المجنونينِ ، إذ قالَ (نابغة القرن العشرين) : صَه ، إنَّ جرسَ «التلفون» يدقُ .

قال (أ. ش) : لا أسمعُ صوتاً ، وليسَ ههنا «تلفون» .

فأغتاظُ المجنونَ الآخرُ وقال : إِنَّكَ تَتَفَحَّمُ^(٢) على النوايغِ ولستَ من قدرِهِم ، وما عملُكَ إلا أنْ تُنْكِرَ ؛ والإنكارُ ، ويليكَ ، أيسرُ شيءٍ على المجانينِ وأشباهِ المجانينِ ، والعامَّةِ وأشباهِ العامَّةِ ؛ وقد أنكرتَ نبوغَهُ أنفأ ، وأراك الآنَ تُنْكِرُ «تلفونه» . . .

قال (أ. ش) : وأين «التلفون» وهذه هي الغرفةُ بأعينِنَا؟ فضحك (نابغة القرن العشرين) وقال : صَه - ونحك - لقد خَلَطْتُ عَلَيَّ ؛ إنَّ الجرسَ يدقُ مرةً أخرى ، وأنا لا أرِيدُ أنْ أكمَلَمَها حتى يطولَ انتظارُها ، وحتى تدقُ ثلاثَ مراتٍ ، وأخشى أنْ تكونَ قد دَقَّتْ الثالثةُ وذهبَ رنينُها في صوتِكَ ولَعَطِكَ . . .

(١) تتخلف : تتشكل . (٢) تتفحم : تحشر نفسك ، تدشها .

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخِرُ: هِيَ صَاحِبَتُهُ الَّتِي يَهْوَاهَا وَتَهْوَاهُ؛ وَقَدْ أَسْتَهَامَهَا^(١) وَتَيَّمَهَا وَحَيَّرَهَا وَخَبَلَهَا، حَتَّى لَا صَبْرَ لَهَا عَنْهُ، فَوَضَعَتْ لَهُ تَلْفُونًا فِي رَأْسِهِ

قَالَ «النَّابِغَةُ»: وَهَذَا التَّلْفُونُ لَا يُسْمَعُنِي صَوْتُهَا فَقَطْ، بَلْ هُوَ يُشِيقُنِي عِطْرُهَا أَيْضًا. وَقَدْ تَكَلَّمْتُ فِيهِ الْمَلَائِكَةُ أحيانًا، وَأَنَا سَاخِطٌ عَلَى هَذِهِ الْحَبِيبَةِ فَإِنَّهَا غَيَّوْرٌ تُخَشَى سَطَوَاتُهَا عَلَى آلَائِي تَغَارُ مِنْهُمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَلَّمْتُ فِي هَذَا التَّلْفُونِ إِحْدَى الْخُورِ الْعَيْنِ

قُلْنَا: أَوْ تَغَارُ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ؟

قَالَ الْمَجْنُونُ الثَّانِي: بَلِ الْأَمْرُ فَوْقَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْخُورَ الْعَيْنَ يَشْتُمُّهَا وَيَلْعَنُهَا؛ «فَمِمَّا حَفِظْنَاهُ» هَذَا الْحَدِيثُ: لَا تُؤْذِي أَمْرًا زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللَّهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ ذَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يَفَارِقَكَ إِلَيْنَا.

قَالَ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ): وَيَلِي عَلَى الْمَجْنُونِ إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخْلُوَ لَهُ مَوْضِعِي فَهُوَ يَتَمَنَّى هَلَاكِي وَأَنْتَقَالِي وَشَيْكَأَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا. وَهُوَ يَقُولُ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِأَنَّهُ أَحْمَقُ لَيْسَ لَهُ عُقْدَةٌ مِنَ الْعَقْلِ، فَيَزْعُمُ أَنَّهَا تُؤْذِينِي، وَلَوْ هِيَ أَذْنَتِي لَغَضِبْتَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَوْ غَضِبْتَ لَرَفَعْتَ التَّلْفُونُ. صَهْ إِنَّ الْجَرَسَ يَدُقُّ.

* * *

قال ١. ش: إِنَّ لِلنَّوَابِغِ لَشَأْنًا عَجَبًا، فِي مَدِيرَةِ الشَّرْقِيَّةِ رَجُلٌ نَابِغَةٌ مَاتَتْ زَوْجَتُهُ وَتَرَكَتْ لَهُ غُلَامًا، فَتَزَوَّجَ أُخْرَى وَهُوَ يَعِيشُ فِي دَارِ أَبِيهِ. فَلَمَّا كَانَ عِيدُ الْأَضْحَى سَأَلَ أَبَاهُ مَا لَا يَتَنَاقُ بِهِ الْأَضْحَى فَلَمْ يُعْطِهِ. وَهُوَ رَجُلٌ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، فَذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَرُؤْيَاهُ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُ أَبْنَاهُ، فَخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ هَذَا بَابٌ إِلَى النَّبُوَّةِ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِ، فَأَخَذَ الْغُلَامَ فِي صَبِيحَةِ الْعِيدِ وَهُمْ يَذْبَحُهُ، وَلَوْلَا أَنْ صَرَخَ الْغُلَامُ فَأَدْرَكَهُ النَّاسُ فَاسْتَنْقَذُوهُ

قَالَ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ): هَذَا مَجْنُونٌ وَلَيْسَ بِنَابِغَةٍ؛ بَلْ هَذَا مِنْ جُهَلَاءِ الْمَجَانِينِ؛ بَلْ هُوَ مَجْنُونٌ عَلَى حَدِّهِ. وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْبِيمَارِسْتَانِ فِي حِينِ كُنْتُ أَنَا فِي الْمُسْتَشْفَى . . . فَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَتَمَرَ فِي ذَبْحِ غُلَامِهِ بِإِرَادَةِ اللَّهِ. وَلَوْ كَانَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ لَنَفَذَتْ بِالذَّبْحِ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ وَحِيًّا لَنَزَلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ كَبِشٌ يَذْبَحُهُ . . . وَهَكَذَا أَنَا فِي الْمَنْطِقِ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ).

(١) استهامها: حملها على حبه.

ثُمَّ إِنَّهُ أَشَارَ إِلَى الْمَجْنُونِ الثَّانِي وَقَالَ: وَأَنَا أَتَقَدَّمُ هَذَا فِي النَّبُوغِ بِأَكْثَرِ مِنْ عِلْمِ الْعُلَمَاءِ فِي خَمْسٍ وَسِتِّينَ سَنَةً كَامِلَةً.

قُلْتُ: وَلَكِنَّكَ ذَكَرْتَ هَذَا مِنْ قَبْلُ فَلِمَ عُدْتَ فِيهِ الْآنَ؟

قَالَ: إِنَّ السَّبَبَ قَدْ تَغَيَّرَ فَتَغَيَّرَ مَعْنَى الْكَلَامِ؛ وَقَدْ بَدَّالِي أَنَّهُ يَتِمَّنِي هَلَاكِي لِيَكُونَ هُوَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ. فَمَعْنَى الْكَلَامِ الْآنَ: أَنَّهُ لَوْ عَاشَ خَمْسًا وَسِتِّينَ سَنَةً «يَحْفَظُ أَلْمَتَن» لَمَّا بَلَغَ مَبْلَغِي مِنَ الْعِلْمِ. هَذَا رَجُلٌ نِصْفُهُ مَيِّتٌ جُنُونًا مَوْتًا حَقِيقِيًّا، وَنِصْفُهُ الْآخِرُ مَيِّتٌ جَهْلًا بِأَلْمَوْتِ الْمَعْنَوِيِّ.

قَالَ أ. ش.: حَسْبُهُ أَنْ يَقْلِدَكَ تَقْلِيدَ الْعَامِيِّ لِإِمَامِهِ فِي الصَّلَاةِ وَعَسَى أَلَّا تَسْتَكْثِرَ عَلَيْهِ هَذَا فَإِنَّهُ يَلْمِيزُكَ.

قَالَ الْمَجْنُونُ الثَّانِي «مِمَّا حَفَظْنَاهُ»: لَوْ صَوَّرَ الْعَقْلُ لَأَضَاءَ مَعَهُ اللَّيْلَ، وَلَوْ صَوَّرَ الْجَهْلُ لَأَظْلَمَ مَعَهُ النَّهَارَ... وَنَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ هَذَا لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يُصَلِّي، فَقَدْ وَقَفَ مِنْذُ أَيَّامٍ يُصَلِّي بِالشَّعْرِ... وَلَمَّا رَأَيْتُهُ نَاسِيًا فَذَكَرْتُهُ وَنَبِهْتُهُ أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَجُوزُ بِالشَّعْرِ، اِلْتَفَتَ إِلَيَّ وَهُوَ رَاكِعٌ فَسَبَّحَنِي وَشَتَمَنِي وَصَرَخَ فِيَّ وَقَالَ: مَا شَأْنُكَ بِي؟ هَلْ أَنَا أَصَلِّي لَكَ أَنْتَ...؟

فَغَضِبَ «النَّابِغَةُ» وَقَالَ: - وَاللَّهِ - إِنْ تَحْسِبُونِي إِلَّا مَجْنُونًا فَتُرِيدُونَ أَنْ يَقْلِدَنِي هَذَا الْأَحْمَقُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ رَأْيٌ يُمَسِّكُهُ. وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَّا أَعْتَقَدْتُمْ أَنَّ تَقْلِيدِي مِنَ السَّهْلِ الْمُمْكِنِ، وَلَعَرَفْتُمْ أَنَّ نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَطِعْ تَقْلِيدَ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ.

قُلْنَا: هَذَا عَجِيبٌ، وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

فَضَحِكَ وَقَالَ: لَا أَعِدُّكُمْ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ إِلَّا إِذَا عَقَلْتُمْ كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ قَالَ أ. ش.: هَذَا لَمْ يُعْرِفْ مِثْلَهُ فَكَيْفَ نَعْرِفُهُ؟ وَلَمْ يَتَوَهَّمْ أَحَدٌ، فَكَيْفَ تَتَوَهَّمُهُ؟

قَالَ: لَوْ لَمْ تَكُنْ أَسْتَاذَ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ لَمَّا عَرَفْتَهَا؛ وَهَذَا نِصْفُ الصَّوَابِ؛ وَمَادُمْتُ أَسْتَادِي، فَلَوْ أَنَّنَا اخْتَلَفْنَا فِي رَأْيٍ لَكَانَ خِلَافُكَ لِي صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنْكَ، وَكَانَ خِلَافِي لَكَ صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنِّي؛ فَأَنْتَ (غَيْرُ مُخْطِئٍ) وَأَنَا مُصِيبٌ، وَإِذَا اسْقَطْنَا كَلِمَةً (غَيْرَ) أَظَلُّ أَنَا مُصِيبًا وَتَكُونُ أَنْتَ مُخْطِئًا...

أَنَا لَمْ أَرَ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) فِي الرُّؤْيَا، وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ فِي الْمِرَآةِ عِنْدَ الْحُلَاقِ... وَرَأَيْتُهُ يَقْلِدُنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الْإِشَارَةِ وَالْقَوْمَةِ وَالْقَعْدَةِ وَلَكِنِّي صَرَخْتُ فِيهِ وَسَبَّيْتُهُ فَفَتَحَ فَمَهُ، ثُمَّ خَافَنِي وَلَمْ يَتَكَلَّمْ...

وأوماً إلى المجنون الآخر وقال: وأنا أتقدم هذا في النبوغ بأكثر من علم
العلماء في خمس وستين سنة.

قال ا. ش: لقد قلّتها مرتين كلتاها بمعنى واحد، فما معنك في هذه الثالثة؟

قال: هذا الغرُّ يزعم أنني لا أعرف كيف أصلي، ويستدلُّ لذلك بأنِّي
صليتُ بالشعرِ وأنِّي شتمتُهُ وأنا راعٍ؛ ولو كان عاقلاً لعَلِمَ أنَّ شتْمي إياه وأنا
راعٍ ثوابٌ له... ولو كان نابغةً لعَلِمَ أنَّ الشعرَ كان في مدحِ دولةِ النحاسِ باشا
وأولي الكُهي.

قلنا: ولكنَّ الشعرَ على كلِّ حالٍ لا تجوزُ به الصلاةُ ولو في مدحِ دولةِ
النحاسِ باشا.

قال: لم أصِلْ به، ولكن خطرَ لي وأنا أصلي أنني نسيْتُ القصيدةَ فأردتُ أن
أتحقَّقَ أنني لم أنسها... فإذا أنا نابغةُ القرنِ العشرين في الحفظ، وهي ستة أبيات.
لا كهذا المعتبر الذي صبر على المتنِ صبرَ الغريبِ على الغربةِ الطويلة، ومع ذلك
لم يحفظه.

قال ا. ش: فأملِ علينا هذا الشعر. فأملِ عليه.

يا حليفَ الشُّهدِ قل لي أينَ مَنْ في الدهرِ خال
إنْ تُكُنْ تهوى غزالاً أكحلَ العينينِ مالاً
أنا أهواها ولكن لا سبيلَ إلى الوصالِ
منذُ وُلْتُ قُلْتُ مهلاً منذُ غابَتْ في خيالِ
أنا مجنونٌ بليلي ليلَ ياليلي! تعالِ

قلنا: ولكن ليس هذا مدحاً، فضحك وقال: أردتُ أن تعرفوا أنني أقولُ في
الغزل، أمّا المديح فهو:

شغفَ أَلورى^(١) بمناصبٍ وأماني وشغِفَتْ يانحاسُ بالأوطانِ
حسبوا الحياةَ تفاخراً وتنعماً وحسبَتْها لهُ والأوطانِ
ثم أرتج^(٢) عليه فسكت. قال المجنونُ الآخر: إنها ستة أبيات، وقد نسيْتُ
أربعة، ولستُ أريدُ أن أذكرك:

(٢) أريج: أغلق.

(١) شغف الورى: اشتدَّ حبُّ الناس.

فقال (النابعة): أظنُّه قد حانَ وقتُ الصلاة وأريدُ أنْ أصلي... ونظرَ إلى
اللاشيء في الفضاء، ثمَّ قال. وألبثُ الأخير:

لا أبتغي في الممدح غيرَ أولى النُهي أو صادقٍ أو شوقي أو مطرانٍ
ثمَّ أمر ا. ش. أن يقرأ عليه الشعرَ فقرأه، فقال: أحسنت، انظرَ إلى فوق.
فنظر، ثمَّ قال: انظرَ إلى تحت. فنظرَ ثمَّ سكت.

قال ا. ش.: وبعد؟ قال: وبعد فإنَّ الناسَ ينظرونَ إمَّا إلى فوقَ وإمَّا إلى
تحت...

* * *

وكانَ الضجرُ قد نالَ مِنِّي، فرجوتُ ا. ش. أن يلبثَ معهما وأذنتُ لِنابغةِ
القرنِ العشرين أن يلقاني في الندي وأنصرفت...

قال ا. ش. وهو يُنبئني: فما غبتَ عَنَّا حتى أخذَ المجنونُ يشكو ويتوجعُ
ويقول: لقد حاقَ بي الظلم، وإنَّ (الرافعي) رجلٌ عسوفٌ ظالم، لأنِّي أكتبُ لَهُ كلَّ
مقالَةٍ التي ينشرُها في (الرسالة)... وأجمعُ نفسي لَهَا، وأجهدُ في بيانِها، وأذيبُ
عقلي فيها، وهو مستريحٌ وادعٍ، وليسَ إلَّا أن ينتحلَها^(١) ويضعُ توقيعَهُ عليها،
ويبعثَ بها إلى المجلَّة، ثمَّ هو يقبضُ فيها الذهبَ وينالُ الشهرةَ، ولا يدفعُ لي عن
كلِّ مقالةٍ إلَّا قرشين...

قال ا. ش.: فما يمنَعُك أن تُرسلَ أنتَ هذه المقالاتَ إلى المجلَّة فتقبضَ فيها
الذهب؟ قال: إنَّ هناك أسراراً أنا مُحصِنُها وكاتمُها، ولا ينبغي أن يعلمَها أحدٌ فإنَّها
أسرار... قالَ لَهُ: فدعِ (الرافعي) وأكتبَ لي أنا هذه المقالاتَ، وأنا أعطيكَ في
كلِّ مقالةٍ ذهبيْن لا قرشين.

قالَ هذه أسرارٌ ولا أستطيعُ أن أكتبَ إلَّا للرافعي، لأنَّ (نابغةَ القرنِ العشرين)
لا يجوزُ أن يدعى كلامُهُ إلَّا أستاذُ نابغةِ القرنِ العشرين، ولو ادَّعاهُ غيرهُ لكانَ هذا
خطأً من قدرِ نابغةِ القرنِ العشرين، وهذا بعضُ الأسرارِ لا كلُّ الأسرار...
قلت: ثمَّ جاءَ المجنونانِ في العشيَّةِ إلى الندي.

(١) يتحلَّها: ينسبها لنفسه.

المجنون

٣

وكنّا في النديّ ثلاثة: أنا، وا. ش. وس. ع؛ وقد هيّأت تدبيراً توافّقنا عليه لتحريك هذين المجنونين، وتدوين ما يجيء منهما. فلما أقبلّا تحفّينا^(١) بهما وأنطقتاهما، وقمنا ثلاثتنا ببسطيهما وإكراميهما، حتى حسيباً أنّ في كلمة «مجنون» معنى كلمة أمير أو أميرة.. ورأيت في عيني «نابغة القرن العشرين» - وهو أغين أنجل^(٢) - ما لو ترجمته لما كانت العبارة عنه إلا أنّه يعتقد أنّ له نفساً أنثى أعشقها أنا.. فكان مسدداً^(٣) فكّة اللسان، تُستملح له النادرة، وتُستطرف منه الحركة.

ولما تمكّن منه الغرور، واحتاج المجنون كما يحتاج الجمال إلى كبريائه إذا حاطته الأعين - أدار بصره في المكان، ثم قال: أف لكم ولما تصبرون عليه من هذا الندي في ضوضائه ورعاعه وغوغائه. إن هؤلاء إلا أخلاط وأوشاب وحثالة. هذا الجالس هناك. هذا الواقف هنالك. هذا المستوفز. هذان المتقابلان. هؤلاء المجتمعون. هذا كلّ خيال حقيقة في رأسي. ما هي؟ ما هي؟

هذا التصايح المنكر. هذا الضرب بحجارة الكرد. هذه الزحمة التي أنغمسنا فيها. هذا المكان الهائج من حولنا. هذا كلّ خيال حقيقة في رأسي. هي، هي، هي.

فأنزعج المجنون الآخر، ووقع في تهاويل خياله، ونظر إلينا تدور عيناه، وتوجّس^(٤) شراً، ثم زاع بصره إلى الباب، واستوفز وجمع نفسه للقيام؛ فلما رأى صاحبه ما نزل به، فهقه وأمعن في الضحك وقال: إنّما خوفته الصبيان وألصّرت ليثبت لكم أنّه مجنون..

(٣) مسدداً: موقفاً.

(١) تحفنا: رحبنا.

(٤) توجّس: احتسب الشرّ قبل وقوعه.

(٢) أغين أنجل: واسع العين أنجلها.

فحرّد الآخر وأغتاظ وجعل يُتمّم بينه وبين نفسه .

قال «النابعة» : ما كلامُ تَطِنَ به طنينَ الذبابةِ أيُّها الخبيث؟

قال : «مِمّا حفظناه» : أنّ من علاماتِ الأحمقِ أنّه إذا أَسْتَنْطِقَ تَجَلَّفَ ، وإذا بكى خار ، وإذا ضَحِكَ نَهَقَ . كما فعلتَ أنت الساعةَ ، تقول : هاء ، هوء ، هيء ... فتغيّر وجهُ «النابعة» ، ونظرَ إليه نظرةً منكرةً ، وهمّ أن يَتَحَجَّمَ عليه ، وقال : أيُّها المجنون ، لماذا تُضطرُّني إلى أن أُجيبَكَ جوابَ مجنون ... لا نجوتُ إنْ نجوتُ مني !

فأسرع ا. ش ، وأمسك به ؛ وأعرضَ مِنْ دونه س . ع ، وقال له : أنت بدأتَهُ والباديءُ أَظلم .

قال : ولكن - ويحَه - كيف قالَ هذا؟ كيف لم يقلْ إلّا هذا؟ كيف لم يجدْ إلّا هذا يقولُهُ؟ أنابعةُ القرنِ العشرينِ أحمقٌ ، وقد أوحدهُ اللهُ في القرنِ العشرينِ؟ لَهَمَمْتُ - والله - أن أكسِرَ الذي فيه عيناه ؛ فما يقولُ إلّا أنّي أحمقُ القرنِ العشرينِ ...

قلتُ : إنْ كانَ هذا هوَ الذي أغضبكَ منه ؛ ففي الحديثِ الشريفِ : «ليسَ من أحدٍ إلّا وفيهِ حَمَقَةٌ ، فَبِها يعيشُ» . والحياةُ نفسُها حماقةٌ منظّمةٌ تنظيمًا عاقلًا ؛ وما يُقبلُ الإنسانُ على شيءٍ من لذاتها إلّا هو مقبلٌ على شيءٍ من حماقاتِهِ ، وأمتعُ اللذةِ ما طاشَ فيه العقلُ وخرجَ من قانونِهِ ؛ ولولا هذا الحمقُ في طبيعةِ الإنسانِ لما احتملَ طبيعةَ الحياةِ ، اليسَ يُخيّلُ إليك أنْ أكثرَكَ غائبٌ عن الدنيا وأقلَكَ حاضرٌ فيها ، وأنْ يَقْطَنَكَ الحقيقةُ إنّما هي في الحُلُمِ وما يُشبهُ الحُلُمَ ، كأنَّكَ خُلِقتَ في كوكبٍ وهبطتَ منه إلى كوكبنا هذا ، فما فيكَ لِلأَرْضِ ولا فيها لك إلّا القليلُ يَلْتِمُ بعضُهُ ببعضِهِ ، وأكثرُكما مُتَنافِرٌ أو متناقضٌ أو متراجعٌ ؟

قال : بلى .

قلتُ : فهذا القليلُ هوَ الحَمَقَةُ التي بها تعيشُ ، وهو أرضيَةُ الأرضِ فيكَ ؛ أما سماويةُ السماءِ فبعيدةٌ لا تحتملُها طبيعةُ الأرضِ ؛ ولهذا يعيشُ أهلُ الحقيقةِ عيشَ المجانينِ في رأيِ المغرورينَ الذين غرّتهمُ الحياةُ الفانيةُ ، أو المخدوعينَ الذين خدعتهمُ الظواهرُ الكاذبةُ ؛ فكلُّما أتوا عملاً مِنْ الأعمالِ الساميةِ أنتهى إلى الحَمَقَى

معكوساً أو مُحَوَّلاً أو معدولاً به؛ ولعلّ هذا أصحُّ تفسيرٍ للحديث الشريف: «أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلهُ».

قالَ المَجْنُونُ الآخرُ: «مِمَّا حفظناه»: أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلهُ.

فقالَ (النابغة): ألمصيبةُ فيكَ أنَّكَ أنتَ هو أنتَ؛ ألا فلتعلمِ أنَّكَ من بُلْهَاءِ ألبيمارستانِ لا من بُلْهِ الجنةِ...

قلتُ: ثمَّ إنَّ الموتَ لا بدَّ آتٍ على الناسِ جميعاً، فيسلُبُهُم كلُّ ما نالوه من الدنيا، ويلجئُ مَنْ نالَ بِمَنْ لم ينلْ؛ فمَنْ ذا الَّذي يُسرُّ بأنَّ ينالَ ما لا يبقى له، إلّا أن يكونَ سروره من حماقته؟ ومَنْ ذا الَّذي يحزنُ على أن يفوته ما لا يبقى له، إلّا أن يكونَ حزنه حماقةً أخرى؟ وأيُّ شيءٍ في الحبِّ بعد أن ينقضي الحبُّ إلّا أنّه كانَ حماقةً ضربتَ في الحواسِّ كلّها ملأتِ النفسَ؛ ثمَّ ملأتِ النفسَ حتى فاضتْ على الزمنِ؛ ثمَّ فاضتْ على الزمنِ حتى خبَلتِ العاشقَ تخيلاً لذيذاً تصغرُ فيه الأشياءُ وتكبرُ، ويجعلُ الواقعَ في النفسِ غيرَ الواقعِ في دنياها؟ يُشبهُ كلُّ عاشقٍ حبيبتهُ بالقمرِ: فهَبِ الْقَمَرَ سَمِعَ هذا وفهمَهُ وعَنَاهُ أن يُجيبَ عنه، فماذا عساهُ يقولُ إلّا أن يُعجِبَ من هذا الحمقِ في هذا التشبيهِ؟

فهذا (النابغة) وسكنَ غضبهُ وقال: صدقتُ، ولهذا أنا لا أشبهُ حبيبتي بالقمرِ.

قلتُ: فماذا تُشبهُها؟

قال: لا أقولُ لك حتى أعلمَ بماذا تُشبهُ أنتَ حبيبَتِكَ. قلتُ: وأنا كذلك لا أشبهُها بالقمرِ.

قال: فماذا تُشبهُها؟ قلتُ: حتى أعلمَ بماذا تُشبهُ أنتِ..

قال: هذا لا يُرضى منك وأنتَ أستاذُ (نابغة القرنِ العشرين)، ولكِ حبايبُ كثيراتٌ عدَدَ كتبِكَ، وقد أعجبتُنِي منهنَّ تلكَ التي في (أوراق الورد)، وأظنُّكِ أحبَّتها في شهرِ مايو من سنة.. من سنة..

قالَ المَجْنُونُ الآخرُ: من سنة ١٩٣٥؛ هاأنذا قد نُهتُكَ.

قال: يا ويلك! إنَّ (أوراق الورد) ظهرتْ من بضعِ سنين، إنّما أنتَ من بُلْهَاءِ ألبيمارستانِ لا من بُلْهِ أوراقِ الورد.. ماذا كنْتُ أقولُ؟

قال ا. ش: كنت تقول: هذا لا يَرْضَى منك ولك حبايب كثيرات.

قال: نعم، لِأَنَّكَ إِذَا شَبَّهْتَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ بِالْقَمَرِ، انْتَهَى الْقَمَرُ وَفَرَغَ التَّشْبِيهُ فَيُظَلُّ الْأَخْرِيَاتُ بِمَا قَمَرٌ. ثُمَّ إِنَّ كَلِمَةَ الْقَمَرِ لَا تُعْجِبُنِي، فَلَوْنَهَا أَدَكُنْ^(١) مُغَيَّرُ يَضْرِبُ أحياناً إِلَى أَسْوَادٍ... فَإِذَا عَشِيقْتُ رَنْجِيَّةً فَهِيَ مَحَلُّ التَّشْبِيهِ بِالْقَمَرِ. أَمَّا الْبَيْضُ الرَّعَائِبُ فَتَشْبِيهُهُنَّ بِالْقَمَرِ مِنْ فَسَادِ الذُّوقِ.

قال س. ع: وَلِلْأَلْفَاظِ أَلْوَانٌ عِنْدَكَ؟

قال: لو كنت نابغةً لَأَبْصَرْتُ فِي دَاخِلِكَ أَخِيْلَةً مِنَ الْجَنَّةِ؛ أَلَمْ يَقُلْ اسْتَأْذِنَا أَنْفَاءً عَنِ (نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ): إِنَّهُ هَبَطَ مِنْ كَوْكَبٍ إِلَى كَوْكَبٍ؟ ففِي كَوْكَبِنَا أَوَّلُ يَكُونُ لَنَا سَمْعٌ مَلُونٌ؛ وَجِسٌّ مَلُونٌ نَسْمَعُ قَرَعَ الطَّبْلِ أَزْرَقَ، وَنَفْخَ الْبُوقِ أَحْمَرَ، وَزَيْنَ النِّعَمِ الْخُلُوعِ أَخْضَرَ، وَالْوُجُودَ كُلَّهُ صَوْرٌ مَلُونَةٌ، سِوَاةٍ مِنْهُ مَا يُرَى وَمَا يُحَسُّ، وَمَا هُوَ مُسْتَخْفٍ وَمَا هُوَ ظَاهِرٌ.

ثُمَّ أَوْماً إِلَى الْمَجْنُونِ الْآخِرِ وَقَالَ: وَأَسْمُ هَذَا الْأَبْلِهِ كَلْفِظِ الْحَبْرِ: لَا أَسْمَعُهُ إِلَّا أَسْوَدَ..

وَسَكَتَ «النَّابِغَةُ» وَسَكُنَّا؛ فَقَالَ لَهُ س. ع. مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ؟ قَالَ: لِأَنِّي أُرِيدُ السَّكُوتَ. قَالَ: فَلِمَاذَا تُرِيدُ السَّكُوتَ؟ قَالَ: لِأَنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَكَلَّمَ..

وَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ الْغَيْظُ مِنَ الْمَجْنُونِ الْآخِرِ، فَرَمَى بَعِيْنَهُ الْفَضَاءَ يَنْظُرُ اللَّاشِيءَ وَقَالَ: إِذَا أَصْبَحَ كُلُّ النِّسَاءِ ذَوَاتٍ لِحَيٍّ أَصْبَحَ هَذَا عَاقِلاً.. فَدَقَّ الْآخِرُ بَرَجْلِهِ دَقَاتٍ مَعْدُودَةٍ؛ فَتَارَ (النَّابِغَةُ) وَقَالَ: مَنْ هَذَا يَشْتُمُنِي؟

قال: س. ع: لَمْ يَشْتَمْكَ أَحَدٌ، هَذَا خَفَقَ رِجْلَ رَجُلٍ عَلَى الْأَرْضِ.

قال: بَلْ شَتَمَنِي هَذَا الْخَبِيثُ، وَسَمْعِي لَا يَكْذِبُنِي أَبَداً، وَأَنَا رَجُلٌ ظَنُّونَ، أَسِيءُ الظَّنَّ بِكُلِّ أَحَدٍ، وَعَلَامَةُ الْحَازِمِ «الْعَاقِلِ» سُوءُ ظَنُّهُ بِالنَّاسِ. فَهَبْهُ كَمَا قُلْتَ قَدْ خَفَقَ بِنَعْلِهِ، أَوْ خَبَطَ بِرَجْلِهِ؛ فَهُوَ مَا يَعْنِي مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَا أَسْمَعُ مَا يَعْنِيهِ. لَقَدْ طَفَعَ^(٢) الشَّعْرُ عَلَى قَلْبِي فَلَا بَدَّ لِي مِنْ هِجَائِهِ، وَلَا بَدَّ لِي أَنْ أَذْبَحَهُ وَلَوْ بِالْكَلَامِ، فَإِنِّي إِذَا هَجَوْتُهُ رَأَيْتُ دَمَهُ فِي كَلِمَاتِي، وَأُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَهُ كَالْعَنْزِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَنَا وَذَبَحْنَاهَا.

ثُمَّ أَنْتَزَعَ قَلَمَ س. ع، وَقَالَ: هَذِهِ هِيَ السَّكِينُ. وَلَكِنْ أَسْأَلُكَ يَا أَسْتَاذِي أَنْ

(٢) طَفَعَ: فَاضَ.

(١) الدَكَةُ: اللَّوْنُ مَا بَيْنَ الْحُمْرَةِ وَالْأَسْوَدِ.

تذبحه أنت بكلمتين وتصف له جنونه، فقد عَزَبَ^(١) عَنِّي الشعر... إِنَّ حَفَقَةَ رَجُلٍ
على الأرض تستطيرُ الأَرانبَ فَرَعَا؛ فيَنفِرُنَ إلى أَجْحَارِهِنَّ ويتَهَارَبُنَّ، وما كَانَتْ
أبياتُ الشعرِ في ذهني إلا أَرانبٌ..

أنتم لا تعرفون أن مَنْ كَانَ حَصِيْفًا^(٢) ثَبِيْتًا مثلي، كَانَ دَقِيقَ الْحِجْسِ؛ وَمَنْ كَانَ
قَدْمًا^(٣) غَيِيًّا مثلَ هذا، كَانَ بَلِيدَ الْحِجْسِ غَلِيظًا كَثِيْفًا؛ فإذا أَنَا أَسْتَشْعِرْتُ الْبَرْدَ رَأَيْتُنِي
قد سافَرْتُ إلى الْقُطْبِ الشُّمَالِي؛ أما هذا الْمَجْنُونُ فهو إذا أَسْتَشْعَرَ بَرْدًا سافَرَ إلى
عَبَاءَتِهِ أو لِحافِهِ.. إذ هو لا يعرفُ جغرافيا، ولا يدري ما طَحَّاهَا.

قلت: هذا منك أَظرفُ من نادرة أبي الْحَارِث. قال: وما نادرة أبي الْحَارِث؟
وهل هو نابغة؟

قلت: جلسَ يتَغَذَّى مَعَ الرَّشِيدِ وعيسى بن جعفر، فَأَتَانِي بِخَوَانٍ^(٤) عليه
ثلاثة أرغفة، فأكلَ أبو الْحَارِثِ رَغِيْفَهُ قبلهما، والرَّشِيدُ ملكٌ عَظِيمٌ: لا يَأْكُلُ أَكْلَ
الْجَائِعِ، وإنما هو التَّشْعِيبُ من هنا وهناك؛ فكانَ رَغِيْفُهُ لا يَزَالُ باقِيًا؛ فصاحَ أبو
الْحَارِثِ فجاءَ: يا غلام، فَرَسِي. ففزعَ الرَّشِيدُ وقال: ويلك ما لك؟ قال: أريدُ أنْ
أركبَ إلى هذا الرَغِيْفِ الَّذِي بينَ يَدَيْكَ..

قال (النابغة): ولكنَّ فرقاً بين أبي الْحَارِثِ وبينَ (نابغة القرنِ العشرين)، فإنَّ
مَنْ الْعَجَائِبِ أَتَى ربما نظَرْتُ إلى الرَّجُلِ وهو يأْكُلُ فَأَجَدُ الشَّيْءَ، حتى كَانَتْهُ يَأْكُلُ
بيطني لا بيطنه، ولكن مِنْ الْعَجَائِبِ أَنَّ هذا لا يَتَّفِقُ لي أبداً حينَ أَكُونُ جائِعاً...
أما هذا الْمَجْنُونُ الَّذِي أَمَانَا، فربما أَبْصَرَ الْحِمَارَ على ظَهْرِهِ الْجِمْلُ، فيشعرُ
كَأَنَّ الْجِمْلَ على ظَهْرِهِ هو لا على ظَهْرِ الْحِمَارِ.

قال الآخر: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ»: أَنَّهُ سَرَقَ لِأَعْرَابِي حِمَاراً، فَقِيلَ لَهُ أَسْرَقَ حِمَارُكَ؟
قال: نعم، وأحمدُ اللَّهِ. فَقِيلَ لَهُ: على ماذا تحمده؟ قال: على أَنِّي لم أَكُنْ عليه
حينَ سُرِقَ.. فأنا إذا رَأَيْتُ حِمَاراً مَثْقَلًا الظَّهْرَ، حمدتُ اللَّهَ على أَنَّ الْجِمْلَ لم
يكنْ عليّ، لا كما يقولُ هذا. ثُمَّ دَقَّ بِرَجْلِهِ دَقَاتٍ..

فأستشاطَ (النابغة) وقال (أسمعُكم كيف يقولُ إنِّي مجنون، ثُمَّ لا يكتفي بهذا
بل يقولُ إنِّي حِمَارٌ على ظَهْرِ الْجِمْلِ؟

(٣) قدماً: جباناً غيياً.

(٤) خوان: مائدة الطعام.

(١) عزب: غرب.

(٢) حصيفاً: عاقلاً رزيناً.

قلت: ينبغي أن تتكافأ، وهذا لا يعيبك منه ولا يعيبك منك، فإن من تواضع «النوابغ» أن يشعروا ببؤس الحيوان، فإذا شعروا ببؤسه دخلتهم الرقة له، فإذا دخلتهم الرقة صار خيال الجمل جملًا على قلوبهم الرقيقة؛ وقد يصنعون أكثر من ذلك: حكى الجاحظ عن ثمامة قال: كان (نابغة) يأتي ساقية لنا سحراً؛ فلا يزال يمشي مع دابتها ذاهباً وراجعاً في شدة الحر أيام الحر، وفي البرد أيام البرد، فإذا أمسى توضأ وقال: اللهم أجعل لنا من هذا ألهم فرجاً ومخرجاً. فكان كذلك إلى أن مات!

قال المجنون الآخر: «مِمَّا حفظناه»: ثمرة الدنيا السرور، ولا سرور للعقل، فلو لم يكن هذا العقل العقل لما مُحِقَّ سروره في الدنيا هذا المحق إلى أن مات غمًا، رحمه الله!

قال: س. ع: فأعف الآن عن صاحبك ولا تذبذبه بالهجاء.

قال: لقد ذكّرتني من نسيان، وهذا المجنون يرى نسياني من مرض عقلي، وكان الوجه - لو تهدي إلى الحقيقة - أن يراه شذوذاً في العقل، أي نبوغاً عظيماً كنوع ذلك الفيلسوف الذي أراد أن يتثبت في كم من الزمن تسلق البيضة؛ فأخذ بيده الساعة وبيده الأخرى بيضة، ثم نسي نسيان النبوغ، فألقى الساعة في الماء على النار، وثبت عينه على البيضة ينظر فيها على أنها هي الساعة. ولو قد رآه هذا الأبله لزعمه مجنوناً كما يزعمني، فإن المجانين يروون العقلاء مرضى بمواهبهم وأعمالهم التي يعملونها.

وأنا فليس يهيجني شيء ما تهيجني كلمات ثلاث: أن يقال لي مجنون، أو أبله، أو أحمق. فمن رغب في صحتي فليتنجب هذه الثلاث كما يتجنب الكفر والكفر والكفر...

قال ١. ش: فإذا قيل لك مثلاً. مثلاً. أي على التمثيل: مغفل.

فحك رأسه قليلاً وقال: لا، هذه ليست من قدرتي.

قلت: فبعض الكلمات إذا قُطعت عندك غير الحقائق، كذلك القرن الذي قُطع فرد البقرة فرساً؟

قال: وكيف كان ذلك؟

قلت: زعموا أن أعرابياً خرج إخوته يشترون خيلاً، فخرج معهم فجاء بعجل يقوده؛ فقيل له: ما هذا؟ قال: فرس اشتريته. قالوا: يا مائق^(١) هذه بقرة، أما ترى قرنيها؟

فرجع إلى منزله فقطع قرنيها، ثم قادها إليهم وقال لهم: قد أعدتها فرساً كما تريدون..

قال (النابغة): هذا غير بعيد، فقد رأينا حين ذبحنا العنز وكسرنا قرنيها أعدناها كلبه سوداء، فتقدزتها وعفت لحمها ولم أطعم منها.

ثم أوماً إلى الآخر وقال: هذا لا يدري ما طحّاها، وهو مثل العنز: تحسب قرنيها للقتال والنطاح ومنهما تمسك للذبح؛ فقل في هذا يا أستاذ (نابغة القرن العشرين).

قلت للآخر: أيرضيك أن أقول في المعنى لا فيك أنت...؟ قال: نعم. فكتبت هذه الأبيات على ما يريد النابغة:

قل لعنزٍ ناطحاًها لقتالٍ سلّحاًها
مالها قد طرّحاًها في يديّ ذبحاًها؟

شيمة مئى نحاها عقلٌ غرّ^(٢) قلّحاًها
ليس يدري ما طحّاها^(٣) بل يرى شمس ضحّاها
حجراً مثل رحّاها ويرى الليل مَحّاها
ظلماً طالت لحّاها

وسرّ (النابغة) وأزدهى، وجعل يقول: طالت لحّاها، طالت لحّاها. وما كان هذا إلا السرور الأصغر؛ أما سروره الأكبر فمجيء ساعي (البريد المستعجل) إلى الندي، وفي يده رسالة عنوانها: نابغة القرن العشرين فلان، بنديّ كذا.

وجعل الرجل يهتف بالعنوان يسأل عن صاحبه؛ فتناولت أعناق الناس، ورفعوا أبصارهم ينظرون إلى (نابغة القرن العشرين) وقد مدّ يده يتناول الرسالة

(١) مائق: أحق.

(٢) غرّ: أحق، لا تجربة له.

(٣) طحّاها: بسطها وسهلها ومدّها.

وكأنه ملك من القدماء أسقط له كتاب بالفتح العظيم وبضم دولة إلى دولته.
ثم ترك الرسالة بين أصابعه يقلبها ولا يفضها^(١) ونحن في دهشة من أمره؛
فنظر فيها المجنون وقال له: هذا عجيب يا أخي، كيف هذا؟ إن هذا لا يصدق؛
إنك لم تلقها في صندوق البريد إلا منذ ساعة..

(١) يفضها: يفتحها.

المجننون

٤

وضاق «نابغة القرن العشرين» بضحى المجنون الآخر؛ ورأه داهية ذواه، كلما تعاقل أو تحادق^(١) لم يأت له ذلك إلا بأن يكشف عن جنونه هو: فلا يبرح يُجرعه الغيظ مرة بعد مرة، ولا يزال كائنه يسبّه في عقله؛ فأراد أن يحتال لصرفه عن المجلس، فدفّع إليه الرسالة التي جاء بها (البريد المستعجل) وقال له: خذ هذه فاذهب فألقها في دار البريد، فسيجيء بها الساعي مرة أخرى، ثم تذهب الثانية فتلقها، ويعود فيجيء بها، وتكون أنت تذهب وتكون هو يجيء، فتضحك منه ويضحكون.

قال س. ع: ولكن كم يذهب هذا وكم يجيء ذاك؟

فغمزه (النابغة) بعينه أن أسكت؛ فتعاقل س. ع، وقال: كم تريد أن يجيء الساعي ليهتف بنابغة القرن العشرين؟

قال المجنون الآخر: هذا هو رأي، فليست قائماً حتى أعرف كم مرة أذهب؛ فإن الساعي لا يجيء إلا راكباً، وأنا لا أذهب إلا راجلاً، وإن لي رجلي إنسان لا رجلي دابة..

قال (النابغة): سبحان الله؟ بقليل من الجنون يخرج من الإنسان مجنوناً كاملاً مُستلب العقل. بيد أنه لا يأتي النابغة إلا من كثير وكثير، ومن النبوغ كله بجميع وسائله وأسبابه على تعددها وتفرقها وصعوبة اجتماعها لإنسان واحد (نابغة القرن العشرين)، فهو الذي توافقت إليه كل هذه الأسباب، وتوازنت فيه كل تلك الخلال. إنه ليس الشأن في العلم ولا في التعليم؛ ولكنما الشأن في الموهبة التي تبديع

(١) تحادق: تذاكى.

الابتكار، كموهبة (نابعة القرن العشرين)، فيها تجيء أعماله منسجمة دالة بنفسها على نفسها؛ ومتميزة مع كونها منسجمة دالة بنفسها على نفسها؛ ومتلائمة مع كونها متميزة دالة بنفسها على نفسها...

هذا س. ع، كان الأول بين خريجي مدرسة دار العلوم، مدرسة الأدب والعربية، والمنطق والتحدق، وبلاغة اللسان وصحة النظر؛ وهو يعرف أن الكتاب يلقي في البريد وعليه طابع واحد، فيصل إلى غايته بهذا الطابع، ثم يرى بعيني رأسه أربعة طابع على هذه الرسالة المعنونة بأسم (نابعة القرن العشرين)، فلا يدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصل إليّ أنا أربع مرات...

فطرب المجنون الآخر، وأهتز في مجلسه، وصفق بيديه، وقال: «مما حفظناه» هذا الحديث: «يحاسب الله الناس على قدر عقولهم». فلا تؤاخذ س. ع، فإن مدرسة دار العلوم تعلمهم: «فيها قولان»، وفيها ثلاثة أقوال، وفيها أربعة أوجه، ولكنها لا تعلمهم فيها أربعة طابع...

ثم ألفت إلى س. ع، وقال له: لا عليك، فأنا صاحبه وخليطه، وحامل علمه ورواية أدبه، وأكبر دعاته وثقاته، وما علمت هذه الحكمة منه إلا في هذه الساعة.

قال أ. ش: فإذا كان هذا، فإن لقائل أن يقول: لماذا لم يضع على كتابه عشرة من الطابع، فيجيء به الساعي عشر مرات.

قال (النابعة): وهذا أيضاً...؟

وما شرء الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصحيبين؛ إن الشمعة في يد العاقل تكون للضوء فقط، ولكنها في يد المجنون للضوء وللإحراق أصابعه. كم الساعة الآن؟

قلنا: هي التاسعة.

قال: ومتى ينصرف أهل هذا الندي؟

قلنا: لتمام الثانية عشرة.

قال: فإذا كان الساعي يتردد في كل ساعة مرة، فهي أربع مرات إلى أن ينفض المجتمعون^(١) هنا، وبين ذلك ما يكون قد ذهب قوم عرفوا (نابعة القرن

(١) ينفض المجتمعون: يتفرقون.

الْعَشْرِينَ)، وجاء قومٌ غيرُهم فيعرفونه . وأما بعدَ ذلك فلا يجدُ الساعي هنا أحداً؛ فلا تكونُ فائدةٌ من مجيئه .

فصقَّ المجنونُ الآخرُ وقال : هذا وأبيكَ هو التَّهْدِي إلى وجهِ الرأْي وسَدَادِهِ، وهذا هو الكلامُ الرصينُ الَّذِي يقومُ على أصولِ الحساب والجغرافيا . . «ومِمَّا حفظناه» هذا الحديث : «لا مالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ» . فأربعةٌ طوابع، لأربعِ مرات، في أربعِ ساعات؛ وما عدا هذا فإسرافٌ وتبذير؛ ولا مالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ . .

ورضِيَ (النابعة) عن صاحبه وقالَ له : لَئِنْ كَانَتْ فِيكَ ضَعْفَةٌ إِنَّ فِيكَ لَبَقِيَّةً تَعْقِلُ بها . . . ثُمَّ أَخَذَ مِنْهُ الرِّسَالَةَ ودَسَّهَا فِي ثَوْبِهِ . قلنا : ولكنْ أَلَا تَقْضُهَا لِتَعْرِفَ مَا فِيهَا؟

فضحك وقال : أَتَيْنَ جَارِيَتُكُمْ فِي بَابِ الْمُطَايَبَةِ وَالنَّادِرَةِ، وَجَارَيْتُ هَذَا الْأَبْلَةَ فِي بَابِ جُنُونِهِ وَحُمَقِهِ - تحسبون أنَّ الأمرَ على ذلك، وأنَّ الرِّسَالَةَ فارغةٌ إلا من عنوانِهَا، وأنَّ نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ هو [من] أَرْسَلَهَا إِلَى نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ، كما قال سعد باشا : (جورج الخامس يُفَاوِضُ جُورْجَ الْخَامِسِ) . . . ؟ لَحَقَّ - والله - أَنَّ الْعَقْلَ الْكَبِيرَ الَّذِي يَأْبَى الصِّغَاثِرَ، هو الَّذِي تَأْتِي مِنْهُ الصِّغَاثِرُ أحياناً لَتُثْبِتَ أَنَّهُ عَقْلٌ كَبِيرٌ، وهكذا تَسَحَّرُ الْحَقِيقَةُ مِنْ كِبَارِ الْعُقُولِ (كُنَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) . .

فغضبَ المجنونُ الآخرُ وهَمَّ أَنْ يَتَكَلَّمَ : فقالَ له (النابعة) : أَنْتَ كَاذِبٌ فِيمَا سَتَقُولُهُ .

قلنا : ولكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئاً بَعْدُ، فكما يجوزُ أَنْ يَكُونَ كَاذِباً يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صَادِقاً .

قال : وَسَيُخْطِئُ فِي رَأْيِهِ الَّذِي يُبْدِيهِ . .

قلنا : وَلَمْ يُبْدِ شَيْئاً مِنْ رَأْيِهِ . .

قال : وَلَا يَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي سَيَتَكَلَّمُ عَنْهَا .

قلنا : وَيَحْكُ، أَدَخَلْتَ فِي عَقْلِ الرَّجُلِ أَمْ تَعْلَمُ الْغَيْبَ؟

قال : لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهُ قِيَاسٌ مِنْطَقِيٌّ يُتَوَهَّمُ أَطْرَادُهُ^(١) . إِنَّهُ سَيَقُولُ : إِنِّي

مَجْنُونٌ . .

(١) أَطْرَادُهُ : استمرارُ حدوثه .

فأخرج الآخر لسانه . . قال: (النابغة): تباً لك، لقد رأيتُ الكلمة في لسانِكَ كأنها مكتوبةٌ بحروفِ المطبعة. ويحك يا مَرْقَعان^(١)، ألا تعرفُ أن لك دماغاً مخروقاً تسقطُ منه أفكارُك قبلَ أن تتكلَّم بها، ولولا أنَّه مخروقٌ لحفظتُ المتن! إنَّ كلَّ تخطئةٍ لي منك هي اعترافٌ لي منك بصواب.

فنظرَ الآخرُ إليه نظرةً كأنَّ تفسيرها في حواجبه، إذ مطَّ^(٢) حواجبه ورَقَصها. فقال (النابغة): ونظرائه خبيثةٌ مِلْحَةٌ الطعم، مَزْعُوقَةٌ كَمَاءِ الْبَحْرِ الْمُرُّ أَخَذَ مِنَ الْبَحْرِ وَأُضِيفَ إِلَى مِلْحِهِ الطَّبِيعِيِّ مِلْحٌ، أكادُ أنهُوَ^(٣) من هذه النظرة فأقيء.

الآنَ فهمتُ معنى قولهم: «مِلْحَةٌ في عينِ الحسود». فإنَّ المِلْحَ لا يغلبُهُ إلَّا المِلْحُ، كالحديدِ بالحديد يُفْلَحُ^(٤). هاتوا كأساً من مُعْتَقَةِ الخمر، ثُمَّ لينظر فيها الخبيثُ هذه النظرة، فإنَّ الخمرَ لا بدَّ مستحيلةٍ «شربة ملح إنجليزي» . . . هذا الأبله ثقيلُ الدم كأنَّ دمه مأخوذٌ من مستنقع . . . أهذا الذي لا يستطيعُ أن يقولَ شيءٍ في الدنيا: هُوَ لي، إلَّا الْفَقْرَ وَالْجُنُونَ وَالْخُرَافَةَ - يُكْذِبُ ما في الرِّسَالَةِ التي جاءَ بها الْبَرِيدُ الْمُسْتَعَجَلُ، ولا يُصَدِّقُ أنها مرسلةٌ إلى نابغةِ القرنِ العشرينِ من صاحبِ السُّمُوِّ الْأَمِيرِ؟

هذا الذاهبُ الْعَقْلُ هو كالجبانِ المنقطعِ في وَخْشَةِ الْفَقْرِ، في ظلامِ اللَّيْلِ: إذا تَوَجَّسَ حركةً ضعیفةً انقلبتْ في وهمٍ قصَّةُ جريمةٍ ماؤُها الرُّعْبُ وفيها الْقَتْلُ والذَّبْحُ؛ ولهذا يخشى ما في الرِّسَالَةِ التي جاءتْ من صديقي صاحبِ السُّمُوِّ. هاؤُمُ أقرءوا الرِّسالةَ.

وفضضنا^(٥) الْغِلَافَ، فإذا ورقتانِ مهورتانِ بتوقيع أميرِ معروف، إحداهما صكٌّ بآلفِ جنیهِ تُدْفَعُ (لنابغةِ القرنِ العشرينِ)، والثانيةُ أمرٌ بالقبضِ على المَجْنُونِ الآخرِ . . وإرسالِهِ إلى أمارستان . . .

وذهبتُ أَصْلِحُ بينهما صلحاً فقلتُ: إنَّ في الحديثِ الشريفِ: «بينما رسولُ

(١) المرفع والمرقعان: هو الأحمق الذي يرتج عليه رأيه.

(٢) مط حواجبه: رفعها استغراباً واستغهاماً.

(٤) يفلح: يُشَقُّ.

(٣) تهوَّع القِيء: تكلفه.

(٥) فضضنا: فتحنا.

اللَّهُ ﷻ في أصحابه إذ مرَّ به رجلٌ، فقال بعضُ القوم: هذا مجنون. فقال رسولُ
اللَّهُ ﷻ: هذا مُصاب؛ إنّما المجنونُ المقيمُ على معصيةِ الله.

فقال صاحبُ المتن: «مِمَّا حفظناه» إنّما المجنونُ المقيمُ على معصيةِ الله.

قلت: وليسَ فيكما مقيمٌ على معصيةِ الله...

قالَ المجنون: «مِمَّا حفظناه»: وليسَ فيكما مقيمٌ على معصيةِ الله...

قلت: هذا ليسَ مِنَ الحديثِ ولكنه من كلامي...

قالَ (النابغة): أنبأتكم أنّ هذا الأبلهَ يَضِلُّ في دارِهِ كما يضلُّ الأعرابيُّ في
الصحراء؛ وأنَّ الأسطولَ الإنجليزيَّ لو استقرَّ في ساقيةٍ يدورُ فيها ثورٌ، لكانَ ذلك
أقربَ إلى التصديقِ مِن استقرارِ العقلِ في رأسِ هذا الأبله؟...

فأخذتم^(١) الآخرَ وهم أن يقول: «مِمَّا حفظناه»، ولكني أسكتُهُ وقلتُ
(لِلنابغة): إنّك دائماً في ذروةِ العالم، فلا غرورَ أن ترى المحيطَ الأعظمَ ساقية.
«والنوابغ» هم في أنفسهم نوابغ، ولكّثهم في رأيِ الناسِ مَرَضَى بمرضِ الصعودِ
الخياليِّ إلى ذروةِ العالم. ومن هذا يكونُ المجانينُ همُ المَرَضَى بمرضِ النزولِ
الحقيقيِّ إلى حضيضِ الآدميّة؛ فهناك يعملون فتكونُ أفكارُهُم من أعمالِهِم، ثُمَّ
تكونُ عقولُهُم من أفكارِهِم، فيكونُ هذا هو المجنونُ في عقولِهِم، وذلكَ معنى
الحديث: «إنّما المجنونُ المقيمُ على معصيةِ الله».

قالَ (النابغة): لَعَمري إنّ هذا هو الحقُّ؛ فنبوغُ العقلِ مَرَضٌ من أمراضِ
السموّ فيه؛ فالشاعرُ العظيمُ مجنونٌ بالكونِ الَّذي يتخيَّلُهُ في فكرِهِ، والعاشقُ مجنونٌ
بكونِ آخرَ لَهُ عَيْنانِ مكحولتان؛ والفيلسوفُ مجنونٌ بالكونِ الَّذي يدأبُ في معرفتِهِ؛
ونابغةُ القرنِ العشرينِ مجنون... لا. لا. قد نسينا. ش، فهو مجنون، وس. ع
فهو مجنون.

وكلُّ الناسِ مجنونٌ بليلى وليسلى لا تُقرُّ لَهُم بِذاك
ومن حقٌّ ليلي ألا تقرُّ لَهُم، إذ هي لا تقرُّ إلا لِنابغةِ القرنِ العشرينِ وحده؛
وما أعجبَ سحرَ المرأةِ في الكونِ النفسانيِّ لِلرجالِ! أمّا في الكونِ الحقيقيِّ فهي
أنثى كإناثِ البهائمِ ليسَ غير. وأعقلُ الرجالِ مَنْ كانَ كالِحِمَارٍ أو الثورِ أو غيرِهِما

(١) احتدم: امتشاط غضباً.

من ذكور البهائم. فالجِمارُ لا يعرف الجِمارَةَ إلا أنها جِمارَة، والثورُ لا يعرف البقرةَ إلا أنها بقرة؛ ولا ينظمون شعراً، ولا يكتبون «أوراق الورد»... وإنَّ البهائم أماتٌ^(١) لا غير، ولكنَّ العجيبَ أنَّ ذكورتها ليست آباء؛ فهذه الذكورة طُفيلية في الدنيا، والأطفيلي لا يأكلُ إلا بحيلة يحتالُ بها، فيكونُ صاحب نواذرٍ وأضاحيك وأكاذيب. ولهذا كانَ عشقُ الرجالِ للنساءِ ضروباً من الخداع والأكاذيب والأضاحيك والحيل والغفلة والبلاهة؛ وإذا نظرنا إليه من أوله فهو عشق، أما آخره فهو آخرُ الحيلة والأكذوبة، وهو قولُ الطفيلي: قد شبتُ وقد رويت... ويحكم، أين أولُ الكلام؟

قلنا: أوله ما أعجب سحرَ المرأة في أكونِ النفساني للرجال! قال: نعم هذا هو. إنَّه سحرٌ لا أعجب منه في هذا أكونِ النفساني إلا سحرُ الذهب؛ فلو مُسِختِ المرأةُ الجميلة شيئاً من الأشياء لكانت سبيكة ذهبية تلمع؛ ولهذا يوجدُ الذهبُ للصوص في الدنيا، وتوجدُ المرأةُ الجميلةُ لصوصاً آخرين، فيجبُ أن يُصانَ الذهبُ وأن تُصانَ^(٢) المرأةُ.

قلت: ولكنَّ ليسَ منَ المالِ فضةٌ، وهي توجدُ للصوص كالذهب؟ قال: نعم، وفي النساءِ كذلكِ فِضةٌ، وفيهنَّ اللُّحاس؛ ولو أنتِ ألقيتِ ريالاً في الطريقِ لأحدثتِ معركةً يختصمُ فيها رجالان، ثم لا يذهبُ بالريالِ إلا الأقوى، ولو تركتِ قرشاً لتضاربَ عليه طفلان، ثم لا يفوزُ به إلا منَ غَضَّ الآخر... ولكنَّ (فورد) الغنيَّ الأمريكيَّ العظيمَ الذي يجمعُ يدهُ على أربعمئة مليون جنيه، لا يتكلَّمُ عن القِرش؛ و(نابغة القرن العشرين) الذي يملكُ (ليلي)، لا يتكلَّمُ عن غيرها من قروشِ النساء... .

قلت: فإنِّي أحسُّبك أعلمتني أنَّ اسمَها فاطمة لا ليلي. قال: هل يستقيمُ الشعرُ إذا قلت: وكلُّ الناسِ مجنونٌ بفاطمة، وفاطمُ لا تقرُّ لهم؟ قلت: لا.

قال: إذن فهي (ليلي) ليستقيمُ الشعر... أما حين أقول: أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلُّل، فهي فاطمة ليصحَّ الوزن.

(١) جمع يقال في غير العاقل، أمات، وفي العاقل: أمهات.

(٢) تصان: تحفظ.

قلت: يُشبه - والله - ألا يكون اسمها ليلي ولا فاطمة؛ وإنما هي تسمى
حَسَبَ الوزنِ والبحر، فاسمُها فَعُولُنْ أو مُقَاعَلَتُنْ...

ثُمَّ قُلْنَا لَهُ: فما رأيك في الحب، فإنه لَيُقَال: إِنَّكَ أعشَقُ النَّاسَ وأَغْرُلُ النَّاسَ؟
قال: إِنَّ ذَلِكَ لَيُقَالُ (وهو الأصح)، ثُمَّ أَطْرَقَ يَفْكَرُ. وبدأ عليه أَنَّهُ مَدْهُوْشٌ
ذَاهِبٌ أَلْعَقْل، كَأَنَّهُ من قَلْبِهِ على مَسَافَةٍ أَبْعَدَ من المَسَافَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَقْلِهِ. وَخُيِّلَ
إِلَيْهِ أَنَّ النِّسَاءَ قد حُشِرْنَ^(١) جَمِيعاً في رَأْسِهِ، وَمَرَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ تَعْرِضُ مَفَاتِيحَهَا
وَعَزَلَهَا، وَثَلَاثُمُ هَذَيَانَهُ بِهِذَيَانِ^(٢) من جَمَالِهَا، فهو يرى وَيَسْمَعُ وَيَعْرِضُ وَيَتَخَيَّرُ.
ثُمَّ أَضْطَرَبَ كَالَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يُمْسِكَ بَشْيَءَ أَفَلَّتْ مِنْهُ؛ فلم يَنْبَهُهُ إِلَّا قَوْلُ المَجْنُونِ
الآخر: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ» أَنَّ أَعْرَابِيَّةً سَلَّتْ عن العَشْقِ فقَالَتْ: إِنَّهُ دَاءٌ وَجَنُون...

قال: اسكُتْ يا وَيْلَكَ لقد أَطْفَأْتَ الأَنْوَارَ بِكَلِمَتِكَ المَجْنُونَةِ. كَانَ في رَأْسِي
مَرْقُصٌ عَظِيمٌ تَسْطَعُ الأَنْوَارُ فِيهِ بَيْنَ الأَحْمَرِ والأَخْضَرِ والأَبْيَضِ؛ وَتَرْقُصُ فِيهِ
الْجَمِيلَاتُ مِنَ الطَّوِيلَةِ والقَصِيرَةِ والمَمْشُوقَةِ والأَبَادِيَةِ، فَجِئْتُ بِالْأَدَاءِ والمَجْنُونِ -
فَبَحَكَ اللَّهُ- فَأَخْرَجْتَنِي عَنْهُنَّ إِلَيْكَ. أَحْسَبُ أَنَّكَ لَوْ أَنْتَحَرْتَ لَصَلَحَ الْعَالَمُ أَوْ
صَلَحْتُ أَنَا على الأقل... فإذا أَرَدْتُ أَنْ تَشْتَقَّ نَفْسَكَ فَأَنَا أَتِيكَ بِالحَبْلِ الَّذِي كُنْتُ
مَقِيداً فِيهِ أَيَّ الحَبْلِ الَّذِي عِنْدِي في الدَّار... على أَنَّ رَأْسَكَ الفَارِغَ مَشْنُوقٌ فِيكَ
وَأَنْتَ لَا تَدْرِي.

قال الآخر: ما أَنْتَ مُنْذُ الْيَوْمِ إِلَّا في شَنْقِي وتَعْذِيبِي أَوْ في شَنْقِ عَقْلِي (على
الأصح). «وَمِمَّا حَفَظْنَاهُ» قَوْلُ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ: إِنِّي لِأَجَالِسُ الأَحْمَقَ سَاعَةً فَاتَّبِعُنِي
ذَلِكَ في «عَقْلِي»...

فلم يَرُغْنَا إِلَّا قِيَامَ المَجْنُونِ مُسَلِّحاً بِحِذَائِهِ في يَدِهِ... وهو جِذَاءٌ عَتِيقٌ غَلِيظٌ
يَقْتُلُ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَحُلْنَا بَيْنَهُمَا وَأَثْبَنَاهُ في مَكَانِهِ. وَقُلْنَا: هَذَا رَجُلٌ قد غُلِبَ على
عَقْلِهِ فلا يَدْرِي ما يَقُولُ؛ فإذا هو دَلَّ على أَنَّهُ مَجْنُونٌ، أَفَلَا تَدُلُّ أَنْتَ على أَنَّكَ
عَاقِلٌ؟ ما سَأَلْنَاكَ في أَنْتَحَارِهِ وَجَنُونِهِ، بَلْ سَأَلْنَاكَ رَأْيَكَ في الْحَبِّ؛ وما نَشُكُّ أَنَّكَ
قد أَطَلَلْتَ التَّفَكِيرَ لِيَكُونَ الجَوَابُ دَقِيقاً، فَإِنَّكَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ العَشْرِينَ)، فَانْتَظِرْ أَنْ
يَكُونَ الجَوَابُ كَذَلِكَ.

(٢) الهذيان: الجنون.

(١) حُشِرْنَ: جُمِعْنَ.

قال: نعم إن العاقل إذا وَرَدَ عليه السؤال أطلَّ الفكرَ في الجواب. فأكتب يا فلان (س. ع):

(جلس نابغة القرن العشرين مجلس الإماء مرتجلاً فقال: قصة الحب هي قصة آدم، خلق الله المرأة من ضلعه. فأول علامات الحب أن يشعر الرجل بالألم كأن المرأة التي أحبها كسرت له ضلعاً... وكل قديم في الحب هو قديم بمعنى غير معقول، وكل جديد فيه هو جديد، بمعنى غير مفهوم؛ فغير المعقول وغير المفهوم هو الحب.

والجمرة الحمراء إذا قيل إنها انطفأت وبقيت جمرة فذلك أقرب إلى الصديق من بقاء الحب حياً بمعناه الأول إذا انطفأ أو برَد.

والعاشق مجنون. وجنونه مجنون أيضاً، فهو كالذي يرى الجمرة منطفئة، ويرى مع ذلك أنها لا تزال حمراء، ثم يُمنع في خياله فيراها وردة من الورد... وإذا سألته أن يصف الجمال الذي يهواه كان في ذلك أيضاً مجنون الجنون، كالذي يرى قمر السماء أنه قد تفتت وتناثر ووقع في الروضة، فكان نثاره هو ألياسمين الأبيض الجميل الذكي..

والمجنون يرى الدنيا بجنونه والعاقل يراها بعقله؛ ولكنَّ العاشق المخبول لا ينظر من يهواه إلا بقيّة من هذا بقيّة من ذلك، فلا يخلص مع حبيبهِ إلى جنونٍ ولا عقل.

(والمجهول) إذا أراد أن يظهر في دماغ بشري لم يسغه إلا أحد رأسين: رأس المجنون ورأس العاشق...

ولا صعوبة في الحكم على شيء بأنه خير أو شر إلا حين يكون الخير والشر امرأة معشوقة. أما أوصاف الشعراء والكتّاب للجمال والحب فهي كلها تقليد قد توسّعوا فيه؛ والأصل أن ثوراً أحب بقرة فكان يقول لها: يا نجمة القطب التي نزلت من السماء لتدور في الساقية كما دارت في الفلك.

قال (النابغة): هذا رأيي في حبَّ العاشقين؛ أما حُبِّي أنا (نابغة القرن العشرين) فيجمعه قولك: فل، ورد، زهر...

قلنا ما هذه الألغاز؟ وهل للحب متن كقولهم: حروف ألفلقة يجمعها قولك (قطب جد)، وحروف الزيادة يجمعها قولك (سألتونيها)؟

فتضاحك (النابعة)، وقال: تكاثرت أظباء على خراش، فلكيلا ننسى... إن كل حرف هو بدء أسم، الفاء فاطمة، والألام ليلكى، وألواو وردة، وألراء رباب، وألدال دلال، وألزاي زكية، وألهاء هند، وألراء رباب...
قلنا: رباب قد مضت في (ورد).
قال: كنا تهاجرنا مدة ثم أصطلحنا بعد هند...

قلت: هكذا «النوابغ» فإن رجلاً أديباً كانت كنيته (أبا العباس) فلما «نبغ» صيرها (أبا العير)^(١) وفتق له نبوغه أن يجعلها تاريخاً يعرف منها عمره. قالوا فكان يزيد فيها كل سنة حرفاً حتى مات وهي هكذا:
أبو العير طآذ طيل طلييري بك بك بك...

(١) العير: الحمار.

المجنون

٥

ثُمَّ إِنَّ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) أَسْتَحْفَهُ الطَّرْبُ لِذِكْرِ صَوَاحِبِهِ وَجَمِيلَاتِهِ مِنْ فَاطِمَةَ إِلَى رَبَابٍ؛ وَمِنْ طَبِيعِ الْمَجْنُونِ أَنَّهُ إِذَا كَذَبَ صَدَّقَ نَفْسَهُ، فَإِنَّ قُوَّةَ الضَّبِطِ فِي عَقْلِهِ إِمَّا مَعْدُومَةٌ وَإِمَّا مُخْتَلَةٌ؛ وَكُلُّ وَجْهِ تَخَيَّلٍ مِنْهُ خَيَالًا فَهُوَ وَجْهٌ مِنْ وَجُوهِ الْعِلْمِ عِنْدَهُ، إِذْ كَانَ عَالَمُهُ أَكْثَرُهُ فِي دَاخِلِهِ لَا فِي الْعَالَمِ، فَإِذَا تَوَهَّمْ أَوْ أَحَسَّ أَوْ شَعَرَ، فَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِطَرِيقَتِهِ هُوَ لَا بِطَرِيقَةِ النَّاسِ الْعُقَلَاءِ؛ فَلَيْسَ يَحْتَمِلُ عَقْلُهُ إِلَّا فِكْرَةً وَاحِدَةً تَمْضِي مَنْفَرَدَةً بِنَفْسِهَا مُسْتَقِلَّةٌ بِمَعْنَاهَا كَأَنَّهَا قَدَّرَ غَالِبٌ عَلَى جَمِيعِ أَفْكَارِهِ الْآخَرَى، فَلَا شَأْنَ لَهَا بِالْوَاقِعِ، وَلَا شَأْنَ لِلْوَاقِعِ بِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ تُحَقِّقُ مَعْنَاهَا كَمَا تَخْطُرُ لَهُ، لَا كَمَا تَتِمَّلُ فِيهَا حَوْلَهُ.

فَبَيْنَ كُلِّ مَجْنُونٍ وَبَيْنَ مَا حَوْلَهُ دِمَاعُهُ الْمُنْتَدِجِي^(١) بِالْغُيُومِ الْعَقْلِيَّةِ، لَا تَزَالُ تَعْرِضُ لَهُ الْغَيْمَةُ بَعْدَ الْغَيْمَةِ مِنْ اخْتِلَالِ بَعْضِ الْمَرَكَزِ الْعَصْبِيَّةِ فِيهِ، وَفَسَادِ أَعْمَالِهَا بِهَذَا الْاِخْتِلَالِ، وَقِيَامِ الطَّبِيعَةِ فِيهَا عَلَى هَذَا الْفَسَادِ.

وَمِنْ ذَلِكَ تَنْقَلِبُ الْكَلِمَةِ مِنَ الْكَلَامِ، وَإِنَّهَا لِحَادِثَةٌ تَامَّةٌ فِي عَقْلِ الْمَجْنُونِ كَالْقِصَّةِ الْوَاقِعَةِ لَهَا زَمَانٌ وَمَكَانٌ، وَبَدْءٌ وَنِهَايَةٌ، لَا يُخَامِرُهُ فِيهَا الشُّكُّ، وَلَا يَغْتَرِبُهَا التَّكْذِيبُ؛ وَكَيْفَ وَهِيَ قَائِمَةٌ فِي ذَهْنِهِ مِنْ وَرَاءِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ قِيَامَ الْحَقِيقَةِ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ؟

وَلِحَوَاسِّ الْمَجْنُونِ جِهَتَانِ فِي الْعَمَلِ، لِأَنَّهَا بَيْنَ كَوْنَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا الْكَوْنُ الْخَرِبُ الَّذِي فِي دِمَاعِهِ؛ وَفِي هَذَا يَقُولُ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ): إِنَّ فِي دَاخِلِ عَيْنِي مِيزَانًا يَرَى بِهِ الْأَشْيَاءَ فِي غَيْرِ حَقَائِقِهَا، أَيْ فِي حَقَائِقِهَا..

وَحَدَّثَنَا أَلَدُكْتُورُ مُحَمَّدُ الْأَرَفِيُّ قَالَ: إِنَّ فِي دَارِ الْمَجَانِينِ بِمَدِينَةِ لِيُونِ بِفَرَنْسَا

(١) المتدجى: المظلم.

نابغة كناية القرن العشرين، ذكّرت أمامه قيصره روسيا وخبر مقتلها، فأحفظه^(١) هذا وأرمضه^(٢) وقال يا ويحكم! كذبوا عليها وعليّ. فسأله الدكتور: وكيف ذلك؟

قال: كان من خبر القيصر أنها رأتني فأحبّنتني، وعلمت من كل وجه يمكن أن أعلم منه قلبها أنني أنا رجلها لا القيصر؛ فما زالت بعدها تُناكد^(٣) القيصر وتلتوي عليه ولا تصلح له في شيء حتى يئس منها فطلقها، فحملت كنوزها وحلاها ولجأت إلى حبيبها، ثم تبعها نفس القيصر ولم يطق العيش بعدها فأنحصر... ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوز، فأخفاها هو في مكان حريز^(٤) لا يعلمه إلا هو؛ ثم إنّه هو لا يصل إلى هذا المكان الذي أحرزها فيه إلا إذا نام... كيلا يراه أحد من الشيوعيين فيتعبه فيعلم مقرها؛ ولهذا كان من الحكمة أن ينسى المكان إذا استيقظ... فقد يزّل مرة فيخبر به أو يغلبه الشوق مرة على «عقله»... فيذهب إليه؛ فعسى أن يراه من ينم بذلك، فتفتضح الحبيبة وتؤخذ منه.

قال: وإن القيصره هي تحتاط أيضاً مثل ذلك فتراسله كل يوم بالاسلكي رسائل تقع من الجو في دماغه فيقرؤها وحده، وإن أخوف ما يخافه أن يغلبها جنون الحب يوماً فتطيش طيش المرأة، فتزوره في هذا المارستان... فقد تقتل إذا رآها الشيوعيون.

قال الدكتور: وهاك (نابغة) آخر ثبت في ذهنه أن امرأة من أجمل النساء قد استهامت^(٥) به وأنها مبتلاة في حبها إياه بجنون الغيرة، وقد تناهت فيه حتى إنها لتقتل نفسها إذا علمت أن لصاحبها هوى في امرأة أخرى. وخبلته هذه الفكرة، فأعتقد أن حبيبته من جنون غيبتها واقعة بين السلامة والتلف؛ ثم توهم ذات يوم أن شيئاً قد أعلمها أن النساء أفتتن به؛ فطار صوابها، فهي آتية إليه في المارستان لتوبّخه وتشفي غيظها منه، ثم تتحرر أمام عينيه... وأدار (النابغة) الفكر في إقناعها لتعلم أنه لم يخنها بالغيب... فلم يهتد إلى مفتح تستيقن به المرأة أن لا أرب للنساء فيه إلا أن... فعل وجب خضيتيه بيده ليقدمهما برهاناً أنه لها وحدها...

(١) أحفظه: أغضبه.

(٢) أرمضه: ألهمه.

(٣) تناكد: تخاصم.

(٤) مكان حريز: مصون لا يصل إليه أحد.

(٥) استهامت: عشقت.

قلنا: وطرب (نابغة القرن العشرين) لذكر صواحيه وجميلائه، فجعل يترنم بهذا الشعر:

قالوا جُنُنتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ما لذَّة العيش إلا للمجانين
فقال المجنون الآخر: «مِمَّا حفظناه»: ما لذَّة «الخبز» إلا للمجانين . . .
فضحك (النابغة): وقال: ما أسخفك من أحمق. إذا كان هذا هو المعنى
فَقُلْ: ما لذَّة (الكعك). ألم أقل لكم إن هذا الأبله لو تهجأ كلمة خبز قال إنها ل.
ح. م. ولو تهجأ كلمة لحم لقال ف. و. ل. . .
إنه طفل عمره ثلاثون سنة وفيه دائماً غضب الطفل وترقه^(١) وحماقته، وفيه
كذلك سرور الطفل وطيشه وأحلامه؛ غير أنه ليس فيه عقل الطفل. . . وهو من
الضعف، وشدة الحاجة إلى العناية في حياته وسياسته وأبرز به كطفل صغير -
بحيث يُخَيَّلُ إليَّ أحياناً أنني أمه. . .

قلنا: وتسى في هذه الحالة أنك رجل؟

قال: وأنتم كذلك تهمونني بالنسيان، وهو شرعاً جهة ملزمة للحكم بالجنون
فما النسيان إلا الكلمة الأخرى لمعنى ضعف العقل؛ وضعف العقل هو اللفظ
الآخر لمعنى جنوني؛ وقد أعلمتكم ما أكره من الكلام.

قلت: لا، النسيان لا يكون منك نسياناً بمعناه في المجانين، بل بمعناه فيك
أنت من توائب الأفكار النابغة وتزاحمها في تواردها على العقل. فإذا توائبت
وتزاحمت كان أمرها إلى أن يُنسى بعضها بعضاً، فلا ينطلق منها إلا القوي النابغ
حق نبوغه، فيجيء كالمنقطع ممّا قبله؛ فيحسب ذلك نسياناً وما هو به. وقد
تصطلح الأفكار في هذه المعركة الذهنية إذا كان النابغة مسروراً مجبوراً يرقص
طرباً. . . فيكون أمرها إلى أن تجيء كلها معاً على اختلاف معانيها وتناقضها؛
فيحسب ذلك ضرباً من الذهول عند من يجهل العلّة «النبوغية»؛ وعذره جهل هذه
العلّة، وهي في دلالة العقل ليست نسياناً ولا ذهولاً.

قال: فأعلمني كيف نسيان المجانين، فقد خفي عليّ أن أدرك هذا الأمر
العجيب فيهم، ولست أدري كيف يفوتهم ما أستدني لهم من الفكر بعد أن يكون
قد استقرّ وحصل في عقولهم؟

(١) نزقة: طيشه.

قلت: لا يكون النسيانُ تهمَةً بِالْجَنُونِ إِلَّا فِي أَحْوَالٍ ثَلَاثٍ، جَاءَتْ بِكُلِّهَا
الرَّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ الْمَحْفُوظَةُ:

فَأَمَّا الْأُولَى: فَمَا يُرَوَى عَنْ رَجُلٍ كَانَ سَرِيًّا غَنِيًّا وَعُغْمَرٌ حَتَّى أَدْرَكَهُ الْخَرْفُ؛
فَجَاءَهُ كَاتِبُهُ يَوْمًا يَسْتَعِينُهُ عَلَى تَجْهِيْزِ أُمِّهِ وَقَدْ مَاتَتْ، فَدَفَعَ إِلَى غُلَامٍ لَهُ دَنَانِيرَ
يَشْتَرِي بِهَا كَفَنًا، وَدَنَانِيرَ أُخْرَى يَتَصَدَّقُ بِهَا عَلَى الْقَبْرِ، ثُمَّ قَالَ لِلْغُلَامِ آخِرُ؛ إِمَضْ
إِلَى صَاحِبِنَا وَغَاسِلِ مَوْتَانَا فَلَا تَنْفَدِ فَاذْعُهُ يَغْسِلُهَا. قَالَ الْكَاتِبُ: فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ:
يَا سَيِّدِي إِيْعَثْ خَلْفَ فَلَانَةٍ وَهِيَ جَارَةٌ لَنَا تَغْسِلُهَا. قَالَ: يَا فَلَانُ: مَا تَدْعُ عَقْلَكَ فِي
حُزْنٍ وَلَا فَرَحٍ. كَيْفَ تُدْخِلُ عَلَيْهَا مَنْ لَا نَعْرِفُهُ؟

قَالَ الْكَاتِبُ: نَعَمْ تَأْذُنُ بِذَلِكَ. قَالَ: لَا - وَاللَّهِ - مَا يَغْسِلُهَا إِلَّا فَلَانُ.

فَضَاقَ الْكَاتِبُ بِهَذَا الْحِمَقِ وَقَالَ: يَا سَيِّدِي كَيْفَ يَغْسِلُ رَجُلٌ أَمْرًا؟

قَالَ: وَإِنَّمَا أَمْلَكَ أَمْرًا؟... - وَاللَّهِ - لَقَدْ أُنْسِنْتُ..

وَأَمَّا الْحَالَةُ الثَّانِيَّةُ: فَمَا يُرَوَى عَنْ رَجُلٍ كَانَ نَائِمًا فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فَخَرَجَتْ يَدُهُ
مِنَ الْفِرَاشِ فَبَرَدَتْ، فَأَدْنَاهَا إِلَى جَسَدِهِ وَهُوَ نَائِمٌ فَأَحْسَّ بَرْدَهَا فَأَيَّقَظَتْهُ، فَانْتَبَهَ فَرَعَا
فَقَبِضَ عَلَيْهَا بِيَدِهِ الْأُخْرَى وَصَاحَ: أَلِلْصُوصُ. أَلِلْصُوصُ.. هَذَا أَلِلْصُ قَدْ قَبِضْتُ
عَلَيْهِ، أَدْرِكُونِي لِئَلَّا تَكُونَ فِي يَدِي حَدِيدَةٌ يَضْرِبُنِي بِهَا، فَجَاءُوا بِالسَّرَاجِ فَوَجَدُوهُ
قَابِضًا بِيَدِهِ عَلَى يَدِهِ وَقَدْ نَسِيَ أَنَّهَا يَدُهُ...

وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَهِيَ رَوَايَةٌ عَنْ رَجُلٍ قَدْ وَرِثَ نِصْفَ دَارٍ، فَفَكَّرَ طَوِيلًا كَيْفَ
تَخْلُصُ أَلْدَارُ كُلِّهَا لَهُ ثُمَّ أَهْتَدَى إِلَى الْوَسِيلَةِ؛ فَذَهَبَ إِلَى رَجُلٍ وَقَالَ لَهُ: أُرِيدُ أَنْ
أُبَيْعَكَ حِصَّتِي مِنَ الدَّارِ وَأَشْتَرِيَ بِمَنْحِهَا النِّصْفَ الْبَاقِي لِتَصِيرَ الدَّارُ كُلُّهَا لِي...

قَالَ (الْنابِغَةُ): لَعَمْرِي إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْجَنُونُ، وَمَا يُذَكِّرُ مَعَ هَؤُلَاءِ مَجْنُونُ الْمَتَنِ
وَلَا «غَيْرُهُ»...

فَقَالَ الْآخَرُ: «تَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَاشِرِينَ) يَرْفَعُ نَفْسَهُ عَنِ الْجَنُونِ
لَجَاءَ فِي الْجَنُونِ بِمَا يُذْهِلُ «العقول»...

ثُمَّ نَظَرَ فَإِذَا النَابِغَةُ يَتَحَفَّرُ^(١) لَهُ... فَأَسْرَعَ يَقُولُ: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ» كُنْ حَذِرًا

(١) يَتَحَفَّرُ: يَسْتَعِذُّ.

كَأَنَّكَ غِرٌّ، وَكُنْ ذَاكِرًا كَأَنَّكَ نَاسٍ. فَهَذَا هُوَ نِسْيَانُ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ، نِسْيَانُ حُكَمَاءَ لَا نِسْيَانُ مُجَانِينَ.

قَالَ (الْنَابِغَةُ): وَلَكِنْ قَدْ فَسَدَ قَوْلُ الشَّاعِرِ: مَا لِلذَّةِ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمُجَانِينَ؛ فَمَا بَقِيََتْ مَعَ الْجَنُونِ لِلذَّةِ.

قُلْتُ: إِنَّ الشَّاعِرَ لَا يُرِيدُ الْمُجَانِينَ الَّذِينَ هُمْ مُجَانِينَ بِالْمَرَضِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْعُشَاقَ الْمُجَانِينَ بِالْجَمَالِ؛ وَجَنُونَ الْعَاشِقِ فِي هَذَا أَلْبَابِ كَعُيُوبِ الْعِظَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْفَنِّ، وَهِيَ عُيُوبٌ تُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا بِحَسَنَاتِ الْعِظَمَةِ، فَلَيْسَتْ كَغَيْرِهَا مِنَ الْعُيُوبِ. قَالَ: فَيَجِبُ أَنْ أَصْنَعَ بَيْتًا آخَرَ يَفْسِّرُ ذَلِكَ الشَّعْرَ لِيَسْتَقِيمَ لِي التَّمَثُّلُ بِهِ، ثُمَّ فَكَّرَ وَهَمَّهُمْ، ثُمَّ كَتَبَ فِي وَرَقَةٍ ثُمَّ طَوَاهَا وَقَالَ: إِصْنَعِ أَنْتِ أَوَّلَ، وَسَأَتَمُنُّ س. ع. عَلَى عَشْرِي وَدَفَعُ إِلَيْهِ الْوَرَقَةَ:

فَنَظَرْتُ وَقُلْتُ: يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الشَّعْرُ هَكَذَا:

قَالُوا: جُنِثْتُ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لِلذَّةِ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمُجَانِينَ
الْعَقْلُ إِنْ حَكَمَ الْعُشَاقَ أَثْقَلَ مِنْ فَقِرْ تَحَكُّمَ فِي رِزْقِ الْمَسَاكِينِ
وَنَشْرُ س. ع. الْوَرَقَةَ فَإِذَا فِيهَا:

قَالُوا: جُنِثْتُ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لِلذَّةِ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمُجَانِينَ
إِنَّ الْعُيُوبَ عَنِ الْمَجْنُونِ دَافِعَةٌ بَأَنَّهُ «نَابِغٌ فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ»...
وَضَحِكُنَا جَمِيعًا؛ فَقَالَ الْنَابِغَةُ: أَبْعَدَكَ اللَّهُ يَا س. ع. إِنَّ مَنِ اتَّمَنَ الْمَجْنُونَ عَلَى سِرِّهِ وَقَالَ لَهُ أَكْتُمْتُمْ فَكَأَنَّمَا قَالَ لَهُ: أَنْشُرْهُ...

ثُمَّ قَالَ: وَدِدْتُ - وَاللَّهِ - أَنْ يَكُونَ س. ع. هَذَا «نَابِغَةً»، وَلَكِنِّي سَاجِعُهُ نَابِغَةً، فَقَدْ صَارَ لَهُ عَلَيَّ حَقُّ الصَّدِيقِ وَهُوَ حَقٌّ لَا أَضِيعُهُ وَلَا أَجْلُ بِهِ. فَإِذَا أَتَجَجْتُ يَا س. ع. إِلَى خِطَابِ رَنَانِ ثُلُقِيهِ فِي حَفْلٍ عَظِيمٍ، أَوْ قَصِيدَةٍ تَمْدُحُ بِهَا وَزِيرَ الْمَعَارِفِ، فَالْجَأُ إِلَيَّ فَإِنِّي مَلْجَأٌ لَكَ. وَمَتَى أَتَحَلَّتْ شِعْرِي كُنْتُ عِنْدَ النَّاسِ الْمَتَنَبِّي أَوْ الْبَحْتَرِي. أَوْ أَبْنِ الْأُرُومِي، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقُدَامَى لَمْ يَنْفَعْهُمْ إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ، وَلَمَّا لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ أَعْجَبُوا النَّاسَ إِذَا أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ...

قُلْنَا فَمَا حُكْمُكَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَدَبِ؟

قَالَ: إِذَا حَكَمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي بَيْنَهُمْ، فَمِنْ الطَّبِيعِيِّ أَلَّا يُعْجِبَنِي مِنْهُمْ أَحَدٌ. إِنَّ «نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ» لَا يَقُولُ لِمَعْنَى هَذَا أَحْسَنُ، فَإِنَّهُ هُوَ فَوْقَ

الأحسن، ولا يقول عن نابغة هذا أشهر، فإنه هو فوق الأشهر.

قلت: كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهد العظيم الذي لا يقول في حسن هذا أحسن لأنه فوق الشهوة، ولا في نعيم هذا أطيّب لأنه فوق الطمع، ولا في مال هذا أكثر لأنه فوق الجزص. وأحسبك لو كنت ترعى غنماً لكنت الحقيق في عصرنا بقول تلك الراعية الزاهدة: أصلحت شأني بيني وبينه فأصلح بين الذئب والغنم.

قال: وكيف ذلك؟

قلت: حكى عن بعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال في نفسه: يا رب. من زوجتي في الجنة؟ فأري في منامه ثلاث ليال أنها جارية سوداء في أرض كذا. فجاء تلك الأرض فسأل عن الجارية، فقال له رجل ما هذا؟ تسأل عن جارية سوداء مجنونة كانت لي فاعتقها؟ قال وماذا رأيتم من جنونها؟ قال: كانت تصوم النهار فإذا أعطيتها فطورها تصدقت به، وكانت لا تهدأ الليل ولا تنام فضعنا منها.

قال: فأين هي؟ قال ترعى غنماً للقوم في الصحراء:

فذهب إلى الصحراء فإذا هي قائمة في صلاتها، ونظر إلى الغنم فإذا ذئب يدلها على المرعى وذئب يسوقها. فلما فرغت من صلاتها سلم عليها فأنبأته أنه زوجها في الجنة وأنبأها أنه بشر بها؛ ثم سألها ما هذه الذئبان مع الأغنام؟ قالت: نعم أصلحت شأني بيني وبينه فأصلح بين الذئب والغنم.

قال (النابغة): هذا كذب لأنه عجيب، وهو عجيب لأنه كذب.

قلت: وأي عجيب في هذا؟ إن الذئب والشاة، والأسد والغزال، والشعبان والعصفور، وكل أكل ومأكول من الأحياء، لو هي دخلت في دائرة الصلاة الحقيقية لانتظمت كلها صفًا واحدًا يركع ويسجد. فهذه الجارية نشرت روح الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئن بالإيمان فوق الذئب منها في دائرة مغناطيسية، فسلب وحشيته ورجع مسخرًا لفكرة الإصلاح والخير إذ تجانست فيه الحياة بما حولها، وأنسجم النوع والنوع في حركة متجاوبة أنسجام الرجل المغناطيسي هو ومن ينومه في إرادة واحدة وفكرة واحدة.

قال (النابغة): فإذا دخل الذئب مسجداً يزتج بالمصلين، أثره يصف أزبعته ويقف بينهم للصلاة، أم يصلي صلاته الذئبية في لحومهم؟

قلت: وأين هم الذين يُصلُّون بحقيقة الصلاة، فيخرجون بها من النفس إلى الكون، ومن الزمن إلى الأبد، ومن الأسباب إلى مسببها، ومِمَّا في القلب إلى ما فوق القلب؟ إن هؤلاء جميعاً يُصلُّون بجوارحهم وبيوتهم وبين أرواحهم طول الدنيا وعرضها؛ وما منهم إلا من يتصل فكره بما يغلب عليه، كما يتصل فكر اللص بيده، وفكر العاشق بعينه، وفكر الطفيلي بمعدته. فاسمها عندهم الصلاة، وحقيقتها عند الله كما ترى.

قال (النابغة): ولكِنَّ ذنب من طبيعته أن يأكل الشاة لا أن يراها، فلا أفهم شيئاً.

وقال الآخر: «مِمَّا حفظناه» رتَع^(١) الذنب في الغنم، ولم يقولوا صلى الذنب في الغنم، فلا أفهم شيئاً.

قلت: سأزيدكم عَدَمَ فهم... إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة ملتصق بالله، وليس فيه شيء من طباعها الإنسانية ولا ظل من ظلال الدنيا؛ وقد تجلَّى فيه سر الحياة، وهو السر الذي لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتهي ولا يطمع في شيء ولا يحرز شيئاً، وإنما طبيعته أشواقه الكونية، واتصاله بتفحات القوة الأزلية المسخرة للوجود كله. فانتشرت هذه الموجة الكهربائية الأثيرية حول الجارية من قلبها، وجاء الذنب فالتجَّ فيها وغمرته الروحانية الغالبة، فإذا هو يفتح عينه على كون غريب قد تجلَّى السلام عليه، فليس فيه إلا قوة أمره أمرها بأثلاف كل شيء مع كل شيء، واجتماع المتنافرين في حالة معروفة لا في حالة إنكار. فصار الذنب مستقيظاً، ولكِنَّ في روح النوم، وشئت فيه الذبيبة الطبيعية، فإذا هو يحمل الأناب والظافر وقد أنسي أَسْعمالها؛ وبقيت حركته الحيوانية، ولكن تعطلت بواعثها فبطل معناها.

ومن كل ذلك اختفى الذنب الذي هو في الذنب، وبقي الحيوان حياً ككل الأحياء، فناسب الشاة وفرغ إليها إذ لم تكن العلاقة بينهما علاقة جسم الأكل بجسم الأكلة، بل علاقة الروح الحي بروح حي مثله.

قال (النابغة): أمّا أنا فقد فهمت ولكن هذا المجنون لم يفهم. أكتب يا س.

(١) رتَع: أكل وشرب ما شاء في خصب.

ع: جلس نابغة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعداد ولا تمكن، وبدون كتب ألينة... وكان هذا أجمع لرأيه وأذهن له وأدعى لأن يتوفر على الإملاء بكل «مواهب العقلية»؛ ولما أن فكر النابغة أعطى النظر حقّه وجمع في عقله ألفد جزالة الرأي إلى قوة التفنن والابتكار، قال مرتجلاً: إن فلسفة الذنب والشاة حين لم يأكلها ولم تنطخه، هي بالنص وبالحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين.

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة.

فأمتعض الآخر وقال «مما حفظناه»:

وبات يقدح^(١) طول الليل فكرته وفسر الماء بعد الجهد بالماء
فقال (النابغة): ويلك يا أبله! أما - والله - لو كنت تقطونه أو سيبونه لما
كنت عندي إلا جحشونه أو بخلونه...

لقد كنت أرى الكلام في تلك الفلسفة طريقاً نزهاً جميلاً حقته الأشجار
والأزهار عن جانبيه، وأندفعت في سوائه (تمبيلات) الأفكار خاطفة كالبرق. فلما
تكلمت أنت أنتهينا من سخافتك إلى طريق حجري تققع^(٢) فيه عربات النقل
تجرها البغال البطيئة.

فقال: الآخر وهو يعتذر إليه: ما أردت - والله - مساءتك^(٣) ولو أردتها لقلت
وفسر الماء بعد الجهد بالسبرتو... فهذا هو الخطأ، أما تفسير الماء بعد الجهد
بالماء فهو صحيح.

قال (النابغة): ولكنه تفسير مفرط السقوط كتفسير المجانين، فهو يقول إنني
مجنون.

قلت: كلا، إن تفسير المجانين يكون على غير هذا الوجه، كالذي حكاه
الجاحظ قال: سمعت رجلاً يقول لآخر: ضربنا الساعة زنديقاً. قال الآخر: وأي
شيء الزنديق؟ قال الذي يقطع المزيقاً. قال: وكيف علمت أنه يقطع المزيقاً؟
قال: رأيته يأكل التين بالخل...

(١) يقدح: يشعل ويعمل.

(٢) تققع: تصدر صوت القعقة.

(٣) مساءتك: الإساءة إليك.

المجنون

٦

تتمة

وطالَ المجلسُ بنا وبالمجنونين، والكلامُ على أنحائه يندفعُ من وجهٍ إلى وجه، ويمرُّ في معنى إلى معنى؛ فأردتُ أن أبلغَ به إلى الغاية التي جمعتُ من أجلها بين هذين المجنونين، بعد ما أنطلقنا في القولِ وأنفتحَ القفلُ الموضوعُ على عقلِ كلِّ منهما.

وكانَ قد مرَّ في ألندي بائعُ رواياتٍ مترجمةٍ «بوليسيةٍ وغراميةٍ ولصوصيةٍ» يحملُ الرجلُ منها مَزَبَلَةً أخلاقٍ أوربيةٍ كاملةً لينفضَّها في نفوسِ الأحداثِ من فتياتنا وفتياتنا، فقلتُ (لنابغة القرن العشرين): أتقرأ الروايات؟ قال: لا، إلا مرةً واحدةً ثم لم أعاودُ، إذ جعلتني الروايةُ روايةً مثلها.

قلنا: هذا أعجبُ ما مرَّ بنا منذُ اليوم، فكيف صرَّت رواية؟

قال: أنتم لا تعرفون طبيعةَ التواضع، إذ ليسَ لكم جسُّهمُ المرفهُ، ولا طبعُهمُ المستخكم، ولا خصائصُهمُ الغيبية، ولا خواطرُهمُ المتعلقةُ بما فوقَ الطبيعة.

قلت: نعم أعرفُ ذلك؛ وما من (نابغة) إلا وهو بينَ عالمين على طرفٍ مما هنا وطرفٍ مما هناك، فهو خراجٌ ولأج^(١) بينَ العالمين؛ ولهُ نفسٌ مركبةٌ تركيبها على نواميسٍ معروفةٍ وأخرى مجهولة؛ فهي تأخذُ مِنَ الظاهرِ والباطنِ معاً، ويحصرُها المكانُ مرةً ويُفلُثها مرةً، وتكونُ أحياناً في زمانٍ الأرض، وأحياناً في زمنٍ الكواكبِ مِنَ القمرِ فصاعداً... ولكن...

فقطعَ عليَّ وقال: أضفُ إلى ذلك أن هذه العقولَ التي تحصرُ من يسموئهمُ

(١) ولأج: دخال.

العقلاء في الزمان والمكان، لا توجد أهلها إلا الهموم والأحزان، والمطامع السافلة، والآفعال الدنيئة، فإنهم يعيشون فوق التراب.

قلت: نعم، وإذا عاشوا فوق التراب فبأضطرار أن تكون معاني التراب فوقهم وتحتهم ومن حولهم وبين أيديهم، فليسوا يقطعون على هذه الأرض إلا عمراً ترائياً في كل معانيه ولكن...

قال: وزد على ذلك أنهم مقيدون بقييد المجانين، غير أن جبالهم وسلاسلهم عقلية غير منظورة؛ ويتغللهم تغليل المجانين يسمون أنفسهم عقلاء، وأعقلهم أثقلهم قيوداً، وهذا من الغرابة كما ترى.

قلت: نعم، أما العقلاء بحقيقة العقل، فهم الذين يضحكون على هؤلاء ويسخرون منهم، إذ كانوا في حال كحال المنطلي من المقيّد، وفي موضع كموضع المعافى من المبتلى ولكن...

قال: وفوق هذا وذاك، إنهم لا يملكون السعادة، إذ ليس لهم العقل الضاحك الساخر العابت الذي خص به النوابع وكان الأوحى فيه (نابغة القرن العشرين).

قلت: نعم، وإذا ملكوا السعادة لم يشعروا بها، أما (النوابع) فقد لا يملكونها، ولكن لا يفوتهم الشعور بها أبداً فيجثم الفرخ من أسبابه ومن غير أسبابه ما دام لهم العقل الضاحك الساخر العابت الذي دأبه أبداً أن ينسى ليضحك، ولا قانون له إلا إرادة صاحبه، على مشيئة صاحبه، لمنفعة صاحبه. ولكن...

قال: والذي هو أهم من كل ما سبق؛ أن أعظم خصائص هذا العقل الضاحك الساخر العابت أن يطرد عن صاحبه ما لا يحب ويحب أن يخسر شيئاً من نفسه؛ فهو لذلك يجعل حسابه مع الأشياء حساباً يهودياً لا بد فيه من ربح خمسين في المائة..

قلت: نعم، وهو دائماً كالطفل؛ وما أظرف بلاهة الطفل وما أجداها عليه! إذ يضع بلاهته دائماً في أرواح الأشياء وأسرارها فتخرج بلهاء مثله، وتنقلب له الدنيا كأنها أم تضاحك أبناً وتلاعبه ولكن...

قال: ولكن هذا مبلغ لا تبلغه الإنسانية إلا شذوذاً في أفرادها من جبابرة العقول (كتابغة القرن العشرين).

قلت: نعم (ولكن) كيف صار (نابغة القرن العشرين) رواية حين قرأ الرواية!
قال: هذه نكتة النبوغ؛ فلو أن مؤلفها كان نابغة مثلنا يتلقى في نفسه وحي
الآثير وإشارات الروح الأعظم؛ لَعَلِمَ مِنَ الْغَيْبِ أَنْ (نابغة القرن العشرين) سيقراً
روايته، فكان يتحرى^(١) معاني غير معانيه ويتوخى بهذه القصة وضعا آخر لا تكون
فيه حبيبة خائنة، ولا لص عارم، ولا قاتل سفاح، ولا سجن مظلم، ولا محكمة
تقول حيث وحيث...

قلت: وما عليك من حبيبة خائنة في الورق، ولص بين الحروف المطبعية
وقاتل لا يقتل إلا كلاماً، وسجن ومحكمة على الصحيفة لا على الأرض؟
قال: هذه نكتة النبوغ، فما استوعبت القصة حتى عمرتني أشخاصها، وأفحمت^(٢)
منها على هول هائل، فخائتي الخائنة لعنّها الله... ولولا خوف السجن والمحكمة لقتلتها
أشنع قتل، ومثلت بها أقبح تمثيل. ونح الخائنة كيف استمالها ذلك الدميم الطويل
العمالق المشبوح العظام المفتول العضل؟ ولكني لست عملاقاً ولا مبنياً بناء الحائط، ثم
كان مجنوناً بشهوته جنون الفيل الهائج، وكنت في شهواتي عاقلاً عقل الإنسان، ثم كان
غنياً غنى الجبال، وكنت فقيراً فقراً العلماء. والنساء؛ قبح الله النساء. إنهن زينة تطلب
زينة مثلها وإن المرأة لتمنح وجهها للقرد يقبله إذا كان الذهب يتساقط من قبلاته. أما من
كان مثلي، أمواله الشباب والجمال والعقل والنبوغ، فهو مفلس عندهن إفلاس القرد في
الغابة، فهو عندهن قرد لهذه المشابهة.

قلت: هذا ليس عجيباً فإن اللغويين يجرون على الشيء أسم ما يقاربه في
المعنى.

قال المجنون الآخر: «مما حفظناه» أن اللغويين يجرون على الشيء أسم ما
يقاربه في المعنى...

فتردد^(٣) وجه (النابغة) غضباً وقال: أبي يلعب هذا المجنون؟ إنه يزعم أن
اللغويين يسموني قزداً، فهاتوا القواميس كلها وأرجعوا إلى مادة (قرد) ومادة
(نابغة)... سؤا عليك أيها الصبي المعمر... ألا فدعوني أؤدبه أدب الصبيان فإن
اللطمة القوية على وجه الطفل المكابر في حقيقة تلمسه الحقيقة التي يكابر فيها إذ
تدخلها إلى عقله من أقرب طريق...

(٣) تردد: تلبّد.

(٢) أفحمت: أدخلت.

(١) يتحرى: يبحث.

قال ١. ش: أنت قلت، لا هو. على أنك لست قزداً أبداً إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيلة متماجنة، قد تضع البردعة على ظهر الأمير وتجعله حمارها، فيعجب الأمير أن يكون حمارها. ولست قزداً مع قرادٍ إلى جانب عتري وقلب.

قال: الآن علمتُ السبب، فإن الخائنة كانت متخيلة مؤلفة كتب وروايات، والمرأة التي تُولف الكتب، غير بعيد أن تُولف الرجل أيضاً، وتجعله قصة هو فيها قزداً. لا وهذا إن كانت جميلة كأمراة الرواية. أما إن كانت دميمة مجموعة من المتناقضات، أو عجوزاً مجموعة من السنين؛ فهذه وهذه كل أيامها كيوم الأحد عند النصاري... يوم للعطلة لا بيع فيه ولا شراء ولا مساومة. هذه وهذه كلتاها تجعل الرجل كالماء في سبيل التجمد... لا يشتعل، فضلاً عن أن يستعير، فضلاً عن أن يحترق.

ومؤلفة الكتب لا يكون وجهها إلا إحدى وثيقتين: فإما جميلة، فوجهها وثيقة بأن لها ذيوناً على الرجال؛ وإما غير جميلة، فوجهها (مخالصة) من كل الديون...

قلنا: هذا في الخائنة. فكيف سرقك اللص ولست غنياً؟

قال: هذه هي نكتة النبوغ؛ وفي النبوغ أشياء لا ينكشف تفسيرها، وليس في جهلها مضرة على أحد، وجهل لا يضر هو علم لا ينفع، لكنه علم. والبحث في بعض أعمال (النابهة) هو كالبحث عن سر الحياة فيه، إذ يعمل أعماله تلك بسر الحياة لا بسر العقل، أي بالعقل النابغ الخاص به وحده لا بالعقل الطبيعي المشترك بين الناس.

قلت: ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات، ولكنك مع ذلك تُولفها...

قال: إن ذلك ليكون، وإن لم أُولفها أنا تألفت هي لي. فإذا تقدّم الليل ونام الناس جميعاً انتهت أنا وحدي لرواية العالم فأرى ما شئت أن أرى. وفي ضوء النهار أجد الناس عقلاً ولكني في ظلمة الليل أبصرهم مجانين. فهذا الليل برهان الطبيعة على جنون الناس وضعف عقولهم إذ هو يثبت حاجة هذه العقول إلى ضرب من النسيان الأبله التام لولاه ما عقلت في نهارها ولا استقام لها أمر.

يضرع الناس في الليل ضرعة المجانين فيغمضون أعينهم ولا يرون شيئاً. أما أنا فأرى العالم في الليل مسرحاً هزلياً يصحح بالضحك من الإنسان الأحمق الذي

يقطع سَراةَ نهاره، وهو معتقد أنه قابض على الوجود بالآعين والآذان والآناف . . .
أئن رأيت الأسد بعينك أيها الأحمق وسمعت في أذنيك زئيره، أذعيت الدعوى
العريضة، وزعمت أنك ملكته وقبضت عليه، ولا تدري في هذا أنك كالمعتوه إذا
قبض على الظل بيده، وصاح هاتوا الحبل لأقيدته لا يُقِلَّتْ؟ . . .

قلت: فإذا كان العالم كله روايتك فأخرج لنا فصلاً من الرواية.

قال: أيما أحب إليكم، أن أكتب أو أمثل؟

قلنا: بل التمثيل أحب إلينا. فنظر إلى المجنون الآخر وقال: إنَّ المجنون في
طبيعته ينبوع من الأشخاص يفيض حالاً بعد حال، كينبوع الماء يسح^(١) الدفعة بعد
الدفعة، فهنا المسرح، والرواية الآن رواية الطبيب والمجنون . . .

أنت يا س. ع. عمُّ هذا المجنون. فإذا قال لك يا عم. قل له: أنا لست
عمك ولكني أخو أبيك . . . لينظر أيتنبه على الفرق بين الصيغتين أم لا؛ فإنه فرق
عقلي دقيق تمتحن به العقول . . .

تعال أيها المريض فأني أرجو أن يكون شفاؤك على يدي، وفي يدي هذه لمسة
من لمسات المسيح، لأن (نابغة القرن العشرين) هو الآن طبيب القرن العشرين . . .

اتقوا أن تغضبوه أو تخيفوه، وأقيموا له كل ما يحتاج إليه، وتحروا^(٢) مسرته
دائماً، فإن إدخال بغض السرور إلى نفس المجنون هو إدخال بغض العقل إلى رأسه .

متى أنكرت يا س. ع عقل أبني أخيك وما كان السبب؟ وكيف غلب على
عقله؟ وهل أ. ش. هو خاله أو أخو أمه؟

لطف الله لك أيها المسكين. قل لي: أتذكر أمس؟ أتذكر غداً؟ . . . إنَّ
الأمس والغدا ساقطان جميعاً من حساب المجانين؛ ومن الرحمة بهم أن الدنيا تبدأ
لهم كل يوم فقد استراحوا من ثلثي هموم الزمن في العقلاء. وهم لا يصلحون أن
ينفعوا الناس كالعقلاء، غير أنهم صالحون أكثر من العقلاء للانتفاع بأنفسهم في
الضحك والمرح والطرب، وهذا حسبهم من النعمة عليهم.

قل لي أيها المجنون: أتحس أن الدنيا تصنع لك نفسك، أم نفسك هي تصنع

(٢) تحروا: فتشوا واكتشفوا.

(١) يسح: يسيل وينهمر.

لك الدنيا؟ إنَّ هذه مسألة يحلُّها كلُّ مجنونٍ على طريقته الخاصَّة به، فما هي طريقَتُك في حلِّها؟

مالك لا تُجيبُ أيُّها الأبله؟ (هذا من جهةٍ ومن جهةٍ) أعطوه قرشاً لينطلقَ لِسائِه، وآثوا الطَّيبَ أجره وافيّاً وهو لا يَقِلُّ عن قرشين . . .

ثمَّ مالَ (النابغة) على مجنونِ الممتنِّ وسارَّه بشيء . فقلنا ما أمرُ المالِ بسِرِّ؛ هذا قرشٌ للمريضِ وهذان قرشانِ للطَّيب .

فقالَ المَجنونُ: «مِمَّا حفظناه» كفى بِالسَّلامةِ داءً .

قالَ «الطَّيبُ»: هذا مريضٌ بنوعٍ مِنَ الجنونِ أسمُه «مِمَّا حفظناه» وهو جنونُ النسيانِ الَّذي يضعُ في مكانِ العقلِ كلمةً ثابتةً لا يتذكَّرُ المَجنونُ إلَّا بها؛ ومن أعراضِه جنونُ الشُّكِّ فكلُّ ما حولَ المريضِ مشكوكٌ فيه، وقد يترامى إلى جنونِ اللَّمسِ، فلو لَمَسْتَهُ بِإصبعِكَ توهُمَها عقرباً فخافَ مِنَ الإصبعِ تلمسُه خوفاً مِنَ العقربِ تلدغه، ولكنَّ بقيتَ أشياء لا بُدَّ مِنَ التَّدقيقِ في فحصِها، فليسَ هذا من مجانيِنِ العبقريَّةِ الَّتِي أنحرفتْ عن طريقِها أو شدَّتْ في قوتِها؛ ولا هو مِمَّنْ يَتَّجَانُ^(١) ويتحامقُ التماساً للرزقِ وَالْعَيْشِ كما قالَ بعضهم: حماقةٌ تعولني خيرٌ من عقلِ أعولِه .

فقالَ المَجنونُ: «مِمَّا حفظناه» حماقةٌ تعولني . .

فضحكَ (النابغة) وقالَ: هو كما بيَّنتُ لكم مصابَّ بجنونِ (مِمَّا حفظناه) وهو أقلُّ الجنونِ وأهونُه، وعِلاجُه البَسْطُ والسُّرورُ والقُرْشُ؛ والضُّربُ أحياناً . فإذا تابَرَ عليه ألداءٌ تحوَّلَ إلى جنونٍ (مِمَّا ضَرَبْنَاهُ) . . فيعتدي المصابُّ على كلِّ مَنْ يراه أو يوقَعُ بِهِ ضرباً، وعِلاجُه حينئذٍ القميصُ المرقومُ^(٢)؛ فإذا فدَحَتْ^(٣) العِلَّةُ أنقلبَ المرضُ إلى جنونٍ (مِمَّا قتلناه) . وعِلاجُه يومئذٍ السَّلاسِلُ والأغلالُ .

والحقُّ أقولُ لكم إنَّ آخرَ ما أنتَهتْ إليه فلسفةُ الطَّبِّ في القرنِ العَشرينِ أنَّ النَّاسَ جميعاً مجانيِنُ ولكنَّ بعضهم أوفرُ قِسْطاً^(٤) من بعض . كأنَّ سَلْبَ العقلِ هو أيضاً حظوظٌ كحظوظِ موهبةِ العقلِ . وأهلُ المَريخِ من أجلِ ذلك يسمونَ الأَرْضَ بيمارستانَ الفَلَكِ . ولكنَّ بقيتَ أشياء لا بُدَّ مِنَ التَّدقيقِ في فحصِها؛ وعندي في الدارِ عاطوسٌ

(١) يتَّجَانُ: يصطنع الجنون .

(٢) القميص المرقوم هو قميص السجن يلبسه المسجون .

(٣) فدَحَتْ: عظمت المصيبة .

(٤) قِسْطاً: قدراً، حظاً .

إذا أشمنته هذا المجنون عطس به عطسة قوية فخرج جنونه من أنفه . . . قل لي أيها المسكين: أتخاف إذا سرت وحدك في ميدان واسع كأن الميدان سيلتف عليك؟ أتضطرب إذا مشيت في مضيقي كأن المكان سينطبق عليك؟ وإذا كنت في عربة القطار فهل تخيل إليك أن البيمارستان قد جرّه القطار وأنطلق به هارباً؟ وهل شعرت مرة أنه أوحى إليك أن تتجر؟

أرني هذا القرش الذي في يدك . فمد إليه المجنون يده بالقرش .
قال (النابعة): أنظر الآن هل تحدثك نفسك أن تعصبي هذا القرش أو تسرقه مني؟ قال: نعم .

قال (النابعة): إذن يجب أن أحرره في جيبى . . وأسرع فأخفاه في جيبه . . .

فصاح الآخر وشغب^(١)، وقال سلّمني ونهّني . قلنا لا ينبغي أن يتصل بينكما شرٌّ في تمثيل الرواية فهذا قرش آخر، ولكن أفي الفلسفة عند (النابعة) إباحة السرقة والغضب؟

قال: فالرواية الآن هي رواية الفيلسوف العظيم أفلاطون وتلميذو أرسطو .
قل لي ويحك يا أرسطو . أعلمت أن في المجانين أغنياء يسرقون الشيء القليل لا قيمة له وهم أغنياء وليس بهم حاجة إليه . فما علة ذلك عندك وما وجهه في مقولة الجنون؟

أعجزت عن الجواب؟ إذن فأعلم يا أرسطو أن المصاب بهذا الضرب من الجنون إذا اشترى هذا الشيء بدرهم كانت قيمته من الدرهم وحده، وهو غني لا قيمة للدرهم في ماله فلا يحفل بالشراء بيد أنه إذا سرقه كانت قيمته عنده من عقله وحيلته فيحيته بلذة لا تشتريها كل أمواله ولا كل أموال الدنيا . فهذا جنون باللذة لا بالسرقة، وهو بذلك ضرب من العشق يجعل الشيء إذا لم يسرق كأنه المرأة المعشوقة الممتعة على عاشقها .

والجوع إذا سرقوا ليأكلوا ويمسكوا الرمق^(٢) على أنفسهم، لا يقال في لغة الفلسفة إنهم سرقوا بل أخذوا . . فبأضطرار جاعوا وبأضطرار مثله أكلوا، والسارق هنا هو الغني الذي منعهم الإحسان والمعونة . .

(١) شخب: أحدث ضجة .

(٢) الرمق: بقية الحياة .

فألدنيا معكوسة منقلبة أوضاعها يا أرسطو، ولو استقامت هذه الأوضاع لوجدت السعادة في الأرض لأهل الأرض جميعاً. وكيف لك بالسعادة والناس مخلوقون بعبوبهم؟ ويا ليتهم مخلوقون بعبوبهم فقط، ولكن أطامة الكبرى أن عبوبهم تعمل دائماً على أن ترى في الآخرين عبوباً مثلها.

كل جمار فهو يريد أن يملأ جوفه تيناً وفولاً وشعيراً، غير أنني لم أر جماراً قط يريد أن يملأ لنفسه الإصطبل؛ فإذا وجد جمار هذه همته وهذا عمله فأسمه إنسان لا جمار.

يا أرسطو إن معضلة المعضلات أن يحاول إنسان حل مشكلة داخلية محضة قائمة في نفس جمار أو ثابتة في ذهنه الجماري... ومثل هذا أن يحاول جمار حل مشكلة نفسية في ذهن إنسان أو في قلبه، فلا حل لمشاكل العالم أبداً ما دام كل إنسان مع غيره كجمار مع إنسان...

والمعضلات^(١) النفسية من عمل الشياطين، فكان ينبغي أن تجيء الملائكة لتُحارب الشياطين بالبرق والرعد دفاعاً عن الإنسانية؛ ولكن الله - تعالى - منعها، وأرسل للإنسان ملائكة أخرى إن شاء هذا الإنسان عملت، وإن شاء عجزت؛ وهي فضائل الأديان المنزلة. فإذا منحها الإنسان إرادته وقوته، فعملت عملها كان الإنسان هو المملك بل فوق المملك، وإذا أضعفها ومحقها كان الإنسان هو الشيطان وأسفل من الشيطان.

يا أرسطو: «هذا العالم عندي كتلة من العدم اتفقت على الظهور وستختفي. والعالم عندي ضعف ركب وقوة ركب. والعالم عندي لا شيء. والعالم بين بين. والعالم قسمان: منهم أفلاخ الزراعي وذلك أفضل فلسفة طبيعية. والعالم في حاجة إلى الموت والموت في حاجة إليه. والأدب هو الحياة ولا حياة بلا أدب. والأدب ضربان: أدب نفسي وأدب مكتسب، وقد يكون طبعياً كما هو عند نابغة القرن العشرين. ومن هو نابغة القرن العشرين؟ هو شخص مات بلا موت، ويحيا بلا حياة».

أتريد يا أرسطو أن تعرف سر تركيب العالم؟ الأمر يسير غير عسير، فإن سر تركيبه كسر تركيب القرش الذي في يدك، فدعني أظهر لك على هذه الحقيقة ومثلك يدك بالقرش لأبين لك سر التركيب فيه...

(١) المعضلات: المشاكل الصعبة الحل.

ولكنَّ المجنونَ الآخرَ أسرعَ فغَيَّبَ القِرْشَ في جيبِهِ . فقالَ (النابغة) : هذا سياسيٌّ داهيةٌ خبيث . والروايةُ الآنَ روايةٌ سياسيَّةُ القرنِ العشرين .

ليسَ في حقيقةِ السياسةِ إلاَّ الرُّذُلُ من أفعالِ السياسيِّين . والألفاظُ السياسيَّةُ التي تحملُ أكثرَ من معنى هي التي لا تحملُ معنى . فليحذرِ الشرقُ من كلِّ لفظٍ سياسيٍّ يحتملُ معنيين ، أو معنىً ونصفَ معنى ، أو معنىً وشبهةً معنى ؛ فإنَّ قالوا لنا (أحمر) قلنا لهم اكتبوه بهذا اللفظ ؛ فإذا كتبوه قلنا لهم : أرسموا إلى جانبِهِ معناه باللونِ الأحمرِ لِتشهدَ الطبيعةُ نفسها على أنَّ معناه أحمرٌ لا غير . . . وعلى هذه الطريقةِ يجبُ أنْ تُكتبَ المعاهداتُ السياسيَّةُ بين أوروبا والشرق . . .

إنَّهم يكتبون لنا جريدةً بأسماءِ الأطعمةِ ثمَّ يقولون : أكلْتُم وشبعْتُم . . . ولقد رأيتُ (مظاهرات) كثيرةً ولا كالمظاهرةِ التي أتمَّناها ؛ فما أتمنى إلاَّ أنْ يخرجَ كلُّ ألمجانيين في مظاهرة . . .

وهذا الأبلهُ الَّذي أماننا ليسَ وطنياً ولا فيه ذرةٌ منَ الوطنيَّةِ ؛ فإنَّ كانَ وطنياً أو زعمَ أنَّه وطنيٌّ ، فليُخرجِ القِرْشَ الَّذي في جيبِهِ . . . ليكونَ فالاً حسناً ليُخرجَ جيشَ الاحتلالِ من مصر . . .

* * *

ولكنَّ المجنونَ لم يخرجِ القِرْشَ وتركَ جيشَ الاحتلالِ في مكانِهِ . فقالَ (النابغة) : الروايةُ الآنَ روايةُ الشرقيِّ والِّلص . وبحقٍّ منَ القانونِ يكونُ للشرقيِّ أنْ يُفتشَ هذا الِّلصَ ليُخرجَ القِرْشَ من جيبِهِ . . .

* * *

غيرَ أنَّ المجنونَ أمتنعَ . فقالَ (النابغة) : كلُّ ذلك لا يُجدي^(١) معَ هذا الخبيث ، فالروايةُ الآنَ روايةُ هارونِ الرُّشيدِ معَ البرامكة . ويجبُ أنْ يَنكَبَ الرُّشيدُ هؤلاءِ البرامكةَ لِيستَظفيَ القِرْشَ . .

* * *

بيدَ أنَّنا منعناه أنْ يَنكَبَ «البرامكة» فقالَ : الروايةُ الآنَ روايةُ العاشقِ والمعشوقة ، ونظرَ طويلاً في ألمجنونِ وصعدَ فيه عينُهُ وصوبَ فلم يَرِ إلاَّ ما يُذكرُ

(١) لا يجدي : لا ينفع .

بأنه رجل، فتهدئ^(١) إلى رأي عجيب. فوقع على قدميه وتوهمه امرأة في
حذاءها... وجعل يُناجي الحذاء بهذه المناجاة:

إن سخافات الحب هي أقوى الدليل عند أهله على أن الحب غير سخي؛
فكل فكرة في الحب مهما كانت سقيمة، عليها جلال الحب؛ وللحذاء في قدميك
يا حبيبتي جمال الصندوق المملوء ذهباً في نظر البخيل، وكل شيء منك أنت فيه
سر جمالك أنت. والحذاء في قدميك ليس حذاء، ولكنه بعض حدود جسمك
الجميل، فلا أكون كل العاشق حتى أحيط بكل حدودك إلى الحذاء..

إن جسمك يا حبيبتي كالماء الجاري العذب؛ في كل موضع منه روح الماء
كله؛ وحيثما وقعت القبلية من جسمك كان فيها روح شفتيك الورديتين، هذه قبلية
على قدميك يا حبيبتي؛ وهذه قبلية على ساقك؛ وهذه قبلية على ثوبك وهذه قبلية
على جيبك..

وكادت يد (النابعة) تخرج بالقِرْش؛ فعضه المجنون في كتفه عضّة وحشيّة،
فجأه الخوف منها فطار صوابه؛ فصرخ صرخة عظيمة دوى لها المكان وترددت
كصرصرّة البازي^(٢) في الجو، ثم اعتراه الطيف، وأطبق عليه الجنون فأختلط
وتخبط..

(والرواية الآن)؟... رواية عربية الإسعاف...

(١) تهدئ: اهتدي وتوصل.

(٢) صرصرّة البازي: صوته.

فهرس المحتويات

٥	الإشراقُ الإلهي وفلسفة الإسلام
١٢	حقيقةُ المسلم
١٧	وحيُ الهجرة
٢٣	فلسفةُ قصة
٢٩	فوقَ الآدمية الإسراء والمعراج
٣٦	الإنسانية العليا
٤٤	سموُ الفقرِ في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم
٥٠	سموُ الفقرِ في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم
٥٧	درسٌ من النبوة
٦٣	شهرٌ للثورة فلسفة الصيام
٦٩	ثباتُ الأخلاق
٧٥	قُلْتُ لِنَفْسِي وَقَالَتْ لِي
٨٢	الانتحار ١
٩١	الانتحار ٢
٩٩	الانتحار ٣
١٠٧	الانتحار ٤
١١٤	الانتحار ٥
١٢٣	الانتحار ٦
١٢٣	تتمة
١٣٢	وحيُ القبور
١٣٦	عروسٌ تُزَفُّ إلى قبرها
١٤١	موتُ أم
١٤٦	قصةُ أب

١٥٢	السَّمكة
١٦١	الزاهدان
١٦٧	إبليسُ يُعلِّم
١٧٤	الدنيا والدرهم
١٨٠	دُعابةُ إبليس
١٨٧	الشيطان
١٩٧	تاريخُ يتكلَّم
٢٠٠	المجلدُ الأول
٢٠١	المجلدُ الثاني
٢٠٢	المجلدُ الثالث
٢٠٢	المجلدُ الرابع
٢٠٣	المجلدُ الخامس
٢٠٤	المجلدُ السادس
٢٠٤	المجلدُ السابع
٢٠٥	المجلدُ الثامن
٢٠٥	المجلدُ التاسع
٢٠٥	المجلدُ العاشر
٢٠٧	كُفْرُ الذُّبابة
٢١٥	يا شبابَ العرب!
٢١٩	لَوْ . . . !
٢٢٥	في محنةِ فلسطين
٢٢٥	أيُّها المسلمون!
٢٢٩	قصةُ الأيدي المتوضئة
٢٣٥	نجوى التمثال
٢٣٨	فاتحُ ألجُوِّ المصري
٢٤٢	أجنحةُ المدافع المصرية
٢٤٦	أحاديثُ الباشا:
٢٤٦	الظماطُ السياسي

٢٥٠	البك والباشا
٢٥٤	ساكنو ألياب
٢٥٨	الأخلاق المحاربة
٢٦٢	خضع يخضع
٢٦٦	فلتتعصب !
٢٧١	وزنُ الماضي
٢٧٥	المعجم السياسي
٢٧٩	اللسانُ المرفَّع
٢٨٣	سرُّ القُبعة
٢٨٧	سعد زغلول
٢٩٠	حماسة الشعب
٢٩٤	الجمهور
٢٩٩	المجنون ١
٣٠٦	المجنون ٢
٣١٣	المجنون ٣
٣٢١	المجنون ٤
٣٣٠	المجنون ٥
٣٣٨	المجنون ٦
٣٣٨	تتمة